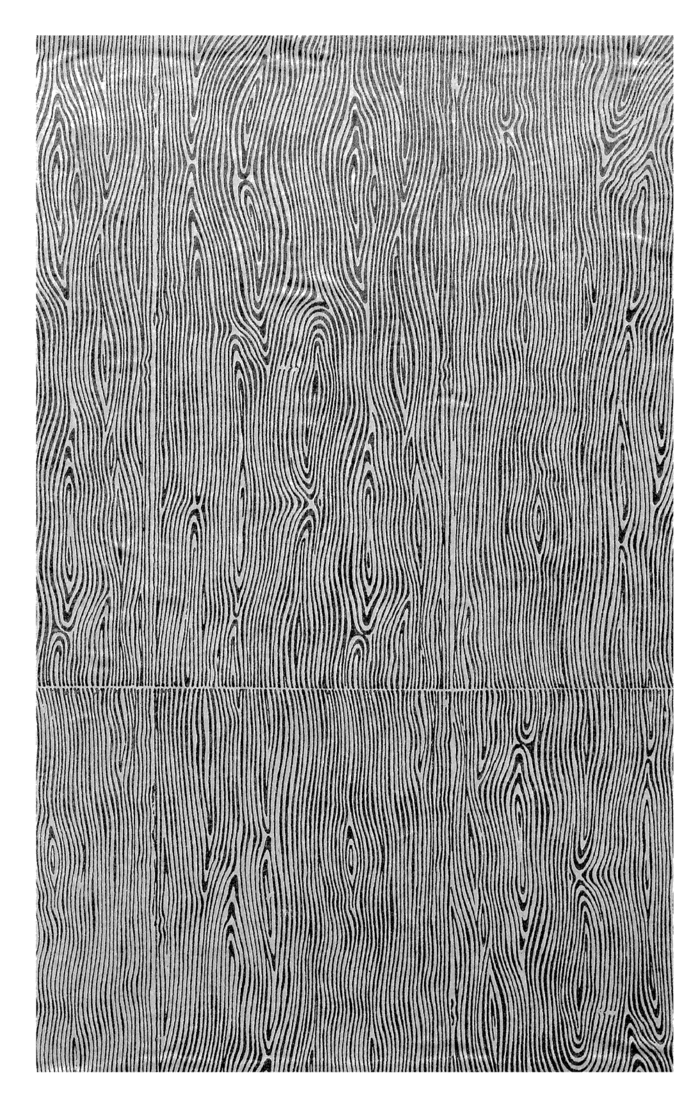
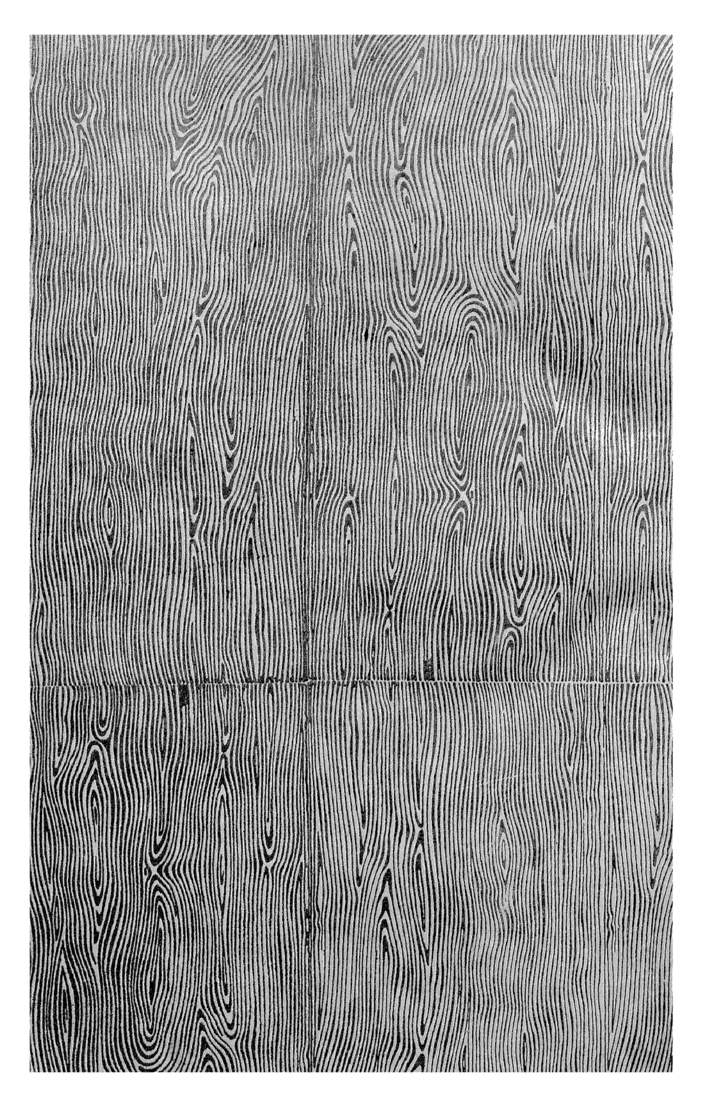








إحياء علوم الدين

تصنيف

الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي

المتوفى في سنة ٥٠٥ هـ

وبذيله كتاب

المغني عن حمل الأسفار في الأسفار

في تخريج ما في الإحياء من الأخبار

للعلامة زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي

المتوفى في سنة ٨٠٦ هـ

وتماما للنفع ألحقنا بالكتاب في آخره ثلاثة كـ

الأول : تعريف الأحياء بفضائل الإحياء للعلامة عبد القادر بن شيخ بن عبد الله ابن شيخ بن عبد الله العيدروس باعلوي .

الثاني : الإملاء عن إشكالات الإحياء للإمام الغزالي ، رد به اعتراضات أوردها بعض المعاصرين له على بعض مواضع من الإحياء .

الثالث : عوارف المعارف ، للعارف بالله تعالى الإمام السهروردي .

الجزء الأول

يطلب من
المكتبة التجارية الكبرى
بمصر ص . ب ٥٧٨

ترجمة الامام الغزالى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الهادى إلى الصواب . وأشهد أن لا إله إلا الله الكريم الوهاب ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله من آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب . اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن أحيا سنته إلى يوم الدين .

أما بعد : فهذه نبذة من تاريخ حياة الإمام الغزالى رحمه الله تعالى نوردها ليعلم القارىء شيئاً عنه وبالله التوفيق.

هو الإمام الجليل ، محمد بن محمد بن أحمد أبو حامد الطوسى الغزالى ، حجة الإسلام ، ومحجة الدين التى يتوصل بها إلى دار السلام ، جامع أشتات العلوم ، والمبرز فى المنقول منها والمفهوم ، جرت الأئمة قبله لشأو ما قنع منه بالغاية ، ولا وقف عند مطاب بل لم يبرح فى دأب لا يقضى له بنهاية ، حتى أخمل من الأقران كل خصم بالغ مبالغ السها ، وأخمد من نيران البدع كل مالا تستطيع أيدى المجالدين مسها . كان رضى الله عنه ضرغاما إلا أن الأسود تتضاءل لديه وتتوارى ، وبدراً تماما إلا أن هداه يشرق نهـــارا ، وبشرا من الخلق إلا أنه الطود العظيم ، وبعض الناس ولكن مثل ما بعض الجماد الدر النظيم . جاء والناس إلى رد فرية الفلاســـفة أحوج من الظلماء لمصابيح السماء ، وأفقر من الجدباء إلى قطرات الماء ، فلم يزل يناضل عن الدين الحنيفى بجلاد مقاله ، ويحمى حوزة الدين ولا يلطخ بدم المعتدين حد نصاله . حتى أصبح الدين وثيق العرى . وانكشفت غياهب الشبهات وما كانت إلا حديثاً مفترى.

هذا مع ورع طوى عليه ضميره ، وخلوة لم يتخذ فيها غير الطاعة سميره ، ترك الدنيا وراء ظهره ، وأقبل على الآخرة مخلصاً لله فى سره وجهره .

مولده

ولد بطوس سنة خمسين وأربعمائة ، وكان والده يغزل الصوف ويبيعه فى دكان بطوس ، ولما حضرته الوفاة وصى به وبأخيه أحمد إلى صديق له متصوف من أهل الخير وقال له : إن لى لتأسفا عظيما على تعلم الخط وأشتهى استدراك ما فاتنى فى ولدى هذين فعلمهما ولا عليك أن ينفد فى ذلك جميع ما أخلفه لهما . فلما مات أقبل الصوفى على تعليمهما إلى أن فنى ذلك النزر اليسير الذى خلفه لهما أبوهما وتعذر على الصوفى القيام بقوتهما فقال لهما :

اعلما أنى قد أنفقت عليكما ما كان لكما وأنا رجل من أهل الفقر والتجريد . ليس لى مال فأواسيكما به . وأصلح ما أرى لكما أن تلجأ إلى مدرسة كأنكما من طلبة العلم فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما ففعلا ذلك. وكان هو السبب فى سعادتهما وعلو درجتهما . وكان الغزالى يحكى هذا ويقول : طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله .

صفة والده

ويحكى أن أباه كان فقيراً صالحاً لا يأكل إلا من كسب يده فى عمل غزل الصوف ويطوف على المتفقهة ويجالسهم ويتوفر على خدمتهم ويجد فى الإحسان إليهم والنفقة بما يمكنه عليهم وأنه كان إذا سمع كلامهم بكى وتضرع وسأل الله أن يرزقه ولداً ويجعله فقيها ويحضر مجالس الوعظ فإذا طاب وقته بكى وسأل الله أن يرزقه ولداً واعظا . فاستجاب الله دعوتيه .

أما أبو حامد فكان أفقر أقرانه ، وإمام أهل زمانه ، وفارس ميدانه ، كلمة شهد بها الموافق والمخالف ، وأقر بحقيقتها المعادى والمحالف .

وأما أحمد فكان واعظاً تنفلق الصم عند استماع تحذيره ، وترعد فرائص الحاضرين فى مجالس تذكيره .

تلقيه العلوم

قرأ الغزالى رضى عنه فى صباه طرفا من الفقه ببلده على أحمد بن محمد الراذكانى ثم سافر إلى جرجان إلى الإمام أبى نصر الإسماعيلى وعلق عنه التعليقة ثم رجع إلى طوس . قال الإمام أسعد الميهنى : فسمعته يقول : قطعت علينا الطريق وأخذ العيارون جميع ما معى ومضوا . فتبعتهم . فالتفت إلى مقدمهم وقال : ارجع ويحك وإلا هلكت . فقلت له : أسألك بالذى ترجو السلامة منه أن ترد على تعليقتى فقط فما هى شىء تنتفعون به . فقال لى : وما هى تعليقتك ؟ فقلت : كتب فى تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها . فضحك وقال : كيف تدعى أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ثم أمر بعض أصحابه فسلم إلى المخلاة .

قال الغزالى رحمه الله : فقلت هـذا مستنطق أنطقه الله ليرشدنى به فى أمرى . فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ماعلقته . وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم أتجرد من علمى . وقد روى هذه الحكاية عن الغزالى أيضاً الوزير نظام الملك كما هو مذكور فى ترجمة نظام الملك من ذيل ابن السمعانى .

قدومه نيسابور وملازمته لإمام الحرمين

ثم إن الغزالى قدم نيسابور ولازم إمام الحرمين وجد واجتهدحتى برع فى المذهب والخلاف والأصلين والجدل والمنطق ، وقرأ الحكمة والفلسفة وأحكم كل ذلك ، وفهم كلام أرباب هذه العلوم ، وتصدى للرد عليهم وإبطال دعاويهم . وصنف فى كل فن من هذه العلوم كتبا أحسن تأليفها وأجاد وضعها وترصيفها . وكان رضى الله عنه شديد الذكاء عجيب الفطرة مفرط الإدراك ، بعيد الغور ، غواصاً على المعانى الدقيقة ، جبل علم مناظراً محجاجا وكان إمام الحرمين يصف تلامذته فيقول : الغزالى بحر مغرق ، والكيا : أسد مخرق ، والخوافى: نار تحرق .

زيارته للوزير نظام الملك

ثم لما مات إمام الحرمين خرج الغزالى إلى العسكر قاصدا للوزير نظام الملك ، وناظر الأئمة والعلماء فى مجلسه ، وقهر الخصوم ، وظهر كلامه على الجميع ، واعترفوا بفضله ، وتلقاه الصاحب بالتعظيم والتبجيل ، وولاه تدريس مدرسته ببغداد . وأمره بالتوجه إليها ، فقدم بغداد فى سنة أربع وثمانين وأربعمائة ودرس بالنظامية ، وأعجب الخلق حسن كلامه وكمال فضله وفصاحة لسانه ونكته الدقيقة وإشاراته اللطيفة ، وأحبوه وأحلوه محل العين بل أعلى وقالوا أهلا بمن أصبح لأجل المناصب أهلا .

إقامته على التدريس

وأقام على التدريس وتعليم العلم مدة عظيم الجاه زائد الحشمة عالى الرتبة مشهور الإسم ، تضرب به الأمثال ، وتشد إليه الرحال ، إلى أن شرفت نفسه عن رذائل الدنيا فرفض مافيها من التقدم والجاه . وترك كل ذلك وراء ظهره وقصد بيت الله الحرام ، فحج وتوجه إلى الشام فى ذى القعدة سنة ثمان وثمانين ، واستناب أخاه فى التدريس وجاور بيت المقدس ، ثم عاد إلى دمشق واعتكف فى زاويته بالجامع الأموى المعروفة اليوم بالغزالية نسبة إليه .

زهده وورعه

ولبس الثياب الخشنة ، وقلل طعامه وشرابه ، وأخذ فى التصنيف الإحياء ، وصار يطوف المشاهد ، ويزور الترب والمساجد ، ويأوى إلى القفار ، ويروض نفسه ويجاهدها جهاد الأبرار ، ويكلفها مشاق العبادات ، ويبلوها بأنواع القرب والطاعات ، إلى أن صار قطب الوجود ، والبركة العامة لكل موجود ،والطريق الموصل إلى رضا الرحمن.

تكلمه على لسان أهل الحقيقة

ثم رجع إلى بغداد وعقد بها مجالس الوعظ ، وتكلم على لسان أهل الحقيقة ، وحدث بكتاب الإحياء . قال ابن النجار : ولم يكن له أستاذ ولا طلب شيئا من الحديث ، لم أر له إلا حديثا واحداً سيأتى ذكره فى هذا الكتاب — يعنى تاريخه — قلت : ولم أره ذكر هذا الحديث بعد . وقد أخبرنا أبو الحافظ بحديث من حديثه أوردناه فى الطبقات الكبرى .

ما شهد له به العلماء العاملون

قال الإمام محمد بن يحي : الغزالى هو الشافعى الثانى . وقال أسعد المهنى : لا يصل إلى معرفة علم الغزالى وفضله إلا من بلغ أو كاد يبلغ الكمال فى عقله وقال أبو عبد الله محمد بن يحي بن عبد المنعم العبدرى: رأيت بالإسكندرية فيما يرى النائم كأن الشمس طلعت من مغربها ، فعبر ذلك بعض المعبرين ببدعة تحدث فيهم . فوصلت بعد أيام والمركب بإحراق كتب الغزالى بالمرية.

توزيع أعماله على الأوقات

ثم إن الغزالى عاد إلى خراسان ودرس بالمدرسة النظامية بنيسابور مدة يسيرة . ثم رجع إلى طوس واتخذ إلى

جانب داره مدرسة للفقهاء وخانقاه للصوفية ؛ ووزع أوقاته على وظائف من ختم القرآن ؛ ومجالسة أرباب القلوب والتدريس لطلبة العلم ؛ وإدامة الصلاة والصيام وسائر العبادات إلى أن انتقل إلى رحمة الله ورضوانه طيب الثناء ؛ أعلى منزلة من نجوم السماء ؛ وأهدى للأمة من البدر فى الظلماء لا يبغضه إلا حاسد أو زنديق .

ماحصل لمبغضيه من البلاء

ولقد كان فى ثغر الإسكندرية من مدة قريبة أدركها أشياخنا شخص يبغض الغزالى ويغتابه ؛ فرأى النبى ﷺ فى المنام ؛ وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما إلى جانبه ؛ وكأن الغزالى واقف بين يديه وهو يقول : يارسول الله هذا — يعنى الرائى — يتكلم فى ويؤذينى قال : فقال النبى ﷺ : هاتوا السياط . وأمر به فضرب بين يديه لأجل الغزالى وقام هذا الرجل من النوم وأثر السياط على ظهره .

مصنفاته رضى الله عنه

ومن تصانيف الغزالى : البسيط ، والوسيط ، والوجيز ، والخلاصة ، والمستصفى ، والمنخول ، وتحصين الأدلة ، وشفاء العليل ، والأسماء الحسنى ، والرد على الباطنية ، ومنهاج العابدين وإحياء علوم الدين ، وغير ذلك من التصانيف .

وفاته رحمه الله تعالى

توفى بطوس يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة ، ولو أردنا استيعاب ترجمته لطال الشرح وفيما أوردناه مقنع وبلاغ .

ترجمة الامام العراقي

وإليك ترجمة الإمام العراقي مخرج أحاديث الإحياء :

قال الإمام الحافظ السيوطي في كتابه حسن المحاضرة في باب ذكر من كان بمصر من حفاظ الحديث ونقاده :

العراقي هو الإمام الكبير الحافظ زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن حافظ العصر ، ولد بمنشأة المهراني بين مصر والقاهرة في جمادى الأولى سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، وعني بالفن وتقدم فيه بحيث كان شيوخ عصره يبالغون في الثناء عليه بالمعرفة. كالسبكي والعلائي وابن كثير وغيرهم، ونقل عنه الإسنوي في المهمات ووصفه بحافظ العصر . وكذلك وصفه في الترجمة ابن سيد الناس .

وله مؤلفات في الفن بديعة كالألفية التي اشتهرت في الآفاق وشرحها ، ونظم الاقتراح ، وتخريج أحاديث الإحياء — وهو الذي بين يدي القارىء — وتكملة شرح الترمذي لابن سيد الناس .

وشرع في إملاء الحديث من سنة ست وتسعين فأحيا الله تعالى به سنة الإملاء بعد أن كانت داثرة فأملى أكثر من أربعمائة مجلس . وكان صالحاً متواضعا ضيق المعيشة . مات في ثامن شعبان سنة ست وثمانمائة . ورثاه تلميذه الحافظ ابن حجر العسقلاني بقصيدة غراء فانظرها هناك .

استدراك

حدث فى أرقام صفحات هذا الجزء أن صفحة ٢٥٦ يتبعها صفحة ٢٦٥ والخطأ فى رقم الصفحات فقط وإلا فالكلام متصل فليتنبه القارئ لذلك وبالله التوفيق ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله أولا ، حمداً كثيراً متوالياً ، وإن كان يتضاءل دون حق جلاله حمد الحامدين .
وأصلي وأسلم على رسله ثانياً صلاة تستغرق مع سيد البشر سائر المرسلين .
وأستخيره تعالى ثالثاً فيما انبعث له عزمي من تحرير كتاب في إحياء علوم الدين .
وأنتدب لقطع تعجبك رابعاً أيها العاذل المتغالي في العذل من بين زمرة الجاحدين ، المسرف في التقريع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أحيا علوم الدين فأينعت بعد اضمحلالها ، وأعيا فهوم الملحدين عن دركها فرجعت بكلالها ، أحمده وأستكين له من مظالم أنقضت الظهور بأثقالها ، وأعبده وأستعين به لعصام الأمور وعضالها ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة وافية بحصول الدرجات وظلالها ، واقية من حلول الدركات وأهوالها ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أطلع به فجر الإيمان من ظلمة القلوب وضلالها ،وأسمع به وقر الآذان وجلا به رين القلوب بصقالها ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم صلاة لا قاطع لاتصالها .

وبعد . فلما وفق الله تعالى لإكمال الكلام على أحاديث « إحياء علوم الدين » في سنة إحدى وخمسين تعذر الوقوف على بعض أحاديثه فأخرت تبييضه إلى سنة ستين فظفرت بكثير مما عزب عني ثم شرعت في تبييضه في مصنف متوسط حجمه وأنا مع ذلك متباطىء في إكماله غير متعرض لتركه وإهماله إلى أن ظفرت بأكثر ما كنت لم أقف عليه وتكرر السؤال من جماعة في إكماله فأجبت وبادرت إليه ولكني اختصرته في غاية الاختصار ليسهل تحصيله وحمله في الأسفار فاقتصرت فيه على ذكر طرف الحديث وصحابيه ومخرجه وبيان صحته أو حسنه أو ضعف مخرجه فإن ذلك هو المقصود الأعظم عند أبناء الآخرة بل وعند كثير من المحدثين عند المذاكرة والمناظرة وأبين ما ليس له أصل في كتب الأصول ، والله أسأل أن ينفع به إنه خير مسئول .

فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بعزوه إليه وإلا عزوته إلى من خرجه من بقية الستة وحيث كان في أحد الستة لم أعزه إلى غيرها إلا لغرض صحيح بأن يكون في كتاب التزم مخرجه الصحة أو يكون أقرب إلى لفظه في الإحياء وحيث كرر المصنف ذكر الحديث ، فإن كان في باب واحد منه اكتفيت بذكره أول مرة وربما ذكرته فيه ثانياً وثالثاً لغرض أو لذهول عن كونه تقدم ، وإن كرره في باب آخر ذكرته ونبهت على أنه قد تقدم وربما لم أنبه على تقدمه لذهول عنه ، وحيث عزوت الحديث لمن خرجه من الأئمة فلا أريد ذلك اللفظ بعينه بل قد يكون بلفظه وقد يكون بمعناه أو باختلاف على قاعدة المستخرجات ، وحيث لم أجد ذلك الحديث ذكرت ما يغني عنه غالبا وربما لم أذكره . وسميته :

المغني عن حمل الأسفار في الأسفار ، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار

جعله الله خالصا لوجهه الكريم ووسيلة إلى النعيم المقيم .

والإنكار من بين طبقات المنكرين الغافلين ؛ فلقد حل عن لساني عقدة الصمت وطوقني عهدة الكلام وقلادة النطق : ما أنت مثابر عليه من العمى عن جلية الحق ، مع اللجاج في نصرة الباطل وتحسين الجهل ، والتشغيب على من آثر النزوع قليلا عن مراسم الخلق ومال ميلا يسيراً عن ملازمة الرسم إلى العمل بمقتضى العلم طمعاً في نيل ما تعبده الله تعالى به من تزكية النفس وإصلاح القلب، وتداركا لبعض ما فرط من إضاعة العمر يائساً عن تمام حاجتك في الحيرة وانحيازاً عن غمار من قال فيهم صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه «أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله سبحانه بعلمه (١) » ولعمري إنه لا سبب لإصرارك على التكبر إلا الداء الذي عم الجم الغفير بل شمل الجماهير من القصور عن ملاحظة ذروة هذا الأمر والجهل بأن الأمر إد والخطب جد والآخرة مقبلة والدنيا مدبرة والأجل قريب والسفر بعيد والزاد طفيف والخطر عظيم والطريق سد ، وما سوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند الناقد البصير رد ، وسلوك طريق الآخرة مع كثرة الغوائل من غير دليل ولا رفيق متعب ومكد : فأدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، وقد شغر منهم الزمان ولم يبق إلا المترسمون وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستغواهم الطغيان ، وأصبح كل واحد بعاجل حظه مشغوفا ، فصار يرى المعروف منكراً والمنكر معروفا حتى ظل علم الدين مندرساً ، ومنار الهدى في أقطار الأرض منطمساً ، ولقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام عند تهاوش الطغام ؛ أو جدل يتدرع به طالب المباهاة إلى الغلبة والإفحام أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام ؛ إذ لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام وشبكة للحطام .

فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله سبحانه في كتابه : فقهاً وحكمة وعلماً وضياء ونوراً وهداية ورشداً ، فقد أصبح من بين الخلق مطوياً وصار نسياً منسياً .

ولما كان هذا ثلماً في الدين ملماً وخطباً مدلهما ، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهما ، إحياء لعلوم الدين ، وكشفاً عن مناهج الأئمة المتقدمين ، وإيضاحا لمناهي العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين .

وقد أسسته على أربعة أرباع وهي : ربع العبادات ، وربع العادات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات .

وصدرت الجملة بكتاب العلم لأنه غاية المهم لأكشف أولا عن العلم الذي تعبد الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم الأعيان بطلبه ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم (٢) » وأميز فيه العلم النافع من الضار ، إذ قال صلى الله عليه وسلم « نعوذ بالله من علم لا ينفع (٣) » وأحقق ميل أهل العصر عن شاكلة الصواب ، وانخداعهم بلامع السراب ، واقتناعهم من العلوم بالقشر عن اللباب .

ويشتمل ربع العبادات على عشرة كتب :

كتاب العلم ، وكتاب قواعد العقائد ، وكتاب أسرار الطهارة ، وكتاب أسرار الصلاة ، وكتاب أسرار الزكاة ، وكتاب أسرار الصيام ، وكتاب أسرار الحج ، وكتاب آداب تلاوة القرآن ، وكتاب الأذكار والدعوات ، وكتاب ترتيب الأوراد في الأوقات .

أحاديث الخطبة

(١) حديث «أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » رواه الطبراني في الصغير والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف (٢) حديث « طلب العلم فريضة على كل مسلم » رواه ابن ماجه من حديث أنس وضعفه أحمد والبيهقي وغيرها (٣) حديث « نعوذ بالله من علم لا ينفع» رواه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد حسن .

وأما ربع العادات فيشتمل على عشرة كتب :

كتاب آداب الأكل ، وكتاب آداب النكاح ، وكتاب أحكام الكسب ، وكتاب الحلال والحرام ، وكتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق ، وكتاب العزلة ، وكتاب آداب السفر ، وكتاب السماع والوجد، وكتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة .

وأما ربع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب :

كتاب شرح عجائب القلب ، وكتاب رياضة النفس ، وكتاب آفات الشهوتين : شهوة البطن وشهوة الفرج ، وكتاب آفات اللسان ، وكتاب آفات الغضب والحقد والحسد ، وكتاب ذم الدنيا ، وكتاب ذم المال والبخل، وكتاب ذم الجاه والرياء ، وكتاب ذم الكبر والعجب ، وكتاب ذم الغرور .

وأما ربع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب :

كتاب التوبة ، وكتاب الصبر والشكر ، وكتاب الخوف والرجاء ، وكتاب الفقر والزهد ، وكتاب التوحيد والتوكل ، وكتاب المحبة والشوق والأنس والرضا ، وكتاب النية والصدق والإخلاص ، وكتاب المراقبة والمحاسبة، وكتاب التفكر ، وكتاب ذكر الموت .

فأما ربع العبادات فأذكر فيه من خفايا آدابها ودقائق سننها وأسرار معانيها ما يضطر العالم العامل إليه ، بل لا يكون من علماء الآخرة من لا يطلع عليه وأكثر ذلك مما أهمل فى فن الفقهيات .

وأما ربع العادات فاذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق وأغوارها ودقائق سننها وخفايا الورع فى مجاريها وهى مما لا يستغنى عنها متدين .

وأما ربع المهلكات فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرآن بإماطته وتزكية النفس عنه وتطهير القلب منه ، وأذكر من كل واحد من تلك الأخلاق حده وحقيقته ، ثم أذكر سببه الذى منه يتولد ثم الآفات التى عليها تترتب ثم العلامات التى بها تتعرف ، ثم طرق المعالجة التى بها منها يتخلص ، كل ذلك مقرونا بشواهد الآيات والأخبار والآثار .

وأما ربع المنجيات فأذكر فيه كل خلق محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصديقين التى بها يتقرب العبد من رب العالمين وأذكر فى كل خصلة حدها وحقيقتها وسببها الذى به تجتلب وثمرتها التى منها تستفاد وعلامتها التى بها تتعرف وفضيلتها التى لأجلها فيها يرغب مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل ؛ ولقد صنف الناس فى بعض هذه المعانى كتبا ولكن يتميز هذا الكتاب عنها بخمسة أمور ؛ الأول : حل ما عقدوه وكشف ما أجملوه . الثانى : ترتيب ما بددوه ونظم ما فرقوه . الثالث : إيجاز ما طولوه وضبط ماقرروه . الرابع : حذف ما كرروه وإثبات ما حرروه . الخامس : تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأفهام لم يتعرض لها فى الكتب أصلا إذ الكل وإن تواردوا على منهج واحد فلا مستنكر أن يتفرد كل واحد من السالكين بالتنبيه لأمر يخصه ويغفل عنه رفقاؤه ، أو يغفل عن التنبيه ولكن يسهو عن إيراده فى الكتب ، أو لا يسهو ولكن يصرفه عن كشف الغطاء عنه صارف ، فهذه خواص هذا الكتاب مع كونه حاويا لمجامع هذه العلوم .

وإنما حملنى على تأسيس هذا الكتاب على أربعة أرباع أمران : أحدهما ـ وهو الباعث الأصلى ـ أن هذا الترتيب فى التحقيق والتفهيم كالضرورة لأن العلم الذى يتوجه به إلى الآخرة ينقسم إلى علم المعاملة وعلم المكاشفة ، وأعنى

بعلم المكاشفة ما يطلب منه كشف المعلوم فقط ، وأعنى بعلم المعاملة ما يطلب منه مع الكشف العمل به . والمقصود من هذا الكتاب علم المعاملة فقط دون علم المكاشفة التى لا رخصة فى إيداعها الكتب وإن كانت هى غاية مقصد الطالبين ومطمح نظر الصديقين ، وعلم المعاملة طريق إليه ولكن لم يتكلم الأنبياء صلوات الله عليهم مع الخلق إلا فى علم الطريق والإرشاد إليه . وأما علم المكاشفة فلم يتكلموا فيه إلا بالرمز والايماء على سبيل التمثيل والإجمال ، علما منهم بقصور أفهام الخلق عن الاحتمال ، والعلماء ورثة الأنبياء فما لهم سبيل إلى العدول عن نهج التأسى والاقتداء ثم إن علم المعاملة ينقسم إلى علم ظاهر أعنى العلم بأعمال الجوارح وإلى علم باطن أعنى العلم بأعمال القلوب والجارى على الجوارح إما عادة وإما عبادة ، والوارد على القلوب التى هى بحكم الاحتجاب عن الحواس من عالم الملكوت إما محمود وإما مذموم فبالواجب انقسم هذا العلم إلى شطرين ظاهر وباطن والشطر الظاهر المتعلق بالجوارح انقسم إلى عادة وعبادة والشطر الباطن المتعلق بأحوال القلب وأخلاق النفس انقسم إلى مذموم ومحمود فكان المجموع أربعة أقسام ولا يشذ نظر فى علم المعاملة عن هذه الأقسام . الباعث الثانى : أنى رأيت الرغبة من طلبة العلم صادقة فى الفقه الذى صلح عند من لا يخاف الله سبحانه وتعالى المتدرع به إلى المباهاة والاستظهار بجاهه ومنزلته فى المنافسات وهو مرتب على أربعة أرباع والمتزيى بزى المحبوب محبوب فلم أبعد أن يكون تصوير الكتاب بصورة الفقه تلطفاً فى استدراج القلوب ولهذا تلطف بعض من رام استمالة قلوب الرؤساء إلى الطب فوضعه على هيئة تقويم النجوم موضوعا فى الجداول والرقوم وسماه تقويم الصحة ليكون أنسهم بذلك الجنس جاذبا لهم إلى المطالعة والتلطف فى اجتذاب القلوب إلى العلم الذى يفيد حياة الأبد أهم من التلطف فى اجتذابها إلى الطب الذى لا يفيد إلا صحة الجسد ؛ فثمرة هذا العلم طب القلوب والأرواح المتوصل به إلى حياة تدوم أبد الآباد فأين منه الطب الذى يعالج به الأجساد وهى معرضة بالضرورة للفساد فى أقرب الآماد ؟ فنسأل الله سبحانه التوفيق للرشاد والسداد إنه كريم جواد .

كتاب العلم وفيه سبعة أبواب

الباب الأول : فى فضل العلم والتعليم والتعلم . الباب الثانى : فى فرض العين وفرض الكفاية من العلوم وبيان حد الفقه والكلام من علم الدين وبيان علم الآخرة وعلم الدنيا . الباب الثالث : فيما تعده العامة من علوم الدين وليس منه ، وفيه بيان جنس العلم المذموم وقدره . الباب الرابع : فى آفات المناظرة وسبب اشتغال الناس بالخلاف والجدل الباب الخامس : فى آداب المعلم والمتعلم . الباب السادس : فى آفات العلم والعلماء والعلامات الفارقة بين علماء الدنيا والآخرة . الباب السابع : فى العقل وفضله وأقسامه وما جاء فيه من الأخبار .

الباب الأول

فى فضل العلم والتعليم والتعلم وشواهده من النقل والعقل

فضيلة العلم

شواهدها من القرآن قوله عز وجل ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط ﴾ فانظر

كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه وثنى بالملائكة وثلث بأهل العلم ، وناهيك بهذا شرفا وفضلا وجلاء ونبلا . وقال الله تعالى ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام . وقال عز وجل ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وقال تعالى ﴿ قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ وقال تعالى ﴿ قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به ﴾ تنبيها على أنه اقتدر بقوة العلم . وقال عز وجل ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ﴾ بين أن عظم قدر الآخرة يعلم بالعلم وقال تعالى ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولوردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ رد حكمه فى الوقائع إلى استنباطهم والحق رتبتهم برتبة الأنبياء فى كشف حكم الله . وقيل فى قوله تعالى ﴿ يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم - يعنى العلم - وريشا - يعنى اليقين - ولباس التقوى ﴾ يعنى الحياء . وقال عز وجل ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ﴾ وقال تعالى ﴿ فلنقصن عليهم بعلم ﴾ وقال عز وجل ﴿ بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ﴾ وقال تعالى ﴿ خلق الإنسان علمه البيان ﴾ وإنما ذكر ذلك فى معرض الامتنان . وأما الأخبار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ويلهمه رشده [(١)] » وقال صلى الله عليه وسلم « العلماء ورثة الأنبياء [(٢)] » ومعلوم أنه لا رتبه فوق النبوة ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة . وقال صلى الله عليه وسلم « يستغفر للعالم ما فى السموات والأرض [(٣)] » وأى منصب يزيد على منصب من تشتغل ملائكة السموات والأرض بالاستغفار له . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع المملوك حتى يدرك مدارك الملوك [(٤)] » وقد نبه بهذا على ثمراته فى الدنيا ومعلوم أن الآخرة خير وأبقى . وقال صلى الله عليه وسلم « خصلتان لا يكونان فى منافق : حسن سمت وفقه فى الدين [(٥)] » ولا تشكن فى الحديث لنفاق بعض فقهاء الزمان ، فإنه ما أراد به الفقه الذى ظننته ، وسيأتى معنى الفقه . وأدنى درجات الفقيه أن يعلم أن الآخرة خير من الدنيا ، وهذه المعرفة إذا صدقت وغلبت عليه برىء بها من النفاق والرياء . وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الناس المؤمن العالم الذى إن احتيج إليه نفع وإن استغنى عنه أغنى نفسه [(٦)] » وقال صلى الله عليه وسلم « الإيمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء وثمرته العلم [(٧)] » وقال صلى الله عليه وسلم « أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد : أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل ، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيافهم

كتاب العلم : الباب الأول

(١) حديث «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ويلهمه رشده» متفق عليه من حديث معاوية دون قوله «ويلهمه رشده» وهذه الزيادة عند الطبرانى فى الكبير (٢) حديث «العلماء ورثة الأنبياء» أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه من حديث أبى الدرداء (٣) حديث « يستغفر للعالم ما فى السموات والأرض » هو بعض حديث أبى الدرداء المتقدم (٤) حديث « الحكمة تزيد الشريف شرفا ... الحديث» أخرجه أبو نعيم فى الحلية ، وابن عبد البر فى بيان العلم ، وعبد الغنى الأزدى فى آداب المحدث من حديث أنس بإسناد ضعيف (٥) حديث « خصلتان لاتجتمعان فى منافق ... الحديث» أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة وقال حديث غريب (٦) حديث « أفضل الناس المؤمن العالم . . . الحديث » أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان موقوفاً على أبى الدرداء بإسناد ضعيف ولم أره مرفوعاً (٧) حديث « الإيمان عريان . . . الحديث » أخرجه الحاكم فى تاريخ نيسابور من حديث أبى الدرداء بإسناد ضعيف .

على ما جاءت به الرسل (١) » . وقال صلى الله عليه وسلم « لموت قبيلة أيسر من موت عالم (٢) » وقال عليه الصلاة والسلام « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، فخيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « من حفظ على أمتى أربعين حديثا من السنة حتى يؤديها إليهم كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « من حمل من أمتى أربعين حديثا لقى الله عز وجل يوم القيامة فقيها عالما(٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « من تفقه فى دين الله عز وجل كفاه الله تعالى ما أهمه ورزقه من حيث لا يحتسب(٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « أوحى الله عز وجل إلى إبراهيم عليه السلام : يا إبراهيم إنى عليم أحب كل عليم(٨) » وقال صلى الله عليه وسلم ، العالم أمين الله سبحانه فى الأرض (٩) » وقال صلى الله عليه وسلم « صنفان من أمتى إذا صلحوا صلح الناس وإذا فسدوا فسد الناس : الأمراء والفقهاء(١٠) » وقال عليه السلام « إذا أتى على يوم لا أزداد فيه علما يقربنى إلى الله عز وجل فلا بورك لى فى طلوع شمس ذلك اليوم (١١) » وقال صلى الله عليه وسلم فى تفضيل العلم على العبادة والشهادة « فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى (١٢) » فانظر كيف جعل العلم مقاربا لدرجة النبوة وكيف حط رتبة العمل المجرد عن العلم وإن كان العابد لا يخلو عن علم بالعبادة التى يواظب عليها ولولاه لم تكن عبادة ؟ وقال صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب (١٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء (١٤) » فأعظم بمرتبة هى تلو النبوة وفوق الشهادة مع ماورد فى فضل الشهادة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماعبد الله تعالى بشىء أفضل من فقه فى الدين ، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ، ولكل شىء عماد وعماد هذا الدين الفقه(١٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « خير دينكم أيسره وخير العبادة الفقه(١٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « فضل المؤمن العالم على

---

(١) حديث « أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد ... الحديث » أخرجه أبو نعيم فى فضل العالم العفيف من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف (٢) حديث « لموت قبيلة أيسر من موت عالم » أخرجه الطبرانى وابن عبد البر من حديث أبى الدرداء ، وأصل الحديث عند أبى الدرداء (٣) حديث « الناس معادن ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة (٤) حديث « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء » أخرجه ابن عبد البر من حديث أبى الدرداء بسند ضعيف (٥) حديث « من حفظ على أمتى أربعين حديثاً من السنة حتى يؤديها إليهم كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة » أخرجه ابن عبد البر فى العلم من حديث ابن عمر وضعفه (٦) حديث « من حمل من أمتى أربعين حديثاً لقى الله يوم القيامة فقيهاً عالماً » أخرجه ابن عبد البر من حديث أنس وضعفه (٧) حديث « من تفقه فى دين الله كفاه الله همه . . . الحديث » رواه الخطيب فى التاريخ من حديث عبد الله بن جزء الزبيدى بإسناد ضعيف (٨) حديث « أوحى الله إلى إبراهيم يا إبراهيم إنى عليم أحب كل عليم » ذكره ابن عبد البر تعليقاً ولم أظفر له بإسناد (٩) حديث « العالم أمين الله فى الأرض » أخرجه ابن عبد البر من حديث معاذ بسند ضعيف (١٠) حديث « صنفان من أمتى إذا صلحوا صلح الناس . . . الحديث » أخرجه ابن عبد البر وأبو نعيم من حديث ابن عباس بسند ضعيف (١١) حديث « إذا أتى على يوم لا أزداد فيه علماً يقربنى ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم فى الحلية وابن عبد البر فى العلم من حديث عائشة بإسناد ضعيف (١٢) حديث « فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى » أخرجه الترمذى من حديث أبى أمامة وقال حسن صحيح (١٣) حديث « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان ، وهو قطعة من حديث أبى الدرداء المتقدم (١٤) حديث « يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء » رواه ابن ماجة من حديث عثمان ابن عفان بإسناد ضعيف (١٥) حديث « ما عبد الله بشىء أفضل من فقه فى الدين . . . الحديث » رواه الطبرانى فى الأوسط ، وأبو الفضل الآجرى فى كتاب فضل العلم ، وأبو نعيم فى رياضة المتعلمين من حديث أبى هريرة بإسناد ضعيف وعند الترمذى وابن ماجه من حديث ابن عباس بسند ضعيف « فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد » (١٦) حديث « خير دينكم أيسره ، وأفضل العبادة الفقه » أخرجه ابن عبد البر من حديث أنس بسند ضعيف ، والشطر الأول عند أحمد من حديث محجن بن الأدرع بإسناد جيد ، والشطر الثانى عند الطبرانى من حديث ابن عمر بسند ضعيف .

المؤمن العابد بسبعين درجة (١) »وقال صلى الله عليه وسلم « إنكم أصبحتم فى زمن كثير فقهاؤه قليل قراؤه وخطباؤه قليل سائلوه كثير معطوه ، والعمل فيه خير من العلم . وسيأتى على الناس زمان قليل فقهاؤه كثير خطباؤه قليل معطوه كثير سائلوه ، العلم فيه خير من العمل (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حضر الجواد المضمر سبعين سنة (٣) » وقيل : يارسول الله ، أى الأعمال أفضل ؟ فقال « العلم بالله عز وجل » فقيل : أى العلم تريد ؟ قال صلى عليه وسلم «العلم بالله سبحانه» فقيل له : نسأل عن العمل وتجيب عن العلم ! فقال صلى الله عليه وسلم « إن قليل العمل ينفع مع العلم بالله ، وإن كثير العمل لاينفع مع الجهل بالله (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « يبعث الله سبحانه العباد يوم القيامة ثم يبعث العلماء ثم يقول : يامعشر العلماء ، إنى لم أضع علمى فيكم إلا لعلمى بكم ولم أضع علمى فيكم لأعذبكم ، اذهبوا فقد غفرت لكم (٥) » نسأل الله حسن الخاتمة . وأما الآثار فقد قال على بن أبى طالب رضى الله عنه لكميل : ياكميل ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو بالإنفاق وقال على أيضاً رضى الله عنه : العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد ، وإذا مات العالم ثلم فى الإسلام ثلمة لايسدها إلا خلف منه . وقال رضى الله عنه نظما :

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرىء ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حياً به أبدا الناس موتى وأهل العلم أحياء

وقال أبو الأسود : ليس شىء أعز من العلم ، الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : خير سليمان بن داود عليهما السلام بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطى المال والملك معه ، وسئل ابن المبارك : من الناس ؟ فقال . العلماء . قيل : فمن الملوك ؟ قال : الزهاد . قيل : فمن السفلة ؟ قال : الذين يأكلون الدنيا بالدين ولم يجعل غير العالم من الناس لأن الخاصية التى يتميز بها الناس عن سائر البهائم هى العلم ، فالإنسان إنسان بما هو شريف لأجله ، وليس ذلك بقوة شخصه ، فإن الجمل أقوى منه ، ولا بعظمه فان الفيل أعظم منه ، ولا بشجاعته فان السبع أشجع منه ، ولا بأكله فإن الثور أوسع بطناً منه ، ولا ليجامع فان أخس العصافير أقوى على السفاد منه ، بل لم يخلق إلا للعلم . وقال بعض العلماء : ليت شعرى أى شىء أدرك من فاته العلم ، وأى شىء فاته من أدرك العلم . وقال عليه الصلاة والسلام « من أوتى القرآن فرأى أن أحداً أوتى خيراً منه فقد حقر ماعظم الله تعالى » وقال فتح الموصلى رحمه الله : أليس المريض إذا منع الطعام والشراب والدواء يموت ؟ قالوا : بلى . قال : كذلك القلب إذا منع عنه الحكمة والعلم ثلاثة أيام يموت ، ولقد صدق فإن غذاء القلب العلم والحكمة وبهما حياته ، كما أن غذاء الجسد الطعام ، ومن فقد العلم فقلبه مريض وموته لازم ولكنه لايشعر به ، إذ حب الدنيا

(١) حديث «فضل المؤمن العالم على المؤمن العابد بسبعين درجة » أخرجه ابن عدى من حديث أبى هريرة بإسناد ضعيف ولأبى يعلى نحوه من حديث عبد الرحمن بن عوف (٢) حديث « إنكم أصبحتم فى زمان كثير فقهاؤه .. الحديث» أخرجه الطبرانى من حديث حزام بن حكيم عن عمه ، وقيل عن أبيه وإسناده ضعيف (٣) حديث « بين العالم والعابد مائة درجة» أخرجه الأصفهانى فى الترغيب والترهيب من حديث ابن عمر عن أبيه وقال «سبعون درجة» بسند ضعيف، وكذا رواه صاحب مسند الفردوس من حديث أبى هريرة (٤) حديث « قيل له يارسول الله أى الأعمال أفضل فقال العلم بالله ... الحديث» أخرجه ابن عبد البر من حديث أنس بسند ضعيف (٥) حديث يبعث الله العباد يوم القيامة ثم يبعث العلماء ... الحديث » رواه الطبرانى من حديث أبى موسى بسند ضعيف .

وشغله بهما أبطل إحساسه ، كما أن غلبة الخوف قد تبطل ألم الجراح فى الحال وإن كان واقعا ؛ فاذا حط الموت عنه أعباء الدنيا أحس بهلاكه وتحسر تحسراً عظيما ثم لا ينفعه وذلك كاحساس الآمن من خوفه والمفيق من سكره بما أصابه من الجراحات فى حالة السكر أو الخوف ، فنعوذ بالله من يوم كشف الغطاء فان الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا . وقال الحسن رحمه الله : يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء بدم الشهداء . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : عليكم بالعلم قبل أن يرفع ، ورفعه موت رواته ، فوالذى نفسى بيده ليودن رجال قتلوا فى سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء لما يرون من كرامتهم ، فان أحداً لم يولد عالما وإنما العلم بالتعلم . وقال ابن عباس رضى الله عنهما تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلى من إحيائها ، وكذلك عن أبى هريرة رضى الله عنه وأحمد بن حنبل رحمه الله . وقال الحسن فى قوله تعالى ﴿ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة﴾ إن الحسنة فى الدنيا هى العلم والعبادة ، وفى الآخرة هى الجنة . وقيل لبعض الحكماء : أى الأشياء تقتنى ؟ قال : الأشياء التى إذا غرقت سفينتك سبحت معك ، يعنى العلم . وقيل : أراد بغرق السفينة هلاك بدنه بالموت . وقال بعضهم : من اتخذ الحكمة لجاما اتخذه الناس إماما ، ومن عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار . وقال الشافعى رحمة الله عليه : من شرف العلم أن كل من نسب إليه ولو فى شىء حقير فرح . ومن رفع عنه حزن . وقال عمر رضى الله عنه : يا أيها الناس عليكم بالعلم فان لله سبحانه رداءاً يحبه ، فمن طلب بابا من العلم رداه الله عز وجل بردائه ، فان أذنب ذنباً استعتبه ثلاث مرات لئلا يسلبه رداءه ذلك وإن تطاول به ذلك الذنب حتى يموت . وقال الأحنف رحمه الله : كاد العلماء أن يكونوا أربابا وكل عز لم يوطد بعلم فالى ذل مصيره . وقال سالم بن أبى الجعد : اشترانى مولاى بثلثمائة درهم وأعتقنى ، فقلت بأى شىء أحترف ؟ فاحترفت بالعلم فما تمت لى سنة حتى أتانى أمير المدينة زائراً فلم آذن له . وقال الزبير بن أبى بكر : كتب إلى أبى بالعراق : عليك بالعلم فانك إن افتقرت كان لك مالا ، وإن استغنيت كان لك جمالا . وحكى ذلك وصايا لقمان لابنه قال : يا بنى جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فان الله سبحانه يحيى القلوب بنور الحكمة كما يحيى الأرض بوابل السماء . وقال بعض الحكماء : إذا مات العالم بكاه الحوت فى الماء والطير فى الهواء ويفقد وجهه ولا ينسى ذكره . وقال الزهرى رحمه الله : العلم ذكر ولا يحبه إلا ذكران الرجال .

فضيلة العلم

أما الآيات فقوله تعالى ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين﴾ وقوله عز وجل ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ وأما الأخبار فقوله صلى الله عليه وسلم « من سلك طريقاً يطلب فيه علما سلك الله به طريقاً إلى الجنة (١)» وقال صلى الله عليه وسلم « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يصنع (٢)» وقال صلى الله عليه وسلم « لأن تغدو فتتعلم باباً من العلم خير من أن تصلى مائة ركعة (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا وما فيها (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « اطلبوا العلم

---

(١) حديث « من سلك طريقا يطلب فيه علما ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة (٢) حديث « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يصنع » أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه من حديث صفوان بن عسال (٣) حديث لأن تغدوا فتتعلم بابا من الخير خير من أن تصلى مائة ركعة » أخرجه ابن عبد البر من حديث أبى ذر وليس إسناده بذاك ، والحديث عند ابن ماجه بلفظ آخر (٤) حديث « باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا » أخرجه ابن حبان فى روضة العقلاء ، وابن عبد البر موقوفا على الحسن البصرى ، ولم أره مرفوعا إلا بلفظ « خير من مائة ركعة » رواه الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف من حديث أبى ذر .

ولو بالصين (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وقال عليه الصلاة والسلام « العلم خزائن مفاتيحها السؤال ، ألا فاسألوا فإنه يؤجر فيه أربعة : السائل والعالم والمستمع والمحب لهم (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « لا ينبغي للجاهل أن يسكت على جهله ولا للعالم أن يسكت على علمه (٣) » وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه « حضور مجلس عالم أفضل من صلاة ألف ركعة وعيادة ألف مريض وشهود ألف جنازة ، فقيل يا رسول الله ، ومن قراءة القرآن ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « وهل ينفع القرآن إلا بالعلم ؟ (٤) » وقال عليه الصلاة والسلام « من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام فبينه وبين الأنبياء في الجنة درجة واحدة (٥) » .
وأما الآثار فقال ابن عباس رضي الله عنهما : ذللت طالباً فعززت مطلوبا . وكذلك قال ابن أبي مليكة رحمه الله : ما رأيت مثل ابن عباس ، إذا رأيته رأيت أحسن الناس وجها ، وإذا تكلم فأعرب الناس لساناً وإذا أفتى فأكثر الناس علماً . وقال ابن المبارك رحمه الله : عجبت لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة ؟ وقال بعض الحكماء : إني لا أرحم رجالا كرحمتي لأحد رجلين : رجل يطلب العلم ولا يفهمه ، ورجل يفهم العلم ولا يطلبه . وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : لأن أتعلم مسألة أحب إلي من قيام ليلة . وقال أيضاً : كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ولا تكن الرابع فتهلك . وقال عطاء : مجلس علم يكفر سبعين مجلساً من مجالس اللهو . وقال عمر رضي الله عنه : موت ألف عابد قائم الليل صائم النهار أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه . وقال الشافعي رضي الله عنه : طلب العلم أفضل من النافلة ، وقال ابن عبد الحكم رحمه الله : كنت عند مالك أقرأ عليه العلم فدخل الظهر فجمعت الكتب لأصلي فقال : يا هذا ما الذي قمت إليه بأفضل مما كنت فيه إذا صحت النية . وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : من رأى أن الغدو إلى طلب العلم ليس بجهاد فقد نقص في رأيه وعقله .

فضيلة التعليم

أما الآيات فقوله عز وجل : ﴿ ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ والمراد هو التعليم والإرشاد . وقوله تعالى ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ﴾ وهو إيجاب للتعليم . وقوله تعالى ﴿ وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ وهو تحريم للكتمان كما قال تعالى في الشهادة ﴿ ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « ما آتى الله عالماً علماً إلا وأخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين أن يبينوه للناس ولا يكتموه (٦) » وقال تعالى ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا ﴾ وقال تعالى ﴿ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ وقال تعالى ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ وأما الأخبار فقوله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن « لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من الدنيا وما فيها (٧) »

---

(١) حديث « أطلبوا العلم ولو في الصين » أخرجه ابن عدي والبيهقي في المدخل والشعب من حديث أنس ، وقال البيهقي : متنه مشهور وأسانيده ضعيفة (٢) حديث « العلم خزائن مفاتيحها السؤال ... الحديث » رواه أبو نعيم من حديث علي مرفوعا بإسناد ضعيف (٣) حديث « لا ينبغي للجاهل أن يسكت على جهله » أخرجه الطبراني في الأوسط وابن مردويه في التفسير وابن السني وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف (٤) حديث أبي ذر « حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة ... الحديث » ذكره ابن الجوزي في الموضوعات من حديث عمر ولم أجده من طريق أبي ذر (٥) حديث « من جاءه الموت وهو يطلب العلم ... الحديث » أخرجه الدارمي وابن السني في رياضة المتعلمين من حديث الحسن ، فقيل : هو ابن علي ، وقيل : هو ابن يسار البصري فيكون مرسلا (٦) حديث « ما آتى الله عالما علماً إلا أخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين ... الحديث » أخرجه أبو نعيم في فضل العالم العفيف من حديث ابن مسعود بنحوه ، وفي الخلعيات نحوه من حديث أبي هريرة (٧) حديث : قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن « لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث معاذ ، وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعد أنه قال ذلك لعلي .

وقال صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم « من تعلم بابا من العلم ليعلم الناس أعطى ثواب سبعين صديقا(١) » وقال عيسى صلى الله عليه وسلم : من علم وعمل وعلم فذلك يدعى عظيما فى ملكوت السموات . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا كان يوم القيامة يقول الله سبحانه للعابدين والمجاهدين : ادخلوا الجنة ، فيقول العلماء بفضل علمنا تعبدوا وجاهدوا ، فيقول الله عز وجل : أنتم عندى كبعض ملائكتى اشفعوا تشفعوا فيشفعون ثم يدخلون الجنة (١) » وهذا إنما يكون بالعلم المتعدى بالتعليم لا العلم اللازم الذى لا يتعدى . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل لا ينتزع العلم انتزاعا من الناس بعد أن يؤتيهم إياه ولكن يذهب بذهاب العلماء ، فكلما ذهب عالم ذهب بما معه من العلم ، حتى إذا لم يبق إلا رؤساء جهالا إن سئلوا أفتوا بغير علم فيضلون ويضلون (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « من علم علما فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « نعم العطية ونعم الهدية كلمة حكمة تسمعها فتطوى عليها ثم تحملها إلى أخ لك مسلم تعلمه إياها تعدل عبادة سنة (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله سبحانه وما والاه أو معلماً أو متعلماً (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم » إن الله سبحانه وملائكته وأهل سمواته وأرضه حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت فى البحر ليصلون على معلم الناس الخير (٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما أفاد المسلم أخاه فائدة أفضل من حديث حسن بلغه فبلغه (٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « كلمة من الخير يسمعها المؤمن فيعلمها ويعمل بها خير له من عبادة سنة (٩) » وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فرأى مجلسين أحدهما يدعون الله عز وجل ويرغبون إليه والثانى يعلمون الناس ، فقال « أما هؤلاء فيسألون الله تعالى فان شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وأما هؤلاء فيعلمون الناس وإنما بعثت معلماً ثم عدل إليهم وجلس معهم (١٠) » وقال صلى الله عليه وسلم « مثل ما بعثنى الله عز وجل به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكانت منها بقعة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها بقعة أمسكت الماء فنفع الله عز وجل بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وكانت منها طائفة قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ (١١) » اهـ ، فالأول ذكره مثلا للمنتفع بعلمه ، والثانى ذكره مثلا للنافع ، والثالث للمحروم منها .

---

(١) حديث « من تعلم بابا من العلم ليعلم الناس أعطى ثواب سبعين صديقاً » رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن مسعود بسند ضعيف (٢) حديث « إذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى للعابدين والمجاهدين ادخلوا الجنة ... الحديث » أخرجه أبو العباس الذهبى فى العلم من حديث ابن عباس بسند ضعيف (٣) حديث « إن الله ينتزع العلم انتزاعاً من الناس ... الحديث » متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر (٤) حديث « من علم علماً فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة ، قال الترمذى : حديث حسن (٥) حديث « نعم العطية ونعم الهدية كلمة حكمة تسمعها . . . الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث ابن عباس نحوه بإسناد ضعيف (٦) حديث الدنيا ملعونة ملعون ما فيها ... الحديث » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة ، قال الترمذى : حسن غريب (٧) حديث « إن الله وملائكته وأهل السماوات وأهل الأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت فى البحر ليصلون على معلم الناس الخير » أخرجه الترمذى من حديث أبى أمامة وقال غريب ، وفى نسخة : حسن صحيح (٨) حديث « ما أفاد المسلم أخاه فائدة أفضل من حديث حسن ... الحديث » أخرجه ابن عبد البر من رواية محمد بن المنكدر مرسلا نحوه ، ولابى نعيم من حديث عبد الله بن عمر « ما أهدى مسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة تزيده هدى أو ترده عن ردى » (٩) حديث « كلمة من الحكمة يسمعها المؤمن فيعمل بها ويعلمها ... الحديث » أخرجه ابن المبارك فى الزهد والرقائق من رواية زيد بن أسلم مرسلا نحوه ، وفى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة بسند ضعيف « كلمة حكمة يسمعها الرجل خير له من عبادة سنة » (١٠) حديث « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على أصحابه فرأى مجلسين أحدهما يدعون الله ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر بسند ضعيف (١١) حديث « مثل ما بعثنى الله به من العلم والهدى ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى موسى .

وقال صلى الله عليه وسلم « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : علم ينتفع به[1] الحديث » وقال صلى الله عليه وسلم « الدال على الخير كفاعله [2] » وقال صلى الله عليه وسلم « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله عز وجل حكمة فهو يقضى بها ويعلمها الناس، ورجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الخير[3] » وقال صلى الله عليه وسلم « على خلفائى رحمة الله » قيل : ومن خلفاؤك ؟ قال « الذين يحيون سنتى ويعلمونها عباد الله [4] » وأما الآثار فقد قال عمر رضى الله عنه : من حدث حديثاً فعمل به فله مثل أجر من عمل ذلك العمل . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : معلم الناس الخير يستغفر له كل شىء حتى الحوت فى البحر . وقال بعض العلماء : العالم يدخل فيما بين الله وبين خلقه فلينظر كيف يدخل . وروى أن سفيان الثورى رحمه الله قدم عسقلان فمكث لا يسأله إنسان ، فقال : اكروا لى لأخرج من هذا البلد ، هذا بلد يموت فيه العلم . وإنما قال ذلك حرصاً على فضيلة التعليم واستبقاء العلم به وقال عطاء رضى الله عنه : دخلت على سعيد بن المسيب وهو يبكى ، فقلت . مايبكيك ؟ قال : ليس أحد يسألنى عن شىء وقال بعضهم : العلماء سرج الأزمنة ، كل واحد مصباح زمانه يستضىء به أهل عصره . وقال الحسن رحمه الله : لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم : أى أنهم بالتعليم يخرجون الناس من حد البهيمية إلى حد الإنسانية . وقال عكرمة : إن لهذا العلم ثمناً . قيل: وما هو ؟ قال : أن تضعه فيمن يحسن حمله ولا يضيعه : وقال يحيى بن معاذ : العلماء أرحم بأمة محمد صلى الله عليه وسلم من آبائهم وأمهاتهم . قيل : وكيف ذلك ؟ قال لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا وهم يحفظونهم من نار الآخرة . وقيل : أول العلم الصمت ثم الاستماع ثم الحفظ ثم العمل ثم نشره وقيل : علم علمك من يجهل وتعلم ممن يعلم ما تجهل ؛ فإنك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت وحفظت ما علمت . وقال معاذ بن جبل فى التعليم والتعلم ورأيته أيضا مرفوعا « تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، وهو الأنيس فى الوحدة ، والصاحب فى الخلوة . والدليل على الدين ، والمصبر على السراء والضراء ، والوزير عند الأخلاء ، والقريب عند الغرباء ، ومنار سبيل الجنة ، يرفع الله به أقواما فيجعلهم فى الخير قادة سادة هداة ، يقتدى بهم ، أدلة فى الخير تقتص آثارهم وترمق أفعالهم وترغب الملائكة فى خلتهم وبأجنحتها تمسحهم ، وكل رطب ويابس لهم يستغفر حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه والسماء ونجومها[5] » لأن العلم حياة القلوب من العمى ، ونور الأبصار من الظلم ، وقوة الأبدان من الضعف يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى . والتفكر فيه يعدل بالصيام . ومدارسته بالقيام ، به يطاع الله عز وجل وبه يعبد ، وبه يوحد وبه يمجد ، وبه يتورع ، وبه توصل الأرحام وبه يعرف الحلال والحرام ، وهو إمام والعمل تابعه ، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء ، نسأل الله تعالى حسن التوفيق .

---

(١) حديث « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة

(٢) حديث « الدال على الخير كفاعله » أخرجه الترمذى من حديث أنس وقال غريب . ورواه مسلم وأبو داود والترمذى وصححه عن أبى مسعود البدرى بلفظ « من دل على خير فله مثل أجر فاعله »

(٣) حديث « لا حسد إلا فى اثنتين ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن مسعود

(٤) حديث « على خلفائى رحمة الله . . . الحديث » رواه ابن عبد البر فى العلم ، والهروى فى ذم الكلام من حديث الحسن ، فقيل هو ابن على وقيل ابن يسار البصرى فيكون مرسلا ، ولابن السنى وأبى نعيم فى رياضة المتعلمين من حديث على نحوه

(٥) حديث معاذ « تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ... الحديث بطوله » رواه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب ، وابن عبد البر وقال : ليس له إسناد قوى .

فى الشواهد العقلية

اعلم أن المطلوب من هذا الباب معرفة فضيلة العلم ونفاسته ، ومالم تفهم الفضيلة فى نفسها ولم يتحقق المراد منها لم يمكن أن تعلم وجودها صفة للعلم أو لغيره من الخصال ، فلقد ضل عن الطريق من طمع أن يعرف أن زيداً حكيم أم لا ، وهو بعد لم يفهم معنى الحكمة وحقيقتها. والفضيلة مأخوذة من الفضل وهى الزيادة ،فاذا تشارك شيئان فى أمر واختص أحدهما بمزيد يقال فضله وله الفضل عليه مهما كانت زيادته فيما هو كمال ذلك الشىء كما يقال : الفرس أفضل من الحمار بمعنى أنه يشاركه فى قوة الحمل ويزيد عليه بقوة الكر والفر وشدة العدو وحسن الصورة ، فلو فرض حمار اختص بسلعة زائدة لم يقل إنه أفضل ، لأن تلك زيادة فى الجسم ونقصان فى المعنى وليست من الكمال فى شىء ، والحيوان مطلوب لمعناه وصفاته لا لجسمه ، فاذا فهمت هذا لم يخف عليك أن العلم فضيلة إن أخذته بالإضافة إلى سائر الأوصاف ، كما أن للفرس فضيلة إن أخذته بالإضافة إلى سائر الحيوانات ، بل شدة العدو فضيلة فى الفرس وليست فضيلة على الإطلاق ، والعلم فضيلة فى ذاته وعلى الإطلاق من غير إضافة، فانه وصف كمال الله سبحانه وبه شرف الملائكة والأنبياء ، بل الكيس من الخيل خير من البليد فهى فضيلة على الإطلاق من غير إضافة. واعلم أن الشىء النفيس المرغوب فيه ينقسم إلى مايطلب لغيره ، وإلى ما يطلب لذاته ، وإلى ما يطلب لغيره ولذاته جميعا . فما يطلب لذاته أشرف وأفضل مما يطلب لغيره ، والمطلوب لغيره : الدراهم والدنانير فانهما حجران لامنفعة لهما ، ولولا أن الله سبحانه وتعالى يسر قضاء الحاجات بهما لكانا والحصباء بمثابة واحدة . والذى يطلب لذاته : فالسعادة فى الآخرة ولذة النظر لوجه الله تعالى . والذى يطلب لذاته ولغيره فكسلامة البدن ، فان سلامة الرجل مثلا مطلوبة من حيث إنها سلامة للبدن عن الألم ومطلوبة للمشى بها والتوصل إلى المآرب والحاجات ،وبهذا الاعتبار إذا نظرت إلى العلم رأيته لذيذا فى نفسه فيكون مطلوباً لذاته ، ووجدته وسيلة إلى دار الآخرة وسعادتها وذريعة إلى القرب من الله تعالى ولا يتوصل إليه إلا به ،وأعظم الأشياء رتبة فى حق الآدمى السعادة الأبدية وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل ، فأوصل السعادة فى الدنيا والآخرة هو العلم فهو إذن أفضل الأعمال ، وكيف لا وقد تعرف فضيلة الشىء أيضاً بشرف ثمرته ،وقد عرفت أن ثمرة العلم القرب من رب العالمين والالتحاق بأفق الملائكة ومقارنة الملأ الأعلى ، هذا فى الآخرة ، وأما فى الدنيا فالعز والوقار ونفوذ الحكم على الملوك ولزوم الاحترام فى الطباع حتى إن أغبياء الترك وأجلاف العرب يصادفون طباعهم مجبولة على التوقير لشيوخهم لاختصاصهم بمزيد علم مستفاد من التجربة بل البهيمة بطبعها توقر الإنسان لشعورها بتميز الإنسان بكمال مجاوز لدرجتها : هذه فضيلة العلم مطلقا ثم تختلف العلوم كما سيأتى بيانه وتتفاوت لامحالة فضائلها بتفاوتها . وأما فضيلة التعليم والتعلم فظاهرة مما ذكرناه ، فان العلم إذا كان أفضل الأمور كان تعلمه طلبا للأفضل فكان تعليمه إفادة الأفضل ، وبيانه أن مقاصد الخلق مجموعة فى الدين والدنيا ولا نظام للدين إلا بنظام الدنيا ، فان الدنيا مزرعة الآخرة وهى الآلة الموصلة إلى الله عز وجل لمن اتخذها آلة ومنزلا لمن يتخذها مستقراً ووطناً ، وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين . وأعمالهم وحرفهم وصناعاتهم تنحصر فى ثلاثة أقسام :

أحدها أصول لا قوام للعالم دونها ، وهى أربعة : الزراعة ، وهى للمطعم . والحياكة ، وهى للملبس . والبناء ،

وهو للسكن . والسياسة ، وهى للتأليف والاجتماع والتعاون على أسباب المعيشة وضبطها .

الثانى : ما هى مهيئة لكل واحدة من هذه الصناعات وخادمة لها ،كالحدادة فانها تخدم الزراعة وجملة من الصناعات باعداد آلاتها كالحلاجة والغزل فانها تخدم الحياكة باعداد عملها .

الثالث : ماهى متممة للأصول ومزينة ، كالطحن والخبز للزراعة ، وكالقصارة والخياطة للحياكة ، وذلك بالإضافة إلى قوام أمر العالم الأرضى مثل أجزاء الشخص بالإضافة إلى جملته فانها ثلاثة أضرب أيضاً : إما أصول كالقلب والكبد والدماغ . وإما خادمة لها كالمعدة والعروق والشرايين والأعصاب والأوردة ، وإما مكملة لها ومزينة كالأظفار والأصابع والحاجبين ، وأشرف هذه الصناعات أصولها ،وأشرف أصولها السياسة بالتأليف والاستصلاح ولذلك تستدعى هذه الصناعة من الكمال فيمن يتكفل بها ما لا يستدعيه سائر الصناعات ، ولذلك يستخدم لا محالة صاحب هذه الصناعة سائر الصناع والسياسة فى استصلاح الخلق وإرشادهم إلى الطريق المستقيم المنجى فى الدنيا والآخرة على أربع مراتب : الأولى ـ وهى العليا : سياسة الأنبياء عليهم السلام وحكمهم على الخاصة والعامة جميعا فى ظاهرهم وباطنهم . والثانية : الخلفاء والملوك والسلاطين وحكمهم على الخاصة والعامة جميعا ولكن على ظاهرهم لا على باطنهم . والثالثة : العلماء بالله عز وجل وبدينه الذين هم ورثة الأنبياء ، وحكمهم على باطن الخاصة فقط ، ولا يرتفع فهم العامة على الاستفادة منهم ولا تنتهى قوتهم إلى التصرف فى ظواهرهم بالإلزام والمنع والشرع . والرابعة : الوعاظ وحكمهم على بواطن العوام فقط ؛ فأشرف هذه الصناعات الأربع بعد النبوة إفادة العلم وتهذيب نفوس الناس عن الأخلاق المذمومة المهلكة وإرشادهم إلى الأخلاق المحمودة المسعدة وهو المراد بالتعليم ؛ وإنما قلنا إن هذا أفضل من سائر الحرف والصناعات لأن شرف الصناعات يعرف بثلاثة أمور : إما بالالتفات إلى الغريزة التى بها يتوصل إلى معرفتها كفضل العلوم العقلية على اللغوية ؛ إذ تدرك الحكمة بالعقل ، واللغة بالسمع ، والعقل أشرف من السمع ، وإما بالنظر إلى عموم النفع كفضل الزراعة على الصياغة ، وإما بملاحظة المحل الذى فيه التصرف كفضل الصياغة على الدباغة ؛ إذ محل أحدهما الذهب ومحل الآخر جلد الميتة ، وليس يخفى أن العلوم الدينية وهى فقه طريق الآخرة إنما تدرك بكمال العقل وصفاء الذكاء ، والعقل أشرف صفات الإنسان كما سيأتى بيانه ، إذ به تقبل أمانة الله ، وبه يتوصل إلى جوار الله سبحانه . وأما عموم النفع فلا يستراب فيه فان نفعه وثمرته سعادة الآخرة. وأما شرف المحل فكيف يخفى والمعلم متصرف فى قلوب البشر ونفوسهم ، وأشرف موجود على الأرض جنس الإنس ، وأشرف جزء من جواهر الإنسان قلبه ، والمعلم مشتغل بتكميله وتجليته وتطهيره وسياقته إلى القرب من الله عز وجل ، فتعليم العلم من وجه : عبادة لله تعالى ، ومن وجه خلافة لله تعالى ، وهو من أجل خلافة الله، فان الله تعالى قد فتح على قلب العالم العلم الذى هو أخص صفاته ، فهو كالخازن لأنفس خزائنه ؛ ثم هو مأذون له فى الإنفاق منه على كل محتاج إليه ؛ فأى رتبة أجل من كون العبد واسطة بين ربه سبحانه وبين خلقه فى تقريبهم إلى الله زلفى وسياقتهم إلى جنة المأوى ، جعلنا الله منهم بكرمه ، وصلى الله على كل عبد مصطفى .

الباب الثانى

فى العلم المحمود والمذموم ، وأقسامهما وأحكامهما

وفيه بيان ماهو فرض عين وما هو فرض كفاية ، وبيان أن موقع الكلام والفقه من علم الدين إلى أى حد هو وتفضيل علم الآخرة .

بيان العلم الذى هو فرض عين : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم « اطلبوا العلم ولو بالصين » واختلف الناس فى العلم الذى هو فرض على كل مسلم ، فتفرقوا فيه أكثر من عشرين فرقة ، ولا نطيل بنقل التفصيل ، ولكن حاصله أن كل فريق نزل الوجوب على العلم الذى هو بصدده ، فقال المتكلمون : هو علم الكلام ، إذ به يدرك التوحيد ويعلم به ذات الله سبحانه وصفاته ، وقال الفقهاء : هو علم الفقه إذ به تعرف العبادات والحلال والحرام وما يحرم من المعاملات وما يحل ، وعنوا به ما يحتاج إليه الآحاد دون الوقائع النادرة ، وقال المفسرون والمحدثون : هو علم الكتاب والسنة ، إذ بهما يتوصل إلى العلوم كلها . وقال المتصوفة : المراد به هذا العلم ، فقال بعضهم : هو علم العبد بحاله ومقامه من الله عز وجل . وقال بعضهم : هو العلم بالإخلاص وآفات النفوس وتمييز لمة الملك من لمة الشيطان . وقال بعضهم : هو علم الباطن ، وذلك يجب على أقوام مخصوصين هم أهل ذلك وصرفوا اللفظ عن عمومه . وقال أبو طالب المكى : هو العلم بما يتضمنه الحديث الذى فيه مبانى الإسلام ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله (١) » إلى آخر الحديث ؛ لأن الواجب هذه الخمس فيجب العلم بكيفية العمل فيها وبكيفية الوجوب . والذى ينبغى أن يقطع به المحصل ولا يستريب فيه ما سنذكره : وهو أن العلم كما قدمناه فى خطبة الكتاب ينقسم إلى علم معاملة وعلم مكاشفة ، وليس المراد بهذا العلم إلا علم المعاملة . والمعاملة التى كلف العبد العاقل البالغ العمل بها ثلاثة : اعتقاد ، وفعل ، وترك ؛ فاذا بلغ الرجل العاقل بالاحتلام أو السن ضحوة نهار مثلا فأول واجب عليه تعلم كلمتى الشهادة وفهم معناهما وهو قول « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » وليس يجب عليه أن يحصل كشف ذلك لنفسه بالنظر والبحث وتحرير الأدلة ، بل يكفيه أن يصدق به ويعتقده جزما من غير اختلاج ريب واضطراب نفس ، وذلك قد يحصل بمجرد التقليد والسماع من غير بحث ولا برهان ؛ إذ اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجلاف العرب بالتصديق والإقرار من غير تعلم دليل (٢) . فاذا فعل ذلك فقد أدى واجب الوقت وكان العلم الذى هو فرض عين عليه فى الوقت تعلم الكلمتين وفهمهما ، وليس يلزمه أمر وراء هذا فى الوقت ، بدليل أنه لو مات عقيب ذلك مات مطيعاً لله عز وجل غير عاص له ، وإنما يجب غير ذلك بعوارض تعرض وليس ذلك ضروريا فى حق كل شخص بل يتصور الانفكاك عنها ، وتلك العوارض إما أن تكون فى الفعل وإما فى الترك وإما فى الاعتقاد . أما الفعل : فبأن يعيش من ضحوة نهاره إلى وقت الظهر فيتجدد عليه بدخول وقت الظهر تعلم الطهارة والصلاة ، فان كان صحيحاً وكان بحيث لو صبر إلى وقت زوال الشمس لم يتمكن من تمام التعلم والعمل فى الوقت بل يخرج الوقت لو اشتغل بالتعلم ، فلا يبعد أن يقال : الظاهر بقاؤه فيجب عليه تقديم التعلم على الوقت . ويحتمل أن يقال : وجوب العلم الذى هو شرط العمل بعد وجوب العمل فلا يجب قبل الزوال ، وهكذا فى بقية الصلوات فان عاش إلى رمضان تجدد بسببه وجوب تعلم الصوم ؛ وهو أن وقته من الصبح إلى غروب الشمس وأن الواجب فيه النية والإمساك عن الأكل والشرب والوقاع ، وأن ذلك يتمادى إلى رؤية الهلال أو شاهدين ؛ فان تجدد له مال أو كان له مال عند بلوغه لزمه تعلم ما يجب عليه من الزكاة ، ولكن لا يلزمه فى الحال إنما يلزمه عند

(١) حديث « بنى الإسلام على خمس .. الحديث » متفق عليه من حديث ابن عمر (٢) حديث : اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجلاف العرب بالتصديق والإقرار من غير تعلم دليل : مشهور فى كتب السير والحديث ؛ فعند مسلم قصة ضمام بن ثعلبة .

تمـام الحول من وقت الإسلام ، فإن لم يملك إلا الإبل لم يلزمه إلا تعلم زكاة الإبل ، وكذلك فى سائر الأصناف ، فإذا دخل فى أشهر الحج فلا يلزمه المبادرة إلى علم الحج مع أن فعله على التراخى فلا يكون تعلمه على الفور ، ولـكن ينبغى لعلماء الإسلام أن ينبهوه على أن الحج فرض على التراخى على كل من ملك الزاد والراحلة إذا كان هو مالكا حتى ربمـا يرى الحزم لنفسه فى المبادرة فعند ذلك إذا عزم عليه لزمه تعلم كيفية الحج ولم يلزمه إلا تعلم أركانه وواجباته دون نوافله ، فإن فعل ذلك نفل فعلمه أيضاً نفل فلا يـكون تعلمه فرض عين وفى تحريم السكوت عن التنبيه على وجوب أصل الحج فى الحال نظر يليق بالفقه ، وهكذا التدريج فى علم سائر الأفعال التى هى فرض عين . وأما التروك فيجب تعلم ذلك بحسب مايتجدد من الحال ، وذلك يختلف بحال الشخص إذ لا يجب على الأبـكم تعلم مايحرم من الـكلام ، ولا على الأعمى تعلم ما يحرم من النظر ، ولا على البدوى تعلم مايحرم الجلوس فيه من المساكن ، فذلك أيضاً واجب بحسب ما يقتضيه الحال ، فما يعلم أنه ينفك عنه لا يجب تعلمه وماهو ملابس له يجب تنبيهه عليه كما لو كان عند الإسلام لابساً للحرير ، أو جالساً فى الغصب ، أو ناظراً إلى غير ذى محرم : فيجب تعريفه بذلك وما ليس ملابساً له ولـكنه بصدد التعرض له على القرب كالأكل والشرب فيجب تعليمه ، حتى إذا كان فى بلد يتعاطى فيه شرب الخمر وأكل لحم الخنزير فيجب تعليمه ذلك وتنبيهه عليه ، وما وجب تعليمه ، وجب عليه تعلمه . وأما الاعتقادات وأعمال القلوب فيجب علمها بحسب الخواطر ، فإن خطر له شك فى المعانى التى تدل عليها كلمتا الشهادة فيجب عليه تعلم ما يتوصل به إلى إزالة الشك . فإن لم يخطر له ذلك ومات قبل أن يعتقد أن كلام الله سبحانه قديم وأنه مرئى وأنه ليس محلا للحوادث إلى غير ذلك مما يذكر فى المعتقدات ، فقد مات على الإسلام إجماعا ، ولـكن هذه الخواطر الموجبة للاعتقادات بعضها يخطر بالطبع وبعضها يخطر بالسماع من أهل البلد ، فإن كان فى بلد شاع فيه الـكلام وتناطق الناس بالبدع فينبغى أن يصان فى أول بلوغه عنها بتلقين الحق ، فإنه لو ألقى إليه الباطل لوجبت إزالته عن قلبه وربما عسر ذلك كما أنه لو كان هذا المسلم تاجرا وقد شاع فى البلد معاملة الربا وجب عليه تعلم الحذر من الربا ، وهذا هو الحق فى العلم الذى هو فرض عين ومعناه العلم بكيفية العمل الواجب ، فمن علم العلم الواجب ووقت وجوبه فقد علم العلم الذى هو فرض عين ، وما ذكره الصوفية من فهم خواطر العدو ولمة الملك حق أيضاً ولـكن فى حق من يتصدى له ، فإذا كان الغالب أن الإنسان لاينفك عن دواعى الشر والرياء والحسد فيلزمه أن يتعلم من علم ربع المهلـكات ما يرى نفسه محتاجا إليه ، وكيف لا يجب عليه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث مهلـكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه (١) » ولا ينفك عنها بشر ، وبقية ما سنذكره من مذمومات أحوال القلب كالـكبر والعجب وأخواتهمـا تتبع هذه الثلاث المهلـكات ، وإزالتها فرض عين ، ولا يمكن إزالتها إلا بمعرفة حدودها ومعرفة أسبابها ومعرفة علاماتها ومعرفة علاجها : فإن من لا يعرف الشر يقع فيه ، والعلاج هو مقابلة السبب بضده . وكيف يمكن دون معرفة السبب والمسبب وأكثر ما ذكرناه فى ربع المهلـكات من فروض الأعيـان ، وقد تركها الناس كافة اشتغـالا بمـا لا يعنى . وممـا ينبغى أن يبادر فى إلقائه إليه إذا لم يكن قد انتقل عن ملة إلى ملة أخرى : الإيمان بالجنة والنار والحشر والنشر حتى يؤمن به ويصدق ، وهو من تتمة كلمتى الشهادة ، فإنه بعد التصديق بكونه عليه السلام رسولا

---

(١) حديث « ثلاث مهلـكات : شح مطاع . . . الحديث » أخرجه البزار والطبرانى وأبو نعيم والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بإسناد ضعيف .

ينبغى أن يفهم الرسالة التى هو مبلغها : وهو أن من أطاع الله ورسوله فله الجنة ، ومن عصاهما فله النار ، فاذا انتبهت لهذا التدريج علمت أن المذهب الحق هو هذا ، وتحققت أن كل عبد هو فى مجارى أحواله فى يومه وليلته لا يخلو من وقائع فى عباداته ومعاملاته عن تجدد لوازم عليه فيلزمه السؤال عن كل ما يقع له من النوادر ويلزمه المبادرة إلى تعلم ما يتوقع وقوعه على القرب غالبا ، فإذا تبين أنه عليه الصلاة والسلام إنما أراد بالعلم المعرف بالألف واللام فى قوله صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم » علم العمل الذى هو مشهور الوجوب على المسلمين لاغير ، فقد اتضح وجه التدريج ووقت وجوبه ، والله أعلم .

بيان العلم الذى هو فرض كفاية

اعلم أن الفرض لا يتميز عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم ، والعلوم بالإضافة إلى الفرض الذى نحن بصدده تنقسم إلى شرعية وغير شرعية ، وأعنى بالشرعية ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه . ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب ، ولا التجربة مثل الطب . ولا السماع مثل اللغة . فالعلوم التى ليست بشرعية تنقسم إلى ما هو محمود وإلى ما هو مذموم وإلى ما هو مباح ، فالمحمود ما ترتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب ، وذلك ينقسم إلى ماهو فرض كفاية وإلى ماهو فضيلة وليس بفريضة . أما فرض الكفاية فهو كل علم لا يستغنى عنه فى قوام أمور الدنيا كالطب ، إذ هو ضرورى فى حاجة بقاء الأبدان ، وكالحساب فإنه ضرورى فى المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما ، وهذه هى العلوم التى لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد ، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين ، فلا يتعجب من قولنا إن الطب والحساب من فروض الكفايات ، فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفايات كالفلاحة والحياكة والسياسة بل الحجامة والخياطة ، فانه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك إليهم وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك ، فان الذى أنزل الداء أنزل الدواء وأرشد إلى استعماله وأعد الأسباب لتعاطيه ، فلا يجوز التعرض للهلاك باهماله . وأما ما يعد فضيلة لا فريضة فالتعمق فى دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك مما يستغنى عنه ، ولكنه يفيد زيادة قوة فى القدر المحتاج إليه . وأما المذموم منه فعلم السحر والطلسمات وعلم الشعبذة والتلبيسات . وأما المباح منه فالعلم بالأشعار التى لا سخف فيها ، وتواريخ الأخبار وما يجرى مجراه .

وأما العلوم الشرعية وهى المقصودة بالبيان : فهى محمودة كلها ولكن قد يلتبس بها ما يظن أنها شرعية ، وتكون مذمومة فتنقسم إلى المحمودة والمذمومة . أما المحمودة فلها أصول وفروع ومقدمات ومتممات وهى أربعة أضرب (الضرب الأول) الأصول : وهى أربعة كتاب الله عز وجل وسنة رسوله عليه السلام وإجماع الأمة وآثار الصحابة والإجماع أصل من حيث إنه يدل على السنة فهو أصل فى الدرجة الثالثة ، وكذا الأثر فانه أيضاً يدل على السنة ، لأن الصحابة رضى الله عنهم قد شاهدوا الوحى والتنزيل وأدركوا بقرائن الأحوال ما غاب من غيرهم أعيانه وربما لا تحيط العبارات بما أدرك بالقرائن ، فمن هذا الوجه رأى العلماء الاقتداء بهم والتمسك بآثارهم وذلك بشرط مخصوص على وجه مخصوص عند من يراه ولا يليق بيانه بهذا الفن (الضرب الثانى) الفروع : وهو ما فهم من هذه الأصول لا بموجب ألفاظها بل بمعان تنبه لها العقول فاتسع بسببها الفهم حتى فهم من اللفظ الملفوظ به غيره كما فهم من قوله عليه السلام « لا يقضى القاضى وهو غضبان (١) » أنه لا يقضى إذا كان حاقناً أو جائعاً أو متألماً بمرض ،

---

(١) حديث « لا يقضى القاضى وهو غضبان » متفق عليه من حديث أبى بكرة .

وهذا على ضربين ، أحدهما : يتعلق بمصالح الدنيا ويحويه كتب الفقه والمتكفل به الفقهاء وهم علماء الدنيا. والثانى: ما يتعلق بمصالح الآخرة وهو علم أحوال القلب وأخلاقه المحمودة والمذمومة وما هو مرضى عند الله تعالى ، وما هو مكروه وهو الذى يحويه الشطر الأخير من هذا الكتاب ، أعنى جملة كتاب إحياء علوم الدين ، ومنه العلم بما يترشح من القلب على الجوارح فى عباداتها وعاداتها ، وهو الذى يحويه الشطر الأول من هذا الكتاب .

و (الضرب الثالث) المقدمات : وهى التى تجرى منه مجرى الآلات كعلم اللغة والنحو ، فإنهما آلة لعلم كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعية فى أنفسهما ، ولكن يلزم الخوض فيهما بسبب الشرع إذ جاءت هذه الشريعة بلغة العرب وكل شريعة لا تظهر إلا بلغة فيصير تعلم تلك اللغة آلة ومن الآلات علم كتابة الخط إلا أن ذلك ليس ضروريا إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أميا (١). ولو تصور استقلال الحفظ بجميع ما يسمع لاستغنى عن الكتابة ، ولكنه صار بحكم العجز فى الغالب ضروريا .

(الضرب الرابع) المتممات : وذلك فى علم القرآن ، فانه ينقسم إلى ما يتعلق باللفظ كتعلم القراءات ومخارج الحروف ، وإلى ما يتعلق بالمعنى كالتفسير ، فان اعتماده أيضاً على النقل ، إذ اللغة بمجردها لا تستقل به وإلى ما يتعلق بأحكامه كمعرفة الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والنص والظاهر . وكيفية استعمال البعض منه مع البعض ، وهو العلم الذى يسمى أصول الفقه ويتناول السنة أيضاً . وأما المتممات فى الآثار والأخبار فالعلم بالرجال وأسمائهم وأنسابهم وأسماء الصحابة وصفاتهم ، والعلم بالعدالة فى الرواة ، والعلم بأحوالهم ليميز الضعيف عن القوى ، والعلم بأعمارهم ليميز المرسل عن المسند ، وكذلك ما يتعلق به ، فهذه هى العلوم الشرعية وكلها محمودة بل كلها من فروض الكفايات .

فان قلت : لم ألحقت الفقه بعلم الدنيا ؟ فاعلم أن الله عز وجل أخرج آدم عليه السلام من التراب وأخرج ذريته من سلالة من طين ومن ماء دافق ، فأخرجهم من الأصلاب إلى الأرحام ومنها إلى الدنيا ثم إلى القبر ثم إلى العرض ثم إلى الجنة أو إلى النار ، فهذا مبدؤهم وهذه غايتهم وهذه منازلهم . وخلق الدنيا زاداً للمعاد ليتناول منها ما يصلح للتزود ، فلو تناولوها بالعدل لانقطعت الخصومات وتعطل الفقهاء ولكنهم تناولوها بالشهوات فتولدت منها الخصومات فمست الحاجة إلى سلطان يسوسهم واحتاج السلطان إلى قانون يسوسهم به ، فالفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات ، فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طريق سياسة الخلق وضبطهم لتنتظم باستقامتهم أمورهم فى الدنيا ، ولعمرى إنه متعلق أيضاً بالدين ولكن لا بنفسه بل بواسطة الدنيا ، فان الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا يتم الدين إلا بالدنيا . والملك والدين توأمان ، فالدين أصل والسلطان حارس ، وما لا أصل له فمهدوم ، وما لا حارس له فضائع ، ولا يتم الملك والضبط إلا بالسلطان وطريق الضبط فى فصل الحكومات بالفقه . وكما أن سياسة الخلق بالسلطنة ليس من علم الدين فى الدرجة الأولى ، بل هو معين على ما لا يتم الدين إلا به ، فكذلك معرفة طريق السياسة فمعلوم أن الحج لا يتم إلا ببذرقة تحرس من العرب فى الطريق ولكن الحج شىء وسلوك الطريق الى الحج شىء ثان ، والقيام بالحراسة التى لا يتم الحج الا بها شىء ثالث ، ومعرفة طرق الحراسة وحيلها وقوانينها شىء رابع . وحاصل فن الفقه

---

(١) حديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمياً : أى لا يحسن الكتابة : أخرجه ابن مردويه فى التفسير من حديث عبد الله بن عمر مرفوعا «أنا محمد النبى الأمى» وفيه ابن لهيعة ؛ ولابن حبان والدارقطنى والحاكم والبيهقى وصححه من حديث ابن مسعود « قولوا اللهم صل على سيدنا محمد النبى الأمى » وللبخارى من حديث البراء « وأخذ الكتاب وليس يحسن يكتب » .

معرفة طرق السياسة والحراسة ويدل على ذلك ما روى مسنداً « لا يفتى الناس إلا ثلاثة : أمير أو مأمور أو متكلف (١) » فالأمير هو الإمام وقد كانوا هم المفتون ، والمأمور نائبه ، والمتكلف غيرهما : وهو الذى يتقلد تلك العهدة من غير حاجة . وقد كان الصحابة رضى الله عنهم يحترزون عن الفتوى ، حتى كان يحيل كل منهم على صاحبه . وكانوا لا يحترزون إذا سئلوا عن علم القرآن وطريق الآخرة . وفى بعض الروايات بدل المتكلف : المرائى ، فإن من تقلد خطر الفتوى وهو غير متعين للحاجة فلا يقصد به إلا طلب الجاه والمال .

فإن قلت . هذا إن استقام لك فى أحكام الجراحات والحدود والغرامات وفصل الخصومات ، فلا يستقيم فيما يشتمل عليه ربع العبادات من الصيام والصلاة ولا فيما يشتمل عليه ربع العادات من المعاملات من بيان الحلال والحرام ، فاعلم أن أقرب ما يتكلم الفقيه فيه من الأعمال التى هى أعمال الآخرة ثلاثة : الإسلام والصلاة والزكاة والحلال والحرام ، فاذا تأملت منتهى نظر الفقيه فيها علمت أنه لا يجاوز حدود الدنيا إلى الآخرة ، واذا عرفت هذا فى هذه الثلاثة فهو فى غيرها أظهر . أما الإسلام فيتكلم الفقيه فيما يصح منه وفيما يفسد وفى شروطه وليس يلتفت فيه إلا إلى اللسان . وأما القلب فخارج عن ولاية الفقيه لعزل رسول الله صلى الله عليه وسلم أرباب السيوف والسلطنة عنه حيث قال « هلا شققت عن قلبه ؟ (٢) » للذى قتل من يتكلم بكلمة الإسلام معتذرا بأنه قال ذلك من خوف السيف ، بل يحكم الفقيه بصحة الإسلام تحت ظلال السيوف ، مع أنه يعلم أن السيف لم يكشف له عن نيته ولم يدفع عن قلبه غشاوة الجهل والحيرة ، ولكنه مشير على صاحب السيف فإن السيف ممتد إلى رقبته واليد ممتدة إلى ماله وهذه الكلمة باللسان تعصم رقبته وماله ما دام له رقبة ومال ، وذلك فى الدنيا ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم (٣) » جعل أثر ذلك فى الدم والمال . وأما الآخرة فلا تنفع فيها الأموال بل أنوار القلوب وأسرارها وإخلاصها ، وليس ذلك من فن الفقه ، وإن خاض الفقيه فيه كان كما لو خاض فى الكلام والطب ، وكان خارجا عن فنه . وأما الصلاة فالفقيه يفتى بالصحة اذا أتى بصورة الأعمال مع ظاهر الشروط وإن كان غافلا فى جميع صلاته من أولها الى آخرها مشغولا بالتفكير فى حساب معاملاته فى السوق الا عند التكبير ، وهذه الصلاة لا تنفع فى الآخرة ، كما أن القول باللسان فى الإسلام لا ينفع ، ولكن الفقيه يفتى بالصحة أى أن ما فعله حصل به امتثال صيغة الأمر وانقطع به عنه القتل والتعزير ، فأما الخشوع وإحضار القلب الذى هو عمل الآخرة وبه ينفع العمل الظاهر لا يتعرض له الفقيه ولو تعرض له لكان خارجا عن فنه . وأما الزكاة فالفقيه ينظر إلى ما يقطع به مطالبة السلطان حتى إنه إذا امتنع عن أدائها فأخذها السلطان قهراً حكم بأنه برئت ذمته . وحكى أن أبا يوسف القاضى كان يهب ماله لزوجته آخر الحول ويستوهب مالها إسقاطا للزكاة ، فحكى ذلك لأبى حنيفة رحمه الله فقال ذلك من فقهه . وصدق فإن ذلك من فقه الدنيا ولكن مضرته فى الآخرة أعظم من كل جناية ، ومثل هذا هو العلم الضار . وأما الحلال والحرام فالورع من الدين ، ولكن الورع له أربع مراتب :

(الأولى) الورع الذى يشترط فى عدالة الشهادة : وهو الذى يخرج بتركه الإنسان عن أهلية الشهادة والقضاء والولاية وهو الاحتراز عن الحرام الظاهر .

(الثانية) ورع الصالحين : وهو التوقى من الشبهات التى يتقابل فيها الاحتمالات . قال صلى الله عليه وسلم « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « الإثم حزاز القلوب (٥) » .

(١) حديث « لايفتى الناس إلا ثلاثة . . . الحديث » أخرجه ابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بلفظ « لا يقص على الناس » وإسناده حسن . (٢) حديث « هلا شققت عن قلبه » أخرجه مسلم من حديث أسامه ابن زيد . (٣) حديث « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله . . . الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة وعمرو بن عمر . (٤) حديث «دع ماريبك إلى ما لا يريبك» أخرجه الترمذى وصححه والنسائى وابن حبان من حديث الحسن بن على (٥) حديث « الإثم حزاز القلوب » أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان من حديث ابن مسعود ، ورواه العدنى فى مسنده موقوفا عليه .

(الثالثة) ورع المتقين وهو ترك الحلال المحض الذي يخاف منه أداؤه إلى الحرام. قال صلى الله عليه وسلم «لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة مما به بأس(١)» وذلك مثل التورع عن التحدث بأحوال الناس خيفة من الانجرار إلى الغيبة ، والتورع عن أكل الشهوات خيفة من هيجان النشاط والبطر المؤدى إلى مقارفة المحظورات .

(الرابعة) ورع الصديقين وهو الإعراض عما سوى الله تعالى خوفا من صرف ساعة من العمر إلى ما لا يفيد زيادة قرب عند الله عز وجل وإن كان يعلم ويتحقق أنه لا يفضى إلى حرام ، فهذه الدرجات كلها خارجة عن نظر الفقيه إلا الدرجة الأولى : وهو ورع الشهود والقضاة وما يقدح فى العدالة والقيام بذلك لا ينفى الإثم فى الآخرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوابصة « استفت قلبك وإن أفتوك وإن أفتوك وإن أفتوك (٢) » والفقيه لا يتكلم فى حزازات القلوب وكيفية العمل بها بل فيما يقدح فى العدالة فقط ، فإذن جميع نظر الفقيه مرتبط بالدنيا التى بها صلاح طريق الآخرة ، فإن تكلم فى شىء من صفات القلب وأحكام الآخرة فذلك يدخل فى كلامه على سبيل التطفل كما قد يدخل فى كلامه شىء من الطب والحساب والنجوم وعلم الكلام ، وكما تدخل الحكمة فى النحو والشعر . وكان سفيان الثورى وهو إمام فى علم الظاهر يقول : إن طلب هذا ليس من زاد الآخرة ، كيف وقد اتفقوا على أن الشرف فى العلم العمل به فكيف يظن أنه علم الظهار واللعان والسلم والإجارة والصرف ، ومن تعلم هذه الأمور ليتقرب بها إلى الله تعالى فهو مجنون ، وإنما العمل بالقلب والجوارح فى الطاعات ، والشرف هو تلك الأعمال .

فإن قلت : لم سويت بين الفقه والطب إذ الطب أيضاً يتعلق بالدنيا وهو صحة الجسد وذلك يتعلق به أيضاً صلاح الدين ، وهذه التسوية تخالف إجماع المسلمين ؟ فاعلم أن التسوية غير لازمة بل بينهما فرق ، وأن الفقه أشرف منه من ثلاثة أوجه :

(أحدها) أنه علم شرعى إذ هو مستفاد من النبوة ، بخلاف الطب فإنه ليس من علم الشرع .

(والثانى) أنه لا يستغنى عنه أحد من سالكى طريق الآخرة ألبتة لا الصحيح ولا المريض . وأما الطب فلا يحتاج إليه إلا المرضى وهم الأقلون .

(والثالث) أن علم الفقه مجاور لعلم طريق الآخرة لأنه نظر فى أعمال الجوارح ، ومصدر أعمال الجوارح ومنشؤها صفات القلوب ، فالمحمود من الأعمال يصدر عن الأخلاق المحمودة المنجية فى الآخرة ، والمذموم يصدر من المذموم ، وليس يخفى اتصال الجوارح بالقلب . وأما الصحة والمرض فمنشؤهما صفاء فى المزاج والأخلاط وذلك من أوصاف البدن لا من أوصاف القلب ، فمهما أضيف الفقه إلى الطب ظهر شرفه ، وإذا أضيف علم طريق الآخرة إلى الفقه ظهر أيضاً شرف علم طريق الآخرة .

فإن قلت : فصل لى علم طريق الآخرة تفصيلا يشير إلى تراجمه وإن لم يمكن استقصاء تفاصيله : فاعلم أنه قسمان : علم مكاشفة وعلم معاملة ، فالقسم الأول علم المكاشفة وهو علم الباطن وذلك غاية العلوم ، فقد قال بعض العارفين : من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة ، وأدنى نصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله . وقال آخر : من كان فيه خصلتان لم يفتح له بشىء من هذا العلم : بدعة أو كبر . وقيل : من كان محبا للدنيا أو مصرا على هوى لم يتحقق به وقد يتحقق بسائر العلوم ، وأقل عقوبة من ينكره أنه لا يذوق منه شيئا وينشد على قوله :

وارض لمن غاب عنك غيبته   فذاك ذنب عقابه فيه

وهو علم الصديقين والمقربين، أعنى علم المكاشفة، فهو عبارة عن نور يظهر فى القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته

---

(١) حديث « لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به ... الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث السعدى .

(٢) حديث « استفت قلبك وإن أفتوك » أحمد من حديث وابصة .

المذمومة ، وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها فيتوهم لها معانى مجملة غير متضحة ، فتتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه ، وبصفاته الباقيات التامات ،وبأفعاله ، وبحكمه فى خلق الدنيا والآخرة ،ووجه ترتيبه للآخرة على الدنيا ،والمعرفة بمعنى النبوة والنبى ،ومعنى الوحى،ومعنى الشيطان، ومعنى لفظ الملائكة والشياطين، وكيفية معاداة الشياطين للإنسان ،وكيفية ظهور الملك للأنبياء ، وكيفية وصول الوحى إليهم ، والمعرفة بملكوت السموات والأرض ، ومعرفة القلب وكيفية تصادم جنود الملائكة والشياطين فيه. ومعرفة الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان ، ومعرفة الآخرة والجنة والنار وعذاب القبر والصراط والميزان والحساب، ومعنى قوله تعالى ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ ومعنى قوله تعالى ﴿ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ ومعنى لقاء الله عز وجل والنظر إلى وجهه الكريم ومعنى القرب منه والنزول فى جواره ، ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملأ الأعلى ومقارنة الملائكة والنبيين ، ومعنى تفاوت درجات أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض كما يرى الكوكب الدرى فى جوف السماء ، إلى غير ذلك مما يطول تفصيله ، إذ للناس فى معانى هذه الأمور بعد التصديق بأصولها مقامات شتى ، فبعضهم يرى أن جميع ذلك أمثلة وأن الذى أعده الله لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وأنه ليس مع الخلق من الجنة إلا الصفات والأسماء . وبعضهم يرى أن بعضها أمثلة وبعضها يوافق حقائقها المفهومة من ألفاظها ، وكذا يرى بعضهم أن منتهى معرفة الله عز وجل الاعتراف بالعجز عن معرفته ، وبعضهم يدعى أموراً عظيمة فى المعرفة بالله عز وجل ، وبعضهم يقول حد معرفة الله عز وجل ما انتهى إليه اعتقاد جميع العوام : وهو أنه موجود عالم قادر سميع بصير متكلم ، فنعنى بعلم المكاشفة أن يرتفع الغطاء حتى تتضح له جلية الحق فى هذه الأمور اتضاحا يجرى مجرى العيان الذى لا يشك فيه ، وهذا ممكن فى جوهر الإنسان لولا أن مرآة القلب قد تراكم صدؤها وخبثها بقاذورات الدنيا ، وإنما نعنى بعلم طريق الآخرة : العلم بكيفية تصقيل هذه المرآة عن هذه الخبائث التى هى الحجاب عن الله سبحانه وتعالى وعن معرفة صفاته وأفعاله ، وإنما تصفيتها وتطهيرها بالكف عن الشهوات والاقتداء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فى جميع أحوالهم ، فبقدر ما ينجلى من القلب ويحاذى به شطر الحق يتلألأ فيه حقائقه ، ولا سبيل إليه إلا بالرياضة التى يأتى تفصيلها فى موضعها ، وبالعلم والتعليم ، وهذه هى العلوم التى لا تسطر فى الكتب ولا يتحدث بها من أنعم الله عليه بشىء منها إلا مع أهله ، وهو المشارك فيه على سبيل المذاكرة ، وبطريق الأسرار ، وهذا هو العلم الخفى الذى أراده صلى الله عليه وسلم بقوله « إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله تعالى ، فاذا نطقوا به لم يجهله إلا أهل الاغترار بالله تعالى فلا تحقروا عالماً آتاه الله تعالى علماً منه ، فان الله عز وجل لم يحقره إذ آتاه إياه (١) » . وأما القسم الثانى : وهو علم المعاملة ، فهو علم أحوال القلب . أما ما يحمد منها فكالصبر ، والشكر ، والخوف ، والرجاء ، والرضا ، والزهد ، والتقوى ، والقناعة ، والسخاء ، ومعرفة المنة لله تعالى فى جميع الأحوال ، والإحسان ، وحسن الظن ، وحسن الخلق ، وحسن المعاشرة ، والصدق ، والإخلاص ، فمعرفة حقائق هذه الأحوال وحدودها وأسبابها التى بها تكتسب وثمرتها وعلاماتها ومعالجة ما ضعف منها حتى يقوى وما زال حتى يعود من علم الآخرة .

---

(١) حديث « إن من العلم كهيئة المكنون ... الحديث » رواه أبو عبد الرحمن السلمى فى الأربعين له فى التصوف من حديث أبى هريرة بإسناد ضعيف .

وأما ما يذم ؛ فخوف الفقر ، وسخط المقدور ، والغل ، والحقد ، والحسد ، والغش ، وطلب العلو ، وحب الثناء ، وحب طول البقاء فى الدنيا للتمتع ، والكبر ، والرياء ، والغضب ، والأنفة ، والعداوة ، والبغضاء ، والطمع ، والبخل ، والرغبة ، والبذخ ، والأشر ، والبطر ، وتعظيم الأغنياء ، والاستهانة بالفقراء ، والفخر ، والخيلاء ، والتنافس ، والمباهاة والاستكبار عن الحق ، والخوض فيما لا يعنى ، وحب كثرة الكلام ، والصلف ، والتزين للخلق ، والمداهنة ، والعجب ، والاشتغال عن عيوب النفس بعيوب الناس ، وزوال الحزن من القلب ، وخروج الخشية منه ، وشدة الانتصار للنفس إذا نالها الذل ، وضعف الانتصار للحق ، واتخاذ إخوان العلانية على عداوة السر ، والأمن من مكر الله سبحانه فى سلب ما أعطى ، والاتكال على الطاعة ، والمكر ، والخيانة ، والمخادعة ، وطول الأمل ، والقسوة ، والفظاظة ، والفرح بالدنيا والأسف على فواتها ، والأنس بالمخلوقين والوحشة لفراقهم والجفاء ، والطيش ، والعجلة ، وقلة الحياء ، وقلة الرحمة ؛ فهذه وأمثالها من صفات القلب مغارس الفواحش ومنابت الأعمال المحظورة . وأضدادها ـ وهى الأخلاق المحمودة ـ منبع الطاعات والقربات ، فالعلم بحدود هذه الأمور وحقائقها وأسبابها وثمراتها وعلاجها هو علم الآخرة ، وهو فرض عين فى فتوى علماء الآخرة ، فالمعرض عنها هالك بسطوة ملك الملوك فى الآخرة ، كما أن المعرض عن الأعمال الظاهرة هالك بسيف سلاطين الدنيا بحكم فتوى فقهاء الدنيا ، فنظر الفقهاء فى فروض العين بالإضافة إلى صلاح الدنيا ، وهذا بالإضافة إلى صلاح الآخرة . ولو سئل فقيه عن معنى من هذه المعانى حتى عن الإخلاص مثلا أو عن التوكل أو عن وجه الاحتراز عن الرياء لتوقف فيه مع أنه فرض عينه الذى فى إهماله هلاكه فى الآخرة ، ولو سألته عن اللعان والظهار والسبق والرمى لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التى تنقضى الدهور ولا يحتاج إلى شىء منها ، وإن احتيج لم تخل البلد عمن يقوم بها ويكفيه مؤنة التعب فيها ، فلا يزال يتعب فيها ليلا ونهارا وفى حفظه ودرسه ويغفل عما هو مهم نفسه فى الدين : وإذا روجع فيه قال : اشتغلت به لأنه علم الدين وفرض الكفاية ويلبس على نفسه وعلى غيره فى تعلمه ، والفطن يعلم أنه لو كان غرضه أداء حق الأمر فى فرض الكفاية لقدم عليه فرض العين ، بل قدم عليه كثيراً من فروض الكفايات ، فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه ، ثم لا نرى أحداً يشتغل به ، ويتهاترون على علم الفقه لا سيما الخلافيات والجدليات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع ، فليت شعرى كيف يرخص فقهاء الدين فى الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة وإهمال ما لا قائم به ؟ هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى تولى الأوقاف والوصايا وحيازة مال الأيتام وتقلد القضاء والحكومة والتقدم به على الأقران والتسلط به على الأعداء ؟

هيهات هيهات ، قد اندرس علم الدين بتلبيس العلماء السوء ، فالله تعالى المستعان وإليه الملاذ فى أن يعيذنا من هذا الغرور الذى يسخط الرحمن ويضحك الشيطان ، وقد كان أهل الورع من علماء الظاهر مقرين بفضل علماء الباطن وأرباب القلوب : كان الإمام الشافعى رضى الله عنه يجلس بين يدى شيبان الراعى كما يقعد الصبى فى المكتب ويسأله : كيف يفعل فى كذا وكذا ؟ فيقال له : مثلك يسأل هذا البدوى؟ فيقول : إن هذا وفق لما أغفلناه .

وكان أحمد بن حنبل رضى الله عنه ويحى بن معين يختلفان إلى معروف الكرخى ولم يكن فى علم الظاهر بمنزلتهما وكانا يسألانه ، وكيف وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما قيل له : كيف نفعل إذا جاءنا أمر لم نجده فى كتاب ولا سنة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « سلوا الصالحين واجعلوه شورى

بينهم(١) ، ولذلك قيل : علماء الظاهر زينة الأرض والملك، وعلماء الباطن زينة السماء والملكوت. وقال الجنيد رحمه الله: قال لى السرى شيخى يوما : إذا قمت من عندى فمن تجالس ؟ قلت :المحاسبى، فقال : نعم خذ من علمه وأدبه ، ودع عنك تشقيقه الكلام ورده على المتكلمين ، ثم لما وليت سمعته يقول : جعلك الله صاحب حديث صوفيا ولا جعلك صوفيا صاحب حديث . أشار إلى أن من حصل الحديث والعلم ثم تصوف أفلح ، ومن تصوف قبل العلم خاطر بنفسه .

فإن قلت : فلم لم تورد فى أقسام العلوم : الكلام والفلسفة ، وتبين أنهما مذمومان أو محمودان ؟ فاعلم أن حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلة التى ينتفع بها ، فالقرآن والأخبار مشتملة عليه ، وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة وهى من البدع كما سيأتى بيانه ، وإما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق لها ، وتطويل بنقل المقالات التى أكثرها ترهات وهذيانات تزدريها الطباع وتمجها الأسماع ، وبعضها خوض فيما لا يتعلق بالدين ولم يكن شىء منه مألوفا فى العصر الأول وكان الخوض فيه بالكلية من البدع ، ولكن تغير الآن حكمه إذ حدثت البدعة الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة ، ونبعت جماعة لفقوا لها شبها ورتبوا فيها كلاما مؤلفا ، فصار ذلك المحذور بحكم الضرورة مأذونا فيه ، بل صار من فروض الكفايات وهو القدر الذى يقابل به المبتدع إذا قصد الدعوة إلى البدعة ، وذلك إلى حد محدود ـ سنذكره فى الباب الذى يلى هذا إن شاء الله تعالى ـ وأما الفلسفة فليست علما برأسها بل هى اربعة أجزاء (أحدها) الهندسة والحساب : وهما مباحان كما سبق ولا يمنع عنهما إلا من يخاف عليه أن يتجاوز بهما إلى علوم مذمومة ، فإن أكثر الممارسين لها قد خرجوا منهما إلى البدع ، فيصان الضعيف عنهما ـ لا لعينهما ـ كما يصان الصبى عن شاطىء النهر خيفة عليه من الوقوع فى النهر ، وكما يصان حديث العهد بالإسلام عن مخالطة الكفار خوفا عليه ، مع أن القوى لا يندب إلى مخالطتهم (الثانى) المنطق : وهو بحث عن وجه الدليل وشروطه ، ووجه الحد وشروطه ، وهما داخلان فى علم الكلام (والثالث) الإلهيات : وهو بحث عن ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته، وهو داخل فى الكلام أيضاً ، والفلاسفة لم ينفردوا فيها بنمط آخر من العلم . بل انفردوا بمذاهب : بعضها كفر وبعضها بدعة ، وكما أن الاعتزال ليس علماً برأسه بل أصحابه طائفة من المتكلمين وأهل البحث والنظر انفردوا بمذاهب باطلة ، فكذلك الفلاسفة (والرابع) الطبيعيات : وبعضها مخالف للشرع والدين الحق ، فهو جهل وليس بعلم حتى تورد فى أقسام العلوم ، وبعضها بحث عن صفات الأجسام وخواصها وكيفية استحالتها وتغيرها ، وهو شبيه بنظر الأطباء ،إلا أن الطبيب ينظر فى بدن الإنسان على الخصوص من حيث يمرض ويصح ، وهم ينظرون فى جميع الأجسام من حيث تتغير وتتحرك ، ولكن للطب فضل عليه وهو أنه محتاج إليه . وأما علومهم فى الطبيعيات فلا حاجة إليها فإذا الكلام صار من جملة الصناعات الواجبة على الكفاية حراسة لقلوب العوام عن تخييلات المبتدعة ، وإنما حدث ذلك بحدوث البدع كما حدثت حاجة الإنسان إلى استئجار البذرقة فى طريق الحج بحدوث ظلم العرب وقطعهم الطريق ،ولو ترك العرب عدوانهم لم يكن استئجار الحراس من شروط طريق الحج ، فلذلك لو ترك المبتدع هذيانه لما افتقر إلى الزيادة على ما عهد فى عصر الصحابة رضى الله عنهم ، فليعلم المتكلم حده من الدين وأن موقعه منه موقع الحارس فى طريق الحج ، فإذا تجرد الحارس للحراسة لم يكن من جملة الحاج ، والمتكلم إذا تجرد للمناظرة والمدافعة ولم يسلك طريق الآخرة ولم يشتغل بتعهد

---

(١) حديث : قيل له كيف نفعل إذا جاء أمر لم نجده فى كتاب الله ولا سنة رسوله ؟ .. الحديث . رواه الطبرانى من حديث ابن عباس وفيه عبد الله بن كيسان ضعفه الجمهور .

والقلب وصلاحه لم يكن من جملة علماء الدين أصلا ، وليس عند المتكلم من الدين إلا العقيدة التى شاركه فيها سائر العوام وهى من جملة أعمال ظاهر القلب واللسان ، وإنما يتميز عن العامى بصنعة المجادلة والحراسة ، فأما معرفة الله تعالى وصفاته وأفعاله وجميع ما أشرنا إليه فى علم المكاشفةفلا يحصل من علم الكلام ، بل يكاد أن يكون الكلام حجابا عليه ومانعاً عنه ، وإنما الوصول إليه بالمجاهدة التى جعلها الله سبحانه مقدمة للهداية حيث قال تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ ٭ فإن قلت : فقد رددت حد المتكلم إلى حراسة عقيدة العوام عن تشويش المبتدعة ، كما أن حد البذرقة حراسة أقمشة الحجيج عن نهب العرب ، ورددت حد الفقيه إلى حفظ القانون الذى به يكف السلطان شر بعض أهل العدوان عن بعض ، وهاتان رتبتان نازلتان بالإضافة إلى علم الدين ، وعلماء الأمة المشهورون بالفضل هم الفقهاء والمتكلمين وهم أفضل الخلق عند الله تعالى ، فكيف تنزل درجاتهم إلى هذه المنزلة السافلة بالإضافة إلى علم الدين ؟ فاعلم أن من عرف الحق بالرجال حار فى متاهات الضلال ، فاعرف الحق تعرف أهله إن كنت سالكا طريق الحق ، وإن قنعت بالتقليد والنظر إلى ما اشتهر من درجات الفضل بين الناس فلا تغفل عن الصحابة وعلو منصبهم ، فقد أجمع الذين عرضت بذكرهم على تقدمهم وأنهم لا يدرك فى الدين شأوهم ولا يشق غبارهم ، ولم يكن تقدمهم بالكلام والفقه بل بعلم الآخرة وسلوك طريقها ، وما فضل أبو بكر رضى الله عنه الناس بكثرة صيام ولا صلاة ولا بكثرة رواية ولا فتوى ولا كلام ، ولكن بشىء وقر فى صدره [1] كما شهدله سيد المرسلين صلى الله تعالى عليه وسلم ، فليكن حرصك فى طلب السر فهو الجوهر النفيس والدر المكنون ، ودع عنك ما تطابق أكثر الناس عليه وعلى تفخيمه وتعظيمه لأسباب ودواع يطول تفصيلها ، فلقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آلاف من الصحابة رضى الله عنهم كلهم علماء بالله ، أثنى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن فيهم أحد يحسن صنعة الكلام ، ولا نصب نفسه للفتيا منهم أحد إلا بضعة عشر رجلا ، ولقد كان ابن عمر رضى الله عنهما منهم ، وكان إذا سئل عن الفتيا يقول للسائل : اذهب إلى فلان الأمير الذى تقلد أمور الناس ، وضعها فى عنقه إشارة إلى أن الفتيا فى القضايا والأحكام من توابع الولاية والسلطنة ، ولما مات عمر رضى الله عنه قال ابن مسعود : مات تسعة أعشار العلم ، فقيل له : أتقول ذلك وفينا جلة الصحابة ؟ فقال : لم أرد علم الفتيا والأحكام وإنما أريد العلم بالله تعالى ، أفترى أنه أراد صنعة الكلام والجدل ، فما بالك لا تحرص على معرفة ذلك العلم الذى مات بموت عمر تسعة أعشاره ، وهو الذى سد باب الكلام والجدل وضرب ضبيعا بالدرة لما أورد عليه سؤالا فى تعارض آيتين فى كتاب الله ، وهجره وأمر الناس بهجره وأما قولك إن المشهورين من العلماء هم الفقهاء والمتكلمون : فاعلم أن ما ينال به الفضل عند الله شىء وما ينال به الشهرة عند الناس شىء آخر ، فلقد كان شهرة أبى بكر الصديق رضى الله عنه بالخلافة وكان فضله بالسر الذى وقر فى قلبه . وكان شهرة عمر رضى الله عنه بالسياسة وكان فضله بالعلم بالله الذى مات تسعة أعشاره بموته ، وبقصده التقرب إلى الله عز وجل فى ولايته وعدله وشفقته على خلقه ، وهو أمر باطن فى سره ، فأما سائر أفعاله الظاهرة فيتصور صدورها من طالب الجاه والاسم والسمعة والراغب فى الشهرة ، فتكون الشهرة فيما هو المهلك ، والفضل فيما هو سر لا يطلع عليه أحد ، فالفقهاء والمتكلمون مثل الخلفاء والقضاة والعلماء ، وقد انقسموا : فمنهم من أراد الله سبحانه بعلمه وفتواه وذبه عن

---

(١) حديث «مافضل أبو بكر الناس بكثرة صلاة ولا بكثرة صيام . . الحديث » أخرجه الترمذى الحكيم فى النوادر من قول أبى بكر بن عبد الله المزنى ولم أجده مرفوعا .

سنة نبيه ولم يطلب به رياء ولا سمعة . فأولئك أهل رضوان الله تعالى وفضلهم عند الله لعملهم بعلمهم ولإرادتهم وجه الله سبحانه بفتواهم ونظرهم ، فان كل علم عمل فانه فعل مكتسب ، وليس كل عمل علما ، والطبيب يقدر على التقرب إلى الله تعالى بعلمه فيكون مثابا على علمه من حيث إنه عامل الله سبحانه وتعالى به ، والسلطان يتوسط بين الخلق لله فيكون مرضيا عند الله سبحانه ومثابا ، لا من حيث إنه متكفل بعلم الدين ، بل من حيث هو متقلد بعمل يقصد به التقرب إلى الله عز وجل بعلمه . وأقسام ما يتقرب به إلى الله تعالى ثلاثة : علم مجرد وهو علم المكاشفة ، وعمل مجرد وهو كعدل السلطان مثلا وضبطه للناس ، ومركب من عمل وعلم وهو علم طريق الآخرة فان صاحبه من العلماء والعمال جميعاً ، فانظر إلى نفسك أتكون يوم القيامة فى حزب علماء الله ، وأعمال الله تعالى ، أو فى حزبيهما فتضرب بسهمك مع كل فريق منهما فهذا أهم عليك من التقليد لمجرد الاشتهار كما قيل :

خـــذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به فى طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

على أنا سننقل من سيرة فقهاء السلف ما تعلم به أن الذين انتحلوا مذاهبهم ظلموهم وأنهم من أشد خصمائهم يوم القيامة فانهم ما قصدوا بالعلم إلا وجه الله تعالى ، وقد شوهد من أحوالهم ما هو من علامات علماء الآخرة كما سيأتى بيانه فى باب علامات علماء الآخرة ، فانهم ما كانوا متجردين لعلم الفقه بل كانوا مشتغلين بعلم القلوب ومراقبين لها ، ولكن صرفهم عن التدريس والتصنيف فيه ما صرف الصحابة عن التصنيف والتدريس فى الفقه ، مع أنهم كانوا فقهاء مستقلين بعلم الفتوى ، والصوارف والدواعى متيقنة ، ولا حاجة إلى ذكرها .

ونحن الآن نذكر من أحوال فقهاء الإسلام ما تعلم به أن ما ذكرناه ليس طعنا فيهم بل هو طعن فيمن أظهر الاقتداء بهم منتحلا مذاهبهم وهو مخالف لهم فى أعمالهم وسيرهم ، فالفقهاء الذين هم زعماء الفقه وقادة الخلق - أعنى الذين كثر أتباعهم فى المذاهب خمسة : الشافعى ، ومالك ، وأحمد بن حنبل ، وأبو حنيفة ، وسفيان الثورى رحمهم الله تعالى . وكل واحد منهم كان عابداً وزاهداً وعالما بعلوم الآخرة وفقيها فى مصالح الخلق فى الدنيا ومريداً بفقهه وجه الله تعالى ؛ فهذه خمس خصال اتبعهم فقهاء العصر من جملتها على خصلة واحدة وهى التشمير والمبالغة فى تفاريع الفقه ، لأن الخصال الأربع لا تصلح إلا للآخرة . وهذه الخصلة الواحدة تصلح للدنيا والاخرة ، إن أريد بها الاخرة قل صلاحها للدنيا شمروا لها وادعوا بها مشابهة أولئك الأئمة . وهيهات أن تقاس الملائكة بالحدادين ؛ فلنورد الآن من أحوالهم ما يدل على هذه الخصال الأربع ؛ فان معرفتهم بالفقه ظاهرة .

أما الإمام الشافعى رحمه الله تعالى فيدل على أنه كان عابدا : روى أنه كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء : ثلثاً للعلم ، وثلثاً للعبادة ، وثلثا للنوم . قال الربيع : كان الشافعى رحمه الله يختم القرآن فى رمضان ستين مرة كل ذلك فى الصلاة . وكان البويطى أحد أصحابه يختم القرآن فى رمضان فى كل يوم مرة . وقال الحسن الكرابيسى : بت مع الشافعى غير ليلة فكان يصلى نحواً من ثلث الليل فما رأيته يزيد على خمسين آية . فاذا أكثر فمائة آية . وكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل الله تعالى لنفسه ولجميع المسلمين والمؤمنين . ولا يمر بآية عذاب إلا تعوذ فيها وسأل النجاة لنفسه وللمؤمنين . وكأنما جمع له الرجاء والخوف معا . فانظر كيف يدل اقتصاره على خمسين آية على تبحره فى أسرار القرآن وتدبره فيها وقال الشافعى رحمه الله : ما شبعت منذ ست عشرة سنة لأن الشبع يثقل البدن ويقسى القلب ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة . فانظر إلى حكمته فى ذكر آفات الشبع ، ثم فى جده فى العبادة إذ طرح الشبع لأجلها . ورأس التعبد تقليل الطعام . وقال الشافعى رحمه الله : ما حلفت بالله تعالى لا صادقا ولا كاذبا قط . فانظر

إلى حرمته وتوقيره لله تعالى ، ودلالة ذلك على علمه بجلال الله سبحانه . وسئل الشافعي رضي الله عنه عن مسئلة فسكت ، فقيل له : ألا تجيب رحمك الله ؟ فقال : حتى أدري الفضل في سكوتي أو في جوابي ؟ فانظر في مراقبته للسانه مع أنه أشد الأعضاء تسلطا على الفقهاء وأعصاها عن الضبط والقهر ، وبه يستبين أنه كان لا يتكلم ولا يسكت إلا لنيل الفضل وطلب الثواب . وقال أحمد بن يحيى بن الوزير : خرج الشافعي رحمه الله تعالى يوما من سوق القناديل فتبعناه فاذا رجل يسفه على رجل من أهل العلم ، فالتفت الشافعي إلينا وقال : نزهوا أسماعكم عن استماع الخنا كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به ، فان المستمع شريك القائل ، وإن السفيه لينظر إلى أخبث شيء في إنائه فيحرص أن يفرغه في أوعيتكم ولو ردت كلمة السفيه لسعد رادها كما شقي بها قائلها . وقال الشافعي رضي الله عنه : كتب حكيم إلى حكيم : قد أوتيت علما فلا تدنس علمك بظلمة الذنوب فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم . وأما زهده رضي الله عنه فقد قال الشافعي رحمه الله : من ادعى أنه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها في قلبه فقد كذب . وقال الحميدي : خرج الشافعي رحمه الله إلى اليمن مع بعض الولاة فانصرف إلى مكة بعشرة آلاف درهم فضرب له خباء في موضع خارجا من مكة فكان الناس يأتونه ، فما برح من موضعه ذلك حتى فرقها كلها . وخرج من الحمام مرة فأعطى الحمامي مالا كثيرا . وسقط سوطه من يده مرة فرفعه إنسان إليه فأعطاه جزاء عليه خمسين دينارا . وسخاوة الشافعي رحمه الله أشهر من أن تحكى ورأس الزهد السخاء . لأن من أحب شيئا أمسكه ولم يفارق المال إلا من صغرت الدنيا في عينه وهو معنى الزهد . ويدل على قوة زهده وشدة خوفه من الله تعالى واشتغال همته بالآخرة : ما روى أنه روى سفيان بن عيينة حديثا في الرقائق فغشي على الشافعي فقيل له : قد مات ، فقال : إن مات فقد مات أفضل زمانه . وما روى عبد الله بن محمد البلوي قال : كنت أنا وعمر بن نباته جلوسا نتذاكر العباد والزهاد فقال لي عمر : ما رأيت أورع ولا أفصح من محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه : خرجت أنا وهو والحارث بن لبيد إلى الصفا وكان الحارث تلميذ الصالح المري فافتتح يقرأ وكان حسن الصوت ، فقرأ هذه الآية عليه ﴿ هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ فرأيت الشافعي رحمه الله وقد تغير لونه واقشعر جلده واضطرب اضطرابا شديدا وخر مغشيا عليه ، فلما أفاق جعل يقول : أعوذ بك من مقام الكاذبين وإعراض الغافلين ، اللهم لك خضعت قلوب العارفين وذلت لك رقاب المشتاقين ، إلهي هب لي جودك وجللني بسترك واعف عن تقصيري بكرم وجهك . قال : ثم مشى وانصرفنا فلما دخلت بغداد وكان هو بالعراق فقعدت على الشط أتوضأ للصلاة إذ مر بي رجل فقال لي : يا غلام أحسن وضوءك أحسن الله إليك في الدنيا والآخرة ، فالتفت فاذا أنا برجل يتبعه جماعة ، فأسرعت في وضوئي وجعلت أقفو أثره ، فالتفت إلي فقال : هل لك من حاجة ؟ فقلت : نعم ، تعلمني مما علمك الله شيئا ، فقال لي : اعلم أن من صدق الله نجا ، ومن أشفق على دينه سلم من الردى ، ومن زهد في الدنيا قرت عيناه مما يراه من ثواب الله تعالى غدا ، أفلا أزيدك ؟ قلت : نعم . قال : من كان فيه ثلاث خصال فقد استكمل الإيمان : من أمر بالمعروف وائتمر ونهى عن المنكر وانتهى ، وحافظ على حدود الله تعالى ، ألا أزيدك ؟ قلت : بلى ، فقال : كن في الدنيا زاهدا وفي الآخرة راغبا وأصدق الله تعالى في جميع أمورك تنج مع الناجين ، ثم مضى ، فسألت : من هذا ؟ فقالوا هو الشافعي فانظر إلى سقوطه مغشيا عليه ، ثم إلى وعظه كيف يدل ذلك على زهده وغاية خوفه ؛ ولا يحصل هذا الخوف والزهد إلا من معرفة الله عز وجل فانه ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ولم يستفد الشافعي رحمه الله هذا الخوف والزهد من علم كتاب السلم والإجارة وسائر كتب الفقه ، بل هو من علوم الآخرة المستخرجة من القرآن والأخبار إذ حكم الأولين والآخرين مودعة فيهما .

وأما كونه عالما بأسرار القلب وعلوم الآخرة فتعرفه من الحكم المأثورة عنه ، روى أنه سئل عن الرياء فقال على البديهة : الرياء فتنة عقدها الهوى حيال أبصار قلوب العلماء فنظروا إليها بسوء اختيار النفوس فأحبطت أعمالهم .

وقال الشافعي رحمه الله تعالى : اذا أنت خفت على عملك العجب فانظر رضا من تطلب ؟ وفى أى ثواب ترغب؟ ومن أى عقاب ترهب ؟ وأى عافية تشكر ؟ وأى بلاء تذكر ؟ فإنك اذا تفكرت فى واحدة من هذه الخصال صغر فى عينك عملك ، فانظر كيف ذكر حقيقة الرياء وعلاج العجب وهما من كبار آفات القلب .

وقال الشافعي رضى الله عنه : من لم يصن نفسه لم ينفعه علمه . وقال رحمه الله : من أطاع الله تعالى بالعلم نفعه سره . وقال : ما من أحد إلا له محب ومبغض ، فإذا كان كذلك فكن مع أهل طاعة الله عز وجل ، وروى أن عبد القاهر بن عبد العزيز كان رجلا صالحا ورعا وكان يسأل الشافعي رضى الله عنه عن مسائل فى الورع والشافعي رحمه الله يقبل عليه لورعه ، وقال للشافعي يوما : أيما أفضل الصبر أو المحنة أو التمكين ، فقال الشافعي رحمه الله : التمكين درجة الأنبياء ، ولا يكون التمكين إلا بعد المحنة ، فاذا امتحن صبر وإذا صبر مكن ، ألا ترى أن الله عز وجل امتحن إبراهيم عليه السلام ثم مكنه ، وامتحن موسى عليه السلام ثم مكنه ، وامتحن أيوب عليه السلام ثم مكنه وامتحن سليمان عليه السلام ثم مكنه وآتاه ملكا ، والتمكين أفضل الدرجات ، قال الله عز وجل ﴿ وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ﴾ وأيوب عليه السلام بعد المحنة العظيمة مكن ، قال الله تعالى ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم - الآية ﴾ فهذا الكلام من الشافعي رحمه الله يدل على تبحره فى أسرار القرآن واطلاعه على مقامات السائرين إلى الله تعالى من الأنبياء والأولياء ، وكل ذلك من علوم الآخرة .

وقيل للشافعي رحمه الله : متى يكون الرجل عالما ؟ قال : إذا تحقق فى علم فعلمه ، وتعرض لسائر العلوم فنظر فيما فاته فعند ذلك يكون عالما ، فإنه قيل لجالينوس إنك تأمر للداء الواحد بالأدوية الكثيرة المجمعة ! فقال : إنما المقصود منها واحد وانما يجعل معه غيره لتسكن حدته لأن الإفراد قاتل ، فهذا وأمثاله مما لا يحصى يدل على علو رتبته فى معرفة الله تعالى وعلوم الاخرة .

وأما إرادته بالفقه والمناظرة فيه وجه الله تعالى : فيدل عليه ما روى عنه أنه قال : وددت أن الناس انتفعوا بهذا العلم وما نسب إلى شيء منه ، فانظر كيف اطلع على آفة العلم وطلب الاسم له وكيف كان منزه القلب عن الالتفات إليه بجرد النية فيه لوجه الله تعالى . وقال الشافعي رضى الله عنه: ما ناظرت أحداً قط فأحببت أن يخطىء . وقال : ما كلمت أحداً قط الا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان ويكون عليه رعاية من الله تعالى وحفظ ، وما كلمت أحداً قط وأنا أبالى أن يبين الله الحق على لسانى أو على لسانه . وقال : ما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلها منى الا هبته واعتقدت محبته ، ولا كابرنى أحد على الحق ودافع الحجة الا سقط من عينى ورفضته ، فهذه العلامات هى التى تدل على إرادة الله تعالى بالفقه والمناظرة ، فانظر كيف تابعه الناس من جملة هذه الخصال الخمس على خصلة واحدة فقط ، ثم كيف خالفوه فيها أيضا . ولهذا قال أبو ثور رحمه الله : ما رأيت ولا رأى الراءون مثل الشافعي رحمه الله تعالى . وقال أحمد بن حنبل رضى الله عنه : ما صليت صلاة منذ أربعين سنة الا وأنا أدعو للشافعي رحمه الله تعالى ، فانظر إلى إنصاف الداعي وإلى درجه المدعو له وقس به الأقران والأمثال من العلماء فى هذه الأعصار وما بينهم من المشاحنة والبغضاء لتعلم تقصيرهم فى دعوى الاقتداء بهؤلاء . ولكثرة دعائه له قال له ابنه : أى رجل كان الشافعي حتى تدعو له كل هذا الدعاء ؟ فقال أحمد : يا بنى كان الشافعي رحمه الله تعالى كالشمس للدنيا وكالعافية للناس ، فانظر هل لهذين من خلف . وكان أحمد رحمه الله يقول : ما مس أحد بيده محبرة إلا وللشافعي رحمه الله فى عنقه منة . وقال يحي بن سعيد القطان :

ما صليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو فيها للشافعي لما فتح الله عز وجل عليه من العلم ووفقه للسداد فيه . ولنقتصر على هذه النبذة من أحواله فإن ذلك خارج عن الحصر ، وأكثر هذه المناقب نقلناه من الكتاب الذي صنفه الشيخ نصر بن إبراهيم المقدسي رحمه الله تعالى في مناقب الشافعي رضي الله عنه وعن جميع المسلمين .

وأما الإمام مالك رضي الله عنه فإنه كان أيضاً متحلياً بهذه الخصال الخمس ، فإنه قيل له : ما تقول يامالك في طلب العلم ؟ فقال : حسن جميل ولكن انظر إلى الذي يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي فالزمه ، وكان رحمه الله تعالى في تعظيم علم الدين مبالغاً ، حتى كان إذا أراد أن يحدث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته واستعمل الطيب وتمكن من الجلوس على وقار وهيبة ثم حدث ، فقيل له في ذلك فقال : أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال مالك : العلم نور يجعله الله حيث يشاء وليس بكثرة الرواية ، وهذا الاحترام والتوقير يدل على قوة معرفته بجلال الله تعالى . وأما إرادته وجه الله تعالى بالعلم فيدل عليه قوله : الجدال في الدين ليس بشيء . ويدل عليه قول الشافعي رحمه الله : إني شهدت مالكا وقد سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها : لا أدري . ومن يرد غير وجه الله تعالى بعلمه فلا تسمح نفسه بأن يقر على نفسه بأنه لايدري ، ولذلك قال الشافعي رضي الله عنه : إذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب ، وما أحد أمن علي من مالك . وروى أن أبا جعفر المنصور منعه من رواية الحديث في طلاق المكره ثم دس عليه من يسأله ، فروى على ملأ من الناس : ليس على مستكره طلاق . فضربه بالسياط ، ولم يترك رواية الحديث . وقال مالك رحمه الله : ما كان رجل صادقا في حديثه ولا يكذب إلا متع بعقله ولم يصبه مع الهرم آفة ولا خرف وأما زهده في الدنيا فيدل عليه ماروى أن المهدي أمير المؤمنين سأله فقال له : هل لك من دار ؟ فقال : لا ولكن أحدثك « سمعت ربيعة بن أبي عبد الرحمن يقول : نسب المرء داره » وسأله الرشيد : هل لك دار ؟ فقال : لا ، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار وقال : اشتر بها دارا فأخذها ولم ينفقها ، فلما أراد الرشيد الشخوص قال لمالك رحمه الله : ينبغي أن تخرج معنا فاني عزمت على أن أحمل الناس على الموطأ كما حمل عثمان رضي الله عنه الناس على القرآن ، فقال له : أما حمل الناس على الموطأ فليس إليه سبيل ، لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم افترقوا بعده في الأمصار فحدثوا ، فعند كل أهل مصر علم وقد قال صلى الله عليه وسلم « اختلاف أمتي رحمة[1] » وأما الخروج معك فلا سبيل إليه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون[2] » وقال عليه الصلاة والسلام « المدينة تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد[3] » وهذه دنانيركم كما هي إن شئتم فخذوها وإن شئتم فدعوها ، يعني أنك إنما تكلفني مفارقة المدينة لما اصطنعته إلي فلا أوثر الدنيا على مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهكذا كان زهد مالك في الدنيا . ولما حملت إليه الأموال الكثيرة من أطراف الدنيا لانتشار علمه وأصحابه كان يفرقها في وجوه الخير ، ودل سخاؤه على زهده وقلة حبه للدنيا وليس الزهد فقد المال ، وإنما الزهد فراغ القلب عنه ولقد كان سليمان عليه السلام في ملكه من الزهاد . ويدل على احتقاره للدنيا ماروى عن الشافعي رحمه الله أنه قال : رأيت على باب مالك كراعا من أفراس خراسان وبغال مصر ما رأيت أحسن منه فقلت لمالك رحمه الله : ما أحسنه فقال : هو هدية مني إليك يا أباعبد الله ، فقلت : دع لنفسك منها دابة تركبها

---

(١) حديث « اختلاف أمتي رحمة » ذكره البيهقي في رسالته الأشعرية تعليقا وأسنده في المدخل من حديث ابن عباس بلفظ « اختلاف أصحابي لكم رحمة » وإسناده ضعيف (٢) حديث « المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » متفق عليه من حديث سفيان بن أبي زهير (٣) حديث « المدينة تنفي خبثها . . . الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

فقال : إنى أستحى من الله تعالى أن أطأ تربة فيها نبى الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة ، فانظر إلى سخائه إذ وهب جميع ذلك دفعة واحدة وإلى توقيره لتربة المدينة . ويدل على إرادته بالعلم وجه الله تعالى واستحقاره للدنيا : ماروى أنه قال دخلت على هارون الرشيد فقال لى : يا أبا عبد الله ينبغى أن تختلف إلينا حتى يسمع صبياننا منك الموطأ . قال : فقلت أعز الله مولانا الأمير ، إن هذا العلم منكم خرج فإن أنتم أعززتموه عز وإن أنتم أذللتموه ذل والعلم يؤتى ولا يأتى ، فقال : صدقت ، أخرجوا إلى المسجد حتى تسمعوا مع الناس .

وأما أبو حنيفة رحمه الله تعالى فلقد كان أيضاً عابداً زاهداً ، عارفاً بالله تعالى ، خائفاً منه ، مريداً وجه الله تعالى بعلمه ، فأما كونه عابدا فيعرف بما روى عن ابن المبارك أنه قال : كان أبو حنيفة رحمه الله له مروءة وكثرة صلاة . وروى حماد بن أبى سليمان أنه كان يحيى الليل كله . وروى أنه كان يحيى نصف الليل فمر يوما فى طريق فأشار إليه إنسان وهو يمشى فقال لآخر : هذا هو الذى يحيى الليل كله ، فلم يزل بعد ذلك يحيى الليل كله وقال : أنا أستحيى من الله سبحانه أن أوصف بما ليس فى من عبادته . وأما زهده فقد روى عن الربيع بن عاصم قال : قال أرسلنى يزيد بن عمر بن هبيرة فقدمت بأبى حنيفة عليه ، فأراده أن يكون حاكما على بيت المال فأبى ، فضربه عشرين سوطا . فانظر كيف هرب من الولاية واحتمل العذاب ! قال الحكم بن هشام الثقفى : حدثت بالشام حديثا فى أبى حنيفة أنه كان من أعظم الناس أمانة وأراده السلطان على أن يتولى مفاتيح خزائنه أو يضرب ظهره فاختار عذابهم له على عذاب الله تعالى . وروى أنه ذكر أبو حنيفة عند ابن المبارك ، فقال : أتذكرون رجلا عرضت عليه الدنيا بحذافيرها ففر منها . وروى عن محمد بن شجاع عن بعض أصحابه أنه قيل لأبى حنيفة : قد أمر لك أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور بعشرة آلاف درهم . قال : فما رضى أبو حنيفة ، قال : فلما كان اليوم الذى توقع أن يؤتى بالمال فيه صلى الصبح ثم تغشى بثوبه فلم يتكلم ، فجاء رسول الحسن بن قحطبة بالمال ، فدخل عليه ، فلم يكلمه ، فقال بعض من حضر : ما يكلمنا إلا بالكلمة بعد الكلمة ، أى هذه عادته . فقال : ضعوا المال فى هذا الجراب فى زاوية البيت ، ثم أوصى أبو حنيفة بعد ذلك بمتاع بيته وقال لابنه : إذا مت ودفنتمونى فخذ هذه البدرة واذهب بها إلى الحسن ابن قحطبة فقل له : خذ وديعتك التى أودعتها أبا حنيفة . قال ابنه : ففعلت ذلك . فقال الحسن : رحمة الله على أبيك فلقد كان شحيحا على دينه . وروى أنه دعى إلى ولاية القضاء فقال : أنا لا أصلح لهذا ، فقيل له : لم ؟ فقال : إن كنت صادقا فما أصلح لها ، وإن كنت كاذبا فالكاذب لا يصلح للقضاء . وأما علمه بطريق الآخرة وطريق أمور الدين ومعرفته بالله عز وجل فيدل عليه شدة خوفه من الله تعالى وزهده فى الدنيا ، وقد قال ابن جريج : قد بلغنى عن كوفيكم هذا النعمان بن ثابت أنه شديد الخوف لله تعالى . وقال شريك النخعى : كان أبو حنيفة طويل الصمت دائم الفكر قليل المحادثة للناس ، فهذا من أوضح الأمارات على العلم الباطن والاشتغال بمهمات الدين ، فمن أوتى الصمت والزهد أوتى العلم كله ، فهذه نبذة من أحوال الأئمة الثلاثة .

وأما الإمام أحمد بن حنبل وسفيان الثورى رحمهما الله تعالى فأتباعهما أقل من أتباع هؤلاء ، وسفيان أقل أتباعا من أحمد ، ولكن اشتهارهما بالورع والزهد أظهر ، وجميع هذا الكتاب مشحون بحكايات أفعالهما وأقوالهما فلا حاجة إلى التفصيل الآن ، فانظر الآن فى سير هؤلاء الأئمة الثلاثة وتأمل أن هذه الأحوال والأقوال والأفعال فى الإعراض عن الدنيا والتجرد لله عز وجل هل يثمرها مجرد العلم بفروع الفقه من معرفة السلم والإجارة والظهار والإيلاء واللعان ، أو يثمرها علم آخر أعلى وأشرف منه ، وانظر إلى الذين ادعوا الاقتداء بهؤلاء أصدقوا فى دعواهم أم لا .

الباب الثالث

فيما يعده العامة من العلوم المحمودة وليس منها

وفيه بيان الوجه الذى قد يكون به بعض العلوم مذموما وبيان تبديل أسامى العلوم وهو الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة وبيان القدر المحمود من العلوم الشرعية والقدر المذموم منها .

(بيان علة ذم العلم المذموم) لعلك تقول : العلم هو معرفة الشىء على ما هو به وهو من صفات الله تعالى فكيف يكون الشىء علماً ويكون مع كونه علماً مذموما ؟ فاعلم أن العلم لايذم لعينه وإنما يذم فى حق العباد لأحد أسباب ثلاثة :

(الأول) أن يكون مؤدياً إلى ضرر ما إما لصاحبه أو لغيره ، كما يذم علم السحر والطلسمات وهو حق ، إذ شهد القرآن له وأنه سبب يتوصل به إلى التفرقة بين الزوجين ، وقد سحر (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم ومرض بسببه حتى أخبره جبريل عليه السلام بذلك وأخرج السحر من تحت حجر فى قعر بئر ، وهو نوع يستفاد من العلم بخواص الجواهر وبأمور حسابية فى مطالع النجوم ، فيتخذ من تلك الجواهر هيكل على صورة الشخص المسحور ويرصد به وقت مخصوص من المطالع وتقرن به كلمات يتلفظ بها من الكفر والفحش المخالف للشرع ، ويتوصل بسببها إلى الاستعانة بالشياطين ، ويحصل من مجموع ذلك بحكم إجراء الله تعالى العادة أحوال غريبة فى الشخص المسحور ، ومعرفة هذه الأسباب من حيث إنها معرفة ليست بمذمومة ولكنها ليست تصلح إلا للإضرار بالخلق والوسيلة إلى الشر شر ، فكان ذلك هو السبب فى كونه علما مذموما ، بل من اتبع وليا من أولياء الله ليقتله وقد اختفى منه فى موضع حريز إذا سأل الظالم عن محله لم يجز تنبيهه عليه ، بل وجب الكذب فيه ، وذكر موضعه إرشاد وإفادة علم بالشىء على ما هو عليه ، ولكنه مذموم لأدائه إلى الضرر .

(الثانى) أن يكون مضراً بصاحبه فى غالب الأمر ، كعلم النجوم ، فإنه فى نفسه غير مذموم لذاته ، إذ هو قسمان : قسم حسابى ، وقد نطق القرآن بأن مسير الشمس والقمر محسوب ، إذ قال عز وجل ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ وقال عز وجل ﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ . والثانى : الأحكام ، وحاصله يرجع إلى الاستدلال على الحوادث بالأسباب وهو يضاهى استدلال الطبيب بالنبض على ما سيحدث من المرض ، وهو معرفة لمجارى سنة الله تعالى وعادته فى خلقه ، ولكن قد ذمه الشرع . قال صلى الله عليه وسلم « إذا ذكر القدر فأمسكوا ، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا ، وإذا ذكر أصحابى فأمسكوا (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « أخاف على أمتى بعدى ثلاثا : حيف الأئمة ، والإيمان بالنجوم ، والتكذيب بالقدر (٣) » وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : تعلموا من النجوم ما تهتدون به فى البر والبحر ثم أمسكوا ، وإنما زجر عنه من ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه مضر بأكثر الخلق ، فإنه إذا ألقى إليهم أن هذه الآثار تحدث عقيب سير الكواكب ، وقع فى نفوسهم أن الكواكب هى المؤثرة، وأنها الآلهة المدبرة لأنها جواهر شريفة سماوية ، ويعظم وقعها فى القلوب فيبقى القلب

الباب الثالث

(١) حديث « سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم» متفق عليه من حديث عائشة

(٢) حديث « إذا ذكر القدر فأمسكوا . . . الحديث » رواه الطبرانى من حديث ابن مسعود بإسناد حسن .

(٣) حديث « أخاف على أمتى بعدى ثلاثا : حيف الأئمة . . . الحديث » أخرجه ابن عبد البر من حديث أبى محجن بإسناد ضعيف .

ملتفتا إليها ،ويرى الخير والشر محذورا أو مرجوا من جهتها ،وينمحى ذكر الله سبحانه عن القلب ،فإن الضعيف يقصر نظره على الوسائط ،والعالم الراسخ هو الذى يطلع على أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره سبحانه وتعالى ،ومثال نظر الضعيف إلى حصول ضوء الشمس عقيب طلوع الشمس، مثال النملة لو خلق لها عقل وكانت على سطح قرطاس وهى تنظر إلى سواد الخط يتجدد ، فتعتقد أنه فعل القلم ولا تترقى فى نظرها إلى مشاهدة الأصابع، ثم منها إلى اليد، ثم منها إلى الإرادة المحركة لليد ، ثم منها إلى الكاتب القادر المريد، ثم منه إلى خالق اليد والقدرة والإرادة ، فأكثر نظر الخلق مقصور على الأسباب القريبة السافلة ، مقطوع من الترقى إلى مسبب الأسباب ، فهذا أحد أسباب النهى عن النجوم .

وثانيها : أن أحكام النجوم تخمين محض ليس يدرك فى حق آحاد الأشخاص لا يقينا ولا ظنا ،فالحكم به حكم بجهل ، فيكون ذمه على هذا من حيث إنه جهل لا من حيث إنه علم ، فلقد كان ذلك معجزة لإدريس عليه السلام فيما يحكى وقد اندرس وانمحى ذلك العلم وانمحق ، وما يتفق من إصابة المنجم على ندور فهو اتفاق لأنه قد يطلع على بعض الأسباب ولا يحصل المسبب عقيبها إلا بعد شروط كثيرة ليس فى قدرة البشر الاطلاع على حقائقها ؛ فإن اتفق أن قدر الله تعالى بقية الأسباب وقعت الإصابة ، وإن لم يقدر أخطأ ، ويكون ذلك كتخمين الإنسان فى أن السماء تمطر اليوم مهما رأى الغيم يجتمع وينبعث من الجبال فيتحرك ظنه بذلك ، وربما يحمى النهار بالشمس ويذهب الغيم ، وربما يكون بخلافه ، ومجرد الغيم ليس كافيا فى مجىء المطر وبقية الأسباب لا تدرى ، وكذلك تخمين الملاح أن السفينة تسلم اعتمادا على ما ألفه من العادة فى الرياح ولتلك الرياح أسباب خفية هو لا يطلع عليها، فتارة يصيب فى تخمينه وتارة يخطىء ، ولهذه العلة يمنع القوى عن النجوم أيضاً .

ثالثها : أنه لا فائدة فيه ، فأقل أحواله أنه خوض فى فضول لا يغنى وتضييع العمر الذى هو أنفس بضاعة الإنسان فى غير فائدة وذلك غاية الخسران ، فقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل والناس مجتمعون عليه فقال « ما هذا ؟ فقالوا : رجل علامة . فقال : بماذا ؟ قالوا بالشعر وأنساب العرب . فقال : علم لا ينفع وجهل لا يضر (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « إنما العلم آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة » فإذن الخوض فى النجوم وما يشبهه اقتحام خطر وخوض فى جهالة من غير فائدة ، فان ما قدر كائن ، والاحتراز منه غير ممكن ، بخلاف الطب فإن الحاجة ماسة إليه وأكثر أدلته بما يطلع عليه ، وبخلاف التعبير وإن كان تخمينا لأنه جزء من النبوة ولا خطر فيه .

(السبب الثالث) الخوض فى علم لا يستفيد الخائض فيه فائدة علم ، فهو مذموم فى حقه كتعلم دقيق العلوم قبل جليلها ، وخفيها قبل جليها ، وكالبحث عن الأسرار الإلهية ، إذ يطلع الفلاسفة والمتكلمون إليها ولم يستقلوا بها ، ولم يستقل بها وبالوقوف على طرق بعضها إلا الأنبياء والأولياء ، فيجب كف الناس عن البحث عنها وردهم إلى ما نطق به الشرع ، ففى ذلك مقنع للموفق ، فكم من شخص خاض فى العلوم واستضر بها ولو لم يخض فيها لكان حاله أحسن فى الدين مما صار إليه ولا ينكر كون العلم ضارا لبعض الناس كما يضر لحم الطير وأنواع الحلوى اللطيفة بالصبى الرضيع ، بل رب شخص ينفعه الجهل ببعض الأمور ، فلقد حكى أن بعض الناس شكا إلى طبيب عقم امرأته وأنها لا تلد ، فجس الطبيب نبضها وقال : لا حاجة لك إلى دواء الولادة فإنك ستموتين إلى

(١) حديث : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل والناس مجتمعون فقال « ماهذا ؟ فقالوا : رجل علامة . . الحديث» أخرجه ابن عبد البر من حديث أبى هريرة وضعفه . وفى آخر الحديث « إنما العلم آية محكمة ... إلى آخره» وهذه القطعة عند أبى داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر .

أربعين يوما ، وقد دل النبض عليه ، فاستشعرت المرأة الخوف العظيم وتنغص عليها عيشها ، وأخرجت أموالها وفرقتها ، وأوصت ، وبقيت لا تأكل ولا تشرب حتى انقضت المدة فلم تمت ؛ فجاء زوجها إلى الطبيب وقال له : لم تمت ؛ فقال الطبيب : قد علمت ذلك ، فجامعها الآن فإنها تلد ، فقال : كيف ذاك ؟ قال : رأيتها سمينة وقد انعقد الشحم على فم رحمها ، فعلمت أنها لا تهزل إلا بخوف الموت ، فخوفتها بذلك حتى هزلت وزال المانع من الولادة . فهذا ينبهك على استشعار خطر بعض العلوم ويفهمك معنى قوله صلى الله عليه وسلم « نعوذ بالله من علم لا ينفع(١) » فاعتبر بهذه الحكاية ولا تكن بحاثاً عن علوم ذمها الشرع وزجر عنها ، ولازم الاقتداء بالصحابة رضى الله عنهم ، واقتصر على اتباع السنة ، فالسلامة فى الاتباع والخطر فى البحث عن الأشياء والاستقلال ، ولا تكثر اللجج برأيك ومعقولك ودليلك وبرهانك وزعمك أنى أبحث عن الأشياء لأعرفها على ما هى عليه ، فأى ضرر فى التفكر فى العلم فإن ما يعود عليك من ضرره أكثر ، وكم من شىء تطلع عليه فيضرك اطلاعك عليه ضرراً يكاد يهلكك فى الآخرة إن لم يتداركك الله برحمته . واعلم أنه كما يطلع الطبيب الحاذق على أسرار فى المعالجات يستبعدها من لا يعرفها ، فكذلك الأنبياء أطباء القلوب والعلماء بأسباب الحياة الأخروية ، فلا تتحكم على سننهم بمعقولك فتهلك ، فكم من شخص يصيبه عارض فى أصبعه فيقتضى عقله أن يطليه ، حتى ينبهه الطبيب الحاذق أن علاجه أن يطلى الكف من الجانب الآخر من البدن فيستبعد ذلك غاية الاستبعاد من حيث لا يعلم كيفية انشعاب الأعصاب ومنابتها ووجه التفافها على البدن ؟ فهكذا الأمر فى طريق الآخرة ، وفى دقائق سنن الشرع وآدابه ، وفى عقائده التى تعبد الناس بها أسرار ولطائف ليست فى سعة العقل وقوته الإحاطة بها ، كما أن فى خواص الأحجار أموراً عجائب غاب عن أهل الصنعة علمها حتى لم يقدر أحد على أن يعرف السبب الذى به يجذب المغناطيس الحديد ، فالعجائب والغرائب فى العقائد والأعمال ، وإفادتها لصفاء القلوب ونقائها وطهارتها وتزكيتها وإصلاحها للترقى إلى جوار الله تعالى وتعرضها لنفحات فضله أكثر وأعظم مما فى الأدوية والعقاقير ، وكما أن العقول تقصر عن إدراك منافع الأدوية مع أن التجربة سبيل إليها . فالعقول تقصر عن إدراك ما ينفع فى حياة الآخرة مع أن التجربة غير متطرقة إليها ، وإنما كانت التجربة تتطرق إليها لو رجع إلينا بعض الأموات فأخبرنا عن الأعمال المقبولة النافعة المقربة إلى الله تعالى زلفى وعن الأعمال المبعدة عنه ، وكذا عن العقائد ، وذلك مما لا يطمع فيه فيكفيك من منفعة العقل أن يهديك إلى صدق النبى صلى الله عليه وسلم ويفهمك موارد إشارته ، فاعزل العقل بعد ذلك عن التصرف ولازم الاتباع فلا تسلم إلا به والسلام ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن من العلم جهلا وإن من القول عيا(٢) » ومعلوم أن العلم لا يكون جهلا ولكنه يؤثر تأثير الجهل فى الإضرار . وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم « قليل من التوفيق خير من كثير من العلم(٣) » وقال عيسى عليه السلام : ما أكثر الشجر وليس كلها بمثمر ، وما أكثر الثمر وليس كلها بطيب ، وما أكثر العلوم وليس كلها بنافع !

بيان ما بدل من ألفاظ العلوم

أعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسامى المحمودة وتبديلها ونقلها بالأغراض

---

(١) حديث « نعوذ بالله من علم لا ينفع » أخرجه ابن عبد البر من حديث جابر بسند حسن ؛ وهو عند ابن ماجه بلفظ « تعوذوا » وقد تقدم .

(٢) حديث « إن من العلم جهلا . . . الحديث » رواه أبو داود من حديث بريدة وفى إسناده من يجهل .

(٣) حديث « قليل من التوفيق خير من كثير من العلم » لم أجد له أصلا ، وقد ذكره صاحب الفردوس من حديث أبى الدرداء ، وقال « العقل » بدل العلم ، ولم يخرجه ولده فى مسنده .

الفاسدة إلى معان غير ما أراده السلف الصالح والقرن الأول ، وهي خمسة ألفاظ : الفقه ، والعلم ، والتوحيد ، والتذكير ، والحكمة ، فهذه أسام محمودة ، والمتصفون بها أرباب المناصب في الدين ، ولكنها نقلت الآن إلى معان مذمومة ، فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشيوع إطلاق هذه الأسامي عليهم.

(اللفظ الأول) الفقه ، فقد تصرفوا فيه بالتخصيص لا بالنقل والتحويل ، إذ خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوى والوقوف على دقائق عللها واستكثار الكلام فيها وحفظ المقالات المتعلقة بها ، فمن كان أشد تعمقا فيها وأكثر اشتغالا بها يقال هو الأفقه ، ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقا على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب ، ويدلك عليه قوله عز وجل ﴿ ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ﴾ وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والإجارة ، فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف ، بل التجرد له على الدوام يقسي القلب وينزع الخشية منه كما نشاهد الان من المتجردين له . وقال تعالى ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾ وأراد به معاني الإيمان دون الفتاوى ، ولعمري إن الفقه والفهم في اللغة اسمان بمعنى واحد ، وإنما يتكلم في عادة الاستعمال به قديما وحديثا . قال تعالى ﴿ لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ﴾ الاية ، فأحال قلة خوفهم من الله واستعظامهم سطوة الخلق على قلة الفقه ، فانظر إن كان ذلك نتيجة عدم الحفظ لتفريعات الفتاوى ، أو هو نتيجة عدم ماذكرناه من العلوم . وقال صلى الله عليه وسلم « علماء حكماء فقهاء (١) » للذين وفدوا عليه . وسئل سعد بن إبراهيم الزهري رحمه الله أي أهل المدينة أفقه ؟ فقال : أتقاهم لله تعالى ، كأنه أشار إلى ثمرة الفقه ، والتقوى ثمرة العلم الباطني دون الفتاوى والأقضية . وقال صلى الله عليه وسلم «ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه ؟ قالوا بلى . قال : من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يؤمنهم من مكر الله ، ولم يؤيسهم من روح الله ، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى سواه (٢) » ولما روى أنس بن مالك قوله صلى الله عليه وسلم « لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من غدوة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب (٣) » قال : فالتفت إلى زيد الرقاشي وزياد النميري وقال : لم تكن مجالس الذكر مثل مجالسكم هذه يقص احدكم وعظه على أصحابه ويسرد الحديث سرد ، إنما كنا نقعد فنذكر الإيمان ونتدبر القرآن ونتفقه في الدين ونعد نعم الله علينا تفقها ، فسمى تدبر القرآن وعد النعم تفقها . قال صلى الله عليه وسلم « لا يفقه العبد كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله ، وحتى يرى للقرآن وجوها كثيرة (٤) » وروى أيضا موقوفا على أبي الدرداء رضي الله عنه مع قوله «ثم يقبل على نفسه فيكون لها أشد مقتا» وقد سأل فرقد السبخي الحسن عن الشيء فأجابه ، فقال : إن الفقهاء يخالفونك ، فقال الحسن رحمه الله : ثكلتك أمك فريقد ، وهل رأيت فقيها بعينك؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة البصير بدينه المداوم على عبادة ربه الورع الكاف نفسه عن أعراض المسلمين العفيف عن أموالهم الناصح لجماعتهم ، ولم يقل في جميع ذلك : الحافظ لفروع الفتاوى ، ولست أقول إن اسم الفقه لم يكن متناولا للفتاوى في الأحكام الظاهرة ، ولكن كان بطريق

---

(١) حديث « علماء حكماء فقهاء » رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الزهد ، والخطيب في التاريخ من حديث سويد بن الحارث بإسناد ضعيف.

(٢) حديث « ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه . . . الحديث » رواه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق ، وأبو بكر ابن السني وابن عبد البر من حديث علي . وقال ابن عبد البر : أكثرهم يوقفونه عن علي .

(٣) حديث أنس « لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من غدوة إلى طلوع الشمس . . . الحديث » رواه أبو داود بإسناد حسن .

(١) حديث « يفقه العبد كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله . . . الحديث» أخرجه ابن عبد البر من حديث شداد بن أوس وقال : لا يصح مرفوعا .

العموم والشمول أو بطريق الاستتباع ، فكان إطلاقهم له على علم الآخرة أكثر . فبان من هذا التخصيص تلبيس بعث الناس على التجرد له والإعراض عن علم الآخرة وأحكام القلوب ، ووجدا على ذلك معيناً من الطبع ، فإن علم الباطن غامض والعمل به عسير ، والتوصل به إلى طلب الولاية والقضاء والجاه والمال متعذر ، فوجد الشيطان مجالا لتحسين ذلك في القلوب بواسطة تخصيص اسم الفقه الذي هو اسم محمود في الشرع .

(اللفظ الثاني) العلم : وقد كان يطلق ذلك على العلم بالله تعالى وبآياته وبأفعاله في عباده وخلقه ، حتى أنه لما مات عمر رضي الله عنه قال ابن مسعود رحمه الله : لقد مات تسعة أعشار العلم فعرفه بالألف واللام ثم فسره العلم بالله سبحانه وتعالى ، وقد تصرفوا فيه أيضاً بالتخصيص حتى شهروه في الأكثر بمن يشتغل بالمناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية وغيرها ، فيقال : هو العالم على الحقيقة ، وهو الفحل في العلم ؛ ومن لا يمارس ذلك ولا يشتغل به يعد من جملة الضعفاء ولا يعدونه في زمرة أهل العلم . وهذا أيضاً تصرف بالتخصيص ، ولكن ما ورد من فضائل العلم والعلماء أكثره في العلماء بالله تعالى وبأحكامه وبأفعاله وصفاته : وقد صار الان مطلقا على من لا يحيط من علوم الشرع بشيء سوى رسوم جدلية في مسائل خلافية ، فيعد بذلك من فحول العلماء مع جهله بالتفسير والأخبار وعلم المذهب وغيره ، وصار ذلك سبباً مهلكا لخلق كثير من أهل الطلب للعلم .

(اللفظ الثالث) التوحيد : وقد جعل الان عبارة عن صناعة الكلام ومعرفة طريق المجادلة والإحاطه بطريق مناقضات الخصوم والقدرة على التشدق فيها بتكثير الأسئلة وإثارة الشبهات وتأليف الإلزامات ، حتى لقب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد وسمى المتكلمون العلماء بالتوحيد ، مع أن جميع ما هو خاصة هذه الصناعة لم يكن يعرف منها شيء في العصر الأول بل كان يشتد منهم النكير على من كان يفتح بابا من الجدل والمماراة .

فأما ما يشتمل عليه القرآن من الأدلة الظاهرة التي تسبق الأذهان إلى قبولها في أول السماع فلقد كان ذلك معلوما للكل ، وكان العلم بالقرآن هو العلم كله ، وكان التوحيد عندهم عبارة عن أمر آخر لا يفهمه أكثر المتكلمين ، وإن فهموه لم يتصفوا به : وهو أن يرى الأمور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط ، فلا يرى الخير كله إلا منه جل جلاله ، فهذا مقام شريف إحدى ثمراته التوكل ، والرضا والتسليم لحكم الله تعالى .

وكانت إحدى ثمراته قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه لما قيل له في مرضه أنطلب لك طبيبا فقال : الطبيب أمرضني . وقول آخر لما مرض فقيل له ماذا قال لك الطبيب في مرضك ؟ فقال : قال لي إني فعال لما أريد . وسيأتي في كتاب التوكل وكتاب التوحيد شواهد ذلك .

والتوحيد جوهر نفيس وله قشران : أحدهما أبعد عن اللب من الاخر ، فخصص الناس الاسم بالقشر وبصنعة الحراسة للقشر وأهملوا اللب بالكلية ، فالقشر الأول : هو أن تقول بلسانك «لا إله إلا الله» وهذا يسمى توحيداً مناقضا للتثليث الذي صرح به النصارى ، ولكنه قد يصدر من المنافق الذي يخالف سره جهره . والقشر الثاني : أن لا يكون في القلب مخالفة وإنكار لمفهوم هذا القول بل يشتمل ظاهر القلب على اعتقاده وكذلك التصديق به وهو توحيد عوام الخلق والمتكلمون كما سبق حواس هذا القشر عن تشويش المبتدعة . والثالث : — وهو اللباب — ان يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التفاته عن الوسائط ، وأن يعبده عبادة يفرده بها فلا يعبد غيره ، ويخرج عن هذا التوحيد أتباع الهوى ، فكل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده . قال الله تعالى ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ وقال صلى الله عليه وسلم «أبغض

إله عبد فى الأرض عند الله تعالى هو الهوى(١) » وعلى التحقيق من تأمل عرف أن عابد الصنم ليس يعبد الصنم وإنما يعبد هواه ، إذ نفسه مائلة إلى دين آبائه فيتبع ذلك الميل ، وميل النفس إلى المألوفات أحد المعانى التى يعبر عنها بالهوى ، ويخرج من هذا التوحيد التسخط على الخلق والالتفات إليهم ؛ فإن من يرى الكل من الله عز وجل كيف يتسخط على غيره ، فلقد كان التوحيد عبارة عن هذا المقام وهو مقام الصديقين ، فانظر إلى ماذا حول وبأى قشر قنع ، وكيف اتخذوا هذا معتصما فى التمدح والتفاخر بما اسمه محمود مع الإفلاس عن المعنى الذى يستحق الحمد الحقيقى ، وذلك كالإفلاس من يصبح بكرة ويتوجه إلى القبلة ويقول ﴿ وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً ﴾ وهو أول كذب يفاتح الله به كل يوم إن لم يكن وجه قلبه متوجهاً إلى الله تعالى على الخصوص : فإنه إن أراد بالوجه وجه الظاهر فما وجهه إلا إلى الكعبة وما صرفه إلا عن سائر الجهات ، والكعبة ليست جهة للذى فطر السموات والأرض ، حتى يكون المتوجه إليها متوجهاً إليه ، تعالى عن أن تحده الجهات والأقطار . وإن أراد به وجه القلب وهو المطلوب المتعبد به فكيف يصدق فى قوله وقلبه متردد فى أوطاره وحاجاته الدنيوية ، ومتصرف فى طلب الحيل فى جمع الأموال والجاه واستكثار الأسباب ، ومتوجه بالكلية إليها ، فتى وجه وجهه للذى فطر السموات والأرض وهذه الكلمة خبر عن حقيقة التوحيد ، فالموحد هو الذى لا يرى إلا الواحد ولا يوجه وجه إلا إليه ، وهو امتثال قوله تعالى ﴿ قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ﴾ وليس المراد به القول باللسان ، فإنما اللسان ترجمان يصدق مرة ويكذب أخرى . وإنما موقع نظر الله تعالى المترجم عنه هو القلب ، وهو معدن التوحيد ومنبعه .

(اللفظ الرابع) الذكر والتذكير : فقد قال الله تعالى ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ وقد ورد فى الثناء على مجالس الذكر أخبار كثيرة كقوله صلى الله عليه وسلم « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . قيل : وما رياض الجنة ؟ قال : مجالس الذكر(٢) » وفى الحديث « إن لله تعالى ملائكة سياحين فى الدنيا سوى ملائكة الخلق إذا رأوا مجالس الذكر ينادى بعضهم بعضاً ألا هلموا إلى بغيتكم فيأتونهم ويحفون بهم ويستمعون . ألا فاذكروا الله وذكروا أنفسكم(٣) » فنقل ذلك إلى ما ترى أكثر الوعاظ فى هذا الزمان يواظبون عليه وهو القصص والأشعار والشطح والطامات ، أما القصص فهى بدعة ، وقد ورد نهى السلف عن الجلوس إلى القصاص وقالوا لم يكن ذلك فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم(٤) ولا فى زمن أبى بكر ولا عمر رضى الله عنهما ، حتى ظهرت الفتنة وظهر القصاص . وروى أن ابن عمر رضى الله عنهما خرج من المسجد فقال : ما أخرجنى إلا القاص ولولاه لما خرجت . وقال ضمرة : قلت لسفيان الثورى نستقبل القاص بوجوهنا ؟ فقال : ولوا البدع ظهوركم . وقال ابن ابن عون : دخلت على ابن سيرين فقال : ما كان اليوم من خبر ؟ فقلت : نهى الأمير القصاص أن يقصوا . فقال : وفق للصواب . ودخل الأعمش جامع البصرة فرأى قاصاً يقص ويقول : حدثنا الأعمش ، فتوسط الحلقة وجعل ينتف شعر إبطه ، فقال القاص : ياشيخ ، ألا تستحى ! فقال : لم ؟ أنا فى سنة وأنت فى كذب ، أنا الأعمش وما حدثتك . وقال أحمد : أكثر الناس كذبا القصاص والسؤال . وأخرج على رضى الله عنه القصاص من مسجد جامع البصرة ،

---

(١) حديث « أبغض إله عبد فى الأرض عند الله هو الهوى » أخرجه الطبرانى من حديث أبى أمامة بإسناد ضعيف .

(٢) حديث « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أنس وحسنه .

(٣) حديث « إن لله ملائكة سياحين فى الهواء سوى ملائكة الخلق ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة دون قوله فى الهواء والترمذى « سياحين فى الأرض » وقال مسلم سيارة .

(٤) حديث : لم تكن القصص فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم . رواه ابن ماجه من حديث عمر بإسناد حسن .

فلما سمع كلام الحسن البصري لم يخرجه إذ كان يتكلم في علم الآخرة والتفكير بالموت والتنبيه على عيوب النفس وآفات الأعمال وخواطر الشيطان ووجه الحذر منها ويذكر بآلاء الله ونعمائه وتقصير العبد في شكره ويعرف حقارة الدنيا وعيوبها وتصرمها ونكث عهدها وخطر الآخرة وأهوالها ، فهذا هو التذكير المحمود شرعا الذي روى الحث عليه في حديث أبي ذر رضي الله عنه حيث قال « حضور مجلس ذكر أفضل من صلاة ألف ركعة . وحضور مجلس علم أفضل من عيادة ألف مريض . وحضور مجلس علم أفضل من شهود ألف جنازة ، فقيل : يارسول الله ، ومن قراءة القرآن ؟ قال : وهل تنفع قراءة القرآن إلا بالعلم[1] » وقال عطاء رحمه الله : مجلس ذكر يكفر سبعين مجلسا من مجالس اللهو ، فقد اتخذ المزخرفون هذه الأحاديث حجة على تزكية أنفسهم ، ونقلوا اسم التذكير إلى خرافاتهم ، وذهلوا عن طريق الذكر المحمود ، واشتغلوا بالقصص التي تتطرق إليها الاختلافات والزيادة والنقص وتخرج عن القصص الواردة في القرآن وتزيد عليها ، فإن من القصص ماينفع سماعه ، ومنها مايضر وإن كان صدقا . ومن فتح ذلك الباب على نفسه اختلط عليه الصدق بالكذب والنافع بالضار ، فمن هذا نهى عنه ولذلك قال أحمد بن حنبل رحمه الله : ما أحوج الناس إلى قاص صادق ، فإن كانت القصة من قصص الأنبياء عليهم السلام فيما يتعلق بأمور دينهم وكان القاص صادقا صحيح الرواية فلست أرى بها بأسا ، فليحذر الكذب وحكايات أحوال تومئ إلى هفوات أو مساهلات يقصر فهم العوام عن درك معانيها أو عن كونها هفوة نادرة مردفة بتفكيرات متداركة بحسنات تغطى عليها ، فإن العامي يعتصم بذلك في مساهلاته وهفواته ، ويمهد لنفسه عذراً فيه ، ويحتج بأنه حكى كيت وكيت عن بعض المشايخ وبعض الأكابر ، فكلنا بصدد المعاصي ، فلا غرو إن عصيت الله تعالى فقد عصاه من هو أكبر مني ، ويفيده ذلك جراءة على الله تعالى من حيث لا يدرى ، فبعد الاحتراز عن هذين المحذورين فلا بأس به ، وعند ذلك يرجع إلى القصص المحمودة وإلى مايشتمل عليه القرآن ، ويصح في الكتب الصحيحة من الأخبار ، ومن الناس من يستجيز وضع الحكايات المرغبة في الطاعات ويزعم أن قصده فيها دعوة الخلق إلى الحق ، فهذه من نزغات الشيطان ، فإن في الصدق مندوحة عن الكذب ، وفيما ذكر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم غنية عن الاختراع في الوعظ ، كيف وقد كره تكلف السجع وعد ذلك من التصنع . قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لابنه عمر ـ وقد سمعه يسجع ـ : هذا الذي يبغضك إلى لاقضيت حاجتك أبدا حتى تتوب ـ وقد كان جاءه في حاجة ـ وقد قال صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن رواحة في سجع من ثلاث كلمات « إياك والسجع يا ابن رواحة[2] » فكأن السجع المحذور المتكلف مازاد على كلمتين ، ولذلك لما قال الرجل في دية الجنين : كيف ندى من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح ولا استهل ، ومثل ذلك يطل . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أسجع كسجع الأعراب[3] » وأما الأشعار فتكثيرها في المواعظ مذموم . قال الله تعالى ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ﴾ وقال تعالى ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ وأكثر ما أعتاده الوعاظ من الأشعار : مايتعلق بالتواصف في العشق وجمال المعشوق وروح الوصال وألم الفراق ، والمجلس لايحوى إلا أجلاف العوام ، وبواطنهم مشحونة بالشهوات ، وقلوبهم غير منفكة عن الالتفات إلى الصور المليحة ، فلا تحرك الأشعار من قلوبهم إلا ما هو مستكن

---

(١) حديث أبي ذر « حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة » تقدم في الباب الأول .

(٢) حديث « إياك والسجع يا ابن رواحة » لم أجده هكذا ، ولأحمد وأبي يعلى وابن السني وأبي نعيم في كتاب الرياضة من حديث عائشة بإسناد صحيح أنها قالت للسائب إياك والسجع فإن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا لايسجعون ولابن حبان واجتنب السجع ، وفي البخاري نحوه من قول ابن عباس

(٣) حديث « أسجع كسجع الأعراب » أخرجه مسلم من حديث المغيرة .

فيها فتشتعل فيها نيران الشهوات ، فيزعقون ويتواجدون ، وأكثر ذلك أوكله يرجع إلى نوع فساد ، فلا ينبغي أن يستعمل من الشعر إلا مافيه موعظة أو حكمة على سبيل استشهاد واستئناس . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن من الشعر لحكمة (١) » ولو حوى المجلس الخواص الذين وقع الاطلاع على استغراق قلوبهم بحب الله تعالى ولم يكن معهم غيرهم ، فإن أولئك لا يضر معهم الشعر الذي يشير ظاهره إلى الخلق ، فإن المستمع ينزل كل ما يسمعه على ما يستولي على قلبه ، كما سيأتي تحقيق ذلك في كتاب السماع ، ولذلك كان الجنيد رحمه الله يتكلم على بضعة عشر رجلا ، فإن كثروا لم يتكلم ، وما تم أهل مجلسه قط عشرين . وحضر جماعة باب دار ابن سالم ، فقيل له : تكلم فقد حضر أصحابك ، فقال : لا ، ماهؤلاء أصحابي إنماهم أصحاب المجلس ، إن أصحابي هم الخواص .

وأما الشطح : فنعني به صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية :

(أحدهما) الدعاوى الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب ، فيقولون : قيل لنا كذا ، وقلنا كذا ، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذي صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس ، ويستشهدون بقوله أنا الحق ، وبما حكي عن أبي يزيد البسطامي أنه قال سبحاني سبحاني ، وهذا فن من الكلام عظيم ضرره في العوام ، حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم وأظهروا مثل هذه الدعاوى ، فإن هذا الكلام يستلذه الطبع إذ فيه البطالة من الأعمال مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال ، فلا تعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزخرفة ، ومهما أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا : هذا إنكار مصدره العلم والجدل ، والعلم حجاب ، والجدل عمل النفس ، وهذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق ، فهذا ومثله مما قد استطار في البلاد شرره وعظم في العوام ضرره ، حتى من نطق بشيء منه فقتله أفضل في دين الله من إحياء عشرة ، وأما أبو يزيد البسطامي رحمه الله فلا يصح عنه مايحكى وإن سمع ذلك منه فلعله كان يحكيه عن الله عز وجل في كلام يردده في نفسه ، كما لو سمع وهو يقول « إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني » فإنه ما كان ينبغي أن يفهم منه ذلك إلا على سبيل الحكاية .

(الصنف الثاني) من الشطح كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل ، إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط في عقله وتشويش في خياله لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه وهذا هو الأكثر . وما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره ، لقلة ممارسته للعلم وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيقة ، ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول ويحير الأذهان أو يحمل على أن يفهم منها معاني ما أريدت بها ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه . وقد قال صلى الله عليه وسلم « ماحدث أحدكم قوما بحديث لا يفقهونه إلا كان فتنة عليهم (٢) » وقال صلى الله عليه وآله وسلم « كلموا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتريدون أن يكذب الله ورسوله (٣) » وهذا فيما يفهمه صاحبه ولا يبلغه عقل المستمع ، فكيف فيما لا يفهمه قائله . فإن كان يفهمه القائل دون المستمع فلا يحل ذكره . وقال عيسى

---

(١) حديث « إن من الشعر لحكمة » أخرجه البخاري من حديث أبي بن كعب .

(٢) حديث « ماحدث أحدكم قوما بحديث لا يفهمونه إلا كان فتنة عليهم » رواه العقيلي في الضعفاء وابن السني وأبو نعيم في الرياء من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف ، ولمسلم في مقدمة صحيحه موقوفا على ابن مسعود

(٣) حديث « كلموا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون . . . الحديث » رواه البخاري موقوفا على علي ، ورفعه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي نعيم .

عليه السلام : لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء فى موضع الداء . وفى لفظ آخر : من وضع الحكمة فى غير أهلها فقد جهل ، ومن منعها أهلها فقد ظلم ، إن للحكمة حقا وإن لها أهلا ، فأعط كل ذى حق حقه . وأما الطامات فيدخلها ماذكرناه فى الشطح ، وأمر آخر يخصها وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة ، كدأب الباطنية فى التأويلات ، فهذا أيضاً حرام وضرره عظيم ، فإن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإن ما يسبق منه إلى الفهم لا يوثق به والباطن لا ضبط له ، بل تتعارض فيه الخواطر ويمكن تنزيله على وجوه شتى ، وهذا أيضا من البدع الشائعة العظيمة الضرر . وإنما قصد أصحابها الإغراب ، لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذة له ، وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم كما حكيناه من مذاهبهم فى كتاب المستظهر المصنف فى الرد على الباطنية . ومثال تأويل أهل الطامات قول بعضهم فى تأويل قوله تعالى ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ أنه إشارة إلى قلبه وقال : هو المراد بفرعون وهو الطاغى على كل إنسان . وفى قوله تعالى ﴿ وأن ألق عصاك ﴾ أى كل ما يتوكأ عليه ويعتمده مما سوى الله عز وجل فينبغى أن يلقيه . وفى قوله صلى الله عليه وسلم « تسحروا فإن فى السحور بركة[1] » أراد به الاستغفار فى الأسحار وأمثال ذلك حتى يحرفون القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره ، وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس وسائر العلماء وبعض هذه التأويلات يعلم بطلانها قطعا ، كتنزيل فرعون على القلب ، فإن فرعون شخص محسوس تواتر إلينا النقل بوجوده ودعوة موسى له وكأبى جهل وأبى لهب وغيرهما من الكفار وليس من جنس الشياطين والملائكة مما لم يدرك بالحس حتى يتطرق التأويل إلى ألفاظه ، وكذا حمل السحور على الاستغفار «فإنه كان صلى الله عليه وسلم يتناول الطعام ويقول : تسحروا[2] وهلموا إلى الغذاء المبارك[3] » فهذه أمور يدرك بالتواتر والحس بطلانها نقلا ، وبعضها يعلم بغالب الظن ، وذلك فى أمور لا يتعلق بها الإحساس ، فكل ذلك حرام وضلالة وإفساد للدين على الخلق ، ولم ينقل شيء من ذلك عن الصحابة ولا عن التابعين ولا عن الحسن البصرى مع إكبابه على دعوة الخلق ووعظهم ، فلا يظهر لقوله صلى الله عليه وسلم «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار[4] » معنى إلا هذا النمط : وهو أن يكون غرضه ورأيه تقدير أمر وتحقيقه ، فيستجر شهادة القرآن إليه ، ويحمله عليه ، من غير أن يشهد لتنزيله عليه دلالة لفظية لغوية أو نقلية ، ولا ينبغى أن يفهم منه أنه يجب أن لا يفسر القرآن بالاستنباط والفكر ، فإن من الآيات ما نقل فيها عن الصحابة والمفسرين خمسة معان وستة وسبعة . ويعلم أن جميعها غير مسموع من النبى صلى الله عليه وسلم ، فإنها قد تكون متنافية لا تقبل الجمع ، فيكون ذلك مستنبطا بحسن الفهم وطول الفكر ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضى الله عنه «اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل[5] »

---

(١) حديث « تسحروا فإن فى السحور بركة » متفق عليه من حديث أنس

(٢) حديث «تناول الطعام فى السحور » رواه من حديث أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم وزيد بن ثابت تسحرا

(٣) حديث « هلموا إلى الغذاء المبارك » رواه أبو داود والنسائى وابن حبان من حديث العرباض بن سارية ضعفه ابن القطان

(٤) حديث « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس وحسنه ، وهو عند أبى داود من رواية ابن العبد ، وعند النسائى فى الكبرى

(٥) حديث « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » قاله لابن عباس . رواه البخارى من حديث ابن عباس دون قوله « وعلمه التأويل » وهو بهذه الزيادة عند أحمد وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد

ومن يستجيز من أهل الطامات مثل هـذه التأويلات مع علمه بأنها غير مرادة بالألفاظ ويزعم أنه يقصد بها دعوة الخلق إلى الخالق يضاهى من يستجيز الاختراع والوضع على رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هو فى نفسه حق ولكن لم ينطق به الشرع ، كمن يضع فى كل مسئلة يراها حقا حديثا عن النبى صلى الله عليه وسلم فذلك ظلم وضلال ودخول فى الوعيد المفهوم من قوله صلى الله عليه وسلم « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار (١) » بل الشر فى تأويل هذه الألفاظ أطم وأعظم ، لأنها مبطلة للثقة بالألفاظ ، وقاطعة طريق الاستفادة والفهم من القرآن بالكلية فقد عرفت كيف صرف الشيطان دواعى الخلق عن العلوم المحمودة إلى المذمومة ، فكل ذلك من تلبيس علماء السوء بتبديل الأسامى ، فإن اتبعت هؤلاء اعتمادا على الاسم المشهور من غير التفات إلى ما عرف فى العصر الأول كنت كمن طلب الشرف بالحكمة باتباع من يسمى حكيما ، فإن اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والمنجم فى هذا العصر ، وذلك بالغفلة عن تبديل الألفاظ

(اللفظ الخامس) وهو الحكمة ، فان اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والمنجم حتى على الذى يدحرج القرعة على أكف السوادية فى شوارع الطرق . والحكمة هى التى أثنى الله عز وجل عليها فقال تعالى ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « كلمة من الحكمة يتعلمها الرجل خير له من الدنيا وما فيها (٢) » فانظر ما الذى كانت الحكمة عبارة عنه ، وإلى ماذا نقل ، وقس به بقية الألفاظ واحترز عن الاغترار بتلبيسات علماء السوء ، فإن شرهم على الدين أعظم من شر الشياطين ، إذ الشيطان بواسطتهم يتدرج إلى انتزاع الدين من قلوب الخلق . ولهذا لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شر الخلق أبى وقال « اللهم اغفر » حتى كرروا عليه فقال « هم علماء السوء (٣) » فقد عرفت العلم المحمود والمذموم ومثار الالتباس وإليك الخيرة فى أن تنظر لنفسك فتقتدى بالسلف ، أو تتدلى بحبل الغرور وتتشبه بالخلف ؛ فكل ما ارتضاه السلف من العلوم قد اندرس ، وما أكب الناس عليه فأكثره مبتدع ومحدث ، وقد صح قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء » فقيل : ومن الغرباء ؟ قال « الذين يصلحون ما أفسده الناس من سنتى والذين يحيون ما أماتوه من سنتى (٤) » وفى خبر آخر « هم المتمسكون بما أنتم عليه اليوم (٥) » وفى حديث آخر « الغرباء ناس قليل صالحون بين ناس كثير ، من يبغضهم فى الخلق أكثر ممن يحبهم (٦) » وقد صارت تلك العلوم غريبة بحيث يمقت ذاكرها ، ولذلك قال الثورى رحمه الله : إذا رأيت العالم كثير الأصدقاء فاعلم أنه مخلط ، لأنه إن نطق بالحق أبغضوه .

بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة

أعلم أن العلم بهذا الاعتبار ثلاثة أقسام : قسم هو مذموم قليله وكثيره . وقسم هو محمود قليله وكثيره ، وكلما كان أكثر كان أحسن وأفضل . وقسم يحمد منه مقدار الكفاية ولا يحمد الفاضل عليه والاستقصاء فيه ، وهو مثل

---

(١) حديث « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » متفق عليه من حديث أبى هريرة وعلى وأنس .
(٢) حديث « كلمة من الحكمة يتعلمها الرجل خير له من الدنيا » تقدم بنحوه .
(٣) حديث لما سئل عن شر الخلق أبى وقال « اللهم اغفر » الحديث . رواه الدارمى بنحوه من رواية الأحوص ابن حكيم عن أبيه مرسلا وهو ضعيف ، ورواه البزار فى مسنده من حديث معاذ بسند ضعيف .
(٤) حديث « بدأ الإسلام غريبا . . . الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة مختصرا ، وهو بتمامه عند الترمذى من حديث عمرو بن عوف وحسنه .
(٥) حديث « هم المتمسكون بما أنتم عليه اليوم » يقوله فى وصف الغرباء ، لم أر له أصلا .
(٦) حديث « الغرباء ناس قليلون صالحون » أخرجه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو .

أحوال البدن ، فإن منها مايحمد قليله وكثيره كالصحة والجمال، ومنها مايذم قليله وكثيره كالقبح وسوء الخلق ، ومنها مايحمد الاقتصاد فيه كبذل المـــال فان التبذير لا يحمد فيه وهو بذل وكالشجاعة فإن التهور لايحمد فيها ، وإن كان من جنس الشجاعة فكذلك العلم . فالقسم المذموم منه قليله وكثيره هومالا فائدة فيه فى دين ولا دنيا ، إذ فيه ضرر يغلب نفعه كعلم السحر والطلسمات والنجوم ، فبعضه لا فائدةفيه أصلا ، وصرف العمر الذى هو أنفس مايملكه الإنسان إليه إضاعة ، وإضاعة النفيس مذمومة . ومنه مافيه ضرر يزيد على مايظن أنه يحصل به من قضاء وطر فى الدنيا ، فإن ذلك لايعتد به بالإضافة إلى الضر الحاصل عنه . وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله ، وسنته فى خلقه ، وحكمته فى ترتيب الآخرة على الدنيا، فإن هذا علم مطلوب لذاته وللتوصل به إلى سعادة الاخرة ، وبذل المقدور فيه إلى أقصى الجهد قصور عن حد الواجب ، فانه البحر الذى لايدرك غوره وإنما يحوم الحائمون على سواحله وأطرافه بقدرما يسرلهم ، وما خاض أطرافه إلا الأنبياء والأولياء والراسخون فى العلم على اختلاف درجاتهم بحسب اختلاف قوتهم وتفاوت تقدير الله تعالى فى حقهم ، وهذا هو العلم المكنون الذى لا يسطر فى الكتب ، ويعين على التنبه له التعلم ومشاهدة أحوال علماء الاخرة ، كما سيأتى علامتهم ، هذا فى أول الأمر ويعين عليه فى الاخرة المجاهدة والرياضة وتصفية القلب وتفريغه عن علائق الدنيا والتشبه فيها بالأنبياء والأولياء ، ليتضح منه لكل ساع إلى طلبه بقدر الرزق لا بقدر الجهد ولكن لاغنى فيه عن الاجتهاد ، فالمجاهدة مفتاح الهداية لامفتاح لها سواها . وأما العلوم التى لايحمد منها إلا مقدار مخصوص فهى العلوم التى أوردناها فى فروض الكفايات ، فإن فى كل علم منها اقتصارا وهو الأقل ، واقتصادا وهو الوسط ، واستقصاء وراء ذلك الاقتصاد لامرد له إلى آخر العمر فكن أحد رجلين : إما مشغولا بنفسك ، وإما متفرغا لغيرك بعد الفراغ من نفسك . وإياك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك ، فإن كنت المشغول بنفسك فلاتشتغل إلا بالعلم الذى هو فرض عليك بحسب مايقتضيه حالك ، وما يتعلق منه بالأعمال الظاهرة من تعلم الصلاة والطهارة والصوم ، وإنما الأهم الذى أهمله الكل علم صفات القلب وما يحمد منها وما يذم ، إذ لاينفك بشر عن الصفات المذمومة مثل الحرص والحسد والرياء والكبر والعجب وأخواتها وجميع ذلك مهلكات ، وإهمالها من الواجبات ، مع أن الاشتغال بالأعمال الظاهرة يضاهى الاشتغال بطلاء ظاهر البدن عند التأذى بالجرب والدماميل والتهاون بإخراج المادة بالفصد والإسهال ، وحشوية العلماء يشيرون بالأعمال الظاهرة كما يشير الطرقية من الأطباء بطلاء ظاهر البدن ، وعلماء الاخرة لايشيرون إلا بتطهير الباطن وقطع مواد الشر بإفساد منابتها وقلع مغارسها من القلب ، وإنما فزع الأكثرون إلى الأعمال الظاهرة عن تطهير القلوب لسهولة أعمال الجوارح واستصعاب أعمال القلوب ، كما يفزع إلى طلاء الظاهر من يستصعب شرب الأدوية المرة ، فلا يزال يتعب فى الطلاء ويزيد فى المواد وتتضاعف به الأمراض ، فإن كنت مريداً للآخرة وطالبا للنجاة وهاربا من الهلاك الأبدى فاشتغل بعلم العلل الباطنة وعلاجها على مافصلناه فى ربع المهلكات ، ثم ينجر بك ذلك إلى المقامات المحمودة المذكورة فى ربع المنجيات لامحالة ، فإن القلب إذا فرغ من المذموم امتلأ بالمحمود ، والأرض إذا نقيت من الحشيش نبت فيها أصناف الزرع والرياحين ، وإن لم تفرغ من ذلك لم تنبت ذاك ، فلا تشتغل بفروض الكفاية لاسيما وفى زمرة الخلق من قد قام بها فإن مهلك نفسه فيما به صلاح غيره سفيه ، فما أشد حماقة من دخلت الأفاعى والعقارب تحت ثيابه وهمت بقتله وهو يطلب مذبة يدفع بها الذباب عن غيره ممن لا يغنيه ولا ينجيه مما يلاقيه من تلك الحيات والعقارب إذا همت به . وإن تفرغت من نفسك وتطهيرها وقدرت على ترك ظاهر الإثم وباطنه وصار ذلك ديدنا لك وعادة متيسرة فيك ـ وما أبعد ذلك منك ـ فاشتغل بفروض الكفايات وراع التدريج فيها ؛ فابتدىء بكتاب الله تعالى ثم بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم بعلم التفسير وسائر علوم القرآن من علم الناسخ والمنسوخ والمفصول والموصول والمحكم والمتشابه وكذلك فى السنة ، ثم اشتغل بالفروع وهو علم المذهب من علم الفقة دون الخلاف ، ثم بأصول الفقه ، وهكذا إلى بقية العلوم على مايتسع له العمر ويساعد فيه الوقت ، ولاتستغرق عمرك فى فن واحد منها طلبا للاستقصاء فإن العلم كثير والعمر قصير ، وهذه العلوم آلات ومقدمات وليست مطلوبة لعينها بل لغيرها ،

وكل ما يطلب لغيره فلا ينبغي أن ينسى فيه المطلوب ويستكثر منه ، فاقتصر من شائع علم اللغة على ما تفهم منه كلام العرب وتنطق به ، ومن غريبه على غريب القرآن وغريب الحديث ودع التعمق فيه ، واقتصر من النحو على ما يتعلق بالكتاب والسنة فما من علم إلا وله اقتصار واقتصاد واستقصاء . ونحن نشير إليها في الحديث والتفسير والفقه والكلام لتقيس بها غيرها . فالاقتصار في التفسير ما يبلغ ضعف القرآن في المقدار كما صنفه علي والواحدي النيسابوري وهو الوجيز ، والاقتصاد ما يبلغ ثلاثة أضعاف القرآن كما صنفه من الوسيط فيه وما وراء ذلك استقصاء مستغنى عنه فلا مرد له إلى انتهاء العمر .

وأما الحديث فالاقتصار فيه تحصيل ما في الصحيح بتصحيح نسخة على رجل خبير بعلم متن الحديث .

وأما حفظ أسامي الرجال فقد كفيت فيه بما تحمله عنك من قبلك ، ولك أن تعول على كتبهم ، وليس يلزمك حفظ متون الصحيحين ولكن تحصله تحصيلا تقدر منه على طلب ما يحتاج إليه عند الحاجة ، وأما الاقتصاد فيه فأن تضيف إليهما ما خرج عنهما مما ورد في المسندات الصحيحة .

وأما الاستقصاء فما وراء ذلك إلى استيعاب كل ما نقل من الضعيف والقوي والصحيح والسقيم مع معرفة الطرق الكثيرة في النقل ومعرفة أحوال الرجال وأسمائهم وأوصافهم .

وأما الفقه فالاقتصار فيه على ما يحويه مختصر المزني رحمه الله وهو الذي رتبناه في خلاصة المختصر ، والاقتصاد فيه ما يبلغ ثلاثة أمثاله وهو القدر الذي أوردناه في الوسيط من المذهب ، والاستقصاء ما أوردناه في البسيط إلى ما وراء ذلك من المطولات .

وأما الكلام فمقصوده حماية المعتقدات التي نقلها أهل السنة من السلف الصالح لا غير ، وما وراء ذلك طلب لكشف حقائق الأمور من غير طريقتها ، ومقصود حفظ السنة تحصيل رتبة الاقتصار منه بمعتقد مختصر ، وهو القدر الذي أوردناه في كتاب قواعد العقائد من جملة هذا الكتاب ، والاقتصاد فيه ما يبلغ قدر مائة ورقة وهو الذي أوردناه في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد . ويحتاج إليه لمناظرة مبتدع ومعارضة بدعته بما يفسدها وينزعها عن قلب العامي ، وذلك لا ينفع إلا مع العوام قبل اشتداد تعصبهم ، وأما المبتدع بعد أن يعلم من الجدل ولو شيئا يسيرا فقلما ينفع معه الكلام ، فإنك إن أفحمته لم يترك مذهبه وأحال بالقصور على نفسه وقدر أن عند غيره جوابا ما وهو عاجز عنه ، وإنما أنت ملبس عليه بقوة المجادلة .

وأما العامي إذا صرف عن الحق بنوع جدل يمكن أن يرد إليه بمثله قبل أن يشتد التعصب للأهواء ، فإذا اشتد تعصبهم وقع اليأس منهم ، إذ التعصب سبب يرسخ العقائد في النفوس وهو من آفات العلماء السوء ، فإنهم يبالغون في التعصب للحق وينظرون إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار ، فتنبعث منهم الدعوى بالمقابلة والمكافأة والمعاملة ، وتتوفر بواعثهم على طلب نصرة الباطل ، ويقوى غرضهم في التمسك بما نسبوا إليه ، ولو جاءوا من جانب اللطف والرحمة والنصح في الخلوة ـ لا في معرض التعصب والتحقير ـ لانجحوا فيه ، ولكن لما كان الجاه لا يقوم إلا بالاستتباع ولا يستميل الأتباع مثل التعصب واللعن والشتم للخصوم ، اتخذوا التعصب عادتهم وآلتهم ، وسموه ذبا عن الدين ونضالا عن المسلمين ، وفيه على التحقيق هلاك الخلق ورسوخ البدعة

فى النفوس . وأما الخلافيات التى أحدثت فى هذه الأعصار المتأخرة وأبدع فيها من التحريرات والتصنيفات والمجادلات ما لم يعهد مثلها فى السلف فإياك وأن تحوم حولها ، واجتنبها اجتناب السم القاتل فإنها الداء العضال وهو الذى رد الفقهاء كلهم إلى طلب المنافسة والمباهاة على ما سيأتيك تفصيل غوائلها وآفاتها . وهذا الكلام ربما يسمع من قائله فيقال : الناس أعداء ما جهلوا فلا تظن ذلك ، فعلى الخبير سقطت . فأقبل هذه النصيحة ممن ضيع العمر فيه زمانا ، وزاد فيه على الأولين تصنيفا وتحقيقا وجدلا وبيانا ، ثم ألهمه الله رشده وأطلعه على عيبه فهجره واشتغل بنفسه ، فلا يغرنك قول من يقول الفتوى عماد الشرع ولا يعرف علله إلا بعلم الخلاف ؛ فإن علل المذهب مذكورة فى المذهب ، والزيادة عليها مجادلات لم يعرفها الأولون ولا الصحابة وكانوا أعلم بعلل الفتاوى من غيرهم، بل هى مع أنها غير مفيدة فى علم المذهب ضارة مفسدة لذوق الفقه ؛ فإن الذى يشهد له حدس المفتى إذا صح ذوقه فى الفقه لا يمكن تمشيته على شروط الجدل فى أكثر الأمر، فمن ألف طبعه رسوم الجدل أذعن ذهنه لمقتضيات الجدل وجبن عن الإذعان لذوق الفقه ، وإنما يشتغل به من يشتغل لطلب الصيت والجاه ويتعلل بأنه يطلب علل المذهب ، وقد ينقضى عليه العمر ولا تنصرف همته إلى علم المذهب ، فكن من شياطين الجن فى أمان ، واحترز من شياطين الإنس فإنهم أراحوا شياطين الجن من التعب فى الاغواء والإضلال ، وبالجملة فالمرضى عند العقلاء أن تقدر نفسك فى العالم وحدك مع الله وبين يديك الموت والعرض والحساب والجنة والنار ، وتأمل فيما يعنيك مما بين يديك ، ودع عنك ما سواه والسلام . وقد رأى بعض الشيوخ بعض العلماء فى المنام فقال له : ما خبر تلك العلوم التى كنت تجادل فيها وتناظر عليها فبسط يده ونفخ فيها وقال : طاحت كلها هباء منثورا وما انتفعت إلا بركعتين خلصتا لى فى جوف الليل . وفى الحديث « ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل [(١)] » ثم قرأ ﴿ ماضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون ﴾ وفى الحديث فى معنى قوله تعالى ﴿ فأما الذين فى قلوبهم زيغ ﴾ الآية :« هم أهل الجدل الذين عناهم الله بقوله تعالى : فاحذرهم [(٢)] » وقال بعض السلف : يكون فى آخر الزمان قوم يغلق عليهم باب العمل ويفتح لهم باب الجدل . وفى بعض الأخبار إنكم فى زمان ألهمتم فيه العمل وسيأتى قوم يلهمون الجدل [(٣)] وفى الخبر المشهور « أبغض الخلق إلى الله تعالى الألد الخصم[(٤)] » وفى الخبر «ما أتى قوم المنطق إلا منعوا العمل[(٥)] » والله أعلم.

الباب الرابع

فى سبب إقبال الخلق على علم الخلاف وتفصيل آفات المناظرة والجدل وشروط إباحتها

اعلم أن الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تولاها الخلفاء الراشدون المهديون وكانوا أئمة علماء بالله تعالى فقهاء فى أحكامه وكانوا مستقلين بالفتاوى فى الأقضية ، فكانوا يستعينون بالفقهاء إلا نادرا فى وقائع لا يستغنى فيها عن المشاورة ، فتفرغ العلماء لعلم الآخرة وتجردوا لها ، وكانوا يتدافعون الفتاوى وما يتعلق بأحكام الخلق من الدنيا ، وأقبلوا على الله تعالى بكنه اجتهادهم كما نقل من سيرهم ، فلما أفضت الخلافة بعدهم إلى أقوام تولوها

(١) حديث « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » رواه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى أمامة . قال الترمذى : حسن صحيح .

(٢) حديث « هم أهل الجدل الذين عنى الله بقوله فاحذرهم » متفق عليه من حديث عائشة .

(٣) حديث « إنكم فى زمان ألهمتم فيه العمل وسيأتى قوم يلهمون الجدل » لم أجده .

(٤) حديث « أبغض الخلق إلى الله الألد الخصم » متفق عليه من حديث عائشة .

(٥) حديث « ما أوتى قوم المنطق إلا منعوا العمل » لم أجد له أصلا .

بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام ، اضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء وإلى استصحابهم فى جميع أحوالهم لاستفتائهم فى مجارى أحكامهم ، وكان قد بقى من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الأول وملازم صفو الدين ومواظب على سمت علماء السلف ؛ فكانوا إذا طلبوا هربوا وأعرضوا ؛ فاضطر الخلفاء إلى الإلحاح فى طلبهم لتولية القضاء والحكومات ، فرأى أهل تلك الأعصار عز العلماء وإقبال الأئمة والولاة عليهم مع إعراضهم عنهم ، فاشرأبوا لطلب العلم توصلا إلى نيل العز ودرك الجاه من قبل الولاة ، فأكبوا على علم الفتاوى وعرضوا أنفسهم على الولاة ، وتعرفوا إليهم ، وطلبوا الولايات والصلات منهم ، فمنهم من حرم ومنهم من أنجح ، والمنجح لم يخل من ذل الطلب ومهانة الابتذال ، فأصبح الفقهاء — بعد أن كانوا مطلوبين — طالبين ، وبعد أن كانوا أعزة بالإعراض عن السلاطين أذلة بالإقبال عليهم ، إلا من وفقه الله تعالى فى كل عصر من علماء دين الله . وقد كان أكثر الإقبال فى تلك الأعصار على علم الفتاوى والأقضية لشدة الحاجة إليها فى الولايات والحكومات .

ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمراء من يسمع مقالات الناس فى قواعد العقائد ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيها فعلمت رغبته الى المناظرة والمجادلة فى الكلام فأكب الناس على علم الكلام وأكثروا فيه التصانيف ، ورتبوا فيه طرق المجادلات واستخرجوا فنون المناقضات فى المقالات ، وزعموا أن غرضهم الذب عن دين الله والنضال عن السنة وقمع المبتدعة ، كما زعم من قبلهم أن غرضهم بالاشتغال بالفتاوى الدين وتقلد أحكام المسلمين ، إشفاقا على خلق الله ونصيحة لهم .

ثم ظهر بعد ذلك من الصدور من لم يستصوب الخوض فى الكلام وفتح باب المناظرة فيه ، لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصبات الفاحشة والخصومات الفاشية المفضية إلى اهراق الدماء وتخريب البلاد ، ومالت نفسه إلى المناظرة فى الفقه وبيان الأولى من مذهب الشافعى وأبى حنيفة رضى الله عنهما على الخصوص ، فترك الناس الكلام وفنون العلم وانثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعى وأبى حنيفة على الخصوص ، وتساهلوا فى الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد رحمهم الله تعالى وغيرهم . وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع وتقرير علل المذهب وتمهيد أصول الفتاوى . وكثروا فيها التصانيف والاستنباطات ورتبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات وهم مستمرون عليه إلى الآن ولسنا ندرى ما الذى يحدث الله فيما بعدنا من الأعصار ؟ فهذا هو الباعث على الإكباب على الخلافيات والمناظرات لا غير ولو مالت نفوس أرباب الدنيا إلى الخلاف مع إمام آخر من الأئمة او إلى علم آخر من العلوم لمالوا أيضاً معهم . ولم يسكتوا عن التعلل بأن ما اشتغلوا به هو علم الدين وأن لا مطلب لهم سوى التقرب إلى رب العالمين .

بيان التلبيس فى تشبيه هذه المناظرات بمشاورات الصحابة ومفاوضات السلف

اعلم أن هؤلاء قد يستدرجون الناس إلى ذلك بأن غرضنا من المناظرات المباحثة عن الحق ليتضح ، فإن الحق مطلوب والتعاون على النظر فى العلم وتوارد الخواطر مفيد ومؤثر : هكذا كان عادة الصحابة رضى الله عنهم فى مشاوراتهم كتشاورهم فى مسألة الجد والأخوة وحد شراب الخمر ووجوب الغرم على الإمام إذا أخطأ : كما نقل من إجهاض المرأة جنينها خوفا من عمر رضى الله عنه : وكما نقل من مسائل الفرائض وغيرها وما نقل عن الشافعى وأحمد ومحمد بن الحسن ومالك وأبى يوسف وغيرهم من العلماء رحمهم الله تعالى . ويطلعك على هذا التلبيس ماأذكره وهو أن التعاون على طلب الحق من الدين ولكن له شروط وعلامات ثمان .

الأول : أن لا يشتغل به وهو من فروض الكفايات من لم يتفرغ من فروض الأعيان ، ومن عليه فرض عين فاشتغل بفرض كفاية وزعم أن مقصده الحق فهو كذاب . ومثاله من يترك الصلاة في نفسه ويتجرد في تحصيل الثياب ونسجها ويقول غرضي أستر عورة من يصلي عريانا ولا يجد ثوبا ، فإن ذلك ربما يتفق ووقوعه ممكن كما يزعم الفقيه أن وقوع النوادر التي عنها البحث في الخلاف ممكن .

والمشتغلون بالمناظرة مهملون لأمور هي فرض عين بالاتفاق ومن توجه عليه رد وديعة في الحال فقام وأحرم بالصلاة التي هي أقرب القربات إلى الله تعالى عصى به ، فلا يكفي في كون الشخص مطيعاً كون فعله من جنس الطاعات مالم يراع فيه الوقت والشروط والترتيب .

الثاني : أن يرى فرض كفاية أهم من المناظرة فإن رأى ماهو أهم وفعل غيره عصى بفعله وكان مثاله من يرى جماعة من العطاش أشرفوا على الهلاك وقد أهملهم الناس وهو قادر على إحيائهم بأن يسقيهم الماء فاشتغل بتعلم الحجامة ، وزعم أنه من فروض الكفايات ولو خلا البلد عنها لهلك الناس وإذا قيل له في البلد جماعة من الحجامين وفيهم غنية فيقول هذا لا يخرج هذا الفعل عن كونه فرض كفاية . فحال من يفعل هذا ويهمل الاشتغال بالواقعة الملمة بجماعة العطاش من المسلمين كحال المشتغل بالمناظرة وفي البلد فروض كفايات مهملة لاقائم بها .

فأما الفتوى فقد قام بها جماعة ولا يخلو بلد من جملة الفروض المهملة ولا يلتفت الفقهاء إليها وأقربها الطب ، إذ لا يوجد في أكثر البلاد طبيب مسلم يجوز اعتماد شهادته فيما يعول فيه على قول الطبيب شرعا ولا يرغب أحد من الفقهاء في الاشتغال به . وكذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو من فروض الكفايات وربما يكون المناظرة في مجلس مناظرته مشاهداً للحرير ملبوسا ومفروشا وهو ساكت ويناظر في مسألة لا يتفق وقوعها قط وإن وقعت قام بها جماعة من الفقهاء ، ثم يزعم أنه يريد أن يتقرب إلى الله تعالى بفروض الكفايات . وقد روى أنس رضي الله عنه أنه «قيل يارسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ فقال عليه السلام : إذا ظهرت المداهنة في خياركم والفاحشة في شراركم وتحول الملك في صغاركم والفقه في أراذلكم (١)» .

الثالث : أن يكون المناظر مجتهداً يفتي برأيه لا بمذهب الشافعي وأبي حنيفة وغيرهما حتى إذا ظهر له الحق من مذهب أبي حنيفة ترك مايوافق رأي الشافعي وأفتى بما ظهر له كما كان يفعله الصحابة رضي الله عنهم والأئمة . فأما من ليس له رتبة الاجتهاد وهو حكم كل أهل العصر وإنما يفتي فيما يسأل عنه ناقلا عن مذهب صاحبه فلو ظهر له ضعف مذهبه لم يجز له أن يتركه ، فأي فائدة له في المناظرة ومذهبه معلوم وليس له الفتوى بغيره ؟ ومايشكل عليه يلزمه أن يقول : لعل عند صاحب مذهبي جوابا عن هذا فإني لست مستقلا بالاجتهاد في أصل الشرع . ولو كانت مباحثته عن المسائل التي فيها وجهان أو قولان لصاحبه لكان أشبه به ، فإنه ربما يفتي بأحدهما فيستفيد من البحث ميلا إلى أحد الجانبين ولا يرى المناظرات جارية فيها قط ، بل ربما ترك المسألة التي فيها وجهان أو قولان وطلب مسألة يكون الخلاف فيها مبتوتا .

الرابع : أن لا يناظر إلا في مسألة واقعة أو قريبة الوقوع غالبا فإن الصحابة رضي الله عنهم ماتشاوروا إلا فيما تجدد من الوقائع أو مايغلب وقوعه كالفرائض ، ولا نرى المناظرين يهتمون بانتقاد المسائل التي تعم البلوى بالفتوى فيها بل يطلبون الطبوليات التي تسمع فيتسع مجال الجدل فيها كيفما كان الأمر ، وربما يتركون ما يكثر وقوعه ويقولون

الباب الرابع

(١) حديث أنس « قيل يارسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... الحديث » أخرجه ابن ماجه بإسناد حسن .

هذه مسألة خبرية أو هي من الزوايا وليست من الطبوليات ، فمن العجائب أن يكون المطلب هو الحق ثم يتركون المسألة لأنها خبرية ومدرك الحق فيها هو الإخبار ! أو لأنها ليست من الطبول فلا نطول فيها الكلام . والمقصود في الحق أن يقصر الكلام ويبلغ الغاية على القرب لا أن يطول .

الخامس : أن تكون المناظرة في الخلوة أحب إليه وأهم من المحافل وبين أظهر الأكابر والسلاطين فإن الخلوة أجمع للفهم وأحرى بصفاء الذهن والفكر ودرك الحق ، وفي حضور الجمع مايحرك دواعي الرياء ويوجب الحرص على نصرة كل واحد نفسه محقا كان أو مبطلا ، وأنت تعلم أن حرصهم على المحافل والمجامع ليس لله وأن الواحد منهم يخلو بصاحبه مدة طويلة فلا يكلمه وربما يقترح عليه فلا يجيب وإذا ظهر مقدم أو انتظم جمع لم يغادر في قوس الاحتيال منزعا حتى يكون هو المتخصص بالكلام .

السادس : أن يكون في طلب الحق كناشد ضالة لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يد من يعاونه وبين رفيقه معينا لا خصما ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له الحق ، كما لو أخذ طريقاً في طلب ضالته فنبهه صاحبه على ضالته في طريق آخر فإنه كان يشكره ولا يذمه ويكرمه ويفرح به فهكذا كانت مشاورات الصحابة رضي الله عنهم حتى أن امرأة ردت على عمر رضي الله عنه ونبهته على الحق وهو في خطبته على ملاء من الناس فقال : أصابت امرأة وأخطأ رجل . وسأل رجل عليا رضي الله عنه فأجابه فقال : ليس كذلك ياأمير المؤمنين ولكن كذا وكذا فقال : أصبت وأخطأت وفوق كل ذي علم عليم واستدرك ابن مسعود على أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما فقال أبو موسى: لاتسألوني عن شيء وهذا الحبر بين أظهركم . وذلك لما سئل أبو موسى عن رجل قاتل في سبيل الله فقتل فقال : هو في الجنة . وكان أمير الكوفة فقام ابن مسعود فقال : أعده على الأمير فلعله لم يفهم ؟ فأعادوا عليه فأعاد الجواب فقال ابن مسعود : وأنا أقول إن قتل فأصاب الحق فهو في الجنة . فقال أبو موسى : الحق ما قال . وهكذا يكون إنصاف طالب الحق ! ولو ذكر مثل هذا الآن لأقل فقيه لأنكره واستبعده وقال :لايحتاج إلى أن يقال أصاب الحق فإن ذلك معلوم لكل أحد . فانظر إلى مناظري زمانك اليوم كيف يسود وجه أحدهم إذا اتضح الحق على لسان خصمه وكيف يخجل به وكيف يجتهد في مجاحدته بأقصى قدرته وكيف يذم من أفحمه طول عمره ثم لا يستحي من تشبيه نفسه بالصحابة رضي الله عنهم في تعاونهم على النظر في الحق ؟

السابع : أن لا يمنع معينه في النظر من الانتقال من دليل إلى دليل ومن إشكال إلى إشكال ، فهكذا كانت مناظرات السلف . ويخرج من كلامه جميع دقائق الجدل المبتدعة فيما له وعليه كقوله : هذا لا يلزمني ذكره ، وهذا يناقض كلامك الأول فلا يقبل منك . فإن الرجوع إلى الحق مناقض للباطل ويجب قبوله .

وأنت ترى أن جميع المجالس تنقضي في المدافعات والمجادلات حتى يقيس المستدل على أصل بعلة يظنها فيقال له : ما الدليل على أن الحكم في الأصل معلل بهذه العلة ؟ فيقول : هذا ما ظهر لك لي ، فإن ظهر لك ما هو أوضح منه وأولى فاذكره حتى أنظر فيه . فيصر المعترض ويقول فيه معان سوى ما ذكرته وقد عرفتها ولاأذكرها إذلايلزمني ذكرها ، ويقول المستدل عليك إيراد ما تدعيه وراء هذا ، ويصر المعترض على أنه لايلزمه ويتوخى مجالس المناظرة بهذا الجنس من السؤال وأمثاله ولايعرف هذا المسكين أن قوله : إني أعرفه ولا أذكره إذ لايلزمني ، كذب على الشرع . فإنه إن كان لا يعرف معناه وإنما يدعيه ليعجز خصمه فهو فاسق كذاب عصى الله تعالى وتعرض لسخطه بدعواه معرفة هو خال عنها وإن كان صادقا فقد فسق بإخفائه ما عرفه من أمر الشرع . وقد سأله أخو المسلم ليفهمه وينظر فيه فان كان قويا رجع إليه وإن كان ضعيفاً أظهر له ضعفه وأخرجه عن ظلمة الجهل إلى نور العلم ولا خلاف أن إظهار ما علم من علوم الدين بعد السؤال عنه واجب لازم فمعنى قوله : لا يلزمني ، أي في شرع الجدل الذي أبدعناه بحكم التشهي والرغبة في طريق الاحتيال والمصارعة بالكلام لايلزمني وإلا فهو لازم بالشرع، فإنه بامتناعه عن الذكر إما كاذب وإما فاسق فتفحص عن مشاورات الصحابة ومفاوضات السلف رضي الله عنهم.

هل سمعت فيها ما يضاهي هذا الجنس وهل منع أحد من الانتقال من دليل ومن قياس إلى أثر ومن خبر الى آية ؟ بل جميع مناظراتهم من هذا الجنس إذ كانوا يذكرون كل ما يخطر لهم كما يخطر وكانوا ينظرون فيه .

الثامن : أن يناظر من يتوقع الاستفادة منه ممن هو مشتغل بالعلم . والغالب أنهم يحترزون من مناظرة الفحول والأكابر خوفا من ظهور الحق على ألسنتهم فيرغبون فيمن دونهم طمعاً فى ترويج الباطل عليهم ووراء هذه شروط دقيقة كثيرة ولكن فى هذه الشروط الثمانية ما يهديك الى من يناظر لله ومن يناظر لعلة .

واعلم بالجملة أن من لايناظر الشيطان وهو مستول على رقبته وهو أعدى عدو له ولا يزال يدعوه إلى هلاكه ثم يشتغل بمناظرة غيره فى المسائل التى المجتهد فيها مصيب أو مساهم للمصيب فى الأجر فهو ضحكة للشيطان وعبرة للمخلصين ولذلك شمت الشيطان به لما غمسه فيه من ظلمات الآفات التى نعددها ونذكر تفاصيلها، فنسأل الله حسن العون والتوفيق .

بيان آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق

اعلم وتحقق أن المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والإفحام وإظهار الفضل والشرف والتشدق عند الناس وقصد المباهاة والمماراة واستمالة وجوه الناس هى منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله المحمودة عند عدو الله إبليس . ونسبتها الى الفواحش الباطنة من الكبر والعجب والحسد والمنافسة وتزكية النفس وحب الجاه وغيرها كنسبة شرب الخمر إلى الفواحش الظاهرة من الزنا والقذف والقتل والسرقة . وكما أن الذى خير بين الشرب وسائر الفواحش استصغر الشرب فأقدم عليه فدعاه ذلك إلى ارتكاب بقية الفواحش فى سكره فكذلك من غلب عليه حب الإفحام والغلبة فى المناظرة وطلب الجاه والمباهاة دعاه ذلك إلى إضمار الخبائث كلها فى النفس وهيج فيه جميع الأخلاق المذمومة : وهذه الأخلاق ستأتى أدلة مذمتها من الأخبار والآيات فى ربع المهلكات . ولكنا نشير الآن إلى مجامع ماتهيجه المناظرة فمنها الحسد ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب [(١)] » ولا ينفك المناظر عن الحسد فإنه تارة يغلب وتارة يغلب وتارة يحمد كلامه وأخرى يحمد كلام غيره . فما دام يبقى فى الدنيا واحد يذكر بقوة العلم والنظر أو يظن أنه أحسن منه كلاما وأقوى نظراً فلابد أن يحسده ويحب زوال النعم عنه وانصراف القلوب والوجوه عنه إليه . الحسد نار محرقة فمن بلى به فهو فى العذاب فى الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأعظم ، ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما : خذوا العلم حيث وجدتموه ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم على بعض فإنهم يتغايرون كما تتغاير التيوس فى الزريبة . ومنها التكبر والترفع على الناس فقد قال صلى الله عليه وسلم « من تكبر وضعه الله ومن تواضع رفعه الله[(٢)] » وقال صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى « العظمة إزارى والكبرياء ردائى فمن نازعنى فيهما قصمته[(٣)] » ولا ينفك المناظر عن التكبر على

---

(١) حديث « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » أخرجه أبو داود من حديث أبى هريرة . وقال البخارى : لايصح . وهو عند ابن ماجه من حديث أنس بإسناد ضعيف ، وفى تاريخ بغداد بإسناد حسن .

(٢) حديث « من تكبر وضعه الله ... الحديث » أخرجه الخطيب من حديث عمر بإسناد صحيح وقال : غريب من حديث الثورى ، ولابن ماجه نحوه من حديث أبى سعيد بسند حسن .

(٣) حديث « الكبرياء ردائى والعظمة إزارى ، .. الحديث » أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان من حديث أبى هريرة وهو عند مسلم بلفظ « الكبرياء رداؤه » من حديث أبى هريرة وأبى سعيد .

الأقران والأمثال والترفع إلى فوق قدره حتى إنهم ليقاتلون على مجلس من المجالس يتنافسون فيه فى الارتفاع والانخفاض والقرب من وسادة الصدر والبعد منها والتقدم فى الدخول عند مضايق الطرق ؛ وربما يتعلل الغبى والمكار الخداع منهم بأنه يبغى صيانة عز العلم ، وأن المؤمن منهى عن الإذلال لنفسه(١) ، فيعبر عن التواضع الذى أثنى الله عليه وسائر أنبيائه بالذل وعن التكبر الممقوت عند الله بعز الدين تحريفاً للاسم وإضلالا للخلق به كما فعل فى اسم الحكمة والعلم وغيرهما .

ومنها الحقد فلا يكاد المناظر يخلو عنه . وقد قال صلى الله عليه وسلم « المؤمن ليس بحقود(٢) » وورد فى ذم الحقد ما لا يخفى ، ولا ترى مناظراً يقدر على أن لا يضمر حقداً على من يحرك رأسه من كلام خصمه ويتوقف فى كلامه فلا يقابله بحسن الإصغاء بل يضطر إذا شاهد ذلك إلى إضمار الحقد وتربيته فى نفسه وغاية تماسكه بالإخفاء بالنفاق ويترشح منه إلى الظاهر لامحالة فى غالب الأمر ، وكيف ينفك عن هذا ولا يتصور إتفاق جميع المستمعين على ترجيح كلامه واستحسان جميع أحواله فى إيراده وإصداره ؟ بل لو صدر من خصمه أدنى سبب فيه قلة مبالاة بكلامه انغرس فى صدره حقد لا يقلعه مدى الدهر إلى آخر العمر .

ومنها الغيبة وقد شبهها الله بأكل الميتة ولا يزال المناظر مثابراً على أكل الميتة فانه لا ينفك عن حكاية كلام خصمه ومذمته ، وغاية تحفظه أن يصدق فيما يحكيه عليه ولا يكذب فى الحكاية عنه فيحكى عنه لامحالة ما يدل على قصور كلامه وعجزه ونقصان فضله وهو الغيبة ؛ فأما الكذب فبهتان وكذلك لا يقدر على أن يحفظ لسانه عن التعرض لعرض من يعرض عن كلامه ويصغى إلى خصمه ويقبل عليه حتى ينسبه إلى الجهل والحماقة وقلة الفهم والبلادة .

ومنها تزكية النفس ، قال الله تعالى ﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ وقيل لحكيم : ما الصدق القبيح ؟ فقال : ثناء المرء على نفسه ، ولا يخلو المناظر من الثناء على نفسه بالقوة والغلبة والتقدم بالفضل على الأقران ، ولا ينفك فى أثناء المناظرة عن قوله : لست ممن يخفى عليه أمثال هذه الأمور وأنا المتفنن فى العلوم والمستقل بالأصول وحفظ الأحاديث وغير ذلك مما يتمدح به تارة على سبيل الصلف وتارة للحاجة الى ترويج كلامه . ومعلوم أن الصلف والتمدح مذمومان شرعاوعقلا ومنها التجسس وتتبع عورات الناس،وقدقال تعالى ﴿ ولا تجسسوا ﴾ والمناظر لا ينفك عن طلب عثرات أقرانه وتتبع عورات خصومه حتى إنه ليخبر بورود مناظر الى بلده فيطلب من يخبر بواطن أحواله ويستخرج بالسؤال مقابحه حتى يعدها ذخيرة لنفسه فى إفضاحه وتخجيله اذا مست إليه حاجة حتى إنه ليستكشف عن أحوال صباه وعن عيوب بدنه فعساه يعثر على هفوة أو على عيب به من قرع أو غيره ،ثم إذا أحس بأدنى غلبة من جهته عرض به إن كان متماسكا ويستحسن ذلك من لطائف التسبب ولا يمتنع عن الإفصاح به ان كان متبجحا بالسفاهة والاستهزاء كما حكى عن أكابر المناظرين المعدودين من فحولهم . ومنها الفرح لمساءة الناس والغم لمسارهم ومن لا يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه فهو بعيد من أخلاق المؤمنين ، فكل من طلب المباهاة بإظهار الفضل يسره لامحالة ما يسوء أقرانه وأشكاله الذين يسامونه فى الفضل ويكون التباغض بينهم كما بين الضرائر فكما أن إحدى الضرائر اذا رأت صاحبتها من بعيد ارتعدت فرائصها واصفر لونها فهكذا ترى المناظر اذا رأى مناظراً تغير لونه واضطرب عليه فكره فكأنه يشاهد شيطانا ماردا أو سبعا ضاريا ، فأين الاستئناس والاسترواح الذى كان يجرى بين علماء الدين عند اللقاء وما نقل عنهم من المؤاخاة والتناصر والتساهم فى السراء

---

(١) حديث « نهى المؤمن عن إذلال نفسه » أخرجه الترمذى وصححه وابن ماجه من حديث حذيفة « لا ينبغى للمؤمن أن يذل نفسه » .

(٢) حديث « المؤمن ليس بحقود » لم أقف له على أصل .

والضراء حتى قال الشافعي رضى الله عنه : العلم بين أهل الفضل والعقل رحم متصل ؟ فلا أدرى كيف يدعى الاقتداء بمذهبه جماعة صار العلم بينهم عداوة قاطعة ! فهل يتصور أن ينسب الأنس بينهم مع طلب الغلبة والمباهاة هيهات هيهات وناهيك بالشر شرا أن يلزمك أخلاق المنافقين ويبرئك عن أخلاق المؤمنين والمتقين .

ومنها النفاق فلا يحتاج إلى ذكر الشواهد فى ذمه وهم مضطرون إليه فانهم يلقون الخصوم ومحبيهم وأشياعهم ولا يجدون بدا من التودد إليهم باللسان وإظهار الشوق والاعتداد بمكانهم وأحوالهم ويعلم ذلك المخاطب والمخاطب وكل من يسمع منهم أن ذلك كذب وزور ونفاق وفجور فإنهم متوددون بالألسنة متباغضون بالقلوب نعوذ بالله العظيم منه ، فقد قال صلى الله عليه وسلم « اذا تعلم الناس العلم وتركوا العمل وتحابوا بالألسن وتباغضوا بالقلوب وتقاطعوا فى الأرحام لعنهم الله عند ذلك فأصمهم وأعمى أبصارهم (١) » رواه الحسن وقد صح ذلك بمشاهدة هذه الحالة .

ومنها الاستكبار عن الحق وكراهته والحرص على المماراة فيه حتى إن أبغض شيء إلى المناظر أن يظهر على لسان خصمه الحق ومهما ظهر تشمر لجحده وإنكاره بأقصى جهده وبذل غاية إمكانه فى المخادعة والمكر والحيلة لدفعه حتى تصير المماراة فيه عادة طبيعية فلا يسمع كلاما الا وينبعث من طبعه داعية الاعتراض عليه حتى يغلب ذلك على قلبه فى أدلة القرآن وألفاظ الشرع فيضرب البعض منها بالبعض ، والمراء فى مقابلة الباطل محذور إذ ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ترك المراء بالحق على الباطل قال صلى الله عليه وسلم «من ترك المراء وهو مبطل بنى الله له بيتا فى ربض الجنة ومن ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتا فى أعلى الجنة (٢) » وقد سوى الله تعالى بين من افترى على الله كذبا وبين من كذب بالحق فقال تعالى ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه ﴾ وقال تعالى ﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق اذ جاءه ﴾ .

ومنها الرياء وملاحظة الخلق والجهد فى استمالة قلوبهم وصرف وجوههم والرياء هو الداء العضال الذى يدعو الى أكبر الكبائر — كما سيأتى فى كتاب الرياء — والمناظر لا يقصد الا الظهور عند الخلق وانطلاق ألسنتهم بالثناء عليه فهذه عشر خصال من أمهات الفواحش الباطنة سوى ما يتفق لغير المتماسكين منهم من الخصام المؤدى الى الضرب واللكم واللطم وتمزيق الثياب والأخذ باللحى وسب الوالدين وشتم الاستاذين والقذف الصريح فإن أولئك ليسوا معدودين فى زمرة الناس المعتبرين وإنما الأكابر والعقلاء منهم هم الذين لا ينفكون عن هذه الخصال العشر ، نعم قد يسلم بعضهم من بعضها مع من هو ظاهر الانحطاط عنه أو ظاهر الارتفاع عليه أو هو بعيد عن بلده وأسباب معيشته ، ولا ينفك أحد منهم عنه مع أشكاله المقارنين له الدرجة .

ثم يتشعب من كل واحدة من هذه الخصال العشر عشر أخرى من الرذائل لم نطول بذكرها وتفصيل آحادها مثل: الأنفة ، والغضب ، والبغضاء ، والطمع ، وحب طلب المال ، والجاه للتمكن من الغلبة ، والمباهاة ، والاشر ، والبطر وتعظيم الاغنياء والسلاطين والتردد إليهم والأخذ من حرامهم ، والتجمل بالخيول والمراكب والثياب المحظورة ، والاستحقار للناس بالفخر والخيلاء ، والخوض فيما لا يعنى ، وكثرة الكلام ، وخروج الخشية والخوف ، والرحمة من القلب واستيلاء الغفلة عليه حتى لا يدرى المصلى منهم فى صلاته ما صلى وما الذى يقرأ ومن الذى يناجيه ؟ ولا يحس بالخشوع من قلبه مع استغراق العمر فى العلوم التى تعين فى المناظرة مع أنها لا تنفع فى الآخرة : من تحسين العبارة وتسجيع اللفظ

---

(١) حديث « إذا تعلم الناس العلم وتركوا العمل وتحابوا بالألسن وتباغضوا بالقلوب ... الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث سلمان بإسناد ضعيف .

(٢) حديث « من ترك المراء وهو مبطل ... الحديث » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أنس مع اختلاف . قال الترمذى : حسن .

وحفظ النوادر إلى غير ذلك من أمور لا تحصى . والمناظرون يتفاوتون فيها على حسب درجاتهم ولهم درجات شتى ولا ينفك أعظمهم ديناً وأكثرهم عقلا عن جمل من مواد هذه الأخلاق وإنما غايته إخفاؤها ومجاهدة النفس بها . واعلم أن هذه الرذائل لازمة للمشتغل بالتذكير والوعظ أيضاً إذا كان قصده طلب القبول وإقامة الجاه ونيل الثروة والعزة وهى لازمة أيضاً للمشتغل بعلم المذهب والفتاوى إذا كان قصده طلب القضاء وولاية الأوقاف والتقدم على الأقران . وبالجملة هى لازمة لكل من يطلب بالعلم غير ثواب الله تعالى فى الآخرة فالعلم لا يهمل العالم بل يهلكه هلاك الأبد أو يحييه حياة الأبد ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لا ينفعه الله بعلمه » فلقد ضره مع أنه لم ينفعه ؛ وليته نجا منه رأسا برأس ؛ وهيهات هيهات فخطر العلم عظيم ، وطالبه طالب الملك المؤبد ، والنعيم السرمد ، فلا ينفك عن الملك أو الهلك ؛ وهو كطالب الملك فى الدنيا ، فإن لم يتفق له الإصابة فى الأموال لم يطمع فى السلامة من الإذلال بل لا بد من لزوم أفضح الأحوال

فإن قلت : فى الرخصة فى المناظرة فائدة وهى ترغيب الناس فى طلب العلم إذ لولا حب الرياسة لاندرست العلوم ؛ فقد صدقت فيما ذكرته من وجه ولكنه غير مفيد إذ لولا الوعد بالكرة والصولجان واللعب بالعصافير ما رغب الصبيان فى المكتب وذلك لا يدل على أن الرغبة فيه محمودة ؛ ولو لا حب الرياسة لاندرس العلم . ولا يدل ذلك على أن طالب الرياسة ناج بل هو من الذين قال صلى الله عليه وسلم فيهم « إن الله ليؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم[1] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر [2] » فطالب الرياسة فى نفسه هالك وقد يصلح بسببه غيره إن كان يدعو إلى ترك الدنيا وذلك فيمن كان ظاهر حاله فى ظاهر الأمر ظاهر حال علماء السلف ولكنه يضمر قصد الجاه ، فمثاله مثال الشمع الذى يحترق فى نفسه ويستضىء به غيره فصلاح غيره فى هلاكه فأما إذا كان يدعو إلى طلب الدنيا فمثاله مثال النار المحرقة التى تأكل نفسها وغيرها . فالعلماء ثلاثة : إما مهلك نفسه وغيره وهم المصرحون بطلب الدنيا والمقبلون عليها ، وإما مسعد نفسه وغيره وهم الداعون الخلق إلى الله سبحانه ظاهراً وباطناً ، وإما مهلك نفسه مسعد غيره وهو الذى يدعو إلى الآخرة وقد رفض الدنيا فى ظاهره وقصده فى الباطن قبول الخلق وإقامة الجاه ؛ فانظر من أى الأقسام أنت ومن الذى اشتغلت بالاعتداد له ؟ فلا تظنن أن الله تعالى يقبل غير الخالص لوجهه تعالى من العمل وسيأتيك فى كتاب الرياء بل فى جميع ربع المهلكات ماينفى عنك الريبة فيه إن شاء الله تعالى .

الباب الخامس

فى آداب المتعلم والمعلم

أما المتعلم فآدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة ولكن تنظم تفاريقها عشر جمل :

الوظيفة الأولى : تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف إذ العلم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله تعالى ؛ وكما لا تصح الصلاة التى هى وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس

(١) حديث « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم » أخرجه النسائى من حديث أنس بإسناد صحيح .

(٢) حديث « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » متفق عليه من حديث أبى هريرة

الأوصاف . قال صلى الله عليه وسلم « بنى الدين على النظافة[١] » وهو كذلك باطنا وظاهرا قال الله تعالى ﴿ إنما المشركون نجس ﴾ تنبيها للعقول على أن الطهارة والنجاسة غير مقصورة على الظواهر بالحس فالمشرك قد يكون نظيف الثوب مغسول البدن ولكنه نجس الجوهر أى باطنه ملطخ بالخبائث .

والنجاسة عبارة عما يجتنب ويطلب البعد منه وخبائث صفات الباطن أهم بالاجتناب فإنها مع خبثها فى الحال مهلكات فى المآل . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب[٢] » والقلب بيت هو منزل الملائكة ومهبط أثرهم ، ومحل استقرارهم ، والصفات الرديئة مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب وأخواتها كلاب نابحة فأنى تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب ونور العلم لا يقذفه الله تعالى فى القلب إلا بواسطة الملائكة ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء ﴾ وهكذا ما يرسل من رحمة العلوم إلى القلوب وإنما تتولاها الملائكة الموكلون بها وهم المقدسون المطهرون المبرءون عن الصفات المذمومات فلا يلاحظون إلا طيبا ولا يعمرون بما عندهم من خزائن رحمة الله إلا طيبا طاهرا . ولست أقول المراد بلفظ « البيت » هو القلب و « بالكلب » هو الغضب والصفات المذمومة ولكنى أقول هو تنبيه عليه ، وفرق بين تعبير الظواهر إلى البواطن وبين التنبيه للبواطن من ذكر الظواهر مع تقرير الظواهر ، ففارق الباطنية بهذه الدقيقة ، فإن هذه طريق الاعتبار وهو مسلك العلماء والأبرار إذ معنى الاعتبار أن يعبر ما ذكر إلى غيره فلا يقتصر عليه كما يرى العاقل مصيبة لغيره فيكون فيها له عبرة بأن يعبر منها إلى التنبيه لكونه أيضا عرضة للمصائب وكون الدنيا بصدد الانقلاب ، فعبوره من غيره إلى نفسه ومن نفسه إلى أصل الدنيا عبرة محمودة . فاعبر أنت أيضا من البيت الذى هو بناء الخلق إلى القلب الذى هو بيت من بناء الله تعالى ومن الكلب الذى ذم لصفته ـ لا لصورته ـ وهو ما فيه من سبعية ونجاسة إلى الروح الكلبية وهى السبعية .

واعلم أن القلب المشحون بالغضب والشره إلى الدنيا والتكالب عليها والحرص على التمزيق لأعراض الناس كلب فى المعنى وقلب فى الصورة ، فنور البصيرة يلاحظ المعانى لا الصور . والصور فى هذا العالم غالبة على المعانى والمعانى باطنة فيها ، وفى الآخرة تتبع الصور المعانى وتغلب المعانى . فلذلك يحشر كل شخص على صورته المعنوية ، فيحشر الممزق لأعراض الناس كلبا ضاريا ، والشره إلى أموالهم ذئبا عاديا ، والمتكبر عليهم فى صورة نمر ، وطالب الرياسة فى صورة أسد[٣] » وقد وردت بذلك الأخبار وشهد به الاعتبار عند ذوى البصائر والأبصار .

فإن قلت : كم من طالب ردىء الأخلاق حصل العلوم فهيهات ما أبعده عن العلم الحقيقى النافع فى الآخرة الجالب للسعادة فإن من أوائل ذلك العلم أن يظهر له أن المعاصى سموم قاتلة مهلكة وهل رأيت من يتناول سما مع علمه بكونه سما قاتلا ؟ إنما الذى تسمعه من المترسمين حديث يلفقونه بألسنتهم مرة ويرددونه بقلوبهم أخرى وليس ذلك من العلم فى شىء . قال ابن مسعود رضى الله عنه ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يقذف فى القلب . وقال بعضهم : إنما العلم الخشية لقوله تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وكأنه أشار إلى أخص ثمرات العلم . ولذلك قال بعض المحققين : معنى قولهم

الباب الخامس

(١) حديث « بنى الدين على النظافة » لم أجده هكذا . وفى الضعفاء لابن حبان من حديث عائشة « تنظفوا فإن الإسلام نظيف » وللطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف جداً من حديث ابن مسعود « النظافة تدعو إلى الإيمان »

(٢) حديث « لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب » متفق عليه من حديث أبى طلحة الأنصارى .

(٣) حديث « حشر الممزق لأعراض الناس فى صورة كلب ضار . . . الحديث » أخرجه الثعلبى فى التفسير من حديث البراء بسند ضعيف .

«تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله» أن العلم أبى وامتنع علينا فلم تنكشف لنا حقيقته وإنما حصل لنا حديثه وألفاظه .

فإن قلت : إنى أرى جماعة من العلماء الفقهاء المحققين برزوا فى الفروع والأصول وعدوا من جملة الفحول وأخلاقهم ذميمة لم يتطهروا منها ؟ فيقال إذا عرفت مراتب العلوم وعرفت علم الآخرة استبان لك أن ما اشتغلوا به قليل الغناء من حيث كونه علما وإنما غناؤه من حيث كونه عملا لله تعالى إذا قصد به التقرب إلى الله تعالى وقد سبقت إلى هذا إشارة . وسيأتيك فيه مزيد بيان وإيضاح إن شاء الله تعالى .

الوظيفة الثانية : أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن فإن العلائق شاغلة وصارفة و﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ﴾ ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق ولذلك قيل «العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك فإذا أعطيته كلك فأنت من عطائه إياك بعضه على خطر » والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تفرق ماؤه فنشفت الأرض بعضه واختطف الهواء بعضه فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزدرع .

الوظيفة الثالثة : أن لا يتكبر على العلم ولا يتأمر على المعلم بل يلقى إليه زمام أمره بالكلية فى كل تفصيل ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق ، وينبغى أن يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته . قال الشعبى « صلى زيد بن ثابت على جنازة فقربت إليه بغلته ليركبها فجاء ابن عباس فأخذ بركابه فقال زيد : خل عنه يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء فقبل زيد ابن ثابت يده وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا صلى الله عليه وسلم[1]. وقال صلى الله عليه وسلم « ليس من أخلاق المؤمن التملق إلا فى طلب العلم [2] » فلا ينبغى لطالب العلم أن يتكبر على المعلم ومن تكبره على المعلم أن يستنكف عن الاستفادة إلا من المرموقين المشهورين وهو عين الحماقة فإن العلم سبب النجاة والسعادة ، ومن يطلب مهربا من سبع ضار يفترسه لم يفرق بين أن يرشده إلى الهرب مشهور أو خامل، وضراوة سباع النار بالجهال بالله تعالى أشد من ضراوة كل سبع فالحكمة ضالة المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها ويتقلد المنة لمن ساقها إليه كائنا من كان، فلذلك قيل :

العلم حرب الفتى المتعـــال كالسيل حرب للمكان العالى

فلا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع قال الله تعالى ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ ومعنى كونه ذا قلب أن يكون قابلا للعلم فهما ، ثم لا تعينه القدرة على الفهم حتى يلقى السمع وهو شهيد حاضر القلب ليستقبل كل ما ألقى إليه بحسن الإصغاء والضراعة والشكر والفرح وقبول المنة . فليكن المتعلم لمعلمه كأرض دمثة نالت مطرا غزيرا فتشربت جميع أجزائها وأذعنت بالكلية لقبوله . ومهما أشار عليه المعلم بطريق فى التعلم فليقلده وليدع رأيه فإن خطأ مرشده أنفع له من صوابه فى نفسه إذ التجربة تطلع على دقائق يستغرب سماعها مع أنه يعظم نفعها ، فكم من مريض محرور يعالجه الطبيب فى بعض أوقاته بالحرارة ليزيد فى قوته إلى حد يحتمل صدمة العلاج فيعجب منه من لا خبرة له به ، وقد نبه الله تعالى بقصة الخضر وموسى عليهما السلام حيث قال الخضر ﴿ إنك لن تستطيع معى صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ﴾ ثم شرط عليه السكوت والتسليم فقال ﴿ فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾ ثم لم يصبر ولم يزل فى مراودته إلى أن كان ذلك سبب الفراق بينهما . وبالجملة كل متعلم استبقى لنفسه رأياً واختيارا

---

(١) حديث « أخذ ابن عباس بركاب زيد بن ثابت » وقوله « هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء » أخرجه الطبرانى والحاكم والبيهقى فى المدخل إلا أنهم قالوا « هكذا نفعل » قال الحاكم : صحيح الإسناد على شرط مسلم .

(٢) حديث « ليس من أخلاق المؤمن الملق إلا فى طلب العلم » أخرجه ابن عدى من حديث معاذ وأبى أمامة بإسنادين ضعيفين .

دون اختيار المعلم فاحكم عليه بالإخفاق والخسران .

فإن قلت : فقد قال الله تعالى ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون ﴾ فالسؤال مأمور به ؟ فاعلم أنه كذلك ولكن فيما يأذن المعلم فى السؤال عنه ، فإن السؤال عما لم تبلغ مرتبتك إلى فهمه مذموم ، ولذلك منع الخضر موسى عليه السلام من السؤال قبل أوانه فالمعلم أعلم بما أنت أهل له وبأوان الكشف ، ومالم يدخل أوان الكشف فى كل درجه من مراقى الدرجات لايدخل أوان السؤال عنه . وقد قال على رضى الله عنه : إن من حق العالم أن لا تكثر عليه بالسؤال ولا تعنته فى الجواب ، ولا تلح عليه إذا كل ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ، ولا تفشى له سراً ولا تغتابن أحدا عنده ولا تطلبن عثرته ، وإن زل قبلت معذرته ، وعليك أن توقره وتعظمه لله تعالى مادام يحفظ أمر الله تعالى ، ولا تجلس أمامه ، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته .

الوظيفة الرابعة: أن يحترز الخائض فى العلم فى مبدإ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس ، سواء كان ماخاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة ، فإن ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ويفتر رأيه ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع ، بل ينبغى أن يتقن أولا الطريق الحميدة الواحدة المرضية عند أستاذه ، ثم بعد ذلك يصغى إلى المذاهب والشبه . وإن لم يكن أستاذه مستقلا باختيار رأى واحد وإنما عادته نقل المذاهب وما قيل فيها فليحذر منه فإن إضلاله أكثر من إرشاده فلا يصلح الأعمى لقود العميان وإرشادهم ، ومن هذا حاله يعد فى عمى الحيرة وتيه الجهل ومنع المبتدىء عن الشبه يضاهى منع الحديث العهد بالإسلام عن مخالطة الكفار ، وندب القوى إلى النظر فى الاختلافات يضاهى حث القوى على مخالطة الكفار ، ولهذا يمنع الجبان عن التهجم على صف الكفار ويندب الشجاع له . ومن الغفلة عن هذه الدقيقة ظن بعض الضعفاء أن الاقتداء بالأقوياء فيما ينقل عنهم من المساهلات جائز ، ولم يدر أن وظائف الأقوياء تخالف وظائف الضعفاء . وفى ذلك قال بعضهم : من رآنى فى البداية صار صديقاً ، ومن رآنى فى النهاية صار زنديقاً ، إذ النهاية ترد الأعمال إلى الباطن وتسكن الجوارح إلا عن رواتب الفرائض ، فيتراءى للناظرين أنها بطالة وكسل وإهمال ، وهيهات فذلك مرابطة القلب فى عين الشهود والحضور وملازمة الذكر الذى هو أفضل الأعمال على الدوام ، وتشبه الضعيف بالقوى فيما يرى من ظاهره أنه هفوة يضاهى اعتذار من يلقى نجاسة يسيرة فى كوز ماء ويتعلل بأن أضعاف هذه النجاسة قد يلقى فى البحر والبحر أعظم من الكوز فما جاز للبحر فهو للكوز أجوز . ولا يدرى المسكين أن البحر بقوته يحيل النجاسة ماء فتنقلب عين النجاسة باستيلائه إلى صفته ، والقليل من النجاسة يغلب على الكوز ويحيله إلى صفته ، ولمثل هذا جوز للنبى صلى الله عليه وسلم مالم يجوز لغيره حتى أبيح له تسع نسوة (١) إذ كان له من القوة مايتعدى منه صفة العدل إلى نسائه وإن كثرن ، وأما غيره فلا يقدر على بعض العدل بل يتعدى ما بينهن من الضرار إليه حتى ينجر إلى معصية الله تعالى فى طلبه رضاهن ، فما أفلح من قاس الملائكة بالحدادين .

الوظيفة الخامسة : أن لايدع طالب العلم فنا من العلوم المحمودة ولا نوعا من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته ، ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه وتطرف من البقية ، فإن العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض ، ويستفيد منه فى الحال الانفكاك عن عداوة ذلك العلم بسبب

---

(١) حديث «أبيح له صلى الله عليه وسلم تسعة نسوة» وهو معروف . وفى الصحيحين من حديث ابن عباس «كان عند النبى صلى الله عليه وسلم تسع ... الحديث» .

جهة ؛ فإن الناس أعداء ماجهلوا قال تعالى ﴿ وإذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ﴾ . قال الشاعر :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به الماء الزلالا

فالعلوم على درجاتها إما سالكة بالعبد إلى الله تعالى ، أو معينة على السلوك نوعا من الإعانة ، ولها منازل مرتبة فى القرب والبعد من المقصود ، والقوام بها حفظة كحفاظ الرباطات والثغور ، ولكل واحد رتبة وله بحسب درجته أجر فى الآخرة إذا قصد به وجه الله تعالى .

الوظيفة السادسة : أن لايخوض فى فن من فنون العلم دفعة بل يراعى الترتيب ويبتدئ بالأهم ، فإن العمر إذا كان لايتسع لجميع العلوم غالباً فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه ويكتفى منه بشمه ويصرف جمام قوته فى الميسور من علمه إلى استكمال العلم الذى هو أشرف العلوم وهو علم الآخرة أعنى قسمى المعاملة والمكاشفة ، فغاية المعاملة المكاشفة . وغاية المكاشفة معرفة الله تعالى ، ولست أعنى به الاعتقاد الذى يتلقفه العامى وراثة أو تلقفا ، ولا طريق تحرير الكلام والمجادلة فى تحصين الكلام عن مراوغات الخصوم كما هو غاية المتكلم ، بل ذلك نوع يقين هو ثمرة نور يقذفه الله تعالى فى قلب عبد طهر بالمجاهدة باطنه عن الخبائث حتى ينتهى إلى رتبة إيمان أبى بكر رضى الله عنه الذى لووزن بإيمان العالمين لرجح (١) كما شهد له به سيد البشر صلى الله عليه وسلم فما عندى أن مايعتقده العامى ويرتبه المتكلم الذى لا يزيد على العامى إلا فى صنعة الكلام ، ولأجله سميت صناعته كلاما ، وكان يعجز عنه عمر وعثمان وعلى وسائر الصحابة رضى الله عنهم ، حتى كان يفضلهم أبو بكر بالسر الذى وقر فى صدره ، والعجب ممن يسمع مثل هذه الأقوال من صاحب الشرع ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ثم يزدرى ما يسمعه على وفقه ويزعم أنه من ترهات الصوفية وأن ذلك غير معقول ؛ فينبغى أن تتئد فى هذا فعنده ضيعت رأس المال . فكن حريصاً على معرفة ذلك السر الخارج عن بضاعة الفقهاء والمتكلمين ولا يرشدك إليه إلا حرصك فى الطلب .

وعلى الجملة فأشرف العلوم وغايتها معرفة الله عز وجل وهو بحر لا يدرك منتهى غوره ، وأقصى درجات البشر فيه رتبة الأنبياء ثم الأولياء ثم الذين يلونهم ،وقد روى أنه رؤى صورة حكيمين من الحكماء المتقدمين فى مسجد وفى يد أحدهما رقعة فيها : إن أحسنت كل شيء فلا تظنن أنك أحسنت شيئاً حتى تعرف الله تعالى وتعلم أنه مسبب الأسباب وموجد الأشياء . وفى يد الآخر : كنت قبل أن أعرف الله تعالى أشرب وأظمأ ، حتى إذا عرفته رويت بلا شرب .

الوظيفة السابعة : أن لا يخوض فى فن حتى يستوفى الفن الذى قبله ؛ فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى بعض ، والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدريج ، قال الله تعالى ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ﴾ أى لايجاوزون فناً حتى يحكموه علماً وعملا ، ولكن قصده فى كل علم يتحراه الترقى إلى ماهو فوقه : فينبغى ألا يحكم على علم بالفساد لوقوع الخلف بين أصحابه فيه ، ولا بخطأ واحد أو آحاد فيه ، ولا بمخالفتهم موجب علمهم بالعمل ، فترى جماعة تركوا النظر فى العقليات والفقهيات ، متعللين فيها بأنها لو كان لها أصل لأدركه أربابها ، وقد مضى كشف هذه الشبه فى كتاب (معيار العلم) وترى طائفة يعتقدون بطلان الطب لخطأ شاهدوه من طبيب ، وطائفة اعتقدوا صحة النجوم لصواب اتفق لواحد ،وطائفة اعتقدوا بطلانه لخطأ اتفق لآخر . والكل خطأ ، بل

---

(١) حديث «لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان العالمين لرجح» أخرجه ابن عدى من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف ، ورواه البيهقى فى الشعب موقوفا على عمر بإسناد صحيح .

ينبغي أن يعرف الشيء فى نفسه ، فلا كل علم يستقل بالإحاطة به كل شخص ولذلك قال على رضى الله عنه : لا تعرف الحق بالرجال . اعرف الحق تعرف أهله .

الوظيفة الثامنة : أن يعرف السبب الذى به يدرك أشرف العلوم ، وأن ذلك يراد به شيئان ، أحدهما : شرف الثمرة والثانى : وثاقة الدليل وقوته ، وذلك كعلم الدين وعلم الطب فإن ثمرة أحدهما الحياة الأبدية وثمرة الآخر الحياة الفانية فيكون علم الدين أشرف . ومثل علم الحساب وعلم النجوم فإن علم الحساب أشرف لوثاقة أدلته وقوتها وإن نسب الحساب إلى الطب كان الطب أشرف باعتبار ثمرته والحساب أشرف باعتبار أدلته وملاحظة الثمرة أولى : ولذلك كان الطب أشرف وإن كان أكثره بالتخمين . وبهذا تبين أن أشرف العلوم العلم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم فإياك وأن ترغب إلا فيه وأن تحرص إلا عليه .

الوظيفة التاسعة : أن يكون قصد المتعلم فى الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة وفى المآل القرب من الله سبحانه والترقى إلى جوار الملأ الأعلى من الملائكة والمقربين ، ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء ومباهاة الأقران وإذا كان هذا مقصده طلب لا محالة الأقرب إلى مقصوده وهو علم الآخرة ، ومع هذا فلا ينبغى له أن ينظر بعين الحقارة إلى سائر العلوم أعنى علم الفتاوى وعلم النحو واللغة المتعلقين بالكتاب والسنة وغير ذلك مما أوردناه فى المقدمات والمتممات من ضروب العلوم التى هى فرض كفاية ، ولا تفهمن من غلونا فى الثناء على علم الآخرة تهجين هذه العلوم فالمتكفلون بالعلوم كالمتكفلين بالثغور والمرابطين بها والغزاة المجاهدين فى سبيل الله فمنهم المقاتل ومنهم الردء ومنهم الذى يسقيهم الماء ومنهم الذى يحفظ دوابهم ويتعهدهم ولا ينفك أحد منهم عن أجر إذا كان قصده إعلاء كلمة الله تعالى دون حيازة الغنائم فكذلك العلماء قال الله تعالى ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ وقال تعالى ﴿ هم درجات عند الله ﴾ والفضيلة نسبية . واستحقارنا للصيارفة عند قياسهم بالملوك لا يدل على حقارتهم إذا قيسوا بالكناسين فلا تظنن أن ما نزل عن الرتبة القصوى ساقط القدر بل الرتبة العليا للأنبياء ثم الأولياء ثم العلماء الراسخين فى العلم ثم للصالحين على تفاوت درجاتهم وبالجملة ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ ومن قصد الله تعالى بالعلم ـ أى علم ـ كان نفعه ورفعه لا محالة .

الوظيفة العاشرة : أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد كيما يؤثر الرفيع القريب على البعيد والمهم على غيره ـ ومعنى المهم ما يهمك ـ ولا يهمك إلا شأنك فى الدنيا والآخرة . وإذا لم يمكنك الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة كما نطق به القرآن وشهد له من نور البصائر ما يجرى مجرى العيان فالأهم ما يبقى أبد الآباد وعند ذلك تصير الدنيا منزلا والبدن مركبا والأعمال سعيا إلى المقصد ولا مقصد إلا لقاء الله تعالى ففيه النعيم كله وإن كان لا يعرف فى هذا العالم قدره إلا الأقلون .

والعلوم بالإضافة إلى سعادة لقاء الله سبحانه والنظر إلى وجهه الكريم ـ أعنى النظر الذى طلبه الأنبياء وفهموه دون ما يسبق إلى فهم العوام والمتكلمين ـ على ثلاث مراتب تفهمها بالموازنة بمثال وهو أن العبد الذى علق عتقه وتمكينه من الملك بالحج وقيل له إن حججت وأتممت وصلت إلى العتيق والملك جميعا وإن ابتدأت بطريق الحج والاستعداد له وعاقك فى الطريق مانع ضرورى فلك العتق والخلاص من شقاء الرق فقط دون سعادة الملك فله ثلاثة أصناف من الشغل :

الأول : تهيئة الأسباب بشراء الناقة وخرز الراوية وإعداد الزاد والراحلة .

والثانى : السلوك ومفارقة الوطن بالتوجه إلى الكعبة منزلا بعد منزل .

والثالث : الاشتغال بأعمال الحج ركنا بعد ركن ثم بعد الفراغ والنزوع عن هيئة الإحرام وطواف الوداع استحق التعرض للملك والسلطنة ، وله فى كل مقام منازل من أول إعداد الأسباب إلى آخره . ومن أول سلوك البوادى إلى آخره ،

ومن أول أركان الحج إلى آخره . وليس قرب من ابتدأ بأركان الحج من السعادة كقرب من هو بعد فى إعداد الزاد والراحلة ولا كقرب من ابتدأ بالسلوك بل هو أقرب منه .

فالعلوم أيضاً ثلاثة أقسام : قسم يجرى مجرى إعداد الزاد والراحلة وشراء الناقة وهو علم الطب والفقه وما يتعلق بمصالح البدن فى الدنيا . وقسم يجرى مجرى سلوك البوادى وقطع العقبات وهو تطهير الباطن عن كدورات الصفات وطلوع تلك العقبات الشامخة التى عجز عنها الأولون والآخرون إلا الموفقين فهذا سلوك الطريق وتحصيل علمه كتحصيل علم جهات الطريق ومنازله وكما لا يغنى علم المنازل وطرق البوادى دون سلوكها كذلك لا يغنى علم تهذيب الأخلاق دون مباشرة التهذيب ولكن المباشرة دون العلم غير ممكن . وقسم ثالث يجرى مجرى نفس الحج وأركانه وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وأفعاله وجميع ما ذكرناه فى تراجم علم المكاشفة وههنا نجاة وفوز بالسعادة والنجاة حاصلة لكل سالك للطريق إذا كان غرضه المقصد الحق وهو السلامة .

وأما الفوز بالسعادة فلا يناله إلا العارفون بالله تعالى وهم المقربون المنعمون فى جوار الله تعالى بالروح والريحان وجنة النعيم وأما الممنوعون دون ذروة الكمال فلهم النجاة والسلامة كما قال الله عز وجل ﴿ فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم ، وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين ﴾ وكل من لم يتوجه إلى المقصد ولم ينتهض له أو انتهض إلى جهته لا على قصد الامتثال والعبودية بل لغرض عاجل فهو من أصحاب الشمال ومن الضالين فله نزل من حميم وتصلية جحيم .

واعلم أن هذا هو حق اليقين عند العلماء الراسخين أعنى أنهم أدركوه بمشاهدة من الباطن هى أقوى وأجلى من مشاهدة الأبصار وترقوا فيه عن حد التقليد لمجرد السماع ، وحالهم حال من أخبر فصدق ثم شاهد فحقق وحال غيرهم حال من قبل بحسن التصديق والإيمان ولم يحظ بالمشاهدة والعيان . فالسعادة وراء علم المكاشفة وعلم المكاشفة وراء علم المعاملة التى هى سلوك طريق الآخرة وقطع عقبات الصفات . وسلوك طريق محو الصفات المذمومة وراء علم الصفات . وعلم طريق المعالجة وكيفية السلوك فى ذلك وراء علم سلامة البدن ومساعدة أسباب الصحة . وسلامة البدن بالاجتماع والتظاهر والتعاون الذى يتوصل به إلى الملبس والمطعم والمسكن وهو منوط بالسلطان وقانونه فى ضبط الناس على منهج العدل والسياسة فى ناصية الفقيه ، وأما أسباب الصحة ففى ناصية الطبيب ومن قال « العلم علمان : علم الأبدان وعلم الأديان » وأشار به إلى الفقه أراد به العلوم الظاهرة الشائعة لا العلوم العزيزة الباطنة .

فإن قلت : لم شبهت علم الطب والفقه بإعداد الزاد والراحلة ؟ فاعلم أن الساعى إلى الله تعالى لينال قربه هو القلب دون البدن ولست أعنى بالقلب اللحم المحسوس بل هو سر من أسرار الله عز وجل لا يدركه الحس ولطيفة من لطائفه تارة يعبر عنه بالروح وتارة بالنفس المطمئنة ، والشرع يعبر عنه بالقلب لأنه المطية الأولى لذلك السر وبواسطته صار جميع البدن مطية وآلة لتلك اللطيفة ، وكشف الغطاء عن ذلك السر من علم المكاشفة وهو مضنون به بل لا رخصة فى ذكره ، وغاية المأذون فيه أن يقال هو جوهر نفيس ودر عزيز أشرف من هذه الأجرام المرئية وإنما هو أمر إلهى كما قال تعالى ﴿ ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ﴾ وكل المخلوقات منسوبة إلى الله تعالى ولكن نسبته أشرف من نسبة سائر أعضاء البدن فلله الخلق والأمر جميعا ، والأمر أعلى من الخلق . وهذه الجوهرة النفيسة الحاملة لأمانة الله تعالى المتقدمة بهذه الرتبة على السموات والأرضين والجبال إذ أبين أن يحملنها وأشفقن منها من عالم الأمر ، ولا يفهم من هذا أنه تعريض بقدمها فإن القائل بقدم الأرواح مغرور جاهل لا يدرى ما يقول فلنقبض عنان البيان عن هذا الفن فهو وراء ما نحن بصدده . والمقصود أن هذه اللطيفة هى الساعية إلى قرب الرب لأنها من أمر الرب فمنه مصدرها وإليه

مرجعها ، وأما البدن فمطيتها التى تركبها وتسعى بواسطتها ، فالبدن لها فى طريق الله تعالى كالناقة للبدن فى طريق الحج وكالراوية الخازنة للماء الذى يفتقر إليه البدن فكل علم مقصده مصلحة البدن فهو من جملة مصالح المطية . ولايخفى أن الطب كذلك فإنه قد يحتاج إليه فى حفظ الصحة على البدن ولو كان الإنسان وحده لاحتاج إليه ، والفقه يفارقه فى أنه لو كان الإنسان وحده ربما كان يستغنى عنه ولكنه خلق على وجه لايمكنه أن يعيش وحده إذ لايستقل بالسعى وحده فى تحصيل طعامه بالحراثة والزرع والخبز والطبخ وفى تحصيل الملبس والمسكن وفى إعداد آلات ذلك كله فاضطر إلى المخالطة والاستعانة . ومهما اختلط الناس وثارت شهواتهم تجاذبوا أسباب الشهوات وتنازعوا وتقاتلوا وحصل من قتالهم هلاكهم بسبب التنافس من خارج كما يحصل هلاكهم بسبب تضاد الأخلاط من داخل ، وبالطب يحفظ الاعتدال فى الأخلاط المتنازعة من داخل ، وبالسياسة والعدل يحفظ الاعتدال فى التنافس من خارج وعلم طريق اعتدال الأخلاط طب ، وعلم طريق اعتدال أحوال الناس فى المعاملات والأفعال فقه . وكل ذلك لحفظ البدن الذى هو مطية فالمتجرد لعلم الفقه أو الطب إذا لم يجاهد نفسه ولا يصلح قلبه كالمتجرد لشراء الناقة وعلفها وشراء الراوية وخرزها إذا لم يسلك بادية الحج . والمستغرق عمره فى دقائق الكلمات التى تجرى فى مجادلات الفقه كالمستغرق عمره فى دقائق الأسباب التى بها تستحكم الخيوط التى تخرز بها الراوية للحج . ونسبة هؤلاء من السالكين لطريق إصلاح القلب الموصل إلى علم المكاشفة كنسبة أولئك إلى السالكى طريق الحج أو ملابسى أركانه ؛ فتأمل هذا أولا واقبل النصيحة مجانا ممن قام عليه ذلك غاليا ولم يصل إلا بعد جهد جهيد وجراءة تامة على مباينة الخلق العامة والخاصة فى النزوع من تقليدهم بمجرد الشهوة ، فهذا القدر كاف فى وظائف المتعلم .

بيان وظائف المرشد المعلم

اعلم أن للإنسان فى علمه أربعة أحوال كحاله فى اقتناء الأموال ، إذ لصاحب المال حال استفادة فيكون مكتسبا ، وحال ادخار لما اكتسبه فيكون به غنيا عن السؤال ، وحال إنفاق على نفسه فيكون منتفعا ، وحال بذل لغيره فيكون به سخيا متفضلا وهو أشرف أحواله . فكذلك يقتنى كما يقتنى المال فله حال طلب واكتساب وحال تحصيل يغنى عن السؤال وحال استبصار وهو التفكر فى المحصل والتمتع به وحال تبصير وهو أشرف الأحوال . فمن علم وعمل وعلم فهو الذى يدعى عظيما فى ملكوت السموات فإنه كالشمس تضىء لغيرها وهى مضيئة فى نفسها وكالمسك الذى يطيب غيره وهو طيب . والذى يعلم ولا يعمل به كالدفتر الذى يفيد غيره وهو خال عن العلم وكالمسن الذى يشحذ غيره ولايقطع والإبرة التى تكسو غيرها وهى عارية وذبالة المصباح تضىء لغيرها وهى تحترق كما قيل :

ما هو إلا ذبالة وقدت   تضىء للناس وهى تحترق

ومهما اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمرا عظيما وخطرا جسيما فليحفظ آدابه ووظائفه :

(الوظيفة الأولى) الشفقة على المتعلمين وأن يجريهم مجرى بنيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده (١) » بأن يقصد إنقاذهم من نار الآخرة وهو أهم من إنقاذ الوالدين ولدهما من نار الدنيا ، ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية والمعلم سبب الحياة الباقية . ولولا المعلم لانساق ما حصل من جهة الأب إلى الهلاك الدائم وإنما المعلم هو المفيد للحياة الأخروية الدائمة أعنى معلم

---

(١) حديث « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده » أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان من حديث أبى هريرة

الدنيا على قصد الآخرة لا على قصد الدنيا . فأما التعليم على قصد الدنيا فهوهلاك وإهلاك نعوذ بالله منه . وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحاب والتوادد ولا يكون إلا كذلك إن كان مقصدهم الآخرة ولا يكون إلا التحاسد والتباغض إن كان مقصدهم الدنيا . فإن العلماء وأبناء الآخرة مسافرون إلى الله تعالى وسالكون إليه الطريق من الدنيا ، وسنوها وشهورها منازل الطريق . والترافق فى الطريق بين المسافرين إلى الأمصار سبب التواد والتحاب فكيف السفر إلى الفردوس الأعلى والترافق فى طريقه ؟ ولا ضيق فى سعادة الآخرة فلذلك لا يكون بين أبناء الآخرة تنازع ولا سعة فى سعادات الدنيا فلذلك لا ينفك عن ضيق التزاحم . والعادلون إلى طلب الرياسة بالعلوم خارجون عن موجب قوله تعالى ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ وداخلون فى مقتضى قوله تعالى ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ .

(الوظيفة الثانية) أن يقتدى بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فلا يطلب على إفادة العلم أجرا ولا يقصد به جزاء ولا شكوراً بل يعلم لوجه الله تعالى وطلبا للتقرب إليه ولا يرى لنفسه منة عليهم وإن كانت المنة لازمة عليهم بل يرى الفضل لهم إذ هذبوا قلوبهم لأن تتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها ؛ كالذى يعيرك الأرض لتزرع فيها لنفسك زراعة فمنفعتك بها تزيد على منفعة صاحب الأرض فكيف تقلده منة وثوابك فى التعليم أكثر من ثواب المتعلم عند الله تعالى ؟ ولولا المتعلم ما نلت هذا الثواب فلا تطلب الأجر إلا من الله تعالى كما قال عز وجل ﴿ وياقوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله ﴾ فإن المال وما فى الدنيا خادم البدن والبدن مركب النفس ومطيتها والمخدوم هو العلم إذ به شرف النفس . فمن طلب بالعلم المال كان كمن مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفه فجعل المخدوم خادم والخادم مخدوما وذلك هو الانتكاس على أم الرأس ، ومثله هو الذى يقوم فى العرض الأكبر مع المجرمين ناكسى رءوسهم عند ربهم .

وعلى الجملة فالفضل والمنة للمعلم فانظر كيف انتهى أمر الدين إلى قوم يزعمون التقرب إلى الله تعالى بما هم فيه من علم الفقه والكلام والتدريس فيها وفى غيرهما . فإنهم يبذلون المال والجاه ويتحملون أصناف الذل فى خدمة السلاطين لاستطلاق الجرايات ولو تركوا ذلك لتركوا ولم يختلف إليهم ثم يتوقع المعلم من المتعلم أن يقوم له فى كل نائبة وينصر وليه ويعادى عدوه وينتهض جهاراً له فى حاجاته ومسخرا بين يديه فى أوطاره . فإن قصر فى حقه ثار عليه وصار من أعدى أعدائه . فأخسس بعالم يرضى لنفسه بهذه المنزلة ثم يفرح بها ثم لا يستحى من أن يقول غرضى من التدريس نشر العلم تقربا إلى الله تعالى ونصرة لدينه ! فانظر إلى الأمارات حتى ترى ضروب الاغترارات .

(الوظيفة الثالثة) أن لا يدع من نصح المتعلم شيئا وذلك بأن يمنعه من التصدى لرتبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خفى قبل الفراغ من الجلى ثم ينبهه على أن الغرض بطلب العلوم القرب إلى الله تعالى دون الرياسة والمباهاة والمنافسة ، ويقدم تقبيح ذلك فى نفسه بأقصى ما يمكن فليس ما يصلحه العالم الفاجر بأكثر مما يفسده . فإن علم من باطنه أنه لا يطلب العلم إلا الدنيا نظر إلى العلم الذى يطلبه فإن كان هو علم الخلاف فى الفقه والجدل فى الكلام والفتاوى فى الخصومات والأحكام فيمنعه من ذلك فإن هذه العلوم ليست من علوم الآخرة ولا من العلوم التى قيل فيها « تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله » وإنما ذلك علم التفسير وعلم الحديث وما كان الأولون يشتغلون به من علم الآخرة ومعرفة أخلاق النفس وكيفية تهذيبها . فإذا تعلمه الطالب وقصد به الدنيا فلا بأس أن يتركه فإنه يثمر له طمعا فى الوعظ والاستتباع ولكن قد يتنبه فى أثناء الأمر أو آخره إذ فيه العلوم المخوفة من الله تعالى المحقرة للدنيا المعظمة للآخرة ، وذلك

يوشك أن يؤدى إلى الصواب فى الآخرة حتى يتعظ بما يعظ به غيره .

ويجرى حب القبول والجاه مجرى الحب الذى ينثر حوالى الفخ ليقتنص به الطير وقدفعل الله ذلك بعباده إذ جعل الشهوة ليصل الخلق بها إلى بقاء النسل . وخلق أيضا حب الجاه ليكون سببا لإحياء العلوم وهذا متوقع فى هذه العلوم فأما الخلافيات المحضة ومجادلات الكلام ومعرفة التفاريع الغريبة فلا يزيد التجرد لها مع الإعراض عن غيرها إلا قسوة فى القلب وغفلة عن الله تعالى وتماديا فى الضلال وطلبا للجاه إلا من تداركه الله تعالى برحمته أو مزج به غيره من العلوم الدينية .

ولا برهان على هذا كالتجربة والمشاهدة فانظر واعتبر واستبصر لتشاهد تحقيق ذلك فى العباد والبلاد والله المستعان. وقد روى سفيان الثورى رحمه الله حزينا فقيل له : مالك ؟ فقال : صرنا متجراً لأبناء الدنيا يلزمنا أحدهم حتى إذا تعلم جعل قاضيا أو عاملا أو قهرمانا .

(الوظيفة الرابعة) وهى من دقائق صناعة التعليم أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح ، وبطريق الرحمة لا بطرق التوبيخ فإن التصريح يهتك حجاب الهيئة ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ويهيج الحرص على الإصرار إذ قال صلى الله عليه وسلم وهو مرشد كل معلم « لو منع الناس عن فت البعر لفتوه وقالوا ما نهينا عنه إلا وفيه شىء [1] » وينبهك على هذا قصة آدم وحواء عليهما السلام وما نهيا عنه ؛ فما ذكرت القصة معك لتكون سمراً بل لتتنبه بها على سبيل العبرة ولأن التعريض أيضاً يميل النفوس الفاضلة والأذهان الذكية إلى استنباط معانيه فيفيد فرح التفطن لمعناه رغبة فى العلم به أن ذلك مما لا يعزب عن فطنته .

(الوظيفة الخامسة) أن المتكفل ببعض العلوم ينبغى أن لا يقبح فى نفس المتعلم العلوم التى وراءه ،كمعلم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه، ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير وأن ذلك نقل محض وسماع وهو شأن العجائز ولا نظر للعقل فيه، ومعلم الكلام ينفر عن الفقه ويقول : ذلك فروع وهو كلام فى حيض النسوان فأين ذلك من الكلام فى صفة الرحمن ؟ فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ينبغى أن تجتنب بل المتكفل بعلم واحد ينبغى أن يوسع على المتعلم طريق التعلم فى غيره وإن كان متكفلا بعلوم فينبغى أن يراعى التدريج فى ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة .

(الوظيفة السادسة) أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله فينفره أو يخبط عليه عقله اقتداء فى ذلك بسيد البشر صلى الله عليه وسلم حيث قال « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم [2] » فليبث إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها وقال صلى الله عليه وسلم « ما أحد يحدث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم » وقال على رضى الله عنه — وأشار إلى صدره — «إن ههنا لعلوما جمة لو وجدت لها حملة » وصدق رضى الله عنه فقلوب الأبرار قبور الأسرار . فلا ينبغى أن يفشى العالم كل ما يعلم إلى كل أحد ؛ هذا إذا كان يفهمه المتعلم ولم يكن أهلا للانتفاع به فكيف فيما لا يفهمه ؟ وقال عيسى عليه السلام : لا تعلقوا الجواهر فى أعناق الخنازير فإن الحكمة خير من الجواهر ومن كرهها فهو شر من الخنازير ، ولذلك قيل : كل لكل عبد بمعيار عقله وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه وينتفع بك وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار . وسئل بعض العلماء عن شىء فلم يجب فقال السائل : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من كتم علما نافعا جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار [3] » ؟ فقال : اترك اللجام واذهب فإن جاء من يفقه وكتمته فليلجمنى فقد قال الله

---

(١) حديث « لو منع الناس عن فت البعر لفتوه ... الحديث » لم أجده (٢) حديث « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ... الحديث » رويناه فى جزء من حديث أبى بكر بن الشخير من حديث عمر أخصر منه . وعند أبى داود من حديث عائشة « أنزلوا الناس منازلهم » (٣) حديث « من كتم علماً نافعاً جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار » أخرجه ابن ماجه من حديث أبى سعيد بإسناد ضعيف ، وتقدم حديث أبى هريرة بنحوه .

تعالى ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم﴾ تنبيها على أن حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى ، وليس الظلم فى إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم فى منع المستحق :

أأنثر درا بين سارحة النعم فأصبح مخزونا براعية الغنم
لأنهم أمسوا بجهل لقدره فلا أنا أضحى أن أطوقه البهم
فإن لطف الله اللطيف بلطفه وصادفت أهلا للعلوم وللحكم
نشرت مفيداً واستفدت مودة وإلا فمخزون لدى ومكتتم
فمن منح الجهال علما أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

(الوظيفة السابعة) إن المتعلم القاصر ينبغى أن يلقى إليه الجلى اللائق به ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقا وهو يدخره عنه فإن ذلك يفتر رغبته فى الجلى ويشوش عليه قلبه ويوهم إليه البخل به عنه إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق . فما من أحد إلا وهو راض عن الله سبحانه فى كمال عقله وأشدهم حماقة وأضعفهم عقلا هو أفرحهم بكمال عقله . وبهذا يعلم أن من تقيد من العوام بقيد الشرع ورسخ فى نفسه العقائد المأثورة عن السلف من غير تشبيه ومن غير تأويل وحسن مع ذلك سريرته ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك فلا ينبغى أن يشوش عليه اعتقاده بل ينبغى أن يخلى وحرفته ، فإنه لو ذكر له تأويلات الظاهر انحل عنه قيد العوام ولم يتيسر قيده بقيد الخواص فيرتفع عنه السد الذى بينه وبين المعاصى وينقلب شيطانا مريداً يهلك نفسه وغيره ؛ بل لا ينبغى أن يخاض مع العوام فى حقائق العلوم الدقيقة بل يقتصر معهم على تعليم العبادات وتعليم الأمانة فى الصناعات التى هم بصددها ويملأ قلوبهم من الرغبة والرهبة فى الجنة والنار كما نطق به القرآن ولا يحرك عليهم شبها فإنه ربما تعلقت الشبهة بقلبه ويعسر عليه حلها فيشقى ويهلك .

وبالجملة لا ينبغى أن يفتح للعوام باب البحث فإنه يعطل عليهم صناعاتهم التى بها قوام الخلق ودوام عيش الخواص .

(الوظيفة الثامنة) أن يكون المعلم عاملا بعلمه فلا يكذب قوله فعله لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار أكثر . فإذا خالف العمل العلم منع الرشد وكل من تناول شيئا وقال للناس لا تتناولوه فإنه سم مهلك سخر الناس به واتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه فيقولون لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به .

ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين والظل من العود فكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه ومتى استوى الظل والعود أعوج ؟ ولذلك قيل فى المعنى :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال الله تعالى ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾ ولذلك كان وزر العالم فى معاصيه أكثر من وزر الجاهل إذ يزل بزلته عالم كثير ويقتدون به . ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها . ولذلك قال على رضى الله قصم ظهرى رجلان ، عالم متهتك وجاهل متنسك ، فالجاهل يغر الناس بتنسكه ، والعالم يغرهم بتهتكه . والله أعلم .

الباب السادس

فى آفات العلم وبيان علامات علماء الآخرة والعلماء السوء

قد ذكرنا ماورد من فضائل العلم والعلماء وقد ورد فى العلماء السوء تشديدات عظيمة دلت على أنهم أشد الخلق عذابا يوم القيامة . فمن المهمات العظيمة معرفة العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة ونعنى بعلماء الدنيا

علماء السوء الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها قال صلى الله عليه وسلم « إن أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « لايكون المرء عالما حتى يكون بعلمه عاملا(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « العلم علمان : علم على اللسان فذلك حجة الله تعالى على خلقه وعلم فى القلب فذلك العلم النافع(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « يكون فى آخر الزمان عباد جهال وعلماء فساق(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « لاتتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولتماروا به السفهاء وليصرفوا به وجوه الناس إليكم فمن فعل ذلك فهو فى النار(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « من كتم علما عنده ألجمه الله بلجام من نار » وقال صلى الله عليه وسلم « لأنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال . فقيل : وما ذاك ؟ فقال : من الأئمة المضلين(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « من ازداد علما ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعدا(٦) » وقال عيسى عليه السلام : إلى متى تصفون الطريق للمدلجين وأنتم مقيمون مع المتحيرين ! فهذا وغيره من الأخبار يدل على عظيم خطر العلم فإن العالم إما متعرض لهلاك الأبد أو لسعادة الأبد وإنه بالخوض فى العلم قد حرم السلامة إن لم يدرك السعادة .

وأما الآثار فقد قال عمر رضى الله عنه : إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة المنافق العليم . قالوا : وكيف يكون منافقا عليما ؟ قال : عليم اللسان جاهل القلب والعمل . وقال الحسن رحمه الله : لاتكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء ويجرى فى العمل مجرى السفهاء . وقال رجل لأبى هريرة رضى الله عنه : أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه فقال : كفى بترك العلم إضاعة له . وقيل لإبراهيم بن عيينة : أى الناس أطول ندما ؟ قال : أما فى عاجل الدنيا فصانع المعروف إلى من لا يشكره وأما عند الموت فعالم مفرط . وقال الخليل بن أحمد : الرجال أربعة ، رجل يدرى ويدرى أنه يدرى فذلك عالم فاتبعوه ، ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى فذلك نائم فأيقظوه ، ورجل لايدرى ويدرى أنه لايدرى فذلك مسترشد فأرشدوه ، ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى فذلك جاهل فارفضوه . وقال سفيان الثورى رحمه الله : يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل . وقال ابن المبارك : لايزال المرء عالما ما طلب العلم فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل . وقال الفضيل ابن عياض رحمه الله : إنى لأرحم ثلاثة ، عزيز قوم ذل وغنى قوم افتقر وعالما تلعب به الدنيا . وقال الحسن : عقوبة العلماء موت القلب ، وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة وأنشدوا :

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى ... ومن يشترى دنياه بالدين أعجب
وأعجب من هذين من باع دينه ... بدنيا سواه فهو من ذين أعجب

الباب السادس

(١) حديث « لا يكون المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملا » أخرجه ابن حبان فى كتاب روضة العقلاء ، والبيهقى فى المدخل موقوفاً على أبى الدرداء ولم أجده مرفوعاً (٢) حديث « العلم علمان علم على اللسان ... الحديث » أخرجه الترمذى الحكيم فى النوادر وابن عبد البر من حديث الحسن مرسلا بإسناد صحيح ، وأسنده الخطيب فى التاريخ من رواية الحسن عن جابر بإسناد جيد وأعله ابن الجوزى (٣) حديث « يكون فى آخر الزمان عباد جهال وعلماء فسقه » أخرجه الحاكم من حديث أنس وهو ضعيف (٤) حديث « لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء » أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد صحيح (٥) حديث « غير الدجال أخوف عليكم من الدجال ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث أبى ذر بإسناد جيد (٦) حديث « من ازداد علما ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعداً » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس وحديث على بإسناد ضعيف إلا أنه قال « زهداً » وروى ابن حبان فى روضة العقلاء موقوفا على الحسن « من ازداد علماً ثم ازداد على الدنيا حرصاً لم يزدد من الله إلا بعداً » وروى أبو الفتح الأزدى فى الضعفاء من حديث على « من ازداد بالله علما ثم ازداد للدنيا حباً ازداد الله عليه غضباً » .

وقال صلى الله عليه وسلم « إن العالم ليعذب عذابا يطيف به أهل النار استعظاما لشدة عذابه(١) » أراد به العالم الفاجر . وقال أسامة بن زيد : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيطيف به أهل النار فيقولون مالك فيقول كنت آمر بالخير ولا آتيه وأنهى عن الشر وآتيه(٢) » وإنما يضاعف عذاب العالم فى معصيته لأنه عصى عن علم ولذلك قال الله عز وجل ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ﴾ لأنهم جحدوا بعد العلم ، وجعل اليهود شرا من النصارى مع أنهم ماجعلوا لله سبحانه ولدا ولا قالوا : إنه ثالث ثلاثة ، إلا أنهم أنكروا بعد المعرفة إذ قال الله ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ وقال تعالى ﴿ فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ وقال تعالى — فى قصة بلعام بن باعوراء ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴾ حتى قال ﴿ فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ﴾ فكذلك العالم الفاجر فإن بلعام أوتى كتاب الله تعالى فأخلد إلى الشهوات فشبه بالكلب أى سواء أوتى الحكمة أو لم يؤت فهو يلهث إلى الشهوات . وقال عيسى عليه السلام : مثل علماء السوء كمثل صخرة وقعت على فم النهر لا هى تشرب الماء ولا هى تترك الماء يخلص إلى الزرع ، ومثل علماء السوء مثل قناة الحش ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى .

فهذه الأخبار والآثار تبين أن العالم الذى هو من أبناء الدنيا أخس حالا وأشد عذابا من الجاهل : وأن الفائزين المقربين هم علماء الآخرة ولهم علامات . فمنها أن لا يطلب الدنيا بعلمه فإن أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها وعظم الآخرة ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها ويعلم أنهما متضادتان وأنهما كالضرتين مهما أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى وأنهما ككفتى الميزان مهما رجحت إحداهما خفت الأخرى وأنهما كالمشرق والمغرب مهما قربت من أحدهما بعدت عن الآخر وأنهما كقدحين أحدهما مملوء والآخر فارغ فبقدر ماتصب منه فى الآخر حتى يمتلىء يفرغ الآخر . فإن من لا يعرف حقارة الدنيا وكدورتها وامتزاج لذاتها بألمها ثم انصرام مايصفو منها فهو فاسد العقل . فإن المشاهدة والتجربة ترشد إلى ذلك فكيف يكون من العلماء من لاعقل له ؟ ومن لا يعلم عظم أمر الآخرة ودوامها فهو كافر مسلوب الإيمان فكيف يكون من العلماء من لا إيمان له ومن لا يعلم مضادة الدنيا للآخرة وأن الجمع بينهما طمع فى غير مطمع ؟ فهو جاهل بشرائع الأنبياء كلهم بل هو كافر بالقرآن كله من أوله إلى آخره فكيف يعد من زمرة العلماء ؟ ومن علم هذا كله ثم لم يؤثر الآخرة على الدنيا فهو أسير الشيطان قد أهلكته شهوته وغلبت عليه شقوته فكيف يعد من حزب العلماء من هذه درجته ؟ وفى أخبار داود عليه السلام حكاية عن الله تعالى « إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوته على محبتى أن أحرمه لذيذ مناجاتى . ياداود لاتسأل عنى عالما قد أسكرته الدنيا فيصدك عن طريق محبتى أولئك قطاع الطريق على عبادى ، ياداود إذا رأيت لى طالبا فكن له خادما ، ياداود من رد إلى هاربا كتبته جهبذا ومن كتبته جهبذا لم أعذبه أبدا » ولذلك قال الحسن رحمه الله : عقوبة العلماء موت القلب وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة . ولذلك قال يحيى بن معاذ إنما يذهب بهاء العلم والحكمة إذا طلب بهما الدنيا . وقال سعيد بن المسيب رحمه الله : إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء

---

(١) حديث « إن العالم يعذب عذاباً يطيف به أهل النار ... الحديث » لم أجده بهذا اللفظ وهو معنى حديث أسامة المذكور بعده .

(٢) حديث أسامة بن زيد « يؤتى بالعالم يوم القيامة ويلقى فى النار فتندلق أقتابه ... الحديث » متفق عليه بلفظ « الرجل » بدل « العالم » .

فهو لص . وقال عمر رضى الله عنه : إذا رأيتم العالم محبا للدنيا فاتهموه على دينكم فإن كل محب يخوض فيما أحب وقال مالك بن دينار رحمه الله : قرأت فى بعض الكتب السالفة إن الله تعالى يقول إن أهون ما أصنع بالعالم إذا أحب الدنيا أن أخرج حلاوة مناجاتى من قلبه . وكتب رجل إلى أخ له : إنك قد أوتيت علما فلا تطفئن نور علمك بظلمة الذنوب فتبقى فى الظلمة يوم يسعى أهل العلم فى نور علمهم ، وكان يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله يقول لعلماء الدنيا : يا أصحاب العلم قصوركم قيصرية وبيوتكم كسروية وأثوابكم ظاهرية وأخفافكم جالوتية ومراكبكم قارونية وأوانيكم فرعونية ومآثمكم جاهلية ومذاهبكم شيطانية فأين الشريعة المحمدية ؟ قال الشاعر :

وراعى الشاة يحمى الذئب عنها ... فكيف إذا الرعاة لها ذئاب ؟

وقال الآخر :

يا معشر القراء يا ملح البلد ... ما يصلح الملح إذا الملح فسد ؟

وقيل لبعض العارفين : أترى أن من تكون المعاصى قرة عينه لا يعرف الله ؟ فقال : لا أشك أن من تكون الدنيا عنده آثر من الآخرة أنه لا يعرف الله تعالى ، وهذا دون ذلك بكثير ، ولا تظنن أن ترك المال يكفى فى اللحوق بعلماء الآخرة فإن الجاه أضر من المال . ولذلك قال بشر « حدثنا » باب من أبواب الدنيا فإذا سمعت الرجل يقول « حدثنا » فإنما يقول : أوسعوا لى . ودفن بشر بن الحرث بضعة عشر ما بين قمطرة وقوصرة من الكتب وكان يقول : أنا أشتهى أن أحدث ، ولو ذهبت عنى شهوة الحديث لحدثت . وقال هو وغيره : إذا اشتهيت أن تحدث فاسكت فإذا لم تشته فحدث . وهذا لأن التلذذ بجاه الإفادة ومنصب الإرشاد أعظم لذة من كل تنعم فى الدنيا فمن أجاب شهوته فيه فهو من أبناء الدنيا . ولذلك قال الثورى : فتنة الحديث أشد من فتنة الأهل والمال والولد وكيف لا تخاف فتنته وقد قيل لسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا ﴾ وقال سهل رحمه الله : العلم كله دنيا والآخرة منه العمل به والعمل كله هباء إلا الإخلاص . وقال : الناس كلهم موتى إلا العلماء والعلماء سكارى إلا العاملين والعاملون كلهم مغرورون إلا المخلصين والمخلص على وجل حتى يدرى ماذا يختم له به . وقال أبو سليمان الدرانى رحمه الله : إذا طلب الرجل الحديث أو تزوج أو سافر فى طلب المعاش فقد ركن إلى الدنيا ، وإنما أراد به طلب الأسانيد العالية أو طلب الحديث الذى لا يحتاج إليه فى طلب الآخرة . وقال عيسى عليه السلام : كيف يكون من أهل العلم من مسيره إلى آخرته وهو مقبل على طريق دنياه وكيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليخبر به لا ليعمل به ؟ وقال صالح بن كيسان البصرى : أدركت الشيوخ وهم يتعوذون بالله من الفاجر العالم بالسنة . وروى أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من طلب علماً مما يبتغى به وجه الله تعالى ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة(١) » وقد وصف الله علماء السوء بأكل الدنيا بالعلم ووصف علماء الآخرة بالخشوع والزهد . فقال عز وجل فى علماء الدنيا ﴿ وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا ﴾ وقال تعالى فى علماء الآخرة ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم ﴾ وقال بعض السلف : العلماء يحشرون فى زمرة الأنبياء والقضاة يحشرون فى زمرة السلاطين . وفى معنى القضاة كل فقيه قصده طلب الدنيا بعلمه . وروى

---

(١) حديث أبى هريرة « من طلب علماً مما يبتغى به وجه الله ليصيب به عرضا ... الحديث » أخرجه أبو داود وابن ماجة بإسناد جيد.

أبو الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أوحى الله عز وجل إلى بعض الأنبياء : قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة يلبسون للناس مسوح الكباش وقلوبهم كقلوب الذئاب ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر إياى يخادعون وبى يستهزئون لأفتحن لهم فتنة تذر الحليم حيران(١) » وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « علماء هذه الأمة رجلان : رجل آتاه الله علما فبذله للناس ولم يأخذ عليه طمعا ولم يشتر به ثمنا فذلك يصلى عليه طير السماء وحيتان الماء ودواب الأرض والكرام الكاتبون يقدم على الله عز وجل يوم القيامة سيدا شريفاً حتى يرافق المرسلين ، ورجل آتاه الله علما فى الدنيا فضن به على عباد الله وأخذ عليه طمعا واشترى به ثمنا فذلك يأتى يوم القيامة ملجما بلجام من نار ينادى مناد على رؤوس الخلائق هذا فلان بن فلان آتاه الله علما فى الدنيا فضن به على عباده وأخذ به طمعاً واشترى به ثمناً فيعذب حتى يفرغ من حساب الناس(٢) » وأشد من هذا ما روى « أن رجلا كان يخدم موسى عليه السلام فجعل يقول حدثنى موسى صفى الله حدثنى موسى نجى الله حدثنى موسى كليم الله حتى أثرى وكثر ماله ففقده موسى عليه السلام فجعل يسأل عنه ولا يحس له خبراً حتى جاءه رجل ذات يوم وفى يده خنزير وفى عنقه حبل أسود فقال له موسى عليه السلام : أتعرف فلانا ؟ قال : نعم هو هذا الخنزير ، فقال موسى : يا رب أسألك أن ترده إلى حاله حتى أسأله بم أصابه هذا ؟ فأوحى الله عز وجل إليه : لو دعوتنى بالذى دعانى به آدم فمن دونه ما أجبتك فيه ولكن أخبرك لم صنعت هذا به ؟ لأنه كان يطلب الدنيا بالدين » وأغلظ من هذا ما روى معاذ بن جبل رضى الله عنه موقوفا ومرفوعا فى رواية عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع (٣) » . وفى الكلام تنميق وزيادة ولا يؤمن على صاحبه الخطأ وفى الصمت سلامة وعلم .

ومن العلماء من يخزن علمه فلا يحب أن يوجد عند غيره ، فذلك فى الدرك الأول من النار . ومن العلماء من يكون فى علمه بمنزلة السلطان إن رد عليه شىء من علمه أو تهوون بشىء من حقه غضب فذلك فى الدرك الأول من النار . ومن العلماء من يجعل علمه وغرائب حديثه لأهل الشرف واليسار ولا يرى أهل الحاجة له أهلا ، فذلك فى الدرك الثالث من النار . ومن العلماء من ينصب نفسه للفتيا فيفتى بالخطأ والله تعالى يبغض المتكلفين فذلك فى الدرك الرابع من النار . ومن العلماء من يتكلم بكلام اليهود والنصارى ليغزر به علمه فذلك فى الدرك الخامس من النار . ومن العلماء من يتخذ علمه مروءة ونبلا وذكرا فى الناس فذلك فى الدرك السادس من النار . ومن العلماء من يستفزه الزهو والعجب فإن وعظ عنف وإن وعظ أنف فذلك فى الدرك السابع من النار .

فعليك ياأخى بالصمت فيه تغلب الشيطان . وإياك أن تضحك من غير عجب أو تمشى فى غير أرب . وفى خبر آخر « إن العبد لينشر له من الثناء ما يملأ ما بين المشرق والمغرب وما يزن عند الله جناح بعوضة (٤) » وروى أن الحسن حمل إليه رجل من خراسان كيسا بعد انصرافه من مجلسه فيه خمسة آلاف درهم وعشرة أثواب من رقيق البز وقال : يا أبا سعيد هذه نفقة وهذه كسوة ، فقال الحسن : عافاك الله تعالى ، ضم إليك نفقتك وكسوتك فلا حاجة لنا بذلك إنه من

---

(١) حديث أبى الدرداء « أوحى الله إلى بعض الأنبياء : قل للذين يتفقهون لغير الدين . . . الحديث » أخرجه ابن عبد البر بإسناد ضعيف (٢) حديث ابن عباس « علماء هذه الأمة رجلان ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط بإسناد ضعيف . (٣) حديث معاذ « من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع . . . الحديث » أخرجه ابن نعيم وابن الجوزى فى الموضوعات (٤) حديث « إن العبد لينشر له من الثناء ما بين المشرق والمغرب وما يزن عند الله جناح بعوضه » لم أجده هكذا وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة « إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة » .

جلس مثل مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لقي الله تعالى يوم القيامة ولا خلاق له . وعن جابر رضي الله عنه موقوفا ومرفوعا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتجلسوا عند كل عالم إلا إلى عالم يدعوكم من خمس إلى خمس : من الشك إلى اليقين ، ومن الرياء إلى الإخلاص ، ومن الرغبة إلى الزهد ، ومن الكبر إلى التواضع ، ومن العداوة إلى النصيحة (١) » قال تعالى ﴿ فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن ﴾ الآية ، فعرف أهل العلم بإيثار الآخرة على الدنيا .

ومنها أن لا يخالف فعله قوله بل لا يأمر بالشيء ما لم يكن هو أول عامل به . قال الله تعالى ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾ وقال تعالى ﴿ كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ﴾ وقال تعالى في قصة شعيب ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ وقال تعالى ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ وقال تعالى ﴿ واتقوا الله واعلموا ـ واتقوا الله واسمعوا ﴾ وقال تعالى لعيسى عليه السلام « يا ابن مريم عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مررت ليلة أسري بي بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت : من أنتم ؟ فقالوا : كنا نأمر بالخير ولا نأتيه وننهى عن الشر ونأتيه (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « هلاك أمتي عالم فاجر وعابد جاهل ، وشر الشرار شرار العلماء ، وخير الخيار خيار العلماء (٣) » وقال الأوزاعي رحمه الله : شكت النواويس ما تجد من نتن جيف الكفار فأوحى الله إليها : بطون علماء السوء أنتن مما أنتم فيه . وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : بلغني أن الفسقة من العلماء يبدأ بهم يوم القيامة قبل عبدة الأوثان . وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : ويل لمن لا يعلم مرة وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات . وقال الشعبي : يطلع يوم القيامة قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون لهم : ما أدخلكم النار وإنما أدخلنا الله الجنة بفضل تأديبكم وتعليمكم ؟ فيقولون إنا كنا نأمر بالخير ولا نفعله وننهى عن الشر ونفعله . وقال حاتم الأصم رحمه الله : ليس في القيامة أشد حسرة من رجل علم الناس علما فعملوا به ولم يعمل هو به ففازوا بسببه وهلك هو . وقال مالك ابن دينار : إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب، كما يزل القطر عن الصفاء وأنشدوا :

يا واعظ الناس قد أصبحت متهما ... إذ عبت منهم أمورا أنت تأتيها
أصبحت تنصحهم بالوعظ مجتهدا ... فالموبقات لعمري أنت جانيها
تعيب دنيا وناسا راغبين لها ... وأنت أكثر منهم رغبة فيها

وقال آخر :

لاتنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : مررت بحجر بمكة مكتوب عليه « اقلبني تعتبر » فقلبته فاذا عليه مكتوب « أنت بما تعلم لاتعمل فكيف تطلب علم ما لم تعلم » ؟ وقال ابن السماك رحمه الله : كم من مذكر بالله ناس لله ! وكم من مخوف بالله جريء على الله ! وكم من مقرب إلى الله بعيد من الله ! وكم من داع إلى الله فار من الله ! وكم من تال كتاب الله منسلخ عن آيات الله ! وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : لقد أعربنا في كلامنا فلم نلحن ولحنا في أعمالنا فلم نعرب . وقال الأوزاعي : إذا جاء الإعراب ذهب الخشوع . وروى مكحول عن عبد الرحمن بن غنم أنه قال : حدثني عشرة

(١) حديث جابر « لاتجلسو عند كل عالم ... الحديث » أخرجه أبو نعيم في الحلية وابن الجوزي في الموضوعات .
(٢) حديث «مررت ليلة أسري بي بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار ... الحديث » أخرجه ابن حبان من حديث أنس . (٣) حديث « هلاك أمتي عالم فاجر وشر الشرار شرار العلماء . . . الحديث » أخرجه الدارمي من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه مرسلا بآخر الحديث نحوه وقد تقدم ولم أجد صدر الحديث .

من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا « كنا ندرس العلم فى مسجد قباء إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعملوا (٢) » وقال عيسى عليه السلام : مثل الذى يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل امرأة زنت فى السر فحملت فظهر حملها فافتضحت فكذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الأشهاد . وقال معاذ رحمه الله : احذروا زلة العالم لأن قدره عند الخلق عظيم فيتبعونه على زلته . وقال عمر رضى الله عنه : إذا زل العالم زل بزلته عالم من الخلق . وقال عمر رضى الله عنه : ثلاث بهن ينهدم الزمان إحداهن زلة العالم . وقال ابن مسعود : سيأتى على الناس زمان تملح فيه عذوبة القلوب فلا ينتفع بالعلم يومئذ عالمه ولا متعلمه فتكون قلوب علمائهم مثل السباخ من ذوات الملح ينزل عليها قطر السماء فلا يوجد لها عذوبة ، وذلك إذا مالت قلوب العلماء إلى حب الدنيا وإيثارها على الآخرة فعند ذلك يسلبها الله تعالى ينابيع الحكمة ويطفىء مصابيح الهدى من قلوبهم فيخبرك عالمهم حين تلقاه أنه يخشى الله بلسانه والفجور ظاهر فى عمله ، فما أخصب الألسن يومئذ وما أجدب القلوب ! فوالله الذى لا إله إلا هو ما ذلك إلا لأن المعلمين علموا لغير الله تعالى والمتعلمين تعلموا لغير الله تعالى . وفى التوراة والإنجيل مكتوب : لا تطلبوا علم مالم تعلموا حتى تعملوا بما علمتم. وقال حذيفة رضى الله عنه : إنكم فى زمان من ترك فيه عشر ما يعلم هلك ، وسيأتى زمان من عمل فيه بعشر ما يعلم نجا وذلك لكثرة البطالين .

واعلم أن مثل العالم مثل القاضى وقد قال صلى الله عليه وسلم « القضاة ثلاثة : قاض قضى بالحق وهو يعلم فذلك فى الجنة وقاض قضى بالجور وهو يعلم فهو يعلم أو لا يعلم فهو فى النار وقاض قضى بغير ما أمر الله به فهو فى النار (١) » وقال كعب رحمه الله : يكون فى آخر الزمان علماء يزهدون الناس فى الدنيا ولا يزهدون ، ويخوفون الناس ولا يخافون . وينهون عن غشيان الولاة ويأتونهم ، ويؤثرون الدنيا على الآخرة ، يأكلون بألسنتهم ، يقربون الأغنياء دون الفقراء ، يتغايرون على العلم كما تتغاير النساء على الرجال . يغضب أحدهم على جليسه إذا جالس غيره ، أولئك الجبارون أعداء الرحمن . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان ربما يسوفكم بالعلم ، فقيل : يارسول الله كيف ذلك ؟ قال صلى الله عليه وسلم : يقول اطلب العلم ولا تعلم حتى تعلم فلا يزال للعلم قائلا وللعمل مسوفا حتى يموت وما عمل (٢) » وقال سرى السقطى : اعتزل رجل للتعبد كان حريصاً على طلب علم الظاهر فسألته فقال : رأيت فى النوم قائلا يقول لى « إلى كم تضيع العلم ضيعك الله » فقلت : إنى لأحفظه فقال « حفظ العلم العمل به » فتركت الطلب وأقبلت على العمل . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم الخشية ، وقال الحسن: تعلموا ما شئتم أن تعلموا فوالله لا يأجركم الله حتى تعملوا فإن السفهاء همتهم الرواية والعلماء همتهم الرعاية . وقال مالك رحمه الله : إن طلب العلم لحسن وإن نشره لحسن إذا صحت فيه النية ولكن انظر ما يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسى فلا تؤثرون عليه شيئا . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : أنزل القرآن ليعمل به فاتخذتم دراسته عملا وسيأتى قوم يثقفونه مثل القناة ليسوا بخياركم والعالم الذى لا يعمل كالمريض الذى يصف الدواء وكالجائع الذى يصف لذائذ الأطعمة ولا يجدها . وفى مثله قوله تعالى ﴿ ولكم الويل مما تصفون ﴾ وفى الخبر « إنما أخاف على أمتى زلة عالم

---

(١) حديث عبد الرحمن بن غنم عن عشرة من الصحابة « تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعملوا » علقه ابن عبد البر وأسنده ابن عدى وأبو نعيم والخطيب ـ فى كتاب اقتضاء العلم للعمل ـ من حديث معاذ فقط بسند ضعيف ورواه الدارمى موقوفاً على معاذ بسند صحيح .

(٢) حديث « القضاء ثلاثة ... الحديث » أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة وهو صحيح

(٣) حديث «إن الشيطان ربما سبقكم بالعلم ... الحديث» فى الجامع من حديث أنس بسند ضعيف

وجدال منافق فى القرآن (١) » .

ومنها أن تكون عنايته بتحصيل العلم النافع فى الآخرة المرغب فى الطاعات مجتنباً للعلوم التى يقل نفعها ويكثر فيها الجدال والقيل والقال .

فمثال من يعرض عن علم الأعمال ويشتغل بالجدال مثل رجل مريض به علل كثيرة وقد صادف طبيبا حاذقا فى وقت ضيق يخشى فواته فاشتغل بالسؤال عن خاصية العقاقير والأدوية وغرائب الطب وترك مهمه الذى هو مؤاخذ به ، وذلك محض السفه . وقد روى «أن رجلا جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : علمنى من غرائب العلم ، فقال له : ما صنعت فى رأس العلم ؟ فقال : وما رأس العلم ؟ قال صلى الله عليه وسلم : هل عرفت الرب تعالى ؟ قال : نعم ، قال : فما صنعت فى حقه ؟ قال : ماشاء الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : هل عرفت الموت ؟ قال : نعم . قال : فما أعددت له ؟ قال : ماشاء الله ، قال صلى الله عليه وسلم : اذهب فأحكم ماهناك ثم تعالى نعلمك من غرائب العلم (٢) » بل ينبغى أن يكون المتعلم من جنس ماروى عن حاتم الأصم . تلميذ شقيق البلخى رضى الله عنهما ـ أنه قال له : شقيق منذ كم صحبتنى ؟ قال حاتم : منذ سنة ، قال : فما تعلمت منى فى هذه المدة ؟ قال : ثمانى مسائل ، قال شقيق له : إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب عمرى معك ولم تتعلم إلا ثمانى مسائل ؟ قال : يا أستاذ لم أتعلم غيرها وإنى لا أحب أن أكذب ، فقال : هات هذه الثمانى مسائل حتى أسمعها ! قال حاتم : نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد يحب محبوبا فهو مع محبوبه إلى القبر فإذا وصل إلى القبر فارقه فجعلت الحسنات محبوبى فإذا دخلت القبر دخل محبوبى معى ، فقال : أحسنت ياحاتم فما الثانية ؟ فقال : نظرت فى قول الله عز وجل ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ﴾ فعلمت أن قوله سبحانه وتعالى هو الحق فأجهدت نفسى فى دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله تعالى . الثالثة : أنى نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل من معه شىء له قيمة ومقدار رفعه وحفظه ثم نظرت إلى قول الله عز وجل ﴿ ماعندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ فكلما وقع معى شىء له قيمة ومقدار وجهته إلى الله ليبقى عنده محفوظا . الرابعة : أنى نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يرجع إلى المال وإلى الحسب والشرف والنسب فنظرت فيها فإذا هى لاشىء ثم نظرت إلى قول الله تعالى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ فعملت فى التقوى حتى أكون عند الله كريما . الخامسة : أنى نظرت إلى هذا الخلق وهم يطعن بعضهم فى بعض ويلعن بعضهم بعضا وأصل هذا كله الحسد ثم نظرت إلى قول الله عز وجل ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ﴾ فتركت الحسد واجتنبت الخلق وعلمت أن القسمة من عند الله سبحانه وتعالى فتركت عداوة الخلق عنى . السادسة : نظرت إلى هذا الخلق يبغى بعضهم على بعض ويقاتل بعضهم بعضا فرجعت إلى قول الله عز وجل ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ﴾ فعاديته وحده واجتهدت فى أخذ حذرى منه لأن الله تعالى شهد عليه أنه عدو لى فتركت عداوة الخلق غيره . السابعة : نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يطلب هذه الكسرة فيذل فيها نفسه ويدخل فيما لا يحل له ثم نظرت إلى قوله تعالى ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ﴾ فعلمت أنى واحد من هذه الدواب التى على الله رزقها فاشتغلت بما لله تعالى على وتركت مالى عنده . الثامنة : نظرت إلى هذا الخلق فرأيتهم كلهم متوكلين على مخلوق ـ هذا على ضيعته وهذا على تجارته وهذا على صناعته وهذا على صحة بدنه ـ وكل مخلوق متوكل على مخلوق مثله فرجعت إلى

(١) حديث « مما أخاف على أمتى زلة عالم ... الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث أبى الدرداء ، ولابن حبان نحوه من حديث عمران بن حصين (٢) حديث « أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال علمنى من غرائب العلم ... الحديث » ابن السنى وأبو نعيم فى كتاب الرياضة لهما ، وابن عبد البر من حديث عبد الله بن المسور مرسلا وهو ضعيف جداً .

قوله تعالى ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ فتوكلت على الله عز وجل فهو حسبي . قال شقيق : ياحاتم وفقك الله تعالى فإنى نظرت فى علوم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان العظيم فوجدت جميع أنواع الخير والديانة وهى تدور على هذه الثمان مسائل فمن استعملها فقد استعمل الكتب الأربعة .

فهذا الفن من العلم لايهتم بإدراكه والتفطن له إلا علماء الآخرة فأما علماء الدنيا فيشتغلون بما يتيسر به اكتساب المال والجاه ويهملون أمثال هذه العلوم التى بعث الله بها الأنبياء كلهم عليهم السلام وقال الضحاك بن مزاحم : أدركتهم وما يتعلم بعضهم من بعض إلا الورع وهم اليوم ما يتعلمون إلا الكلام .

ومنها أن يكون غير مائل إلى الترفه فى المطعم والمشرب والتنعيم فى الملبس والتجمل فى الأثاث والمسكن بل يؤثر الاقتصاد فى جميع ذلك ويتشبه فيه بالسلف رحمهم الله تعالى ويميل إلى الاكتفاء بالأقل فى جميع ذلك وكلما زاد إلى طرف القلة ميله ازداد من الله قربه وارتفع فى علماء الآخرة حزبه . ويشهد لذلك ماحكى عن أبى عبد الله الخواص ـ وكان من أصحاب حاتم الأصم ـ قال : دخلت مع حاتم إلى الرى ومعنا ثلثمائة وعشرون رجلا يريد الحج وعليهم الزرمانقات وليس معهم جراب ولا طعام فدخلنا على رجل من التجار متقشف يحب المساكين فأضافنا تلك الليلة فلما كان من الغد قال لحاتم : ألك حاجة فإنى أريد أن أعود فقيها لنا هو عليل ؟ قال حاتم عيادة المريض فيها فضل والنظر إلى الفقيه عبادة وأنا أيضا أجىء معك . وكان العليل محمد بن مقاتل ـ قاضى الرى ـ فلما جئنا إلى الباب فإذا قصر مشرف حسن فبقى حاتم متفكرا يقول : باب عالم على هذه الحالة ؟ ثم أذن لهم فدخلوا فإذا دار حسناء قوراء واسعة نزهة وإذا بزة وستور فبقى حاتم متفكرا ثم دخلوا إلى المجلس الذى هو فيه وإذا بفرش وطيئة وهو راقد عليها وعند رأسه غلام وبيده مذبة فقعد الزائر عند رأسه وسأل عن حاله وحاتم قائم فأومأ إليه ابن مقاتل أن اجلس فقال لا أجلس فقال لعل لك حاجة فقال : نعم ، قال : وماهى؟ قال : مسئلة أسألك عنها قال : سل ، قال : قم فاستو جالسا حتى أسألك . فاستوى جالسا قال حاتم : علمك هذا من أين أخذته ؟ فقال : من الثقات حدثونى به ، قال : عمن ؟ قال : عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن ؟ قال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ورسول الله صلى الله عليه وسلم عمن ؟ قال : عن جبرائيل عليه السلام عن الله عز وجل ، قال حاتم ففيما أداه جبرائيل عليه السلام عن الله عز وجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأداه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وأصحابه إلى الثقات وأداه الثقات إليك هل سمعت فيه من كان فى داره إشراف وكانت سعتها أكثر كان له عند الله عز وجل المنزلة أكبر ؟ قال : لا . قال : فكيف سمعت ؟ قال : سمعت انه من زهد فى الدنيا ورغب فى الآخرة واحب المساكين وقدم لآخرته كانت له عند الله المنزلة ، قال له حاتم : فأنت بمن اقتديت أبالنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم والصالحين رحمهم الله أم بفرعون ونمروذ أول من بنى بالجص والآجر ؟ ياعلماء السوء مثلكم يراه الجاهل المتكالب على الدنيا الراغب فيها فيقول : العالم على هذه الحالة ؛ أفلا أكون أنا شرا منه ؟ وخرج من عنده فازداد ابن مقاتل مرضا وبلغ أهل الرى ماجرى بينه وبين ابن مقاتل فقالوا له : إن الطنافسى بقزوين أكثر توسعا منه . فسار حاتم متعمدا فدخل عليه فقال : رحمك الله أنا رجل أعجمى أحب أن تعلمنى مبتدأ دينى ومفتاح صلاتى كيف أتوضأ للصلاة ؟ قال : نعم وكرامة ياغلام هات إناء فيه ماء . فأتى به فقعد الطنافسى فتوضأ ثلاثا ثلاثا ثم قال : هكذا فتوضأ . فقال حاتم : مكانك حتى أتوضأ بين يديك فيكون أوكد لما أريد ، فقام الطنافسى وقعد حاتم فتوضأ ثم غسل ذراعيه أربعا أربعا فقال الطنافسى : ياهذا أسرفت ؛ قال له حاتم : فبماذا ؟ قال غسلت ذراعيك أربعا . فقال حاتم : ياسبحان الله العظيم أنا فى كف من ماء أسرفت وأنت فى جميع هذا كله لم تسرف ؟ فعلم الطنافسى

أنه قصد ذلك دون التعلم فدخل منزله فلم يخرج إلى الناس أربعين يوما فلما دخل حاتم بغداد اجتمع إليه أهل بغداد فقالوا : ياأبا عبد الرحمن أنت رجل ألكن أعجمي وليس يكلمك أحد إلا قطعته ، قال : معي ثلاث خصال أظهر بهن على خصمي ، أفرح إذا أصاب خصمي وأحزن إذا أخطأ وأحفظ نفسي أن لا أجهل عليه . فبلغ ذلك الإمام أحمد بن حنبل فقال : سبحان الله ما أعقله قوموا بنا إليه . فلما دخلوا عليه قال له : يا أبا عبد الرحمن ما السلامة من الدنيا ؟ قال : يا أبا عبد الله لا تسلم من الدنيا حتى يكون معك أربع خصال : تغفر للقوم جهلهم وتمنع جهلك منهم وتبذل لهم شيئك وتكون من شيئهم آيسا ، فإذا كنت هكذا سلمت ، ثم سار إلى المدينة فاستقبله أهل المدينة فقال : ياقوم أية مدينة هذه ؟ قالوا : مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فأين قصر رسول الله صلى عليه وسلم حتى أصلي فيه ؟ قالوا : ما كان له قصر إنما كان له بيت لاطئ بالأرض ، قال : فأين قصور أصحابه رضي الله عنهم ؟ قالوا : ما كان لهم قصور إنما كان لهم بيوت لاطئة بالأرض ، قال حاتم : ياقوم فهذه مدينة فرعون ، فأخذوه وذهبوا به إلى السلطان وقالوا : هذا العجمي يقول هذه مدينة فرعون ، قال الوالي : ولم ذلك ؟ قاله حاتم : لا تعجل على أنا رجل أعجمي غريب دخلت البلد فقلت مدينة من هذه فقالوا مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت فأين قصره . . . وقص القصة ، ثم قال : وقد قال الله تعالى ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ فأنتم بمن تأسيتم أبرسول الله صلى الله عليه وسلم أم بفرعون أول من بنى بالجص والآجر ؟ فخلوا عنه وتركوه . فهذه حكاية حاتم الأصم رحمه الله تعالى ، وسيأتي من سيرة السلف في البذاذة وترك التجمل ما يشهد لذلك في مواضعه .

والتحقيق فيه أن التزين بالمباح ليس بحرام ولكن الخوض فيه يوجب الأنس به حتى يشق تركه ، واستدامة الزينة لا تمكن إلا بمباشرة أسباب في الغالب يلزم من مراعاتها ارتكاب المعاصي من المداهنة ومراعاة الخلق ومراءاتهم وأمور أخر هي محظورة والحزم اجتناب ذلك لأن من خاض في الدنيا لا يسلم منها ألبتة ولو كانت السلامة مبذولة مع الخوض فيها لكان صلى الله عليه وسلم لا يبالغ في ترك الدنيا حتى نزع القميص المطرز بالعلم (١) ونزع خاتم الذهب في أثناء الخطبة (٢) إلى غير ذلك مما سيأتي بيانه . وقد حكى أن يحيى بن يزيد النوفلي كتب إلى مالك ابن أنس رضي الله عنهما « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على رسوله محمد في الأولين والآخرين ، من يحيى ابن يزيد بن عبد الملك إلى مالك بن أنس ، أما بعد : فقد بلغني أنك تلبس الدقاق وتأكل الرقاق وتجلس على الوطئ وتجعل على بابك حاجبا وقد جلست مجلس العلم وقد ضربت إليك المطي وارتحل إليك الناس واتخذوك إماما ورضوا بقولك ؛ فاتق الله تعالى يامالك وعليك بالتواضع . كتبت إليك بالنصيحة مني كتابا ما اطلع عليه غير الله سبحانه وتعالى والسلام » فكتب إليه مالك « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، من مالك بن أنس إلى يحيى بن يزيد سلام الله عليك ، أما بعد : فقد وصل إلى كتابك فوقع مني موقع النصيحة والشفقة والأدب أمتعك الله بالتقوى وجزاك بالنصيحة خيراً وأسأل الله تعالى التوفيق ولا حول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم ، فأما ما ذكرت لي آني آكل الرقاق وألبس الدقاق وأحتجب وأجلس على الوطيء فنحن نفعل ذلك ونستغفر الله تعالى فقد قال الله تعالى ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ وإني لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه . ولا تدعنا من كتابك فلسنا ندعك من كتابنا والسلام ، فانظر إلى إنصاف مالك إذ اعترف أن

---

(١) حديث « نزع القميص المعلم » عليه من حديث عائشة .

(٢) حديث « نزع الخاتم الذهب في أثناء الخطبة » متفق عليه من حديث ابن عمر .

ترك ذلك خير من الدخول فيه . وأفتى بأنه مباح وقد صدق فيهما جميعاً ومثل مالك فى منصبه إذا سمحت نفسه بالإنصاف والاعتراف فى مثل هذه النصيحة فتقوى أيضاً نفسه على الوقوف على حدود المباح حتى لايحمله ذلك على المراءاة والمداهنة والتجاوز إلى المكروهات ، وأما غيره فلا يقدر عليه فالتعريج على التنعم بالمباح خطر عظيم وهو بعيد من الخوف والخشية . وخاصية علماء الله تعالى الخشية وخاصية الخشية التباعد من مظان الخطر .

ومنها أن يكون مستقصيا عن السلاطين فلا يدخل عليهم ألبتة مادام يجد إلى الفرار عنهم سبيلا بل ينبغى أن يحترز عن مخالطتهم وإن جاءوا إليه فإن الدنيا حلوة خضرة وزمامها بأيدى السلاطين . والمخالط لهم لا يخلو عن تكلف فى طلب مرضاتهم واستمالة قلوبهم مع أنهم ظلمة . ويجب على كل متدين الإنكار عليهم وتضييق صدورهم بإظهار ظلمهم وتقبيح فعلهم فالداخل عليهم إما أن يلتفت إلى تجملهم فيزدرى نعمة الله عليه أو يسكت عن الإنكار عليهم فيكون مداهنا لهم أو يتكلف فى كلامه كلاما لمرضاتهم وتحسين حالهم وذلك هو البهت الصريح أو أن يطمع فى أن ينال من دنياهم وذلك هو السحت وسيأتى فى كتاب الحلال والحرام ما يجوز أن يؤخذ من أموال السلاطين وما لا يجوز من الإدرار والجوائز وغيرها .

وعلى الجملة فمخالطتهم مفتاح للشرور وعلماء الآخرة طريقهم الاحتياط . وقد قال صلى الله عليه وسلم « من بدا جفا — يعنى من سكن البادية جفا — ومن اتبع الصيد غفل ومن أتى السلطان افتتن(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتنكرون فمن أنكر فقد برىء ومن كره فقد سلم ولكن من رضى وتابع أبعده الله تعالى . قيل : أفلا نقاتلهم ؟ قال صلى الله عليه وسلم : لاماصلوا (٢) » وقال سفيان : فى جهنم واد لايسكنه إلا القراء الزائرون للملوك . وقال حذيفة : إياكم ومواقف الفتن ، قيل وما هى ؟ قال : أبواب الأمراء يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول فيه ماليس فيه . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم العلماء أمناء الرسل على عباد الله تعالى مالم يخالطوا السلاطين فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل فاحذروهم واعتزلوهم (٣) » رواه أنس، وقيل للأعمش : لقد أحييت العلم لكثرة من يأخذه عنك . فقال : لاتعجلوا ثلث يموتون قبل الإدراك وثلث يلزمون أبواب السلاطين فهم شر الخلق والثلث الباقى لايفلح منه إلا القليل . ولذلك قال سعيد بن المسيب رحمة الله إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحترزوا منه فإنه لص وقال الأوزاعى ما من شىء أبغض إلى الله تعالى من عالم يزور عاملا . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم شرار العلماء الذين يأتون الأمراء وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء (٤) » وقال مكحول الدمشقى رحمة الله : من تعلم القرآن وتفقه فى الدين ثم صحب السلطان تملقا إليه وطمعا فيما لديه خاض فى بحر من نار جهنم بعدد خطاه . وقال سمنون : ما أسمج بالعالم أن يؤتى إلى مجلسه فلا يوجد فيسئل عنه فيقال هو عند الأمير ! قال : وكنت أسمع أنه يقال إذا رأيتم العالم يحب الدنيا فاتهموه على دينكم حتى جربت ذلك ، إذ مادخلت قط على هذا السلطان إلا وحاسبت نفسى بعد الخروج فأرى عليها الدرك وأنتم ترون ما ألقاه به من الغلظة والفظاظة وكثرة المخالفة لهواه ولوددت أن أنجو من الدخول عليه كفافا مع أنى لا آخذ منه شيئاً ولا أشرب له شربة ماء . ثم قال : وعلماء زماننا شر من علماء بنى إسرائيل يخبرون السلطان بالرخص وبما يوافق

---

(١) حديث « من بدا جفا ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه والنسائى من حديث ابن عباس .

(٢) حديث « سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتنكرون ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أم سلمة .

(٣) حديث أنس « العلماء أمناء الرسل على عباد الله ... الحديث » أخرجه العقيلى فى الضعفاء ، وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات (٤) حديث « شرار العلماء الذين يأتون الأمراء وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء » أخرجه ابن ماجه بالشطر الأول نحوه من حديث أبى هريرة بسند ضعيف .

هواه ولو أخبروه بالذى عليه وفيه نجاته لاستثقلهم وكره دخولهم عليه وكان ذلك نجاة لهم عند ربهم . وقال الحسن: كان فيمن كان قبلكم رجل له قدم فى الإسلام وصحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم - قال عبد الله بن المبارك عنى به سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه - قال وكان لا يغشى السلاطين وينفر عنهم . فقال له بنوه : يأتى هؤلاء من ليس هو مثلك فى الصحبة والقدم فى الإسلام فلو أتيتهم ، فقال : يا بنى آتى جيفة قد أحاط بها قوم والله لئن استطعت لا أشاركهم فيها ، قالوا يا أبانا إذن نهلك هزالا قال : يا بنى لأن أموت مؤمنا مهزولا أحب إلى من أن أموت منافقا سمينا قال الحسن: خصمهم والله إذ علم أن التراب يأكل اللحم والسمن دون الإيمان . وفى هذا إشارة إلى أن الداخل على السلطان لا يسلم من النفاق ألبتة وهو مضاد للإيمان . وقال أبو ذر لسلمة : ياسلمة لا تغش أبواب السلاطين فإنك لا تصيب شيئا من دنياهم إلا أصابوا من دينك أفضل منه . وهذه فتنة عظيمة للعلماء وذريعة صعبة للشيطان عليهم لاسيما من له لهجة مقبولة وكلام حلو ، إذ لا يزال الشيطان يلقى إليه : أن فى وعظك لهم ودخولك عليهم ما يزجرهم عن الظلم ويقيم شعائر الشرع إلى أن يخيل إليه أن الدخول عليهم من الدين ، ثم إذا دخل لم يلبث أن يتلطف فى الكلام ويداهن ويخوض فى الثناء والإطراء وفيه هلاك الدين، وكان يقال: العلماء إذا علموا عملوا فإذا عملوا شغلوا فإذا شغلوا فقدوا فإذا فقدوا طلبوا فإذا طلبوا هربوا . وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى الحسن : أما بعد فأشر على بأقوام أستعين بهم على أمر الله تعالى . فكتب إليه : أما أهل الدين فلا يريدونك وأما أهل الدنيا فلن تريدهم ولكن عليك بالأشراف فإنهم يصونون شرفهم أن يدنسوه بالخيانة . هذا فى عمر بن عبد العزيز رحمة الله وكان أزهد أهل زمانه ! فإذا كان شرط أهل الدين الهرب منه فكيف يستتب طلب غيره ومخالطته ؟ ولم يزل السلف العلماء مثل الحسن والثورى وابن المبارك والفضيل وإبراهيم بن أدهم ويوسف بن أسباط يتكلمون فى علماء الدنيا من أهل مكة والشام وغيرهم إما لميلهم إلى الدنيا وإما لمخالطتهم السلاطين . ومنها أن لا يكون مسارعا إلى الفتيا بل يكون متوقفاً ومحترزاً ما وجد إلى الخلاص سبيلا ، فإن سئل عما يعلمه تحقيقاً بنص كتاب الله أو بنص حديث أو إجماع أو قياس جلى أفتى ، وإن سئل عما يشك فيه قال : لا أدرى ؛ وإن سئل عما يظنه باجتهاد وتخمين احتاط ودفع عن نفسه وأحال على غيره إن كان فى غيره غنية . هذا هو الحزم لأن تقلد خطر الاجتهاد عظيم وفى الخبر « العلم ثلاثة : كتاب ناطق وسنة قائمة ولا أدرى(١) » وقال الشعبى : « لا أدرى » نصف العلم . ومن سكت حيث لا يدرى لله تعالى فليس بأقل أجرا ممن نطق لأن الاعتراف بالجهل أشد على النفس فهكذا كانت عادة الصحابة والسلف رضى الله عنهم . كان ابن عمر إذا سئل عن الفتيا قال : اذهب إلى هذا الأمير الذى تقلد أمور الناس فضعها فى عنقه وقال ابن مسعود رضى الله عنه : إن الذى يفتى الناس فى كل ما يستفتونه لمجنون ، وقال : جنة العالم « لا أدرى » فإن أخطأها فقد أصيبت مقاتله. وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : ليس شىء أشد على الشيطان من عالم يتكلم بعلم ويسكت بعلم ، يقول : انظروا إلى هذا سكوته أشد على من كلامه . ووصف بعضهم الأبدال فقال : أكلهم فاقة ونومهم غلبة وكلامهم ضرورة ، أى لا يتكلمون حتى يسألوا وإذا سئلوا ووجدوا من يكفيهم سكتوا فإن اضطروا أجابوا وكانوا يعدون الابتداء قبل السؤال من الشهوة الخفية للكلام . ومر على وعبد الله رضى الله عنهما برجل يتكلم على الناس فقال : هذا يقول اعرفونى . وقال بعضهم : إنما العالم الذى إذا سئل عن المسئلة فكأنما يقلع ضرسه . وكان ابن عمر يقول : تريدون

---

(١) حديث « العلم ثلاثة : كتاب ناطق وسنة قائمة ولا أدرى» أخرجه الخطيب فى أسماء من روى عن مالك موقوفا على ابن عمر ولأبى داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً نحوه مع اختلاف وقد تقدم .

أن تجعلونا جسرا تعبرون علينا إلى جهنم . وقال أبو حفص النيسابورى : العالم هو الذى يخاف عند السؤال أن يقال له يوم القيامة من أين أجبت ؟ وكان إبراهيم التيمى إذا سئل عن مسئلة يبكى ويقول : لم تجدوا غيرى حتى احتجتم إلى . وكان أبو العالية الرياحى وإبراهيم بن أدهم والثورى يتكلمون على الاثنين والثلاثة والنفر اليسير فإذا كثروا انصرفوا : وقال صلى الله عليه وسلم «ما أدرى أعزير نبى أم لا؟ وما أدرى أتبع ملعون أم لا؟ وما أدرى أذو القرنين نبى أم لا ؟(١) » ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن خير البقاع فى الأرض وشرها قال « لا أدرى » حتى نزل عليه جبريل عليه السلام فسأله فقال « لا أدرى » إلى أن أعلمه الله عز وجل أن خير البقاع المساجد وشرها الأسواق (٢) » وكان ابن عمر رضى الله عنهما يسئل عن عشر مسائل فيجيب عن واحدة ويسكت عن تسع . وكان ابن عباس رضى الله عنهما يجيب عن تسع ويسكت عن واحدة . وكان فى الفقهاء من يقول « لا أدرى » أكثر ممن يقول « أدرى » منهم سفيان الثورى ومالك بن أنس وأحمد بن حنبل والفضيل ابن عياض وبشر بن الحرث . وقال عبد الرحمن بن أبى ليلى : أدركت فى هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منهم أحد يسئل عن حديث أو فتيا إلا ود أن أخاه كفاه ذلك . وفى لفظ آخر : كانت المسئلة تعرض على أحدهم فيردها إلى الآخر ويردها الآخر إلى الآخر حتى تعود إلى الأول . وروى أن أصحاب الصفة أهدى إلى واحد منهم رأس مشوى وهو فى غاية الضر فأهداه إلى الآخر وأهداه الآخر إلى الآخر ، هكذا دار بينهم حتى رجع إلى الأول . فانظر الآن كيف انعكس أمر العلماء فصار المهروب منه مطلوبا والمطلوب مهروبا عنه ؟ ويشهد لحسن الاحتراز من تقلد الفتاوى ما روى مسندا عن بعضهم . أنه قال : لا يفتى الناس إلا ثلاثة : أمير أو مأمور او متكلف ، وقال بعضهم : كان الصحابة يتدافعون أربعة أشياء ، الإمامة والوصية والوديعة والفتيا . وقال بعضهم : كان أسرعهم إلى الفتيا أقلهم علما ، وأشدهم دفعا لها أورعهم . وكان شغل الصحابة والتابعين رضى الله عنهم فى خمسة أشياء : قرءاة القرآن وعمارة المساجد وذكر الله تعالى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وذلك لما سمعوه من قوله صلى الله عليه وسلم « كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ثلاثة : أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو ذكر الله تعالى(٣) » وقال تعالى ﴿ لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾ الآية . ورأى بعض العلماء بعض أصحاب الرأى من أهل الكوفة فى المقام فقال : ما رأيت فيما كنت عليه من الفتيا والرأى ؟ فكره وجهه وأعرض عنه وقال : ما وجدناه شيئا وما حمدنا عاقبته . وقال ابن حصين : إن أحدهم ليفتى فى مسئلة لو وردت على عمر بن الخطاب رضى الله عنه لجمع لها أهل بدر . فلم يزل السكوت دأب أهل العلم إلا عند الضرورة . وفى الحديث « إذا رأيتم الرجل قد أوتى صمتا وزهدا فاقتربوا منه فإنه يلقن الحكمة(٤) » وقيل : العالم إما عالم عامة وهو المفتى وهم أصحاب السلاطين أو عالم خاصة وهو العالم بالتوحيد وأعمال القلوب ، وهم أصحاب الزوايا المتفرقون المنفردون وكان يقال : مثل أحمد بن حنبل مثل دجلة كل أحد يغترف منها ، ومثل بشر بن الحرث مثل بئر عذبة مغطاة لا يقصدها إلا واحد بعد واحد . وكانوا يقولون : فلان عالم

---

(١) حديث « ما أدرى أعزير نبى أم لا ... الحديث » أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث « لما سئل عن خير البقاع وشرها قال لا أدرى حتى نزل جبريل ... الحديث» أخرجه أحمد وأبو يعلى والبزار والحاكم وصححه ونحوه من حديث ابن عمر

(٣) حديث «كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ثلاثة ... الحديث» أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أم حبيبة قال الترمذى حديث غريب

(٤) حديث « إن رأيتم الرجل قد أوتى صمتاً وزهداً ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن خلاد بإسناد ضعيف

وفلان متكلم وفلان أكثر عملا ، وقال أبو سليمان : المعرفة إلى السكوت أقرب منها إلى الكلام . وقيل : إذا كثر العلم قل الكلام وإذا كثر الكلام قل العلم . وكتب سلمان إلى أبي الدرداء رضي الله عنهما — وكان قد آخى بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) : يا أخي بلغني أنك قعدت طبيبا تداوي المرضى ، فانظر فإن كنت طبيبا فتكلم فإن كلامك شفاء وإن كنت متطبيبا فالله الله لا تقتل مسلما . فكان أبو الدرداء يتوقف بعد ذلك إذا سئل وكان أنس رضي الله عنه إذا سئل يقول : سلوا مولانا الحسن ، وكان ابن عباس رضي الله عنهما إذا سئل يقول : سلوا حارثة ابن زيد وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول : سلوا سعيد بن المسيب . وحكى أنه روى صحابي في حضرة الحسن عشرين حديثا فسئل عن تفسيرها فقال : ماعندي إلا ما رويت ، فأخذ الحسن في تفسيرها حديثا حديثا ؛ فتعجبوا من حسن تفسيره وحفظه ؛ فأخذ الصحابي كفا من حصى ورماهم به وقال : تسألوني عن العلم وهذا الحبر بين أظهركم .

ومنها أن يكون أكثر اهتمامه بعلم الباطن ومراقبة القلب ومعرفة طريق الآخرة وسلوكه وصدق الرجاء في انكشاف ذلك من المجاهدة والمراقبة فإن المجاهدة تفضي إلى المشاهدة ، ودقائق علوم القلب تنفجر بها ينابيع الحكمة من القلب ، وأما الكتب والتعليم فلا تفي بذلك بل الحكمة الخارجة عن الحصر والعد إنما تنفتح بالمجاهدة والمراقبة ومباشرة الأعمال الظاهرة والباطنة والجلوس مع الله عز وجل في الخلوة مع حضور القلب بصافي الفكرة والانقطاع إلى الله تعالى عما سواه فذلك مفتاح الإلهام ومنبع الكشف ، فكم من متعلم طال تعلمه ولم يقدر على مجاوزة مسموعه بكلمة ! وكم من مقتصر على المهم في التعلم ومتوفر على العمل ومراقبة القلب فتح الله له من لطائف الحكمة ما تحار فيه عقول ذوي الألباب ! ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم (٢) » وفي بعض الكتب السالفة : يابني إسرائيل لا تقولوا العلم في السماء من ينزل به إلى الأرض ولا في تخوم الأرض من يصعد به ولا من وراء البحار من يعبر يأتي به ، العلم مجعول في قلوبكم تأدبوا بين يدي بآداب الروحانيين وتخلقوا لي بأخلاق الصديقين أظهر العلم في قلوبكم حتى يغطيكم ويغمركم وقال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله : خرج العلماء والعباد والزهاد من الدنيا وقلوبهم مقفلة ولم تفتح إلا قلوب الصديقين والشهداء ثم تلا قوله تعالى ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾ الآية ولولا أن إدراك قلب من له قلب بالنور الباطن حاكم على علم الظاهر لما قال صلى الله عليه وسلم « استفت قلبك وإن افتوك وأفتوك وأفتوك » وقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تعالى « لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به . . . الحديث(٤) » فكم من معان دقيقة من أسرار القرآن تخطر على قلب المتجردين للذكر والفكر تخلو عنها كتب التفاسير ولا يطلع عليها أفاضل المفسرين . وإذا انكشف ذلك للمريد المراقب وعرض على المفسرين استحسنوه وعلموا أن ذلك من تنبيهات القلوب الزكية وألطاف الله تعالى بالهمم العالية المتوجهة إليه وكذلك في علوم المكاشفة وأسرار علوم المعاملة ودقائق خواطر القلوب فإن كل علم بحر لا يدرك عمقه وإنما يخوضه كل طالب بقدر مارزق منه وبحسب ماوفق له من حسن العمل . وفي وصف هؤلاء العلماء قال علي رضي الله عنه في حديث طويل . القلوب أوعية وخيرها أوعاها للخير ، والناس ثلاثة عالم رباني ومتعلم على سبيل النجاة وهمج رعاع أتباع لكل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجئوا إلى ركن وثيق ، العلم

---

(١) حديث « مؤاخاته صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبي الدرداء » أخرجه البخاري من حديث أبي جحفة .

(٢) حديث « من عمل بما علم ورثه الله مالا يعلم » أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وضعفه .

(٣) حديث « لايزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً » متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ « كنت سمعه وبصره » وهو في الحلية كما ذكره المؤلف من حديث أنس بسند ضعيف .

خير من المال ، والعلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم يزكوا على الإنفاق والمال ينقصه الإنفاق ، والعلم دين يدان به تكتسب به الطاعة فى حياته وجميل الأحدوثة بعد وفاته ، العلم حاكم والمال محكوم عليه ومنفعة المال تزول بزواله مات خزان الأموال وهم أحياء والعلماء أحياء باقون مابقى الدهر . ثم تنفس الصعداء وقال : هاه إن ههنا علما جما لو وجدت له حملة ، بل أجد طلبا غير مأمون يستعمل آلة الدين فى طلب الدنيا ويستطيل بنعم الله على أوليائه ويستظهر بحجته على خلقه ، أو منقادا لأهل الحق لكن ينزرع الشك فى قلبه بأول عارض من شبهة لا بصيرة له لا ذا ولا ذاك ، أو منهوما باللذات سلس القياد فى طلب الشهوات ، أو مغرى بجمع الأموال والادخار منقادا لهواه أقرب شبها بهم الأنعام السائمة ؛ اللهم هكذا يموت العلم إذا مات حاملوه ثم لاتخلوا الأرض من قائم لله بحجة إما ظاهر مكشوف وإما خائف مقهور لكيلا تبطل حجج الله تعالى وبيناته وكم وأين أولئك ؟ هم الأقلون عددا الأعظمون قدرا أعيانهم مفقودة وأمثالهم فى القلوب موجودة يحفظ الله تعالى بهم حججه حتى يودعوها من ورائهم ويزرعوها فى قلوب أشباههم ، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين فاستلانوا ما استوعر منه المترفون وأنسوا بما استوحش منه الغافلون ، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى أولئك أولياء الله عز وجل من خلقه وامناؤه وعماله فى أرضه والدعاة إلى دينه ثم بكى وقال : واشوقاه إلى رؤيتهم ! فهذا الذى ذكره أخيرا هو وصف علماء الآخرة وهو العلم الذى يستفاد أكثره من العمل والمواظبة على المجاهدة .

ومنها أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين فإن اليقين هو رأس مال الدين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اليقين الإيمان كله(١) » فلابد من تعلم علم اليقين أعنى أوائله ثم ينفتح للقلب طريقه . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « تعلموا اليقين(٢) » ومعناه جالسوا الموقنين واستمعوا منهم علم اليقين وواظبوا على الاقتداء بهم ليقوى يقينكم كما قوى يقينهم وقليل من اليقين خير من كثير من العمل . وقال صلى الله عليه وسلم « لما قيل له : رجل حسن اليقين كثير الذنوب ورجل مجتهد فى العبادة قليل اليقين ، فقال صلى الله عليه وسلم: مامن آدمى إلا وله ذنوب ولكن من كان غريزته العقل وسجيته اليقين لم تضره الذنوب لأنه كلما أذنب تاب واستغفر وندم فتكفر ذنوبه ويبقى له فضل يدخل به الجنة(٣) » . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «إن من أقل ماأوتيتم : اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار(٤) » وفى وصية لقمان لابنه : يا بنى لا يستطاع العمل إلا باليقين ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه ولا يقصر عامل حتى ينقص يقينه . وقال يحى بن معاذ إن للتوحيد نورا وللشرك نارا ، وإن نور التوحيد أحرق لسيئات الموحدين من نار الشرك لحسنات المشركين ؛ وأراد به اليقين . وقد أشار الله تعالى فى القرآن إلى ذكر الموقنين فى مواضع دل بها على أن اليقين هو الرابطة للخيرات والسعادات .

فإن قلت : فما معنى اليقين ومامعنى قوته وضعفه فلابد من فهمه أولا ثم الاشتغال بطلبه وتعلمه فإن مالاتفهم صورته لا يمكن طلبه ؟ فاعلم أن اليقين لفظ مشترك يطلقه فريقان لمعنيين مختلفين أما النظار والمتكلمون فيعبرون به عن عدم الشك إذ ميل النفس إلى التصديق بالشىء له أربع مقامات :

الأول : أن يعتدل التصديق والتكذيب ويعبر عنه بالشك ، كما إذا سئلت عن شخص معين ؛ أن الله تعالى

---

(١) حديث «اليقين الإيمان كله» أخرجه البيهقى فى الزهد والخطيب فى التاريخ من حديث ابن مسعود بإسناد حسن

(٢) حديث « تعلموا اليقين » أخرجه ابن نعيم من رواية ابن يزيد مرسلا وهو معضل ورواه ابن أبى الدنيا فى اليقين من قول خالد بن معدان .

(٣) حديث « قيل له : رجل حسن اليقين كثير الذنوب » أخرجه الترمذى الحكيم فى النوادر من حديث أنس بإسناد مظلم .

(٤) حديث « من أولى ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ... الحديث» لم أقف له على أصل ، وروى ابن عبد البر من حديث معاذ « ما أنزل الله شيئاً أقل من اليقين ولا قسم شيئاً بين الناس أقل من الحلم » الحديث .

يعاقبه أم لا ؟ وهو مجهول الحال عندك فإن نفسك لاتميل إلى الحكم فيه بإثبات ولا نفى بل يستوى عندك إمكان الأمرين فيسمى هذا شكا .

الثانى : أن تميل نفسك إلى أحد الأمرين مع الشعور بإمكان نقيضه ولكنه إمكان لايمنع ترجيح الأول ، كما إذا سئلت عن رجل تعرفه بالصلاح والتقوى أنه بعينه لومات على هذه الحالة هل يعاقب ؟ فإن نفسك تميل إلى أنه لا يعاقب أكثر من ميلها إلى العقاب وذلك لظهور علامات الصلاح ،ومع هذا فأنت تجوز اختفاء أمرموجب للعقاب فى باطنه وسريرته فهذا التجويز مساو لذلك الميل ولكنه غير دافع رجحانه فهذه الحالة تسمى ظنا .

الثالث : أن تميل النفس إلى التصديق بشىء بحيث يغلب عليها ولا يخطر بالبال تأبى النفس عن قبوله ولكن ليس ذلك مع معرفة محققة إذ لو أحسن صاحب هذا المقام التأمل والإصغاء إلى التشكيك للتجويز ، وهذا يسمى اعتقادا مقاربا لليقين وهو اعتقاد العوام فى الشرعيات كلها إذ رسخ فى نفوسهم بمجرد السماع حتى إن كل فرقة تثق بصحة مذهبها وإصابة إمامها ومتبوعها ، ولو ذكر لأحدهم إمكان خطأ إمامه نفر عن قبوله .

الرابع : المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذى لايشك فيه ولا يتصور الشك فيه فإذا امتنع وجود الشك وإمكانه يسمى يقينا عند هؤلاء . ومثاله أنه إذا قيل للعاقل هل فى الوجود شىء هو قديم ؟ فلا يمكنه التصديق به بالبديهة لأن القديم غير محسوس لا كالشمس والقمر فإنه يصدق بوجودهما بالحس وليس العلم بوجود شىء قديم أزلى ضروريا مثل العلم بأن الاثنين أكثر من الواحد ومثل العلم بأن حدوث حادث بلا سبب محال ، فإن هذا أيضاً ضرورى فحق غريزة العقل أن تتوقف عن التصديق بوجود القديم على طريق الارتجال والبديهة . ثم من الناس من يسمع ذلك ويصدق بالسماع تصديقاً جزما ويستمر عليه وذلك هو الاعتقاد وهوحال جميع العوام . ومن الناس من يصدق به بالبرهان وهو أن يقال له : إن لم يكن فى الوجود قديم فالموجودات كلها حادثة فإن كانت كلها حادثة فهى حادثة بلا سبب أو فيها حادث بلا سبب وذلك محال ، فالمؤدى إلى المحال محال . فيلزم فى العقل التصديق بوجود شىء قديم بالضرورة لأن الأقسام ثلاثة ، وهى أن تكون الموجودات كلها قديمة أو كلها حادثة أو بعضها قديمة وبعضها حادثة . فإن كانت كلها قديمة فقد حصل المطلوب إذ ثبت على الجملة قديم ، وإن كان الكل حادثا فهو محال إذ يؤدى إلى حدوث بغير سبب فيثبت القسم الثالث أو الأول . وكل علم حصل على هذا الوجه يسمى يقينا عند هؤلاء سواء حصل بنظر مثل ما ذكرناه أو حصل بحس أو بغريزة العقل كالعلم باستحالة حادث بلا سبب أو بتواتر ، كالعلم بوجود مكة أو بتجربة كالعلم بأن السقمونيا المطبوخ مسهل أو بدليل كما ذكرنا فشرط إطلاق هذا الاسم عندهم عدم الشك فكل علم لاشك فيه يسمى يقينا عند هؤلاء وعلى هذا لايوصف اليقين بالضعف إذ لاتفاوت فى نفى الشك ، الاصطلاح الثانى اصطلاح الفقهاء والمتصوفة وأكثر العلماء وهو أن لايلتفت فيه إلى اعتبار التجويز والشك بل إلى استيلائه وغلبته على العقل ، حتى يقال : فلان ضعيف اليقين بالموت مع أنه لاشك فيه ، ويقال : فلان قوى اليقين فى إتيان الرزق مع أنه قد يجوز أنه لا يأتيه . فمهما مالت النفس إلى التصديق بشىء وغلب ذلك على القلب واستولى حتى صار هو المتحكم والمتصرف فى النفس بالتجويز والمنع سمى ذلك يقينا ولا شك فى أن الناس مشتركون فى القطع بالموت والانفكاك عن الشك فيه ، ولكن فيهم من لايلتفت إليه ولا إلى الاستعداد له وكأنه غير موقن به ، ومنهم من استولى ذلك على قلبه حتى استغرق جميع همه بالاستعداد له ولم يغادر فيه متسعا لغيره فيعبر عن مثل هذه الحالة بقوة اليقين ، ولذلك قال بعضهم : ما رأيت يقينا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من

الموت . وعلى هذا الاصطلاح يوصف اليقين بالضعف والقوة ونحن إنما أردنا بقولنا « إن من شأن علماء الآخرة صرف العناية إلى تقوية اليقين » بالمعنيين جميعا وهو نفى الشك ثم تسليط اليقين على النفس حتى يكون هو الغالب المتحكم عليها المتصرف فيها . فإذا فهمت هذا علمت أن المراد من قولنا « إن اليقين ينقسم ثلاثة أقسام » بالقوة والضعف والكثرة والقلة والخفاء والجلاء ، فأما بالقوة والضعف فعلى الاصطلاح الثانى وذلك فى الغلبة والاستيلاء على القلب ودرجات معانى اليقين فى القوة الضعف لا تتناهى وتفاوت الخلق فى الاستعداد للموت بحسب تفاوت اليقين بهذه المعانى وأما التفاوت بالخفاء والجلاء فى الاصطلاح الأول فلا ينكر أيضاً ، أما فيما يتطرق إليه التجويز فلا ينكر — أعنى الاصطلاح الثانى — وفيما انتفى الشك أيضاعنه لاسبيل إلى إنكاره فإنك تدرك تفرقة بين تصديقك بوجود مكة ووجود فدك مثلا وبين تصديقك بوجود موسى ووجود يوشع عليهما السلام مع أنك لاتشك فى الأمرين جميعا فمستندهما جميعا التواتر ، ولكن ترى أحدهما أجلى وأوضح فى قلبك من الثانى لأن السبب فى أحدهما أقوى وهو كثرة المخبرين ، وكذلك يدرك الناظر هذا فى النظريات المعروفة بالأدلة فإنه ليس وضوح مالاح له بدليل واحد كوضوح مالاح له بالأدلة الكثيرة مع تساويهما فى نفى الشك ، وهذا قد ينكره المتكلم الذى يأخذ العلم من الكتب والسماع ولا يراجع نفسه فيما يدركه من تفاوت الأحوال ، وأما القلة والكثرة فذلك بكثرة متعلقات اليقين ، كما يقال : فلان أكثر علماً من فلان ، أى معلوماته أكثر ، ولذلك قد يكون العالم قوى اليقين فى جميع ماورد الشرع به وقد يكون قوى اليقين فى بعضه .

فإن قلت : قد فهمت اليقين وقوته وضعفه وكثرته وقلته وجلاءه وخفاءه بمعنى نفى الشك أو بمعنى الاستيلاء على القلب فما معنى متعلقات اليقين ومجاريه وفيماذا يطلب اليقين فإنى مالم أعرف ما يطلب فيه اليقين لم أقدر على طلبه ؟

فاعلم أن جميع ماورد به الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم من أوله إلى آخره هو من مجارى اليقين فإن اليقين عبارة عن معرفة مخصوصة ومتعلقه المعلومات التى وردت بها الشرائع فلا مطمع فى إحصائها ولكنى أشير إلى بعضها وهى أمهاتها :

فمن ذلك : التوحيد : وهو أن يرى الأشياء كلها من مسبب الأسباب ولا يلتفت إلى الوسائط مسورة لا حكم لها فالمصدق بهذا موقن ، فإن انتفى عن قلبه مع الإيمان إمكان الشك فهو موقن بأحد المعنيين . فإن غلب على قلبه مع الإيمان غلبة أزالت عنه الغضب على الوسائط والرضا عنهم والشكر لهم ونزل الوسائط فى قلبه منزلة القلم واليد فى حق المنعم بالتوقيع فإنه لا يشكر القلم ولا اليد ولا يغضب عليهما بل يراهما آلتين مسخرتين وواسطتين فقد صار موقناً بالمعنى الثانى وهو الإشراف، وهو ثمرة اليقين الأول وروحه وفائدته . ومهما تحقق أن الشمس والقمر والنجوم والجماد والنبات والحيوان وكل مخلوق فهى مسخرات بأمره حسب تسخير القلم فى يد الكاتب وأن القدرة الأزلية هى المصدر للكل استولى على قلبه غلبة التوكل والرضا والتسليم وصار موقناً بريئاً من الغضب والحقد والحسد وسوء الخلق ، فهذا أحد أبواب اليقين .

ومن ذلك : الثقة بضمان الله سبحانه بالرزق فى قوله تعالى ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ﴾ واليقين بأن ذلك يأتيه وأن ماقدر له سيساق إليه ومهما غلب ذلك على قلبه كان مجملا فى الطلب ولم يشتد حرصه وشرهه وتأسفه على مافاته ، وأثمر هذا اليقين أيضاً جملة من الطاعات والأخلاق الحميدة .

ومن ذلك : أن يغلب على قلبه أن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، وهو اليقين بالثواب والعقاب حتى يرى الطاعات إلى الثواب كنسبة الخبز إلى الشبع ، ونسبة المعاصى إلى العقاب كنسبة السموم والأفاعى إلى الهلاك فكما يحرص على التحصيل للخبز طلباً للشبع فيحفظ قليله وكثيره فكذلك يحرص على الطاعات كلها قليلها

وكثيرها ، وكما يجتنب قليل السموم وكثيرها فكذلك يجتنب المعاصى قليلها وكثيرها وصغيرها وكبيرها ؛ فاليقين بالمعنى الأول قد يوجد لعموم المؤمنين أما بالمعنى الثانى فيختص به المقربون ، وثمرة هذا اليقين صدق المراقبة فى الحركات والسكنات والخطرات والمبالغة فى التقوى والتحرز عن كل السيئات ، وكلما كان اليقين أغلب كان الاحتراز أشد والتشمير أبلغ .

ومن ذلك : اليقين بأن الله تعالى مطلع عليك فى كل حال ومشاهد لهواجس ضميرك وخفايا خواطرك وفكرك فهذا متيقن عند كل مؤمن بالمعنى الأول وهو عدم الشك وأما بالمعنى الثانى وهو المقصود فهو عزيز يختص به الصديقون ، وثمرته أن يكون الإنسان فى خلوته متأدباً فى جميع أحواله كالجالس بمشهد ملك معظم ينظر إليه فإنه لا يزال مطرقا متأدباً فى جميع أعماله متماسكا محترزاً عن كل حركة تخالف هيئة الأدب ويكون فى فكرته الباطنة كهو فى أعماله الظاهرة إذ يتحقق أن الله تعالى مطلع على سريرته كما يطلع الخلق على ظاهره فتكون مبالغته فى عمارة باطنه وتطهيره وتزيينه بعين الله تعالى الكالئة أشد من مبالغته فى تزيين ظاهره لسائر الناس ، وهذا المقام فى اليقين يورث الحياء والخوف والانكسار والذل والاستكانة والخضوع وجملة من الأخلاق المحمودة ، وهذه الأخلاق تورث أنواعا من الطاعات رفيعة فاليقين فى كل باب من هذه الأبواب مثل الشجرة وهذه الأخلاق فى القلب مثل الأغصان المتفرعة منها وهذه الأعمال والطاعات الصادرة من الأخلاق كالثمار وكالأنوار المتفرعة من الأغصان فاليقين هو الأصل والأساس وله مجار وأبواب أكثرها مما عددناه ، وسيأتى ذلك فى ربع المنجيات إن شاء الله تعالى . وهذا القدر كاف فى معنى اللفظ الآن .

ومنها أن يكون حزينا منكسراً مطرقا صامتا يظهر أثر الخشية على هيئته وكسوته وسكونه ونطقه وسكوته لا ينظر إليه ناظر إلا وكان نظره مذكرا لله تعالى وكانت صورته دليلا على عمله فالجواد عينه مرآته وعلماء الآخرة يعرفون بسيماهم فى السكينة والذلة والتواضع ، وقد قيل ما ألبس الله عبداً لبسة أحسن من خشوع فى سكينة فهى لبسة الأنبياء وسيما الصالحين والصديقين والعلماء . وأما التهافت فى الكلام والتشدق والاستغراق فى الضحك والحدة فى الحركة والنطق فكل ذلك من آثار البطر والأمن والغفلة عن عظيم عقاب الله تعالى وشديد سخطه وهو دأب أبناء الدنيا الغافلين عن الله دون العلماء به ، وهذا لأن العلماء ثلاثة كما قال سهل التسترى رحمه الله : عالم بأمر الله تعالى لا بأيام الله وهم المفتون فى الحلال والحرام وهذا العلم لا يورث الخشية ، وعالم بالله تعالى لا بأمر الله ولا بأيام الله وهم عموم المؤمنين ، وعالم بالله تعالى وبأمر الله تعالى وبأيام الله تعالى وهم الصديقون ، والخشية والخشوع إنما تغلب عليهم ، وأراد بأيام الله أنواع مقرباته الغامضة ونعمه الباطنة التى أفاضها على القرون السالفة واللاحقة فمن أحاط علمه بذلك عظم خوفه وظهر خشوعه . وقال عمر رضى الله عنه : تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والوقار والحلم وتواضعوا لمن تتعلمون منه وليتواضع لكم من يتعلم منكم ولا تكونوا من جبارة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم . ويقال ما آتى الله عبدا علما إلا آتاه معه حلما وتواضعا وحسن خلق ورفقا فذلك هو العلم النافع . وفى الأثر : من آتاه الله علما وزهدا وتواضعا وحسن خلق فهو إمام المتقين . وفى الخبر « إن من خيار أمتى قوما يضحكون جهراً من سعة رحمة الله ويبكون سراً من خوف عذابه ، أبدانهم فى الأرض وقلوبهم فى السماء ، أرواحهم فى الدنيا وعقولهم فى الآخرة ، يتمشون بالسكينة ويتقربون بالوسيلة (١) » وقال الحسن : الحلم وزير العلم والرفق أبوه والتواضع سرباله . وقال بشر بن الحرث : من طلب

---

(١) حديث « إن من خيار أمتى قوماً يضحكون جهراً من سعة رحمة الله ويبكون سراً من خوف عذابه ... الحديث » أخرجه الحاكم والبيهقى فى شعب الإيمان وضعفه من حديث عباس بن سليمان .

الرياسة بالعلم فتقرب إلى الله تعالى ببغضه فإنه ممقوت فى السماء والأرض . ويروى فى الإسرائيليات أن حكيما صنف ثلثمائة وستين مصنفا فى الحكمة حتى وصف بالحكيم فأوحى الله تعالى إلى نبيهم : قل لفلان قد ملأت الأرض نفاقا ولم تردنى من ذلك بشىء وإنى لا أقبل من نفاقك شيئا . فندم الرجل وترك ذلك وخالط العامة ومشى فى الأسواق وواكل بنى إسرائيل وتواضع فى نفسه فأوحى الله تعالى إلى نبيهم : قل له الآن وفقت لرضاى . وحكى الأوزاعى رحمه الله عن بلال بن سعد : أنه كان يقول ينظر أحدكم إلى الشرطى فيستعيذ بالله منه وينظر إلى علماء الدنيا المتصنعين للخلق المتشوقين إلى الرياسة فلا يمقتهم وهم أحق بالمقت من ذلك الشرطى . وروى أنه قيل « يارسول الله أى الأعمال أفضل ؟ قال اجتناب المحارم ولا يزال فوك رطبا من ذكر الله تعالى ، قيل فأى الأصحاب خير ؟ قال صلى الله عليه وسلم صاحب إن ذكرت الله أعانك وإن نسيته ذكرك ، قيل : فأى الأصحاب شر ؟ قال صلى الله عليه وسلم : صاحب إن نسيت لم يذكرك وإن ذكرت لم يعنك ، قيل : فأى الناس أعلم ؟ قال : أشدهم لله خشية ، قيل : فأخبرنا بخيارنا نجالسهم ، قال صلى الله عليه وسلم : الذين إذا رؤوا ذكر الله ، قيل : فأى الناس شر ؟ قال : اللهم غفرا ، قالوا : يارسول الله قال : العلماء إذا فسدوا (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن أكثر الناس أمانا يوم القيامة أكثرهم فكرا فى الدنيا وأكثر الناس ضحكا فى الآخرة أكثرهم بكاء فى الدنيا وأشد الناس فرحا فى الآخرة أطولهم حزنا فى الدنيا (٢) » وقال على رضى الله عنه فى خطبة له : ذمتى رهينة وأنا به زعيم إنه لا يهيج على التقوى زرع قوم ولا يظمأ على الهدى سنخ أصل ، وإن أجهل الناس من لا يعرف قدره ، وإن أبغض الخلق إلى الله تعالى رجل قمش علما أغار به فى أغباش الفتنة سماه أشباه له من الناس وأرذالهم عالما ولم يعش فى العلم يوما سالما ، تكثر واستكثر فما قل منه وكفى خير مما كثر وألهى حتى إذا ارتوى من ماء آجن وأكثر من غير طائل جلس للناس معلما لتخليص ما التبس على غيره ، فإن نزلت به إحدى المهمات هيأ لها من رأيه حشو الرأى فهو من قطع الشبهات فى مثل نسج العنكبوت لا يدرى أخطأ أم أصاب ؟ ركاب جهالات خباط عشوات لا يعتذر مما لا يعلم فيسلم ولا يعض على العلم بضرس قاطع فيغنم ، تبكى منه الدماء وتستحل بقضائه الفروج الحرام لاملىء والله بإصدار ما ورد عليه ولا هو أهل لما فوض إليه أولئك الذين حلت عليهم المثلات وحقت عليهم النياحة والبكاء أيام حياة الدنيا . وقال على رضى الله عنه : إذا سمعتم العلم فاكظموا عليه ولا تخلطوه بهزل فتمجه القلوب . وقال بعض السلف : العالم إذا ضحك ضحكة مج من العلم مجة . وقيل : إذا جمع المعلم ثلاثا تمت النعمة بها على المتعلم : الصبر والتواضع وحسن الخلق . وإذا جمع المتعلم ثلاثا تمت النعمة بها على المعلم : العقل والأدب وحسن الفهم .

وعلى الجملة فالأخلاق التى ورد بها القرآن لا ينفك عنها علماء الآخرة لأنهم يتعلمون القرآن للعمل لا للرياسة . وقال ابن عمر رضى الله عنهما : لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن وتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها وأوامرها وزواجرها وما ينبغى أن يقف عنده منها ، ولقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمة لا يدرى ما آمره وما زاجره وما ينبغى أن يقف عنده ينثره نثر الدقل (٣) . وفى خبر آخر بمثل معناه : كنا أصحاب رسول الله صلى الله

---

(١) حديث « قيل يارسول الله أى الأعمال أفضل ، قال : اجتناب المحارم ولا يزال فوك رطباً من ذكر الله ... الحديث » لم أجده هكذا بطوله ، وفى زيادات الزهد لابن المبارك من الحديث الحسن مرسلا « سئل النبى صلى الله عليه وسلم أى الأعمال أفضل ، قال : أن تموت يوم تموت ولسانك رطب من ذكر الله تعالى » وللدارمى من رواية الأحوص ابن حكيم عن أبيه مرسلا « ألا إن شر الشر شر العلماء وإن خير الخير خير العلماء » وقد تقدم .

(٢) حديث « إن أكثر الناس أمنا يوم القيامة أكثرهم خوفا فى الدنيا ... الحديث » لم أجد له أصلا .

(٣) حديث ابن عمر « لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن ... الحديث » أخرجه الحاكم وصححه على شرط الشيخين والبيهقى .

عليه وسلم أوتينا الإيمان قبل القرآن وسيأتي بعدكم قوم يؤتون القرآن قبل الإيمان يقيمون حروفه ويضيعون حدوده وحقوقه يقولون قرأنا فمن أقرأ منا وعلمنا فمن أعلم منا ؟ فذلك حظهم(١) وفى لفظ آخر : أولئك شرار هذه الأمة، وقيل خمس من الأخلاق هي من علامات علماء الآخرة مفهومة من خمس آيات من كتاب الله عز وجل : الخشية والخشوع والتواضع وحسن الخلق وإيثار الآخرة على الدنيا وهو الزهد ، فأما الخشية فمن قوله تعالى ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وأما الخشوع فمن قوله تعالى ﴿ خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا ﴾ وأما التواضع فمن قوله تعالى ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ وأما حسن الخلق فمن قوله تعالى ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾ وأما الزهد فمن قوله تعالى ﴿وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا﴾ ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ فقيل له ما هذا الشرح ؟ فقال « إن النور إذا قذف فى القلب انشرح له الصدر وانفسح » قيل : فهل لذلك من علامة ؟ قال صلى الله عليه وسلم « نعم التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله(٢) » .

ومنها أن يكون أكثر بحثه عن علم الأعمال وعما يفسدها ويشوش القلوب ويهيج الوسواس ويثير الشر فإن أصل الدين التوقى من الشر ولذلك قيل :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

ولأن الأعمال الفعلية قريبة وأقصاها بل أعلاها المواظبة على ذكر الله تعالى بالقلب واللسان وإنما الشأن فى معرفة ما يفسدها ويشوشها وهذا مما تكثر شعبه ويطول تفريعه ، وكل ذلك مما يغلب مسيس الحاجة إليه وتعم به البلوى فى سلوك طريق الآخرة ، وأما علماء الدنيا فإنهم يتبعون غرائب التفريعات فى الحكومات والأقضية ويتعبون فى وضع صور تنقضى الدهور ولا تقع أبدا ، وإن وقعت فإنما تقع لغيرهم لا لهم ، وإذا وقعت كان فى القائمين بها كثرة ، ويتركون ما يلازمهم ويتكرر عليهم آناء الليل وأطراف النهار فى خواطرهم ووساوسهم وأعمالهم ، وما أبعد عن السعادة من باع مهم نفسه اللازم بمهم غيره النادر إيثارا للتقرب والقبول من الخلق على التقرب من الله سبحانه. وشرها فى أن يسميه البطالون من أبناء الدنيا فاضلا محققا عالما بالدقائق وجزاؤه من الله أن لا ينتفع فى الدنيا بقبول الخلق بل يتكدر عليه صفوه بنوائب الزمان ثم يرد القيامة مفلسا متحسرا على ما يشاهده من ربح العاملين وفوز المقربين وذلك هو الخسران المبين . ولقد كان الحسن البصرى رحمه الله أشبه الناس كلاما بكلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأقربهم هديا من الصحابة رضى الله عنهم اتفقت الكلمة فى حقه على ذلك وكان أكثر كلامه فى خواطر القلوب وفساد الأعمال ووساوس النفوس والصفات الخفية الغامضة من شهوات النفس ، وقد قيل له : يا أبا سعيد إنك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك فمن أين أخذته ؟ قال : من حذيفة بن اليمان . وقيل لحذيفة : نراك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك من الصحابة فمن أين أخذته ؟ قال : خصنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان الناس يسألونه عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه وعلمت أن الخير لا يسبقنى علمه(٣) ، وقال مرة : فعلمت أن من

---

(١) حديث « كنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أوتينا الإيمان قبل القرآن ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث جندب مختصرا مع اختلاف .

(٢) حديث « لما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام﴾ ... الحديث» أخرجه الحاكم والبيهقى فى الزهد من حديث ابن مسعود .

(٣) حديث حذيفة « كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر ... الحديث » أخرجاه مختصراً .

لايعرف الشر لايعرف الخير . وفى لفظ آخر : كانوا يقولون يارسول الله ما لمن عمل كذا، وكذا ؟ يسألونه عن فضائل الأعمال وكنت أقول : يارسول الله مايفسد كذا وكذا ؟ فلما رآنى أسأله عن آفات الأعمال خصنى بهذا العلم وكان حذيفة رضى الله عنه أيضا قد خص بعلم المنافقين وأفرد بمعرفة علم النفاق وأسبابه ودقائق الفتن ، فكان عمر وعثمان وأكابر الصحابة رضى الله عنهم يسألونه عن الفتن العامة والخاصة ، وكان يسأل عن المنافقين فيخبر بعدد من بقى منهم ولا يخبر بأسمائهم ، وكان عمر رضى الله عنه يسأل نفسه هل يعلم فيه شيئا من النفاق ؟ فبرأه من ذلك ، وكان عمر رضى الله عنه إذا دعى إلى جنازة ليصلى عليها نظر فإن حضر حذيفة صلى عليها وإلا ترك ، وكان يسمى صاحب السر . فالعناية بمقامات القلب وأحواله دأب علماء الآخرة لأن القلب هو الساعى إلى قرب الله تعالى وقد صار هذا الفن غريبا مندرسا وإذا تعرض العالم لشىء منه استغرب واستبعد وقيل هذا تزويق المذكرين فأين التحقيق ويرون أن التحقيق فى دقائق المجادلات ولقد صدق من قال :

الطرق شتى وطرق الحق مفردة	والسالكون طريق الحق أفراد
لايعرفون ولا تدرى مقاصدهم	فهم على مهل يمشون قصاد
والناس فى غفلة عما يراد بهم	فجلهم عن سبيل الحق رقاد

وعلى الجملة فلا يميل أكثر الخلق إلا إلى الأسهل والأوفق لطباعهم فإن الحق مر والوقوف عليه صعب وإدراكه شديد وطريقه مستوعر ولا سيما معرفة صفات القلب وتطهيره عن الأخلاق المذمومة فإن ذلك نزع للروح على الدوام ، وصاحبه ينزل منزلة الشارب للدواء يصبر على مرارته رجاء الشفاء وينزل منزلة من جعل مدة العمر صومه يقاسى الشدائد ليكون فطره عند الموت . ومتى تكثر الرغبة فى هذا الطريق ؟ ولذلك قيل : إنه كان فى البصرة مائة وعشرون متكلما فى الوعظ والتذكير ولم يكن من يتكلم فى علم اليقين وأحوال القلوب وصفات الباطن إلا ثلاثة منهم — سهل التسترى والصبيحى وعبد الرحيم — وكان يجلس إلى أولئك الخلق الكثير الذى لا يحصى وإلى هؤلاء عدد يسير قلما يجاوز العشرة ، لأن النفيس العزيز لايصلح إلا لأهل الخصوص وما يبذل للعموم فأمره قريب .

ومنها أن يكون اعتماده فى علومه على بصيرته وإدراكه بصفاء قلبه لا على الصحف والكتب ولا على تقليد مايسمعه من غيره وإنما المقلد صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فيما أمر به وقاله وإنما يقلد الصحابة رضى الله عنهم من حيث إن فعلهم يدل على سماعهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم إذا قلد صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم فى تلقى أقواله وأفعاله بالقبول فينبغى أن يكون حريصا على فهم أسراره فإن المقلد إنما يفعل الفعل لأن صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم فعله ، وفعله لابد وأن يكون لسر فيه فينبغى أن يكون شديد البحث عن أسرار الأعمال والأقوال فإنه إن اكتفى بحفظ ما يقال كان وعاء للعلم ولا يكون عالما . ولذلك كان يقال : فلان من أوعية العلم ؛ فلا يسمى عالما إذا كان شأنه الحفظ من غير اطلاع على الحكم والأسرار . ومن كشف عن قلبه الغطاء واستنار بنور الهداية صار فى نفسه متبوعا مقلداً فلا ينبغى أن يقلد غيره . ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما : مامن أحد إلا يؤخذ من علمه ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) وقد كان تعلم من زيد بن ثابت الفقه وقرأ على أبى بن كعب ثم خالفهما فى الفقه

---

(١) حديث ابن عباس «ما من أحد إلا يؤخذ من علمه ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم» أخرجه الطبرانى من حديثه يرفعه بلفظه « من قوله وبدع » .

والقراءة جميعا . وقال بعض السلف : ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلناه على الرأس والعين وما جاءنا عن الصحابة رضى الله عنهم فنأخذ منه ونترك وما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال . وإنما فضل الصحابة لمشاهدتهم قرائن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتلاق قلوبهم أموراً أدركت بالقرائن فسددهم ذلك إلى الصواب من حيث لايدخل فى الرواية والعبارة إذ فاض عليهم من نور النبوة مايحرسهم فى الأكثر عن الخطأ . وإذا كان الاعتماد على المسموع من الغير تقليداً غير مرضى فالاعتماد على الكتب والتصانيف أبعد . بل الكتب والتصانيف محدثة لم يكن شىء منها فى زمن الصحابة وصدر التابعين وإنما حدثت بعد سنة مائة وعشرين من الهجرة وبعد وفاة جميع الصحابة وجلة التابعين رضى الله عنهم وبعد وفاة سعيد بن المسيب والحسن وخيار التابعين ، بل كان الأولون يكرهون كتب الأحاديث وتصنيف الكتب لئلا يشتغل الناس بها عن الحفظ وعن القرآن وعن التدبر والتذكر وقالوا : احفظوا كما كنا نحفظ ، ولذلك كره أبو بكر وجماعة من الصحابة رضى الله عنهم تصحيف القرآن فى مصحف وقالوا : كيف نفعل شيئاً ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وخافوا اتكال الناس على المصاحف وقالوا : نترك القرآن يتلقاه بعضهم من بعض بالتلقين والإقراء ليكون هذا شغلهم وهمهم : حتى أشار عمر رضى الله عنه وبقية الصحابة بكتب القرآن خوفا من تخاذل الناس وتكاسلهم وحذراً من أن يقع نزاع فلا يوجد أصل يرجع إليه فى كلمة أو قراءة من المتشابهات فانشرح صدر أبى بكر رضى الله عنه لذلك فجمع القرآن فى مصحف واحد . وكان أحمد بن حنبل ينكر على مالك فى تصنيفه الموطأ ويقول : ابتدع ما لم تفعله الصحابة رضى الله عنهم وقيل : أول كتاب صنف فى الإسلام كتاب ابن جريج فى الآثار وحروف التفاسير عن مجاهد وعطاء وأصحاب ابن عباس رضى الله عنهم بمكة ، ثم كتاب معمر بن راشد الصنعانى باليمن جمع فيه سننا مأثورة نبوية ، ثم كتاب الموطأ بالمدينة لمالك بن أنس ، ثم جامع سفيان الثورى . ثم فى القرن الرابع حدثت مصنفات الكلام وكثر الخوض فى الجدال والغوص فى إبطال المقالات ، ثم مال الناس إليه وإلى القصص والوعظ بها فأخذ علم اليقين فى الاندراس من ذلك الزمان فصار بعد ذلك يستغرب علم القلوب والتفتيش عن صفات النفس ومكايد الشيطان وأعرض عن ذلك إلا الأقلون ، فصار يسمى المجادل المتكلم عالما والقاص المزخرف كلامه بالعبارات المسجعة عالما ، وهذا لأن العوام هم المستمعون إليهم فكان لا يتميز لهم حقيقة العلم من غيره ، ولم تكن سيرة الصحابة رضى الله عنهم وعلومهم ظاهرة عندهم حتى كانوا يعرفون بها مباينة هؤلاء لهم فاستمر عليهم اسم العلماء وتوارث اللقب خلف عن سلف وأصبح علم الآخرة مطويا ، وغاب عنهم الفرق بين العلم والكلام إلا عن الخواص منهم كانوا إذا قيل لهم : فلان أعلم أم فلان ؟ يقولون : فلان أكثر علما وفلان أكثر كلاما ، فكان الخواص يدركون الفرق بين العلم وبين القدرة على الكلام . هكذا ضعف الدين فى قرون سالفة فكيف الظن بزمانك هذا ؟ وقد انتهى الأمر إلى أن مظهر الإنكار يستهدف لنسبته إلى الجنون فالأولى أن يشتغل الإنسان بنفسه ويسكت ، ومنها أن يكون شديدالتوقى من محدثات الأمور وإن اتفق عليها الجمهور فلايغرنه إطباق الخلق على ما أحدث بعد الصحابة رضى الله عنهم وليكن حريصاعلى التفتيش عن أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم وما كان فيه أكثر همهم أكان فى التدريس والتصنيف والمناظرة والقضاءوالولاية وتولى الأوقاف والوصاياوأكل مال الأيتام ومخالطة السلاطين ومجاملتهم فى العشرة ؟ أم كان فى الخوف والحزن والتفكر والمجاهدة ومراقبة الظاهر والباطن واجتناب دقيق الإثم وجليله والحرص على إدراك خفايا شهوات النفوس ومكايد الشيطان إلى غير ذلك من علوم الباطن ؟

واعلم تحقيقا أن أعلم أهل الزمان وأقربهم إلى الحق أشبههم بالصحابة وأعرفهم بطريق السلف فمنهم أخذ الدين . ولذلك قال على رضى الله عنه « خيرنا أتبعنا لهذا الدين » لما قيل له : خالفت فلانا . فلا ينبغى أن

يكترث بمخالفة أهل عصر رسول الله صلى الله عليه فإن الناس رأوا رأيا فما هم فيه لميل طباعهم إليه ولم تسمح نفوسهم بالاعتراف بأن ذلك سبب الحرمان من الجنة فادعوا أنه لاسبيل إلى الجنة سواه ، ولذلك قال الحسن ، محدثان أحدثا فى الإسلام : رجل ذو رأى سيء زعم أن الجنة لمن رأى مثل رأيه ، ومترف يعبد الدنيا لها يغضب ولها يرضى وإياها يطلب فارفضوهما إلى النار ، وإن رجلا أصبح فى هذه الدنيا بين مترف يدعوه إلى دنياه وصاحب هوى يدعوه إلى هواه وقد عصمه الله تعالى منهما يحن إلى السلف الصالح يسأل عن أفعالهم ويقتفى آثارهم متعرض لأجر عظيم فكذلك كونوا . وقد روى عن ابن مسعود موقوفا ومسنداً أنه قال : « إنما هما اثنتان الكلام والهدى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ألا وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن شر الأمور محدثاتها ، وإن كل محدثه بدعة ، وإن كل بدعة ضلالة ، ألا لا يطولن عليكم الأمد فتقسوا قلوبكم ، ألا كل ماهو آت قريب ، الا إن البعيد ماليس بآت (١) » وفى خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وأنفق من مال اكتسبه من غير معصية وخالط ألا الفقه والحكم وجانب أهل الزلل والمعصية ، طوبى لمن ذل فى نفسه وحسنت خليقته وصلحت سريرته وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن عمل بعلمه وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله ووسعته السنة ولم يعدها إلى بدعة (٢) » وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول : حسن الهدى فى آخر الزمان خير من كثير من العمل ، وقال : أنتم فى زمان خيركم فيه المسارع فى الأمور وسيأتى بعدكم زمان يكون خيرهم فيه المتثبت المتوقف لكثرة الشبهات . وقد صدق فمن لم يتوقف فى هذا الزمان ووافق الجماهير فيما هم عليه وخاض فيما خاضوا فيه هلك كما هلكوا . وقال حذيفة رضى الله عنه : أعجب من هذا أن معروفكم اليوم منكر زمان قد مضى وأن منكركم اليوم معروف زمان قد أتى وإنكم لاتزالون بخير ماعرفتم الحق وكان العالم فيكم غير مستخف به . ولقد صدق فإن أكثر معروفات هذه الأعصار منكرات فى الصحابة رضى الله عنهم إذ من غرر المعروفات فى زماننا تزيين المساجد وتنجيدها وإنفاق الأموال العظيمة فى دقائق عماراتها وفرش البسط الرفيعة فيها ، ولقد كان يعد فرش البوارى فى المسجد بدعة ، وقيل إنه من محدثات الحجاج . فقد كان الأولون قلما يجعلون بينهم وبين التراب حاجزا . وكذلك الاشتغال بدقائق الجدل والمناظرة من أجل علوم أهل الزمان ويزعمون أنه من أعظم القربات ، وقد كان من المنكرات . ومن ذلك التلحين فى القرآن والأذان . ومن ذلك التعسف فى النظافة والوسوسة فى الطهارة وتقدير الأسباب البعيدة فى نجاسة الثياب مع التساهل فى حل الأطعمة وتحريمها إلى نظائر ذلك . ولقد صدق ابن مسعود رضى الله عنه حيث قال : أنتم اليوم فى زمان الهوى فيه تابع للعلم وسيأتى عليكم زمان يكون العلم فيه تابعا للهوى . وقد كان أحمد بن حنبل يقول اتركو العلم وأقبلوا على الغرائب ماأقل العلم فيهم والله المستعان وقال مالك بن أنس رحمه الله : لم تكن الناس فيما مضى يسألون عن هذه الأمور كما يسأل الناس اليوم ولم يكن العلماء يقولون حرام ولا حلال ولكن أدركتهم يقولون مستحب ومكروه

---

(١) حديث ابن مسعود « إنما هما اثنتان الكلام والهدى ... الحديث » أخرجه ابن ماجه .

(٢) حديث « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، أنفق مالا اكتسبه ... الحديث » أخرجه أبى نعيم من حديث الحسين بن على بسند ضعيف والبزار من حديث أنس أول الحديث وآخره والطبرانى والبيهقى من حديث ركيب المصرى وسط الحديث وكلفها ضعيفه .

(ومعناه أنهم كانوا ينظرون فى دقائق الكراهة والاستحباب فأما الحرام فكان فحشه ظاهرا) وكان هشام بن عروة يقول : لاتسألوهم اليوم عما أحدثوه بأنفسهم فإنهم قدأعدوا له جوابا ولكن سلوهم عن السنة فإنهم لا يعرفونها . وكان أبو سليمان الدارانى رحمه الله يقول : لاينبغى لمن ألهم شيئا من الخير أن يعمل به حتى يسمع به فى الأثر فيحمد الله تعالى إذ وافق مافى نفسه ، وإنما قال هذا لأن ماقد أبدع من الآراء قد قرع الأسماع وعلق بالقلوب وربما يشوش صفاء القلب فيتخيل بسببه الباطل حقا فيحتاط فيه بالاستظهار بشهادة الآثار . ولهذا لما أحدث مروان المنبر فى صلاة العيد عند المصلى قام إليه أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه فقال : يامروان ماهذه البدعة ؟ فقال : إنها ليست ببدعة إنها خير مما تعلم إن الناس قد كثروا فأردت أن يبلغهم الصوت ، فقال أبو سعيد : والله لا تأتون بخير مما أعلم أبداً ووالله لاصليت وراءك اليوم وإنما أنكر ذلك عليه « لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتوكأ فى خطبة العيد والاستسقاء على قوس أو عصا لا على المنبر (١) » وفى الحديث المشهور « من أحدث فى ديننا ماليس منه فهو رد (٢) » وفى خبر آخر « من غش أمتى فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، قيل : يارسول الله وما غش أمتك ؟ قال : أن يبتدع بدعه يحمل الناس عليها (٣) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله عز وجل ملكا ينادى كل يوم من خالف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تنله شفاعته (٤) » ومثال الجانى على الدين بإبداع مايخالف السنة بالنسبة إلى من يذنب ذنبا مثال من عصى الملك فى قلب دولته بالنسبة إلى من خالف أمره فى خدمة معينة ، وذلك قد يغفر له فأما قلب الدولة فلا . وقال بعض العلماء : ما تكلم فيه السلف فالسكوت عنه جفاء وماسكت عنه السلف فالكلام فيه تكلف . وقال غيره : الحق ثقيل من جاوزه ظلم ومن قصر عنه عجز ومن وقف معه اكتفى . وقال صلى الله عليه وسلم « عليكم بالنمط الأوسط الذى يرجع إليه العالى ويرتفع إليه التالى (٥) » وقال ابن عباس رضى الله عنهما : الضلالة لها حلاوة فى قلوب أهلها قال الله تعالى ﴿ وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا ﴾ وقال تعالى ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ﴾ فكل ماأحدث بعد الصحابة رضى الله عنهم مما جاوز قدر الضرورة والحاجة فهو من اللعب واللهو . وحكى عن إبليس لعنه الله أنه بث جنوده فى وقت الصحابة رضى الله عنهم فرجعوا إليه محسورين فقال : ماشأنكم ؟ قالوا : مارأينا مثل هؤلاء ما نصيب منهم شيئا وقد أتعبونا ! فقال : إنكم لاتقدرون عليهم قد صحبوا نبيهم وشهدوا تنزيل ربهم ولكن سيأتى بعدهم قوم تنالون منهم حاجتكم ، فلما جاء التابعون بث جنوده فرجعوا إليه منكسين فقالوا : مارأينا أعجب من هؤلاء نصيب منهم الشىء بعد الشىء من الذنوب فإذا كان آخر النهار أخذوا فى الاستغفار فيبدل الله سيئاتهم حسنات ! فقال : إنكم لن تنالوا من هؤلاء شيئا لصحة توحيدهم واتباعهم لسنة نبيهم ولكن سيأتى بعد هؤلاء قوم تقر أعينكم بهم تلعبون بهم لعبا وتقودونهم بأزمة أهوائهم كيف شئتم إن استغفروا لم يغفر لهم ولا يتوبون فيبدل الله سيئاتهم

(١) حديث « كان يتوكأ فى خطبة العيد والاستسقاء على قوس أو عصا » أخرجه الطبرانى من حديث البراء ونحوه فى يوم الأضحى ليس فيه الاستسقاء وهو ضعيف ، ورواه فى الصغير من حديث سعد القرظى « كان إذا خطب فى العيدين خطب على قوس وإذا خطب فى الجمعة خطب على عصا » وهو عند ابن ماجه بلفظ : كان إذا خطب فى الحرب خطب على قوس ... الحديث .

(٢) حديث « من أحدث فى ديننا ماليس فيه فهو رد » متفق عليه من حديث عائشة بلفظ « فى أمرنا ماليس منه » وعند أبى داود « فيه » .

(٣) حديث « من غش أمتى فعليه لعنة الله ... الحديث » أخرجه الدارقطنى فى الأفراد من حديث أنس بسند ضعيف جدا .

(٤) حديث « إن لله ملكا ينادى كل يوم من خالف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تنله شفاعته » لم أجد له أصلا

(٥) حديث « عليكم بالنمط الأوسط ... الحديث » أخرجه أبو عبيد فى غريب الحديث موقوفا على على بن أبى طالب ولم أجده مرفوعا .

حسنات ، قال : فجاء قوم بعد القرن الأول فبث فيهم الأهواء وزين لهم البدع فاستحلوها واتخذوها دينا لا يستغفرون الله منها ولا يتوبون عنها فسلط عليهم الأعداء وقادوهم أين شاءوا .

* فإن قلت : من أين عرف قائل هذا ما قاله إبليس ولم يشاهد إبليس ولا حدثه بذلك ؟

فاعلم أن أرباب القلوب يكاشفون بأسرار الملكوت تارة على سبيل الإلهام بأن يخطر لهم على سبيل الورود عليهم من حيث لا يعلمون وتارة على سبيل الرؤيا الصادقة وتارة في اليقظة على سبيل كشف المعاني بمشاهدة الأمثلة كما يكون في المنام . وهذا أعلى الدرجات وهي من درجات النبوة العالية كما أن الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة . فإياك أن يكون حظك من هذا العلم إنكار ما جاوز حد قصورك ففيه هلك المتحذلقون من العلماء الزاعمون أنهم أحاطوا بعلوم العقول ، فالجهل خير من عقل يدعو إلى إنكار مثل هذه الأمور لأولياء الله تعالى ، ومن أنكر ذلك للأولياء لزمه إنكار الأنبياء وكان خارجا عن الدين بالكلية . قال بعض العارفين : إنما انقطع الأبدال في أطراف الأرض واستتروا عن أعين الجمهور لأنهم لا يطيقون النظر إلى علماء الوقت لأنهم عندهم جهال بالله تعالى وهم عند أنفسهم وعند الجاهلين علماء . قال سهل التستري رضي الله عنه : إن من أعظم المعاصي الجهل بالجهل والنظر إلى العامة واستماع كلام أهل الغفلة . وكل عالم خاض في الدنيا فلا ينبغي أن يصغى إلى قوله بل ينبغي أن يتهم في كل ما يقول لأن كل إنسان يخوض فيما أحب ويدفع ما لا يوافق محبوبه ، ولذلك قال الله عز وجل ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾ والعوام العصاة أسعد حالا من الجهال بطريق الدين المعتقدين أنهم من العلماء ؛ لأن العامي العاصي معترف بتقصيره فيستغفر ويتوب وهذا الجاهل الظان أنه عالم وأن ما هو مشتغل به من العلوم التي هي وسائله إلى الدنيا عن سلوك طريق الدين فلا يتوب ولا يستغفر ، بل لا يزال مستمرا عليه إلى الموت . وإذ غلب هذا على أكثر الناس إلا من عصمه الله تعالى وانقطع الطمع من إصلاحهم فالأسلم لذي الدين المحتاط العزلة والانفراد عنهم - كما سيأتي في كتاب العزلة بيانه إن شاء الله تعالى - ولذلك كتب يوسف بن أسباط إلى حذيفة المرعشي : ما ظنك بمن بقي لا يجد أحدا يذكر الله تعالى معه إلا كان آثما أو كانت مذاكرته معصية وذلك أنه لا يجد أهله ؟ ولقد صدق فإن مخالطة الناس لا تنفك عن غيبة أو سماع غيبة أو سكوت على منكر وأن أحسن أحواله أن يفيد علما أو يستفيده ولو تأمل هذا المسكين وعلم أن إفادته لا تخلو عن شوائب الرياء وطلب الجمع والرياسة علم أن المستفيد إنما يريد أن يجعل ذلك آلة إلى طلب الدنيا ووسيلة إلى الشر فيكون هو معينا له على ذلك ورداء وظهيرا ومهيئا لأسبابه كالذي يبيع السيف من قطاع الطريق . فالعلم كالسيف وصلاحه للخير كصلاح السيف للغزو ، ولذلك لا يرخص له في البيع ممن يعلم بقرائن أحواله أنه يريد به الاستعانة على قطع الطريق . فهذه اثنتا عشرة علامة من علامات علماء الآخرة تجمع كل واحدة منها جملة من أخلاق علماء السلف ، فكن أحد رجلين إما متصفا بهذه الصفات أو معترفا بالتقصير مع الإقرار به وإياك أن تكون الثالث فتلبس على نفسك بأن تبدل آلة الدنيا بالدين وتشبه سيرة البطالين بسيرة العلماء الراسخين وتلتحق بجهلك وإنكارك بزمرة الهالكين الآيسين . نعوذ بالله من خدع الشيطان ، فبها هلك الجمهور . فنسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن لا تغره الحياة الدنيا ولا يغره بالله الغرور .

الباب السابع

في العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه ، بيان شرف العقل

اعلم أن هذا مما لا يحتاج إلى تكلف في إظهاره لا سيما وقد ظهر شرف العلم من قبل العقل ، والعقل منبع العلم

ومطلعه وأساسه والعلم يجرى منه مجرى الثمرة من الشجرة والنور من الشمس والرؤية من العين فكيف لا يشرف ماهو وسيلة السعادة فى الدنيا والآخرة ؟ أوكيف يستراب فيه والبهيمة مع قصور تمييزها تحتشم العقل حتى إن أعظم البهائم بدنا واشدها ضراوة وأقواها سطوة إذا راى صورة الإنسان احتشمه وهابه لشعوره باستيلائه عليه لما خص به من إدراك الحيل . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « الشيخ فى قومه كالنبى فى أمته [(١)] » وليس ذلك لكثرة ماله ولا لكبر شخصه ولا لزيادة قوته بل لزيادة تجربته التى هى ثمرة عقله . ولذلك ترى الأتراك والأكراد وأجلاف العرب وسائر الخلق مع قرب منزلتهم من رتبة البهائم يوقرون المشايخ بالطبع . ولذلك حين قصد كثير من المعاندين قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما وقعت أعينهم عليه واكتحلوا بغرته الكريمة هابوه وتراءى لهم ما كان يتلألأ على ديباجة وجهه من نور النبوة وإن كان ذلك باطنا فى نفسه بطون العقل فشرف العقل مايدرك بالضرورة ؛ وإنمـــا القصد أن نورد ماوردت به الأخبار والايات فى ذكر شرفه وقد سماه الله نورا فى قوله تعالى ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة ﴾ وسمى العلم المستفاد منه روحا ووحيا وحياة فقال تعالى ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ﴾ وقال سبحانه ﴿ أومن كان ميتا فأحييناه وجعلناله نورا يمشى به الناس ﴾ وحيث ذكر النور والظلمة أراد به العلم والجهل كقوله ﴿ يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « ياأيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصو بالعقل تعرفوا ماأمرتم به ومانهيتم عنه واعلموا أنه ينجدكم عند ربكم واعلموا أن العاقل من أطاع الله وإن كان دميم المنظر حقير الخطر دنىء المنزلة رث الهيئة ، وأن الجاهل من عصى الله تعالى وإن كان جميل المنظر عظيم الخطر شريف المنزلة حسن الهيئة فصيحا نطوقا فالقردة والخنازير أعقل عند الله تعالى ممن عصاه ، ولا تغتر بتعظيم أهل الدنيا إياكم فإنهم من الخاسرين [(٢)] » . وقال صلى الله عليه وسلم « أول ماخلق الله العقل ، فقال له : أقبل فأقبل ، ثم قال له : أدبر فأدبر ، ثم قال له الله عزوجل وعزتى وجلالى ماخلقت خلقا أكرم على منك ، بك آخذ وبك أعطى وبك أثيب وبك أعاقب [(٣)] » .

فإن قلت : فهذا العقل إن كان عرضا فكيف خلق قبل الأجسام ؟ وإن كان جوهرا فكيف يكون جوهر قائم بنفسه ولا يتحيز ؟

فاعلم أن هذا من علم المكاشفة فلا يليق ذكره بعلم المعاملة ، وغرضنا الآن ذكر علوم المعاملة . وعن أنس رضى الله عنه قال « أثنى قوم على رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا فقال صلى الله عليه وسلم كيف عقل الرجل ؟ فقالوا : نخبرك عن اجتهاده فى العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « إن الأحمق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر وإنما يرتفع العباد غدا فى الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم [(٤)] » . وعن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدى صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى

الباب السابع فى العقل

(١) حديث « الشيخ فى قومه كالنبى فى أمته » أخرجه ابن حبان فى الضعفاء من حديث ابن عمر وأبو منصور الديلمى من حديث أبى رافع بسند ضعيف .

(٢) حديث « يأيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصو بالعقل... الحديث» أخرجه داود بن المحبر أحد الضعفاء فى كتاب العقل من حديث أبى هريرة ، وهو فى مسند الحرث بن أبى أسامة عن داود .

(٣) حديث « أول ماخلق الله العقل قال له أقبل ... الحديث» أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى أمامة وأبو نعيم من حديث عائشه بإسنادين ضعيفين .

(٤) حديث أنس «أثنى قوم على رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا فى الثناء فقال كيف عقل الرجل ... الحديث» . أخرجه ابن المحبر فى العقل بتمامه والترمذى الحكيم فى النوادر مختصراً .

وما تم إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله[١] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله فعند ذلك تم إيمانه وأطاع ربه وعصى عدوه إبليس[٢] » وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكل شىء دعامة ودعامة المؤمن عقله فبقدر عقله تكون عبادته أما سمعتم قول الفجار فى النار « لوكنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير[٣] » وعن عمر رضى الله عنه قال لتميم الدارى « ما السؤدد فيكم ؟ قال : العقل ، قال : صدقت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتك فقال كما قلت ، ثم قال سألت جبريل عليه السلام ما السؤدد ؟ فقال : العقل[٤] » وعن البراء ابن عازب رضى الله عنه قال : كثرت المسائل يوما على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا أيها الناس إن لكل شىء مطية ومطية المرء العقل وأحسنكم دلالة ومعرفة بالحجة أفضلكم عقلا[٥] » وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة أحد سمع الناس يقولون : فلان أشجع من فلان وفلان أبلى ما لم يبل فلان ونحو هذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هذا فلا علم لكم به ، قالوا : وكيف ذلك يارسول الله؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إنهم قاتلوا على قدر ما قسم الله لهم من العقل وكانت نصرتهم ونيتهم على قدر عقولهم فأصيب منهم من أصيب على منازل شتى فإذا كان يوم القيامة اقتسموا المنازل على قدر نياتهم وقدر عقولهم[٦] » وعن البراء بن عازب أنه صلى الله عليه وسلم قال « جد الملائكة واجتهدوا فى طاعة الله سبحانه وتعالى بالعقل وجد المؤمنون من بنى آدم على قدر عقولهم فأعملهم بطاعة الله عز وجل أوفرهم عقلا (٧) » ، وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « قلت يا رسول بم يتفاضل الناس فى الدنيا ؟ قال : بالعقل ، قلت : وفى الآخرة ؟ قال : بالعقل ، وقلت : أليس إنما يجزون بأعمالهم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : يا عائشة وهل عملوا إلا بقدر ماأعطاهم عز وجل من العقل؟ فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم وبقدر ماعملوا يجزون(٨) » وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكل شىء آلة وعدة وإن آلة المؤمن العقل ولكل شىء مطية ومطية المرء العقل ولكل شىء دعامة ودعامة الدين العقل ولكل قوم غاية وغاية العباد العقل ولكل قوم داع وداعى العابدين العقل ولكل تاجر بضاعة وبضاعة المجتهدين العقل ولكل أهل بيت قيم وقيم بيوت الصديقين العقل ولكل خراب

---

(١) حديث عمر «ما اكتسب رجل مثل فضل عقل .. الحديث» أخرجه المحبر فى العقل وعنه الحرث ابن أبى أسامة

(٢) حديث «إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله ...» أخرجه ابن المحبر من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده به والحديث عند الترمذى مختصراً دون قوله « ولا يتم » من حديث عائشة وصححه

(٣) حديث أبى سعيد « لكل شىء دعامة ودعامة المؤمن عقله ... الحديث أخرجه ابن المحبر وعنه الحرث .

(٤) حديث أنه قال لتميم الدارى « ما السؤدد فيكم ، قال العقل قال صدقت سألت رسول الله صلى عليه وسلم... الحديث » أخرجه ابن المحبر وعنه الحرث .

(٥) حديث البراء « كثرت المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يأيها الناس إن لكل شىء مطية... الحديث » أخرجه ابن المحبر وعنه الحرث

(٦) حديث أبى هريرة « لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة أحد سمع الناس يقولون كان فلان أشجع من فلان ... الحديث » أخرجه ابن المحبر .

(٧) حديث البراء بن عازب « جد الملائكة واجتهدوا فى طاعة الله بالعقل ... الحديث » أخرجه ابن المحبر كذلك وعنه الحارث فى مسنده ، ورواه البغوى فى معجم الصحابة من حديث ابن عازب رجل من الصحابة غير البرء وهو بالسند الذى رواه ابن المجبر .

(٨) حديث عائشة « قالت يارسول الله بأى شىء يتفاضل الناس فى الدنيا قال بالعقل... الحديث» أخرجه ابن المحبر والترمذى الحكيم فى النوادر نحوه .

عمارة وعمارة الآخرة العقل ، ولكل امرىء عقب ينسب إليه ويذكر به وعقب الصديقين الذى ينسبون إليه ويذكرون به العقل ، ولكل سفر فسطاط وفسطاط المؤمنين العقل(١) » وقال صلى الله عليه وسلم «إن أحب المؤمنين إلى الله عز وجل من نصب فى طاعة الله عز وجل ونصح لعباده وكمل عقله ونصح نفسه فأبصر وعمل به أيام حياته فأفلح وأنجح(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « أتمكم عقلا أشدكم لله تعالى خوفا وأحسنكم فيما أمركم به ونهى عنه نظرا وإن كان أقلكم تطوعا(٣) » .

بيان حقيقة العقل وأقسامه

اعلم أن الناس اختلفوا فى حد العقل وحقيقته وذهل الأكثرون عن كون هذا الاسم مطلقا على معان مختلفة فصار ذلك سبب اختلافهم . والحق الكاشف للغطاء فيه أن العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان ـ كما يطلق اسم العين مثلا على معان عدة وما يجرى هذا المجرى فلا ينبغى أن يطلب لجميع أقسامه حد واحد بل يفرد كل قسم بالكشف عنه .

فالأول : الوصف الذى يفارق الإنسان به سائر البهائم وهو الذى استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية وهو الذى أراده الحرث بن أسد المحاسبى حيث قال فى حد العقل : إنه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية وكأنه نور يقذف فى القلب به يستعد لإدراك الأشياء ولم ينصف من أنكر هذا ورد العقل إلى مجرد العلوم الضرورية فإن الغافل عن العلوم والنائم يسميان غافلين باعتبار وجود هذه الغريزة فيهما مع فقد العلوم . وكما أن الحياة غريزة بها يتهيأ الجسم للحركات الاختيارية والإدراكات الحسية فكذلك العقل غريزة بها تتهيأ بعض الحيوانات للعلوم النظرية ولو جاز أن يسوى بين الإنسان والحمار فى الغريزة والإدراكات الحسية فيقال لا فرق بينهما إلا أن الله تعالى بحكم إجراء العادة يخلق فى الإنسان علوما وليس يخلقها فى الحمار والبهائم لجاز أن يسوى بين الحمار والجماد فى الحياة ، ويقال لا فرق إلا أن الله عز وجل يخلق فى الحمار حركات مخصوصة بحكم إجراء العادة . فإنه لو قدر الحمار جمادا ميتا لوجب القول بأن كل حركة تشاهد منه فالله سبحانه وتعالى قادر على خلقها فيه على الترتيب المشاهد . وكما وجب أن يقال لم يكن مفارقته للجماد فى الحركات إلا بغريزة اختصت به عبر عنها بالحياة فكذا مفارقة الإنسان البهيمة فى إدراك العلوم النظرية بغريزة يعبر عنها بالعقل وهو كالمرآة التى تفارق غيرها من الأجسام فى حكاية الصور والألوان بصفة اختصت بها وهى الصقالة . وكذلك العين تفارق الجبهة فى صفات وهيئات بها استعدت للرؤية فنسبة هذه الغريزة إلى العلوم كنسبة العين إلى الرؤية ونسبة القرآن والشرع إلى هذه الغريزة فى سياقها إلى انكشاف العلوم لها كنسبة نور الشمس إلى البصر فهكذا ينبغى أن تفهم هذه الغريزة .

الثانى : هى العلوم التى تخرج إلى الوجود فى ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد وأن الشخص الواحد لا يكون فى مكانين فى وقت واحد ، وهو الذى عناه بعض المتكلمين حيث قال فى حد العقل : إنه بعض العلوم الضرورية كالعلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات وهو أيضا صحيح فى نفسه لأن هذه العلوم موجودة وتسميتها عقلا ظاهر وإنما الفاسد أن تنكر تلك الغريزة ويقال لا موجود إلا هذه العلوم .

الثالث : علوم تستفاد من التجارب بمجارى الأحوال فإن من حنكته التجارب وهذبته المذاهب يقال إنه عاقل فى العادة ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال إنه غبي غمر جاهل ، فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلا .

---

(١) حديث ابن عباس «لكل شىء آلة وعدة وإن آلة المؤمن العقل ... الحديث» أخرجه ابن المحبر وعنه الحارث
(٢) حديث «إن أحب المؤمنين إلى الله من نصب فى طاعة الله ... الحديث» أخرجه ابن المحبر من حديث ابن عمر، ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بإسناد آخر ضعيف .
(٣) حديث « أتمكم عقلا أشدكم لله خوفا ... الحديث » أخرجه ابن المحبر من حديث أبى قتادة .

الرابع : أن تنتهى قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها فإذا حصلت هذه القوة سمى صاحبها عاقلا من حيث إن إقدامه وإحجامه بحسب مايقتضيه النظر فى العواقب لابحكم الشهوة العاجلة وهذه أيضا من خواص الإنسان التى بها يتميز عن سائر الحيوان ، فالأول: هو الأس والسنخ والمنبع. والثانى : هو الفرع الأقرب إليه . والثالث : فرع الأول والثانى ، إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد علوم التجارب . والرابع : هو الثمرة الأخيرة وهى الغاية القصوى ، فالأولان بالطبع والأخيران بالاكتساب . ولذلك قال على كرم الله وجهه :

رأيت العقل عقلين فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع
كما لاتنفع الشمس وضوء العين ممنوع

والأول هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم «ماخلق الله عز وجل خلقا أكرم عليه من العقل(١) » والأخير هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم «إذا تقرب الناس بأبواب البر والأعمال الصالحة فتقرب أنت بعقلك(٢)» وهو المراد بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى الدرداء رضى الله عنه «ازدد عقلا تزدد من ربك قربا ، فقال : بأبى أنت وأمى ؛ وكيف لى بذلك ؟ فقال : اجتنب محارم الله تعالى وأد فرائض الله سبحانه تكن عاقلا واعمل بالصالحات من الأعمال تزدد فى عاجل الدنيا رفعة وكرامة وتنل فى آجل العقبى بها من ربك عز وجل القرب والعز(٣) » وعن سعيد بن المسيب «أن عمر وأبى كعب وأبا هريرة رضى الله عنهم دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله من أعلم الناس ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : العاقل ؟ قالوا : فمن أعبد الناس ؟ قال : العاقل ، قالوا : فمن أفضل الناس ؟ قال العاقل قالوا : أليس العاقل من تمت مروءته وظهرت فصاحته وجادت كفه وعظمت منزلته؟ فقال صلى الله عليه وسلم ﴿ وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ﴾ إن العاقل هو المتق وإن كان فى الدنيا خسيسا ذليلا(٤) » قال صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر « إنما العاقل من آمن بالله وصدق رسله وعمل بطاعته(٥)» ويشبه أن يكون أصل الاسم فى أصل اللغة لتلك الغريزة وكذلك فى الاستعمال وإنما أطلق على العلوم من حيث إنها ثمرتها كما يعرف الشيء بثمرته فيقال : العلم هو الخشية والعالم من يخشى الله تعالى . فإن الخشية ثمرة العلم فتكون كالمجاز لتلك الغريزة ولكن ليس الغرض البحث عن اللغة . والمقصود أن هذه الأقسام الأربعة موجودة والاسم يطلق على جميعها ولا خلاف فى وجود جميعها إلا فى القسم الأول ، والصحيح وجودها بل هى الأصل . وهذه العلوم كأنها مضمنة فى تلك الغريزة بالفطرة ولكن تظهر فى الوجود إذا جرى سبب يخرجها إلى الوجود حتى كأن هذه العلوم ليست بشيء وارد عليها من خارج وكأنها كانت مستكنة فيها فظهرت ، ومثاله الماء فى الأرض ،فإنه يظهر بحفر البئر ويجتمع ويتميز بالحس لا بأن يساق إليها شيء جديد ، وكذلك الدهن فى اللوز ، وماء الورد فى الورد ولذلك قال تعالى ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم

---

(١) حديث « ماخلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل أخرجه الترمذى الحكيم فى النوادر بسند ضعيف من رواية الحسن عن عدة من الصحابة .

(٢) حديث « إذا تقرب الناس بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك » أخرجه أبونعيم فى الحلية من حديث على « إذا اكتسب الناس من أنواع البر ليتقربوا بها إلى ربنا عز وجل فاكتسب أنت من أنواع العقل تسبقهم بالزلفة والقرب » وإسناده ضعيف .

(٣) حديث «ازدد عقلا تزدد من ربك قربا ... الحديث» قاله لأبى الدرداء أخرجه ابن المحبر ومن طريقة الحارث ابن أبى أسامة والترمذى الحكيم فى النوادر .

(٤) حديث ابن المسيب «أن عمر وأبى بن كعب وأبا هريرة دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يارسول الله من أعلم الناس فقال العاقل ... الحديث » أخرجه ابن المحبر .

(٥) حديث إنما العاقل من آمن بالله وصدق رسله وعمل بطاعته » أخرجه ابن المحبر من حديث سعيد بن المسيب

ألست بربكم قالوا بلى ﴾ فالمراد به إقرار نفوسهم لا إقرار الألسنة فإنهم انقسموا فى إقرار الألسنة حيث وجدت الألسنة والأشخاص إلى مقر والى جاحد ولذلك قال تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ معناه إن اعتبرت أحوالهم شهدت بذلك نفوسهم وبواطنهم ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها ﴾ أى كل آدمى فطر على الإيمان بالله عز وجل بل على معرفة الأشياء على ما هى عليه أعنى أنها كالمضمنة فيها لقرب استعدادها للادراك . ثم لما كان الإيمان مركوزاً فى النفوس بالفطرة انقسم الناس إلى قسمين : إلى من أعرض فنسى وهم الكفار ، وإلى من أجال خاطره فتذكر فكان كمن حمل شهادة فنسيها بغفلة ثم تذكرها . ولذلك قال عز وجل ﴿ لعلهم يتذكرون ـ وليتذكر أولوا الألباب ـ واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به ـ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ وتسمية هذا النمط تذكرا ليس ببعيد فكأن التذكر ضربان ؛ أحدهما : أن يذكر صورة كانت حاضرة الوجود فى قلبه لكن غابت بعد الوجود . والآخر : أن يذكر صورة كانت مضمنة فيه بالفطرة . وهذه حقائق ظاهرة للناظر بنور البصيرة ثقيلة على من يستروجه (١) السماع والتقليد دون الكشف والعيان . ولذلك تراه يتخبط فى مثل هذه الآيات ويتعسف وفى تأويل التذكر إقرار النفوس أنواعا من التعسفات ويتخايل إليه فى الأخبار والآيات ضروب من المناقضات وربما يغلب ذلك عليه حتى ينظر إليها بعين الاستحقار ويعتقد فيها التهافت . ومثاله مثال الأعمى الذى يدخل داراً فيعثر فيها بالأوانى المصفوفة فى الدار فيقول : ما لهذه الأوانى لا ترفع من الطريق وترد إلى موضعها ؟ فيقال له : إنها فى موضعها وإنما الخلل فى بصرك فكذلك خلل البصيرة يجرى مجراه وأطم منه وأعظم إذ النفس كالفارس والبدن كالفرس وعمى الفارس أضر من عمى الفرس ولمشابهة بصيرة الباطن لبصيرة الظاهر قال الله تعالى ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ وقال تعالى ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ الآية وسمى ضده عمى فقال تعالى ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾ وهذه الأمور التى كشفت للأنبياء بعضها كان بالبصر وبعضها بالبصيرة وسمى الكل رؤية وبالجملة من لم تكن بصيرته الباطنة نافذة لم يعلق به من الدين إلا قشوره وأمثلته دون لبابه وحقائقه . فهذه أقسام ما ينطلق اسم العقل عليها .

بيان تفاوت النفوس فى العقل

قد اختلفت الناس فى تفاوت العقل ولا معنى للاشتغال بنقل كلام من قل تحصيله بل الأولى والأهم المبادرة إلى التصريح بالحق . والحق الصريح فيه أن يقال إن التفاوت يتطرق إلى الأقسام الأربعة سوى القسم الثانى : وهو العلم الضرورى بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات . فإن من عرف أن الاثنين أكثر من الواحد عرف أيضا استحالة كون الجسم فى مكانين وكون الشىء الواحد قديما حادثا وكذا سائر النظائر وكل ما يدركه إدراكا محققا من غير شك ، وأما الأقسام الثلاثة فالتفاوت يتطرق إليها ، أما القسم الرابع وهو استيلاء القوة على قمع الشهوات فلا يخفى تفاوت الناس فيه بل لا يخفى تفاوت أحوال الشخص الواحد فيه ، وهذا التفاوت يكون تارة لتفاوت الشهوة إذ قد يقدر العاقل على ترك بعض الشهوات دون بعض ولكن غير مقصور عليه ، فإن الشاب قد يعجز عن ترك الزنا وإذا كبر وتم عقله قدر عليه وشهوة الرياء والرياسة تزداد قوة بالكبر لا ضعفا ، وقد يكون سببه التفاوت فى العلم المعرف لغائلة تلك الشهوة ، ولهذا يقدر الطبيب على الاحتماء عن بعض الأطعمة المضرة وقد لا يقدر من يساويه فى العقل على ذلك

(١) قوله « يستروجه » من الرواج أى يكون السماع والتقليد رائجا عنده فتأمل اهـ مصححه .

إذا لم يكن طبيبا وإن كان يعتقد على الجملة فيه مضرة ولكن إذا كان علم الطبيب أتم كان خوفه أشد فيكون الخوف جندا للعقل وعدة له فى قمع الشهوات وكسرها . وكذلك يكون العالم أقدر على ترك المعاصى من الجاهل لقوة علمه بضرر المعاصى وأعنى به العالم الحقيقى دون أرباب الطيالسة وأصحاب الهذيان . فإن كان التفات من جهة الشهوة لم يرجع إلى تفاوت العقل وإن كان من جهة العلم فقد سمينا هذا الضرب من العلم عقلا أيضا فإنه يقوى غريزة العقل فيكون التفاوت فيما رجعت التسمية إليه وقد يكون بمجرد التفاوت فى غريزة العقل فإنها إذا قويت كان قمعها للشهوة لا محالة أشد . وأما القسم الثالث وهو علوم التجارب فتفاوت الناس فيها لا ينكر فإنهم يتفاوتون بكثرة الإصابة وسرعة الإدراك ويكون سببه إما تفاوتا فى الغريزة وإما تفاوتا فى الممارسة ، فأما الأول وهو الأصل أعنى الغريزة فالتفاوت فيه لا سبيل إلى جحده فإنه مثل نور يشرق على النفس ويطلع صبحه ومبادى إشراقه عند سن التمييز ثم لا يزال ينمو ويزداد نموا خفى التدريج إلى أن يتكامل بقرب الأربعين سنة ، ومثاله نور الصبح فإن أوائله تخفى خفاء يشق إدراكه ثم يتدرج إلى الزيادة إلى أن يكمل بطلوع قرص الشمس . وتفاوت نور البصيرة كتفاوت نور البصر والفرق مدرك بين الأعمش وبين حاد البصر بل سنة الله عز وجل جارية فى جميع خلقه بالتدريج فى الإيجاد حتى إن غريزة الشهوة لا تظهر فى الصبى عند البلوغ دفعة وبغتة بل تظهر شيئا فشيئا على التدريج وكذلك جميع القوى والصفات ، ومن أنكر تفاوت الناس فى هذه الغريزة فكأنه منخلع عن ربقة العقل ، ومن ظن أن عقل النبى صلى الله عليه وسلم مثل عقل آحاد السوادية وأجلاف البوادى فهو أخس فى نفسه من آحاد السوادية وكيف ينكر تفاوت الغريزة ولولاه لما اختلف الناس فى فهم العلوم ولما انقسموا إلى بليد لا يفهم بالتفهيم إلا بعد تعب طويل من المعلم وإلى ذكى يفهم بأدنى رمز وإشارة وإلى كامل تنبعث من نفسه حقائق الأمور بدون التعليم ؟ كما قال تعالى ﴿ يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور ﴾ وذلك مثل الأنبياء عليهم السلام إذ يتضح لهم فى بواطنهم أمور غامضة من غير تعلم وسماع ويعبر عن ذلك بالإلهام ، وعن مثله عبر النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال « إن روح القدس نفث فى روعى : أحبب من أحببت فإنك مفارقه وعش ما شئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك مجزى به [1] » وهذا النمط من تعريف الملائكة للأنبياء يخالف الوحى الصريح الذى هو سماع الصوت بحاسة الأذن ومشاهدة الملك بحاسة البصر ولذلك أخبر عن هذا بالنفث فى الروع ، ودرجات الوحى كثيرة والخوض فيها لا يليق بعلم المعاملة بل هو من علم المكاشفة . ولا تظنن أن معرفة درجات الوحى تستدعى منصب الوحى إذ لا يبعد أن يعرف الطبيب المريض درجات الصحة ويعلم العالم الفاسق درجات العدالة وإن كان خاليا عنها فالعلم شىء ووجود المعلوم شىء آخر فلا كل من عرف النبوة والولاية كان نبيا ولا وليا ولا كل من عرف التقوى والورع ودقائقه كان تقيا . وانقسام الناس إلى من يتنبه من نفسه ويفهم وإلى من لا يفهم إلا بتنبيه وتعليم وإلى من لا ينفعه التعليم أيضا ولا التنبيه كانقسام الأرض إلى ما يجتمع فيه الماء فيقوى فيتفجر بنفسه عيونا وإلى ما يحتاج إلى الحفر ليخرج إلى القنوات وإلى ما لا ينفع فيه الحفر وهو اليابس وذلك لاختلاف جواهر الأرض فى صفاتها فكذلك اختلاف النفوس فى غريزة العقل . ويدل على تفاوت العقل من جهة النقل : ما روى أن عبد الله بن سلام رضى الله عنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث طويل فى آخره وصف عظم العرش وأن الملائكة قالت « يا ربنا هل خلقت شيئا أعظم من العرش ؟

---

(١) حديث « إن روح القدس نفث فى روعى : أحبب من أحببت فإنك مفارقه . . . الحديث » أخرجه الشيرازى فى الألقاب من حديث سهل بن سعد نحوه ، والطبرانى فى الأصغر والأوسط من حديث على وكلاهما ضعيف .

قال : نعم : العقل ، قالوا : وما بلغ من قدره ؟ قال: هيهات لايحاط بعلمه هل لكم علم بعدد الرمل ؟ قالوا : لا. قال الله عز وجل : فإنى خلقت العقل أصنافا شتى كعدد الرمل فمن الناس من أعطى حبة ومنهم من أعطى حبتين ومنهم من أعطى الثلاث والأربع ومنهم من أعطى فرقا ومنهم من أعطى وسقا ومنهم من أعطى أكثر من ذلك[1] » .

فإن قلت : فما بال أقوام من المتصوفة يذمون العقل والمعقول ؟

فاعلم أن السبب فيه أن الناس نقلوا اسم العقل والمعقول إلى المجادلة والمناظرة بالمناقضات والإلزامات وهو صنعة الكلام فلم يقدروا على أن يقرروا عندهم أنكم أخطأتم فى التسمية إذ كان ذلك لا ينمحى عن قلوبهم بعد تداول الألسنة به ورسوخه فى القلوب فذموا العقل والمعقول وهو المسمى به عندهم . فأما نور البصيرة الباطنة التى بها يعرف صدق رسله فكيف يتصور ذمه وقد أثنى الله تعالى عليه وإن ذم فما الذى بعده يحمد ؟ فإن كان المحمود هو الشرع فبم علم صحة الشرع ؟ فإن علم بالعقل المذموم الذى لا يوثق به فيكون الشرع أيضا مذموما ولا يلتفت إلى من يقول : إنه يدرك بعين اليقين ونور الإيمان لا بالعقل . فإنا نريد بالعقل : ما يريده بعين اليقين ونور الإيمان ، وهى الصفة الباطنة التى يتميز بها الآدمى عن البهائم حتى أدرك بها حقائق الأمور . وأكثر هذه التخبيطات إنما ثارت من جهل أقوام طلبوا الحقائق من الألفاظ فتخبطوا فيها لتخبط اصطلاحات الناس فى الألفاظ ؛ فهذا القدر كاف فى بيان العقل والله أعلم .

تم كتاب العلم بحمد الله تعالى ومنه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض السماء . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب قواعد العقائد والحمد لله وحده أولا وآخرا .

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب قواعد العقائد وفيه أربعة فصول

الفصل الأول

فى ترجمة عقيدة أهل السنة فى كلمتى الشهادة التى هى أحد مبانى الإسلام

فنقول وبالله التوفيق : الحمد لله المبدىء المعيد الفعال لما يريد ذى العرش المجيد والبطش الشديد الهادى صفوة العبيد إلى المنهج الرشيد والمسلك السديد المنعم عليهم بعد شهادة التوحيد بحراسة عقائدهم عن ظلمات التشكيك والترديد السالك بهم إلى اتباع رسوله المصطفى واقتفاء آثار صحبه الأكرمين المكرمين بالتأييد والتسديد المتجلى لهم فى ذاته وأفعاله بمحاسن أوصافه التى لا يدركها إلا من ألقى السمع وهو شهيد المعرف إياهم أنه فى ذاته واحد لا شريك له فرد لا مثيل له صمد لا ضد له منفرد لا ند له وأنه واحد قديم لا أول له أزلى لا بداية له مستمر الوجود لا آخر له أبدى لا نهاية له قيوم لا انقطاع له دائم لا انصرام له لم يزل ولا يزال موصوفا بنعوت الجلال

---

[1] حديث ابن سلام «سئل النبى صلى الله عليه وسلم» فى حديث طويل فى آخره وصف عظم العرش وأن الملائكة قالت يارب هل خلقت شيئاً أعظم من العرش ..الحديث» أخرجه ابن المحبر بتمامه والترمذى الحكيم فى النوادر مختصراً .

لا يقضى عليه بالانقضاء والانفصال بتصرم الآباد وانقراض الآجال بل ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾ .

التنزيه : وأنه ليس بجسم مصور ولا جوهر محدود مقدر وأنه لا يماثل الأجسام لا فى التقدير ولا فى قبول الانقسام وأنه ليس بجوهر ولا تحله الجواهر ولا بعرض ولا تحله الأعراض بل لا يماثل موجودا ولا يماثله موجود ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ولا هو مثل شيء . وأنه لا يحده المقدار ولا تحويه الأقطار ولا تحيط به الجهات ولا تكتنفه الأرضون ولا السموات . وأنه مستو على العرش على الوجه الذى قاله وبالمعنى الذى أراده استواء منزها عن المماسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ومقهورون فى قبضته . وهو فوق العرش والسماء وفوق كل شيء إلى تخوم الثرى ، فوقية لا تزيده قربا إلى العرش والسماء كما لا تزيده بعدا عن الأرض والثرى بل هو رفيع الدرجات عن العرش والسماء كما أنه رفيع الدرجات عن الأرض والثرى . وهو مع ذلك قريب من كل موجود وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد ﴿ وهو على كل شيء شهيد ﴾ إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام وأنه لا يحل فى شيء ولا يحل فيه شيء تعالى عن أن يحويه مكان كما تقدس عن أن يحده زمان بل كان قبل أن خلق الزمان والمكان وهو الآن على ما عليه كان . وأنه بائن عن خلقه بصفاته ليس فى ذاته سواه ولا فى سواه ذاته وأنه مقدس عن التغير والانتقال لا تحله الحوادث ولا تعتريه العوارض بل لا يزال فى نعوت جلاله منزها عن الزوال وفى صفات كماله مستغنيا عن زيادة الاستكمال . وأنه فى ذاته معلوم الوجود بالعقول مرئى الذات بالأبصار نعمة منه ولطفا بالأبرار فى دار القرار وإتماما منه للنعيم بالنظر الى وجهه الكريم .

الحياة والقدرة : وأنه تعالى حى قادر جبار قاهر لا يعتريه قصور ولا عجز ولا تأخذه سنة ولا نوم ولا يعارضه فناء ولا موت وأنه ذو الملك والملكوت والعزة والجبروت له السلطان والقهر والخلق والأمر والسموات مطويات بيمينه والخلائق مقهورون فى قبضته . وأنه المنفرد بالخلق والاختراع المتوحد بالإيجاد والإبداع خلق الخلق وأعمالهم وقدر أرزاقهم وآجالهم لا يشذ عن قبضته مقدور ولا يعزب عن قدرته تصاريف الأمور ، ولا تحصى مقدوراته ولا تتناهى معلوماته .

العلم : وأنه عالم بجميع المعلومات محيط بما يجرى من تخوم الأرضين إلى أعلى السموات وأنه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء بل يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ويدرك حركة الذر فى جو الهواء ويعلم السر وأخفى ، ويطلع على هواجس الضمائر وحركات الخواطر وخفيات السرائر بعلم قديم أزلى لم يزل موصوفا به فى أزل الازال لا بعلم متجدد حاصل فى ذاته بالحلول والانتقال .

الإرادة : وأنه تعالى مريد للكائنات مدبر للحادثات فلا يجرى فى الملك والملكوت قليل أو كثير صغير أو كبير خير أو شر نفع أو ضر إيمان أو كفر عرفان أو نكر فوز أو خسران زيادة أو نقصان طاعة أو عصيان إلا بقضائه وقدره وحكمته ومشيئته . فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن لا يخرج عن مشيئته لفتة ناظر ولا فلتة خاطر بل هو المبدىء المعيد الفعال لما يريد لا راد لأمره ولا معقب لقضائه ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته . ولا قوة له على طاعته إلا بمشيئته وإرادته فلو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا فى العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته ومشيئته لعجزوا عن ذلك وأن إرادته قائمة بذاته فى جملة صفاته لم يزل كذلك موصوفا بها

مريدا فى أزله لوجود الأشياء فى أوقاتها التى قدرها فوجدت فى أوقاتها كما أراده فى أزله من غير تقدم ولا تأخر بل وقعت على وفق علمه وإرادته من غير تبدل ولا تغير . دبر الأمور لا بترتيب أفكار ولا تربص زمان فلذلك لم يشغله شأن عن شأن .

السمع والبصر : وأنه تعالى سميع بصير يسمع ويرى ، لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفى ، ولا يغيب عن رؤيته مرئى وإن دق . ولا يحجب سمعه بعد ولا يدفع رؤيته ظلام . يرى من غير حدقة وأجفان ويسمع من غير أصمخة وآذان كما يعلم بغير قلب ويبطش بغير جارحة ويخلق بغير آلة إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق .

الكلام : وأنه تعالى متكلم آمر ناه واعد متوعد بكلام أزلى قديم قائم بذاته لا يشبه كلام الخلق فليس بصوت يحدث من انسلال هواء أو اصطكاك أجرام ولا بحرف ينقطع بإطباق شفة أو تحريك لسان ، وأن القرآن والتوراة والإنجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله عليهم السلام . وأن القرآن مقروء بالألسنة مكتوب فى المصاحف محفوظ فى القلوب وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى لا يقبل الانفصال والافتراق بالانتقال إلى القلوب والأوراق . وأن موسى صلى الله عليه وسلم سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف . كما يرى الأبرار ذات الله تعالى فى الآخرة من غير جوهر ولا عرض . وإذا كانت له هذه الصفات كان حيا عالما قادرا مريدا سميعا بصيرا متكلما بالحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام لا بمجرد الذات .

الأفعال : وسبحانه وتعالى أنه لا موجود سواه إلا وهو حادث بفعله وفائض من عدله على أحسن الوجود وأكملها وأتمها وأعدلها وأنه حكيم فى أفعاله عادل فى أقضيته لا يقاس عدله بعدل العباد إذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه فى ملك غيره . ولا يتصور الظلم من الله تعالى فإنه لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما ، فكل ما سواه من إنس وجن وملك وشيطان وسماء وأرض وحيوان ونبات وجماد وجوهر وعرض ومدرك ومحسوس حادث اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعا وأنشأه إنشاء بعد أن لم يكن شيئا إذ كان فى الأرض موجودا وحده ولم يكن معه غيره فأحدث الخلق بعد ذلك إظهارا لقدرته وتحقيقا لما سبق من إرادته ولما حق فى الأزل من كلمته لا لافتقاره إليه وحاجته . وأنه متفضل بالخلق والاختراع والتكليف لا عن وجوب ومتطول بالإنعام والإصلاح لا عن لزوم ، فله الفضل والإحسان والنعمة والامتنان إذ كان قادرا على أن يصب على عباده أنواع العذاب ويبتليهم بضروب الآلام والأوصاب ولو فعل ذلك لكان منه عدلا ولم يكن منه قبيحا ولا ظلما ، وأنه عز وجل يثيب عباده المؤمنين على الطاعات بحكم الكرم والوعد لا بحكم الاستحقاق واللزوم له إذ لا يجب عليه لأحد فعل ولا يتصور منه ظلم ولا يجب لأحد عليه حق وأن حقه فى الطاعات وجب على الخلق بإيجابه على ألسنة أنبيائه عليهم السلام لا بمجرد العقل ولكنه بعث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة فبلغوا أمره ونهيه ووعده ووعيده فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاءوا به .

(معنى الكلمة الثانية) وهى الشهادة بالرسالة وأنه بعث النبى الأمى القرشى محمدا صلى الله عليه وسلم برسالته إلى كافة العرب والعجم والجن والإنس فنسخ بشريعته الشرائع إلا ما قرره منها . وفضله على سائر الأنبياء وجعله سيد البشر . ومنع كمال الإيمان بشهادة التوحيد وهو قول « لا إله إلا الله » ما لم تقترن بها شهادة الرسول وهو قولك « محمد رسول الله » وألزم الخلق تصديقه فى جميع ما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة . وأنه لا يتقبل إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت ، وأوله : سؤال منكر ونكير وهما شخصان مهيبان هائلان يقعدان العبد فى قبره سويا ذا روح وجسد فيسألانه عن التوحيد والرسالة ويقولان له : من ربك وما دينك ومن نبيك ؟[1]

كتاب قواعد العقائد

(١) حديث «سؤال منكر ونكير» أخرجه الترمذى وصححه وابن حبان من حديث أبى هريرة «إذا قبر الميت.=

وهما فتانا القبر(١) وسؤالهما أول فتنة بعد الموت(٢) . وأن يؤمن بعذاب القبر(٣) وأنه حق وحكمه عدل على الجسم والروح على ما يشاء . وأن يؤمن بالميزان ذى الكفتين واللسان وصفته فى العظم أنه مثل طبقات السموات والأرض توزن فيه الأعمال بقدرة الله تعالى ، والصنج يومئذ مثاقيل الذر والخردل تحقيقا لتمام العدل ، وتوضع صحائف الحسنات فى صورة حسنة فى كفة النور فيثقل بها الميزان على قدر درجاتها عند الله بفضل الله وتطرح صحائف السيئات فى صورة قبيحة فى كفة الظلمة فيخف بها الميزان بعدل الله(٤) . وأن يؤمن بأن الصراط حق وهو جسر ممدود على متن جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة تزل عليه أقدام الكافرين بحكم الله سبحانه فتهوى بهم إلى النار وتثبت عليه أقدام المؤمنين بفضل الله فيساقون إلى دار القرار(٥) . وأن يؤمن بالحوض المورود حوض محمد صلى الله عليه وسلم يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة وبعد جواز الصراط(٦) من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا عرضه مسيرة شهر ماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل حوله أباريق عددها بعدد نجوم السماء(٧) فيه ميزابان يصبان فيه من الكوثر(٨) . وأن يؤمن بالحساب وتفاوت الناس فيه إلى مناقش فى الحساب وإلى مسامح فيه وإلى من يدخل

= ـ أو قال أحدكم ـ أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير» وفى الصحيحين من حديث أنس « إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه . . . الحديث »

(٢) حديث «إنهما فتانا القبر» أخرجه أحمد وابن حبان من حديث عبدالله بن عمرو «أن رسول صلى الله عليه وسلم ذكر فتانى القبر فقال عمر : أترد علينا عقولنا ؟ ...الحديث » (٣) حديث «إن سؤالهما أول فتنة بعد الموت» لم أجده

(٤) حديث « عذاب القبر » أخرجاه من حديث عائشة «إنكم تفتنون أو تعذبون فى قبوركم . . . الحديث» ولهما من حديث أبى هريرة وعائشة « استعاذته صلى الله عليه وسلم من عذاب القبر » (٥) حديث « الإيمان بالميزان ذى الكفتين واللسان وصفته فى العظم أنه مثل طباق السموات والأرض» أخرجه البيهقى فى البعث من حديث عمر «قال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالجنة والنار والميزان .. الحديث وأصله عند مسلم ليس فيه ذكر الميزان ، ولأبى داود من حديث عائشة «أما فى ثلاثة مواطن لا يذكر أحد أحدا عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل ؟» زاد ابن مردويه فى تفسيره «قالت عائشة : أى حق علمنا الموازين هى الكفتان فيوضع فى هذه الشئ ويوضع فى هذه الشىء فترجح إحداهما وتخف الأخرى» والترمذى وحسنه من حديث أنس «وأطلبنى عند الميزان» ومن حديث عبد الله بن عمر فى حديث البطاقة «فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة . . . الحديث» وروى ابن شاهين فى كتاب السنة عن ابن عباس : كفة الميزان كأطباق الدنيا كلها . (٦) حديث « الإيمان بالصراط وهو جسر ممدود على متن جهنم أحد من السيف وأدق من الشعر » أخرجه الشيخان من حديث أبى هريرة « ويضرب الصراط بين ظهرانى جهنم» ولهما من حديث أبى سعيد « ثم يضرب الجسر على جهنم » زاد مسلم « قال أبو سعيد : إن الجسر أدق من الشعر وأحد من السيف » ورفعه أحمد من حديث عائشة والبيهقى فى الشعب ،والبعث من حديث أنس وضعفه ، وفى البعث من رواية عبيد بن عمير مرسلا ، ومن قول ابن مسعود « الصراط كحد السيف » وفى آخر الحديث ما يدل على أنه مرفوع . (٧) حديث« الإيمان بالحوض وأنه يشرب منه المؤمنين » أخرجه مسلم من حديث أنس فى نزول ﴿ إنا أعطيناك الكوثر﴾ «هو حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة آنيته عدد النجوم» ولهما من حديث ابن مسعود وعقبة بن عامر وجندب وسهل ابن سعد : أنا فرطكم على الحوض . ومن حديث بن عمر : أمامكم حوض كما بين جرباء وأدرج . وقال الطبرانى : كما بينكم وبين جرباء وأدرج . وهو الصواب وذكر الحوض فى الصحيح من حديث أبى هريرة وأبى سعيد وعبد الله بن عمر وحذيفة وأبى ذر وحابس بن سمرة وحارثة بن وهب وثوبان وعائشة أم سلمة وأسماء . (٧) حديث « من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا عرضه مسيرة شهر أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وحوله أباريق عدد نجوم السماء » من حديث عبد الله بن عمرو ولهما من حديث أنس : فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء . وفى رواية لمسلم : أكثر من عدد نجوم السماء (٩) حديث «فيه ميزابان يصبان من الكوثر» أخرجه مسلم من حديث ثوبان . يغت فيه ميزابان يمدانه من الجنة أحدهما ذهب والآخر من ورق .

الجنة بغير حساب وهم المقربون فيسأل الله تعالى(١) من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين(٢) ويسأل المبتدعة عن السنة(٣) ويسأل المسلمين عن الأعمال(٤) . وأن يؤمن بإخراج الموحدين من النار بعد الانتقام حتى لا يبقى فى جهنم موحد بفضل الله تعالى فلا يخلد فى النار موحد(٥) . وأن يؤمن بشفاعة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين على حسب جاهه ومنزلته عند الله تعالى ومن بقى من المؤمنين ولم يكن له شفيع أخرج بفضل الله عز وجل فلا يخلد فى النار مؤمن بل يخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان(٦). وأن يعتقد فضل الصحابة رضى الله عنهم وترتيبهم وأن أفضل الناس بعد النبى صلى الله عليه وسلم : أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على رضى الله عنهم(٧) . وأن يحسن الظن بجميع الصحابة ويثنى عليهم كما أثنى الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم أجمعين(٨) فكل ذلك مما وردت به الأخبار وشهدت به الاثار فمن اعتقد جميع ذلك موقنا به

(١) حديث : الإيمان بالحساب وتفاوت الخلق فيه إلى مناقش فى الحساب ومسامح فيه وإلى من يدخل الجنة بغير حساب ؛ أخرجه البيهقى فى البعث من حديث عمر : فقال يارسول الله ما الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالموت وبالبعث من بعد الموت والجنة والنار والقدر كله ... الحديث ؛ وهو عند مسلم دون ذكر (الحساب) وللشيخين من حديث عائشة : من نوقش الحساب عذب قالت قلت أليس يقول الله تعالى ﴿ فسوف يحاسب حسابا يسيرا ﴾ قال ذلك العرض ؛ ولهما من حديث ابن عباس : عرضت على الأمم فقيل هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ؛ ولمسلم من حديث أبى هريرة وعمران بن حصين : يدخل من أمتى الجنة سبعون ألفا بغير حساب ؛ زاد البيهقى فى البعث من حديث عمرو بن حزم : وأعطانى مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا ؛ زاد أحمد من حديث عبد الرحمن بن أبى بكر بعده : هذه الزيادة فقال : فهلا استزدته قال قد استزدته فأعطانى مع كل رجل سبعين ألفا قال عمر فهلا استزدته قال قد استزدته فأعطانى هكذا ـ وفرج عبد الرحمن بن أبى بكر بين يديه ـ ... الحديث (٢) حديث : سؤال من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين ؛ أخرجه البخارى من حديث أبى سعيد : يدعى نوح يوم القيامة فيقول لبيك وسعديك يارب فيقول هل بلغت فيقول نعم فيقال لأمته فيقولون ماأتانا من نذير فيقول من يشهد لك فيقول محمد وأمته ... الحديث ؛ ولابن ماجة : يجىء النبى يوم القيامة ... الحديث ؛ وفيه : فيقال هل بلغت قومك ... الحديث . (٣) حديث : سؤال المبتدعة عن السنة ؛ ابن ماجه من حديث عائشة : من تكلم بشىء من القدر سئل عنه يوم القيامة ؛ ومن حديث أبى هريرة : مامن داع يدعو إلى شىء إلا وقف يوم القيامة لازما لدعوة مادعا إليه وإن دعا رجل رجلا ؛ وإسنادهما ضعيف . (٤) حديث : سؤال المسلمين عن الأعمال ؛ أخرجه أصحاب السنن ، ومن حديث أبى هريرة : إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته ... الحديث ؛ وسيأتى فى الصلاة . (٥) حديث إخراج الموحدين من النار حتى لا يبقى بها موحد بفضل الله سبحانه ؛ أخرجه الشيخان من حديث أبى هريرة فى حديث طويل : حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لايشرك بالله شيئا ممن أراد الله أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله ... الحديث (٦) حديث شفاعة الأنبياء ثم العلماء ، ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين ومن بقى من المؤمنين ولم يكن لهم شفيع أخرج بفضل الله فلا يخلد فى النار مؤمن بل يخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان ؛ أخرجه ابن ماجة من حديث عثمان بن عفان : يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ؛ وقد تقدم فى العلم . وللشيخين من حديث أبى سعيد الخدرى : من وجدتم فى قلبه مثقال حبة من خردل من الإيمان فأخرجوه ؛ وفى رواية (من خير) وفيه : فيقول الله تعالى شفعت الملائكة وشفعت النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط ... الحديث . (٧) حديث : أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عثمان ثم على . أخرجه من حديث ابن عمر قال : كنا نخير بين الناس فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم فتخير أبا بكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان . ولأبى داود : كنا نقول ورسول الله صلى الله عليه وسلم حى أفضل أمة النبى صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان رضى الله عنهم . زاد الطبرانى : ويسمع ذلك النبى صلى الله عليه وسلم ولا ينكره . (٨) حديث : إحسان الظن بجميع الصحابة والثناء عليهم . أخرجه الترمذى من حديث عبد الله ابن مغفل : الله الله فى أصحابى لاتتخذوهم غرضا بعدى . وللشيخين من حديث أبى سعيد : لاتسبوا أصحابى . وللطبرانى من حديث ابن مسعود : إذا ذكر أصحابى فأمسكوا .

كان من أهل الحق وعصابة السنة وفارق رهط الضلال وحزب البدعة . فنسأل الله كمال اليقين وحسن الثبات فى الدين لنا وكافة المسلمين برحمته إنه أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى .

الفصل الثانى

فى وجه التدريج إلى الإرشاد وترتيب درجات الاعتقاد

أعلم أن ما ذكرناه فى ترجمة العقيدة ينبغى أن يقدم إلى الصبى فى أول نشوه ليحفظه حفظا ثم لا يزال ينكشف له معناه فى كبره شيئا فشيئا ؛ فابتداؤه الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والإيقان والتصديق به ، وذلك مما يحصل فى الصبى بغير برهان .

فمن فضل الله سبحانه على قلب الإنسان أن شرحه فى أول نشوه للإيمان من غير حاجة إلى حجة وبرهان ، وكيف ينكر ذلك وجميع عقائد العوام مباديها التلقين المجرد والتقليد المحض ؟

نعم يكون الاعتقاد الحاصل بمجرد التقليد غير خال عن نوع من الضعف فى الابتداء على معنى أنه يقبل الإزالة بنقيضه لو ألقى إليه فلا بد من تقويته وإثباته فى نفس الصبى والعامى حتى يترسخ ولا يتزلزل . وليس الطريق فى تقويته وإثباته إن يعلم صنعة الجدل والكلام بل يشتغل بتلاوة القرآن وتفسيره وقراءة الحديث ومعانيه . ويشتغل بوظائف العبادات فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخا بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه وبما يرد عليه من شواهد وفوائدها وبما يسطع عليه من أنوار العبادات ووظائفها وبما يسرى إليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم وسيماهم وسماعهم وهيآتهم فى الخضوع لله عز وجل والخوف منه والاستكانة له فيكون أول التلقين كإلقاء بذر فى الصدر ، وتكون هذه الأسباب كالسقى والتربية له حتى ينمو ذلك البذر ويقوى شجرة طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، وينبغى أن يحرس سمعه من الجدل والكلام غاية الحراسة فإن ما يشوشه الجدل مما يمهده وما يفسده أكثر مما يصلحه بل تقويته بالجدل تضاهى ضرب الشجرة بالمدقة من الحديد رجاء تقويتها بأن تكثر أجزاؤها وربما يفتتها ذلك ويفسدها وهو الأغلب . والمشاهدة تكفيك فى هذا بيانا فناهيك بالعيان برهانا : فقس عقيدة أهل الصلاح والتقى من عوام الناس بعقيدة المتكلمين والمجادلين فترى اعتقاد العامى فى الثبات كالطود الشامخ لا تحركه الدواهى والصواعق وعقيدة المتكلم الحارس اعتقاده بتقسيمات الجدل كخيط مرسل فى الهواء تفيئه الرياح مرة هكذا ومرة هكذا إلا من سمع منهم دليل الاعتقاد فتلقفه تقليداً كما تلقف نفس الاعتقاد تقليدا ؛ إذ لا فرق فى التقليد بين تعلم الدليل أو تعلم المدلول فتلقين الدليل شىء والاستدلال بالنظر شىء آخر بعيد عنه . ثم الصبى إذا وقع نشوه على هذه العقيدة إن اشتغل بكسب الدنيا لم ينفتح له غيرها ولكنه يسلم فى الآخرة باعتقاد أهل الحق ، إذ لم يكلف الشرع أجلاف العرب أكثر من التصديق الجازم بظاهر هذه العقائد ، فأما البحث والتفتيش وتكلف نظم الأدلة فلم يكلفوه أصلا ، وإن أراد أن يكون من سالكى طريق الآخرة وساعده التوفيق حتى اشتغل بالعمل ولازم التقوى ونهى النفس عن الهوى واشتغل بالرياضة والمجاهدة انفتحت له أبواب من الهداية تكشف عن حقائق هذه العقيدة بنور إلهى يقذف فى قلبه بسبب المجاهدة تحقيقا لوعده عز وجل إذ قال ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ وهو الجوهر النفيس الذى هو غاية إيمان الصديقين والمقربين ، وإليه الإشارة بالسر الذى وقر فى صدر أبى بكر الصديق رضى الله عنه حيث فضل به الخلق . وانكشاف ذلك السر بل تلك الأسرار له درجات بحسب درجات المجاهدة ودرجات الباطن فى النظافة والطهارة عما سوى الله تعالى وفى الاستضاءة بنور اليقين وذلك كتفاوت الخلق فى أسرار الطب والفقه وسائر العلوم إذ يختلف ذلك باختلاف الاجتهاد واختلاف الفطرة فى الذكاء والفطنة وكما لا تنحصر تلك الدرجات فكذلك هذه .

﴿ مسألة ﴾ فإن قلت : تعلم الجدل والكلام مذموم كتعلم النجوم أو هو مباح أو مندوب إليه .

فاعلم أن للناس في هذا غلوا وإسرافا في أطراف فمن قائل إنه بدعة أوحرام وأن العبد إن لقى الله عزوجل بكل ذنب سوى الشرك خير له من أن يلقاه بالكلام ، ومن قائل أنه واجب وفرض إما على الكفاية أو على الأعيان وأنه أفضل الأعمال وأعلى القربات فإنه تحقيق لعلم التوحيد ونضال عن دين الله تعالى . وإلى التحريم ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف . قال ابن عبد الأعلى رحمه الله سمعت الشافعي رضى الله عنه يوم ناظر حفصا الفرد - وكان من متكلمي المعتزلة - يقول : لأن يلقى الله عز وجل العبد بكل ذنب ماخلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشيء من علم الكلام ولقد سمعت من حفص كلاما لاأقدر أن أحكيه . وقال أيضا قد اطلعت من أهل الكلام على شيء ماظننته قط ولأن يبتلي العبد بكل مانهى الله عنه ماعدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام . وحكى الكرابيسي « أن الشافعي رضى الله عنه سئل عن شيء من الكلام فغضب وقال : سل عن هذا حفصا الفرد وأصحابه ، أخزاهم الله » ولما مرض الشافعي رضى الله عنه دخل عليه حفص الفرد فقال له : من أنا ؟ فقال : حفص الفرد ، لاحفظك الله ولا رعاك حتى تتوب مما أنت فيه . وقال أيضا لو علم الناس مافي الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من الأسد ؟ وقال ايضا إذا سمعت الرجل يقول الاسم هو المسمى أو غير المسمى؟ فاشهد بأنه من أهل الكلام ولا دين له قال الزعفراني قال الشافعي حكمي في أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم في القبائل والعشائر ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام ، وقال أحمد بن حنبل : لايفلح صاحب الكلام أبدا ، ولا نكاد نرى أحدا نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل ، وبالغ في ذمه حتى هجر الحارث المحاسبي مع زهده وورعه بسبب تصنيفه كتابا في الرد على المبتدعة وقال له : ويحك ألست تحكي بدعتهم أولا ثم ترد عليهم ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكير في تلك الشبهات فيدعوهم ذلك إلى الرأي والبحث ! وقال احمد رحمه الله : علماء الكلام زنادقة . وقال مالك رحمه الله : أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه أيدع دينه كل يوم لدين جديد ؟ يعني أن أقوال المتجادلين تتفاوت . وقال مالك رحمه الله أيضا : لاتجوز شهادة أهل البدع والأهواء ، فقال بعض أصحابه - في تأويله - أنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أي مذهب كانوا . وقال أبو يوسف : من طلب العلم بالكلام تزندق . وقال الحسن : لاتجادلوا أهل الأهواء ولا تجالسوهم ولا تسمعوا منهم ، وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا ، ولا ينحصر مانقل عنهم من التشديدات فيه وقالوا ماسكت عنه الصحابة - مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم - إلا لعلمهم بما يتولد منه من الشر . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « هلك المتنطعون (١) » أي المتعمقون في البحث والاستقصاء . واحتجوا أيضا بأن ذلك لو كان من الدين لكان ذلك أهم مايأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعلم طريقه ويثني عليه وعلى اربابه ؛ فقد علمهم الاستنجاء(٢) ، وندبهم إلى علم الفرائض واثنى عليهم (٣) ونهاهم عن الكلام في القدر وقال امسكوا (٤) عن القدوة . وعلى هذا استمر الصحابة رضى الله عنهم فالزيادة على الأستاذ طغيان وظلم وهم الأستاذون والقدر ونحن الأتباع والتلامذة . وأما الفرقة الأخرى فاحتجوا بأن قالوا : إن المحذور من الكلام إن كان هو لفظ الجوهر والعرض وهذه الاصطلاحات الغريبة التي لم تعهدها الصحابة رضى الله عنهم

---

(١) حديث « هلك المتنطعون » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود .

(٢) حديث «أن النبي صلى الله عليه وسلم علمهم الاستنجاء » أخرجه مسلم من حديث سلمان الفارسي .

(٣) حديث «ندبهم إلى علم الفرائض وأثنى عليهم» أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة «تعلموا الفرائض وعلموها الناس . . . الحديث» وللترمذي من حديث أنس وأفرضهم زيد بن ثابت

(٤) حديث « نهاهم عن الكلام في القدر وقال أمسكوا » تقدم في العلم .

فالأمر فيه قريب ؛ إذ ما من علم إلا وقد أحدث فيه اصطلاحات لأجل التفهيم كالحديث والتفسير والفقه ولو عرض عليهم عبارة النقض والكسر والتركيب والتعدية وفساد الوضع إلى جميع الأسئلة التي تورد على القياس لما كانوا يفقهونه . فإحداث عبارة للدلالة بها على مقصود صحيح كإحداث آنية على هيئة جديدة لاستعمالها في مباح ، وإن كان المحذور هو المعنى فنحن لا نعني به إلا معرفة الدليل على حدوث العالم ووحدانية الخالق وصفاته كما جاء في الشرع فمن أين تحرم معرفة الله تعالى بالدليل ، وإن كان المحذور هو التشعب والتعصب والعداوة والبغضاء وما يفضي إليه الكلام فذلك محرم ويجب الاحتراز عنه كما أن الكبر والعجب والرياء وطلب الرياسة مما يفضي إليه علم الحديث والتفسير والفقه وهو محرم يجب الاحتراز عنه ولكن لا يمنع من العلم لأجل أدائه إليه وكيف يكون ذكر الحجة والمطالبة بها والبحث عنها محظورا وقد قال الله تعالى ﴿ قل هاتوا برهانكم ﴾ وقال عزوجل ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي بينة ﴾ وقال تعالى ﴿ قل هل عندكم من سلطان بهذا ﴾ أي حجة وبرهان وقال تعالى ﴿ قل فلله الحجة البالغة ﴾ وقال تعالى ﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبرهيم في ربه - إلى قوله - فبهت الذي كفر ﴾ إذ ذكر سبحانه احتجاج إبراهيم ومجادلته وإفحامه خصمه في معرض الثناء عليه وقال عزوجل ﴿ تلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ وقال تعالى ﴿ قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ﴾ وقال تعالى في قصة فرعون ﴿ وما رب العالمين - إلى قوله - أولو جئتك بشيء مبين ﴾

وعلى الجملة فالقرآن من أوله إلى آخره محاجة مع الكفار فعمدة أدلة المتكلمين في التوحيد قوله تعالى ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ وفي النبوة ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾ وفي البعث ﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ﴾ إلى غير ذلك من الآيات والأدلة . ولم تزل الرسل صلوات الله عليهم يحاجون المنكرين ويجادلونهم قال تعالى ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ فالصحابة رضي الله عنهم أيضا كانوا يحاجون المنكرين ويجادلون ولكن عند الحاجة . وكانت الحاجة إليه قليلة في زمانهم وأول من سن دعوة المبتدعة بالمجادلة إلى الحق : علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، إذ بعث ابن عباس رضي الله عنهما إلى الخوارج فكلمهم فقال : ما تنقمون على إمامكم ؟ قالوا : قاتل ولم يسب ولم يغنم ، فقال : ذلك في قتال الكفار ؛ أرأيتم لو سبيت عائشة رضي الله عنها في سهم أحدكم أكنتم تستحلون منها ما تستحلون من ملككم وهي أمكم في نص الكتاب ؟ فقالوا : لا ؛ فرجع منهم إلى الطاعة بمجادلته ألفان . وروى أن الحسن ناظر قدريا فرجع عن القدر . وناظر علي بن أبي طالب كرم الله وجهه رجلا من القدرية . وناظر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يزيد بن عميرة في الإيمان ؛ قال عبد الله : لو قلت إني مؤمن لقلت إني في الجنة ؟ فقال له يزيد بن عميرة : ياصاحب رسول الله هذه زلة منك وهل الإيمان إلا أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث والميزان وتقيم الصلاة والصوم والزكاة ؟ ولنا ذنوب لو نعلم أنها تغفر لنا لعلمنا أننا من أهل الجنة ؛ فمن أجل ذلك نقول إنا مؤمنون ولا نقول إنا من أهل الجنة ، فقال ابن مسعود : صدقت والله إنها مني زلة . فينبغي أن يقال كان خوضهم فيه قليلا لا كثيرا وقصيرا لا طويلا وعند الحاجة لا بطريق التصنيف والتدريس واتخاذه صناعة ؛ فيقال أما قلة خوضهم فيه فإنه كان لقلة الحاجة إذ لم تكن البدعة تظهر في ذلك الزمان ، وأما القصر فقد كان الغاية إفحام الخصم واعترافه وانكشاف الحق وإزالة الشبهة ؛ فلو طال إشكال الخصم أو لجاجه لطال لا محالة إلزامهم . وما كانوا يقدرون قدر الحاجة بميزان ولا مكيال بعد الشروع فيها . وأما عدم تصديهم للتدريس والتصنيف فيه فهكذا كان دأبهم في الفقه والتفسير والحديث أيضا ، فإن جاز تصنيف الفقه ووضع الصور النادرة التي لا تتفق إلا على الندور إما ادخارا ليوم وقوعها وإن كان نادرا أو تشحيذا للخواطر فنحن أيضا نرتب طرق المجادلة لتوقع وقوع الحاجة بثوران شبهة أو هيجان مبتدع أو لتشحيذ الخاطر أو لادخار الحجة حتى لا يعجز عنها عند الحاجة على البديهة والارتجال ، كمن يعد السلاح قبل القتال ليوم القتال فهذا ما يمكن أن يذكر للفريقين .

فإن قلت : فما المختار عندك فيه ؟ فاعلم أن الحق فيه أن إطلاق القول بذمه فى كل حال أو بحمده فى كل حال خطأ بل لا بد فيه من تفصيل .

فاعلم أولا أن الشيء قد يحرم لذاته كالخمر والميتة وأعنى بقولى « لذاته » أن علة تحريمه وصف فى ذاته وهو الإسكار والموت . وهذا إذا سئلنـــا عنه أطلقنا القول بأنه حرام ولا يلتفت إلى إباحة الميتة عند الاضطرار وإباحة تجرع الخمر إذا غص الإنسان بلقمة ولم يجد ما يسيغهـا سوى الخمر وإلى ما يحرم لغيره كالبيع على بيع أخيك المسلم فى وقت الخيار والبيع وقت النداء ، وكأكل الطين فإنه يحرم لما فيه من الإضرار وهـذا ينقسم إلى ما يضر قليله وكثيره فيطلق القول عليه بأنه حرام كالسم الذى يقتل قليله وكثيره ، وإلى ما يضر عند الكثرة فيطلق القول عليه بالإباحة كالعسل فإن كثيره يضر بالمحرور ، وكأكل الطين . وكأن إطلاق التحريم على الطين والخمر والتحليل على العسل التفاوت إلى أغلب الأحوال ؛ فإن تصدى شيء تقابلت فيه الأحوال فالأولى والأبعد عن الالتباس أن يفصل فنعود إلى علم الكلام ونقول : إن فيه منفعة وفيه مضرة ، فهو باعتبار منفعته فى وقت الانتفاع حلال أو مندوب إليه أو واجب كما يقتضيه الحال ، وهو باعتبار مضرته فى وقت الاستضرار ومحله حرام أما مضرته فإثارة الشبهات وتحريك العقائد وإزالتها عن الجزم والتصميم فذلك مما يحصل فى الابتداء ورجوعها بالدليل مشكوك فيه ، ويختلف فيه الأشخاص ، فهذا ضرره فى الاعتقاد الحق . وله ضرر آخر فى تأكيد اعتقاد المبدعة وتثبيته فى صدورهم بحيث تنبعث دواعيهم ويشتد حرصهم على الإصرار عليه ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذى يثور من الجدل ولذلك ترى المبتدع العامى يمكن أن يزول اعتقاده باللطف فى أسرع زمان إلا إذا كان نشوءه فى بلد يظهر فيها الجدل والتعصب فإنه لو اجتمع عليه الأولون والآخرون لم يقدروا على نزع البدعة من صدره بل الهوى والتعصب وبغض خصوم المجادلين وفرقة المخالفين يستولى على قلبه ويمنعه من إدراك الحق حتى لو قيل له : هل تريد أن يكشف الله تعالى لك الغطاء ويعرفك بالعيان أن الحق مع خصمك لكره ذلك خيفة من أن يفرح به خصمه ؛ وهـذا هو الداء العضـال الذى استطار فى البلاد والعباد وهو نوع فساد أثاره المجادلون بالتعصب فهذا ضرره . وأما منفعته فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هى عليه وهيهات فليس فى الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف ، وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوى ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين وجاوز ذلك إلى التعمق فى علوم أخر تناسب نوع الكلام وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هـذا الوجه مسدود . ولعمرى لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور ولكن على الندور فى أمور تكاد جلية تفهم قبل التعميق فى صنعة الكلام بل منفعته شيء واحد وهو حراسة العقيدة التى ترجمناها على العوام وحفظها عن تشويشات المبتدعة بأنواع الجدل فإن العامى ضعيف يستفزه جدل المبتدع وإن كان فاسد ، ومعارضة الفاسد بالفاسد تدفعه . والناس متعبدون بهذه العقيدة التى قدمناها إذ ورد الشرع بها لما فيها من صلاح دينهم ودنياهم وأجمع السلف الصالح عليها والعلماء يتعبدون بحفظها على العوام من تلبيسات المبتدعة كما تعبد السلاطين بحفظ أموالهم عن تهجمات الظلمة والغصاب وإذا وقعت الإحاطة بضرره ومنفعته فينبغى أن يكون كالطبيب الحاذق فى استعمال الدواء الخطر إذ لا يضعه إلا فى موضعه وذلك فى وقت الحاجة وعلى قدر الحاجة . وتفصيله أن العوام المشتغلين بالحرف والصناعات يجب أن يتركوا على سلامة عقائدهم التى اعتقدوها مهما تلقنوا الاعتقاد الحق الذى ذكرناه فإن تعليمهم الكلام ضرر محض فى حقهم إذ ربما يثير لهم شكا ويزلزل عليهم الاعتقاد ولا يمكن القيام بعد ذلك بالإصلاح . وأما العامى المعتقد للبدعة فينبغى أن يدعى إلى الحق بالتلطف لا بالتعصب وبالكلام اللطيف المقنع للنفس المؤثر فى القلب القريب من سياق أدلة القرآن والحديث

الممزوج بفن من الوعظ والتحذير فإن ذلك أنفع من الجدل الموضوع على شرط المتكلمين ، إذ العامى إذا سمع ذلك اعتقد أنه نوع صنعة من الجدل تعلمها المتكلم ليستدرج الناس إلى اعتقاده فإن عجز عن الجواب قدر أن المجادلين من أهل مذهبه يقدرون على دفعه . فالجدل مع هذا ومع الأول حرام وكذلك مع من وقع فى شك إذ يجب إزالته باللطف والوعظ والأدلة القريبة المقبولة ، البعيدة عن تعمق الكلام .

واستقصاء الجدل إنما ينفع فى موضع واحد ، وهو أن يفرض عامى اعتقد البدعة بنوع جدل سمعه فيقابل ذلك الجدل بمثله فيعود إلى اعتقاد الحق وذلك فيمن ظهر له من الأنس بالمجادلة ما يمنعه عن القناعة بالمواعظ والتحذيرات العامية ، فقد انتهى هذا إلى حالة لا يشفيه منها إلا دواء الجدل فجاز أن يلقى إليه .

وأما فى بلاد تقل فيها البدعة ولا تختلف المذاهب فيقتصر فيها على ترجمة الاعتقاد الذى ذكرناه ولا يتعرض للأدلة ويتربص وقوع شبهة ، فإن وقعت ذكر بقدر الحاجة فإن كانت البدعة شائعة وكان يخاف على الصبيان أن يخدعوا فلا بأس أن يعلموا القدر الذى أودعناه كتاب الرسالة القدسية ليكون ذلك سبباً لدفع تأثير مجادلات المبتدعة إن وقعت إليهم ، وهذا مقدار مختصر وقد أودعناه هذا الكتاب لاختصاره ، فإن كان فيه ذكاء وتنبه بذكائه لموضع سؤال أو ثارت فى نفسه شبهة فقد بدت العلة المحذورة ، وظهر الداء فلا بأس أن يرقى منه إلى القدر الذى ذكرناه فى كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد ـ وهو قدر خمسين ورقة ـ وليس فيه خروج عن النظر فى قواعد العقائد إلى غير ذلك من مباحث المتكلمين . فإن أقنعه ذلك كف عنه ، وإن لم يقنعه ذلك فقد صارت العلة مزمنة والداء غالباً والمرض سارياً فليتلطف به الطبيب بقدر إمكانه وينتظر قضاء الله تعالى فيه إلى أن ينكشف له الحق بتنبيه من الله سبحانه أو يستمر على الشك والشبهة إلى ما قدر له ، فالقدر الذى يحويه ذلك الكتاب وجنسه من المصنفات هو الذى يرجى نفعه .

فأما الخارج منه فقسمان :

أحدهما : بحث فى غير قواعد العقائد كالبحث عن الاعتمادات وعن الأكوان وعن الإدراكات وعن الخوض فى الرؤية هل لها ضد يسمى المنع أو العمى ؟ وإن كان فذلك واحد هو منع عن جميع ما لا يرى أو ثبت لكل مرئى يمكن رؤيته منع بحسب عدده إلى غير ذلك من الترهات المضلات .

والقسم الثانى : زيادة تقرير لتلك الأدلة فى غير تلك القواعد وزيادة أسئلة وأجوبة وذلك أيضاً استقصاء لا يزيد إلا ضلالا وجهلا فى حق من لم يقنعه ذلك القدر فرب كلام يزيده الإطناب والتقرير غموضاً . ولو قال قائل : البحث عن حكم الإدراكات والاعتمادات فيه فائدة تشحيذ الخواطر . والخاطر آلة الدين كالسيف آلة الجهاد فلا بأس بتشحيذه كان كقوله لعب الشطرنج يشحذ الخاطر ، فهو من الدين أيضاً ، وذلك هوس ، فإن الخاطر يتشحذ بسائر علوم الشرع ، ولا يخاف فيها مضرة ، فقد عرفت بهذا القدر المذموم والقدر المحمود من الكلام والحال التى يذم فيها والحال التى يحمد فيها والشخص الذى ينتفع به والشخص الذى لا ينتفع به .

فإن قلت : مهما اعترفت بالحاجة إليه فى دفع المبتدعة ، والآن قد ثارت البدع وعمت البلوى وأرهقت الحاجة ، فلا بد أن يصير القيام بهذا العلم من فروض الكفايات كالقيام بحراسة الأموال وسائر الحقوق كالقضاء والولاية وغيرهما ؟ وما لم يشتغل العلماء بنشر ذلك والتدريس فيه والبحث عنه لا يدوم ولو ترك بالكلية لاندرس وليس فى مجرد الطباع كفاية لحل شبه المبتدعة ما لم يتعلم فينبغى أن يكون التدريس فيه والبحث عنه أيضاً من فروض الكفايات بخلاف زمن الصحابة رضى الله عنهم فإن الحاجة ما كانت ماسة إليه .

فاعلم أن الحق أنه لا بد في كل بلد من قائم بهذا العلم مستقل بدفع شبه المبتدعة التي ثارت في تلك البلدة وذلك يدوم بالتعليم ولكن ليس من الصواب تدريسه على العموم كتدريس الفقه والتفسير فإن هذا مثل الدواء والفقه مثل الغذاء وضرر الغذاء لا يحذر وضرر الدواء محذور لما ذكرنا فيه من أنواع الضرر ، فالعالم الذي ينبغي أن يخصص بتعليم هذا العلم من فيه ثلاث خصال ؛ احداها : التجرد للعلم والحرص عليه ، فإن المحترف يمنعه الشغل عن الاستتمام وإزالة الشكوك إذا عرضت . الثانية : الذكاء والفطنة والفصاحة فإن البليد لا ينتفع بفهمه والفدم لا ينتفع بحجاجه فيخاف عليه من ضرر الكلام ولا يرجى فيه نفعه . الثالثة : أن يكون في طبعه الصلاح والديانة والتقوى ولا تكون الشهوات غالبة عليه فإن الفاسق بأدنى شبهة يتخلع عن الدين فإن ذلك يحل عنه الحجر ويرفع السد الذي بينه وبين الملاذ فلا يحرص على إزالة الشبهة بل يغتنمها ليتخلص من أعباء التكليف فيكون مايفسده مثل هذا المتعلم أكثر مما يصلحه . وإذا عرفت هذه الانقسامات اتضح لك أن هذه الحجة المحمودة في الكلام إنما هي من جنس حجج القرآن من الكلمات اللطيفة المؤثرة في القلوب المقنعة للنفوس دون التغلغل في التقسيمات والتدقيقات التي لا يفهمها أكثر الناس وإذا فهموها اعتقدوا أنها شعوذة وصناعة تعلمها صاحبها للتلبيس، فإذا قابله مثله في الصنعة قاومه . وعرفت أن الشافعي وكافة السلف إنما منعوا عن الخوض فيه والتجرد له لما فيه من الضرر الذي نبهنا عليه . وأن ما نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما من مناظرة الخوارج وما نقل عن علي رضي الله عنه من المناظرة في القدر وغيره كان من الكلام الجلي الظاهر وفي محل الحاجة وذلك محمود في كل حال. نعم قد تختلف الأعصار في كثرة الحاجة وقلتها فلا يبعد أن يختلف الحكم لذلك فهذا حكم العقيدة التي تعبد الخلق بها وحكم طريق النضال عنها وحفظها فأما إزالة الشبهة وكشف الحقائق ومعرفة الأشياء على ماهي عليه وإدراك الأسرار التي يترجمها ظاهر ألفاظ هذه العقيدة فلا مفتاح له إلا المجاهدة وقمع الشهوات والإقبال بالكلية على الله تعالى وملازمة الفكر الصافي عن شوائب المجادلات وهي رحمة من الله عز وجل تفيض على من يتعرض لنفحاتها بقدر الرزق وبحسب التعرض وبحسب قبول المحل وطهارة القلب وذلك البحر الذي لا يدرك غوره ولا يبلغ ساحله .

﴿مسألة﴾ فإن قلت :هذا الكلام يشير إلى أن هذه العلوم لها ظواهر وأسرار وبعضها جلي يبدو أولا وبعضها خفي يتضح بالمجاهدة والرياضة والطلب الحثيث والفكر الصافي والسر الخالي عن كل شيء من أشغال الدنيا سوى المطلوب وهذا يكاد يكون مخالفاً للشرع إذ ليس للشرع ظاهر وباطن وسر وعلن بل الظاهر والباطن والسر والعلن واحد فيه ؟

فاعلم أن انقسام هذه العلوم إلى خفية وجلية لا ينكرها ذو بصيرة وإنما ينكرها القاصرون الذين تلقفوا في أوائل الصبا شيئاً وجمدوا عليه فلم يكن لهم ترق إلى شأو العلاء ومقامات العلماء والأولياء وذلك ظاهر من أدلة الشرع قال صلى الله عليه وسلم « إن للقرآن ظاهراً وباطنا وحدا ومطلعا (١) » وقال علي رضي الله عنه — وأشار إلى صدره — إن ههنا علوما جمة لو وجدت لها حملة . وقال صلى الله عليه وسلم « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « ماحدث أحد قوما بحديث لم تبلغه عقولهم إلا كان فتنة عليهم (٣) » وقال الله تعالى ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ وقال

---

(١) حديث « إن للقرآن ظاهراً وباطناً ... الحديث » أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث ابن مسعود بنحوه
(٢) حديث « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم ... الحديث » تقدم في العلم
(٣) حديث « ما حدث أحد قوماً بحديث لم تبلغه عقولهم ... الحديث » تقدم في العلم

صلى الله عليه وسلم « إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العالمون بالله تعالى[١] » الحديث إلى آخره كما أوردناه في كتاب العلم . وقال صلى الله عليه وسلم : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً [٢] » فليت شعري إن لم يكن ذلك سراً منع من إفشائه لقصور الأفهام عن إدراكه ، أو لمعنى آخر فلم لم يذكره لهم ، ولا شك أنهم كانوا يصدقونه لو ذكره لهم ؟ وقال ابن عباس رضي الله عنه عنهما في قوله عز وجل ﴿ الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ، يتنزل الأمر بينهن ﴾ لو ذكرت تفسيره لرجمتموني . وفي لفظ آخر : لقلتم إنه كافر . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين ، أما أحدهما فبثثته ، وأما الآخر لو بثثته لقطع هذا الحلقوم . وقال صلى الله عليه وسلم « ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ، ولكن بسر وقر في صدره[٣] » رضي الله عنه ، ولا شك في أن ذلك السر كان متعلقاً بقواعد الدين غير خارج منها ، وما كان من قواعد الدين لم يكن خافياً بظواهره على غيره . وقال سهل التستري رضي الله عنه : للعالم ثلاثة علوم : علم ظاهر يبذله لأهل الظاهر ، وعلم باطن لا يسعه إظهاره إلا لأهله ، وعلم هو بينه وبين الله تعالى لا يظهره لأحد . وقال بعض العارفين : إفشاء سر الربوبية كفر . وقال بعضهم : للربوبية سر لو أظهر لبطلت النبوة ، وللنبوة سر لو كشف لبطل العلم ، وللعلماء بالله سر لو أظهروه لبطلت الأحكام ، وهذا القائل إن لم يرد بذلك بطلان النبوة في حق الضعفاء لقصور فهمهم فما ذكره ليس بحق بل الصحيح أنه لا تناقض فيه ، وأن الكامل من لا يطفىء نور معرفته نور ورعه ، وملاك الورع النبوة .

﴿ مسألة ﴾ فإن قلت : هذه الآيات والأخبار يتطرق إليها تأويلات فبين لنا كيفية اختلاف الظاهر والباطن فإن الباطن إن كان مناقضاً للظاهر ففيه إبطال الشرع ، وهو قول من قال : إن الحقيقة خلاف الشريعة وهو كفر لأن الشريعة عبارة عن الظاهر ، والحقيقة عبارة عن الباطن وإن كان لا يناقضه ولا يخالفه فهو هو فيزول به الانقسام ولا يكون للشرع سر لا يفشى بل يكون الخفي والجلي واحد ؟

فاعلم أن هذا السؤال يحرك خطباً عظيما ، وينجر إلى علوم المكاشفة ويخرج عن مقصود علم المعاملة ، وهو غرض هذه الكتب ، فإن العقائد التي ذكرناها من أعمال القلوب وقد تعبدنا بتلقينها بالقبول والتصديق بعقد القلب عليها لا بأن يتوصل إلى أن ينكشف لنا حقائقها فإن ذلك لم يكلف به كافة الخلق ، ولولا أنه من الأعمال لما أوردناه في هذا الكتاب ، ولولا أنه عمل ظاهر القلب لاعمل باطنه لما أوردناه في الشطر الأول من الكتاب ، وإنما الكشف الحقيقي هو صفة سر القلب وباطنه ولكن إذا انجر الكلام إلى تحريك خيال في مناقضة الظاهر فلا بد من كلام وجيز في حله . فمن قال : إن الحقيقة تخالف الشريعة ، أو الباطن يناقض الظاهر فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان ، بل الأسرار التي يختص بها المقربون يدركها ولا يشاركهم الأكثرون في علمها ويمتنعون عن إفشائها إليهم ترجع إلى خمسة أقسام :

القسم الأول : أن يكون الشيء في نفسه دقيقاً تكل أكثر الأفهام عن دركه فيختص بدركه الخواص وعليهم أن لا يفشوه إلى غير أهله فيصير ذلك فتنة عليهم حيث تقصر أفهامهم عن الدرك وإخفاء سر الروح وكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيانه[٤] من هذا القسم فإن حقيقته مما تكل الأفهام عن دركه وتقصر الأوهام عن تصور

---

(١) حديث « إن العلم كهيئة المكنون .. الحديث » تقدم في العلم

(٢) حديث « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً » أخرجاه من حديث عائشة وأنس

(٣) حديث « مافضلكم أبو بكر بكثرة صيام ... الحديث » تقدم في العلم

(٤) حديث « كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيان الروح » أخرجه الشيخان من حديث ابن مسعود حين سأله اليهود عن الروح قال « فأمسك النبي الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيئاً ... الحديث »

كنهه . ولا تظنن أن ذلك لم يكن مكشوفا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإن من لم يعرف الروح فكأنه لم يعرف نفسه ومن لم يعرف نفسه فكيف يعرف ربه سبحانه؟ولا يبعد أن يكون ذلك مكشوفا لبعض الأولياء والعلماء وإن لم يكونوا أنبياء ولكنهم يتأدبون بآداب الشرع فيسكتون عما سكت عنه بل فى صفات الله عز وجل من الخفايا ما تقصر أفهام الجماهير عن دركه ولم يذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم منها إلا الظواهر للأفهام من العلم والقدرة وغيرهما حتى فهمها الخلق بنوع مناسبة توهموها إلى علمهم وقدرتهم إذ كان لهم من الأوصاف ما يسمى علما وقدرة فيتوهمون ذلك بنوع مقايسة . ولو ذكر من صفاته ما ليس للخلق مما يناسبه بعض المناسبة شىء لم يفهموه ، بل لذة الجماع إذا ذكرت للصبى أو العنين لم يفهمها إلا بمناسبة إلى لذة المطعوم الذى يدركه ولا يكون ذلك فهما على التحقيق والمخالفة بين علم الله تعالى وقدرته وعلم الخلق وقدرتهم أكثر من المخالفة بين لذة الجماع والأكل .

وبالجملة فلا يدرك الإنسان إلا نفسه وصفات نفسه مما هى حاضرة له فى الحال أو مما كانت له من قبل ثم بالمقايسة إليه يفهم ذلك لغيره ثم قد يصدق بأن بينهما تفاوتاً فى الشرف والكمال فليس فى قوة البشر إلا أن يثبت الله تعالى ما هو ثابت لنفسه من الفعل والعلم والقدرة وغيرها من الصفات مع التصديق بأن ذلك أكمل وأشرف فيكون معظم تحريمه على صفات نفسه لا على ما اختص الرب تعالى به من الجلال .ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك[1]» وليس المعنى : أنى أعجز عن التعبير عما أدركته ، بل هو اعتراف بالقصور عن إدراك كنه جلاله . ولذلك قال بعضهم : ما عرف الله بالحقيقة سوى الله عز وجل . وقال الصديق رضى الله عنه : الحمد لله الذى لم يجعل للخلق سبيلا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته .

ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط ،ولنرجع إلى الغرض ، وهو أن أحد الأقسام ماتكل الأفهام عن إدراكه ومن جملته الروح ومن جملته بعض صفات الله تعالى . ولعل الإشارة إلى مثله فى قوله صلى الله عليه وسلم : « إن لله سبحانه سبعين حجاباً من نور ، لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره[2]» .

القسم الثانى : من الخفيات التى تمتنع الأنبياء والصديقون عن ذكرها ما هو مفهوم فى نفسه لا يكل الفهم عنه ولكن ذكره يضر بأكثر المستمعين ولا يضر بالأنبياء والصديقين . وسر القدر الذى منع أهل العلم من إفشائه من هذا القسم .فلا يبعد أن يكون ذكر بعض الحقائق مضراً ببعض الخلق كما يضر ضوء الشمس الخفافيش وكما تضر رياح الورد بالجعل .وكيف يبعد هذا وقولنا إن الكفر والزنا والمعاصى والشرور كله بقضاء الله تعالى وإرادته ومشيئته حق فى نفسه وقد أضر سماعه بقوله إذ أوهم ذلك عندهم أنه دلالة على السفه ونقيض الحكمة والرضا بالقبيح والظلم ؟ وقد ألحد ابن الراوندى وطائفة من المخذولين بمثل ذلك . وكذلك سر القدر لو أفشى لأوهم عند أكثر الخلق عجزاً إذ تقصر أفهامهم عن إدراك ما يزيل ذلك الوهم عنهم . ولو قال قائل : إن القيامة لو ذكر ميقاتها وأنها بعد ألف سنة أو أكثر أو أقل لكان مفهوما ولكن لم يذكر لمصلحة العباد وخوفاً من الضرر فلعل المدة إليها بعيدة فيطول الأمد . وإذا استبطأت النفوس وقت العقاب قل اكتراثها ولعلها كانت قريبة فى علم الله سبحانه ولو ذكرت لعظم الخوف وأعرض الناس عن الأعمال وخربت الدنيا ، فهذا المعنى لو اتجه وصح فيكون مثالا لهذا القسم .

---

(١) حديث « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » أخرجه مسلم من حديث عائشة أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك فى سجوده (٢) حديث « إن لله سبعين حجاباً من نور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ماأدركه بصره » أخرجه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب العظمة من حديث أبى هريرة « بين الله وبين الملائكة الذين حول العرش سبعون حجابا من نور » وإسناده ضعيف . وفيه أيضاً من حديث أنس قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل هل ترى ربك ؟ قال إن بينى وبينه سبعين حجابا من نور » وفى الأكبر للطبرانى من حديث سهل ابن سعد « دون الله ألف حجاب من نور وظلمة » ولمسلم من حديث أبى موسى «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ماانتهى إليه بصره من خلقه » ولابن ماجه « شىء أدركه بصره »

القسم الثالث: أن يكون الشيء بحيث لو ذكر صريحا لفهم ولم يكن فيه ضرر ولكن يكنى عنه على سبيل الاستعارة والرمز ليكون وقعه فى قلب المستمع أغلب وله مصلحة فى أن يعظم وقت ذلك الأمر فى قلبه . كما لو قال قائل : رأيت فلانا يقلد الدر فى أعناق الخنازير ؛ فكنى به عن إفشاء العلم ، وبث الحكمة إلى غير أهلها فالمستمع قد يسبق إلى فهمه ظاهر اللفظ . والمحقق إذا نظر وعلم أن ذلك الإنسان لم يكن معه در ولا كان فى موضعه خنزير تفطن لدرك السر والباطن فيتفاوت الناس فى ذلك . ومن هذا قال الشاعر :

رجلان خياط وآخر حائك متقابلان على السماك الأعزل
لازال ينسج ذاك خرقة مدبر ويخيط صاحبه ثياب المقبل

فإنه عبر عن سبب سماوى فى الإقبال والإدبار برجلين صانعين وهذا النوع يرجع إلى التعبير عن المعنى بالصورة التى تضمن عين المعنى أو مثله ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « إن المسجد لينزوى من النخامة كما تنزوى الجلدة على النار(١) » وأنت ترى أن ساحة المسجد لا تنقبض بالنخامة ، ومعناه أن روح المسجد كونه معظما ورمى النخامة فيه تحقير له فيضاد معنى المسجدية مضادة النار لاتصال أجزاء الجلدة وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار(٢) » وذلك من حيث الصورة لم يكن قط ولا يكون ، ولكن من حيث المعنى هو كائن إذ رأس الحمار لم يكن بحقيقته لكونه وشكله بل بخاصيته وهى البلادة والحمق ، ومن رفع رأسه قبل الإمام فقد صار رأسه رأس حمار فى معنى البلادة والحمق وهو المقصود دون الشكل الذى هو قالب المعنى إذ من غاية الحمق أن يجمع بين الاقتداء وبين التقدم فإنهما متناقضان . وإنما يعرف أن هذا السر على خلاف الظاهر إما بدليل عقلى أو شرعى ، أما العقلى فأن يكون حمله على الظاهر غير ممكن كقوله صلى الله عليه وسلم «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن(٣)» إذ لو فتشنا عن قلوب المؤمنين لم نجد فيها أصابع فعلم أنها كناية عن القدرة التى هى سر الأصابع وروحها الخفى ، وكنى بالأصابع عن القدرة لأن ذلك أعظم وقعا فى تفهيم تمام الاقتدار .

ومن هذا القبيل فى كنايته عن الاقتدار قوله تعالى ﴿ إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ فإن ظاهره ممتنع إذ قوله « كن » إن كان خطابا للشىء قبل وجوده فهو محال إذ المعدوم لا يفهم الخطاب حتى يمتثل وإن كان بعد الوجود فهو مستغن عن التكوين . ولكن لما كانت هذه الكناية أوقع فى النفوس فى تفهيم غاية الاقتدار عدل إليها .

وأما المدرك بالشرع فهو أن يكون إجراؤه على الظاهر ممكنا ولكنه يروى أنه أريد به غير الظاهر كما ورد فى تفسير قوله تعالى ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ﴾ الآية وأن معنى الماء ههنا هو القرآن ومعنى الأودية هى القلوب وإن بعضها احتملت شيئا كثيرا وبعضها قليلا وبعضها لم يحتمل . والزبد مثل الكفر والنفاق فإنه وإن ظهر وطفا على رأس الماء فإنه لا يثبت والهداية التى تنفع الناس تمكث . وفى هذا القسم تعمق جماعة فأولوا ما ورد فى الآخرة من الميزان والصراط وغيرهما وهو بدعة إذ لم ينقل ذلك بطريق الرواية وإجراؤه على الظاهر غير محال فيجب إجراؤه على الظاهر .

القسم الرابع : أن يدرك الإنسان الشيء جملة ثم يدركه تفصيلا بالتحقيق والذوق بأن يصير حالا ملابسا له فيتفاوت العلمان ويكون الأول كالقشر والثانى كاللباب ، والأول كالظاهر والثانى كالباطن وذلك كما يتمثل للانسان

---

(١) حديث « إن المسجد لينزوى من النخامة ... » ولم أجد له أصلا
(٢) حديث « أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الإمام ... الحديث » أخرجاه من حديث أبى هريرة
(٣) حديث « قلب العبد بين أصبعين من أصابع الرحمن » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو

فى عينه شخص فى الظلمة أو على البعد فيحصل له نوع علم فإذا رآه بالقرب أو بعد زوال الظلام أدرك تفرقة بينهما ، ولا يكون الأخير ضد الأول بل هو استكمال له . فكذلك العلم والإيمان والتصديق ، إذ قد يصدق الإنسان بوجود العشق والمرض والموت قبل وقوعه ولكن تحققه به عند الوقوع أكمل من تحققه قبل الوقوع بل للانسان فى الشهوة والعشق وسائر الأحوال ثلاثة أحوال متفاوتة وإدراكات متباينة ، الأول : تصديقه بوجوده قبل وقوعه ، والثانى: عند وقوعه ، والثالث : بعد تصرمه . فإن تحققك بالجوع بعد زواله يخالف التحقيق به قبل الزوال وكذلك من علوم الدين ما يصير ذوقا فيكمل فيكون ذلك كالباطن بالإضافة إلى ما قبل ذلك، ففرق بين علم المريض بالصحة وبين علم الصحيح بها . ففى هذه الأقسام الأربعة تتفاوت الخلق وليس فى شيء منها باطن يناقض الظاهر بل يتممه ويكمله كما يتمم اللب القشر والسلام .

الخامس : أن يعبر بلسان المقال عن لسان الحال فالقاصر الفهم يقف على الظاهر ويعتقده نطقا ، والبصير بالحقائق يدرك السر فيه وهذا كقول القائل : قال الجدار للوتد : لم تشقنى ؟ قال : سل من يدقنى فلم يتركنى ورائى الحجر الذى ورائى ؟ فهذا تعبير عن لسان الحال بلسان المقال ، ومن هذا قوله تعالى ﴿ ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ﴾ فالبليد يفتقر فى فهمه إلى أن يقدر لهما حياة وعقلا وفهما للخطاب وخطابا هو صوت وحرف تسمعه السماء والأرض فتجيبان بحرف وصوت وتقولان ﴿ أتينا طائعين ﴾ والبصير يعلم أن ذلك لسان الحال وانه إنباء عن كونهما مسخرتين بالضرورة ومضطرتين إلى التسخير ، ومن هذا قوله تعالى ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ فالبليد يفتقر فيه إلى أن يقدر للجمادات حياة وعقلا ونطقا بصوت وحرف حتى يقول « سبحان الله » ليتحقق تسبيحه . والبصير يعلم أنه ما أريد به نطق اللسان بل كونه مسبحا بوجوده ومقدسا بذاته وشاهدا بوحدانية الله سبحانه كما يقال :

وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وكما يقال : هذه الصنعة المحكمة تشهد لصانعها بحسن التدبير وكمال العلم لا بمعنى أنها تقول أشهد بالقول ولكن بالذات والحال ، وكذلك ما من شيء إلا وهو محتاج فى نفسه إلى موجد يوجده ويبقيه ويديم أوصافه ويردده فى أطواره فهو بحاجته يشهد لخالقه بالتقديس يدرك شهادته ذوو البصائر دون الجامدين على الظواهر . ولذلك قال تعالى ﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ وأما القاصرون فلا يفقهون أصلا وأما المقربون والعلماء الراسخون فلا يفقهون كنهه وكماله إذ لكل شيء شهادات شتى على تقديس الله سبحانه وتسبيحه ، ويدرك كل واحد بقدر عقله وبصيرته ، وتعداد تلك الشهادات لا يليق بعلم المعاملة . فهذا الفن أيضا مما يتفاوت أرباب الظواهر وأرباب البصائر فى علمه وتظهر به مفارقة الباطن الظاهر .

وفى هذا المقام لأرباب المقامات إسراف واقتصاد فمن مسرف فى رفع الظواهر انتهى إلى تغيير جميع الظواهر والبراهين أو أكثرها حتى حملوا قوله تعالى ﴿ وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم ﴾ وقوله تعالى ﴿ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء ﴾ وكذلك المخاطبات التى تجرى من منكر ونكير وفى الميزان والصراط والحساب ومناظرات أهل النار وأهل الجنة فى قولهم ﴿ أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ﴾ زعموا أن ذلك كله بلسان الحال ، وغلا آخرون فى حسم الباب منهم أحمد بن حنبل رضى الله عنه حتى منع تأويل قوله ﴿ كن فيكون ﴾ وزعموا أن ذلك خطاب بحرف وصوت يوجد من الله تعالى فى كل لحظة بعدد كون كل مكون حتى سمعت بعض أصحابه يقول : إنه حسم باب التأويل إلا لثلاثة ألفاظ قوله صلى الله عليه وسلم « الحجر الأسود يمين الله فى

أرضه(١)» وقوله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » وقوله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم « إنى لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن(٢) » ومال إلى حسم الباب أرباب الظواهر . والظن بأحمد بن حنبل رضى الله عنه أنه علم أن الاستواء ليس هو الاستقرار النزول ليس هو الانتقال ولكنه منع من التأويل حسما للباب ورعاية لصلاح الخلق . فإنه إذا فتح الباب اتسع الخرق وخرج الأمر عن الضبط وجاوز حد الاقتصاد إذ حد ماجاوز الاقتصاد لا ينضبط فلا بأس بهذا الزجر ويشهد له سيرة السلف فإنهم كانوا يقولون : أمروها كما جاءت ، حتى قال مالك رحمه الله لما سئل عن الاستواء : الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة .

وذهبت طائفة إلى الاقتصاد وفتحوا باب التأويل فى كل مايتعلق بصفات الله سبحانه وتركوا مايتعلق بالآخرة على ظواهرها ومنعوا من التأويل فيه وهم الأشعرية . وزاد المعتزلة عليهم حتى أولوا من صفاته تعالى الرؤية وأولوا كونه سميعا بصيرا وأولوا المعراج وزعموا أنه لم يكن بالجسد وأولوا عذاب القبر والميزان والصراط وجملة من أحكام الآخرة ، ولكن أقروا بحشر الأجساد وبالجنة واشتمالها على المأكولات والمشمومات والمنكوحات والملاذ المحسوسة ، وبالنار واشتمالها على جسم محسوس يحرق الجلود ويذيب الشحوم . ومن ترقيهم إلى هذا الحد زاد الفلاسفة فأولوا كل ماورد فى الآخرة وردوه إلى آلام عقلية وروحانية ولذات عقلية وأنكروا حشر الأجساد وقالوا ببقاء النفوس وأنها تكون إما معذبة وإما منعمة بعذاب ونعيم لايدرك بالحس وهؤلاء هم المسرفون . وحد الاقتصاد بين هذا الانحلال كله وبين جمود الحنابلة دقيق غامض لايطلع عليه إلا الموفقون الذين يدركون الأمور بنور إلهى لا بالسماع ، ثم إذا انكشف لهم أسرار الأمور على ماهى عليه نظروا إلى السمع والألفاظ الواردة فما وافق ماشهدوه بنور اليقين قرروه وما خالف أولوه . فأما من يأخذ معرفة هذه الأمور من السمع المجرد فلا يستقر له فيها قدم ولا يتعين له موقف . والأليق بالمقتصر على السمع المجرد : مقام أحمد بن حنبل رحمه الله . والآن فكشف الغطاء عن حد الاقتصاد فى هذه الأمور داخل فى علم المكاشفة والقول فيه يطول فلا نخوض فيه ، والغرض بيان موافقة الباطن والظاهر وأنه غير مخالف له فقد انكشف بهذه الأقسام الخمسة أمور كثيرة . وإذا رأينا أن نقتصر بكافة العوام على ترجمة العقيدة التى حررناها وأنهم لا يكلفون غير ذلك فى الدرجة الأولى إلا إذا كان خوف تشويش لشيوع البدعة فيرقى فى الدرجة الثانية إلى عقيدة فيها لوامع من الأدلة مختصرة من غير تعمق فلنورد فى هذا الكتاب تلك اللوامع ولنقتصر فيها على ماحررناه لأهل القدس وسميناه « الرسالة القدسية فى قواعد العقائد » وهى موضوعة فى هذا الفصل الثالث من هذا الكتاب .

الفصل الثالث

من كتاب قواعد العقائد فى لوامع الأدلة للعقيدة التى ترجمناها بالقدس فنقول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى ميز عصابة السنة بأنوار اليقين وآثر رهط الحق بالهداية إلى دعائم الدين وجنبهم زيغ الزائغين وضلال الملحدين ووفقهم للاقتداء بسيد المرسلين وسددهم للتأسى بصحبه الأكرمين ويسر لهم اقتفاء آثار السلف

---

(١) حديث « الحجر يمين الله فى الأرض » أخرجه الحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمر

(٢) حديث « إنى لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن » أخرجه أحمد من حديث قال فيه « وأجد نفس ربكم من قبل اليمن » ورجاله ثقات .

الصالحين حتى اعتصموا من مقتضيات العقول بالحبل المتين ومن سير الأولين وعقائدهم بالمنهج المبين ، فجمعوا بالقبول بين نتائج العقول وقضايا الشرع المنقول ، وتحققوا أن النطق بما تعبدوا به من قول «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ليس له طائل ولا محصول إن لم تتحقق الإحاطة بما تدور عليه هذه الشهادة من الأقطاب والأصول ، وعرفوا أن كلمتى الشهادة على إيجازها تتضمن إثبات ذات الإله وإثبات صفاته وإثبات أفعاله وإثبات صدق الرسول ، وعلموا أن بناء الإيمان على هذه الأركان وهى أربعة ويدور كل ركن منها على عشرة أصول :

(الركن الأول) فى معرفة ذات الله تعالى ومداره على عشرة أصول : وهى العلم بوجود الله تعالى وقدمه وبقائه وأنه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض وأنه سبحانه ليس مختصا بجهة ولا مستقراً على مكان وأنه واحد .

(الركن الثانى) فى صفاته ويشتمل على عشرة أصول : وهو العلم بكونه حيا عالما قادرا مريدا سميعا بصيرا متكلما منزها عن حلول الحوادث وأنه قديم الكلام والعلم والإرادة .

(الركن الثالث) فى أفعاله تعالى ومداره على عشرة أصول : وهى أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى وأنها مكتسبة للعباد وأنها مرادة لله تعالى وأنه متفضل بالخلق والاختراع وأن له تعالى تكليف مالا يطاق ، وأن له إيلام البرىء ولا يجب عليه رعاية الأصلح ، وأنه لا واجب إلا بالشرع وأن بعثه الأنبياء جائز وأن نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ثابتة مؤيدة بالمعجزة .

(الركن الرابع) فى السمعيات ومداره على عشرة أصول : وهى إثبات الحشر والنشر وسؤال منكر ونكير وعذاب القبر والميزان والصراط وخلق الجنة والنار وأحكام الإمامة وأن فضل الصحابة على حسب ترتيبهم وشروط الإمامة .

فأما الركن الاول من أركان الإيمان : فى معرفة ذات الله سبحانه وتعالى
وأن الله تعالى واحد ومداره على عشرة أصول

(الأصل الأول) معرفة وجوده تعالى وأول مايستضاء به من الأنوار ويسلك من طريق الاعتبار ما أرشد إليه القرآن فليس بعد بيان الله سبحانه بيان وقد قال تعالى ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وبنينا فوقكم سبعا شداداً وجعلنا سراجاوهاجا وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا ﴾ وقال تعالى ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ وقال تعالى ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله انبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا ﴾ وقال تعالى ﴿ افرأيتم ماتمنون انتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ إلى قوله ﴿ للمقوين ﴾ فليس يخفى على من معه أدنى مسكة من عقل إذا تأمل بأدنى فكرة مضمون هذه الآيات وادار نظره على عجائب خلق الله فى الأرض والسموات وبدائع فطرة الحيوان والنبات أن هذا الأمر العجيب والترتيب المحكم لايستغنى عن صانع يدبره وفاعل يحكمه ويقدره ؛ بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخيره ومصرفة بمقتضى تدبيره . ولذلك قال الله تعالى ﴿ أفى الله شك فاطر السموات والأرض ﴾ ولهذا بعث الأنبياء صلوات الله عليهم لدعوة الخلق إلى التوحيد ليقولوا «لا إله إلا الله» وما أمروا أن يقولوا لنا إله وللعالم إله . فإن ذلك كان مجبولا فى فطرة عقولهم من مبدأ نشوهم وفى عنفوان شبابهم . ولذلك قال عز وجل ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله وقال تعالى فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى

فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ فإذاً فى فطرة الإنسان وشواهد القرآن مايغنى عن إقامة البرهان ولكنا على سبيل الاستظهار والاقتداء بالعلماء النظار نقول : من بداءه العقول أن الحادث لا يستغنى فى حدوثه عن سبب يحدثه ، والعالم حادث فإذاً لا يستغنى فى حدوثه عن سبب أما قولنا «أن الحادث لا يستغنى فى حدوثه عن سبب» فجلى فإن كل حادث مختص بوقت يجوز فى العقل تقدير تقديمه وتأخيره فاختصاصه بوقته دون ماقبله وما بعده يفتقر بالضرورة إلى المخصص . وأما قولنا « العالم حادث » فبرهانه أن أجسام العالم لا تخلو عن الحركة والسكون وهما حادثان وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث . ففى البرهان ثلاث دعاوى ؛ الأولى : قولنا « إن الأجسام لا تخلو عن الحركة والسكون » وهذه مدركة بالبديهة والاضطرار فلا يحتاج فيها إلى تأمل وافتكار فإن من عقل جسما لا ساكناً ولا متحركا كان لمتن الجهل راكباً وعن نهج العقل ناكبا . الثانية : قولنا « إنهما حادثان » ويدل على ذلك تعاقبهما ووجود البعض منهما بعد البعض وذلك مشاهد فى جميع الأجسام ماشوهد منها ومالم يشاهد فما من ساكن إلا والعقل قاض بجواز حركته وما من متحرك إلا والعقل قاض بجواز سكونه فالطارىء منهما حادث لطريانه والسابق حادث لعدمه ، لأنه لو ثبت قدمه لاستحال عدمه ـ على ما سيأتى بيانه وبرهانه فى إثبات بقاء الصانع تعالى وتقدس . الثالثة: قولنا « مالا يخلو عن الحوادث فهو حادث » وبرهانه أنه لو لم يكن كذلك لكان قبل كل حادث حوادث لا أول لها ولو لم تنقض تلك الحوادث بجملتها لا تنتهى النوبة إلى وجود الحادث الحاضر فى الحال وانقضاء ما لا نهاية له محال ولأنه لو كان للفلك دورات لا نهاية لها لكان لا يخلو عددها عن أن تكون شفعاً أو وتراً أو شفعاً ووتراً جميعا أو لا شفعاً ولا وتراً ، ومحال أن تكون شفعاً ووتراً جميعاً أو لا شفعاً ولا وتراً . فان ذلك جمع بين النفى والاثبات إذ فى إثبات أحدهما نفى الآخر وفى نفى أحدهما إثبات الآخر . ومحال أن يكون شفعاً لأن الشفع يصير وتراً بزيادة واحد . وكيف يعوز ما لا نهاية له : واحد ؟ ومحال أن يكون وتراً إذ الوتر يصير شفعاً بواحد فكيف يعوزها واحد مع أنه لانهاية لأعدادها . ومحال أن يكون لا شفعاً ولا وتراً إذ له نهاية . فتحصل من هذا العالم لا يخلو عن الحوادث فهو إذن حادث . وإذا ثبت حدوثه كان افتقاره إلى المحدث من المدركات بالضرورة .

(الأصل الثانى) العلم بأن الله تعالى قديم لم يزل ، أزلى ليس لوجوده أول بل هو أول كل شىء وقبل كل ميت وحى . وبرهانه أنه لو كان حادثاً ولم يكن قديماً لافتقر هو أيضاً إلى محدث وافتقر محدثه إلى محدث وتسلسل ذلك الى ما لا نهاية ، وما تسلسل لم يتحصل أو ينتهى الى محدث قديم هو الأول وذلك هو المطلوب الذى سميناه صانع العالم ومبدئه وبارئه ومحدثه ومبدعه .

(الأصل الثالث) العلم بأنه تعالى مع كونه أبديا أزليا ليس لوجوده آخر فهو الأول والآخر والظاهر والباطن لأن ما ثبت قدمه استحال عدمه ، وبرهانه أنه لو انعدم لكان لايخلو إما أن ينعدم بنفسه أو بمعدم يضاده ولو جاز أن ينعدم شىء يتصور دوامه لجاز أن يوجد شىء يتصور عدمه بنفسه ، فكما يحتاج طريان الوجود إلى سبب فكذلك يحتاج طريان العدم إلى سبب . وباطل أن ينعدم بمعدم يضاده لأن ذلك المعدم لو كان قديما لما تصور الوجود معه . وقد ظهر بالأصلين السابقين وجوده وقدمه فكيف كان وجوده فى القدم ومعه ضده ؟ فإن كان الضد المعدم حادثا كان محالا ، إذ ليس الحادث فى مضادته للقديم حتى يقطع وجوده بأولى من القديم فى مضادته للحادث حتى يدفع وجوده ، بل الدفع أهون من القطع والقديم أقوى وأولى من الحادث .

(الأصل الرابع) العلم بأنه تعالى ليس بجوهر يتحيز بل يتعالى ويتقدس عن مناسبة الحيز وبرهانه أن كل جوهر متحيز فهو مختص بحيزه ولا يخلو من أن يكون ساكناً فيه أو متحركاً عنه ، فلا يخلو عن الحركة أو السكون

وهما حادثان . ومالا يخلو عن الحوادث فهو حادث. ولو تصور جوهر متحيز قديم لكان يعقل قدم جواهر العالم فإن سماه مسم جوهرا ولم يرد به المتحيز كان مخطئا من حيث اللفظ لا من حيث المعنى .

(الأصل الخامس) العلم بأنه تعالى ليس بجسم مؤلف من جواهر . إذ الجسم عبارة عن المؤلف من الجواهر . وإذا بطل كونه جوهرا مخصوصا بحيز بطل كونه جسما لأن كل جسم مختص بحيز ومركب من جوهر فالجوهر يستحيل خلوه عن الافتراق والاجتماع والحركة والسكون والهيئة والمقدار وهذه سمات الحدوث ، ولو جاز أن صانع العالم جسم لجاز أن يعتقد الإلهية للشمس والقمر أو لشيء آخر من أقسام الأجسام . فإن تجاسر متجاسر على تسميته تعالى جسما من غير إرادة التأليف من الجواهر كان ذلك غلطا فى الإصابة فى نفى معنى الجسم .

(الأصل السادس) العلم بأنه تعالى ليس بعرض قائم بجسم أو حال فى محل لأن العرض مايحل فى الجسم . فكل جسم فهو حادث لامحالة ويكون محدثه موجودا قبله . فكيف يكون حالا فى الجسم وقد كان موجودا فى الأزل وحده وما معه غيره، ثم أحدث الأجسام والأعراض بعده ؟ ولأنه عالم قادر مريد خالق ـ كما سيأتى بيانه ـ وهذه الأوصاف تستحيل على الأعراض بل لا تعقل إلا لموجود قائم بنفسه مستقل بذاته . وقد تحصل من هذه الأصول أنه موجود قائم بنفسه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض . وأن العالم كله جواهر وأعراض وأجسام فإذاً لا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء بل هو الحى القيوم الذى ليس كمثله شيء وأنى يشبه المخلوق خالقه والمقدور مقدره والمصور مصوره . والأجسام والأعراض كلها من خلقه وصنعه فاستحال القضاء عليها بمماثلته ومشابهته .

(الأصل السابع) العلم بأن الله تعالى منزه الذات عن الاختصاص بالجهات فإن الجهة إما فوق وإما أسفل وإما يمين وإما شمال أو قدام أو خلف ، وهذا الجهات هو الذى خلقها وأحدثها بواسطة خلق الانسان إذ خلق له طرفين أحدهما يعتمد على الأرض ويسمى رجلا والآخر يقابله ويسمى رأسا . فحدث اسم الفوق لما يلى جهة الرأس واسم السفل لما يلى جهة الرجل حتى أن النملة التى منكسة تحت السقف تنقلب جهة الفوق فى حقها تحتا وإن كان فى حقنا فوقا وخلق للإنسان اليدين وإحداهما أقوى من الأخرى فى الغالب فحدث اسم اليمين للأقوى واسم الشمال لما يقابله . وتسمى الجهة التى تلى اليمين يمينا والأخرى شمالا ، وخلق له جانبين يبصر من أحدهما ويتحرك إليه فحدث اسم القدام للجهة التى يتقدم إليها بالحركة واسم الخلف لما يقابلها ، فالجهات حادثة بحدوث الإنسان ولو لم يخلق الإنسان بهذه الخلقة بل خلق مستديرا كالكرة لم يكن لهذه الجهات وجود البتة . فكيف كان فى الأزل مختصا بجهة والجهة حادثة؟ وكيف كان صار مختصا بجهة بعد أن لم يكن له ؟ أبأن خلق العالم فوقه ويتعالى عن أن يكون له فوق إذ تعالى أن يكون له رأس والفوق عبارة عما جهة الرأس أو خلق العالم تحته فتعالى عن أن يكون له تحت إذ تعالى عن أن يكون له رجل والتحت عبارة عما يلى جهة الرجل ، وكل ذلك مما يستحيل فى العقل ولأن المعقول من كونه مختصا بجهة أنه مختص بحيز اختصاص الجواهر أو مختص بالجواهر اختصاص العرض وقد ظهر استحالة كونه جوهرا أو عرضا . فاستحال كونه مختصا بالجهة وإن اريد بالجهة غير هذين المعنيين كان غلطا فى الإسم مع المساعدة على المعنى ولأنه لو كان فوق العالم لكان محاذيا له ، وكل محاذ لجسم فإما ان يكون مثله أو أصغر منه أو أكبر وكل ذلك تقدير محوج بالضرورة إلى مقدر ويتعالى عنه الخالق الواحد المدبر . فأما رفع الأيدى عند السؤال إلى جهة السماء فهو لأنها قبلة الدعاء . وفيه أيضا إشارة إلى ماهو وصف للمدعو من الجلال والكبرياء تنبيها بقصد جهة العلو على صفة المجد والعلاء فإنه تعالى فوق كل موجود بالقهر والاستيلاء .

(الأصل الثامن) العلم بأن الله تعالى مستو على عرشه بالمعنى الذى أراد الله تعالى بالاستواء وهو الذى لا ينافى وصف الكبرياء ولا يتطرق إليه سمات الحدوث والفناء. وهو الذى أريد بالاستواء إلى السماء حيث قال فى القرآن

﴿ ثم استوى إلى السماء وهى دخان ﴾ وليس ذلك إلا بطريق القهر والاستيلاء كما قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

واضطر أهل الحق إلى هذا التأويل كما اضطر أهل الباطن إلى تأويل قوله تعالى ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ إذ حمل ذلك بالاتفاق على الإحاطة والعلم . وحمل قوله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » على القدرة والقهر . وحمل قوله صلى الله عليه وسلم « الحجر الأسود يمين الله فى أرضه » على التشريف والإكرام لأنه لو ترك على ظاهره للزم منه المحال فكذا الاستواء لو ترك على الاستقرار والتمكن لزم منه كون المتمكن جسما مماسا للعرش إما مثله أو أصغر وذلك محال . وما يؤدى إلى المحال فهو محال

(الأصل التاسع) العلم بأنه تعالى مع كونه منزها عن الصورة والمقدار مقدسا عن الجهات والأقطار مرئى بالأعين والأبصار فى الدار الآخرة دار القرار لقوله تعالى ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ ولا يرى فى الدنيا تصديقا لقوله عز وجل ﴿ لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ ولقوله تعالى فى خطاب موسى عليه السلام ﴿ لن ترانى ﴾ وليت شعرى كيف عرف المعتزلى من صفات رب الأرباب ما جهله موسى عليه السلام ؟ وكيف سأل موسى عليه السلام الرؤية مع كونها محالا ؟ ولعل الجهل بذوى البدع والأهواء من الجهلة الأغبياء أولى من الجهل بالأنبياء صلوات الله عليهم. وأما وجه إجراء آية الرؤية على الظاهر فهو أنه غير مؤد إلى المحال فإن الرؤية نوع كشف وعلم إلا أنه أتم وأوضح من العلم فإذا جاز تعلق العلم به وليس فى جهة جاز تعلق الرؤية به وليس بجهة . وكما يجوز أن يرى الله تعالى الخلق وليس فى مقابلتهم جاز أن يراه الخلق من غير مقابلة . وكما جاز أن يعلم من غير كيفية وصورة جاز أن يرى كذلك .

(الأصل العاشر) العلم بأن الله عز وجل واحد لاشريك له فرد لاند له انفرد بالخلق والإبداع واستبد بالإيجاد والاختراع لا مثل له يساهمه ويساويه ولا ضد له فينازعه ويناويه . وبرهانه قوله تعالى ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ وبيانه أنه لو كان اثنين وأراد أحدهما فالثانى إن كان مضطراً إلى مساعدته كان هذا الثانى مقهورا عاجزا ولم يكن إلها قادرا ، وإن كان قادرا على مخالفته ومدافعته كان الثانى قويا قاهرا والأول ضعيفاً قاصرا ولم يكن إلها قادرا .

الركن الثانى العلم بصفات الله تعالى
ومداره على عشرة أصول

(الأصل الأول) العلم بأن صانع العالم قادر وأنه تعالى فى قوله ﴿ وهو على كل شىء قدير ﴾ صادق لأن العالم محكم فى صنعته مرتب فى خلقته ومن رأى ثوبا من ديباج حسن النسج والتأليف متناسب التطريز والتطريف ثم توهم صدور نسجه عن ميت لااستطاعة له أو عن إنسان لاقدرة له كان منخلعا عن غريزة العقل ومنخرطا فى سلك أهل الغباوة والجهل.

(الأصل الثانى) العلم بأنه تعالى عالم بجميع الموجودات ومحيط بكل المخلوقات ﴿ لايعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ﴾ صادق فى قوله ﴿ وهو بكل شىء عليم ﴾ ومرشد إلى صدقه بقوله تعالى ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ أرشدك إلى الاستدلال بالخلق عن العلم بأنك لاتستريب فى دلالة الخلق اللطيف والصنع المزين بالترتيب ولو فى الشىء الحقير الضعيف على علم الصانع بكيفية الترتيب والترصيف فما ذكره الله سبحانه هو المنتهى فى الهداية والتعريف .

(الأصل الثالث) العلم بكونه عز وجل حياً فإن من ثبت علمه وقدرته ثبت بالضرورة حياته ولو تصور قادر وعالم فاعل مدبر دون أن يكون حيا لجاز أن يشك فى حياة الحيوانات عند ترددها فى الحركات والسكنات بل فى حياة أرباب الحرف والصناعات وذلك انغماس فى غمرة الجهالات والضلالات .

(الأصل الرابع) العلم بكونه تعالى مريداً لأفعاله فلا موجود إلا وهو مستند إلى مشيئته وصادر عن إرادته فهو المبدىء المعيد والفعال لما يريد وكيف لايكون مريدا وكل فعل صدر منه أمكن أن يصدر منه ضده ؟ و ما لاضد له أمكن أن يصدر منه ذلك بعينه قبله أو بعده . والقدرة تناسب الضدين والوقتين مناسبة واحدة فلابد من إرادة صارفة للقدرة إلى أحد المقدورين . ولو أغنى العلم عن الإرادة فى تخصيص المعلوم حتى يقال إنما وجد فى الوقت الذى سبق العلم بوجوده لجاز أن يغنى عن القدرة حتى يقال وجد بغير قدرة لأنه سبق العلم بوجوده فيه .

(الأصل الخامس) العلم بأنه تعالى سميع بصير لا يعزب عن رؤيته هواجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير ولا يشذ عن سمعه صوت دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء . وكيف لا يكون سميعا بصيراً والسمع والبصر كمال لامحالة وليس بنقص ؟ فكيف يكون المخلوق أكمل من الخالق والمصنوع أسنى وأتم من الصانع ؟ وكيف تعتدل القسمة مهما وقع النقص فى جهته والكمال فى خلقه وصنعته أو كيف تستقيم حجة ابراهيم صلى الله عليه وسلم على أبيه إذ كان يعبد الأصنام جهلا وغياً فقال له ﴿ لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً ﴾ ولو انقلب ذلك عليه فى معبوده لأضحت حجته داحضة ودلالته ساقطة ولم يصدق قوله تعالى ﴿ وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ﴾ وكما عقل كونه فاعلا بلا جارحة وعالما بلا قلب ودماغ فليعقل كونه بصيراً بلا حدقة وسميعاً بلا أذن إذ لافرق بينهما .

(الأصل السادس) أنه سبحانه وتعالى متكلم بكلام وهو وصف قائم بذاته ليس بصوت ولا حرف بل لا يشبه كلامه كلام غيره كما لايشبه وجوده وجود غيره . والكلام بالحقيقة كلام النفس وإنما الأصوات قطعت حروفا للدلالات كما يدل عليها تارة بالحركات والإشارات وكيف التبس هذا على طائفة من الأغبياء ولم يلتبس على جهلة الشعراء حيث قال قائلهم :

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

ومن لم يعقله عقله ولا نهاه نهاه عن أن يقول : لسانى حادث ولكن مايحدث فيه بقدرتى الحادثة قديم ؛ فاقطع عن عقله طمعك وكف عن خطابه لسانك . ومن لم يفهم أن القديم عبارة عما ليس قبله شيء ، وأن الباء قبل السين فى قولك بسم الله فلا يكون السين المتأخر عن الباء قديما فنزه عن الالتفات إليه قلبك فلله سبحانه سر فى إبعاد بعض العباد ﴿ ومن يضلل الله فماله من هاد ﴾ ومن استبعد أن يسمع موسى عليه السلام فى الدنيا كلاما ليس بصوت ولا حرف فليستنكر أن يرى فى الآخرة موجودا ليس بجسم ولا لون . وإن عقل أن يرى ماليس بلون ولا جسم ولا قدر ولا كمية وهو إلى الآن لم ير غيره فليعقل فى حاسة السمع ماعقله فى حاسة البصر . وإن عقل أن يكون له علم واحد هو علم بجميع الموجودات فليعقل صفة واحدة للذات هو كلام بجميع مادل عليه من العبارات . وإن عقل كون السموات السبع وكون الجنة والنار مكتوبة فى ورقة صغيرة ومحفوظة فى مقدار ذرة من القلب وأن كل ذلك مرئى فى مقدار عدسة من الحدقة من غير أن تحل ذات السموات والأرض والجنة والنار فى الحدقة والقلب والورقة فليعقل كون الكلام مقروءا بالألسنة محفوظا فى القلوب مكتوبا فى المصاحف من غير حلول ذات الكلام فيها إذ لو حلت بكتاب الله ذات الكلام فى الورق لحل ذات الله تعالى بكتابة اسمه فى الورق وحلت ذات النار بكتابة اسمها فى الورق ولاحترق .

(الأصل السابع) أن الكلام القائم بنفسه قديم وكذا جميع صفاته إذ يستحيل أن يكون محلا للحوادث

داخلا تحت التغير بل يجب للصفات من نعوت القدم مايجب للذات فلا تعتريه التغيرات ولا تحله الحادثات بل لم يزل في قدمه موصوفا بمحامد الصفات ولا يزال في أبده كذلك منزها عن تغير الحالات لأن ما كان محل الحوادث لا يخلو عنها وما لايخلو عن الحوادث فهو حادث . وإنما ثبت نعت الحدوث للأجسام من حيث تعرضها للتغير وتقلب الأوصاف فكيف يكون خالقها مشاركا لها في قبول التغير ؟ وينبني على هذا أن كلامه قديم قائم بذاته وإنما الحادث هي الأصوات الدالة عليه ، وكما عقل قيام طلب التعلم وإرادته بذات الوالد للولد قبل أن يخلق ولده حتى إذا خلق ولده وعقل وخلق الله له علما متعلقا بما في قلب أبيه من الطلب صار مأمورا بذلك الطلب الذي قام بذات أبيه ودام وجوده إلى وقت معرفة ولده له فليعقل قيام الطلب الذي دل عليه قوله عز وجل ﴿اخلع نعليك﴾ بذات الله ومصير موسى عليه السلام مخاطبا به بعد وجوده إذ خلقت له معرفة بذلك الطلب وسمع لذلك الكلام القديم .

(الأصل الثامن) أن علمه قديم فلم يزل عالما بذاته وصفاته وما يحدثه من مخلوقاته . ومهما حدثت المخلوقات لم يحدث له علم بها بل حصلت مكشوفة له بالعلم الأزلي إذ لو خلق لنا علم به بقدوم زيد عند طلوع الشمس ودام ذلك العلم تقديرا حتى طلعت الشمس لكان قدوم زيد عند طلوع الشمس معلوما لنا بذلك العلم من غير تجدد علم آخر . فهكذا ينبغي أن يفهم قدم علم الله تعالى .

(الأصل التاسع) أن إرادته قديمة وهي في القدم تعلقت بإحداث الحوادث في أوقاتها اللائقة بها على وفق سبق العلم الأزلي إذ لو كانت حادثة لصار محل الحوادث ، ولو حدثت في غير ذاته لم يكن هو مريدا لها كما لا تكون أنت متحركا بحركة ليست في ذاتك وكيفما قدرت فيفتقر حدوثها إلى إرادة أخرى ، وكذلك الإرادة الأخرى تفتقر إلى أخرى ويتسلسل الأمر إلى غير نهاية ، ولو جاز أن يحدث إرادة بغير إرادة لجاز أن يحدث العالم بغير إرادة .

(الأصل العاشر) أن الله تعالى عالم بعلم ، حي بحياة ، قادر بقدرة ، ومريد بإرادة ، ومتكلم بكلام ، وسميع بسمع ، وبصير ببصر ، وله هذه الأوصاف من هذه الصفات القديمة . وقول القائل : عالم بلا علم ، كقوله : غني بلا مال ، وعلم بلا عالم وعالم بلا معلوم ، فإن العلم والمعلوم والعالم متلازمة كالقتل والمقتول والقاتل ، وكما لا يتصور قاتل بلا قتل ولا قتيل ولا يتصور قتيل بلا قاتل ولا قتل كذلك لا يتصور عالم بلا علم ولا علم بلا معلوم ولا معلوم بلا عالم بل هذه الثلاثة متلازمة في العقل لا ينفك بعض منها عن البعض . فمن جوز انفكاك العالم عن العلم فليجوز انفكاكه عن المعلوم وانفكاك العلم عن العالم إذ لا فرق بين هذه الأوصاف .

الركن الثالث : العلم بأفعال الله تعالى ، ومداره على عشرة أصول

(الأصل الأول) العلم بأن كل حادث في العالم فهو فعله وخلقه واختراعه لا خالق له سواه ولا محدث له إلا إياه . خلق الخلق وصنعهم وأوجد قدرتهم وحركتهم فجميع أفعال عباده مخلوقة له ومتعلقة بقدرته تصديقا له في قوله تعالى ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ وفي قوله تعالى ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ وفي قوله تعالى ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ أمر العباد بالتحرز في أقوالهم وأفعالهم وإسرارهم وإضمارهم لعلمه بموارد أفعالهم . واستدل العلم بالخلق ، وكيف لا يكون خالقا لفعل العبد وقدرته تامة لا قصور فيها وهي متعلقة بحركة أبدان العباد والحركات متماثلة وتعلق القدرة بها لذاتها فما الذي يقصر تعلقها عن بعض الحركات دون البعض مع تماثلها ؟ أو كيف يكون الحيوان مستبدا بالاختراع ويصدر من العنكبوت والنحل وسائر الحيوانات من لطائف الصناعات ما يتحير فيه عقول ذوي الألباب فكيف انفردت هي باختراعها دون رب الأرباب وهي غير عالمة بتفصيل ما يصدر منها من الاكتساب ؟ هيهات هيهات ! ذلت المخلوقات وتفرد بالملك والملكوت جبار الأرض والسموات .

(الأصل الثانى) أن انفراد الله سبحانه باختراع حركات العباد لا يخرجها عن كونها مقدورة للعباد على سبيل الاكتساب بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعاً وخلق الاختيار والمختار جميعاً . فأما القدرة فوصف للعبد وخلق للرب سبحانه وليست بكسب له . وأما الحركة فخلق للرب تعالى ووصف للعبد وكسب له فإنها خلقت مقدورة بقدرة هى وصفه وكانت للحركة نسبة إلى صفة أخرى تسمى قدرة فتسمى باعتبار تلك النسبة كسباً ، وكيف تكون جبراً محضاً وهو بالضرورة يدرك التفرقة بين الحركة المقدورة والرعدة الضرورية ؟ أو كيف يكون خلقاً للعبد وهو لا يحيط علماً بتفاصيل أجزاء الحركات المكتسبة وأعدادها . وإذا بطل الطرفان لم يبق إلا الاقتصاد فى الاعتقاد وهو أنها مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعاً وبقدرة العبد على وجه آخر من التعلق يعبر عنه باكتساب . وليس من ضرورة تعلق القدرة بالمقدور أن يكون بالاختراع فقط ؛ إذ قدرة الله تعالى فى الأزل قد كانت متعلقة بالعالم ولم يكن الاختراع حاصلا بها وهى عند الاختراع به نوعاً آخر من التعلق فيه يظهر أن تعلق القدرة ليس مخصوصاً بحصول المقدور بها .

(الأصل الثالث) أن فعل العبد وإن كان كسباً للعبد فلا يخرج عن كونه مراداً لله سبحانه . فلا يجرى فى الملك والملكوت طرفة عين ولا لفتة خاطر ولا فلتة ناظر إلا بقضاء الله وقدرته وبإرادته ومشيئته . ومنه الشر والخير والنفع والضر والإسلام والكفر والعرفان والنكر والفوز والخسران والغواية والرشد والطاعة والعصيان والشرك والإيمان لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه يضل من يشاء ويهدى من يشاء ﴿ لا يسئل عما يفعل وهم يسألون ﴾ ويدل عليه من النقل قول الأمة قاطبة « ماشاء كان ولم يشأ لم يكن » وقول الله عز وجل ﴿ أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ ويدل عليه من جهة العقل أن المعاصى والجرائم إن كان الله يكرهها ولا يريدها وإنما هى جارية على وفق إرادة العدو إبليس لعنه الله مع أنه عدو لله سبحانه ، والجارى على وفق إرادة العدو أكثر من الجارى على وفق إرادته تعالى فليت شعرى كيف يستجيز المسلم أن يرد ملك الجبار ذى الجلال والإكرام إلى رتبة لو ردت إليها رياسة زعيم ضيعة لاستنكف منها ؛ إذ لو كان ما يستمر لعدو الزعيم فى القرية أكثر مما يستقيم له لاستنكف من زعامته وتبرأ عن ولايته . والمعصية هى الغالبة على الخلق وكل ذلك جار عند المبتدعة على خلاف إرادة الحق تعالى وهذا غاية الضعف والعجز ، تعالى رب الأرباب عن قول الظالمين علواً كبيراً . ثم مهما ظهر أن أفعال العباد مخلوقة لله صح أنها مرادة له .

فإن قيل : فكيف ينهى عما يريد ويأمر بما لا يريد ؟

قلنا : الأمر غير الإرادة . ولذلك إذا ضرب السيد عبده فعاتبه السلطان عليه فاعتذر بتمرد عبده عليه فكذبه السلطان ـ فأراد إظهار حجته بأن يأمر العبد بفعل ويخالفه بين يديه ـ فقال له : أسرج هذه الدابة بمشهد من السلطان ، فهو يأمره بما لا يريد امتثاله ، ولو لم يكن آمراً لما كان عذره عند السلطان ممهداً ، ولو كان مريداً لامتثاله لكان مريداً لهلاك نفسه وهو محال .

(الأصل الرابع) أن الله تعالى متفضل بالخلق والاختراع ومتطول بتكليف العباد ولم يكن الخلق والتكليف واجباً عليه . وقالت المعتزلة وجب عليه ذلك لما فيه من مصلحة العباد وهو محال ؛ إذ هو الموجب والآمر والناهى وكيف يتهدف لإيجاب أو يتعرض للزوم وخطاب ؟ والمراد بالواجب أحد أمرين : إما الفعل الذى فى تركه ضرر إما آجل ؛ كما يقال يجب على العبد أن يطيع الله حتى لا يعذبه فى الآخرة بالنار ، أو ضرر عاجل : كما يقال يجب على العطشان أن يشرب حتى لا يموت . وإما أن يراد به الذى يؤدى عدمه إلى محال كما يقال وجود المعلوم واجب إذ عدمه يؤدى إلى محال وهو أن يصير العلم جهلا ، فإن أراد الخصم بأن الخلق واجب على الله بالمعنى الأول فقد عرضه

للضرر وإن أراد به المعنى الثانى فهو مسلم ؛ إذ بعد سبق العلم لابد من وجود المعلوم وان أراد به معنى ثالثاً فهو غير مفهوم . وقوله « يجب لمصلحة عباده » كلام فاسد فإنه اذا لم يتضرر بترك مصلحة العباد لم يكن للوجوب فى حقه معنى . ثم إن مصلحة العباد فى أن يخلقهم فى الجنة فأما أن يخلقهم فى دار البلايا ويعرضهم للخطايا ثم يهدفهم لخطر العقاب وهول العرض والحساب فما فى ذلك غبطة عند ذوى الألباب .

(الأصل الخامس) أنه يجوز على الله سبحانه أن يكلف الخلق ما لا يطيقونه - خلافاً للمعتزلة - ولو لم يجز ذلك لاستحال سؤال دفعه وقد سألوا ذلك فقالوا ﴿ ربنا ولاتحملنا ما لاطاقة لنا به ﴾ ولأن الله تعالى أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن أبا جهل لا يصدقه ، ثم أمره بأن يأمره بأن يصدقه فى جميع أقواله وكان من جملة أقواله أنه لا يصدقه ، فكيف يصدقه فى أنه لا يصدقه وهل هذا إلا محال وجوده ؟

(الأصل السادس) أن لله عز وجل إيلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق ومن غير ثواب لاحق - خلافاً للمعتزلة - لأنه متصرف فى ملكه ، والظلم هو عبارة عن التصرف فى ملك الغير بغير إذنه وهو محال على الله تعالى فإنه لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلماً . ويدل على جواز ذلك وجوده فإن ذبح البهائم إيلام لها وما صب عليها من أنواع العذاب من جهة الآدميين لم يتقدمها جريمة .

فان قيل : إن الله تعالى يحشرها ويجازيها على قدر ما قاسته من الآلام ويجب ذلك على الله سبحانه ؟

فنقول : من زعم أنه يجب على الله إحياء كل نملة وطئت وكل بقة عركت حتى يثيبها على آلامها فقد خرج عن الشرع والعقل ، إذ يقال وصف الثواب والحشر بكونه واجباً عليه إن كان المراد به أن يتضرر بتركه فهو محال ، وإن أريد به غيره فقد سبق أنه غير مفهوم إذ خرج عن المعانى المذكورة للواجب .

(الأصل السابع) أنه تعالى يفعل بعباده ما يشاء فلا يجب عليه رعاية الأصلح لعباده لما ذكرناه من أنه لا يجب عليه سبحانه شىء بل لا يعقل فى حقه الوجوب فإنه ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ وليت شعرى بما يجيب المعتزلى فى قوله « إن الأصلح واجب عليه » : وهو أن يفرض مناظرة فى الآخرة بين صبى وبين بالغ ماتا مسلمين فإن الله سبحانه يزيد فى درجات البالغ ويفضله على الصبى لأنه تعب بالإيمان والطاعات بعد البلوغ ، ويجب عليه ذلك - عند المعتزلى - فلو قال الصبى : يارب لم رفعت منزلته على فيقول : لأنه بلغ واجتهد فى الطاعات ، ويقول الصبى : أنت أمتنى فى الصبا فكان يجب عليك أن تديم حياتى حتى أبلغ فاجتهد ؛ فقد عدلت عن العدل فى التفضل عليه بطول العمر له دونى فلم فضلته ؟ فيقول الله تعالى : لأنى علمت أنك لو بلغت لأشركت أو عصيت فكان الأصلح لك الموت فى الصبا - هذا عذر المعتزلى عن الله عز وجل - وعند هذا ينادى الكفار من دركات لظى ويقولون : يارب أما علمت أننا اذا بلغنا أشركنا فهلا أمتنا فى الصبا فإنا رضينا بما دون منزلة الصبى المسلم ؟ فماذا يجاب عن ذلك وهل يجب عند هذا الا القطع بأن الأمور الإلهية تتعالى بحكم الجلال عن أن توزن بميزان أهل الاعتزال ؟

فإن قيل : مهما قدر على رعاية الأصلح للعباد ثم سلط عليهم أسباب العذاب كان ذلك قبيحاً لا يليق بالحكمة ؟ قلنا : القبيح ما لا يوافق الغرض حتى أنه قد يكون الشىء قبيحاً عند شخص حسناً عند غيره إذا وافق غرض أحدهما دون الآخر حتى يستقبح قتل الشخص أولياؤه ويستحسنه أعداؤه فإن أريد بالقبيح ما لا يوافق غرض البارى سبحانه فهو محال إذ لا غرض له فلا يتصور منه قبيح كما لا يتصور منه ظلم إذ لا يتصور منه التصرف فى ملك الغير . وإن أريد بالقبيح ما لا يوافق غرض الغير فلم قلتم إن ذلك عليه محال ؟ وهل هذا إلا مجرد تشه يشهد بخلافه ما قد فرضناه من مخاصمة أهل النار ؟ ثم الحكيم معناه العالم بحقائق الأشياء القادر على أحكام فعلها على وفق ارادته وهذا من أين يوجب رعاية

الأصلح ؟ وأما الحكيم منا يراعى الأصلح نظراً لنفسه ليستفيد به فى الدنيا ثناء وفى الآخرة ثوابا ، أو يدفع به عن نفسه آفة . وكل ذلك محال على الله سبحانه وتعالى .

(الأصل الثامن) أن معرفة الله سبحانه وطاعته واجبة بإيجاب الله سبحانه وتعالى وشرعه لا بالعقل - خلافا للمعتزلة - لأن العقل وإن أوجب الطاعة فلا يخلو إما أن يوجبها لغير فائدة وهو محال فإن العقل لا يوجب العبث ، وإما أن يوجبها لفائدة وغرض وذلك لا يخلو إما أن يرجع إلى المعبود وذلك محال فى حقه تعالى فإنه يتقدس عن الأغراض والفوائد ، بل الكفر والإيمان والطاعة والعصيان فى حقه تعالى سيان ، وإما أن يرجع ذلك إلى غرض العبد وهو أيضاً محال لأنه لا غرض له فى الحال بل يتعب فيه وينصرف عن الشهوات لسببه ، وليس فى المآل إلا الثواب والعقاب . ومن أين يعلم أن الله تعالى يثيب على المعصية والطاعة ولا يعاقب عليهما مع أن الطاعة والمعصية فى حقه يتساويان ، إذ ليس له إلى أحدهما ميل ولا به لأحدهما اختصاص وإنما عرف تمييز ذلك بالشرع . ولقد زل من أخذ هذا من المقايسة بين الخالق والمخلوق حيث يفرق بين الشكر والكفران لما له من الارتياح والاهتزاز والتلذذ بأحدهما دون الآخر .

فإن قيل : فإذا لم يجب النظر والمعرفة إلا بالشرع والشرع لا يستقر ما لم ينظر المكلف فيه ، فإذا قال المكلف للنبى : إن العقل ليس يوجب على النظر ، والشرع لا يثبت عندى إلا بالنظر ، ولست أقدم على النظر ، أدى ذلك إلى إفحام النبى صلى الله عليه وسلم ؟

قلنا : هذا يضاهى قول القائل للواقف فى موضع من المواضع إن وراءك سبعاً ضارياً فإن لم تبرح عن المكان قتلك ، وإن التفت وراءك ونظرت عرفت صدقى ، فيقول الواقف لا يثبت صدقك ما لم ألتفت ورائى ولا ألتفت ورائى ، ولا أنظر ما لم يثبت صدقك ، فيدل هذا على حماقة هذا القائل وتهدفه للهلاك ولا ضرر فيه على الهادى المرشد ، فكذلك النبى صلى الله عليه وسلم يقول « إن وراءكم الموت ودونه السباع الضارية والنيران المحرقة إن لم تأخذوا منها حذركم وتعرفوا لى صدقى بالالتفات إلى معجزتى وإلا هلكتم . فمن التفت عرف واحترز ونجا ، ومن لم يلتفت وأصر هلك وتردى ولا ضرر على إن هلك الناس كلهم أجمعون ، وإنما على البلاغ المبين » فالشرع يعرف وجود السباع الضارية بعد الموت ، والعقل يفيد فهم كلامه والإحاطة بإمكان ما يقوله فى المستقبل ، والطبع يستحث على الحذر من الضرر ، ومعنى كون الشىء واجباً أن فى تركه ضرراً ، ومعنى كون الشرع موجباً أنه معرف للضرر المتوقع فإن العقل لا يهدى إلى التهدف للضرر بعد الموت عند اتباع الشهوات ، فهذا معنى الشرع والعقل وتأثيرهما فى تقدير الواجب ، ولولا خوف العقاب على ترك ما أمر به لم يكن الوجوب ثابتاً ، إذ لا معنى للواجب إلا ما يرتبط بتركه ضرر فى الآخرة .

(الأصل التاسع) أنه ليس يستحيل بعثة الأنبياء عليهم السلام - خلافا للبراهمة - حيث قالوا لا فائدة من بعثتهم إذ فى العقل مندوحة عنهم لأن العقل لا يهدى إلى الأفعال المنجية فى الآخرة كما لا يهدى إلى الأدوية المفيدة للصحة ، فحاجة الخلق إلى الأنبياء كحاجتهم إلى الأطباء ، ولكن يعرف صدق الطبيب بالتجربة ، ويعرف صدق النبى بالمعجزة .

(الأصل العاشر) أن الله سبحانه قد أرسل محمداً عليه السلام خاتما للنبيين وناسخا لما قبله من شرائع اليهود والنصارى والصابئين ، وأيده بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة كانشقاق القمر[1] وتسبيح الحصى[2] وإنطاق العجماء[3]

(١) حديث : انشقاق القمر ، متفق عليه من حديث أنس وابن مسعود وابن عباس .

(٢) حديث « تسبيح الحصى » أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة من حديث أبى ذر ، وقال صالح بن أبى الأخضر ليس بالحافظ والمحفوظ رواية رجل من بنى سليم لم يسم عن أبى ذر .

(٣) حديث : إنطاق العجماء ، أخرجه أحمد والبيهقى بإسناد صحيح من حديث يعلى بن مرة فى البعير الذى شكا إلى النبى صلى الله عليه وسلم أهله ، وقد ورد فى كلام الضب والذئب والحمرة أحاديث رواها البيهقى فى الدلائل .

وما تفجر بين أصابعه من الماء . ومن آياته الظاهرة التى تحدى بها ـ كافة العرب ـ القرآن العظيم فإنهم مع تميزهم بالفصاحة والبلاغة تهدفوا لسبه ونهبه وقتله وإخراجه ـ كما أخبر الله عز وجل ـ عنهم ولم يقدروا على معارضته بمثل القرآن ، إذ لم يكن فى قدرة البشر الجمع بين جزالة القرآن ونظمه ، هذا مع ما فيه من أخبار الأولين مع كونه أمياً غير ممارس للكتب والإنباء عن الغيب فى أمور تحقق صدقه فيها فى الاستقبال كقوله تعالى ﴿ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين ﴾ وقوله ﴿ الم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين ﴾ ووجه دلالة المعجزة على صدق الرسل أن كل ما عجز عنه البشر لم يكن إلا فعلا لله تعالى فمهما كان مقروناً بتحدى النبى صلى الله عليه وسلم ينزل منزلة قوله « صدقت » وذلك مثل القائم بين يدى الملك المدعى على رعيته أنه رسول الملك إليهم فإنه مهما قال للملك إن كنت صادقا فقم على سريرك ثلاثا واقعد ـ على خلاف عادتك ـ ففعل الملك ذلك حصل للحاضرين علم ضرورى بأن ذلك نازل منزلة قوله « صدقت » .

الركن الرابع فى السمعيات وتصديقه صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه

ومداره على عشرة أصول

(الأصل الأول) الحشر والنشر(١) وقد ورد بهما الشرع وهو حق والتصديق بهما واجب لأنه فى العقل ممكن ، ومعناه الإعادة بعد الإفناء وذلك مقدور لله تعالى كابتداء الإنشاء قال الله تعالى ﴿ قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ﴾ فاستدل بالابتداء على الإعادة ، وقال عز وجل ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ والإعادة ابتداء ثان فهو ممكن كالابتداء الأول .

(الأصل الثانى) سؤال منكر ونكير(٢) وقد وردت به الأخبار فيجب التصديق به لأنه ممكن إذ ليس يستدعى إلا إعادة الحياة إلى جزء من الأجزاء الذى به فهم الخطاب وذلك ممكن فى نفسه ولا يدفع ذلك ما يشاهد من سكون أجزاء الميت وعدم سماعنا للسؤال له ، فإن النائم ساكن بظاهره ويدرك بباطنه من الآلام واللذات ما يحس بتأثيره عند التنبه ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع كلام جبريل عليه السلام ويشاهده ومن حوله لا يسمعونه ولا يرونه(٣) ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء فإذا لم يخلق لهم السمع والرؤية لم يدركوه .

(الأصل الثالث) عذاب القبر وقد ورد الشرع به قال الله تعالى ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ واشتهر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح الاستعاذة من عذاب القبر(٤) وهو ممكن فيجب التصديق به ولا يمنع من التصديق به تفرق أجزاء الميت فى بطون السباع وحواصل الطيور فإن المدرك لألم العذاب من الحيوان أجزاء مخصوصة يقدر الله تعالى على إعادة الإدراك إليها .

(الأصل الرابع) الميزان وهو حق قال الله تعالى ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴾ وقال تعالى ﴿ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه ﴾ الآية ووجهه أن الله تعالى يحدث فى صحائف الأعمال

---

(١) حديث : «الحشر والنشر» ، أخرجه الشيخان من حديث ابن عباس « إنكم لمحشورون إلى الله ... الحديث » ومن حديث سهل «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء ... الحديث » ومن حديث عائشة « يحشرون يوم القيامة حفاة » ومن حديث أبى هريرة « يحشر الناس على ثلاث طرائق ... الحديث » ولابن ماجه من حديث ميمونة مولاة النبى صلى الله عليه وسلم « أفتنا فى بيت المقدس وأرض المحشر والمنشر ... الحديث» وإسناده جيد (٢) حديث :سؤال منكر ونكير ، تقدم . (٣) حديث « كان يسمع كلام جبريل ويشاهده ومن حوله لا يسمعونه ولا يرونه » أخرجه البخارى ومسلم من حديث عائشة قالت « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما يا عائشة هذا جبريل يقرئك السلام فقلت وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ترى ما لا أرى » قلت وهذا هو الأغلب وإلا فقد رأى جبريل جماعة من الصحابة منهم عمر وابنه عبد الله وكعب بن مالك وغيرهم . (٤) حديث « استعاذ من عذاب القبر » أخرجاه من حديث أبى هريرة وعائشة وقد تقدم.

وزنا بحسب درجات الأعمال عند الله تعالى فتصير مقادير أعمال العباد معلومة للعباد حتى يظهر لهم العدل فى العقاب أو الفضل فى العفو وتضعيف الثواب .

(الأصل الخامس) الصراط وهو جسر ممدود على متن جهنم أرق من الشعرة وأحد من السيف قال الله تعالى ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم وقفوهم إنهم مسئولون ﴾ وهذا ممكن فيجب التصديق به فإن القادر على أن يطير الطير فى الهواء قادر على أن يسير الإنسان على الصراط .

(الأصل السادس) أن الجنة والنار مخلوقتان قال الله تعالى ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾ فقوله تعالى ﴿ أعدت ﴾ دليل على أنها مخلوقة فيجب إجراؤه على الظاهر إذ لا استحالة فيه ، ولا يقال لا فائدة فى خلقهما قبل يوم الجزاء لأن الله تعالى ﴿ لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ﴾ .

(الأصل السابع) أن الإمام الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على رضى الله عنهم ، ولم يكن نص رسول الله صلى الله عليه وسلم على إمام أصلا ؛ إذ لو كان لكان أولى بالظهور من نصبه آحاد الولاة والأمراء على الجنود فى البلاد ولم يخف ذلك فكيف خفى هذا ؟ وإن ظهر فكيف اندرس حتى لم ينقل إلينا فلم يكن أبو بكر إماما إلا بالاختيار والبيعة ، وأما تقدير النص على غيره فهو نسبة للصحابة كلهم إلى مخالفة رسول الله صلى عليه وسلم وخرق الإجماع ، وذلك مما لا يستجرىء على اختراعه إلا الروافض ، واعتقاد أهل السنة تزكية جميع الصحابة والثناء عليهم كما أثنى الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم . وما جرى بين معاوية وعلى رضى الله عنهما كان مبنياً على الاجتهاد لامنازعة من معاوية فى الإمامة ؛ إذ ظن على رضى الله عنه أن تسليم قتلة عثمان مع كثرة عشائرهم واختلاطهم بالعسكر يؤدى إلى اضطراب أمر الإمامة فى بدايتها فرأى التأخير أصوب ، وظن معاوية أن تأخير أمرهم مع عظم جنايتهم يوجب الإغراء بالأئمة ويعرض الدماء للسفك . وقد قال أفاضل العلماء : كل مجتهد مصيب . وقال قائلون : المصيب واحد ولم يذهب إلى تخطئة على ذو تحصيل أصلا .

(الأصل الثامن) أن فضل الصحابة رضى الله عنهم على ترتيبهم فى الخلافة إذ حقيقة الفضل ما هو فضل عند الله عز وجل وذلك لا يطلع عليه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ورد فى الثناء على جميعهم آيات وأخبار كثيرة(١) وإنما يدرك دقائق الفضل والترتيب فيه المشاهدون للوحى والتنزيل بقرائن الأحوال ودقائق التفصيل فلولا فهمهم ذلك لما رتبوا الأمر كذلك إذ كانوا لاتأخذهم فى الله لومة لائم ولا يصرفهم عن الحق صارف .

(الأصل التاسع) أن شرائط الإمامة بعد الإسلام والتكليف خمسة : الذكورة والورع والعلم والكفاية ونسبة لقوله صلى الله عليه وسلم « الأئمة من قريش(٢) » وإذا اجتمع عدد من الموصوفين بهذه الصفات فالإمام من انعقدت له البيعة من أكثر الخلق ، والمخالف للأكثر باغ يجب رده إلى الانقياد إلى الحق .

(الأصل العاشر) أنه لو تعذر وجود الورع والعلم فيمن يتصدى للإمامة وكان فى صرفه إثارة فتنة لا تطاق حكمنا بانعقاد إمامته ؛ لأنا بين أن نحرك فتنة بالاستبدال ، فما يلقى المسلمون فيه من الضرر يزيد على ما يفوتهم من نقصان هذه الشروط التى أثبتت لمزية المصلحة فلا يهدم أصل المصلحة شغفاً بمزاياها كالذى يبنى قصراً ويهدم مصراً وبين أن نحكم بخلو البلاد عن الإمام وبفساد الأقضية وذلك محال ونحن نقضى بنفوذ قضاء أهل البغى فى بلادهم لمسيس حاجتهم فكيف لا نقضى بصحة الامامة عند الحاجة والضرورة ؟ فهذه الأركان الأربعة الحاوية للأصول الأربعين هى قواعد العقائد فمن اعتقدها كان موافقاً لأهل السنة ومبايناً لرهط البدعة . فالله تعالى يسددنا بتوفيقه ويهدينا إلى الحق وتحقيقه بمنه وسعة جوده وفضله ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وكل عبد مصطفى .

---

(١) حديث « الثناء على الصحابة» تقدم .

(٢) حديث « الأئمة من قريش » أخرجه النسائى من حديث أنس والحاكم من حديث ابن عمر .

الفصل الرابع من قواعد العقائد

فى الإيمان والإسلام وما بينهما من الاتصال والانفصال وما يتطرق إليه من الزيادة والنقصان ووجه استثناء السلف فيه ، وفيه ثلاث مسائل

﴿ مسألة ﴾ اختلفوا فى أن الإسلام هو الإيمان أو غيره ، وإن كان غيره فهل هو منفصل عنه يوجد دونه أو مرتبط به يلازمه ؟ فقيل إنهما شيء واحد ، وقيل إنهما شيئان لايتواصلان ، وقيل إنهما شيئان ولكن يرتبط أحدهما بالآخر . وقد أورد أبو طالب المكى فى هذا كلاماً شديد الاضطراب كثير التطويل فلنهجم الآن على التصريح بالحق من غير تعريج على نقل ما لاتحصيل له . فنقول فى هذا ثلاثة مباحث : بحث عن موجب اللفظين فى اللغة ، وبحث عن المراد بهما فى إطلاق الشرع ، وبحث عن حكمهما فى الدنيا والآخرة . والبحث الأول لغوى ، والثانى تفسيرى ، والثالث فقهى شرعى .

البحث الأول : فى موجب اللغة ، والحق فيه أن الإيمان عبارة عن التصديق ، قال الله تعالى ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾ أى : بمصدق ، والإسلام عبارة عن التسليم والاستسلام بالإذعان والانقياد وترك التمرد والإباء والعناد ، وللتصديق محل خاص وهو القلب ، واللسان ترجمان . وأما التسليم فإنه عام فى القلب واللسان والجوارح فإن كل تصديق بالقلب فهو تسليم وترك الإباء والجحود ، وكذلك الاعتراف باللسان وكذلك الطاعة والانقياد بالجوارح فوجب اللغة أن الإسلام أعم والإيمان أخص ، فكان الإيمان عبارة عن أشرف أجزاء الإسلام ، فإذن كل تصديق تسليم وليس كل تسليم تصديقاً .

البحث الثانى : عن إطلاق الشرع ، والحق فيه أن الشرع قد ورد باستعمالهما على سبيل الترادف والتوارد وورد على سبيل الاختلاف وورود على سبيل التداخل ، أما الترادف ففى قوله تعالى ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ ولم يكن بالاتفاق إلا بيت واحد ، وقال تعالى ﴿ ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « بنى الإسلام على خمس(١) » وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة عن الإيمان فأجاب بهذه الخمس (٢) ، وأما الاختلاف فقوله تعالى ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ﴾ ومعناه استسلمنا فى الظاهر ، فأراد بالإيمان هنا التصديق بالقلب فقط وبالإسلام الاستسلام ظاهراً باللسان والجوارح ، وفى حديث جبرائيل عليه السلام لما سأله عن الإيمان فقال « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالبعث بعد الموت وبالحساب وبالقدر خيره وشره ، فقال : فما الإسلام ؟ فأجاب بذكر الخصال الخمس(٣) فعبر بالإسلام عن تسليم الظاهر بالقول والعمل . وفى الحديث عن سعد أنه صلى الله عليه وسلم « أعطى رجل عطاء ولم يعط الآخر ، فقال سعد : يا رسول الله تركت فلاناً لم تعطه وهو مؤمن ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : أو مسلم ، فأعاد عليه فأعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) » . وأما التداخل فما روى أيضا أنه

---

(١) حديث « بنى الإسلام على خمس » أخرجاه من حديث ابن عمر .

(٢) حديث « سئل عن الإيمان فأجاب بهذه الخمس » أخرجه البيهقى فى الاعتقاد من حديث ابن عباس فى قصة وفد عبد القيس « أتدرون ما الإيمان : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتصوموا رمضان وتحجوا البيت الحرام » والحديث فى الصحيحين لكن ليس فيه ذكر الحج وزاد«وأن تؤتوا خمساً من المغنم » .

(٣) حديث« جبريل لما سأله عن الإيمان فقال أن تؤمن بالله وملائكته ... الحديث» أخرجاه من حديث أبى هريرة ومسلم من حديث عمر دون ذكر « الحساب » فرواه البيهقى فى البعث وقد تقدم .

(٤) حديث سعد « أعطى رجلا عطاء ولم يعط الآخر ، فقال سعد يارسول الله تركت فلانا لم تعطه وهو مؤمن فقال أو مسلم ... الحديث » أخرجاه بنحوه .

سئل «فقيل أى الأعمال أفضل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : الإسلام ، فقال : أى الإسلام أفضل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : الإيمان (١) » وهذا دليل على الاختلاف وعلى التداخل وهو أوفق الاستعمالات فى اللغة لأن الإيمان عمل من الأعمال وهو أفضلها ، والإسلام هو تسليم إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح وأفضلها الذى بالقلب وهو التصديق الذى يسمى إيمـــانا والاستعمال لهما على سبيل الاختلاف وعلى سبيل التداخل وعلى سبيل الترادف كله غير خارج عن طريق التجوز فى اللغة . أما الاختلاف فهو أن يجعل الإيمان عبارة عن التصديق بالقلب فقط وهو موافق للغة ، والإسلام عبارة عن التسليم ظاهراً وهو أيضا موافق للغة فإن التسليم ببعض محال التسليم ينطلق عليه اسم التسليم ، فليس من شرط حصول الاسم عموم المعنى لكل محل يمكن أن يوجد المعنى فيه فإن من لمس غيره ببعض بدنه يسمى لامسا وإن لم يستغرق جميع بدنه ، فإطلاق اسم الإسلام على التسليم الظاهر عند عدم تسليم الباطن مطابق للسان وعلى هذا الوجه جرى قوله تعالى ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث سعد « أو مسلم » لأنه فضل أحدهما على الآخر ، ويريد بالاختلاف تفاضل المسمين وأما التداخل فموافق أيضا للغة فى خصوص الإيمان وهو أن يجعل الإسلام عبارة عن التسليم بالقلب والقول والعمل جميعا ، والإيمان عبارة عن بعض ما دخل فى الإسلام وهو التصديق بالقلب وهو الذى عنيناه بالتداخل وهو موافق للغة فى خصوص الإيمان وعموم الإسلام للكل ، وعلى هذا خرج قوله «الإيمان» فى جواب قول السائل « أى الإسلام أفضل » لأنه جعل الإيمان خصوصا من الإسلام فأدخله فيه ، وأما استعماله فيه على سبيل الترادف بأن يجعل الإسلام عبارة عن التسليم بالقلب والظاهر جميعا فان كل ذلك تسليم الظاهر بالقول والعمل ثمرة تصديق الباطن ونتيجته ، وقد يطلق اسم الشجر ويراد به الشجر مع ثمره على سبيل التسامح فيصير بهذا القدر من التعميم مرادفا لاسم الإسلام ومطابقا له فلا يزيد عليه ولا ينقص ، وعليه خرج قوله ﴿ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ .

البحث الثالث : عن الحكم الشرعى والإسلام والإيمان حكمان أخروى ودنيوى . أما الأخروى فهو الإخراج من النار ومنع التخليد إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان (٢) » وقد اختلفوا فى أن هذا الحكم على ماذا يترتب ؟ وعبروا عنه بأن الإيمان ماذا هو ؟ فمن قائل إنه مجرد العقد ومن قائل يقول إنه عقد بالقلب وشهادة باللسان ومن قائل يزيد ثالثا وهو العمل بالأركان ونحن نكشف الغطاء عنه ونقول من جمع بين هذه الثلاثة فلا خلاف فى أن مستقره الجنة وهذه درجة . والدرجة الثانية : أن يوجد اثنان وبعض الثالث ــ وهو القول والعقد وبعض الأعمال ــ ولكن ارتكب صاحبه كبيرة أو بعض الكبائر ، فعند هذا قالت المعتزلة : خرج بهذا عن الإيمان ولم يدخل فى الكفر بل اسمه فاسق وهو على منزلة بين المنزلتين وهو مخلد فى النار ، وهذا باطل كما سنذكره . الدرجة الثالثة : أن يوجد التصديق بالقلب والشهادة باللسان دون الأعمال بالجوارح ، وقد

---

(١) حديث «سئل أى الأعمال أفضل فقال الإسلام وأى الإسلام أفضل فقال الإيمان» أخرجه أحمد والطبرانى من حديث عمرو بن عنبسة بالشطر الأخير « قال رجل يارسول الله أى الإسلام أفضل قال الإيمان » وإسناده صحيح .

(٢) حديث « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان » أخرجاه من حديث أبى سعيد الخدرى فى الشفاعة ، وفيه « إذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه . . . الحديث » ولهما من حديث أنس « فيقال انطلق فأخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة ــ أو خردلة ــ من إيمان » لفظ البخارى « منهما » وله تعليقاً من حديث أنس « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن ذرة من إيمان » وهو عندهما متصل بلفظ « خير » مكان « إيمان » .

اختلفوا فى حكمه ، فقال أبو طالب المكى : العمل بالجوارح من الإيمان ولايتم دونه وادعى الإجماع فيه واستدل بأدلة تشعر بنقيض كقوله تعالى ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ إذهذا يدل على أن العمل وراء الإيمان لا من نفس الإيمان وإلا فيكون العمل فى حكم المعاد ، والعجب أنه ادعى الإجماع فى هذا وهو مع ذلك ينقل قوله صلى الله عليه وسلم « لا يكفر أحد إلا بعد جحوده لما أقر به (١) » وينكر على المعتزلة قولهم بالتخليد فى النار بسبب الكبائر ، والقائل بهذا قائل بنفس مذهب المعتزلة ، إذ يقال له من صدق بقلبه وشهد بلسانه ومات فى الحال فهل هو فى الجنة ؟ فلا بدأن يقول نعم ، وفيه حكم بوجود الإيمان دون العمل ، فنزيدونقول لو بقى حياحتى دخل عليه وقت صلاة واحدة فتركها ثم مات أو زنى ثم مات ، فهو يخلدفى النار ؟ فإن قال نعم فهو مرادالمعتزلة ، وإن قال لا فهو تصريح بأن العمل ليس ركنا من نفس الإيمان ولاشرطافى وجوده ولافى استحقاق الجنة به ، وإن قال أردت به أن يعيش مدة طويلة ولا يصلى ولا يقدم على شىء من الأعمال الشرعية ، فنقول فما ضبط تلك المدة وما عدد تلك الطاعات التى بتركها يبطل الإيمان وماعدد الكبائر التى بارتكابها يبطل الإيمان ؟ وهذا لا يمكن التحكم بتقديره ولم يصر إليه صائر أصلا . الدرجة الرابعة : أن يوجدالتصديق بالقلب قبل أن ينطق باللسان أو يشتغل بالأعمال ومات فهل نقول مات مؤمنا بينه وبين الله تعالى ؟ وهذا مما اختلف فيه ومن شرط القول لتمام الإيمان يقول هذا مات قبل الإيمان وهوفاسد إذ قال صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان » وهذا قلبه طافح بالإيمان فكيف يخلد فى النار ؟ ولم يشترط فى حديث جبريل عليه السلام للإيمان إلا التصديق بالله تعالى وملائكته وكتبه واليوم الآخر كما سبق . الدرجة الخامسة : أن يصدق بالقلب ويساعده من العمر مهلة النطق بكلمتى الشهادة وعلم وجوبها ولكنه لم ينطق بها فيحتمل أن يجعل امتناعه عن النطق كامتناعه عن الصلاة ، ونقول هو مؤمن غير مخلد فى النار . والإيمان هو التصديق المحض واللسان ترجمان الإيمان فلابد أن يكون الإيمان موجودا بتمامه قبل اللسان حتى يترجمه اللسان وهذا هو الأظهر ، إذ لا مستند إلا اتباع موجب الألفاظ ووضع اللسان أن الإيمان هو عبارة عن التصديق بالقلب . وقد قال صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان » ولا ينعدم الإيمان من القلب بالسكوت عن النطق الواجب كما لا ينعدم بالسكوت عن الفعل الواجب ، وقال قائلون : القول ركن إذ ليس كلمتا الشهادة إخبارا عن القلب بل هو إنشاء عقد آخر وابتداء شهادة والتزام والأول أظهر ، وقد غلا فى هذا طائفة المرجئة فقالوا هذا لا يدخل النار أصلا وقالوا إن المؤمن وإن عصى فلا يدخل النار وسنبطل ذلك عليهم . الدرجة السادسة : أن يقول بلسانه « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ولكن لم يصدق بقلبه فلا نشك فى أن هذا فى حكم الآخرة من الكفار وأنه مخلد فى النار ، ولا نشك فى أنه فى حكم الدنيا الذى يتعلق بالأئمة والولاة من المسلمين لأن قلبه لا يطلع عليه . وعلينا أن نظن به أنه ما قاله بلسانه إلا وهو منطو عليه فى قلبه وإنما نشك فى أمر ثالث وهو الحكم الدنيوى فيما بينه وبين الله تعالى ، وذلك بأن يموت له فى الحال قريب مسلم ثم يصدق بعد ذلك بقلبه ثم يستفتى ويقول كنت غير مصدق بالقلب حالة الموت والميراث الآن فى يدى فهل يحل لى بينى وبين الله تعالى ؟ أو نكح مسلمة ثم صدق بقلبه هل تلزمه إعادة النكاح ؟ هذا محل نظر فيحتمل أن يقال أحكام الدنيا منوطة بالقول الظاهر ظاهرا وباطنا ويحتمل أن يقال تناط بالظاهر فى حق غيره لأن باطنه غير ظاهر لغيره وباطنه ظاهر له فى نفسه بينه وبين الله تعالى ، والأظهر والعلم عند الله

---

(١) حديث « لاتكفروا أحدا إلا بجحوده بما أقر به » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى سعيد « لن يخرج أحد من الإيمان إلا بجحود ما دخل فيه » وإسناده ضعيف .

تعالى أنه لايحل له ذلك الميراث ويلزمه إعادة النكاح ولذلك كان حذيفة رضى الله عنه لايحضر جنازة من يموت من المنافقين وعمر رضى عنه كان يراعى ذلك منه فلا يحضر إذا لم يحضر حذيفة رضى الله عنه ، والصلاة فعل ظاهر فى الدنيا وإن كان من العبادات ، والتوقى عن الحرام أيضا من مايجب لله كالصلاة لقوله صلى الله عليه وسلم « طلب الحلال فريضة بعد الفريضة » وليس هذا مناقضاً لقولنا إن الإرث حكم الإسلام وهو الاستسلام بل الاستسلام التام هو مايشمل الظاهر والباطن وهذه مباحث فقهية ظنية تبنى على ظواهر الألفاظ والعموميات والأقيسة فلا ينبغى أن يظن القاصر فى العلوم أن المطلوب فيه القطع من حيث جرت العادة بإرادة فى فن الكلام الذى يطلب فيه القطع فما أفلح من نظر إلى العادات والمرسم فى العلوم .

فإن قلت : فما شبهة المعتزلة والمرجئة وما حجة بطلان قولهم ؟

فأقول : شبهتهم عمومات القرآن ، أما المرجئة فقالوا لايدخل المؤمن النار وإن أتى بكل المعاصى لقوله عز وجل ﴿ فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقا ﴾ ولقوله عز وجل ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون ﴾ الآية ولقوله تعالى ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ـ إلى قوله ـ فكذبنا وقلنا مانزل الله من شىء ﴾ فقوله ﴿ كلما ألقى فيها فوج ﴾ عام فينبغى أن يكون كل من ألقى فى النار مكذبا ولقوله تعالى ﴿ لايصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى وهذا حصر وإثبات وإثبات ونفى ولقوله تعالى ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ﴾ فالإيمان رأس الحسنات ولقوله تعالى ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ وقال تعالى ﴿ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾ ولاحجة لهم فى ذلك فإنه حيث ذكر الإيمان فى هذه الآيات أريد به الإيمان مع العمل إذا بينا أن الإيمان قد يطلق ويراد به الإسلام وهو الموافقة بالقلب والقول والعمل ؛ ودليل هذا التأويل أخبار كثيرة فى معاقبة العاصى ومقادير العقاب وقوله صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان » فكيف يخرج إذ لم يدخل ؟ ومن القرآن قوله تعالى ﴿ إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ﴾ والاستثناء بالمشيئة يدل على الانقسام وقوله تعالى ﴿ ومن يعص الله ورسوله فإن له نارجهنم خالدين فيها ﴾ وتخصيصه بالكسر تحكم وقوله تعالى ﴿ ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار ﴾ فهذه العمومات فى معارضة عموماتهم ولابد من تسليط التخصيص والتأويل على الجانبين لأن الأخبار مصرحه بأن العصاة يعذبون[1] بل قوله تعالى ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ كالصريح فى أن ذلك لابد منه للكل إذلا يخلو مؤمن عن ذنب يرتكبه وقوله تعالى ﴿ لايصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى ﴾ أراد به من جماعة مخصوصين أو أراد بالأشقى شخصا معينا أيضا وقوله تعالى ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ﴾ أى فوج من الكفار ، وتخصيص العمومات قريب . ومن هذه الآية وقع للأشعرى وطائفة من المتكلمين إنكار صيغ العموم وأن هذه الألفاظ يتوقف فيها إلى ظهور قرينة تدل على معناها . وأما المعتزلة فشبهتهم قوله تعالى ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾ وقوله ﴿ والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنو وعملوا الصالحات ﴾ وقوله تعالى ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ﴾ ثم قال ﴿ ثم ننجى الذين اتقوا ﴾ وقوله تعالى ﴿ ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم ﴾ وكل آية ذكر الله عز وجل العمل الصالح فيها مقرونا بالإيمان وقوله تعالى ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ﴾ وهذه العمومات أيضا مخصوصة بدليل قوله تعالى

---

(١) حديث : تعذيب العصاة ، أخرجه البخارى من حديث أنس « ليصيبن أقواما سفع من النار بذنوب أصابوها . . . الحديث » ويأتى فى ذكر الموت عدة أحاديث .

﴿ ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ﴾ فينبغي أن تبقى له مشيئة فى مغفرة ماسوى الشرك . وكذلك قوله عليه السلام « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان » وقوله تعالى ﴿ إنا لا تضيع أجر من أحسن عملا ﴾ وقوله تعالى ﴿ إن الله لايضيع أجر المحسنين ﴾ فكيف يضيع أجر أصل الإيمان وجميع الطاعات بمعصية واحدة ؟ وقوله تعالى ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا ﴾ أى لإيمانه وقدورد على مثل هذا السبب * فإن قلت : فقد مال الاختيار إلى أن الإيمان حاصل دون العمل . وقد اشتهر عن السلف قولهم : الإيمان عقد وقول وعمل ، فما معناه ؟ قلنا : لا يبعد أن يعد العمل من الإيمان لأنه مكمل له ومتمم كما يقال الرأس واليدان من الإنسان ومعلوم أنه يخرج عن كونه إنسانا بعدم الرأس ولا يخرج عنه بكونه مقطوع اليد . وكذلك يقال التسبيحات والتكبيرات من الصلاة وإن كانت لاتبطل بفقدها فالتصديق بالقلب من الإيمان كالرأس من وجود الإنسان إذ ينعدم بعدمه وبقية الطاعات كالأطراف بعضها أعلى من بعض وقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن(١) » والصحابة رضى الله عنهم ما اعتقدوا مذهب المعتزلة فى الخروج عن الإيمان بالزنا ولكن معناه غير مؤمن حقا إيمانا تاما كاملا كما يقال للعاجز المقطوع الأطراف هذا ليس بإنسان أى ليس له الكمال الذى هو وراء حقيقة الإنسانية .

﴿ مسألة ﴾ فإن قلت : فقد اتفق السلف على أن الإيمان يزيد وينقص ـ يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ـ فإذا كان التصديق هو الإيمان فلا يتصور فيه زيادة ولا نقصان ؟ .

فأقول : السلف هم الشهود العدول وما لأحد عن قولهم عدول فما ذكروه حق وإنما الشأن فى فهمه ، وفيه دليل على أن العمل ليس من أجزاء الإيمان وأركان وجوده بل هو مزيد عليه يزيد به والزائد موجود والشيء لا يزيد بذاته فلا يجوز أن يقال الإنسان يزيد برأسه بل يقال بلحيته وسمنه ، ولا يجوز أن يقال الصلاة تزيد بالركوع والسجود بل تزيد بالآداب والسنن فهذا تصريح بأن الإيمان له وجود ثم بعد الوجود يختلف حاله بالزيادة والنقصان .

فإن قلت . فالإشكال قائم فى أن التصديق كيف يزيد وينقص وهو خصلة واحدة ؟

فأقول : إذ تركنا المداهنة ولم نكترث بتشغيب من تشغب وكشفنا الغطاء ارتفع الإشكال فنقول : الإيمان اسم مشترك يطلق من ثلاثة أوجه الأول : أنه يطلق للتصديق بالقلب على سبيل الاعتقاد والتقليد من غير كشف وانشراح صدر وهو إيمان العوام بل إيمان الخلق كلهم إلا الخواص ، وهذا الاعتقاد عقدة عن القلب تارة تشتد وتقوى وتارة تضعف وتسترخى كالعقدة على الخيط مثلا . ولا تستبعد هذا واعتبره باليهودى وصلابته فى عقيدته التى لا يمكن نزوعه عنها بتخويف وتحذير ولا بتخيل ووعظ ولا تحقيق وبرهان وكذلك النصرانى والمبتدعة وفيهم من تشككه بأدنى كلام ويمكن استنزاله عن اعتقاده بأدنى استمالة أو تخويف مع أنه غير شاك فى عقده كالأول ولكنهما متفاوتان فى شدة التصميم ، وهذا موجد فى الاعتقاد الحق أيضا والعمل يؤثر فى نماء هذا التصميم وزيادته كما يؤثر سقى الماء فى نماء الأشجار ولذلك قال تعالى ﴿ فزادتهم إيمانا ﴾ وقال تعالى ﴿ ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم فيما يروى فى بعض الأخبار « الإيمان يزيد وينقص(٢) » وذلك بتأثير الطاعات فى القلب وهذا لا يدركه إلا من راقب أحوال نفسه فى أوقات المواظبة على العبادة والتجرد لها بحضور القلب مع أوقات الفتور وإدراك التفاوت فى السكون إلى عقائد الإيمان فى هذه الأحوال حتى يزيد عقده استعصاء على من يريد حله بالتشكيك بل من يعتقد فى اليتيم معنى الرحمة إذ عمل بموجب اعتقاده فمسح رأسه وتلطف به أدرك

---

(١) حديث « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٢) حديث « الإيمان يزيد وينقص » أخرجه ابن عدى فى الكامل وأبو الشيخ فى كتاب الثواب من حديث أبى هريرة ، وقال ابن عدى باطل فيه محمد بن أحمد بن حرب الملحى يتعمد الكذب وهو عند ابن ماجة موقوف على على أبى هريرة وابن عباس وأبى الدرداء .

من باطنه تأكيد الرحمة وتضاعفها بسبب العمل ، وكذلك معتقد التواضع إذا عمل بموجبه عملا مقبلا أو ساجداً لغيره أحس من قلبه بالتواضع عند إقدامه على الخدمة . وهكذا جميع صفات القلب تصدر منها أعمال الجوارح ثم يعود أثر الأعمال عليها فيؤكدها ويزيدها ، وسيأتى هذا فى ربع المنجيات والمهلكات عند بيان وجه تعلق الباطن بالظاهر ، والأعمال بالعقائد والقلوب فإن ذلك من جنس تعلق الملك بالملكوت وأعنى بالملك عالم الشهادة المدرك بالحواس وبالملكوت عالم الغيب المدرك بنور البصيرة والقلب من عالم الملكوت والأعضاء وأعمالها من عالم الملك . ولطف الارتباط ودقته بين العالمين انتهى إلى حد ظن بعض الناس اتحاد أحدهما بالآخر وظن آخرون أنه لا عالم إلا عالم الشهادة وهو هذه الأجسام المحسوسة . ومن أدرك الأمرين وأدرك تعددهما ثم ارتباطهما عبر عنه فقال :

رق الزجاج ورقت الخمر وتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قـدح وكأنما قـدح ولا خمر

ولنرجع إلى المقصود فإن هذا العلم خارج عن علم المعاملة ولكن بين العلمين أيضا اتصال وارتباط فلذلك ترى علوم المكاشفة تتسلق كل ساعة على علوم المعاملة إلى أن تنكشف عنها بالتكليف فهذا وجه زيادة الإيمان بالطاعة بموجب هذا الإطلاق ، ولهذا قال على كرم الله وجهه : إن الإيمان ليبدو لمعة بيضاء فإذا عمل العبد الصالحات نمت فزادت حتى يبيض القلب كله وإن النفاق ليبدو نكتة سوداء فإذا انتهك الحرمات نمت وزادت حتى يسود القلب كله فيطبع عليه فذلك هو الختم وتلا قوله تعالى ﴿كلا بل ران على قلوبهم﴾ الآية . الإطلاق الثانى : أن يراد به التصديق والعمل جميعا كما قال صلى الله عليه وسلم « الإيمان بضع وسبعون بابا[1] » وكما قال صلى الله عليه وسلم « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » وإذا دخل العمل فى مقتضى لفظ الإيمان لم تخف زيادته ونقصانه وهل يؤثر ذلك فى زيادة الإيمان الذى هو مجرد التصديق ؟ هذا فيه نظر وقد أشرنا إلى أنه يؤثر فيه الإطلاق الثالث : أن يراد به التصديق اليقينى على سبيل الكشف وانشراح الصدر والمشاهدة بنور البصيرة وهذا أبعد الأقسام عن قبول الزيادة ولكنى أقول الأمر اليقينى الذى لاشك فيه تختلف طمأنينة النفس إليه فليس طمأنينة النفس إلى أن الاثنين أكثر من الواحد كطمأنينتها إلى أن العالم مصنوع حادث وإن كان لاشك فى واحد منهما فإن اليقينيات تختلف فى درجات الإيضاح ودرجات طمأنينة النفس إليها ، وقد تعرضنا لهذا فى فصل اليقين من كتاب العلم فى باب علامات علماء الآخرة فلا حاجة إلى الإعادة . وقد ظهر فى جميع الإطلاقات أن ماقالوه من زيادة الإيمان ونقصانه حق وكيف لا وفى الأخبار « أنه يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان » وفى بعض المواضع فى خبر آخر مثقال دينار[2] » فأى معنى لاختلاف مقاديره إن كان مافى القلب لايتفاوت .

﴿ مسألة ﴾ فإن قلت : ما وجه قول السلف « أنا مؤمن إن شاء الله » والاستثناء شك والشك فى الإيمان كفر وقد كانوا كلهم يمتنعون عن جزم الجواب بالإيمان ويحترزون عنه . فقال سفيان الثورى رحمه الله : من قال أنا مؤمن عند الله فهو من الكذابين ومن قال أنا مؤمن حقا فهو بدعة ، فكيف يكون كاذبا وهو يعلم أنه مؤمن فى نفسه ومن كان مؤمناً فى نفسه كان مؤمناً عند الله ؟ كما أن من كان طويلا وسخيا فى نفسه وعلم ذلك كان كذلك عند الله وكذا من

---

(١) حديث « الإيمان بضع وسبعون بابا » وذكر بعد هذا فزاد فيه « أدناها إماطة الأذى عن الطريق » أخرجه البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة « الإيمان بضع وسبعون » زاد مسلم فى رواية « وأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها » فذكره ورواه بلفظ المصنف الترمذى وصححه . (٢) حديث « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال دينار » متفق عليه من حديث أبى سعيد وسيأتى فى ذكر الموت وما بعده .

كان مسروراً أو حزيناً أو سميعاً بصيراً ، ولو قيل للإنسان هل أنت حيوان ؟ لم يحسن أن يقول أنا حيوان إن شاء الله ولما قال سفيان ذلك قيل له فماذا نقول ؟ قال : قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وأى فرق بين أن يقول آمنا بالله وما أنزل إلينا وبين أن يقول أنامؤمن ؟ وقيل للحسن : أمؤمن أنت ؟ فقال إن شاءالله ، فقيل له : لم تستثنى يا أبا سعيد فى الإيمان ؟ فقال أخاف أن أقول نعم فيقول الله سبحانه كذبت ياحسن فتحق الله على الكلمة . وكان يقول : مايؤمننى أن يكون الله سبحانه قد اطلع على فى بعض مايكره فمقتنى وقال اذهب لاقبلت لك عملا ؛ فأنا أعمل فى غير معمل . وقال إبراهيم بن أدهم : إذا قيل لك أمؤمن أنت ؟ فقل لا إله إلا الله وقال مرة : قل أنا لا أشك فى الإيمان وسؤالك إياى بدعة وقيل لعلقمة : أمؤمن أنت ؟ قال : أرجو إن شاء الله وقال الثورى : نحن مؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله وما ندرى مانحن عند الله تعالى ؟ فما معنى هذه الاستثناءات ؟

فالجواب : أن هذا الاستثناء صحيح وله أربعة أوجه ؛ وجهان مستندان إلى الشك لا فى أصل الإيمان ولكن فى خاتمته أو كماله ، ووجهان لايستندان إلى الشك .

الوجه الأول : الذى لايستند إلى معارضة الشك : الاحتراز من الجزم خيفة مافيه من تزكية النفس قال الله وتعالى ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ وقال ﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ﴾ وقال تعالى ﴿ انظر كيف يفترون على الله الكذب ﴾ وقيل لحكيم : ما الصدق القبيح ؟ فقال : ثناء المرء على نفسه ، والإيمان من أعلى صفات المجد والجزم به تزكية مطلقة وصيغة الاستثناء كأنها نقل من عرف التزكية ، كما يقال للإنسان أنت طبيب أو فقيه أو مفسر ؟ فيقول : نعم إن شاء الله ، لافى معرض التشكيك ولكن لإخراج نفسه عن تزكية نفسه فالصيغة صيغة الترديد والتضعيف لنفس الخبر ومعناه التضعيف اللازم من لوازم الخبر وهو التزكية . وبهذا التأويل لوسئل عن وصف ذم لم يحسن الاستثناء .

الوجه الثانى : التأدب بذكر الله تعالى فى كل حال وإحالة الأمور كلها إلى مشيئة الله سبحانه ، فقدأدب الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم فقال تعالى ﴿ ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ﴾ ثم لم يقتصر على ذلك فيما لايشك فيه بل قال تعالى ﴿ لتدخلن المسجدالحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين ﴾ وكان الله سبحانه عالما بأنهم يدخلون لامحالة وأنه شاءه ولكن المقصود تعليمه ذلك فتأدب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل ما كان يخبر عنه معلوما كان أو مشكوكا حتى قال صلى الله عليه وسلم لما دخل المقابر « السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون[1] » واللحوق بهم غير مشكوك فيه ولكن مقتضى الأدب ذكر الله تعالى وربط الأمور به وهذه الصيغة دالة عليه حتى صار يعرف الاستعمال عبارة عن إظهار الرغبة والتمنى ، فإذا قيل لك إن فلانا يموت سريعا فتقول إن شاء الله بمعنى الرغبة فقد صارت الكلمة معدولة عن معنى التشكيك إلى معنى الرغبة ، وكذلك العدول إلى معنى التأدب لذكر الله تعالى كيف كان الأمر .

الوجه الثالث : مستنده الشك ومعناه أنا مؤمن حقا إن شاء الله ، إذ قال الله تعالى لقوم مخصوصين بأعيانهم ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ فانقسموا إلى قسمين ويرجع هذا إلى الشك فى كمال الإيمان لا فى أصله وكل إنسان شاك فى كمال إيمانه وذلك ليس بكفر . والشك فى كمال الإيمان حق من وجهين ؛ أحدهما : من حيث إن النفاق يزيل كمال الإيمان وهو خفى لاتتحقق البراءة منه والثانى أنه يكمل بأعمال الطاعات ولا يدرى وجودها على الكمال أما العمل فقد قال الله تعالى ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾ فيكون

(١) حديث « لما دخل المقابر قال : السلام عليكم دار قوم مؤمنين . . . الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة .

الشك فى هذا الصدق وكذلك قال الله تعالى ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ فشرط عشرين وصفاً كالوفاء بالعهد والصبر على الشدائد . ثم قال تعالى ﴿ أولئك الذين صدقوا ﴾ وقد قال تعالى ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ وقال تعالى ﴿ لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ﴾ الآية وقد قال تعالى ﴿ هم درجات عند الله ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « الايمان عريان ولباسه التقوى (١) » الحديث وقال صلى الله عليه وسلم « الإيمان بضع وسبعون باباً أدناها إماطة الأذى عن الطريق » فهذا مايدل على ارتباط كمال الإيمان بالأعمال وأما ارتباطه بالبراءة عن النفاق والشرك الخفى فقوله صلى الله عليه وسلم « أربع من كن فيه فهو منافق خالص وإن صام وصلى وزعم أنه مؤمن : من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان وإذا خاصم فجر (٢) » وفى بعض الروايات « وإذا عاهد غدر » وفى حديث أبى سعيد الخدرى « القلوب أربعة : قلب أجرد وفيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء العذب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد فأى المادتين غلب عليه حكم له بها (٣) » وفى لفظ آخر « غلبت عليه ذهبت به » وقال عليه السلام « أكثر منافقى هذه الأمة قراؤها (٤) » وفى حديث « الشرك أخفى فى أمتى من دبيب النملة على الصفا(٥) » وقال حذيفة رضى الله عنه « كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصير بها منافقاً إلى أن يموت وإنى لأسمعها من أحدكم فى اليوم عشر مرات(٦) » وقال بعض العلماء : أقرب الناس من النفاق من يرى أنه برىء من النفاق . وقال حذيفة : المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد النبى صلى الله عليه وسلم فكانوا إذ ذاك يخفونه وهم اليوم يظهرونه، وهذا النفاق يضاد صدق الإيمان وكماله وهو خفى وأبعد الناس منه من يتخوفه وأقربهم منه من يرى أنه برىء منه . فقد قيل للحسن البصرى: يقولون أن لا نفاق اليوم فقال يا أخى لو هلك المنافقون لاستوحشتم فى الطريق . وقال هو أو غيره : لو نبتت للمنافقين أذناب ماقدرنا أن نطأ على الأرض بأقدامنا « وسمع ابن عمر رضى الله عنه رجلا يتعرض للحجاج فقال : أرأيت لو كان حاضراً يسمع أكنت تتكلم فيه ؟ فقال لا ، فقال : كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من كان ذا لسانين فى الدنيا جعله الله ذا لسانين فى الآخرة » وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم « شر الناس ذو الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه ويأتى هؤلاء بوجه » وقيل للحسن : إن قوماً يقولون إنا لانخاف النفاق ، فقال : والله لأن أكون أعلم أنى برىء من النفاق أحب إلى من تلاع الأرض ذهباً ، وقال الحسن : إن من النفاق اختلاف اللسان والقلب ، والسر والعلانية ، والمدخل والمخرج . وقال رجل لحذيفة رضى الله عنه : إنى أخاف أن أكون منافقاً ، قال : لو كنت منافقاً ما خفت النفاق إن المنافق قد أمن من النفاق . وقال ابن أبى مليكة : أدركت

---

(١) حديث « الإيمان عريان » تقدم فى العلم .

(٢) حديث « أربع من كن فيه فهو منافق ... الحديث » متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو .

(٣) حديث « القلوب أجرد ... الحديث» أخرجه أحمد من حديث أبى سعيد وفيه ليث بن أبى سليم مختلف فيه.

(٤) حديث « أكثر منافقى هذه الأمة قراؤها » أخرجه أحمد والطبرانى من حديث عقبة بن عامر .

(٥) حديث « الشرك أخفى فى أمتى من دبيب النملة على الصفا » أخرجه أبو يعلى وابن عدى وابن حبان فى الضعفاء من حديث أبى بكر ولأحمد والطبرانى نحوه من حديث أبى موسى ، وسيأتى فى ذم الجاه والرياء .

(٦) حديث حذيفة «كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصير بها منافقا ... الحديث » أخرجه أحمد بإسناد فيه جهالة ، وحديث حذيفة « المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث » أخرجه البخارى إلا أنه قال « شر » بدل « أكثر » .

(٧) حديث «سمع ابن عمر رجلا يتعرض للحجاج فقال أرأيت لو كان حاضرا أكنت تتكلم فيه قال لا قال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم » رواه أحمد والطبرانى بنحوه وليس فيه ذكر الحجاج .

ثلاثين ومائة ـ وفى رواية خمسين ومائة ـ من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كلهم يخافون النفاق . وروى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالساً فى جماعة من أصحابه فذكروا رجلا وأكثروا الثناء عليه فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم الرجل ووجهه يقطر ماء من أثر الوضوء وقد علق نعله بيده وبين عينيه أثر السجود فقالوا : يا رسول الله هذا هو الرجل الذى وصفناه ، فقال صلى الله عليه وسلم : أرى على وجهه سفعة من الشيطان ، فجاء الرجل حتى سلم وجلس مع القوم فقال النبى صلى الله عليه وسلم : نشدتك الله هل حدثت نفسك حين أشرفت على القوم أنه ليس فيهم خير منك ؟ فقال : اللهم نعم (١) » فقال صلى الله عليه وسلم فى دعائه « اللهم إنى أستغفرك لما علمت ولما لم أعلم ، فقيل له : أتخاف يا رسول الله ؟ فقال : وما يؤمننى والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ! وقد قال سبحانه ﴿ وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ﴾ (٢) » قيل فى التفسير : عملوا أعمالا ظنوا أنها حسنات فكانت فى كفة السيئات . وقال سرى السقطى : لو أن إنساناً دخل بستاناً فيه من جميع الأشجار عليها من جميع الطيور فخاطبه كل طير منها بلغة ، فقال السلام عليك يا ولى الله ، فسكنت نفسه إلى ذلك كان أسيراً فى يديها . فهذه الأخبار والآثار تعرفك خطر الأمر بسبب دقائق النفاق والشرك الخفى وأنه لا يؤمن منه حتى كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسأل حذيفة عن نفسه وأنه هل ذكر فى المنافقين ؟ وقال أبو سليمان الدارانى : سمعت من بعض الأمراء شيئاً فأردت أن أنكره فخفت أن يأمر بقتلى ولم أخف من الموت ولكن خشيت أن يعرض لقلبى التزين للخلق عند خروج روحى فكففت . وهذا من النفاق الذى يضاد حقيقة الإيمان وصدقه وكماله وصفاءه لا أصله . فالنفاق نفاقان ، أحدهما : يخرج من الدين ويلحق بالكافرين ويسلك فى زمرة المخلدين فى النار . والثانى : يفضى بصاحبه إلى النار مدة أو ينقص من درجات عليين ويحط من رتبة الصديقين وذلك مشكوك فيه ولذلك حسن الاستثناء فيه . وأصل هذا النفاق تفاوت بين السر والعلانية ، والأمن من مكر الله ، والعجب ، وأمور أخر لا يخلو عنها إلا الصديقون .

الوجه الرابع : وهو أيضاً مستند إلى الشك وذلك من خوف الخاتمة فإنه لا يدرى أيسلم له الإيمان عند الموت أم لا ؟ فإن ختم له بالكفر حبط عمله السابق لأنه موقوف على سلامة الآخر ، ولو سئل الصائم ضحوة النهار عن صحة صومه فقال : أنا صائم قطعاً ، فلو أفطر فى أثناء نهاره بعد ذلك لتبين كذبه إذ كانت الصحة موقوفة على التمام إلى غروب الشمس من آخر النهار ، وكما أن النهار ميقات تمام الصوم فالعمر ميقات تمام صحة الإيمان ووصفه بالصحة قبل آخره بناء على الاستصحاب وهو مشكوك فيه ، والعاقبة مخوفة ولأجلها كان بكاء أكثر الخائفين لأجل أنها ثمرة القضية السابقة والمشيئة الأزلية التى لا تظهر إلا بظهور المقضى به ولا مطلع عليه لأحد من البشر ، فخوف الخاتمة كخوف السابقة وربما يظهر فى الحال ما سبقت الكلمة بنقيضه ، فمن الذى يدرى أنه من الذين سبقت لهم من الله الحسنى ؟ وقيل فى معنى قوله تعالى ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ﴾ أى السابقة يعنى أظهرتها . وقال بعض السلف : إنما يوزن من الأعمال خواتيمها . وكان أبو الدرداء رضى الله عنه يحلف بالله ما من أحد يأمن أن يسلب إيمانه إلا سلبه . وقيل من الذنوب ذنوب عقوبتها سوء الخاتمة نعوذ بالله من ذلك . وقيل هى عقوبات دعوى الولاية والكرامة بالافتراء . وقال بعض العارفين : لو عرضت على الشهادة عند باب الدار والموت على التوحيد

---

(١) حديث « كان جالسا فى جماعة من أصحابه فذكروا رجلا فأكثروا الثناء عليه فبينما هم كذلك إذ طلع رجل عليهم ووجهه يقطر ماء من أثر الوضوء ... الحديث » أخرجه أحمد والبزار والدارقطنى من حديث أنس .

(٢) حديث « اللهم إنى أستغفرك لما علمت وما لم أعلم ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة « اللهم إنى أعوذ بك من شر ما عملت ومن شر ما لم أعمل » ولأبى بكر بن الضحاك فى حديث مرسل « وشر ما أعلم وشر ما لا أعلم » .

عند باب الحجرة لاخترت الموت على التوحيد عند باب الحجرة لأنى لاأدرى مايعرض لقلبى من التغيير عن التوحيد إلى باب الدار ؟ وقال بعضهم : لو عرفت واحدا بالتوحيد خمسين سنة ثم حال بينى وبينه سارية ومات لم أحكم أنه مات على التوحيد . وفى الحديث « من قال أنا مؤمن فهو كافر ومن قال أنا عالم فهو جاهل(١) » وقيل فى قوله تعالى ﴿ وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا ﴾ صدقا لمن مات على الإيمان وعدلا لمن مات على الشرك . وقد قال تعالى ﴿ ولله عاقبة الأمور ﴾ فهما كان الشك بهذه المثابة كان الاستثناء واجبا لأن الإيمان عبارة عما يفيد الجنة كما أن الصوم عبارة عما يبرىء الذمة . وما فسد قبل الغروب لا يبرىء الذمة فيخرج عن كونه صوما فكذلك الإيمان بل لا يبعد أن يسأل عن الصوم الماضى الذى لا يشك فيه بعد الفراغ منه فيقال أصمت بالأمس ؟ فيقول نعم إن شاء الله تعالى إذ الصوم الحقيقى هو المقبول والمقبول غائب عنه لايطلع عليه إلا الله تعالى فمن هذا حسن الاستثناء فى جميع أعمال البر ويكون ذلك شكا فى القبول ، إذ يمنع من القبول بعد جريان ظاهر شروط الصحة أسباب خفية لا يطلع عليها إلا رب الأرباب جل جلاله فيحسن الشك فيه . فهذه وجوه حسن الاستثناء فى الجواب عن الإيمان وهى آخر ما نختم به « كتاب قواعد العقائد » .

تم الكتاب بحمد الله تعالى وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى

كتاب أسرار الطهارة

وهو الكتاب الثالث من ربع العبادات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى تلطف بعباده فتعبدهم بالنظافة ، وأفاض على قلوبهم تزكية لسرائرهم أنواره وألطافه ، وأعد لظواهرهم تطهيرا لها الماء المخصوص بالرقة واللطافة ، وصلى الله على النبى محمد المستغرق بنور الهدى أطراف العالم وأكنافه ، وعلى آله الطيبين الطاهرين صلاة تنجينا بركاتها يوم المخافة ، وتنتصب جنة بيننا وبين كل آفة . أما بعد : فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « بنى الدين على النظافة(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم «مفتاح الصلاة الطهور(٣) » وقال الله تعالى ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾ وقال النبى صلى الله عليه وسلم « الطهور

---

(١) حديث « من قال أنا مؤمن فهو كافر ومن قال أنا عالم فهو جاهل » الطبرانى فى الأوسط بالشطر الأخير منه من حديث ابن عمر وفيه ليث بن أبى سليم تقدم ، والشطر الأول روى من قول يحيى بن أبى كثير رواه الطبرانى فى الأصغر « من قال أنا فى الجنة فهو فى النار » وسنده ضعيف .

كتاب الطهارة

(٢) حديث « بنى الدين على النظافة » لم أجده هكذا ، وفى الضعفاء لابن حبان من حديث عائشة « تنظفوا فإن الإسلام نظيف » والطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف جدا من حديث ابن مسعود « النظافة تدعو إلى الإيمان » .

(٣) حديث « مفتاح الصلاة الطهور » أخرجه من حديث على ، قال الترمذى : هذا أصح شىء فى هذا الباب وأحسن .

نصف الإيمان(١) » وقال الله تعالى ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم﴾ فتفطن ذوو البصائر بهذه الظواهر أن أهم الأمور تطهير السرائر إذ يبعد أن يكون المراد بقوله صلى الله عليه وسلم « الطهور نصف الإيمان » عمارة الظاهر بالتنظيف بإفاضة الماء وإلقائه وتخريب الباطن وإبقائه مشحونا بالأخباث والأقذار هيهات هيهات ! والطهارة لها أربع مراتب (المرتبة الأولى) تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الأخباث والفضلات (المرتبة الثانية) تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام (المرتبة الثالثة) تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة (المرتبة الرابعة) تطهير السر عما سوى الله تعالى وهى طهارة الأنبياء صلوات الله عليهم والصديقين ، والطهارة فى كل رتبة نصف العمل الذى فيها فإن الغاية القصوى فى عمل السر أن ينكشف له جلال الله تعالى وعظمته ولن تحل معرفة الله تعالى بالحقيقة فى السر مالم يرتحل ماسوى الله تعالى عنه . ولذلك قال الله عز وجل ﴿ قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ﴾ لأنهما لا يجتمعان فى قلب ﴿ وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ﴾ وأما عمل القلب فالغاية القصوى عمارته بالأخلاق المحمودة والعقائد المشروعة ولن يتصف بها ما لم ينظف عن نقائضها من العقائد الفاسدة والرذائل الممقوتة ، فتطهيره أحد الشطرين وهو الشطر الأول الذى هو شرط فى الثانى ، فتطهيره أحد الشطرين وهو الشطر الأول وعمارتها بالطاعات الشطر الثانى فهذه مقامات الإيمان ولكل مقام طبقة ولن ينال العبد الطبقة العالية إلا أن يجاوز الطبقة السافلة. فلا يصل إلى طهارة السر عن الصفات المذمومة وعمارته بالمحمودة مالم يفرغ من طهارة القلب عن الخلق المذموم وعمارته بالخلق المحمود، ولن يصل إلى ذلك من لم يفرغ عن طهارة الجوارح عن المناهى وعمارتها بالطاعات وكلما عز المطلوب وشرف صعب مسلكه وطال طريقه وكثرت عقباته فلا تظن أن هذا الأمر يدرك بالمنى وينال بالهوينى، نعم من عميت بصيرته عن تفاوت هذه الطبقات لم يفهم من مراتب الطهارة إلا الدرجة الأخيرة التى هى كالقشرة الأخيرة الظاهرة بالإضافة إلى اللب المطلوب، فصار يمعن فيها ويستقصى فى مجاريها ويستوعب جميع أوقاته فى الاستنجاء وغسل الثياب وتنظيف الظاهر وطلب المياه الجارية الكثيرة ظنا منه بحكم الوسوسة وتخيل العقل أن الطهارة المطلوبة الشريفة هى هذه فقط وجهالة بسيرة الأولين واستغراقهم جميع الهم والفكر فى تطهير القلب وتساهلهم فى أمر الظاهر ، حتى إن عمر رضى الله عنه مع علو منصبه توضأ من ماء فى جرة نصرانية ،وحتى إنهم ما كانوا يغسلون اليد من الدسومات والأطعمة بل كانوا يمسحون أصابعهم بأخمص أقدامهم وعدوا الأشنان من البدع المحدثة، ولقد كانوا يصلون على الأرض فى المساجد ويمشون فى الطرقات ، ومن كان لا يجعل بينه وبين الأرض حاجزا فى مضجعه كان من أكابرهم ، وكانوا يقتصرون على الحجارة فى الاستنجاء . وقال أبو هريرة وغيره من أهل الصفة : « كنا نأكل الشواء فتقام الصلاة فندخل أصابعنا فى الحصى ثم نفركها بالتراب ونكبر(٢) » وقال عمر رضى الله عنه : « ما كنا نعرف الأشنان فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما كانت مناديلنا بطون أرجلنا(٣) كنا إذا أكلنا الغمر مسحنا بها » ويقال أول ما ظهر من البدع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع : المناخل والأشنان والموائد والشبع. فكانت عنايتهم كلها بنظافة الباطن حتى قال بعضهم: الصلاة فى النعلين أفضل « لأن رسول الله صلى الله عليه

---

(١) حديث « الطهور نصف الإيمان » أخرجه ت من حديث رجل من بنى سليم وقيل . حسن ، ورواه مسلم من حديث أبى مالك الأشعرى بلفظ « شطر » كما فى الإحياء .

(٢) حديث « كنا نأكل الشواء فتقام الصلاة فتدخل أصابعنا فى الحصباء . . . الحديث » أخرجه ه من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء ولم أره من حديث أبى هريرة .

(٣) حديث عمر « ما كنا نعرف الأشنان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما كانت مناديلنا باطن أرجلنا . . . الحديث » لم أجده من حديث عمر ولابن ماجه نحوه مختصراً من حديث جابر .

وسلم لما نزع نعليه فى صلاته بإخبار جبرائيل عليه السلام له أن بهما نجاسة وخلع الناس نعالهم قال صلى الله عليه وسلم لم خلعتم نعالكم (١) » ؟ وقال النخعى فى الذين يخلعون نعالهم « وددت لو أن محتاجا جاء إليها فأخذها » منكرا لخلع النعال . فهكذا كان تساهلهم فى هذه الأمور بل كانوا يمشون فى طين الشوارع حفاة ويجلسون عليها ويصلون فى المساجد على الأرض ، ويأكلون من دقيق البر والشعير وهو يداس بالدواب وتبول عليه ، ولايحترزون من عرق الإبل والخيل مع كثرة تمرغها فى النجاسات ، ولم ينقل قط عن أحد منهم سؤال فى دقائق النجاسات فهكذا كان تساهلهم فيها . وقد انتهت النوبة الآن إلى طائفة يسمون الرعونة نظافة فيقولون هى مبنى الدين فأكثر أوقاتهم فى تزيينهم الظواهر ، كفعل الماشطة بعروسها والباطن خراب مشحون بخبائث الكبر والعجب والجهل والرياء والنفاق ولا يستنكرون ذلك ولا يتعجبون منه ! ولو اقتصر مقتصر على الاستنجاء بالحجر أو مشى على الأرض حافيا أو صلى على الأرض أو على بوارى المسجد من غير سجادة مفروشة أو مشى على الفرش من غير غلاف للقدم من أدم أو توضأ من آنية عجوز أو رجل غير متقشف أقاموا عليه القيامة وشدوا عليه النكير ولقبوه بالقذر وأخرجوه من زمرتهم واستنكفوا عن مؤاكلته ومخالطته . فسموا البذاذة التى هى من الإيمان قذراة والرعونة نظافة فانظر كيف صار المنكر معروفا والمعروف منكراً ! وكيف اندرس من الدين رسمه كما اندرس حقيقته وعلمه .

فإن قلت : أفتقول إن هذه العادات التى أحدثها الصوفية فى هيئاتهم ونظافتهم من المحظورات أو المنكرات ؟

فأقول : حاش لله أن أطلق القول فيه من غير تفصيل ولكنى أقول إن هذا التنظيف والتكلف وإعداد الأوانى والآلات واستعمال غلاف القدم والإزار المقنع به لدفع الغبار وغير ذلك من هذه الأسباب إن وقع النظر إلى ذاتها على سبيل التجرد فهى من المباحات وقد يقترن بها أحوال ونيات تلحقها تارة بالمنكرات ، فأما كونها مباحة فى نفسها فلا يخفى أن صاحبها متصرف بها فى ماله وبدنه وثيابه فيفعل بها ما يريد إذا لم يكن فيه إضاعة وإسراف ، وأما مصيرها منكرا فبأن يجعل ذلك أصل الدين ويفسر به قوله صلى الله عليه وسلم « بنى الدين على النظافة » حتى ينكر به على من يتساهل فيه تساهل الأولين أو يكون القصد به تزيين الظاهر للخلق وتحسين موقع نظرهم ؛ فإن ذلك هو الرياء المحظور فيصير منكرا بهذين الاعتبارين ، أما كونه معروفا فبأن يكون القصد منه الخير دون التزين وأن لا ينكر على من ترك ذلك ولا يؤخر بسببه الصلاة عن أوائل الأوقات ولا يشتغل به عن عمل هو أفضل منه أو عن علم أو غيره ، فإذا لم يقترن به شيء من ذلك فهو مباح يمكن أن يجعل قربة بالنية ولكن لا يتيسر ذلك إلا للبطالين الذين لو لم يشتغلوا بصرف الأوقات فيه لاشتغلوا بنوم أو حديث فيما لا يعنى فيصير شغلهم به أولى لأن الاشتغال بالطهارة يجدد ذكر الله تعالى وذكر العبادات فلا بأس به إذا لم يخرج إلى منكر أو إسراف وأما أهل العلم والعمل فلا ينبغى أن يصرفوا من أوقاتهم إليه إلا قدر الحاجة فالزيادة عليه منكر فى حقهم وتضييع العمر الذى هو أنفس الجواهر وأعزها فى حق من قدر على الانتفاع به . ولا يتعجب من ذلك فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين . ولا ينبغى للبطال أن يترك النظافة وينكر على المتصوفة ويزعم أنه يتشبه بالصحابة إذ التشبه بهم فى أن لا يتفرغ إلا لما هو أهم منه ، كما قيل لداود الطائى لم لا تسرح لحيتك ؟ قال : إنى إذن لفارغ . فلهذا لا أرى للعالم ولا للمتعلم ولا للعامل أن يضيع وقته فى غسل الثياب احترازاً من أن يلبس الثياب المقصورة وتوهما بالقصار تقصيرا فى الغسل ، فقد كانوا فى العصر الأول يصلون فى الفراء المدبوغة ولم يعلم منهم من فرق بين المقصورة والمدبوغة فى الطهارة والنجاسة ، بل كانوا يجتنبون النجاسة إذا شاهدوها ولا يدققون نظرهم فى استنباط الاحتمالات الدقيقة ، بل كانوا يتأملون فى دقائق الرياء والظلم حتى قال سفيان الثورى لرفيق له كان يمشى معه فنظر إلى باب دار مرفوع معمور :

---

(٣) حديث « خلع نعليه فى الصلاة إذ أخبره جبريل عليه الصلاة والسلام أن عليه نجاسة » أخرجه دك وصححه من حديث أبى سعيد الخدرى .

لا تفعل ذلك فإن الناس لو لم ينظروا إليه لكان صاحبه لا يتعاطى هذا الإسراف ، فالناظر إليه معين له عن الإسراف . فكانوا يعدون جمام الذهن لاستنباط مثل هذه الدقائق لا فى احتمالات النجاسة . فلو وجد العالم عاميا يتعاطى له غسل الثياب محتاطا فهو أفضل فإنه بالإضافة إلى التساهل خير ، وذلك العامى ينتفع بتعاطيه إذ يشغل نفسه الأمارة بالسوء بعمل المباح فى نفسه فيمتنع عليه المعاصى فى تلك الحال والنفس إن لم تشغل بشىء شغلت صاحبها وإذا قصد به التقرب إلى العالم صار ذلك عنده من أفضل القربات . فوقت العالم أشرف من أن يصرفه إلى مثله فيبقى محفوظا عليه ، وأشرف وقت العامى أن يشتغل بمثله فيتوفر الخير عليه من الجوانب كلها . وليتفطن بهذا المثل لنظائره من الأعمال وترتيب فضائلها ووجه تقديم البعض منها على البعض ، فتدقيق الحساب فى حفظ لحظات العمر بصرفها إلى الأفضل أهم من التدقيق فى أمور الدنيا بحذافيرها . وإذا عرفت هذه المقدمة واستيقنت أن الطهارة لها أربع مراتب . فاعلم أنا فى هذا الكتاب لسنا نتكلم إلا فى المرتبة الرابعة وهى نظافة الظاهر لأنا فى الشطر الأول من الكتاب لا نتعرض قصداً إلا للظواهر . فنقول طهارة الظاهر ثلاثة أقسام : طهارة عن الخبث وطهارة عن الحدث وطهارة عن فضلات البدن ، وهى التى تحصل بالقلم والاستحداد واستعمال النورة والختان وغيره .

القسم الأول : فى طهارة الخبث ، والنظر فيه يتعلق بالمزال والمزال به والإزالة

الطرف الأول : فى المزال

وهى النجاسة . والأعيان ثلاثة : جمادات وحيوانات وأجزاء حيوانات . أما الجمادات فطاهرة كلها إلا الخمر وكل منتبذ مسكر ، والحيوانات طاهرة كلها إلا الكلب والخنزير وما تولد منهما أو من أحدهما . فإذا ماتت فكلها نجسة إلا خمسة : الآدمى والسمك والجراد ودود التفاح ـ وفى معناه كل ما يستحيل من الأطعمة ـ وكل ما ليس له نفس سائلة كالذباب والخنفساء وغيرهما فلا ينجس الماء بوقوع شىء منها فيه . وأما أجزاء الحيوانات فقسمان ، أحدهما : ما يقطع منه وحكمه حكم الميت والشعر لا ينجس بالجز ، والموت والعظم ينجس . الثانى : الرطوبات الخارجة من باطنه فكل ما ليس مستحيلا ولا له مقر فهو طاهر كالدمع والعرق واللعاب والمخاط ، وما له مقر وهو مستحيل فنجس ، إلا ما هو مادة الحيوان كالمنى والبيض . والقيح والدم والروث والبول نجس من الحيوانات كلها . ولا يعفى عن شىء من هذه النجاسات قليلها وكثيرها إلا عن خمسة ، الأول : أثر النجو بعد الاستجمار بالأحجار يعفى عنه ما لم يعد المخرج . والثانى : طين الشوارع وغبار الروث فى الطريق يعفى عنه مع تيقن النجاسة بقدر ما يتعذر الاحتراز عنه ، وهو الذى لا ينسب المتلطخ به إلى تفريط أو سقطة . الثالث : ما على أسفل الخف من نجاسة لا يخلو الطريق عنها فيعفى عنه بعد الدلك للحاجة . الرابع : دم البراغيث ما قل منه أو كثر إلا إذا جاوز حد العادة سواء كان فى ثوبك أو فى ثوب غيرك فلبسته . الخامس : دم البثرات وما ينفصل منها من قيح وصديد . ودلك ابن عمر رضى الله عنه بثرة على وجهه فخرج منها الدم وصلى ولم يغسل . وفى معناه ما يترشح من لطخات الدماميل التى تدوم غالبا ، وكذلك أثر الفصد إلا ما يقع نادرا من خراج أو غيره فيلحق بدم الاستحاضة ولا يكون فى معنى البثرات التى لا يخلو الإنسان عنها فى أحواله . ومسامحة الشرع فى هذه النجاسات الخمس تعرفك أن أمر الطهارة على التساهل ، وما ابتدع فيها وسوسة لا أصل لها .

الطرف الثانى : فى المزال به

وهو إما جامد وإما مائع ، أما الجامد فحجر الاستنجاء وهو مطهر تطهير تجفيف بشرط أن يكون صلبا طاهراً منشفا غير محترم ، وأما المائعات فلا تزال النجاسات بشىء منها إلا الماء ، ولا كل ماء بل الطاهر الذى لم يتفاحش

تغيره بمخالطة مايستغنى عنه . ويخرج الماء عن الطهارة بأن يتغير بملاقاة النجاسة طعمه أو لونه أو ريحه . فإن لم يتغير وكان قريبا من مائتين وخمسين منا ـ وهو خمسمائة رطل برطل العراق ـ لم ينجس لقوله صلى الله عليه وسلم « إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا(١) » وإن كان دونه صار نجسا عند الشافعى رضى الله عنه . هــذا فى الماء الراكد . وأما الماء الجارى إذا تغير بالنجاسة فالجرية المتغيرة نجسة دون مافوقها وما تحتها لأن جريات الماء متفاصلات . وكذا النجاسة الجارية إذا جرت بمجرى الماء فالنجس موقعها من الماء وما عن يمينها وشمالها إذا تقاصر عن قلتين . وإن كان جرى الماء أقوى من جرى النجاسة فما فوق النجاسة طاهر وما سفل عنها فنجس وإن تباعد وكثر إلا إذا اجتمع فى حوض قدر قلتين . وإذا اجتمع قلتان من ماء نجس طهر ولا يعود نجسا بالتفريق . هذا هو مذهب الشافعى رضى الله عنه . وكنت أود أن يكون مذهبه كمذهب مالك رضى الله عنه فى أن الماء وإن قل لاينجس إلا بالتغير إذ الحاجة ماسة إليه ومثار الوسواس اشتراط القلتين ، ولأجله شق على الناس ذلك : وهو لعمرى سبب المشقة ويعرفه من يجربه ويتأمله . ومما لا أشك فيه أن ذلك لوكان مشروطا لكان أولى المواضع بتعسر الطهارة : مكة والمدينة؛ إذ لا تكثر فيهما المياه الجارية ولا الراكدة الكثيرة . ومن أول عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى آخر عصر أصحابه لم تنقل واقعة فى الطهارة ولا سؤال عن كيفية حفظ الماء عن النجاسات . وكانت أوانى مياههم يتعاطاها الصبيان والإماء الذين لايحترزون عن النجاسات . وقد توضأ عمر رضى الله عنه بماء فى جرة نصرانية ، وهذا كالصريح فى أنه لم يعول إلا على عدم تغير الماء وإلا فنجاسة النصرانية وإنائها غالبة تعلم بظن قريب ، فإذا عسر القيام بهذا المذهب . وعدم وقوع السؤال فى تلك الأعصار : دليل أول . وفعل عمر رضى الله عنه : دليل ثان . والدليل الثالث : إصغاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الإناء للهرة(٢) وعدم تغطية الأوانى منها ، بعد أن يرى أنها تأكل الفأرة ولم يكن فى بلادهم حياض تلغ السنانير فيها وكانت لاتنزل الآبار . والرابع : أن الشافعى رضى الله عنه نص على أن غسالة النجاسة طاهرة إذا لم تتغير ونجسة إن تغيرت ، وأى فرق بين أن يلاقى الماء النجاسة بالورود عليها أو بورودها عليه ؟ وأى معنى لقول القائل إن قوة الورود تدفع النجاسة مع أن الورود لم يمنع مخالطة النجاسة ؟ وإن أحيل ذلك على الحاجة فالحاجة أيضاً ماسة إلى هذا فلا فرق بين طرح الماء فى إجانة فيها ثوب نجس أو طرح الثوب النجس فى الإجانة وفيها ماء ؟ وكل ذلك معتاد فى غسل الثياب والأوانى . والخامس : أنهم كانوا يستنجون على أطراف المياه الجارية القليلة ، ولاخلاف فى مذهب الشافعى رضى الله عنه أنه إذا وقع بول فى ماء جار ولم يتغير أنه يجوز التوضؤ به وإن كان قليلا . وأى فرق بين الجارى والراكد؟ وليت شعرى هل الحوالة على عدم التغير أولى أو على قوة الماء بسبب الجريان ؟ ثم ماحد تلك القوة أتجرى فى المياه الجارية فى أنابيب الحمامات أم لا ؟ فإن لم تجر فما الفرق وإن جرت فما الفرق بين مايقع فيها وبين مايقع فى مجرى الماء من الأوانى على الأبدان وهى أيضاً جارية ؟ ثم البول أشد اختلاطاً بالماء الجارى من نجاسة جامدة ثابتة إذا قضى بأن مايجرى عليها وإن لم يتغير نجس إلى أن يجتمع فى مستنقع قلتان ، فأى فرق بين الجامد والمائع والماء واحد والاختلاط أشد من المجاورة ؟ والسادس : أنه إذا وقع رطل من البول فى قلتين ثم فرقتا فكل كوز يغترف منه طاهر ، ومعلوم أن البول منتشر فيه وهو قليل وليت شعرى هل تعليل طهارته بعدم التغير أولى أو بقوة كثرة الماء بعد انقطاع الكثرة وزوالها مع تحقق بقاء أجزاء النجاسة فيها ؟ والسابع : أن الحمامات لم تزل فى الأعصار الخالية يتوضأ فيها المتقشفون ويغمسون الأيدى والأوانى فى تلك الحياض مع قلة الماء ومع العلم بأن الأيدى النجسة

---

(١) حديث « إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا » أخرجه أصحاب السنن وابن حبان والحاكم وصححه من حديث ابن عمر .

(٢) حديث « إصغاء الإناء للهرة » أخرجه الطبرانى فى الأوسط والدارقطنى من حديث عائشة ، وروى أصحاب السنن ذلك من فعل أبى قتاده .

والطاهرة كانت تتوارد عليها . فهذه الأمور مع الحاجة الشديدة تقوى فى النفس أنهم كانوا ينظرون إلى عدم التغير معولين على قوله صلى الله عليه وسلم « خلق الماء طهوراً لاينجسه شىء إلا ماغير طعمه أو لونه أو ريحه(١) » وهذا فيه تحقيق ، وهو أن طبع كل مائع أن يقلب إلى صفة نفسه كل مايقع فيه وكان مغلوبا من جهته ، فكما ترى الكلب يقع فى المملحة فيستحيل ملحا ويحكم بطهارته بصيرورته ملحا وزوال صفة الكلبية عنه ، فكذلك الخل يقع فى الماء وكذا اللبن يقع فيه وهو قليل فتبطل صفته ويتصور بصفة الماء وينطبع بطبعه إلا إذا كثر وغلب وتعرف غلبته بغلبة طعمه أو لونه أو ريحه فهذا المعيار . وقد أشار الشرع إليه فى الماء القوى على إزالة النجاسة وهو جدير بأن يعول عليه فيندفع به الحرج ويظهر به معنى كونه طهوراً إذ يغلب عليه فيطهره ، كما صار كذلك فيما بعد القلتين وفى الغسالة وفى الماء الجارى وفى إصغاء الإناء للهرة . ولا تظن ذلك عفواً إذ لو كان كذلك لكان كأثر الاستنجاء ودم البراغيث حتى يصير الماء الملاقى له نجساً ولا ينجس بالغسالة ولا بولوغ السنور فى الماء القليل . وأما قوله صلى الله عليه وسلم « لايحمل خبثاً » فهو فى نفسه مبهم فإنه يحمل إذا تغير .

فإن قيل : أراد به إذا لم يتغير فيمكن أن يقال إنه أراد به أنه فى الغالب لايتغير بالنجاسات المعتادة ، ثم هو تمسك بالمفهوم فيما إذا لم يبلغ قلتين ، وترك المفهوم بأقل من الأدلة التى ذكرناها ممكن وقوله « لايحمل خبثاً » ظاهره نفى الحمل أى يقلبه إلى صفة نفسه ، كما يقال للمملحة لاتحمل كلبا ولا غيره أى ينقلب ، وذلك لأن الناس قد يستنجون فى المياه القليلة وفى الغدران ويغمسون الأوانى النجسة فيها ثم يترددون فى أنها تغيرت تغيرا مؤثراً أم لا ؟ فتبين أنه إذا كان قلتين لايتغير بهذه النجاسة المعتادة .

فإن قلت : فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « لايحمل خبثاً » ومهما كثرت حملها فهذا ينقلب عليك فإنها مهما كثرت حملها حكما كما حملها حساً . فلابد من التخصيص بالنجاسات المعتادة على المذهبين جميعاً ؟ وعلى الجملة فميلى فى أمور النجاسات المعتادة إلى التساهل فهما من سيرة الأولين وحسما لمادة الوسواس وبذلك أفتيت بالطهارة فيما وقع الخلاف فيه فى مثل هذه المسائل .

الطرف الثالث : فى كيفية الإزالة

والنجاسة إن كانت حكمية وهى التى ليس لها جرم محسوس فيكفى إجراء الماء على جميع مواردها ، وإن كانت عينية فلابد من إزالة العين ، وبقاء الطعم يدل على بقاء العين وكذا بقاء اللون إلا فيما يلتصق به فهو معفو عنه بعد الحت والقرص . أما الرائحة فبقاؤها يدل على بقاء العين ولا يعفى عنها إلا إذا كان الشىء له رائحة فائحة يعسر إزالتها فالدلك والعصر مرات متواليات يقوم مقام الحت والقرص فى اللون والمزيل للوسواس أن يعلم أن الأشياء خلقت طاهرة بيقين فما لايشاهد عليه نجاسة ولا يعلمها يقينا يصلى معه ، ولا ينبغى أن يتوصل بالاستنباط إلى تقدير النجاسات

القسم الثانى : طهارة الأحداث ، ومنها الوضوء والغسل والتيمم ويتقدمها الاستنجاء ، فلنورد كيفيتها على الترتيب مع آدابها وسننها مبتدئين بسبب الوضوء وآداب قضاء الحاجة إن شاء الله تعالى .

باب آداب قضاء الحاجة

ينبغى أن يبعد عن أعين الناظرين فى الصحراء وأن يستتر بشىء إن وجده ، وأن لايكشف عورته قبل الانتهاء

---

(١) حديث « خلق الله الماء طهورا لاينجسه شىء إلاما غير لونه أو طعمه أو ريحه » أخرجه من حديث أبى أمامة بإسناد ضعيف ، وقد رواه أبو داود وللنسائى والترمذى من حديث أبى سعيد وصححه أبو داود وغيره .

إلى موضع الجلوس وأن لا يستقبل الشمس والقمر وأن لا يستقبل القبلة ولا يستدبرها إلا إذا كان فى بناء ، والعدول أيضاً عنها فى البناء أحب وإن استتر فى الصحراء براحلته جاز وكذلك بذيله ، وأن يتقى الجلوس فى متحدث الناس وأن لا يبول فى الماء الراكد ولا تحت الشجرة المثمرة ولا فى الجحر ، وأن يتقى الموضع الصلب ومهاب الريح فى البول استنزاهاً من رشاشه وأن يتكىء فى جلوسه على الرجل اليسرى وإن كان فى بنيان يقدم الرجل اليسرى فى الدخول واليمنى فى الخروج ولا يبول قائماً . قالت عائشة رضى الله عنها « من حدثكم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يبول قائماً فلا تصدقوه(١) » وقال عمر رضى الله عنه « رآنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبول قائماً فقال : يا عمر لا تبل قائماً (٢) » قال عمر : فما بلت قائماً بعد ، وفيه رخصة ، إذ روى حذيفة رضى الله عنه « أنه عليه الصلاة والسلام بال قائماً فأتيته بوضوء فتوضأ ومسح على خفيه (٣) » ولا يبول فى المغتسل ، قال صلى الله عليه وسلم : «عامة الوسواس منه (٤) » وقال ابن المبارك : قد وسع فى البول فى المغتسل إذا جرى الماء عليه ذكره الترمذى وقال عليه الصلاة والسلام « لا يبولن أحدكم فى مستحمه ثم يتوضأ فيه فإن عامة الوسواس منه » وقال ابن المبارك : إن كان الماء جارياً فلا بأس به ، ولا يستصحب شيئاً عليه اسم الله تعالى أو رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا يدخل بيت الماء حاسر الرأس . وأن يقول عند الدخول « بسم الله أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم » وعند الخروج « الحمد لله الذى أذهب عنى ما يؤذينى وأبقى على ما ينفعنى » ويكون ذلك خارجاً عن بيت الماء وأن يعد النبل قبل الجلوس ، وأن لا يستنجى بالماء فى موضع الحاجة وأن يستبرىء من البول بالتنحنح والنتر - ثلاثاً - وإمرار اليد على أسفل القضيب ولا يكثر التفكر فى الاستبراء فيتوسوس ويشق عليه الأمر وما يحس به من بلل فليقدر أنه بقية الماء . فإن كان يؤذيه ذلك فليرش عليه الماء حتى يقوى فى نفسه ذلك ولا يتسلط عليه الشيطان بالوسواس . وفى الخبر أنه صلى الله عليه وسلم فعله أعنى رش الماء (٥) وقد كان أخفهم استبراء أفقههم ، فتدل الوسوسة فيه على قلة الفقه . وفى حديث سلمان رضى الله عنه « علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شىء حتى الخراءة ، فأمرنا أن لا نستنجى بعظم ولا روث ، ونهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول (٦) » ، وقال رجل لبعض الصحابة من الأعراب وقد خاصمه : لا أحسبك تحسن الخراءة ! قال : بلى وأبيك إنى لأحسنها وإنى بها لحاذق أبعد الأثر ، وأعد المدر ، وأستقبل الشيح ، وأستدبر الريح ، وأقعى إقعاء الظبى ، وأجفل إجفال النعام - الشيح نبت طيب الرائحة بالبادية ، والإقعاء ههنا أن يستوفز على صدور قدميه ، والإجفال أن يرفع عجزه - ومن الرخصة أن يبول الإنسان قريباً من صاحبه مستتراً عنه (٧) فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مع شدة حيائه ليبين للناس ذلك .

---

(١) حديث عائشة « من حدثكم أن النبى صلى الله عليك وسلم كان يبول قائماً فلا تصدقوه » أخرجه الترمذى والنسائى وابن ماجه قال الترمذى هو أحسن شىء فى هذا الباب وأصح .

(٢) حديث عمر « رآنى النبى صلى الله عليه وسلم وأنا أبول قائماً فقال ياعمر لا تبل قائماً » أخرجه ابن ماجة بإسناد ضعيف ، رواه ابن حبان من حديث ابن عمر ليس فيه ذكر لعمر .

(٣) حديث « أنه عليه الصلاة والسلام بال قائماً ... الحديث » متفق عليه .

(٤) حديث « قال فى البول فى المغتسل : عامة الوسواس منه » أخرجه أصحاب السنن من حديث عبد الله بن مغفل قال الترمذى غريب قلت وإسناده صحيح .

(٥) حديث « رش الماء بعد الوضوء » وهو الانتضاح أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجة من حديث سفيان ابن الحكم الثقفى أو الحكم بن سفيان وهو مضطرب كما قاله الترمذى وابن عبد البر .

(٦) حديث سلمان « علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شىء حتى الخراءة ... الحديث » أخرجه مسلم وقد تقدم فى قواعد العقائد . (٧) حديث « البول قريبا من صاحبه » متفق عليه من حديث حذيفة .

كيفية الاستنجاء

ثم يستنجى لمقعدته بثلاثة أحجار ، فإن أنقى بها كفى وإلا استعمل رابعاً ، فإن أنقى استعمل خامسا لأن الإنقاء واجب والإيتار مستحب . قال عليه السلام « من استجمر فليوتر(١) » ويأخذ الحجر بيسراه ويضعه على مقدم المقعدة قبل موضع النجاسة ويمره بالمسح والإدارة إلى المؤخر ، ويأخذ الثانى ويضعه على المؤخر كذلك ويمره إلى المقدمة ، ويأخذ الثالث فيديره حول المسربة إدارة فإن عسرت الإدارة ومسح من المقدمة إلى المؤخرة أجزأه ، ثم يأخذ حجراً كبيراً بيمينه والقضيب بيساره ويمسح الحجر بقضيبه ويحرك اليسار فيمسح ثلاثا فى ثلاثة مواضع أو فى ثلاثة أحجار أو فى ثلاثة مواضع من جدار إلى أن لايرى الرطوبة فى محل المسح فإن حصل ذلك بمرتين أتى بالثالثة ووجب ذلك إن أراد الاقتصار على الحجر ، وإن حصل بالرابعة استحب الخامسة للايتار . ثم ينتقل من ذلك الموضع آخر ويستنجى بالماء بأن يفيضه باليمنى على محل النجو ويدلك باليسرى حتى لايبقى أثر يدركه الكف بحس اللمس ، ويدرك الاستقصاء فيه بالتعرض للباطن فإن ذلك منبع الوسواس ، وليعلم أن كل ما لا يصل إليه الماء فهو باطن ولا يثبت حكم النجاسة للفضلات الباطنة ما لم تظهر ، وكل ما هو ظاهر وثبت له حكم النجاسة فحد طهوره أن يصل الماء إليه فيزيله ولا معنى للوسواس . ويقول عند الفراغ من الاستنجاء « اللهم طهر قلبى من النفاق وحصن قلبى من الفواحش » ويدلك يده بحائط أو بالأرض إزالة للرائحة إن بقيت . والجمع بين الماء والحجر مستحب فقد روى « أنه لما نزل قوله تعالى ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المتطهرين ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل قباء : ما هذه الطهارة التى أثنى الله بها عليكم ؟ قالوا : كنا نجمع بين الماء والحجر (٢) » .

كيفية الوضوء

إذا فرغ من الاستنجاء اشتغل بالوضوء فلم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم قط خارجا من الغائط إلا توضأ ويبتدىء بالسواك فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أفواهكم طرق القرآن فطيبوها بالسواك(٣) » فينبغى أن ينوى عند السواك تطهير فمه لقراءة القرآن وذكر الله تعالى فى الصلاة ، وقال صلى الله عليه وسلم « صلاة على إثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة بغير سواك(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « مالكم تدخلون على قلحا استاكوا (٦) » أى صفر الأسنان « وكان صلى الله عليه وسلم يستاك فى الليلة مراراً (٧) » وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : « لم يزل صلى الله عليه وسلم يأمرنا بالسواك حتى ظننا أنه سينزل عليه فيه شىء(٨) » وقال عليه السلام « عليكم بالسواك فإنه

---

(١) « من استجمر فليوتر » متفق عليه من حديث أبى هريرة . (٢) « لما نزل قوله تعالى ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ الحديث فى أهل قباء وجمعهم بين الحجر والماء . . . » أخرجه البزار من حديث ابن عباس بسند ضعيف ورواه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبى أيوب وجابر وأنس فى الاستنجاء بالماء ليس فيه ذكر « الحجر » وقول النورى تبعاً لابن الصلاح « إن الجمع بين الماء والحجر فى أهل قباء لايعرف » مردود بما تقدم . (٣) « إن أفواهكم طرق القرآن » أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث على ورواه ابن ماجه موقوفا على على وكلاهما ضعيف . (٤) « صلاة على أثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة بغير سواك » رواه أبو نعيم فى كتاب السواك من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف ورواه أبو داود والحاكم وصححه والبيهقى وضعفه من حديث عائشة وضعفه بلفظ من سبعين صلاة . (٥) « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » متفق عليه من حديث أبى هريرة . (٦) « مالى أراكم تدخلون على قلحا استاكوا » أخرجه البزار والبيهقى من حديث العباس بن عبدالمطلب وأبوه داود والبغوى من حديث تمام بن العباس والبيهقى من حديث عبد الله بن عباس وهو مضطرب . (٧) « كان يستاك من الليل مرارا » أخرجه مسلم من حديث ابن عباس . (٨) حديث ابن عباس « لم يزل يأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسواك حتى ظننا أنه سينزل عليه فيه شىء » رواه أحمد .

مطهرة للفم ومرضاة للرب[١] » وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : السواك يزيد فى الحفظ ويذهب البلغم[١] وكان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يروحون والسواك على آذانهم . وكيفيته : أن يستاك بخشب الأراك أو غيره من قضبان الأشجار مما يخشن ويزيل القلح ويستاك عرضا وطولا وإن اقتصر فعرضا . ويستحب السواك عند كل صلاة وعند كل وضوء وإن لم يصل عقبه وعند تغير النكهة بالنوم أو طول الأزم أو أكل ما تكره رائحته، ثم عند الفراغ من السواك يجلس للوضوء مستقبل القبلة ويقول « بسم الله الرحمن الرحيم » قال صلى الله عليه وسلم « لا وضوء لمن لم يسم الله تعالى[٢] » أى لا وضوء كامل . ويقول عند ذلك « أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون » ثم يغسل يديه ثلاثا قبل أن يدخلهما الإناء ، ويقول « اللهم إنى أسألك اليمن والبركة وأعوذ بك من الشؤم والهلكة » ثم ينوى رفع الحدث أو استباحة الصلاة ويستديم النية إلى غسل الوجه فإن نسيها عند الوجه لم يجزه ، ثم يأخذ غرفة لفيه بيمينه فيتمضمض بها ثلاثا ويغرغر بأن يرد الماء إلى الغلصمة إلا أن يكون صائما فيرفق ويقول « اللهم أعنى على تلاوة كتابك وكثرة الذكر لك » ثم يأخذ غرفة لأنفه ويستنشق ثلاثا ويصعد الماء بالنفس إلى خياشيمه ويستنثر ما فيها ويقول فى الاستنشاق « اللهم أوجد لى رائحة الجنة وأنت عنى راض » وفى الاستنثار « اللهم إنى أعوذ بك من روائح النار ومن سوء الدار » لأن الاستنشاق إيصال والاستنثار إزالة ، ثم يغرف غرفة لوجهه فيغسله من مبدإ سطح الجبهة إلى منتهى ما يقبل من الذقن فى الطول ، ومن الأذن إلى الأذن فى العرض ، ولا يدخل فى حد الوجه النزعتان اللتان على طرفى الجبينين فهما من الرأس ، ويوصل الماء إلى موضع التحذيف وهو ما يعتاد النساء تنحية الشعر عنه وهو القدر الذى يقع فى جانب الوجه ، مهما وضع طرف الخيط على رأس الأذن والطرف الثانى على زاوية الجبين ، ويوصل الماء إلى منابت الشعور الأربعة : الحاجبان والشاربان والعذاران والأهداب : لأنها خفيفة فى الغالب . والعذاران هما ما يوازيان الأذنين من مبدإ اللحية .

ويجب إيصال الماء إلى منابت اللحية الخفيفة . أعنى ما يقبل من الوجه وأما الكثيفة فلا ، وحكم العنفقة حكم اللحية فى الكثافة والخفة ، ثم يفعل ذلك ثلاثا ويفيض الماء على ظاهر ما استرسل من اللحية ويدخل الأصابع فى محاجر العينين وموضع الرمص ومجتمع الكحل وينقيهما . فقد روى أنه عليه السلام فعل ذلك[٣] ويأمل عند ذلك خروج الخطايا من عينيه وكذلك عند كل عضو ويقول عنده « اللهم بيض وجهى بنورك يوم تبيض وجوه أوليائك ولا تسود وجهى بظلماتك يوم تسود وجوه أعدائك » ويخلل اللحية الكثيفة عند غسل الوجه فإنه مستحب ، ثم يغسل يديه إلى مرفقيه ثلاثا ويحرك الخاتم ويطيل الغرة ويرفع الماء إلى أعلى العضد فإنهم يحشرون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء ، كذلك ورد الخبر . قال عليه السلام « من استطاع أن

---

(١) حديث « عليكم بالسواك فإنه مطهرة للفم مرضاة للرب » أخرجه البخارى تعليقا مجزوما من حديث عائشة والنسائى وابن خزيمة موصولا ، قلت وصل المصنف هذا الحديث بحديث ابن عباس الذى قبله وقد رواه من حديث ابن عباس الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى شعب الإيمان .

(٢) حديث « كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يروحون والسواك على آذانهم » أخرجه الخطيب فى كتاب أسماء من روى عن مالك وعن أبو داود والترمذى وصححه « أن زيد بن خالد كان يشهد الصلوات وسواكه على أذنه موضع القلم من أذن الكاتب » .

(٣) حديث « لاوضوء لمن لم يسم الله » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث سعيد بن زيد أحد العشرة ، ونقل الترمذى عن البخارى أنه أحسن شىء فى هذا الباب .

(٤) حديث « إدخاله الأصبع فى محاجر العينين وموضع الرمص ومجتمع الكحل » أخرجه أحمد من حديث أبى أمامه كان يتعاهد المنافقين ورواه الدارقطنى من حديث أبى هريرة بإسناد ضعيف « اشربوا الماء أعينكم » .

يطيل غرته فليفعل(١)» وروى أن الحلية تبلغ مواضع الوضوء(٢) ويبدأ باليمنى ويقول « اللهم أعطنى كتابى بيمينى وحاسبنى حسابا يسيرا » ويقول عند غسل الشمال « اللهم إنى أعوذ بك أن تعطينى كتابى بشمالى أو من وراء ظهرى » ثم يستوعب رأسه بالمسح بأن يبل يديه ويلصق رءوس أصابع يديه اليمنى باليسرى ويضعهما على مقدمة الرأس ويمدهما إلى القفا ثم يردهما إلى المقدمة ، وهذه مسحة واحدة ، يفعل ذلك ثلاثا ويقول « اللهم غشنى برحمتك وأنزل على من بركاتك وأظلنى تحت ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك » ثم يمسح أذنيه ظاهرهما وباطنهما بماء جديد بأن يدخل مسبحتيه فى صماخى أذنيه ويدير إبهاميه على ظاهر أذنيه ثم يضع الكف على الأذنين استظهارا ، ويكرره ثلاثا ويقول « اللهم اجعلنى من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه اللهم أسمعنى منادى الجنة مع الأبرار » ثم يمسح رقبته بماء جديد لقوله صلى الله عليه وسلم « مسح الرقبة أمان من الغل يوم القيامة(٣) » ويقول « اللهم فك رقبتى من النار وأعوذ بك من السلاسل والأغلال » ثم يغسل رجله اليمنى ثلاثا ويخلل باليد اليسرى من أسفل أصابع الرجل اليمنى ويبدأ بالخنصر من الرجل اليمنى ويختم بالخنصر من الرجل اليسرى ويقول « اللهم ثبت قدمى على الصراط المستقيم يوم تزل الأقدام فى النار » ويقول عند غسل اليسرى « أعوذ بك أن تزل قدمى عن الصراط يوم تزل فيه أقدام المنافقين » ويرفع الماء إلى أنصاف الساقين . فإذا فرغ رفع رأسه إلى السماء وقال « أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءا وظلمت نفسى أستغفرك اللهم وأتوب إليك فاغفر لى وتب على إنك أنت التواب الرحيم اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين واجعلنى من عبادك الصالحين واجعلنى عبدا صبورا شكورا واجعلنى أذكرك كثيرا وأسبحك بكرة وأصيلا » يقال : إن من قال هذا بعد الوضوء ختم على وضوئه خاتم ورفع له تحت العرش فلم يزل يسبح الله تعالى ويقدسه ويكتب له ثواب ذلك إلى يوم القيامة . ويكره فى الوضوء أمور : منها أن يزيد على الثلاث فمن زاد فقد ظلم ، وأن يسرف فى الماء « توضأ عليه السلام ثلاثا وقال من زاد فقد ظلم وأساء(٤) » وقال « سيكون قوم من هذه الأمة يعتدون فى الدعاء والطهور(٥) » ويقال : من وهن علم الرجل ولوعه بالماء فى الطهور(٦) وقال إبراهيم بن أدهم : يقال إن أول ما يبتدىء الوسواس من قبل الطهور ، وقال الحسن : إن شيطانا يضحك بالناس فى الوضوء يقال له الولهان . ويكره أن ينفض اليد فيرش الماء وأن يتكلم فى أثناء الوضوء وأن يلطم وجهه بالماء لطما . وكره قوم التنشيف وقالوا : الوضوء يوزن ، قاله سعيد بن المسيب والزهرى ، لكن روى معاذ رضى الله عنه « أنه عليه السلام مسح وجهه بطرف ثوبه(٧) » وروت عائشة رضى الله عنها « أنه صلى الله عليه وسلم كانت له منشفة(٨) » ولكن طعن فى هذه الرواية عن عائشة . ويكره أن يتوضأ من إناء صفر وأن يتوضأ بالماء المشمس وذلك من جهة الطب . وقد روى عن ابن عمر وأبى هريرة رضى الله عنهما كراهية إناء الصفر . وقال بعضهم : أخرجت لشعبة ماء فى إناء صفر فأبى أن يتوضأ منه . ونقل كراهية

---

(١) « من استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل » أخرجاه من حديث هريرة . (٢) « تبلغ الحلية من المؤمن مايبلغ ماء الوضوء » أخرجاه من حديثه . (٣) « مسح الرقبة أمان من الغل » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث عمر وهو ضعيف (٤) « توضأ ثلاثا ثلاثا وقال من زاد فقد أساء وظلم » أخرجه أبوداود والنسائى واللفظ له وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٥) « سيكون قوم من هـذه الأمة يعتدون فى الدعاء والطهور » أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن مغفل (٦) حديث « من وهن علم الرجل ولوعه فى الماء فى التطهير » لم أجد له أصلا . (٧) حديث معاذ « أن النبى صلى الله عليه وسلم مسح وجهه بطرف ثوبه » أخرجه الترمذى وقال غريب وإسناده ضعيف. (٨) حديث عائشة « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان له منشفة » أخرجه الترمذى وقال ليس بالقائم ، قال ولا يصح عن النبى صلى الله عليه وسلم فى هـذا الباب شىء .

ذلك عن ابن عمر وأبي هريرة رضى الله عنهما . ومهما فرغ من وضوئه وأقبل على الصلاة فينبغي أن يخطر بباله أنه طهر ظاهره وهو موضع نظر الخلق فينبغي أن يستحي من مناجاة الله تعالى من غير تطهير قلبه وهو موضع نظر الرب سبحانه وليحقق أن طهارة القلب بالتوبة . والخلو عن الأخلاق المذمومة والتخلق بالأخلاق الحميدة أولى وأن من يقتصر على طهارة الظاهر كمن أراد أن يدعو ملكاً إلى بيته فتركه مشحوناً بالقاذورات واشتغل بتجصيص ظاهر الباب البراني من الدار وما أجدر مثل هذا الرجل بالتعرض للمقت والبوار ! والله سبحانه وتعالى أعلم .

فضيلة الضوء

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من توضأ فأحسن الوضوء وصلى ركعتين لم يحدث نفسه فيهما بشيء من الدنيا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه (١) » وفي لفظ آخر « ولم يسه فيهما غفر له ما تقدم من ذنبه » وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً « ألا أنبئكم بما يكفر الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ إسباغ الوضوء على المكاره ونقل الأقدام إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط - ثلاث مرات - (٢) » « وتوضأ صلى الله عليه وسلم مرة مرة وقال : هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به ، وتوضأ مرتين مرتين وقال : من توضأ مرتين مرتين آتاه الله أجره مرتين ، وتوضأ ثلاثاً ثلاثاً وقال : هذا وضوئي ووضوء الأنبياء من قبلي ووضوء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « من ذكر الله عند وضوئه طهر الله جسده كله ومن لم يذكر الله لم يطهر منه إلا ما أصاب الماء (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « من توضأ على طهر كتب الله له به عشر حسنات (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « الوضوء على الوضوء نور على نور (٦) » وهذا كله حث على تجديد الوضوء وقال عليه السلام « إذا توضأ العبد المسلم فتمضمض خرجت الخطايا من فيه فإذا استنثر خرجت الخطايا من أنفه فإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من تحت أشفار عينيه فإذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج من تحت أظفاره فإذا مسح برأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من تحت أذنيه وإذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجليه حتى تخرج من تحت أظفار رجليه ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة له (٧) » ويروى « إن الطاهر كالصائم (٨) » قال عليه الصلاة والسلام « من توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء (٩) » وقال عمر رضى الله عنه :

---

(١) حديث « من توضأ وأسبغ الوضوء وصلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » وفي لفظ آخر « لم يسه فيهما غفر له ما تقدم عن ذنبه » أخرجه أبي المبارك في كتاب الزهد والرقائق باللفظين معا وهو متفق عليه من حديث عثمان بن عفان دون قوله « بشيء من الدنيا » ودون قوله « لم يسه فيهما » وأخرجه أبو داود من حديث زيد بن خالد « ثم صلى ركعتين لا يسهو فيهما... الحديث » . (٢) حديث « ألا أنبئكم بما يكفر الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ... الحديث » أخرجه مسلم عن أبي هريرة . (٣) حديث « توضأ مرة مرة وقال هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف . (٤) حديث من ذكر الله عند وضوئه طهر الله جسده كله ... الحديث » رواه الدارقطني من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف .

(٥) حديث « من توضأ على طهر كتب الله له عشر حسنات » أخرجه أبوداود والترمذي وابن ماجه من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف . (٦) حديث « الوضوء على الوضوء نور على نور » لم أجد له أصلا . (٧) حديث « إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فتمضمض خرجت الخطايا من فيه ... الحديث » أخرجه أبوداود وابن ماجه من حديث الصنابحي إسناده صحيح ، ولكن اختلف في صحبته وعند مسلم من حديث أبي هريرة وعمرو بن عنبسة نحوه مختصرا .

(٨) حديث « الطاهر النائم كالصائم » أخرجه أبو منصور الديلمي من حديث عمرو بن حريث « الطاهر النائم كالصائم القائم » وسنده ضعيف . (٩) حديث « من توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله ... الحديث » أخرجه أبو داود من حديث عقبة بن عامر وهو عند مسلم دون قوله « ثم رفع هكذا » عزاه المزي في الأطراف وقد رواه النسائي « في اليوم والليلة » من رواية عقبة بن عامر وكذا رواه الدارمي في مسنده .

إن الوضوء الصالح يطرد عنك الشيطان . وقال مجاهد : من استطاع أن لا يبيت إلا طاهراً ذاكراً مستغفراً فليفعل فإن الأرواح تبعث على ماقبضت عليه .

كيفية الغسل

وهو أن يضع الإناء عن يمينه ثم يسمى الله تعالى ويغسل يديه ثلاثاً ، ثم يستنجى كما وصفت لك ويزيل ماعلى بدنه من نجاسة إن كانت ، ثم يتوضأ وضوءه للصلاة كما وصفنا إلا غسل القدمين فإنه يؤخرهما فإن غسلهما ثم وضعهما على الأرض كان إضاعة للماء ، ثم يصب الماء على رأسه ثلاثاً ، ثم على شقه الأيمن ثلاثاً ، ثم على شقه الأيسر ثلاثاً . ثم يدلك ما أقبل من بدنه وما أدبر ويخلل شعر الرأس واللحية ويوصل الماء إلى منابت ما كثف منه أو خف ، وليس على المرأة نقض الضفائر إلا إذا علمت أن الماء لا يصل إلى خلال الشعر ، ويتعهد معاطف البدن وليتق أن يمس ذكره فى أثناء ذلك فإن فعل ذلك فليعد الوضوء ، وإن توضأ قبل الغسل فلا يعيده بعد الغسل . فهذه سنن الوضوء والغسل ذكرنا منها ما لا بد لسالك طريق الآخرة من علمه وعمله ، وما عداه من المسائل التى يحتاج إليها فى عوارض الأحوال فليرجع فيها إلى كتب الفقه . والواجب من جملة ما ذكرناه فى الغسل أمران : النية واستيعاب البدن بالغسل . وفرض الوضوء : النية وغسل الوجه وغسل اليدين إلى المرفقين ومسح ما ينطلق عليه الاسم من الرأس وغسل الرجلين إلى الكعبين والترتيب . وأما الموالاة فليست بواجبة . والغسل الواجب بأربعة : بخروج المنى والتقاء الختانين والحيض والنفاس ، وما عداه من الأغسال سنة كغسل العيدين والجمعة والأعياد والإحرام والوقوف بعرفة ومزدلفة ولدخول مكة وثلاثة أغسال أيام التشريق ولطواف الوداع - على قول - والكافر إذا أسلم غير جنب والمجنون إذا أفاق ولمن غسل ميتاً ؛ فكل ذلك مستحب .

كيفية التيمم

من تعذر عليه استعمال الماء - لفقده بعد الطلب أو بمانع له عن الوصول إليه من سبع أو حابس أو كان الماء الحاضر يحتاج إليه لعطشه أو لعطش رفيقه أو كان ملكاً لغيره ولم يبعه إلا بأكثر من المثل أو كان به جراحة أو مرض وخاف من استعماله فساد العضو أو شدة الضنا - فينبغى أن يصبر حتى يدخل عليه وقت الفريضة ، ثم يقصد صعيداً طيباً عليه تراب طاهر خالص لين بحيث يثور منه غبار ، ويضرب عليه كفيه ضاماً بين أصابعه ويمسح بهما جميع وجهه مرة واحدة ، وينوى عند ذلك استباحة الصلاة ، ولا يكلف إيصال الغبار إلى ما تحت الشعور خفت أو كثفت ، ويجتهد أن يستوعب بشرة وجهه بالغبار - ويحصل ذلك بالضربة الواحدة فإن عرض الوجه لا يزيد على عرض الكفين - ويكفى فى الاستيعاب غالب الظن ، ثم ينزع خاتمه ويضرب ضربة ثانية يفرج فيها بين أصابعه ثم يلصق ظهور أصابع يده اليمنى ببطون أصابع يده اليسرى - بحيث لا يجاوز أطراف الأنامل من إحدى الجهتين عرض المسبحة من الأخرى - ثم يمر يده اليسرى من حيث وضعها على ظاهر ساعده الأيمن إلى المرفق ، ثم يقلب بطن كفه اليسرى على باطن ساعده الأيمن ويمرها إلى الكوع ، ويمر بطن إبهامه اليسرى على ظاهر إبهامه اليمنى ثم يفعل باليسرى كذلك ، ثم يمسح كفيه ويخلل بين أصابعه ، وغرض هذا التكليف تحصيل الاستيعاب إلى المرفقين بضربة واحدة فإن عسر عليه ذلك فلا بأس بأن يستوعب بضربتين وزيادة وإذا صلى به الفرض فله أن يتنفل كيف شاء ، فإن جمع بين فريضتين فينبغى أن يعيد التيمم للثانية . وهكذا يفرد كل فريضة بتيمم والله اعلم .

القسم الثالث من النظافة : التنظيف عن الفضلات الظاهرة وهى نوعان أوساخ وأجزاء

النوع الأول : الأوساخ والرطوبات المترشحة وهى ثمانية :

الأول : ما يجتمع فى شعر الرأس من الدرن والقمل ، فالتنظيف عنه مستحب بالغسل والترجيل والتدهين إزالة للشعث عنه « وكان صلى الله عليه وسلم يدهن الشعر غباً ويأمر به (١) » ويقول عليه الصلاة والسلام : ادهنوا غباً (٢) » وقال عليه الصلاة والسلام « من كان له شعرة فليكرمها (٣) » أى ليصنها عن الأوساخ « ودخل عليه رجل ثائر الرأس أشعث اللحية فقال : أما كان لهذا دهن يسكن به شعره ثم قال : يدخل أحدكم كأنه شيطان (٤) » الثانى : ما يجتمع من الوسخ فى معاطف الأذن ، والمسح يزيل ما يظهر منه وما يجتمع فى قعر الصماخ فينبغى أن ينظف برفق عند الخروج من الحمام فإن كثرة ذلك ربما تضر بالسمع . الثالث : ما يجتمع فى داخل الأنف من الرطوبات المنعقدة الملتصقة بجوانبه ويزيلها بالاستنشاق والاستنثار . الرابع : ما يجتمع على الأسنان وطرف اللسان من القلح فيزيله السواك والمضمضة وقد ذكرناهما . الخامس : ما يجتمع فى اللحية من الوسخ والقمل إذا لم يتعهد ويستحب إزالة ذلك بالغسل والتسريح بالمشط . وفى الخبر المشهور أنه صلى الله عليه وسلم « كان لا يفارقه المشط والمدرى والمرآة فى سفر ولا حضر (٥) » وهى سنة العرب وفى خبر غريب « أنه صلى الله عليه وسلم كان يسرح لحيته فى اليوم مرتين (٦) » وكان صلى الله عليه وسلم كث اللحية (٧) وكذلك كان أبو بكر ، وكان عثمان طويل اللحية رقيقها وكان على عريض اللحية قد ملأت ما بين منكبيه . وفى حديث أغرب منه قالت عائشة رضى الله عنها « اجتمع قوم بباب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم فرأيته يطلع فى الحب يسوى من رأسه ولحيته (٨) فقلت أوتفعل ذلك يارسول الله ؟ فقال : نعم إن الله يحب من عبده أن يتجمل لإخوانه إذا خرج إليهم » والجاهل ربما يظن أن ذلك من حب التزين للناس قياساً على أخلاق غيره وتشبيها الملائكة بالحدادين وهيهات ! فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مأموراً بالدعوة وكان من وظائفه أن يسعى فى تعظيم أمر نفسه فى قلوبهم كيلا تزدريه نفوسهم ويحسن صورته فى أعينهم كيلا تستصغره أعينهم فينفرهم ذلك ويتعلق المنافقون بذلك فى تنفيرهم . وهذا القصد واجب على كل عالم تصدى لدعوة الخلق إلى الله عز وجل ، وهو أن يراعى من ظاهره ما لا يوجب نفرة الناس عنه . والاعتماد فى مثل هذه الأمور على النية فإنها أعمال فى أنفسها تكتسب الأوصاف من المقصود فالتزين

---

(١) حديث « كان يدهن الشعر ويرجله » أخرجه الترمذى فى الشمائل بإسناد ضعيف من حديث أنس « كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته ، وفى الشمائل أيضا بإسناد حسن من حديث صحابى لم يسم « أنه عليه الصلاة والسلام كان يترجل غبا » . (٢) حديث « ادهنوا غبا » قال ابن الصلاح لم أجد له أصلا وقال النووى غير معروف وعند أبو داود والترمذى والنسائى من حديث عبد الله بن مغفل « انهى عن الترجل إلا غبا » بإسناد صحيح . (٣) حديث « من كانت له شعره فليكرمها » من حديث أبى هريرة وقال « به شعره ... فليكرمه » وليس إسناده بالقوى . (٤) حديث « دخل عليه رجل ثائر الرأس أشعث اللحية فقال أما كان لهذا دهن يسكن به شعره الحديث » أخرجه أبو داود والترمذى وابن حبان من حديث جابر بإسناد جيد . (٥) « كان لا يفارقه المشط والمدرى فى سفر ولا حضر » أخرجه ابن طاهر فى كتاب صفة التصوف من حديث أبى سعيد ، كان لا يفارق مصلاه سواكه ومشطه ، ورواه الطبرانى فى الأوسط من حديث عائشة وإسنادهما ضعيف . وسيأتى فى آداب السفر مطولا . (٦) « كان يسرح لحيته كل يوم مرتين » تقدم حديث أنس « كان يكثر تسريح لحيته » وللخطيب فى الجامع من حديث الحكم مرسلا « كان يسرح لحيته بالمشط » (٧) « كان كث اللحية » أخرجه الترمذى فى الشمائل من حديث هند بن أبى هالة وأبو نعيم فى دلائل النبوة من حديث على وأصله عند الترمذى (٨) حديث عائشة « اجتمع قوم بباب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم فرأيته يطلع فى الحب يسوى من رأسه ولحيته » أخرجه ابن عدى وقال حديث منكر .

على هذا القصد محبوب وترك الشعث فى اللحية إظهارا للزهد وقلة المبالاة بالنفس محذور وتركه شغلا بما هو أهم منه محبوب . وهذه أحوال باطنة بين العبد وبين الله عز وجل. والناقد بصير والتلبيس غير رائج عليه بحال ، وكم من جاهل يتعاطى هذه الأمور التفاتاً إلى الخلق وهو يلبس على نفسه وعلى غيره ويزعم أن قصده الخير ، فترى جماعة من العلماء يلبسون الثياب الفاخرة ويزعمون أن قصدهم إرغام المبتدعة والمجادلين والتقرب إلى الله تعالى به . وهذا ينكشف يوم تبلى السرائر ، ويوم يبعثر ما فى القبور ويحصل ما فى الصدور ؛ فعند ذلك تتميز السبيكة الخالصة من البهرجة ، فنعوذ بالله من الخزى يوم العرض الأكبر . السادس : وسخ البراجم وهى معاطف ظهور الأنامل كانت العرب لا تكثر غسل ذلك لتركها غسل اليد عقيب الطعام فيجتمع فى تلك الغضون وسخ فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بغسل البراجم(١) . السابع : تنظيف الرواجب (٢) أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العرب بتنظيفها وهى رءوس الأنامل وما تحت الأظفار من الوسخ لأنها كانت لا يحضرها المقراض فى كل وقت فتجتمع فيها أوساخ . فوقت لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قلم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة أربعين يوما (٣) لكنه أمر رسول صلى الله عليه وسلم بتنظيف ما تحت الأظفار(٤) وجاء فى الأثر « أن النبى صلى الله عليه وسلم استبطأ الوحى فلما هبط عليه جبريل عليه السلام قال له : كيف ننزل عليكم وأنتم لا تغسلون براجمكم ولا تنظفون رواجبكم وقلحاً لا تستاكون ، مر أمتك بذلك(٥) » والأف وسخ الظفر ، والتف وسخ الأذن وقوله عز وجل ﴿فلا تقل لهما أف﴾ تعمهما أى بما تحت الظفر من الوسخ ، وقيل لا تتأذ بهما كما تتأذى بما تحت الظفر . الثامن : الدرن الذى يجتمع على جميع البدن برشح العرق وغبار الطريق ، وذلك يزيله الحمام ولا بأس بدخول الحمام ، دخل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حمامات الشام وقال بعضهم : نعم البيت بيت الحمام يطهر البدن ويذكر النار . روى ذلك عن أبى الدرداء وأبى أيوب الأنصارى رضى الله عنهما . وقال بعضهم : بئس البيت بيت الحمام يبدى العورة ويذهب الحياء . فهذا تعرض لآفته وذاك تعرض لفائدته ولا بأس بطلب فائدته مع الاحتراز من آفته ولكن على داخل الحمام وظائف من السنن والواجبات ، فعليه واجبان فى عورته وواجبان فى عورة غيره . أما الواجبان فى عورته فهو أن يصونها عن نظر الغير ويصونها عن مس الغير فلا يتعاطى أمرها وإزالة وسخها إلا بيده ، ويمنع الدلاك من مس الفخذ وما بين السرة إلى العانة ، وفى إباحة ما ليس بسوأة لإزالة الوسخ احتمال ، ولكن الأقيس التحريم إذ الحق مس السوأتين فى التحريم بالنظر فكذلك ينبغى أن تكون بقية العورة أعنى الفخذين . والواجبان فى عورة الغير أن يغض بصره عنها وأن ينهى عن كشفها لأن النهى عن المنكر واجب ، وعليه ذكر ذلك وليس عليه القبول ولا يسقط عنه وجوب الذكر إلا لخوف ضرب أو شتم أو ما يجرى عليه مما هو حرام فى نفسه ، فليس عليه أن ينكر حراما يرهق المنكر عليه إلى مباشرة حرام آخر . فأما قوله اعلم أن ذلك لا يفيد ولا يعمل به فهذا

---

(١) « الأمر بغسل البراجم » أخرجه الترمذى الحكيم فى النوادر من حديث عبد الله بن يسر « نقوا براجمكم» ولابن عدى فى حديث لأنس « وأن يتعاهد البراجم إذا توضأ » ولمسلم من حديث عائشة « عشر من الفطرة ــ وفيه ــ وغسل البراجم » . (٢) « الأمر بتنظيف الرواجب» أخرجه أحمد من حديث ابن عباس « أنه قيل له يا رسول الله لقد أبطأ عنك جبريل فقال ولم لا يبطىء وأنتم لا تستنون ولا تقلمون أظفاركم ولا شواربكم ولا تنقون رواجبكم» وفيه اسماعيل بن عياش . (٣) « التوقيت فى قلم الأظفار ونتف الابط وحلق العانة أربعين يوما » أخرجه الطبرانى من حديث وابصة بن سعيد « سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن كل شىء حتى سألته عن الوسخ الذى يكون بين الاظفار فقال دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » . (٥) « استبطاء الوحى :فلما هبط عليه جبريل قال له : كيف ننزل عليكم وأنتم لا تغسلون براجمكم ولا تنظفون رواجبكم » تقدم قبل هذا بحديثين .

لايكون عذرا بل لابد من الذكر ، فلا يخلو قلب عن التأثر عن سماع الإنكار واستشعار الاحتراز عنـــد التعيير بالمعاصي وذلك يؤثر فى تقبيح الأمر فى عينه وتنفير نفسه عنه فلا يجوز تركه ، ولمثل هذا صار الحزم ترك دخول الحمام فى هذه الأوقات إذ لاتخلو عن عورات مكشوفة لاسيما ماتحت السرة إلى مافوق العانة ، إذ الناس لا يعدونها عورة وقد ألحقها الشرع بالعورة وجعلها كالحريم لها ولهذا يستحب تخلية الحمام . وقال بشر بن الحرث : ما أعنف رجلا لايملك إلا درهما دفعه ليخلى له الحمام . ورؤى ابن عمر رضى الله عنهما فى الحمام ووجهه إلى الحائط وقد عصب عينيه بعصابة وقال بعضهم : لابأس بدخول الحمام ولكن بإزارين : إزار للعورة وإزار للرأس يتقنع به ويحفظ عينيه وأما السنن فعشرة : فالأول : النية وهو أن لايدخل لعاجل دنيا ولاعابثا لأجل هوى بل يقصد به التنظف المحبوب تزينا للصلاة ثم يعطى الحمامى الأجرة قبل الدخول فإن مايستوفيه مجهول وكذا ماينتظره الحمامى ، فتسليم الأجرة قبل الدخول دفع للجهالة من أحـد العوضين وتطييب لنفسه ، ثم يقدم رجله اليسرى عند الدخول ويقول « بسم الله الرحمن الرحيم أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم » ثم يدخل وقت الخلوة أو يتـكلف تخلية الحمام فإنه إن لم يكن فى الحمام إلا أهل الدين والمحتاطين للعورات فالنظر إلى الأبدان مكشوفة فيه شائبة من قلة الحياء وهو مذكر للنظر فى العوارت ، ثم لايخلوا الإنسان فى الحركات عن انكشاف العورات بانعطاف فى أطراف الإزار فيقع البصر على العورة من حيث لايدرى ،ولأجله عصب ابن عمر رضى الله عنهما عينيه ، ويغسل الجناحين عند الدخول ولا يعجل بدخول البيت الحار حتى يعرق فى الأول ، وأن لا يكثر صب الماء بل يقتصر على قدر الحاجة فإنه المأذون فيه بقرينة الحال والزيادة عليه لو علمه الحمامى لكرهه ، لاسيما الماء الحار فله مؤونة وفيه تعب وأن يتذكر حر النار بحرارة الحمام ويقدر نفسه محبوسا فى البيت الحار ساعة ويقيسه إلى جهنم ، فإنه أشبه بيت بجهنم : النار من تحت والظلام من فوق نعوذ بالله من ذلك ، بل العاقل لايغفل عن ذكر الآخرة فى لحظة فإنها مصيره ومستقره فيكون له فى كل مايراه من ماء أو نار أو غيرهما عبرة وموعظة ، فإن المرء ينظر بحسب همته . فإذا دخل بزاز ونجار وبناء وحائك دارا معمورة مفروشة فإذا تفقدتهم رأيت البزاز ينظر إلى الفرش يتأمل قيمتها والحائك ينظر إلى الثياب يتأمل نسجها والنجـار ينظر إلى السقف يتأمل كيفية تركيبها والبناء ينظر الحيطان يتأمل كيفية إحكامها واستقامتها . فكذلك سالك طريق الآخرة لايرى من الأشياء شيئا إلا ويكون له موعظة وذكرى للآخرة، بل لاينظر إلى شىء إلا ويفتح الله عز وجل له طريق عبرة فإن نظر إلى سواد تذكر ظلمة اللحد وإن نظر إلى حية تذكر أفاعى جهنم وإن نظر إلى صورة قبيحة شنيعة تذكر منكرا ونكيرا والزبانية ، وإن سمع صوتا هائلا تذكر نفخة الصور وإن رأى شيئا حسنا تذكر نعيم الجنة وإن سمع كلمة رد أو قبول فى سوق أو دار تذكر ماينكشف آخر أمره بعد الحساب من الرد والقبول . وما أجدر أن يكون هذا هو الغالب على قلب العاقل إذ لايصرفه عنه إلا مهمات الدنيا ؛ فإذا نسب مدة المقام فى الدنيا إلى مدة المقـــام فى الآخرة استحقرها إن لم يكن ممن أغفل قلبه وأعميت بصيرته . ومن السنن : أن لايسلم عند الدخول وإن سلم عليه لم يجب بلفظ السلام بل يسكت إن أجاب غيره وإن أحب قال « عافاك الله » ولابأس بأن يصافح الداخـل ويقول « عافاك الله » لابتداء الكلام . ثم لايكثر الكلام فى الحمام ولايقرأ القرآن الا سرا ولا بأس باظهار الاستعاذة من الشيطان ويكره دخول الحمام بين العشاءين وقريبا من الغروب فإن ذلك وقت انتشار الشياطين . ولا بأس أن يدلكه غيره فقد نقل ذلك عن يوسف بن أسباط أوصى بأن يغسله إنسان لم يكن من أصحابه وقال إنه دلكنى فى الحمام مرة فأردت أن أكافئه بما يفرح به وإنه ليفرح بذلك .

ويدل على جوازه ما روى بعض الصحابة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل منزلا فى بعض أسفاره فنام

على بطنه وعبد أسود يغمز ظهره ، فقلت : ما هذا يا رسول الله ؟ فقال : إن الناقة تقحمت بى (١) » ثم مهما فرغ من الحمام شكر الله عز وجل على هذه النعمة ؛ فقد قيل الماء الحار فى الشتاء من النعيم الذى يسأل عنه . وقال ابن عمر رضى الله عنهما : الحمام من النعيم الذى أحدثوه . هذا من جهة الشرع . أما من جهة الطب فقد قيل : الحمام بعد النورة أمان من الجذام . وقيل : النورة فى كل شهر مرة تطفىء المرة الصفراء وتنقى اللون وتزيد فى الجماع . وقيل بولة فى الحمام قائما فى الشتاء أنفع من شربة دواء . وقيل : نومة فى الصيف بعد الحمام تعدل شربة دواء . وغسل القدمين بماء بارد بعد الخروج من الحمام أمان من النقرس ويكره صب الماء البارد على الرأس عند الخروج وكذا شربه ، هذا حكم الرجال . وأما النساء فقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يحل للرجل أن يدخل حليلته الحمام (٢) » وفى البيت مستحم ، والمشهور أنه حرام على الرجال دخول الحمام إلا بمئزر(٣) ، وحرام على المرأة دخول الحمام إلا نفساء أو مريضة . ودخلت عائشة رضى الله عنها حماما من سقم بها . فإن دخلت لضرورة فلا تدخل إلا بمئزر سابغ ، ويكره للرجل أن يعطيها أجرة الحمام فيكون معيناً لها على المكروه .

النوع الثانى : فيما يحدث فى البـــدن من الأجزاء وهى ثمانيـــة

(الأول) شعر الرأس ولا بأس بحلقه لمن أراد التنظيف ولا بأس بتركه لمن يدهنه ويرجله إلا إذا تركه قزعا أى قطعاً وهو دأب أهل الشطارة ، أو أرسل الذوائب على هيئة أهل الشرف حيث صار ذلك شعاراً لهم فإنه إذا لم يكن شريفاً كان ذلك تلبيساً .

(الثانى) شعر الشارب وقد قال صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم « قصوا الشارب » وفى لفظ آخر « حفوا الشوارب وأعفوا اللحى(٤) » أى اجعلوها حفاف الشمة أى حولها . ومنه ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش ﴾ وفى لفظ آخر « احفوا » وهذا يشعر بالاستئصال ، وقوله « حفوا » يدل على دون ذلك . قال الله عز وجل ﴿ إن يسئلكموها فيحفكم تبخلوا ﴾ أى يستقصى عليكم ، وأما الحلق فلم يرد . والإحفاء القريب من الحلق نقل عن الصحابة . نظر بعض التابعين إلى رجل أحفى شاربه فقال : ذكرتنى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال المغيرة بن شعبة « نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد طال شاربى فقال : تعالى فقصه لى على سواك(٥) » ولا بأس بترك سباليه وهما طرفا الشارب ، فعل ذلك عمر وغيره لأن ذلك لا يستر الفم ولا يبقى فيه غمر الطعام إذ لا يصل إليه . وقوله صلى الله عليه وسلم « اعفوا اللحى » أى كثروها وفى الخبر « إن اليهود يعفون شواربهم

---

(١) « نزل منزلا فى بعض أسفاره فنام على بطنه وعبد أسود يغمز ظهره ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث عمر بسند ضعيف .

(٢) « لا يحل لرجل أن يدخل حليلته الحمام .. الحديث » يأتى فى الذى يليه مع اختلاف .

(٣) « حرام على الرجال دخول الحمام إلا بمئزر ... الحديث » أخرجه النسائى والحاكم وصححه من حديث جابر « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل حليلته الحمام » وللحاكم من حديث عائشة « الحمام حرام على نساء أمتى » قال صحيح الإسناد ولأبى داود وابن ماجه من حديث عبد الله ابن عمر « فلا يدخلهـا الرجال إلا بالإزار وامنعوها النساء إلا من مريضة أو نفساء » .

(٤) « قصوا » وفى لفظ « جزوا » وفى لفظ « احفوا الشوارب واعفوا اللحى » متفق عليه من حديث بن عمر بلفظ « احفوا » ولمسلم من حديث أبى هريرة « جزوا » ولأحمد من حديثه « قصوا » .

(٥) المغيرة بن شعبة « نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد طال شـاربى فقال : تعالى فقصه لى على سواك » أخرجه أبو داود والنسائى والترمذى فى الشمائل .

ويقصون لحاهم (١) فخالفوهم » وكره بعض العلماء الحلق ورآه بدعة .

(الثالث) شعر الإبط ويستحب نتفه فى كل أربعين يوما مرة وذلك سهل على من تعود نتفه فى الابتداء ، فأما من تعود الحلق فيكفيه الحلق إذ فى النتف تعذيب وإيلام ، والمقصود النظافة وأن لا يجتمع الوسخ فى خللها ويحصل ذلك بالحلق .

(الرابع) شعر العانة ويستحب إزالة ذلك إما بالحلق أو بالنورة ولا ينبغى أن تتأخر عن أربعين يوما .

(الخامس) الأظفار وتقليمها مستحب لشناعة صورتها إذا طالت ولما يجتمع فيها من الوسخ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أباهريرة أقلم أظفارك فإن الشيطان يقعد على ما طال منها (٢) » ولو كان تحت الظفر وسخ فلا يمنع ذلك صحة الوضوء لأنه لا يمنع وصول الماء ولأنه يتساهل فيه للحاجة لاسيما فى أظفار الرجل وفى الأوساخ التى تجمع على البراجم وظهور الأرجل والأيدى من العرب وأهل السواد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرهم بالقلم وينكر عليهم ما يرى تحت أظفارهم من الأوساخ ولم يأمرهم بإعادة الصلاة ، ولو أمر به لكان فيه فائدة أخرى وهو التغليظ والزجر عن ذلك . ولم أر فى الكتب خبرا مرويا فى ترتيب قلم الأظفار ولكن سمعت « أنه صلى الله عليه وسلم بدأ بمسبحته اليمنى وختم بإبهامة اليمنى وابتدأ فى اليسرى بالخنصر إلى الإبهام (٣) » ولما تأملت فى هذا خطر لى من المعنى ما يدل على أن الرواية فيه صحيحة إذ مثل المعنى لا ينكشف ابتداء إلا بنور النبوة ، وأما العالم ذو البصيرة فغايته أن يستنبطه من العقل بعد نقل الفعل إليه . فالذى لاح لى فيه والعلم عند الله سبحانه أنه لابد من قلم أظفار اليد والرجل ، واليد أشرف من الرجل فيبدأ بها ، ثم اليمنى أشرف من اليسرى فيبدأ بها ، ثم على اليمنى خمسة أصابع والمسبحة أشرفها إذ هى المشيرة فى كلمتى الشهادة من جملة الأصابع ، ثم بعدها ينبغى أن يبتدئ بما على يمينها إذ الشرع يستحب إدارة الطهور وغيره على اليمين ، وإن وضعت ظهر الكف على الأرض فالإبهام هو اليمين ، وإن وضعت بطن الكف فالوسطى هى اليمنى ، واليد إذا تركت بطبعها كان الكف مائلا إلى جهة الأرض إذ جهة حركة اليمين إلى اليسار واستتمام الحركة إلى اليسار يجعل ظهر الكف عاليا فما يقتضيه الطبع أولى ، ثم إذا وضعت الكف على الكف صارت الأصابع فى حكم حلقة دائرة ، فيقتضى ترتيب الدور الذهاب عن يمين المسحة إلى أن يعود إلى المسبحة ، فتقع البداءة بخنصر اليسرى والختم بإبهامها ويبقى إبهام اليمنى فيختم به التقليم . وإنما قدرت الكف موضوعة على الكف حتى تصير الأصابع كأشخاص فى حلقة ليظهر ترتيبها . وتقدير ذلك أولى من تقدير وضع الكف على ظهر الكف أو وضع ظهر الكف على ظهر الكف فإن ذلك لا يقتضيه الطبع . وأما أصابع الرجل فالأولى عندى - إن لم يثبت فيها نقل - أن يبدأ بخنصر اليمنى ويختم بخنصر اليسرى كما فى التخليل ، فإن المعانى التى ذكرناها فى اليد لا تتجه ههنا إذ لا مسبحة فى الرجل . وهذه الأصابع فى حكم صف واحد ثابت على الارض فيبدأ من جانب اليمنى فإن تقديرها حلقة بوضع الأخمص على الأخمص يأباه الطبع بخلاف اليدين . وهذه الدقائق فى الترتيب تنكشف بنور النبوة فى لحظة واحدة وإنما يطول التعب علينا . ثم لو سئلنا ابتداء عن الترتيب فى ذلك ربما لم يخطر لنا . وإذا ذكرنا فعله صلى الله عليه

---

(١) «إن اليهود يعفون شواربهم ويقصون لحاهم فخالفوهم» أخرجه أحمد من حديث أبى أمامة « قلنا يارسول الله إن أهل الكتاب يقصون عثانينهم ويوفرون سبالهم فقال قصوا سبالكم ووفروا عثانينكم وخالفوا أهل الكتاب » قلت والمشهور أن هذا فعل المجوس ففى صحيح ابن حبان من حديث ابن عمر فى المجوس « أنهم يوفرون سبالهم ويحلقون لحاهم فخالفوهم »

(٢) « يا أبا هريرة قلم ظفرك فإن الشيطان يقعد على ما طال منها » أخرجه الخطيب فى الجامع بإسناد ضعيف من حديث جابر « قصوا أظافيركم » فإن الشيطان يجرى ما بين اللحم والظفر . (٣) « البداءة فى قلم الأظفار بمسبحة اليمنى والختم بإبهامها وفى اليسرى بالخنصر إلى الابهام » لم أجد له أصلا وقد أنكره أبو عبد الله المازرى فى الرد على الغزالى وشنع عليه به .

وسلم وترتيبه ربما تيسر لنا بما عاينه صلى الله عليه وسلم بشهادة الحكم وتنبيهه على المعنى استنباط المعنى ، ولا تظنن أن أفعاله صلى الله عليه وسلم فى جميع حركاته كانت خارجة عن وزن وقانون وترتيب بل جميع الأمور الاختيارية التى ذكرناها يتردد فيها الفاعل بين قسمين أو أقسام كان لايقدم على واحدمعين بالاتفاق بل بمعنى يقتضى الإقدام والتقديم . فإن الاسترسال مهملا-كما يتفق-سجية البهائم ، وضبط الحركات بموازين المعانى سجية أولياء الله وتعالى . وكلما كانت حركات الإنسان وخطراته إلى الضبط أقرب وعن الإهمال وتركه سدى أبعد : كانت مرتبته إلى رتبة الأنبياء والأولياء أكثر وكان قربه من الله عز وجل أظهر ، إذ القريب من النبى صلى الله علية وسلم هو القريب من الله عز وجل والقريب من الله لابد أن يكون قريبا فالقريب من القريب قريب بالإضافة إلى غيره فنعوذ بالله أن يكون زمام حركاتنا وسكناتنا فى يد الشيطان بواسطة الهوى . واعتبر فى ضبط الحركات باكتحاله صلى الله عليه وسلم « فإنه كان يكتحل فى عينه اليمنى ثلاثا وفى اليسرى اثنين(١) » فيبدأ باليمنى لشرفها . وتفاوته بين العينين لتكون الجملة وترا ، فإن للوتر فضلا عن الزوج فان الله سبحانه وتر يحب الوتر فلا ينبغى أن يخلو فعل العبد من مناسبة لوصف من أوصاف الله تعالى . ولذلك استحب الإيتار فى الاستجمار . وإنما لم يقتصر على الثلاث وهو وتر لأن اليسرى لايخصها إلا واحدة والغالب أن الواحدة لاتستوعب أصول الأجفان بالكحل ، وإنما خصص اليمين بالثلاث لان التفضيل لابد منه للإيتار واليمين أفضل فهى بالزيادة أحق .

فإن قلت : فلم اقتصر على اثنين لليسرى وهى زوج ؟ فالجواب أن ذلك ضرورة إذ لو جعل لكل واحدة وتر لكان المجموع زوجا إذ الوتر مع الوتر زوج ، ورعايته الإيتار فى مجموع الفعل وهو فى حكم الخصلة الواحدة أحب من رعايته فى الآحاد . ولذلك أيضا وجه وهو أن يكتحل فى كل واحدة ثلاثا على قياس الوضوء (٢) وقد نقل ذلك فى الصحيح وهو الأولى . ولو ذهبت أستقصى دقائق ما راعاه صلى الله عليه وسلم فى حركاته لطال الأمر فقس بما سمعته مالم تسمعه. واعلم أن العالم لا يكون وارثا للنبى صلى الله عليه وسلم إلا إذا اطلع على جميع معانى الشريعة حتى لا يكون بينه وبين النبى صلى الله عليه وسلم إلا درجة واحدة وهى درجة النبوة،وهى الدرجة الفارقة بين الوارث والموروث، إذ الموروث هو الذى حصل المال له واشتغل بتحصيله واقتدر عليه والوارث هو الذى لم يحصل ولم يقدر عليه ولكن انتقل إليه وتلقاه منه بعد حصوله له، فأمثال هذه المعانى مع سهولة أمرها بالإضافة الى الأغوار والأسرار لايستقل بدركها ابتداء إلا الأنبياء ولا يستقل باستنباطها تلقيا بعد تنبيه الأنبياء عليها الا العلماء الذين هم ورثة الانبياء عليهم السلام .

(السادس والسابع) زيادة السرة وقلفة الحشفة ، أما السرة فتقطع فى أول الولادة وأما التطهير بالختان فعادة اليهود فى اليوم السابع من الولادة ومخالفتهم بالتأخير الى أن يثغر الولد أحب وأبعد عن الخطر قال صلى الله عليه وسلم « الختان سنة للرجال ومكرمة للنساء(٣) » وينبغى أن لا يبالغ فى خفض المرأة قال صلى الله عليه وسلم لأم عطية وكانت تخفض « ياأم عطية أشمى ولا تنهكى فإنه أسرى للوجه وأحظى عند الزوج(٤) » اى اكثر لماء الوجه ودمه وأحسن فى جماعها فانظر الى جزالة لفظه صلى الله عليه وسلم فى الكناية وإلى إشراق نور النبوة من مصالح الآخرة التى هى اهم مقاصد النبوة الى

---

(١) « كان يكتحل فى عينه اليمنى » ثلاثا « وفى اليسرى اثنين » أخرجه الطبرانى من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف .

(٢) « الاكتحال فى كل عين ثلاثا » قال الغزالى ونقل ذلك فى الصحيح ، قلت هو عند الترمذى وابن ماجه من حديث ابن عباس قال الترمذى حديث حسن . (٣) « الختان سنة الرجال مكرمة النساء » أخرجه أحمد والبيهقى من رواية أبى المليح بن أسامة عن أبيه بإسناد ضعيف

(٤) « أم عطية أشمى ولا تنهكى ... الحديث » أخرجه الحاكم والبيهقى من حديث الضحاك بن قيس ولأبى داود نحو من حديث أم عطية وكلاهما ضعيف .

مصالح الدنيا حتى انكشف له وهو أمى من هذا الأمر النازل قدره مالو وقعت الغفلة عنه خيف ضرره فسبحان من أرسله رحمة للعالمين ليجمع لهم بيمن بعثته مصالح الدنيا والدين صلى الله عليه وسلم .

(الثامن) ماطال من اللحية وإنما أخرناها لنلحق بها مافى اللحية من السنن والبدع إذ هذا أقرب موضع يليق به ذكرها وقد اختلفوا فيما طال منها فقيل إن قبض الرجل على لحيته وأخذ مافضل عن القبضة فلا بأس فقد فعله ابن عمر وجماعة من التابعين واستحسنه الشعبى وابن سيرين وكرهه الحسن وقتادة وقالا تركها عافية أحب لقوله صلى الله عليه وسلم « اعفوا اللحى » والأمر فى هذا قريب إن لم ينته إلى تقصيص اللحية وتدويرها من الجوانب فإن الطول المفرط قد يشوه الخلقة ويطلق ألسنة المغتابين بالنبذ إليه فلا بأس باحتراز عنه على هذه النية . وقال النخعى عجبت لرجل عاقل طويل اللحية كيف لايأخذ من لحيته ويجعلها بين لحيتين فإن الوسط فى كل شىء حسن ، ولذلك قيل كلما طالت اللحية تشمر العقل .

فصــــل

وفى اللحية عشر خصال مكروهة وبعضها أشد كراهة من بعض ؛ خضابها بالسواد وتبييضها بالكبريت ونتفها ونتف الشيب منها والنقصان منها والزيادة وتسريحها تصنعا لأجل الرياء وتركها شعثة إظهاراً للزهد والنظر إلى سوادها عجباً بالشباب وإلى بياضها تكبرا بعلو السن وخضابها بالحمرة والصفرة من غير نية تشبها بالصالحين .

أما الأول وهو الخضاب بالسواد فهو منهى عنه لقوله صلى الله عليه وسلم « خير شبابكم من تشبه بشيوخكم وشر شيوخكم من تشبه بشبابكم[١] » والمراد بالتشبه بالشيوخ فى الوقار لافى تبييض الشعر و « نهى عن الخضاب بالسواد[٢] وقال هو خضاب أهل النار[٣] » وفى لفظ آخر « الخضاب بالسواد خضاب الكفار » وتزوج رجل على عهد عمر رضى الله عنه وكان يخضب بالسواد فنصل خضابه وظهرت شيبته فرفعه أهل المرأة إلى عمر رضى الله عنه فرد نكاحه وأوجعه ضربا وقال غررت القوم بالشباب ولبست شيبتك ويقال أول من خضب بالسواد فرعون لعنه الله وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « يكون فى آخر الزمان قوم يخضبون بالسواد كحواصل الحمام لايريحون رائحة الجنة[٤] » .

الثانى : الخضاب بالصفرة والحمرة وهو جائز تلبيساً للشيب على الكفار فى الغزو والجهاد فإن لم يكن على هذه النية بل للتشبه بأهل الدين فهو مذموم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصفرة خضاب المسلمين والحمرة خضاب المؤمنين[٥] » وكانوا يخضبون بالحناء للحمرة وبالخلوق والكتم للصفرة ، وخضب بعض العلماء بالسواد لأجل الغزو وذلك لا بأس به إذا صحت النية ولم يكن فيه هوى وشهوة .

الثالث : تبييضها بالكبريت استعجالا لإظهار علو السن توصلا إلى التوقير وقبول الشهادة والتصديق بالرواية عن الشيوخ وترفعا عن الشباب وإظهاراً لكثرة العلم ظناً بأن كثرة الأيام تعطيه فضلا وهيهات فلا يزيد كبر السن للجاهل إلا جهلا فالعلم ثمرة العقل وهى غريزة ولا يؤثر الشيب فيها ومن كانت غريزته الحمق فطول المدة يؤكد حماقته وقد كان الشيوخ يقدمون الشباب بالعلم . كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقدم ابن عباس وهو حديث

---

(١) « خير شبابكم من تشبه بكهولكم ... الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث واثلة بإسناد ضعيف .
(٢) « نهى عن الخضاب بالسواد » أخرجه ابن سعد فى الطبقات من حديث عمرو بن العاص بإسناد منقطع ، ولمسلم من حديث جابر « وغيروا هذا بشىء واجتنبوا السواد » قاله حين رأى بياض شعر أبى قحافة . (٣) « الخضاب بالسواد خضاب أهل النار » وفى لفظ « خضاب الكفار » أخرجه الطبرانى والحاكم من حديث ابن عمر بلفظ « الكافر » قال ابن أبى حاتم منكر . (٤) « يكون فى آخر الزمان قوم يخضبون بالسواد ... الحديث » أخرجه أبو داود والنسائى من حديث ابن عباس بإسناد جيد . (٥) « الصفرة خضاب المسلمين والحمرة خضاب المؤمنين » أخرجه الطبرانى والحاكم بلفظ من حديث ابن عمر قال ابن أبى حاتم منكر .

السن على أكابر الصحابة ويسأله دونهم . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ما آتى الله عز وجل عبداً علماً إلاشابا والخير كله فى الشباب ثم تلا قوله عز وجل ﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾ وقوله تعالى﴿ إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ﴾ وقوله تعالى ﴿ وآتيناه الحكم صبيا ﴾ وكان أنس رضى الله عنه يقول « قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس فى رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء فقيل له ياأبا حمزة فقد أسن فقال لم يشنه الله بالشيب فقيل أهو شين فقال كلكم يكرهه(١) » ويقال إن يحيى بن أكثم ولى القضاء وهو ابن إحدى وعشرين سنة فقال له رجل فى مجلسه يريد أن يخجله بصغر سنه كم سن القاضى أيده الله فقال مثل سن عتاب بن أسيد حين ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة مكة وقضاءها فأفحمه(٢)، وروى عن مالك رحمه الله أنه قال قرأت فى بعض الكتب لاتغرنكم اللحى فإن التيس له لحية وقال أبو عمرو بن العلاء إذا رأيت الرجل طويل القامة صغير الهامة عريض اللحية فاقض عليه بالحمق ولو كان أمية بن عبد شمس وقال أيوب السختيانى أدركت الشيخ ابن ثمانين سنة يتبع الغلام يتعلم منه . وقال على بن الحسين من سبق فيه العلم قبلك فهو إمامك فيه وإن كان أصغر سناً منك ، وقيل لأبى عمرو بن العلاء أيحسن من الشيخ أن يتعلم من الصغير فقال إن كان الجهل يقبح به وقال يحى بن معين لأحمد بن حنبل وقد رآه يمشى خلف بغلة الشافعى ياأبا عبد الله تركت حديث سفيان بعلوه وتمشى خلف بغلة هذا الفتى وتسمع منه فقال له أحمد لو عرفت لكنت تمشى من الجانب الآخر إن علم سفيان إن فاتنى بعلو أدركته بنزول وإن عقل هذا الشاب إن فاتنى لم أدركه بعلو ولا نزول .

(الرابع) نتف بياضها استنكافا من الشيب «وقد نهى عليه السلام عن نتف الشيب وقال هو نور المؤمن(٣)» وهو فى معنى الخضاب بالسواد وعلة الكراهية ماسبق والشيب نور الله تعالى والرغبة عنه رغبة عن النور .

(الخامس) نتفها أو نتف بعضها بحكم العبث والهوس وذلك مكروه ومشوه للخلقة ونتف الفنيكين بدعة وهما جانبا العنفقة . شهد عند عمر ابن عبد العزيز رجل كان ينتف فنيكيه فرد شهادته ورد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وابن أبى ليلى قاضى المدينة شهادة من كان ينتف لحيته وأما نتفها فى أول النبات تشبها بالمرد فمن المنكرات الكبار فإن اللحية زينة الرجال فإن لله سبحانه ملائكة يقسمون والذى زين بنى آدم باللحى وهو تمام الخلق وبها يتميز الرجال عن النساء وقيل فى غريب التأويل اللحية هى المراد بقوله تعالى ﴿ يزيد فى الخلق مايشاء ﴾ قال أصحاب الأحنف بن قيس وددنا أن نشترى للأحنف لحية ولو بعشرين ألفا وقال شريح القاضى وددت أن لى لحية ولو بعشرة آلاف وكيف تكره اللحية وفيها تعظيم الرجل والنظر إليه بعين العلم والوقار فى المجالس وإقبال الوجوه إليه والتقديم على الجماعة ووقاية العرض ؟ فإن من يشتم يعرض باللحية إن كان للمشتوم لحية وقد قيل إن أهل الجنة مرد إلاهرون أخا موسى صلى الله عليهما وسلم فإن له لحية إلى سرته تخصيصاً له وتفضيلا .

---

(١) « قبض رسول الله صلى الله وسلم وليس فى رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء فقيل له يا أبا حمزة وقد أسن فقال لم يشنه الله بالشيب » متفق عليه من حديث أنس دون قوله « فقيل ... الخ » ولمسلم من حديثه « وسئل عن شيب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ماشانه الله ببيضاء » . (٢) حديث يحى بن أكثم « ولى القضاء وهو ابن إحدى وعشرين سنة فقيل له كم سن القاضى فقال مثل سن عتاب بن أسيد حين ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضيا على أهل اليمن » أخرجه الخطيب فى التاريخ بإسناد فيه نظر وما ذكره ابن أكثم صحيح بالنسبة إلى عتاب بن أسيد فإنه كان حين الولاية ابن عشرين سنة ، وأما بالنسبة إلى معاذ فإنما يتم له ذلك على قول يحى بن سعيد الأنصارى ومالك وابن أبى حاتم إنه كان حين مات ابن ثمان وعشرين سنة والمرجح أنه مات ابن ثلاث وثلاثين سنة فى الطاعون سنة ثمانية عشر والله أعلم . (٣) « نهى عن نتف الشيب وقال هو نور المؤمن » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه والنسائى وابن ماجة من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

(السادس) تقصيصها كالتعبية طاقة على طاقة للتزين للنساء والتصنع قال كعب : يكون فى آخر الزمان أقوام يقصون لحاهم كذنب الحمامة ويعرقبون نعالهم كالمناجل أولئك لاخلاق لهم .

(السابع) الزيادة فيها وهو أن يزيد الشعر العارضين من الصدغين وهو من شعر الرأس حتى يجاوز عظم اللحى وينتهى إلى نصف الخد وذلك يباين هيئة أهل الصلاح .

(الثامن) تسريحها لأجل الناس قال بشر: فى اللحية شركان : تسريحها لأجل الناس وتركها متفتلة لإظهار الزهد .

(التاسع والعاشر) النظر فى سوادها أو فى بياضها بعين العجب وذلك مذموم فى جميع أجزاء البدن بل فى جميع الأخلاق والأفعال على ماسيأتى بيانه فهذا ماأردنا أن نذكره من أنواع التزين والنظافة وقد حصل من ثلاثة أحاديث من سنن الجسد اثنتا عشرة خصلة خمس منها فى الرأس وهى فرق شعر الرأس(١) والمضمضة والاستنشاق (٢) وقص الشارب والسواك وثلاثة فى اليد والرجل وهى القلم وغسل البراجم وتنظيف الرواحب(٣) وأربعة فى الجسد وهى نتف الإبط والاستحداد والختان والاستنجاء بالمـــاء فقد وردت الأخبار بمجموع ذلك وإذا كان غرض هذا الكتاب التعرض للطهارة الظاهرة دون الباطنة فلنقتصر على هذا وليتحقق أن فضلات الباطن وأوساخه التى يجب التنظيف منها أكثر من أن تحصى وسيأتى تفصيلها فى ربع المهلكات مع تعريف الطرق فى إزالتها وتطهير القلب إن شاء الله عزوجل

تم كتاب أسرار الطهارة بحمد الله تعالى وعونه ويتلوه إن شاء الله تعالى كتاب أسرار الصلاة والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى .

كتاب أسرار الصلاة ومهماتها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى غمر العباد بلطائفه ، وعمر قلوبهم بأنوار الدين ووظائفه التى تنزل عن عرش الجلال إلى السماء الدنيا من درجات الرحمة إحدى عواطفه فارق الملوك مع التفرد بالجلال والكبرياء بترغيب الخلق فى السؤال والدعاء فقال : هل من داع فأستجيب له وهل من مستغفر فأغفر له ؟ وباين السلاطين بفتح الباب ، ورفع الحجاب فرخص للعبـاد فى المناجاة بالصلوات كيفما تقلبت بهم الحالات فى الجماعات والخلوات ولم يقتصر على الرخصـة بل تلطف بالترغيب والدعوة ، وغيره من ضعفاء الملوك لا يسمح بالخلوة إلا بعد تقديم الهدية والرشوة فسبحانه ما أعظم شأنه ، وأقوى سلطانه ، وأتم لطفه ، وأعم إحسـانه ؛ والصـلاة على محمد نبيه المصطفى ووليـه المجتبى وعلى آله وأصحابه مفاتيح الهدى ومصابيح الدجى وسلم تسليماً .

أما بعد : فان الصلاة عماد الدين ، وعصام اليقين ، ورأس القربات ، وغرة الطاعات ؛ وقد استقصينا فى فن الفقه ـ فى بسيط المذهب ووسيطه ووجيزه ـ أصولها وفروعها ، صارفين جمام العناية إلى تفاريعها النادرة . ووقائعها الشاذة لتكون خزانة المفتى منها يستمد ومعولا إليها يفزع ويرجع . ونحن الآن فى هذا الكتاب نقتصر على ما

---

(١) « فرق شعر الرأس . . . إلخ » من حديث ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسدل شعره إلى أن قال ثم فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه » . (٢) « عشر من الفطرة ... » أخرجه مسلم من حديث عائشة ولفظه « قص الشارب وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظفار وغسل البراجم ونتف الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء ـ قال وكيع يعنى الاستنجاء ـ قال مصعب ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة ضعفه النسائى ولأبى داود وابن ماجه من حديث عمار بن ياسر نحوه فذكر فيه المضمضة والاختتان والانتضاح ولم يذكر إعفاء اللحية وانتقاص الماء .قال أبو داود روى نحوه عن ابن عباس . قال «خمس كلها فى الرأس» وذكر منها «الفرق» ولم يذكر « إعفاء اللحية» وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة «الفطرة خمس : الختان ... » (٣) «تنظيف الرواجب» تقدم

لا بد للمريد منه من أعمالها الظاهرة وأسرارها الباطنة ، وكاشفون من دقائق معانيها الخفية فى معانى الخشوع والإخلاص والنية ما لم تجر العادة بذكره فى فن الفقه ؛ ومرتبون الكتاب على سبعة أبواب ؛ الباب الأول : فى فضائل الصلاة . الباب الثانى : فى تفضيل الأعمال الظاهرة من الصلاة . الباب الثالث : فى تفضيل الأعمال الباطنة منها . الباب الرابع : فى الامامة والقدوة . الباب الخامس : فى صلاة الجمعة وآدابها . الباب السادس : فى مسائل متفرقة نعم بها البلوى يحتاج المريد إلى معرفتها . الباب السابع : فى التطوعات وغيرها .

الباب الأول : فى فضائل الصلاة السجود والجماعة والأذان وغيرها

فضيلة الأذان

قال صلى الله عليه وسلم « ثلاثة يوم القيامة على كثيب من مسك أسود لا يهولهم حساب ولا ينالهم فزع حتى يفرغ مما بين الناس : رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله عز وجل وأم بقوم وهم به راضون ، ورجل أذن فى مسجد ودعا إلى الله عز وجل ابتغاء وجه الله ، ورجل ابتلى بالرزق فى الدنيا فلم يشغله ذلك عن عمل الآخرة[(١)] » وقال صلى الله عليه وسلم «لايسمع نداء المؤذن جن ولا إنس ولا شىء إلا شهد له يوم القيامة[(٢)] » وقال صلى الله عليه وسلم « يد الرحمن على رأس المؤذن حتى يفرغ من أذانه[(٣)] » وقيل فى تفسير قوله عز وجل ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحاً ﴾ نزلت فى المؤذنين ، وقال صلى الله عليه وسلم « اذا سمعتم النداء فقولوا مثلما يقول المؤذن[(٤)] » وذلك مستحب الا فى الحيعلتين فانه يقول فيهما : لا حول ولا قوة الا بالله ، وفى قوله قدقامت الصلاة أقامها الله وأدامها ما دامت السموات والأرض ، وفى التثويب صدقت وبررت ونصحت ، وعند الفراغ يقول : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته إنك لاتخلف الميعاد وقال سعيد بن المسيب من صلى بأرض فلاة صلى عن يمينه ملك وعن شماله ملك فإن أذن وأقام صلى وراءه أمثال الجبال من الملائكة .

فضيلة المكتوبة

قال تعالى ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « خمس صلوات كتبهن الله على العباد فمن جاء بهن ولم يضيع منهن شيئاً استخفافا بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة [(٥)] » وقال صلى الله عليه وسلم « مثل الصلوات الخمس كمثل نهر عذب غمر بباب أحدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات فما ترون ذلك يبقى من درنه قالوا لاشىء قال صلى الله عليه

باب أسرار الصلاة

(١) « ثلاثة يوم القيامة على كثيب من مسك ... الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه من حديث ابن عمر مختصرا وهو فى الصغير للطبرانى بنحو مما ذكره المؤلف .

(٢) « لايسمع صوت المؤذن جن ولاإنس ولاشىء إلا شهد له يوم القيامة» أخرجه البخارى من حديث أبى سعيد

(٣) « يدالله على رأس المؤذن حتى يفرغ من أذانه » أخرجه الطبرانى فى الأوسط والحسن بن سعيد فى مسند من حديث أنس بإسناد ضعيف.

(٤) « إذا سمعتم النداء فقولوا مثل مايقول المؤذن » متفق عليه من حديث أبى سعيد.

(٥) « خمس صلوات كتبهن الله على العباد ... الحديث » أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجة من حديث عبادة بن الصامت وصححه ابن عبد البر .

وسلم فإن الصلوات الخمس تذهب الذنوب كما يذهب الماء الدرن[1]» وقال صلى الله عليه وسلم « إن الصلوات كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر[2]» وقال صلى الله عليه وسلم « بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح لا يستطيعونهما[3]» وقال صلى الله عليه وسلم « من لقى الله وهو مضيع للصلاة لم يعبأ الله بشيء من حسناته[4]» وقال صلى الله عليه وسلم « الصلاة عماد الدين فمن تركها فقد هدم الدين[5]» وسئل صلى الله عليه وسلم « أى الأعمال أفضل فقال الصلاة لمواقيتها[6]» وقال عليه الصلاة والسلام « من حافظ على الخمس بإكمال طهور ومواقيتها كانت له نوراً وبرهانا يوم القيامة ومن ضيعها حشر مع فرعون وهامان[7]» وقال صلى الله عليه وسلم «مفتاح الجنة الصلاة[8]» وقال « ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد أحب إليه من الصلاة ولو كان شيء أحب إليه منها لتعبد به ملائكته فمنهم راكع ومنهم ساجد ومنهم قائم ومنهم قاعد[9]» وقال صلى الله عليه وسلم «من ترك صلاة متعمداً فقد كفر[10]» أى قارب أن ينخلع عن الإيمان بانحلال عروته وسقوط عماده كما يقال لمن قارب البلدة إنه بلغها ودخلها . وقال صلى الله عليه وسلم « من ترك صلاة متعمداً فقد برىء من ذمة محمد عليه السلام[11]» وقال أبو هريرة رضى الله عنه : من توضأ فأحسن وضوءه ثم خرج عامداً إلى الصلاة فإنه فى صلاة ما كان يعمد إلى الصلاة وأنه يكتب إليه بإحدى خطوتيه حسنة وتمحى عنه بالأخرى سيئة فإذا سمع أحدكم الإقامة فلا ينبغى له أن يتأخر فإن أعظمكم أجرا أبعدكم دارا ، قالوا : لم يا أبا هريرة ؟ قال : من أجل كثرة الخطا . ويروى « إن أول ما ينظر فيه من عمل العبد يوم القيامة الصلاة[12]» فإن وجدت تامة قبلت منه وسائر عمله وإن وجدت ناقصة ردت عليه وسائر عمله وقال صلى الله عليه وسلم « يا أبا هريرة مر أهلك بالصلاة فإن الله يأتيك بالرزق من حيث لا تحتسب[13]» وقال بعض العلماء : مثل المصلى مثل التاجر الذى لا يحصل له الربح حتى يخلص له رأس المال ، وكذلك المصلى لا تقبل له نافلة حتى يؤدى الفريضة . وكان أبو بكر رضى الله عنه يقول : إذا حضرت الصلاة قوموا إلى ناركم التى أوقدتموها فأطفئوها .

فضيلة إتمام الأركان

قال صلى الله عليه وسلم «مثل الصلاة المكتوبة كمثل الميزان من أوفى استوفى[14]» وقال يزيد الرقاشى «كانت

---

(١) «مثل خمس صلوات مثل نهر ...» أخرجه مسلم من حديث جابر ولهما نحوه من حديث أبى هريرة (٢) «الصلوات كفارة لما بينهن ما اجتنب الكبائر» أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة . (٣) « بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح» أخرجه مالك من رواية سعيد بن المسيب مرسلا . (٤) «من لقى الله مضيعا للصلاة لم يعبأ الله بشيء من حسناته» وفى معناه حديث « أول من يحاسب به العبد الصلاة » وفيه « فإن فسدت فسد سائر عمله » رواه الطبرانى فى الأوسط من حديث أنس (٥) «الصلاة عماد الدين» رواه البيهقى فى الشعب بسند ضعفه من حديث عمر قال الحاكم :عكرمة لم يسمع من عمر قال ورواه ابن عمر ولم يقف عليه ابن الصلاح فقال فى مشكل الوسيط إنه غير معروف (٦) سئل أى الأعمال أفضل فقال الصلاة لمواقيتها ؛ متفق عليه من حديث ابن مسعود (٧) من حافظ على الخمس بإكمال طهورها ومواقيتها كانت له نوراً وبرهانا ... ؛ أخرجه أحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمرو (٧) مفاتيح الجنة الصلاة ؛ رواه أبو داود الطيالسى من حديث جابر وهو عند الترمذى ولكن ليس داخلا فى الرواية (٩) ماافترض الله على خلقه بعد التوحيد شيئاً أحب إليه من الصلاة .. ؛ لم أجده هكذا وآخر الحديث عند الطبرانى من حديث جابر وعند الحاكم من حديث ابن عمر (١٠) من ترك صلاة متعمداً فقد كفر ؛ أخرجه البزار من حديث أبى الدرداء بإسناد فيه مقال (١١) من ترك صلاة متعمداً فقد تبرأ من ذمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أخرجه أحمد والبيهقى من حديث أم أيمن بنحوه وثقات (١٢) أول ما ينظر الله فيه يوم القيامة من عمل العبد الصلاة . ؛ رويناه فى الطيوريات من حديث سعيد أبى سعيد بإسناد ضعيف ولأصحاب السنن الحاكم وصحح اسناده نحوه من حديث أبى هريرة وسيأتى (١٣) يا أبا هريرة مر أهلك بالصلاة فإن الله يأتيك بالرزق من حيث لا تحتسب ؛ لم أقف له على اصل (١٤) مثل الصلاة المكتوبة كمثل الميزان من أوفى استوفى ؛ أخرجه ابن المبارك فى من حديث الحسن مرسلا وأسنده البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بإسناد فيه جهالة

صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مستوية كأنها موزونة(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الرجلين من أمتي ليقومان إلى الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد وإن ما بين صلاتيهما ما بين السماء والأرض(٢) » وأشار إلى الخشوع وقال عليه الصلاة والسلام « لا ينظر الله يوم القيامة إلى العبد لا يقيم صلبه بين ركوعه وسجوده(٣) » وقال « أما يخاف الذي يحول وجهه في الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى صلاة لوقتها وأسبغ وضوءها وأتم ركوعها وسجودها وخشوعها عرجت وهي بيضاء مسفرة تقول حفظك الله كما حفظتني ومن صلى لغير وقتها ولم يسبغ وضوءها ولم يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها عرجت وهي سوداء مظلمة تقول ضيعك الله كما ضيعتني حتى إذا كانت حيث شاء الله لفت كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجهه (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته (٦) » وقال ابن مسعود رضي الله عنه وسلمان رضي الله عنه : الصلاة مكيال فمن أوفى استوفى ، ومن طفف فقد علم ما قال الله في المطففين .

فضيلة الجماعة

قال صلى الله عليه وسلم « صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة(٧) » وروى أبو هريرة أنه عليه الصلاة والسلام فقد ناساً في بعض الصلوات فقال « لقد هممت أن آمر رجلا يصلي بالناس ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فأحرق عليهم بيوتهم(٨) » وفي رواية أخرى « ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فآمر بهم فتحرق عليهم بيوتهم بحزم الحطب ولو علم أحدهم أنه يجد عظما سمينا أو مرماتين لشهدها » يعني صلاة العشاء . وقال عثمان رضي الله عنه مرفوعا « من شهد العشاء فكأنما قام نصف ليلة ومن شهد الصبح فكأنما قام ليلة(٩) » وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى صلاة في جماعة فقد ملأ نحرة عبادة(١٠) » وقال سعيد بن المسيب : ما أذن مؤذن منذ عشرين سنة إلا وأنا في المسجد . وقال محمد بن واسع : ما أشتهي من الدنيا إلا ثلاثة : أخاً إن تعوجت قومني وقوتاً من الرزق عفواً من غير تبعة وصلاة في جماعة يرفع عني سهوها ويكتب لي فضلها . وروى أن أبا عبيدة بن الجراح أم قوما مرة فلما انصرف قال : ما زال الشيطان بي آنفاً حتى أريت أن لي فضلا عن غيري لا أؤم أبداً . وقال الحسن : لا تصلوا خلف رجل لا يختلف إلى العلماء . وقال النخعي : مثل الذي يؤم الناس بغير علم مثل الذي يكيل الماء في البحر لا يدري

(١) يزيد الرقاشي : كانت صلاة رسول الله عليه الصلاة والسلام مستوية كأنها موزونة ؛ رواه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه أبو الوليد الصفار في كتاب الصلاة وهو مرسل ضعيف . (٢) إن الرجلين من أمتي ليقومان إلى الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد .. ؛ أخرجه ابن المحبر في العقل من حديث أبي أيوب الأنصاري بنحوه وهو موضوع رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده عن ابن المحبر (٣) « لا ينظر الله إلى عبد لا يقوم صلبه بين ركوعه وسجوده » أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح. (٤) « أما يخاف الذي يحول وجهه في الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار » أخرجه ابن عدي في عوالي مشايخ مصر من حديث جابر « ما يؤمنه إذا التفت في صلاته أن يحول الله وجهه وجه كلب أو وجه خنزير » قال منكر بهذا الأسناد، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة « أما يخشى الذي يرفع قبل الإمام أن يجعل الله وجهه وجه حمار » . (٥) « من صلى الصلاة لوقتها فأسبغ وضوءها وأتم ركوعها وسجودها وخشوعها عرجت وهي بيضاء مسفرة تقول حفظك الله كما حفظتني ... » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس بسند ضعيف والطيالسي والبيهقي في الشعب من حديث عبادة ابن الصامت بسند ضعيف نحوه . . (٦) « أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته » أخرجه أحمد والحاكم وصحح إسناده من حديث أبي قتادة .

(٧) « صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة » متفق عليه من حديث ابن عمر .

(٨) « أبي هريرة لقد هممت أن آمر رجل يصلي بالناس ثم أخالف إلى رجال يتخلفون ... » متفق عليه .

(٩) حديث عثمان « من شهد صلاة العشاء فكأنما قام نصف ليلة ... » أخرجه مسلم من حديثه مرفوعا قال الترمذي وروى عن عثمان موقوفا . (١٠) « من صلى صلاة في جماعة فقد ملأ نحره عبادة » لم أجده مرفوعا وإنما هو من قول سعيد بن المسيب رواه محمد بن نصر في كتاب الصلاة .

زيادته من نقصانه ؟ وقال حاتم الأصم : فاتتني الصلاة في الجماعة فعزاني أبو إسحق البخاري وحده ، ولو مات لي ولد لعزاني أكثر من عشرة آلاف لأن مصيبة الدين أهون عند الناس من مصيبة الدنيا . وقال ابن عباس رضي الله عنهما من سمع المنادي فلم يجب لم يرد خيراً ولم يرد به خير . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : لأن تملأ أذن ابن آدم رصاصا مذاباً خير له من أن يسمع النداء ثم لايجيب وروى أن ميمون بن مهران أتى المسجد فقيل له : إن الناس قد انصرفوا فقال ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ لفضل هذه الصلاة أحب إلى من ولاية العراق وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى أربعين يوماً الصلوات في جماعة لاتفوته فيها تكبيرة الإحرام كتب الله له براءتين : براءة من النفاق وبراءة من النار[١]» ويقال إنه إذا كان يوم القيامة يحشر قوم وجوههم كالكوكب الدرى فتقول لهم الملائكة : ما كانت أعمالكم ؟ فيقولون : كنا إذا سمعنا الأذان قمنا إلى الطهارة لايشغلنا غيرها ثم تحشر طائفة وجوههم كالأقمار فيقولون بعد السؤال : كنا نتوضأ قبل الوقت ثم تحشر طائفة وجوههم كالشمس فيقولون : كنا نسمع الأذان في المسجد . وروى أن السلف كانوا يعزون أنفسهم ثلاثة أيام إذا فاتتهم التكبيرة الأولى ويعزون سبعاً إذا فاتتهم الجماعة .

فضيلة السجود

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماتقرب العبد إلى الله بشيء أفضل من سجود خفي[٢] » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مامن مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها سيئة[٣]» وروى « أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ادع الله أن يجعلني من أهل شفاعتك وأن يرزقني مرافقتك في الجنة فقال صلى الله عليه وسلم : أعني بكثرة السجود[٤]»وقيل « إن أقرب مايكون العبد من الله تعالى أن يكون ساجداً[٥]» وهو معنى قوله عز وجل ﴿واسجد واقترب﴾ وقال عز وجل ﴿ سيماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾ فقيل هو مايلتصق بوجوههم من الأرض عند السجود وقيل هو نور الخشوع فإنه يشرق من الباطن على الظاهر، وهو الأصح وقيل هي الغرر التي تكون في وجوههم يوم القيامة من أثر الوضوء وقال صلى الله عليه وسلم « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي ويقول ياويلاه أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت أنا بالسجود فعصيت فلي النار[٦] » ويروى عن علي بن عبد الله بن عباس أنه كان يسجد في كل يوم ألف سجدة وكانوا يسمونه السجاد . ويروى أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان لايسجد إلا على التراب . وكان يوسف بن اسباط يقول : يامعشر الشباب بادروا بالصحة قبل المرض فما بقي أحد احسده إلا رجل يتم ركوعه وسجوده وقد حيل بيني و بين ذلك . وقال سعيد بن جبير : ما آسى على شيء من الدنيا إلا على السجود . وقال عقبة بن مسلم : مامن خصلة في العبد احب إلى الله عز وجل من رجل يحب لقاء الله عز وجل وما من ساعة العبد فيها اقرب إلى الله عز وجل

---

(١) « من صلى أربعين يوما الصلوات في جماعة لاتفوته تكبيرة الإحرام ... » أخرجه الترمذي من حديث أنس بإسناد رجاله ثقات . (٢) «ماتقرب العبد إلى الله بشيء أفضل من سجود خفي » رواه ابن المبارك في الزهد من حديث ضمرة بن حبيب مرسلا . (٣) « مامن مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها خطيئة » أخرجه ابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت بإسناد صحيح ولمسلم نحوه من حديث ثوبان وأبي الدرداء . (٤) « إن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ادع الله أن يجعلني من أهل شفاعتك ويرزقني مرافقتك في الجنة . . » أخرجه مسلم من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي نحوه وهو الذي سأله ذلك . (٥) «إن أقرب مايكون العبد إلى الله أن يكون ساجداً» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . (٦) «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان وبكى ... » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

منه حيث يخر ساجداً . وقال أبو هريرة رضى الله عنه : أقرب ما يكون العبد إلى الله عز وجل إذا سجد فأكثروا الدعاء عند ذلك .

فضيلة الخشوع

قال الله تعالى ﴿ وأقم الصلاة لذكرى ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ وقال عز وجل ﴿ لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾ قيل سكارى من كثرة الهم وقيل من حب الدنيا . وقال وهب : المراد به ظاهره ففيه تنبيه على سكر الدنيا إذ بين فيه العلة فقال ﴿ حتى تعلموا ما تقولون ﴾ وكم من مصل لم يشرب خمرا وهو لا يعلم ما يقول فى صلاته . وقال النبى صلى الله عليه وسلم « من صلى ركعتين لم يحدث نفسه فيهما بشىء من الدنيا غفر له ما تقدم من ذنبه[1] » وقال صلى الله عليه وسلم « إنما الصلاة تمسكن وتواضع وتضرع وتأوه وتنادم وتضع يديك فتقول اللهم اللهم فمن لم يفعل فهى خداج[2] » وروى عن الله سبحانه فى الكتب السالفة أنه قال « ليس كل مصل أتقبل صلاته إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتى ولم يتكبر على عبادى وأطعم الفقير الجائع لوجهى » وقال صلى الله عليه وسلم « إنما فرضت الصلاة وأمر بالحج والطواف وأشعرت المناسك لإقامة ذكر الله تعالى فإذا لم يكن فى قلبك للمذكور الذى هو المقصود والمبتغى عظمة ولا هيبة فما قيمة ذكرك[3] » وقال صلى الله عليه وسلم للذى أوصاه « وإذا صليت فصل صلاة مودع[4] » أى مودع لنفسه مودع لهواه مودع لعمره سائر إلى مولاه كما قال عز وجل ﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ﴾ وقال تعالى ﴿ اتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ وقال تعالى ﴿ واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعدا[5] » والصلاة مناجاة فكيف تكون مع الغفلة ؟ وقال بكر بن عبد الله : يا ابن آدم إذا شئت أن تدخل على مولاك بغير إذن وتكلمه بلا ترجمان دخلت ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : تسبغ وضوءك وتدخل محرابك فإذا أنت قد دخلت على مولاك بغير إذن فتكلمه بغير ترجمان . وعن عائشة رضى الله عنها قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه[6] » اشتغالا بعظمة الله عز وجل وقال صلى الله عليه وسلم « لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه[7] » وكان إبراهيم الخليل إذا قام إلى الصلاة يسمع وجيب قلبه على ميلين . وكان سعيد التنوخى إذا صلى لم تنقطع الدموع من خديه على لحيته

---

(١) « من صلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشىء من الدنيا غفر له ما تقدم من ذنبه » أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف من حديث صلة بن أشيم مرسلا وهو فى الصحيحين من حديث عثمان بزيادة فى أوله دون قوله « بشىء من الدنيا » وزاد الطيالسى إلا بخير . (٢) « إنما الصلاة تمسكن ودعاء وتضرع ... » أخرجه الترمذى بنحوه من حديث الفضل بن عباس بإسناد مضطرب . (٣) « إنما فرضت الصلاة وأمر بالحج والطواف وأشعرت المناسك لإقامة ذكر الله » أخرجه أبو داود والترمذى من حديث عائشة نحوه دون ذكر « الصلاة » قال الترمذى حسن صحيح . (٤) « إذا صليت فصل صلاة مودع » أخرجه ابن ماجة من حديث أبى أيوب والحاكم من حديث سعد بن أبى وقاص وقال صحيح الإسناد والبيهقى فى الزهد من حديث ابن عمر ومن حديث بنحوه . (٥) « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً » أخرجه على بن معبد فى كتاب الطاعة والمعصية من حديث الحسن مرسلا بإسناد صحيح ورواه الطبرانى وأسنده ابن مردويه فى تفسيره من حديث أبى عباس بإسناد لين والطبرانى من قول ابن مسعود « من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر ... » وإسناده صحيح . (٦) « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه » أخرجه الأزدى فى الضعفاء من حديث سويد بن غفلة مرسلا « كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا سمع الأذان كأنه لا يعرف أحداً من الناس » ، (٧) « لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه لم أجده بهذا اللفظ وروى محمد بن نصر فى كتاب الصلاه من رواية عثمان بن أبى دهرش مرسلا « لا يقبل الله من عبد عملا حتى يشهد قلبه مع بدنه » ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى بن كعب وإسناده ضعيف .

« ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة فقال لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه(١) » ويروى أن الحسن نظر إلى رجل يعبث بالحصى ويقول« اللهم زوجنى الحور العين » فقال: بئس الخاطب أنت تخطب الحور العين وأنت تعبث بالحصى . وقيل لخلف بن أيوب : ألا يؤذيك الذباب فى صلاتك فتطردها قال : لا أعود نفسى شيئا يفسد على صلاتى ، قيل له : وكيف تصبر على ذلك ؟ قال : بلغنى أن الفساق يصبرون تحت أسواط السلطان ليقال فلان صبور ويفتخرون بذلك فأنا قائم بين يدى ربى أفأتحرك لذبابة ؟ ويروى عن مسلم بن يسار أنه كان إذا أراد الصلاة قال لأهله : تحدثوا أنتم فإنى لست أسمعكم . ويروى عنه أنه كان يصلى يوما فى جامع البصرة فسقطت ناحية من المسجد فاجتمع الناس لذلك فلم يشعر به حتى انصرف من الصلاة . وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه إذا حضر وقت الصلاة يتزلزل ويتلون وجهه فقيل له : مالك يا أمير المؤمنين ؟ فيقول جاء وقت أمانة عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملتها . ويروى عن على بن الحسين أنه كان إذا توضأ اصفر لونه فيقول له أهله : ما هذا الذى يعتريك عند الوضوء ؟ فيقول : أتدرون بين يدى من أريد أن أقوم ؟ ويروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال « قال داود صلى الله عليه وسلم فى مناجاته : إلهى من يسكن بيتك وممن تتقبل الصلاة ؟ فأوحى الله إليه : ياداود إنما يسكن بيتى وأقبل الصلاة منه من تواضع لعظمتى وقطع نهاره بذكرى وكف نفسه عن الشهوات ، من أجلى يطعم الجائع ويؤوى الغريب ويرحم المصاب فذلك الذى يضىء نوره فى السموات كالشمس ، إن دعانى لبيته وإن سألنى أعطيته ، أجعل له فى الجهل حلما وفى الغفلة ذكرا وفى الظلمة نورا ، وإنما مثله فى الناس كالفردوس فى أعلى الجنان لا تيبس أنهارها ولا تتغير ثمارها » ويروى عن حاتم الأصم رضى الله عنه أنه سئل عن صلاته فقال : إذا حانت الصلاة أسبغت الوضوء وأتيت الموضع الذى أريد الصلاة فيه فأقعد فيه حتى تجتمع جوارحى ، ثم أقوم إلى صلاتى وأجعل الكعبة بين حاجبى والصراط تحت قدمى والجنة عن يمينى والنار عن شمالى وملك الموت ورائى اظنها آخر صلاتى ، ثم أقوم بين الرجاء والخوف وأكبر تكبيرا بتحقيق وأقرأ قراءة بترتيل وأركع ركوعا بتواضع وأسجد سجودا بتخشع وأقعد على الورك الأيسر وأفرش ظهر قدمها وأنصب القدم اليمنى على الإبهام وأتبعها الإخلاص ، ثم لا أدرى أقبلت منى أم لا ؟ وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ركعتان مقتصدتان فى تفكير خير من قيام ليلة والقلب ساه .

فضيلة المسجد وموضع الصلاة

قال الله عز وجل ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « من بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطاة بنى الله له قصراً فى الجنة(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « من ألف المسجد ألفه الله تعالى(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « لاصلاة لجار المسجد إلا فى المسجد (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « الملائكة تصلى على أحدكم مادام

(١) « رأى رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة فقال لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه » أخرجه الترمذى والحكيم فى النوادر من حديث أبى هريرة بسند ضعيف ، والمعروف أنه من قول سعيد بن المسيب رواه ابن أبى شيبة فى المصنف وفيه رجل لم يسم .

(٢) « من بنى مسجداً ولو مثل مفحص قطاة ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بسند صحيح وابن حبان من حديث أبى ذر وهو متفق عليه من حديث عثمان دون قوله « ولو مثل مفحص القطاة »

(٣) « من ألف المسجد ألفه الله تعالى » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى سعيد بسند ضعيف .

(٤) « إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس » متفق عليه من حديث أبى قتادة .

(٥) « لاصلاة لجــار المسجد إلا فى المسجد » أخرجه الدارقطنى من حديث جابر وأبى هريرة بإسنادين ضعيفين والحاكم من حديث أبى هريرة .

فى مصلاه الذى يصلى فيه تقول : اللهم صل عليه اللهم ارحمه اللهم اغفر له ما لم يحدث أو يخرج من المسجد[١]» وقال صلى الله عليه وسلم « يأتى فى آخر الزمان ناس من أمتى يأتون المسجد فيقعدون فيها حلقا حلقا ذكرهم الدنيا وحب الدنيا لاتجالسوهم فليس لله بهم حاجة[٢] » وقال صلى عليه وسلم « قال الله عز وجل فى بعض الكتب إن بيوتى فى أرضى المساجد وإن زوارى فيها عمارها فطوبى لعبد تطهر فى بيته ثم زارنى فى بيتى فحق على المزور ان يكرم زائره[٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان[٤] » وقال سعيد ابن المسيب من جلس فى المسجد فإنما يجالس ربه فما حقه أن يقول إلا خيرا . ويروى فى الأثر أو الخبر « الحديث فى المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهائم الحشيش[٥] » وقال النخعى : كانوا يرون ان المشى فى الليلة المظلمة إلى المسجد موجب للجنة . وقال انس بن مالك : من أسرج فى المسجد سراجا لم تزل الملائكة وحملة العرش يستغفرون له ما دام فى ذلك المسجد ضوؤه . وقال على كرم الله وجهه : إذا مات العبد يبكى عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء ، ثم قرأ ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾ وقال ابن عباس : تبكى عليه الأرض اربعين صباحا . وقال عطاء الخراسانى : ما من عبد يسجد لله سجدة فى بقعة من بقاع الأرض إلا شهدت له يوم القيامة وبكت عليه يوم يموت . وقال انس بن مالك : ما من بقعة يذكر الله تعالى عليها بصلاة او ذكر إلا افتخرت على ما حولها من البقاع واستبشرت بذكر الله عز وجل إلى منتهاها من سبع ارضين وما من عبد يقوم يصلى إلا تزخرفت له الأرض . ويقال : ما من منزل ينزل فيه قوم إلا اصبح ذلك المنزل يصلى عليهم او يلعنهم .

الباب الثانى: فى كيفية الأعمال الظاهرة من الصلاة والبداءة بالتكبير وما قبله

ينبغى للمصلى إذا فرغ من الوضوء والطهارة من الخبث فى البدن والمكان والثياب وستر العورة من السرة إلى الركبة ان ينتصب قائما متوجها إلى القبلة ويزاوج بين قدميه ولايضمهما فإن ذلك مما كان يستدل به على فقه الرجل وقد « نهى صلى الله عليه وسلم عن الصفن والصفد فى الصلاة[٦] » والصفد هو اقتران القدمين معا ومنه قوله تعالى ﴿ مقرنين فى الأصفاد ﴾ والصفن هو رفع إحدى الرجلين ومنه قوله عز وجل ﴿ الصافنات الجياد ﴾ هذا مايراعيه فى رجليه عند القيام ويراعى فى ركبتيه ومعقد نطاقه الانتصاب ، واما رأسه إن شاء تركه على استواء القيام وإن شاء أطرق والإطراق اقرب للخشوع واغض للبصر وليكن بصره محصورا على مصلاه الذى يصلى عليه ، فإن لم يكن له

---

(١) « الملائكة تصلى على أحدكم مادام فى مصلاه ... » متفق عليه من حديث أبى هريرة . (٢) « يأتى آخر الزمان ناس من أمتى يأتون المساجد فيقعدون فيها حلقا حلقا ذكرهم الدنيا ... » أخرجه ابن حبان من حديث ابن مسعود والحاكم من حديث أنس وقال صحيح الإسناد (٣) « قال تعالى : إن بيوتى فى الأرض المساجد وإن زوارى فيها عمارها ... » أخرجه أبو نعيم من حديث أبى سعيد بسند ضعيف « يقول الله عز وجل يوم القيامة أين جيرانى فتقول الملائكة من هذا الذى ينبغى له أن يجاورك فيقول أين قراء القرآن وعمار المساجد » وهو فى الشعب نحوه موقوفا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسناد صحيح ، وأسند ابن حبان فى الضعفاء آخر الحديث من حديث سلمان وضعفه (٤) حديث « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان » رواه الترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبى سعيد (٥) « الحديث فى المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش » لم أقف له على أصل

الباب الثانى

(٦) « النهى عن الصفن والصفد فى الصلاة » عزاه رزين إلى الترمذى ولم أجده عنده ولا عند غيره ، وإنما ذكره أصحاب الغريب كابن الأثير فى النهاية ، وروى سعيد بن منصور أن ابن مسعود رأى رجلا صافا أو صافنا قدميه فقال : أخطأ هذا السنة .

مصلى فليقرب من جدار الحائط أو ليخط خطا ، فإن ذلك يقصر مسافة البصر ويمنع تفرق الفكر وليحجر على بصره أن يجاوز أطراف المصلى وحدود الخط ،وليدم على هذا القيام كذلك إلى الركوع من غير التفات . هذا أدب القيام فإذا استوى قيامه واستقباله وإطراقه كذلك فليقرأ ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ تحصنا به من الشيطان ، ثم ليأت بالإقامة وإن كان يرجو حضور من يقتدى به فليؤذن أولا ثم ليحضر النية وهو أن ينوى فى الظهر مثلا ويقول بقلبه : أؤدى فريضة الظهر لله ، ليميزها بقوله أؤدى :عن القضاء وبالفريضة عن النفل ، وبالظهر عن العصر وغيره ، ولتكن معانى هذه الألفاظ حاضرة فى قلبه فإنه هو النية،والألفاظ مذكرات وأسباب لحضورها ، ويجتهدأن يستديم ذلك إلى آخر التكبير حتى لا يعزب فإذا حضر فى قلبه ذلك فليرفع يديه إلى حذو منكبيه بعد إرسالها بحيث يحاذى بكفيه منكبيه وبإبهاميه شحمتى أذنيه وبرءوس أصابعه رءوس أذنيه (١) ليكون جامعا بين الأخبار الواردة فيه ، ويكون مقبلا بكفيه وبإبهاميه إلى القبلة ويبسط الأصابع ولا يقبضها ،ولا يتكلف فيها تفريجا ولا ضما بل يتركها على مقتضىطبعهما ، إذ نقل فى الأثر النشر والضم(٢) وهذا بينهما فهوأولى ، وإذا استقرت اليدان فى مقرهما ابتدأ التكبير مع إرسالها وإحضار النية . ثم يضع اليدين على مافوق السرة وتحت الصدر ويضع اليمنى على اليسرى إكراما لليمنى بأن تكون محمولة ، وينشر المسبحة والوسطى من اليمنى على طول الساعد ويقبض بالإبهام والخنصر والبنصر على كوع اليسرى . وقد روى أن التكبير مع رفع اليدين(٣) ومع استقرارهما(٤) ومع الإرسال(٥)فكل ذلك لا حرج فيه وأراه بالإرسال أليق فإنه كلمة العقد ، ووضع إحدى اليدين على الأخرى فى صورة العقد ومبدؤه الإرسال وآخره الوضع . ومبدأ التكبير الألف وآخره الراء .فليبق مراعاة التطابق بين الفعل والعقد ، وأما رفع اليد فكالمقدمة لهذه البداية . ثم لا ينبغى أن يرفع يديه إلى قدام رفعا عند التكبير ولا يردهما إلى خلف منكبيه ولا ينفضهما عن يمين وشمال نفضا إذا فرغ من التكبير ويرسلهما إرسالا خفيفاً رفيقاً ويستأنف وضع اليمين على الشمال بعد الإرسال.وفى بعض الروايات أنه صلى الله عليه وسلم « كان إذا كبر أرسل يديه وإذا أراد أن يقرأ وضع اليمنى على اليسرى(٦) » فان صح هذا فهو أولى مما ذكرناه . وأما التكبير فينبغى أن يضم الهاء من قوله « الله » ضمة خفيفة من غير مبالغة ولا يدخل بين الهاء والألف شبه الواو، وذلك ينساق إليه بالمبالغة . ولا يدخل بين باء أكبر ورائه ألفا كأنه يقول «أكبار» ويجزم راء التكبير ولا يضمها فهذه هيئة التكبير وما معه .

القـراءة

ثم يبتدىء بدعاء الاستفتاح وحسن أن يقول عقب قوله الله أكبر « الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيرا وسبحان

---

(١) « رفع اليدين إلى حذو المنكبين » وورد « إلى شحمة أذنية » وورد « إلى رءوس أذنيه » متفق عليه من حديث ابن عمر باللفظ الأول وأبو داود من حديث وائل بن حجر بإسناد ضعيف « إلى شحمة أذنيه » ولمسلم من حديث مالك بن الحويرث « فروع أذنيه »

(٢) حديث « نشر الأصابع عند الافتتاح » ونقل «ضمها » وقال عطاء وابن خزيمة من حديث أبى هريرة والبيهقى « لم يفرج بين أصابعه ولم يضمها » ولم أجد التصريح بضم الأصابع .

(٣) حديث التكبير مع رفع اليدين أخرجه البخارى من حديث ابن عمر «كان يرفع يديه حين يكبر »ولأبى داود من حديث وائل « يرفع يديه مع التكبير »

(٤) التكبير مع استقرار اليدين أى مرفوعتين أخرجه مسلم من حديث ابن عمر «كان إذا أقام الصلاة رفع حتى يكونا حذو منكبيه ثم كبر » زاد أبو داود « وهما كذلك »

(٥) «التكبير مع إرسال اليدين» أخرجه أبو داود من حديث أبى حميد« كان إذا قام إلى الصلاة يرفع يديه حتى يحاذى بهما منكبيه ثم كبر حتى يقر كل عظم فى موضعه معتدلا » قال ابن الصلاح فى المشكل فكلمة «حتى» التى هى للغاية تدل بالمعنى على ماذكره أى من ابتدأ التكبير مع الإرسال .

(٦) «كان إذا كبر أرسل يديه فإذا أراد أن يقرأ وضع اليمنى على اليسرى» أخرجه مسلم من حديث معاذ بإسناد ضعيف

الله بكرة وأصيلا (١) وجهت وجهي - إلى قوله - وأنا من المسلمين (٢)» ثم يقول «سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك وجل ثناؤك ولا إله غيرك(٣)» ليكون جامعاً بين متفرقات ما ورد في الأخبار. وإن كان خلف الإمام اختصر إن لم يكن للامام سكتة طويلة يقرأ فيها ثم يقول «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ثم يقرأ الفاتحة يبتدى فيها بـ«بسم الله الرحمن الرحيم» بتمام تشديداتها وحروفها ويجتهد في الفرق بين الضاد والظاء ويقول «آمين» في آخر الفاتحة ويمدها مداً، ولا يصل «آمين» بقوله «ولا الضالين» وصلا. ويجهر بالقراءة في الصبح والمغرب والعشاء إلا أن يكون مأموماً، ويجهر بالتأمين. ثم يقرأ السورة أو قدر ثلاث آيات من القرآن فما فوقها، ولا يصل آخر السورة بتكبير الهوى بأن يفصل بينهما بقدر قوم «سبحان الله» ويقرأ في الصبح من السور الطوال من المفصل وفي المغرب من قصاره، وفي الظهر والعصر والعشاء نحو ﴿والسماء ذات البروج﴾ وما قاربها. وفي الصبح في السفر ﴿قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد﴾ وكذلك في ركعتي الفجر والطواف والتحية وهو في جميع ذلك مستديم للقيام ووضع اليدين كما وصفنا في أول الصلاة.

الركوع ولواحقه

ثم يركع ويراعى فيه أموراً وهو أن يكبر للركوع وأن يرفع يديه مع تكبيرة الركوع وأن يمد التكبيرة مداً إلى الانتهاء الى الركوع وأن يضع راحتيه على ركبتيه في الركوع وأصابعه منشورة موجهة نحو القبلة على طول الساق وأن ينصب ركبتيه ولا يثنيهما وأن يمد ظهره مستوياً وأن يكون عنقه ورأسه مستويين مع ظهره كالصفيحة الواحدة لا يكون رأسه أخفض ولا أرفع وأن يجافي مرفقيه عن جنبيه. وتضم المرأة مرفقيها إلى جنبيها. وأن يقول «سبحان ربي العظيم» ويقول «سمع الله لمن حمده» ويطمئن في الاعتدال ويقول «ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ماشئت من شيء بعد» ولا يطول هذا القيام إلا في صلاة التسبيح والكسوف والصبح. ويقنت في الصبح في الركعة الثانية بالكلمات المأثورة قبل السجود (٤).

السجود

ثم يهوى إلى السجود مكبرا فيضع ركبتيه على الأرض ويضع جبهته وأنفه وكفيه مكشوفة ويكبر عند الهوى ولا يرفع يديه في غير الركوع، وينبغي أن يكون أول ما يقع منه على الأرض ركبتاه وأن يضع بعدهما يديه ثم يضع بعدهما وجهه وأن يضع جبهته وأنفه على الأرض وأن يجافي مرفقيه عن جنبيه. ولا تفعل المرأة ذلك وأن يفرج بين رجليه. ولا تفعل المرأة ذلك. وأن يكون في سجوده مخويا على الأرض. ولا تكون المرأة مخوية.

---

(١) «أنه يقول بعد قوله الله أكبر: الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا» أخرجه مسلم من حديث ابن عمر قال «بينا نحن نصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال رجل من القوم الله أكبر كبيرا ...» أخرجه أبو دواد وابن ماجه من حديث جبير ابن مطعم «أنه رأى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي صلاة قال: الله أكبر كبيراً ...» (٢) «دعاء الاستفتاح وجهت وجهي...» أخرجه مسلم من حديث علي (٣) «سبحانك اللهم وبحمدك...» في الاستفتاح أيضا أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه من حديث عائشة وضعفه الترمذي والدارقطني ورواه مسلم موقوفا على عمر وعند البيهقي من حديث جابر الجمع بين «وجهت» وبين «سبحانك اللهم»

(٤) «القنوت في الصبح بالكلمات المأثورة» أخرجه البيهقي من حديث ابن عباس «كان النبي صلى الله عليه وسلم يقنت في صلاة الصبح وفي وتر الليل بهؤلاء الكلمات: اللهم اهدني فيمن هديت ...» أخرجه أبوداود والترمذي وحسنه والنسائي من حديث الحسن «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلمه هؤلاء الكلمات يقولهن في الوتر» وإسناده صحيح.

والتخوية : رفع البطن عن الفخذين والتفريج بين الركبتين . وأن يضع يديه على الأرض حذاء منكبيه ولا يفرج بين أصابعهما بل يضمهما ويضم الإبهام إليهما ، وإن لم يضم الإبهام فلا بأس ، ولا يفترش ذراعيه على الأرض كما يفترش الكلب[1] فإنه منهى عنه ، وأن يقول « سبحان ربى الأعلى » ثلاثاً فإن زاد فحسن إلا أن يكون إماما .
ثم يرفع من السجود فيطمئن جالسا معتدلا فيرفع رأسه مكبراً ويجلس على رجله اليسرى وينصب قدمه اليمنى ويضع يديه على فخذيه والأصابع منشورة ولا يتكلف ضمها ولا تفريجها . ويقول «رب اغفر لى وارحمنى وارزقنى واهدنى واجبرنى وعافنى واعف عنى» ولا يطول هذه الجلسة إلا فى سجود التسبيح . ويأتى بالسجدة الثانية كذلك ويستوى منها جالساً جلسة خفيفة للاستراحة فى كل ركعة لا تشهد عقبها . ثم يقوم فيضع اليد على الأرض ولا يقدم إحدى رجليه فى حال الارتفاع ويمد التكبير حتى يستغرق ما بين وسط ارتفاعه من القعود إلى وسط ارتفاعه إلى القيام . بحيث تكون الهاء من قوله «الله» عند استوائه جالساً ، وكاف «أكبر» عند اعتماده على اليد للقيام ، وراء «أكبر» فى وسط ارتفاعه إلى القيام ويبتدىء فى وسط ارتفاعه إلى القيام حتى يقع التكبير فى وسط انتقاله ولا يخلو عنه إلا طرفاه وهو أقرب إلى التعميم . ويصلى الركعة الثانية كالأولى ويعيد التعوذ كالابتداء .

التشهــــــد

ثم يتشهد فى الركعة الثانية التشهد الأول. ثم يصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ويضع يده اليمنى على فخذه اليمنى ويقبض أصابعه اليمنى إلا المسبحة ، ولا بأس بإرسال الإبهام أيضاً ، ويشير بمسبحة يمناه وحدها عند قوله « إلا الله» لا عند قوله «لا إله» ويجلس فى هذا التشهد على رجله اليسرى كما بين السجدتين . وفى التشهد الأخير يستكمل الدعاء المأثور[2] بعد الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وسننه كسنن التشهد الأول لكن يجلس فى الأخير على وركه الأيسر ، لأنه ليس مستوفزا للقيام بل هو مستقر ، ويضجع رجله اليسرى خارجة من تحته وينصب اليمنى ويضع رأس الإبهام إلى جهة القبلة إن لم يشق عليه. ثم يقول « السلام عليكم ورحمة الله » ويلتفت يميناً بحيث يرى خده الأيمن من وراءه من الجانب اليمين ويلتفت شمالا كذلك . ويسلم تسليمة ثانية وينوى الخروج من الصلاة بالسلام. وينوى بالسلام على يمينه الملائكة والمسلمين فى الأولى ، وينوى مثل ذلك فى الثانية . ويجزم التسليم[3] ولا يمده مداً فهو السنة . وهذه هيئة صلاة المنفرد ، ويرفع صوته بالتكبير ولا يرفع صوته إلا بقدر ما يسمع نفسه . وينوى الإمام الإمامة لينال الفضل فإن لم ينو صحت صلاة القوم إذا نووا الاقتداء ونالوا فضل الجماعة ، ويسر بدعاء الاستفتاح والتعوذ كالمنفرد . ويجهر بالفاتحة والسورة فى جميع الصبح وأولى العشاء والمغرب . وكذلك المنفرد . ويجهر بقوله «آمين» فى الصلاة الجهرية وكذلك المأموم . ويقرن المأموم تأمينه بتأمين الإمام معاً لا تعقيباً ويسكت الإمام سكتة عقيب الفاتحة ليثوب إليه نفسه ويقرأ المأموم السورة فى الجهرية فى هذه السكتة ليتمكن من الاستماع عند قراءة الإمام . ولا يقرأ المأموم السورة فى الجهرية إلا إذا لم يسمع صوت الإمام . ويقول الإمام «سمع الله لمن حمده» عند رفع رأسه من الركوع وكذا المأموم . ولا يزيد الإمام على الثلاث فى تسبيحات الركوع والسجود . ولا يزيد

---

(١) «النهى عن أن يفرش ذراعيه على الأرض كما يفرش الكلب» متفق عليه حديث أنس . (٢) « الدعاء المأثور بعد التشهد » أخرجه مسلم من حديث على فى دعاء الاستفتاح قال « ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم : اللهم اغفر لى ما قدمت ... الحديث » وفى الصحيحين من حديث عائشة « إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع : من عذاب جهنم ... الحديث» وفى الباب غير ذلك جميعا فى الأصل . (٣) «جزم السلام سنة» أخرجه أبو داود والترمذى من حديث أبى هريرة وقال حسن صحيح وضعفه ابن القطان .

فى التشهد الأول بعد قوله « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد » ويقتصر فى الركعتين الأخيرتين على الفاتحة ولا يطول على القوم ولا يزيد على دعائه فى التشهد الأخير على قدر التشهد والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وينوى عند السلام : السلام على القوم والملائكة . وينوى القوم بتسليمهم جوابه . ويثبت الإمام ساعة حتى يفرغ الناس من السلام ويقبل على الناس بوجهه والأولى أن يثبت إن كان خلف الرجال نساء لينصرفن قبله ، ولا يقوم واحد من القوم حتى يقوم . وينصرف الإمام حيث يشاء عن يمينه وشماله واليمين أحب إلى . ولا يخص الإمام نفسه بالدعاء فى قنوت الصبح بل يقول «اللهم اهدنا» ويجهر به ويؤمن القوم ويرفعون أيديهم حذاء الصدور ، ويمسح الوجه عند ختم الدعاء . لحديث نقل فيه ، وإلا فالقياس أن لا يرفع اليد كما فى آخر التشهد .

المنهيات

نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصفن فى الصلاة والصفد وقد ذكرناهما وعن الإقعاء(١) وعن السدل(٢) والكف(٣) وعن الاختصار(٤) وعن الصلب(٥) وعن المواصلة(٦) وعن صلاة الحاقن(٧) والحاقب(٨) والحازق(٩) وعن صلاة الجائع والغضبان والمتلثم(١٠) وهو ستر الوجه . أما الإقعاء : فهو عند أهل اللغة أن يجلس على وركيه وينصب ركبتيه ويجعل يديه على الأرض كالكلب ، وعند أهل الحديث أن يجلس على ساقيه جاثيا وليس على الأرض منه إلا رءوس أصابع الرجلين والركبتين . وأما السدل : فمذهب أهل الحديث فيه أن يلتحف بثوبه ويدخل يديه من داخل فيركع ويسجد كذلك ، وكان هذا فعل اليهود فى صلاتهم فنهوا عن التشبه بهم والقميص فى معناه فلا ينبغى أن يركع ويسجد ويداه فى بدن القميص . وقيل معناه أن يضع وسط الإزار على رأسه ويرسل طرفيه عن يمينه وشماله من غير أن يجعلهما على كتفيه . والأول أقرب ، وأما الكف فهو أن يرفع ثيابه من بين يديه أو من خلفه إذا أراد السجود . وقد يكون الكف فى شعر الرأس فلا يصلين وهو عاقص شعره والنهى للرجال . وفى الحديث « امرت

---

(١) « النهى عن الإقعاء » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث على بسند ضعيف « لا تقع بين السجدتين » ومسلم من حديث عائشة « كان ينهى عن عقبة الشيطان ، والحاكم من حديث سمرة وصححه « نهى عن الإقعاء » . (٢) « النهى عن السدل فى الصلاة أخرجه أبو داود والترمذى والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة . (٣) « النهى عن الكفت فى الصلاة » متفق عليه من حديث ابن عباس « أمرنا النبى صلى الله عليه وسلم أن نسجد على سبعة أعظم ولا نكفت شعرا ولا ثوبا » . (٤) « النهى عن الاختصار » أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة وهو متفق عليه بلفظ « نهى أن يصلى الرجل مختصرا » . (٥) « النهى عن الصلب فى الصلاة ، أخرجه أبو داود والنسائى من حديث ابن عمر بإسناد صحيح . (٦) حديث وغير ذلك ، وقد روى أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث سمرة « سكتتان حفظتهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل فى صلاته : إذا فرغ من قراءته وإذا فرغ قراءة القرآن » وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة « كان يسكت بين التكبير والقراءة إسكاتة ... الحديث » . (٧) « النهى عن صلاة الحاقن » أخرجه ابن ماجه والدارقطنى من حديث أبى أمامه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يصلى الرجل وهو حاقن » وأبو داود من حديث أبو هريرة « لا يحل لرجل أن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصلى وهو حاقن » وله وللترمذى وحسنه نحوه من حديث ثوبان ومسلم من حديث عائشة « لا صلاة بحضرة طعام ولا وهو يدافعه الأخبثان » . (٨) « النهى عن صلاة الحاقب » لم أجده بهذا اللفظ وفسره المصنف تبعا للأزهرى بمدافعة الغائط وفيه حديث عائشة الذى قبل هذا

(٩) « النهى عن صلاة الحازق » عزاه رزين إلى الترمذى ولم أجده عنده والذى ذكر أصحاب الغريب حديث « لا رأى لحازق » وهو صاحب الخف الضيق . (١٠) « النهى عن التلثم فى الصلاة » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبى هريرة بسند حسن « نهى أن يغطى الرجل فاه فى الصلاة » رواه الحاكم وصححه قال الخطابى هو التلثم على الأفواه ؟

أن أسجد على سبعة أعضاء ولا أكف شعراً ولا ثوباً[١] » وكره أحمد بن حنبل رضى الله عنه أن يأتزر فوق القميص فى الصلاة ورآه من الكف . وأما الاختصار : فأن يضع يديه على خاصرتيه . وأما الصلب فأن يضع يديه على خاصرتيه فى القيام ويجافى بين عضديه فى القيام . وأما المواصلة : فهى خمسة ، اثنان على الإمام أن لا يصل قراءته بتكبيرة الإحرام ولا ركوعه بقراءته ، واثنان على المأموم أن لا يصل تكبيرة الإحرام بتكبيرة الإمام ولا تسليمه بتسليمه ، وواحدة بينهما أن لا يصل تسليمة الفرض بالتسليمة الثانية وليفصل بينهما وأما الحاقن : فمن البول . والحاقب: من الغائط . والحاذق : صاحب الخف الضيق. فان كل ذلك يمنع من الخشوع . وفى معناه الجائع والمهتم . وفهم نهى الجائع من قوله صلى الله عليه وسلم « إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابدءوا بالعشاء إلا أن يضيق الوقت أو يكون ساكن القلب[٢] » وفى الخبر « لا يدخلن أحدكم الصلاة وهو مقطب ولا يصلين أحدكم وهو غضبان[٣] » وقال الحسن : كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهى إلى العقوبة أسرع . وفى الحديث « سبعة أشياء فى الصلاة من الشيطان : الرعاف والنعاس والوسوسة والتثاؤب والعبث بالشىء[٤] » وزاد بعضهم « السهو والشك» وقال بعض السلف : أربعة فى الصلاة من الجفاء ـ الالتفات ومسح الوجه وتسوية الحصى وأن تصلى بطريق من يمر بين يديك «ونهى أيضا عن أن يشبك أصابعه[٥] أو يفرقع أصابعه[٦] أو يستر وجهه[٧] أو يضع إحدى كفيه على الأخرى ويدخلهما بين فخذيه فى الركوع[٨] » وقال بعض الصحابة رضى الله عنهم : كنا نفعل ذلك فنهينا عنه . ويكره أيضا أن ينفخ فى الارض عند السجود للتنظيف وأن يسوى الحصى بيده فإنها أفعال مستغنى عنها ولا يرفع إحدى قدميه فيضعها على فخذه ولا يستند فى قيامه إلى حائط فإن استند بحيث لو سل ذلك الحائط لسقط فالأظهر بطلان صلاته والله أعلم .

تمييز الفرائض والسنن

جملة ما ذكرناه يشتمل على فرائض وسنن وآداب وهيئات مما ينبغى لمريد طريق الآخرة أن يراعى جميعها . فالفرض من جملتها اثنتا عشرة خصلة : النية والتكبير والقيام والفاتحة ، والانحناء فى الركوع إلى أن تنال راحتاه ركبتيه مع الطمأنينة والاعتدال عنه قائما ، والسجود مع الطمأنينة ولا يجب وضع اليدين والاعتدال عنه قاعداً ، والجلوس

---

(١) « أمرت أن أسجد على سبعة أعضاء ولا أكفت شعراً ولا ثوبا .. » متفق عليه من حديث ابن عباس.

(٢) « إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابدءوا بالعشاء» متفق عليه من حديث ابن عمر وعائشة . (٣) «لا يدخل أحدكم الصلاة وهو غضبان» لم أجده . (٤) «سبعة أشياء من الشيطان فى الصلاة، الرعاف والنعاس والوسوسة والتثاؤب والالتفات » وزاد بعضهم « السهو والشك » أخرجه الترمذى من رواية عدى بن ثابت عن أبيه عن جده فذكر منها الرعاف والنعاس والتثاؤب وزاد ثلاثة أخرى وقال حديث غريب ولمسلم من حديث عثمان بن أبى العاص « يارسول الله إن الشيطان قد حال بينى وبين صلاتى . . . الحديث» وللبخارى من حديث عائشة فى الالتفات فى الصلاة هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة أحدكم وللشيخين من حديث أبى هريرة التثاؤب من الشيطان ولهما من حديث أبى هريرة إن أحدكم إذا قام يصلى جاء الشيطان فلبس عليه صلاته حتى لا يدرى كم صلى . (٥) « النهى عن تشبيك الأصابع» أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة وأبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان نحوه من حديث كعب ابن عجرة . (٦) «النهى عن تفقيع الأصابع فى الصلاة» أخرجه ابن ماجه من حديث على بإسناد ضعيف لا تفقع أصابعك فى الصلاة . (٧) « النهى عن ستر الوجه » أخرجه أبو داود وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة .

(٨) « النهى عن التطبيق فى الركوع» متفق عليه من حديث سعد بن أبى وقاص : كنا نفعله فنهينا عنه وأمرنا أن نضع الأيدى على الركب .

للتشهد الأخير والتشهد الأخير والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، والسلام الأول . فأما نية الخروج فلا تجب وما عدا هذا فليس بواجب بل هي سنن وهيئات فيها وفي الفرائض . اما السنن فمن الأفعال اربعة : رفع اليدين في تكبيرة الإحرام وعند الهوى إلى الركوع وعند الارتفاع إلى القيام ، والجلسة للتشهد الأول . فأما ما ذكرناه من كيفية نشر الأصابع وحد رفعها فهي هيئات تابعة لهذه السنة ، والتورك والافتراش هيئات تابعة للجلسة ، والإطراق وترك الالتفات هيئات للقيام وتحسين صورته ، وجلسة الإستراحة لم نعدها من أصول السنة في الأفعال لأنها كالتحسين لهيئة لارتفاع من السجود إلى القيام لأنها ليست مقصودة في نفسها ولذلك لم تفرد بذكر . وأما السنن من الأذكار فدعاء الاستفتاح ثم التعوذ ثم قوله « آمين » فإنه سنة مؤكدة ثم قراءة السورة ثم تكبيرات الانتقالات ، ثم الذكر في الركوع والسجود والاعتدال عنهما ، ثم التشهد الأول والصلاة فيه على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم الدعاء في آخر التشهد الأخير ، ثم التسليمة الثانية وهذه إن جمعناها في اسم السنة فلها درجات متفاوتة إذ تجبر أربعة منها بسجود السهو . وأما من الأفعال فواحدة : وهي الجلسة الأولى للتشهد الأول فإنها مؤثرة في ترتيب نظم الصلاة في اعين الناظرين حتى يعرف بها أنها رباعية أم لا ؟ بخلاف رفع اليدين فإنه لا يؤثر في تغيير النظم فعبر عن ذلك بالبعض ، وقيل الأبعاض تجبر بالسجود . واما الأذكار فكلها لا تقتضي سجود السهو إلا ثلاثة : القنوت والتشهد الأول والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيه ، بخلاف تكبيرات الانتقالات وأذكار الركوع والسجود والاعتدال عنهما ، لأن الركوع والسجود في صورتهما مخالفان للعادة ويحصل بهما معنى العبادة مع السكوت عن الأذكار فعدم تلك الأذكار لا تغير صورة العبادة. واما الجلسة للتشهد الأول ففعل معتاد وما زيدت إلا للتشهد فتركها ظاهر التأثير . واما دعاء الاستفتاح والسورة فتركهما لا يؤثر مع ان القيام صار معموراً بالفاتحة ومميزاً عن العادة بها ، وكذلك الدعاء في التشهد الأخير والقنوت ابعد ما يجبر بالسجود ولكن شرع مد الاعتدال في الصبح لأجله فكان كمد جلسة الاستراحة إذ صارت بالمد مع التشهد الأول . فبقي هذا قياما ممدودا معتادا ليس فيه ذكر واجب وفي الممدود احتراز عن غير الصبح وفي خلوه عن ذكر واجب احتراز عن اصل القيام في الصلاة .

فان قلت : تمييز السنن عن الفرائض معقول إذ تفوت الصحة بفوت الفرض دون السنة ويتوجه العقاب به دونها فأما تمييز سنة عن سنة والكل مأمور به على سبيل الاستحباب ولا عقاب في ترك الكل والثواب موجود على الكل فما معناه ؟

فاعلم ان اشتراكهما في الثواب والعقاب والاستحباب لا يرفع تفاوتهما ، ولنكشف ذلك لك بمثال : وهو ان الإنسان لا يكون إنسانا موجودا كاملا إلا بمعنى باطن واعضاء ظاهرة ، فالمعنى الباطن هو الحياة والروح ، والظاهر اجسام اعضائه . ثم بعض تلك الأعضاء ينعدم الإنسان بعدمها كالقلب والكبد والدماغ ، وكل عضو تفوت الحياة بفواته ، وبعضها لا تفوت بها الحياة ولكن يفوت بها مقاصد الحياة كالعين واليد والرجل واللسان ، وبعضها لا يفوت بها الحياة ولا مقاصدها ولكن يفوت بها الحسن كالحاجبين واللحية والأهداب وحسن اللون ، وبعضها لا يفوت بها اصل الجمال ولكن كماله كاستقواس الحاجبين وسواد شعر اللحية والأهداب وتناسب خلقة الأعضاء وامتزاج الحمرة بالبياض في اللون فهذه درجات متفاوتة ؛ فكذلك العبادة صورة صورها الشرع وتعبدنا باكتسابها فروحها وحياتها الباطنة الخشوع والنية وحضور القلب والإخلاص - كما سيأتي - ونحن الآن في اجزائها الظاهرة فالركوع والسجود والقيام وسائر الأركان تجرى منها مجرى القلب والرأس والكبد إذ يفوت وجود الصلاة بفواتها . والسنن التي ذكرناها من رفع اليدين ودعاء الاستفتاح والتشهد الأول تجري منها مجرى اليدين والعينين والرجلين ولا تفوت الصحة بفواتها كما لا تفوت الحياة بفوات هذه الأعضاء ولكن يصير الشخص بسبب فواتها مشوه الخلقة مذموما غير مرغوب فيه . فكذلك من اقتصر على اقل ما يجزى من الصلاة كان كمن اهدى إلى ملك من الملوك عبدا حيا مقطوع الأطراف . واما الهيئات وهي ماوراء السنن فتجري مجرى اسباب الحسن من الحاجبين واللحية والأهداب

وحسن اللون . وأما وظائف الأذكار فى تلك السنن فهى مكملات للحسن كاستقواس الحاجبين واستدارة اللحية وغيرها . فالصلاة عندك قربة وتحفة تتقرب بها إلى حضرة ملك الملوك كوصيفة يهديها طالب القربة من السلاطين إليهم وهذه التحفة تعرض على الله عز وجل . ثم ترد عليك يوم العرض الأكبر فإليك الخيرة فى تحسين صورتها وتقبيحها فإن أحسنت فلنفسك وإن أسأت فعليها . ولاينبغى أن يكون حظك من ممارسة الفقه أن يتميز لك السنة عن الفرض فلايعلق بفهمك من أوصاف السنة إلاأنه يجوز تركها فتتركها فإن ذلك يضاهى قول الطبيب : إن فقء العين لايبطل وجود الإنسان ولكن يخرجه عن أن يصدق رجاء المتقرب فى قبول السلطان إذا أخرجه فى معرض الهدية . فهكذا ينبغى أن تفهم مراتب السنن والهيئات والآداب . فكل صلاة لم يتم الإنسان ركوعها وسجودها فهى الخصم الأول على صاحبها تقول : ضيعك الله كما ضيعتنى . فطالع الأخبار التى أوردناها فى كمال أركان الصلاة ليظهر لك وقعها .

الباب الثالث : فى الشروط الباطنة من أعمال القلب

ولنذكر فى هذا الباب ارتباط الصلاة بالخشوع وحضور القلب . ثم نذكر المعانى الباطنة وحدودها وأسبابها وعلاجها . ثم لنذكر تفصيل ما ينبغى أن يحضر فى كل ركن من أركان الصلاة لتكون صالحة لزاد الآخرة .

بيان اشتراط الخشوع وحضور القلب

اعلم أن أدلة ذلك كثيرة فمن ذلك قوله تعالى ﴿ أقم الصلاة لذكرى ﴾ وظاهر الأمر الوجوب ، والغفلة تضاد الذكر فمن غفل فى جميع صلاته كيف يكون مقيما للصلاة لذكره ؟ وقوله تعالى ﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ نهى وظاهره التحريم وقوله عز وجل ﴿ حتى تعلموا ماتقولون ﴾ تعليل لنهى السكران وهو مطرد فى الغافل المستغرق الهم بالوسواس وأفكار الدنيا وقوله صلى الله عليه وسلم « إنما الصلاة تمسكن وتواضع » حصر بالألف واللام وكلمة « إنما » للتحقيق والتوكيد . وقد فهم الفقهاء من قوله عليه السلام « إنما الشفعة فيما لم يقسم » الحصر والإثبات والنفى . وقوله صلى الله عليه وسلم « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا » وصلاة الغافل لاتمنع من الفحشاء والمنكر . وقال صلى الله عليه وسلم « كم من قائم حظه من صلاته التعب والنصب[1] » وما أراد به إلا الغافل وقال صلى الله عليه وسلم « ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها[2] » والتحقيق فيه أن المصلى مناج ربه عز وجل[3] كما ورد به الخبر والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة ألبته . وبيانه أن الزكاة إن غفل الإنسان عنها مثلا

الباب الثالث

(١) « كم من قائم حظه من صلاته التعب والنصب » أخرجه النسائى من حديث أبى هريرة « رب قائم ليس له من قيامه إلا السهر » ولأحمد « رب قائم حظه من صلاته السهر » وإسناده حسن .

(٣) « ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل » لم أجده مرفوعا وروى محمد بن نصر المروزى فى الكتاب الصلاة من رواية عثمان ابن أبى دهرش مرسلا « لايقبل الله من عبد عملا حتى يشهد قلبه مع بدنه » ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى بن كعب ولابن المبارك فى الزهد موقوفا على عمار لايكتب للرجل من صلاته ما سهى عنه .

(٣) « المصلى يناجى ربه » متفق عليه من حديث أنس .

فهى فى نفسها مخالفة للشهوة شديدة على النفس ، وكذا الصوم قاهر للقوى كاسر لسطوة الهوى الذى هو آلة للشيطان عدو الله ، فلا يبعد أن يحصل منها مقصود مع الغفلة ، وكذلك الحج أفعاله شاقة شديدة وفيه من المجاهدة ما يحصل به الإيلام كان القلب حاضرا مع أفعاله أو لم يكن ؟ أما الصلاة فليس فيها إلا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود ، فأما الذكر فإنه مجاورة ومناجاة مع الله عز وجل فأما أن يكون المقصود منه كونه خطابا ومحاورة أو المقصود منه الحروف والأصوات امتحانا للسان بالعمل كما تمتحن المعدة والفرج بالإمساك فى الصوم ، وكما يمتحن البدن بمشاق الحج ، ويمتحن القلب بمشقة إخراج الزكاة واقتطاع المال المعشوق . ولا شك ان هذا القسم باطل فإن تحريك اللسان بالهذيان ما أخفه على الغافل فليس فيه امتحان من حيث أنه عمل بل المقصود الحروف من حيث إنه نطق ، ولا يكون نطقا إلا إذا أعرب عما فى الضمير ولا يكون معربا إلا بحضور القلب ، فأى سؤال فى قوله ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ إذا كان القلب غافلا ؟ وإذا لم يقصد كونه تضرعا ودعاء فأى مشقة فى تحريك اللسان به مع الغفلة لاسيما بعد الاعتياد ؟ هذا حكم الأذكار بل أقول لو حلف الإنسان وقال : لأشكرن فلانا وأثنى عليه وأسأله حاجة ، ثم جرت الألفاظ الدالة على هذه المعانى على لسانه فى النوم لم يبر فى يمينه ، ولو جرت على لسانه فى ظلمة وذلك الإنسان حاضر وهو لا يعرف حضوره ولا يراه لا يصير بارا فى يمينه إذ لا يكون كلامه خطابا ونطقا معه ما لم يكن هو حاضرا فى قلبه ، فلو كانت تجرى هذه الكلمات على لسانه وهو حاضر إلا أنه فى بياض النهار غافل لكونه مستغرق الهم بفكر من الأفكار ولم يكن له قصد توجيه الخطاب إليه عند نطقه لم يصر بارا فى يمينه . ولا شك فى أن المقصود من القراءة والأذكار الحمد والثناء والتضرع والدعاء ، والمخاطب هو الله عز وجل وقلبه بحجاب الغفلة محجوب عنه فلا يراه ولا يشاهد بل هو غافل عن المخاطب ولسانه يتحرك بحكم العادة فما أبعد هذا عن المقصود بالصلاة التى شرعت لتصقيل القلب وتجديد ذكر الله عز وجل ورسوخ عقد الإيمان به ! هذا حكم القراءة والذكر . وبالجملة فهذه الخاصية لا سبيل إلى إنكارها فى النطق وتمييزها عن الفعل . وأما الركوع والسجود فالمقصود بهما التعظيم قطعا ولو جاز أن يكون معظما لله عز وجل بفعله وهو غافل عنه لجاز أن يكون معظما لصنم موضوع بين يديه وهو غافل عنه أو يكون معظما للحائط الذى بين يديه وهو غافل عنه ، وإذا خرج عن كونه تعظيما لم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس وليس فيه من المشقة ما يقصد الامتحان به ، ثم يجعله عماد الدين والفاصل بين الكفر والإسلام ويقدم على الحج وسائر العبادات ويجب القتل بسبب تركه على الخصوص ، وما أرى أن هذه العظمة كلها للصلاة من حيث أعمالها الظاهرة إلا أن يضاف إليها مقصود المناجاة فإن ذلك يتقدم على الصوم والزكاة والحج وغيره بل الضحايا والقرابين التى هى مجاهدة للنفس بتنقيص المال قال الله تعالى ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾ أى الصفة التى استولت على القلب حتى حملته على امتثال الأوامر هى المطلوبة فكيف الأمر فى الصلاة ولا أرب فى أفعالها ؟ فهذا ما يدل من حيث المعنى على اشتراط حضور القلب .

فإن قلت : إن حكمت ببطلان الصلاة وجعلت حضور القلب شرطا فى صحتها خالفت إجماع الفقهاء فإنهم لم يشترطوا إلا حضور القلب عند التكبير ؟

فاعلم أنه قد تقدم فى كتاب العلم : أن الفقهاء لا يتصرفون فى الباطن ولا يشقون عن القلوب ولا فى طريق الآخرة بل يبنون ظاهر أحكام الدين على ظاهر أعمال الجوارح ، وظاهر الأعمال كاف لسقوط القتل وتعزير السلطان ، فأما أنه ينفع فى الآخرة فليس هذا من حدود الفقه على أنه لا يمكن أن يدعى الإجماع . فقد نقل عن بشر بن الحرث فيما رواه عنه أبو طالب المكى عن سفيان الثورى أنه قال : من لم يخشع فسدت صلاته . وروى عن الحسن انه قال : كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهى إلى العقوبة اسرع . وعن معاذ بن جبل : من عرف من على يمينه وشماله متعمدا وهو فى الصلاة فلا صلاة له . وروى أيضا مسندا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« إن العبد ليصلى الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها وإنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها(١) » وهذا لو نقل عن غيره لجعل مذهبا فكيف لا يتمسك به ؟ وقال عبد الواحد بن زيد : أجمعت العلماء على أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل عنها ، فجعله إجماعاً ، وما نقل من هذا الجنس عن الفقهاء المتورعين وعن علماء الآخرة أكثر من أن يحصى . والحق الرجوع إلى أدلة الشرع والأخبار والآثار ظاهرة فى هذا الشرط إلا مقام الفتوى فى التكليف الظاهر يتقدر بقدر قصور الخلق . فلا يمكن أن يشترط على الناس إحضار القلب فى جميع الصلاة فإن ذلك يعجز عنه كل البشر إلا الأقلين وإذا لم يمكن اشتراط الاستيعاب للضرورة فلا مرد له إلا أن يشترط منه ما ينطلق عليه الاسم ولو فى اللحظة الواحدة ؛ وأولى اللحظات به لحظة التكبير فاقتصرنا على التكليف بذلك ونحن مع ذلك نرجو أن لا يكون حال الغافل فى جميع صلاته مثل حال التارك بالكلية فإنه على الجملة أقدم على الفعل ظاهراً وأحضر القلب لحظة . وكيف لا والذى صلى مع الحدث ناسياً صلاته باطلة عند الله تعالى ولكن له أجرما بحسب فعله وعلى قدر قصوره وعذره ، ومع هذا الرجاء فيخشى أن يكون حاله أشد من حال التارك وكيف لا والذى يحضر الخدمة ويتهاون بالحضرة ويتكلم بكلام الغافل المستحقر أشد حالا من الذى يعرض عن الخدمة ؟ وإذا تعارض أسباب الخوف والرجاء وصار الأمر مخطراً فى نفسه فإليك الخيرة بعده فى الاحتياط والتساهل . ومع هذا فلا مطمع فى مخالفة الفقهاء فيما أفتوا به من الصحة مع الغفلة فإن ذلك من ضرورة الفتوى ـ كما سبق التنبيه عليه ـ ومن عرف سر الصلاة علم أن الغفلة تضادها . ولكن قد ذكرنا فى باب الفرق بين العلم الباطن والظاهر فى كتاب قواعد العقائد أن قصور الخلق أحد الأسباب المانعة عن التصريح بكل ما ينكشف من أسرار الشرع . فلنقتصر على هذا القدر من البحث فإن فيه مقنعاً للمريد الطالب لطريق الآخرة . وأما المجادل المشغب فلسنا نقصد مخاطبته الآن . وحاصل الكلام أن حضور القلب هو روح الصلاة وأن أقل ما يبقى به رمق الروح الحضور عند التكبير ، فالنقصان منه هلاك وبقدر الزيادة عليه تنبسط الروح فى أجزاء الصلاة . وكم من حى لا حراك به قريب من ميت ؟ فصلاة الغافل فى جميعها إلا عند التكبير كمثل حى لا حراك به نسأل الله حسن العون .

بيان المعانى الباطنة التى تتم بها حياة الصلاة

اعلم أن هذه المعانى تكثر العبارات عنها ولكن يجمعها ست جمل وهى : حضور القلب والتفهم والتعظيم والهيبة والرجاء والحياء فلنذكر تفاصيلها ثم أسبابها ثم العلاج فى اكتسابها . أما التفاصيل ؛ فالأول : حضور القلب ونعنى به أن يفرغ عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به ، فيكون العلم بالفعل والقول مقروناً بهما ، ولا يكون الفكر جائلا فى غيرهما ، ومهما انصرف فى الفكر عن غير ما هو فيه وكان فى قلبه ذكر لما هو فيه ولم يكن فيه غفلة عن كل شىء فقد حصل حضور القلب ولكن التفهم لمعنى الكلام أمر وراء حضور القلب ؛ فربما يكون القلب حاضراً مع اللفظ ولا يكون حاضراً مع معنى اللفظ . فاشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ هو الذى أردناه بالتفهم . وهذا مقام يتفاوت الناس فيه إذ ليس يشترك الناس فى تفهم المعانى للقرآن والتسبيحات . وكم من معان لطيفة يفهمها المصلى فى أثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه ذلك قبله ؟ ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر ، فإنها تفهم أموراً ؛ تلك الأمور تمنع عن الفحشاء لا محالة . وأما التعظيم فهو أمر وراء حضور القلب والفهم إذ الرجل يخاطب عبده بكلام هو حاضر القلب

(١) « إن العبد ليصلى الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها ... الحديث » أخرجه أبو داود والنسائى وابن حبان من حديث عمار بن ياسر بنحوه .

فيه ومتفهم لمعناه ولا يكون معظما له فالتعظيم زائد عليهما . وأما الهيبة فزائدة على التعظيم بل هى عبارة عن خوف منشؤه التعظيم لأن من لا يخاف لا يسمى هائباً ، والمخافة من العقرب وسوء خلق العبد وما يجرى مجراه من الأسباب الخسيسة لا تسمى مهابة ، بل الخوف من السلطان المعظم يسمى مهابة ، والهيبة خوف مصدرها الإجلال . وأما الرجاء فلا شك أنه زائد فكم من معظم ملكاً من الملوك يهابه أو يخاف سطوته ولكن لا يرجو مثوبته . والعبد ينبغى أن يكون راجياً بصلاته ثواب الله عز وجل كما أنه خائف بتقصيره عقاب الله عز وجل . وأما الحياء فهو زائد على الجملة لأن مستنده استشعار تقصير وتوهم ذنب ويتصور التعظيم والخوف والرجاء من غير حياء حيث لا يكون توهم تقصير وارتكاب ذنب .

وأما أسباب هذه المعانى الستة فاعلم أن حضور القلب سببه الهمة فإن قلبك تابع لهمتك فلا يحضر إلا فيما يهمك ومهما أهمك أمر حضر القلب فيه شاء أم أبى فهو مجبول على ذلك ومسخر فيه . والقلب إذا لم يحضر فى الصلاة لم يكن متعطلا بل جائلا فيما الهمة مصروفة إليه من أمور الدنيا ، فلا حيلة ولا علاج لإحضار القلب إلا بصرف الهمة إلى الصلاة . والهمة لا تنصرف إليها ما لم يتبين أن الغرض المطلوب منوط بها وذلك هو الإيمان والتصديق بأن الآخرة خير وأبقى وأن الصلاة وسيلة إليها ، فاذا أضيف هذا إلى حقيقة العلم بحقارة الدنيا ومهماتها حصل من مجموعها حضور القلب فى الصلاة ، وبمثل هذه العلة يحضر قلبك إذا حضرت بين يدى بعض الأكابر ممن لا يقدر على مضرتك ومنفعتك ، فإذا كان لا يحضر عند المناجاة مع ملك الملوك الذى بيده الملك والملكوت والنفع والضر فلا تظنن أن له سبباً سوى ضعف الإيمان فاجتهد الآن فى تقوية الإيمان — وطريقه يستقصى فى غير هذا الموضع — وأما التفهم فسببه بعد حضور القلب إدمان الفكر وصرف الذهن إلى إدراك المعنى وعلاجه ما هو علاج إحضار القلب مع الإقبال على الفكر والتشمر لدفع الخواطر .

وعلاج دفع الخواطر الشاغلة قطع موادها أعنى النزوع عن تلك الأسباب التى تنجذب الخواطر إليها وما لم تنقطع تلك المواد لا تنصرف عنها الخواطر فمن أحب شيئاً أكثر ذكره فذكر المحبوب يهجم على القلب عن بالضرورة ، لذلك ترى من أحب غير الله لا يصفو له صلاة عن الخواطر . وأما التعظيم فهى حالة للقلب تتولد من معرفتين :

إحداهما : معرفة جلال الله عز وجل وعظمته وهو من أصول الإيمان فان من لا يعتقد عظمته لا تدعن النفس لتعظيمه :

الثانية : معرفة حقارة النفس وخستها وكونها عبداً مسخراً مربوباً حتى يتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله سبحانه فيعبر عنه بالتعظيم ، وما لم تمتزج معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الله لا تنتظم حالة التعظيم والخشوع فإن المستغنى عن غيره الآمن على نفسه يجوز أن يعرف من غير صفات العظمة . ولا يكون الخشوع والتعظيم حاله لأن القرينة الأخرى وهى معرفة حقارة النفس وحاجتها لم تقترن إليه .

وأما الهيبة والخوف فحالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرة الله وسطوته ونفوذ مشيئته فيه مع قلة المبالاة به ، وأنه لو أهلك الأولين والآخرين لم ينقص من ملكه ذرة هذا مع مطالعة ما يجرى على الأنبياء والأولياء من المصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع على خلاف ما يشاهد من ملوك الأرض . وبالجملة كلما زاد العلم بالله زادت الخشية والهيبة — وسيأتى أسباب ذلك فى كتاب الخوف من ربع المنجيات — وأما الرجاء فسببه معرفة لطف الله عز وجل وكرمه وعميم إنعامه ولطائف صنعه ومعرفة صدقه فى وعده الجنة بالصلاة ، فاذا حصل اليقين بوعده والمعرفة بلطفه انبعث من مجموعهما الرجاء لا محالة . وأما الحياء فباستشعاره التقصير فى العبادة وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله عز وجل ويقوى ذلك بالمعرفة بعيوب النفس وآفاتها وقلة إخلاصها وخبث دخلتها وميلها إلى الحظ العاجل فى جميع أفعالها مع العلم بعظيم ما يقتضيه جلال الله عز وجل والعلم

بأنه مطلع على السر وخطرات القلب وإن دقت وخفيت ، وهذه المعارف إذا حصلت يقينا انبعث منها بالضرورة حالة تسمى الحياء. فهذه أسباب هذه الصفات وكل ماطلب تحصيله فعلاجه إحضار سببه ففى معرفة السبب معرفة العلاج . ورابطة جميع هذه الأسباب الإيمان واليقين أعنى بهذه المعارف التى ذكرناها ومعنى كونها يقينا انتفاء الشك واستيلاؤها على القلب ـ كما سبق فى بيان اليقين من كتاب العلم ـ وبقدر اليقين يخشع القلب ولذلك قالت عائشة رضى الله عنها « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة كأنه لم يعرفنا ولم نعرفه » وقد روى أن الله سبحانه أوحى إلى موسى عليه السلام « ياموسى إذا ذكرتنى فاذكرنى وأنت تنتفض أعضاؤك وكن عند ذكرى خاشعا مطمئنا وإذا ذكرتنى فاجعل لسانك من وراء قلبك وإذا قمت بين يدى فقم قيام العبد الذليل وناجنى بقلب وجل ولسان صادق » وروى أن الله تعالى أوحى إليه « قل لعصاة أمتك لايذكرونى فإنى آليت على نفسى أن من ذكرنى ذكرته فإذا ذكرونى ذكرتهم باللعنة » هذا فى عاص غير غافل فى ذكره فكيف إذا اجتمعت الغفلة والعصيان ؟ وباختلاف المعانى التى ذكرناها فى القلوب انقسم الناس إلى غافل يتمم صلاته ولم يحضر قلبه فى لحظة منها ، وإلى من يتمم ولم يغب قلبه فى لحظة بل ربما كان مستوعب الهم بها بحيث لا يحس بما يجرى بين يديه . ولذلك لم يحس مسلم بن يسار بسقوط الأسطوانة فى المسجد وقد اجتمع الناس عليها وبعضهم كان يحضر الجماعة مدة ولم يعرف قط من على يمينه ويساره ووجيب قلب إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه كان يسمع على ميلين . وجماعة كانت تصفر وجوههم وترتعد فرائصهم . وكل ذلك غير مستبعد فإن أضعافه مشاهد فى همم أهل الدنيا وخوف ملوك الدنيا مع عجزهم وضعفهم وخساسة الحظوظ الحاصلة منهم حتى يدخل الواحد على ملك أو وزير ويحدثه بمهمته ثم يخرج ، ولو سئل عمن حواليه أو عن ثوب الملك لكان لايقدر على الإخبار عنه لاشتغال همه به عن ثوبه وعن الحاضرين حواليه ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ فحظ كل واحد من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه فان موقع نظر الله سبحانه القلوب دون ظاهر الحركات . ولذلك قال بعض الصحابة رضى الله عنهم : يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيئتهم فى الصلاة من الطمأنينة والهدو من وجود النعيم بها واللذة . ولقد صدق فإنه يحشر كل على مامات عليه ويموت على ماعاش عليه ويراعى فى ذلك حال قلبه لاحال شخصه فمن صفات القلوب تصاغ الصور فى الدار الآخرة ولاينجو إلا من أتى الله بقلب سليم ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه .

بيان الدواء النافع فى حضور القلب

اعلم أن المؤمن لا بد أن يكون معظما لله عز وجل وخائفا منه وراجيا له ومستحييا من تقصيره فلا ينفك عن هذه الأحوال بعد إيمانه ، وإن كانت قوتها بقدرة يقينه فانفكاكه عنها فى صلاته لاسبب له إلا تفرق الفكر وتقسيم الخاطر وغيبة القلب عن المناجاة والغفلة عن الصلاة . ولا يلهى عن الصلاة إلا الخواطر الواردة الشاغلة ، فالدواء فى إحضار القلب هو دفع تلك الخواطر ولايدفع الشىء إلا بدفع سببه فلتعلم سببه وسبب موارد الخواطر إما أن يكون أمرا خارجا أو أمرا فى ذاته باطنا . أما الخارج فما يقرع السمع أو يظهر للبصر فإن ذلك قد يختطف الهم حتى يتبعه ويتصرف فيه ثم تنجر منه الفكرة إلى غيره ويتسلسل ، ويكون الإبصار سببا للافتكار ، ثم تصير بعض تلك الأفكار سببا للبعض . ومن قويت نيته وعلت همته لم يلهه ماجرى على حواسه ولكن الضعيف لا بد وأن يتفرق به فكره . وعلاجه قطع هذه الأسباب بأن يغض بصره أو يصلى فى بيت مظلم أولايترك بين يديه ما يشغل حسه ويقرب من حائط عند صلاته حتى لاتتسع مسافة بصره ، ويحترز من الصلاة على الشوارع وفى المواضع المنقوشة المصنوعة وعلى الفرش المصبوغة . ولذلك كان المتعبدون يتعبدون فى بيت صغير مظلم سعته قدر السجود ليكون ذلك أجمع لهم . والأقوياء منهم كانوا يحضرون المساجد ويغضون البصر ولا يجاوزون به

موضع السجود ويرون كمال الصلاة فى أن لا يعرفوا من على يمينهم وشمالهم ، وكان ابن عمر رضى الله عنهما لا يدع فى موضع الصلاة مصحفا ولا سيفا إلا نزعه ولا كتابا إلا محاه . وأما الأسباب الباطنة فهى أشد فإن من تشعبت به الهموم فى أودية الدنيا لاينحصر فكره فى فن واحد بل لايزال يطير من جانب وغض البصر لايغنيه ، فان ماوقع فى القلب من قبل كاف للشغل فهذا طريقه أن يرد النفس قهرا إلى فهم مايقرؤه فى الصلاة ويشغلها به عن غيره ، على ذلك أن يستعد له قبل التحريم بأن يجدد على نفسه ذكر الآخرة وموقف المناجاة وخطر المقام بين يدى الله سبحانه وهو المطلع ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهمه فلا يترك لنفسه شغلا يلتفت إليه خاطره . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان بن أبى شيبة « إنى نسيت أن أقول لك أن تخمر القدر الذى فى البيت(١) » فانه لاينبغى أن يكون فى البيت شىء يشغل الناس عن صلاتهم ؛ فهذا طريق تسكين الأفكار . فان كان لايسكن هوائج أفكاره بهذا الدواء المسكن فلا ينجيه إلا المسهل الذى يقمع مادة الداء من أعماق العروق وهو أن ينظر فى الأمور الصارفة الشاغلة عن إحضار القلب ، ولا شك أنها تعود إلى مهماته وأنها إنما صارت مهمات لشهواته فيعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات وقطع تلك العلائق ، فكل مايشغله عن صلاته فهو ضد دينه وجند إبليس عدوه فامساكه أضر عليه من إخراجه فيتخلص منه باخراجه كما روى أنه صلى الله عليه وسلم « لما لبس الخميصة التى أتاه بها أبو جهم وعليها علم وصلى بها نزعها بعد صلاته ، وقال صلى الله عليه وسلم : اذهبوا بها إلى أبى جهم فانها ألهتنى عن صلاتى وائتونى بأنبجانية أبى جهم(٢) » وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتجديد شراك نعله ثم نظر إليه فى صلاته إذ كان جديدا فأمر أن ينزع منها ويرد الشراك الخلق(٣) . « وكان صلى الله عليه وسلم قد احتذى نعلا فأعجبه حسنها فسجد وقال : تواضعت لربى عز وجل كى لايمقتنى » ثم خرج بها فدفعها إلى أول سائل لقيه . ثم أمر عليا رضى الله عنه أن يشترى نعلين سبتيتين جرداوين فلبسهما(٤) وكان صلى الله عليه وسلم فى يده خاتم من ذهب قبل التحريم وكان على المنبر فرماه وقال «شغلنى هذا نظرة إليه ونظرة إليكم(٥)» وروى أن أبا طلحة صلى فى حائط وفيه شجر فأعجبه دبسى طار فى الشجر يلتمس مخرجا فأتبعه بصره ساعة ثم لم يدركم صلى ؟ فذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ماأصابه من الفتنة ثم قال يارسول الله هو صدقة فضعه حيث شئت(٦) » وعن رجل آخر أنه صلى فى حائط له والنخل مطوقة بثمرها فنظر إليها فأعجبته ولم يدركم صلى ؟ فذكر ذلك لعثمان رضى الله عنه وقال: هو صدقة فاجعله فى سبيل الله عز وجل فباعه عثمان بخمسين ألفاً . فكانوا يفعلون ذلك قطعا لمادة الفكر وكفارة

---

(١) « إنى نسيت أن أقول لك تخمر القربتين اللتين فى البيت . . . الحديث » أخرجه أبوداود من حديث عثمان الحجبى وهو عثمان بن طلحة كما فى مسند أحمد ووقع للمصنف أنه قال ذلك لعثمان بن شيبة وهو وهم .

(٢) « نزع الخميصة وقال ائتونى بأنبجانية أبى جهم » متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم فى العلم .

(٣) « أمره بنزع الشراك الجديد ورد الشراك الخلق إذ نظر إليه فى صلاته » أخرجه ابن المبارك فى الزهد من حديث أبى النضر مرسلا بإسناد صحيح .

(٤) « احتذى نعلا فأعجبه حسنها فسجد وقال تواضعت لربى ... الحديث» أخرجه ابو عبد الله بن حقيق فى شرف الفقراء من حديث عائشة بإسناد ضعيف .

(٥) « رميه بالخاتم الذهب من يده وقال شغلنى هذا نظرة إليه ونظرة إليكم » أخرجه النسائى من حديث ابن عباس بإسناد صحيح وليس فيه بيان أن الخاتم كان ذهبا ولا فضة إنما هو مطلق .

(٦) « إن أبا طلحة صلى فى حائط له فيه شجر ... الحديث» أخرجه فى سهوه فى الصلاة وتصدقه بالحائط مالك عن عبد الله بن أبى بكر أن أبا طلحة الأنصارى فذكره بنحوه .

لما جرى من نقصان الصلاة وهذا هو الدواء القامع لماده العلة ولا يغني غيره . فأما ماذكره من التلطف بالتسكين والرد إلى فهم الذكر فذلك ينفع في الشهوات الضعيفة والهمم التي لاتشغل إلا حواشي القلب . فأما الشهوة القوية المرهقة فلا ينفع فيها التسكين بل لاتزال تجاذبها وتجاذبك ثم تغلبك وتنقضي جميع صلاتك في شغل المجاذبة . ومثاله : رجل تحت شجرة أراد أن يصفو له فكره وكانت أصوات العصافير تشوش عليه، فلم يزل يطيرها بخشبة في يده ويعود إلى فكره فتعود العصافير فيعود إلى التنفير بالخشبة، فقيل له: إن هذا أسير السواني ولا ينقطع فإن أردت الخلاص فاقطع الشجرة . فكذلك شجرة الشهوات إذا تشعبت وتفرعت أغصانها انجذبت إليها الأفكار انجذاب العصافير إلى الأشجار وانجذاب الذباب إلى الأقذار والشغل يطول في دفعها فإن الذباب كلما ذب آب ولأجله سمي ذبابا . فكذلك الخواطر، وهذه الشهوات كثيرة وقلما يخلو العبد عنها ويجمعها أصل واحد وهو حب الدنيا ، وذلك رأس كل خطيئة وأساس كل نقصان ومنبع كل فساد . ومن انطوى باطنه على حب الدنيا حتى مال إلى شيء منها لا ليتزود منها ولا ليستعين بها على الآخرة فلا يطمعن في أن تصفو له لذة المناجاة في الصلاة . فإن من فرح بالدنيا لا يفرح بالله سبحانه وبمناجاته وهمة الرجل مع قرة عينه فإن كانت قرة عينه في الدنيا انصرف لا محالة إليها همه ولكن مع هذا فلا ينبغي أن يترك المجاهدة ورد القلب إلى الصلاة وتقليل الأسباب الشاغلة ، فهذا هو الدواء المر ولمرارته استبشعته الطباع وبقيت العلة مزمنة وصار الداء عضالا ، حتى إن الأكابر اجتهدوا أن يصلوا ركعتين لا يحدثوا أنفسهم فيها بأمور الدنيا فعجزوا عن ذلك فإذن لا مطمع فيه لأمثالنا ، وليته سلم لنا من الصلاة شطرها أو ثلثها من الوسواس لنكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا . وعلى الجملة فهمة الدنيا وهمة الآخرة في القلب مثل الماء الذي يصب في قدح مملوء بخل فبقدر ما يدخل فيه من الماء يخرج منه الخل لامحالة ولا يجتمعان .

بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب ـ عند كل ركن وشرط ـ من أعمال الصلاة

فنقول : حقك إن كنت من المريدين للآخرة أن لا تغفل أولا عن التنبيهات التي في شروط الصلاة وأركانها . أما الشروط السوابق فهي الأذان والطهارة وستر العورة واستقبال القبلة والانتصاب قائما والنية . فإذا سمعت نداء المؤذن فأحضر في قلبك هول النداء يوم القيامة وتشمر بظاهرك وباطنك للإجابة والمسارعة ؛ فإن المسارعين إلى هذا النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الأكبر فاعرض قلبك على هذا النداء فإن وجدته مملوءا بالفرح والاستبشار مشحونا بالرغبة إلى الابتدار فاعلم أنه يأتيك النداء بالبشرى والفوز يوم القضاء . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أرحنا يا بلال [1] » أي أرحنا بها وبالنداء إليها إذ كان قرة عينه فيها صلى الله عليه وسلم . وأما الطهارة فإذا أتيت بها في مكانك وهو ظرفك الأبعد ثم في ثيابك وهي غلافك الأقرب ، ثم في بشرتك وهي قشرك الأدنى فلا تغفل عن لبك الذي هو ذاتك وهو قلبك فاجتهد له تطهيرا بالتوبة والندم على ما فرطت وتصميم العزم على الترك في المستقبل فطهر بها باطنك فإنه موضع نظر معبودك وأما ستر العورة فاعلم أن معناه تغطية مقابح بدنك عن أبصار الخلق فإن ظاهر بدنك موقع لنظر الخلق فما بالك في عورات باطنك وفضائح سرائرك التي لا يطلع عليها إلا ربك عز وجل ؟ فأحضر تلك الفضائح ببالك وطالب نفسك بسترها وتحقق أنه لا يستر عن عين الله سبحانه

---

(١) « بها أرحنا يا بلال » أخرجه الدارقطني في العلل من حديث بلال ولأبي داود ونحوه من حديث رجل من الصحابة لم يسم بإسناد صحيح .

سائر . وإنما يغمرها الندم والحياء والخوف فتستفيد بإحضارها فى قلبك انبعاث جنود الخوف والحياء من مكانهما فتذل بها نفسك ويستكين تحت الخجلة قلبك وتقوم بين يدى الله عز وجل قيام العبد المجرم المسىء الآبق الذى ندم فرجع إلى مولاه ناكساً رأسه من الحياء والخوف . وأما الاستقبال فهو صرف ظاهر وجهك عن سائر الجهات إلى جهة بيت الله تعالى ، أفترى أن صرف القلب عن سائر الأمور إلى الله عز وجل ليس مطلوبا منك هيهات فلا مطلوب سواه . وإنما هذه الظواهر تحريكات للبواطن وضبط للجوارح وتسكين لها بالإثبات فى جهة واحدة حتى لا تبغى على القلب فإنها إذا بغت وظلمت فى حركاتها والتفاتها إلى جهاتها استتبعت القلب وانقلبت به عن وجه الله عز وجل فليسكن وجه قلبك مع وجه بدنك . فاعلم أنه كما لا يتوجه الوجه إلى جهة البيت إلا بالانصراف عن غيرها فلا ينصرف القلب إلى الله عز وجل إلا بالتفرغ عما سواه وقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا قام العبد إلى صلاته فكان هواه ووجهه وقلبه إلى الله عز وجل انصرف كيوم ولدته أمه [1] » وأما الاعتدال قائما فإنما هو مثول بالشخص والقلب بين يدى الله عز وجل ، فليكن رأسك الذى هو أرفع أعضائك مطرقا مطأطئا متنكسا، وليكن وضع الرأس عن ارتفاعه تنبيها على إلزام القلب التواضع والتذلل والتبرى عن الترؤس والتكبر . وليكن على ذكرك ههنا خطر القيام بين يدى الله عز وجل فى هول المطلع عند العرض للسؤال . واعلم فى الحال أنك قائم بين يدى الله عز وجل وهو مطلع عليك فقم بين يديه قيامك بين يدى بعض ملوك الزمان إن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله ، بل قدر فى دوام قيامك فى صلاتك أنك ملحوظ ومرقوب بعين كالئة من رجل صالح من أهلك أو ممن ترغب فى أن يعرفك بالصلاح ، فإنه تهدأ عند ذلك أطرافك وتخشع جوارحك وتسكن جميع أجزائك خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين إلى قلة الخشوع . وإذا أحسست من نفسك بالتماسك عند ملاحظة عبد مسكين فعاتب نفسك وقل لها: إنك تدعين معرفة الله وحبه أفلا تستحين من استجرائك عليه مع توقيرك عبداً من عباده أوتخشين الناس ولا تخشينه وهو أحق أن يخشى ؟ ولذلك لما قال أبو هريرة « كيف الحياء من الله فقال صلى الله عليه وسلم : تستحى منه كما تستحى من الرجل الصالح من قومك[2] » وروى « من أهلك » .

وأما النية فاعزم على إجابة الله عز وجل فى امتثال أمره بالصلاة وإتمامها والكف عن نواقضها ومفسداتها وإخلاص جميع ذلك لوجه الله سبحانه رجاء لثوابه وخوفا من عقابه وطلباً للقربة منه متقلداً للمنة منه بإذنه إياك فى المناجاة مع سوء أدبك وكثرة عصيانك ، وعظم فى نفسك قدر مناجاته وانظر من تناجى وكيف تناجى وبماذا تناجى ؟ وعند هذا ينبغى أن يعرق جبينك من الخجل وترتعد فرائصك من الهيبة ويصفر وجهك من الخوف .

وأما التكبير فإذا نطق به لسانك فينبغى أن لا يكذبه قلبك فان كان فى قلبك شىء هو أكبر من الله سبحانه فالله يشهد إنك لكاذب وإن كان الكلام صدقا كما شهد على المنافقين فى قولهم : إنه صلى الله عليه وسلم رسول الله ، فان كان هواك أغلب عليك من أمر الله عز وجل فأنت أطوع له منك لله تعالى فقد اتخذته إلهك وكبرته فيوشك أن يكون قولك « الله أكبر » كلاما باللسان المجرد وقد تخلف القلب عن مساعدته ، وما أعظم الخطر فى ذلك لولا التوبة والاستغفار وحسن الظن بكرم الله تعالى وعفوه . وأما دعاء الاستفتاح فأول كلماته قولك : « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض » وليس المراد بالوجه الوجه الظاهر فانك إنما وجهته إلى القبلة ، والله سبحانه يتقدس

---

(١) «إذا قام العبد إلى صلاته وكان وجهه وهواه إلى الله انصرف كيوم ولدته أمه » لم أجده . (٢) « قال أبو هريرة كيف الحياء من الله قال تستحى منه كما تستحى من الرجل الصالح من قومك» أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق والبيهقى فى الشعب من حديث سعيد بن زيد مرسلا بنحوه وأرسله البيهقى بزيادة ابن عمر فى السند وفى العلل الدارقطنى عن ابن عمر له وقال إنه أشبه شىء بالصواب لوروده من حديث سعيد بن زيد أحد العشرة .

عن أن تحده الجهات حتى تقبل بوجه بدنك عليه ، وإنما وجه القلب هو الذى تتوجه به إلى فاطر السموات والأرض فانظر إليه أمتوجه هو إلى امانيه وهمه فى البيت والسوق متبع للشهوات او مقبل على فاطر السموات ؟ وإياك ان تكون اول مفاتحتك للمناجاة بالكذب والاختلاق . وان ينصرف الوجه إلى الله تعالى إلا بانصرافه عما سواه فاجتهد فى الحال فى صرفه إليه وإن عجزت عنه على الدوام فليكن قولك فى الحال صادقاً . وإذا قلت « حنيفا مسلما » فينبغى أن يخطر ببالك أن المسلم هو الذى سلم المسلمون من لسانه ويده فإن لم تكن كذلك كنت كاذباً فاجتهد فى أن تعزم عليه فى الاستقبال و تندم على ما سبق من الأحوال . وإذا قلت « وما أنا من المشركين » فأخطر ببالك الشرك الخفى فإن قوله تعالى ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ نزل فيمن يقصد بعبادته وجه الله وحمد الناس وكن حذراً مشفقا من هذا الشرك ، واستشعر الخجلة فى قلبك إن وصفت نفسك بأنك لست من المشركين من غير براءة عن هذا الشرك فإن اسم الشرك يقع على القليل والكثير منه . وإذا قلت « محياى ومماتى لله » فاعلم أن هذا حال عبد مفقود لنفسه موجود لسيده وأنه إن صدر من رضاه وغضبه وقيامه وقعوده ورغبته فى الحياة ورهبته من الموت لأمور الدنيا لم يكن ملائماً للحال . وإذا قلت « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فاعلم أنه عدوك ومترصد لصرف قلبك عن الله عز وجل حسداً لك على مناجاتك مع الله عز وجل وسجودك له مع أنه لعن بسبب سجدة واحدة تركها ولم يوفق لها ، وأن استعاذتك بالله سبحانه منه بترك مايحبه وتبديله بما يحب الله عز وجل لا بمجرد قولك ، فإن من قصده سبع أن عدو ليفترسه أو ليقتله فقال : أعوذ منك بذلك الحصن الحصين وهو ثابت على مكانه . فان ذلك لاينفعه ، بل لا يعيذه إلا تبديل المكان ، فكذلك من يتبع الشهوات التى هى محاب الشيطان ومكاره الرحمن فلا يغنيه مجرد القول فليقترن قوله بالعزم على التعوذ بحصن الله عز وجل عن شر الشيطان وحصنه « لا إله إلا الله » إذ قال عز وجل فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم «لا إله إلا الله حصنى فمن دخل حصنى أمن من عذابى(١)» والمتحصن به من لامعبود له سوى الله سبحانه فأما من اتخذ إلهه هواه فهو فى ميدان الشيطان لافى حصن الله عز وجل . واعلم أن من مكايده أن يشغلك فى صلاتك بذكر الآخرة وتدبير فعل الخيرات ليمنعك عن فهم ما تقرأ . فاعلم أن كل ما يشغلك عن فهم معانى قراءتك فهو وسواس فإن حركة اللسان غير مقصودة بل المقصود معانيها . فأما القراءة فالناس فيها ثلاثة : رجل يتحرك لسانه وقلبه غافل ورجل يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان فيفهم ويسمع منه كأنه من غيره وهى درجات أصحاب اليمين ، ورجل يسبق قلبه إلى المعانى أولا ثم يخدم اللسان القلب فيترجمه . ففرق بين أن يكون اللسان ترجمان القلب أو يكون معلم القلب والمقربون لسانهم ترجمان يتبع القلب ولا يتبعه القلب . وتفصيل ترجمة المعانى أنك إذا قلت « بسم الله الرحمن الرحيم » فانو به التبرك لابتداء القراءة لكلام الله سبحانه ، وافهم أن معناها أن الأمور كلها بالله سبحانه . وأن المراد بالاسم ههنا هو المسمى . وإذا كانت الأمور بالله سبحانه فلا جرم كان « الحمد لله » ومعناه أن الشكر لله إذ النعم من الله . ومن يرى من غير الله نعمة أو يقصد غير الله سبحانه بشكر لا من حيث إنه مسخر من الله عز وجل ففى تسميته وتحميده نقصان بقدر التفاته إلى غير الله تعالى . فإذا قلت « الرحمن الرحيم » فاحضر فى قلبك جميع أنواع لطفه لتتضح لك رحمته فينبعث بها رجاؤك ثم استشر من قلبك التعظيم والخوف بقولك « مالك يوم الدين » أما العظمة فلأنه لا ملك إلا له وأما الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب الذى هو مالكه . ثم جدد الإخلاص بقولك « إياك نعبد » وجدد العجز واحتياج والتبرى من الحول والقوة بقولك و « إياك نستعين » وتحقق أنه ما تيسرت طاعتك إلا بإعانته وأن له

---

(١) « قال الله تعالى لا إله إلا الله حصنى » أخرجه الحاكم فى التاريخ وأبو نعيم فى الحلية من طريق أهل البيت من حديث على بإسناد ضعيف جدا ، وقول أبى منصور الديلمى إنه حديث ثابت مردود عليه .

المنة إذ وفقك لطاعته واستخدمك لعبادته وجعلك أهلا لمناجاته . ولو حرمك التوفيق لكنت من المطرودين مع الشيطان اللعين .

ثم إذا فرغت من التعوذ ومن قولك « بسم الله الرحمن الرحيم » ومن التحميد ومن إظهار الحاجة إلى الإعانة مطلقاً فعين سؤالك ولا تطلب إلا أهم حاجاتك وقل « اهدنا الصراط المستقيم » الذي يسوقنا إلى جوارك ويفضى بنا إلى مرضاتك . وزده شرحاً وتفصيلا وتأكيداً واستشهاداً بالذين أفاض عليهم نعمة الهداية من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين دون الذين غضب عليهم من الكفار والزائغين من اليهود والنصارى والصابئين ثم التمس الإجابة وقل « آمين » فإذا تلوت الفاتحة كذلك فيشبه أن تكون من الذين قال الله تعالى فيهم فيما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل[1] » يقول العبد «الحمد لله رب العالمين» فيقول الله عز وجل : حمدني عبدي وأثنى علي . وهو معنى قوله سمع الله لمن حمده... الحديث الخ ، فلو لم يكن لك من صلاتك حظ سوى ذكر الله لك في جلاله وعظمته فناهيك بذلك غنيمة فكيف بما ترجوه من ثوابه وفضله ؟

وكذلك ينبغي أن تفهم ما تقرؤه من السور ـ كما سيأتي في كتاب تلاوة القرآن ـ فلا تغفل عن أمره ونهيه ووعده ووعيده ومواعظه وأخبار أنبيائه وذكر مننه وإحسانه . ولكل واحد حق فالرجاء حق الوعد ، والخوف حق الوعيد ، والعزم حق الأمر والنهي ، والاتعاظ حق الموعظة ، والشكر حق ذكر المنة ، والاعتبار حق إخبار الأنبياء .

وروى أن زرارة بن أوفى لما انتهى إلى قوله تعالى ﴿ فإذا نقر في الناقور ﴾ خر ميتاً . وكان ابراهيم النخعي إذا سمع قوله تعالى ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ اضطرب حتى تضطرب أوصاله . وقال عبد الله بن واقد : رأيت ابن عمر يصلي مغلوباً عليه ، وحق له أن يحترق قلبه بوعد سيده ووعيده فإنه عبد مذنب ذليل بين يدي جبار قاهر .

وتكون هذه المعاني بحسب درجات الفهم ويكون الفهم بحسب وفور العلم وصفاء القلب . ودرجات ذلك لا تنحصر . والصلاة مفتاح القلوب فيها تنكشف أسرار الكلمات فهذا حق القراءة وهو حق الأذكار التسبيحات أيضا. ثم يراعي الهيبة في القراءة فيرتل ولا يسرد فإن ذلك أيسر للتأمل . ويفرق بين نغماته في آية الرحمة والعذاب والوعد والوعيد والتحميد والتعظيم والتمجيد .

كان النخعي إذا مر بمثل قوله عز وجل ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ﴾ يخفض صوته كالمستحي عن أن يذكره بكل شيء لا يليق به . وروى أنه يقال لقارىء القرآن «اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا[2] » . وأما دوام القيام فإنه تنبيه على إقامة القلب مع الله عز وجل على نعت واحد من الحضور قال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل مقبل على المصلي مالم يلتفت[3] » وكما تجب حراسة الرأس والعين عن الالتفات إلى الجهات فكذلك تجب حراسة السر عن الالتفات إلى غير الصلاة . فإذا التفت إلى غيره فذكره باطلاع الله عليه وبقبح التهاون بالمناجى عند غفلة المناجي ليعود إليه . والزم الخشوع للقلب فإن الخلاص عن الالتفات باطناً وظاهراً ثمرة الخشوع . ومهما خشع الباطن خشع الظاهر قال صلى الله عليه وسلم وقد رأى رجلا مصلياً يعبث بلحيته « أما هذا

---

(١) « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ... الحديث » أخرجه مسلم عن أبي هريرة . (٢) « يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث عبد الله بن عمر وقال الترمذي حسن صحيح . (٣) « إن الله يقبل على المصلي مالم يلتفت » أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم وصحح إسناده أبي ذر .

لوخشع قلبه لخشعت جوارحه » فإن الرعية بحكم الراعى . ولهذا ورد فى الدعاء «اللهم أصلح الراعى والرعية(١) » وهو القلب والجوارح . وكان الصديق رضى الله عنه فى صلاته كأنه وتد . وابن الزبير رضى الله عنه كأنه عود . وبعضهم كان يسكن فى ركوعه بحيث تقع العصافير عليه كأنه جماد . وكل ذلك يقتضيه الطبع بين يدى غير الله عز وجل خاشعاً وتضطرب أطرافه بين يدى الله عابثاً فذلك لقصور معرفته عن جلال الله عز وجل وعن اطلاعه على سره وضميره . وقال عكرمة فى قوله عز وجل ﴿الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين﴾ قال : قيامه وركوعه وسجوده وجلوسه .

وأما الركوع والسجود فينبغى أن تجدد عندهما ذكر كبرياء الله سبحانه وتدفع يديك مستجيراً بعفو الله عزوجل من عقابه بتجديد نية ومتبعاً سنة نبيه صلى الله عليه وسلم . ثم تستأنف له ذلا وتواضعاً بركوعك وتجتهد فى ترقيق قلبك وتجديد خشوعك وتستشعر ذلك عز مولاك واتضاعك وعلو ربك . وتستعين على تقرير ذلك فى قلبك بلسانك فتسبح ربك وتشهد له بالعظمة وأنه أعظم من كل عظيم وتكرر ذلك على قلبك لتؤكده بالتكرار . ثم ترتفع من ركوعك راجيا أنه راحم لك ومؤكدا للرجاء فى نفسك بقولك « سمع الله لمن حمده » أى أجاب لمن شكره . ثم تردف ذلك الشكر المتقاضى المزيد فتقول « ربنا لك الحمد » وتكثر الحمد بقولك « ملء السموات وملء الأرض » ثم تهوى إلى السجود وهو أعلى درجات الاستكانة فتمكن أعز أعضائك وهو الوجه من أذل الأشياء وهو التراب وإن أمكنك ألا لاتجعل بينهما حائلا فتسجد على الأرض فافعل فإنه أجلب للخشوع وأدل على الذل . وإذاوضعت نفسك موضع الذل فأعلم أنك وضعتها موضعها ورددت الفرع إلى أصله فإنك من التراب خلقت وإليه تعود فعند هذا جدد على قلبك عظمة الله وقل « سبحان ربى الأعلى » وأكده بالتكرار فإن الكرة الوحدة ضعيفة الأثر فإذا رق قلبك وظهر ذلك فلتصدق رجاءك فى رحمة الله فإن رحمته تتسارع إلى الضعف والذل لا إلى التكبر والبطر فارفع رأسك مكبراً وسائلا حاجتك وقائلا « رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم » أو ما أردت من الدعاء . ثم أكد التواضع بالتكرار فعد إلى السجود ثانياً كذلك .

وأما التشهد فإذا جلست له فاجلس متأدباً وصرح بأن جميع ماتدلى به من الصلوات والطيبات أى من الأخلاق الطاهرة لله . وكذلك الملك لله وهو معنى «التحيات» وأحضر فى قلبك النبى صلى الله عليه وسلم وشخصه الكريم وقل «سلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته» وليصدق أملك فى أنه يبلغه ويرد عليك ماهو أوفى منه . ثم على نفسك وعلى جميع عباد الله الصالحين . ثم تأمل أن يرد الله سبحانه عليك سلاما وافيا بعدد عباده الصالحين . ثم تشهد له تعالى بالوحـــدانية ولمحمد نبيه صلى الله عليه وسلم بالرسالة مجدداً عهد الله سبحانه بإعادة كلمتى الشهادة ومستأنفاً للتحصن بها . ثم ادع فى آخر صلاتك بالدعاء المأثور مع التواضع والخشوع والضراعة والابتهال وصدق الرجاء بالإجابة . وأشرك فى دعائك أبويك وسائر المؤمنين . وأقصدعند التسليم السلام على الملائكة والحاضرين وأنوختم الصلاة به . واستشعر شكر الله سبحانه على توفيقه لإتمام هذه الطاعة . وتوهم أنك مودع لصلاتك هذه وأنك ربما لاتعيش لمثلها . وقال صلى الله عليه وسلم للذى أوصاه « صل صلاة مودع » ثم أشعر قلبك الوجل والحياء من التقصير فى الصلاة ، وخف أن لاتقبل صلاتك وأن تكون ممقوتا بذنب ظاهر أو باطن فترد صلاتك فى وجهك ، وترجو مع ذلك أن يقبلها بكرمه وفضله . كان يحى بن وثاب إذا صلى مكث ماشاء الله تعرف عليه كآبة الصلاة .

---

(١) « اللهم أصلح الراعى والرعية » لم أقف له على أصل فسره المصنف بالقلب والجوارح .

وكان إبراهيم يمكث بعد الصلاة ساعة كأنه مريض .فهذا تفصيل صلاة الخاشعين : الذين هم فى صلاتهم خاشعون .. والذين هم على صلواتهم يحافظون . . . والذين هم على صلاتهم دائمون . والذين هم يناجون الله على قدر استطاعتهم فى العبودية فليعرض الإنسان نفسه على هذه الصلاة ، فبالقدر الذى يسر له منه ينبغى أن يفرح وعلى ما يفوته ينبغى أن يتحسر وفى مداراة ذلك ينبغى أن يجتهد وأما صلاة الغافلين فهى مخطرة إلا أن يتغمده الله برحمته والرحمة واسعة والكرم فائض فنسأل الله أن يتغمدنا برحمته ويغمرنا بمغفرته إذ لا وسيلة لنا إلا الاعتراف بالعجز عن القيام بطاعته . واعلم أن تخليص الصلاة عن الآفات وإخلاصها لوجه الله عز وجل وأداءها بالشروط الباطنة التى ذكرناها من الخشوع والتعظيم والحياء سبب لحصول أنوار فى القلب تكون تلك الأنوار مفاتيح علوم المكاشفة . فأولياء الله المكاشفون بملكوت السموات والأرض وأسرار الربوبية إنما يكاشفون فى الصلاة لاسيما فى السجود إذ يتقرب العبد من ربه عز وجل بالسجود . ولذلك قال تعالى ﴿ واسجد واقترب ﴾ وإنما تكون مكاشفة كل مصل على قدر صفائه عن كدورات الدنيا . ويختلف ذلك بالقوة والضعف والقلة والكثرة وبالجلاء والخفاء حتى ينكشف لبعضهم الشىء بعينه وينكشف لبعضهم الشىء بمثاله ، كما كشف لبعضهم الدنيا فى صورة جيفة والشيطان فى صورة كلب جاثم عليها يدعو إليها . ويختلف أيضاً بما فيه المكاشفة فبعضهم ينكشف له من صفات الله تعالى وجلاله ولبعضهم من أفعاله ولبعضهم من دقائق علوم المعاملة .

ويكون لتعين تلك المعانى فى كل وقت أسباب خفية لاتحصى وأشدها مناسبة الهمة فإنها إذا كانت مصروفة إلى شىء معين كان ذلك أولى بالانكشاف ولما كانت هذه الأمور لاتتراءى إلا فى المرائى الصقيلة وكانت المرآة كلها صدئة فاحتجبت عنها الهداية لا لبخل من جهة المنعم بالهداية بل لخبث متراكم الصدإ على مصب الهداية تسارعت الألسنة إلى إنكار مثل ذلك ، إذ الطبع مجبول على إنكار غير الحاضر ، ولو كان للجنين عقل لأنكر إمكان وجود الإنسان فى متسع الهواء ، ولو كان للطفل تمييز ما ربما أنكر مايزعم العقلاء إدراكه من ملكوت السموات والأرض ، وهكذا الإنسان فى كل طور يكاد ينكر ما بعده . ومن أنكر طور الولاية لزمه أن ينكر طور النبوة . وقد خلق الخلق أطواراً فلا ينبغى أن ينكر كل واحد ماوراء درجته . نعم لما طلبوا هذا من المجادلة والمباحثة المشوشة ولم يطلبوها من تصفية القلوب عما سوى الله عز وجل فقدوه فأنكروه .

ومن لم يكن من أهل المكاشفة فلا أقل من أن يؤمن بالغيب ويصدق به إلى أن يشاهد بالتجربة فى الخبر « إن العبد إذا قام فى الصلاة رفع الله سبحانه الحجاب بينه وبين عبده وواجهه بوجهه وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى الهواء يصلون بصلاته ويؤمنون على دعائه . وإن المصلى لينثر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه وينادى مناد : لو علم هذا المناجى من يناجى ماالتفت . وإن أبواب السماء تفتح للمصلين . وإن الله عز وجل يباهى ملائكته بعبده المصلى[1] » ففتح أبواب السماء ومواجهة الله تعالى إياه بوجهه كناية عن الكشف الذى ذكرناه . وفى التوراة مكتوب : ياابن آدم لاتعجز أن تقوم بين يدى مصلياً باكياً فأنا الله الذى اقتربت من قلبك وبالغيب رأيت نورى ، وقال: فكنا نرى أن تلك الرقة والبكاء والفتوح الذى يجده المصلى فى قلبه من دنو الرب سبحانه من القلب وإذا لم يكن هذا الدنو هو القرب بالمكان فلا معنى له إلا الدنو بالهداية والرحمة وكشف الحجاب . ويقال : إن العبد إذا صلى ركعتين عجب منه عشرة صفوف من الملائكة كل صف منهم عشرة آلاف وباهى الله به مائة الف ملك . وذلك ان العبد قد جمع فى الصلاة بين القيام والقعود والركوع والسجود وقـــد فرق الله ذلك على اربعين الف ملك ، فالقائمون

(١) « إن العبد إذا قام فى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبين عبده ... الحديث » لم أجده .

لا يركعون إلى يوم القيامة والساجدون لا يرفعون إلى يوم القيامة ، وهكذا الراكعون والقاعدون ، فإن ما رزق تعالى الملائكة من القرب والرتبة لازم مستمر على حال واحد لا يزيد ولا ينقص لذلك أخبر الله عنهم أنهم قالوا ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ وفارق الإنسان الملائكة فى الترقى من درجة إلى درجة فإنه لا يزال يتقرب إلى الله تعالى فيستفيد مزيد قربه . وباب المزيد مسدود على الملائكة عليهم السلام وليس لكل واحد إلا رتبته التى هى موقف عليه . وعبادته التى هو مشغول بها لا ينتقل إلى غيرها ولا يفتر عنها ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ ومفتاح مزيد الدرجات هى الصلوات . قال الله عز وجل ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ فمدحهم بعد الإيمان بصلاة مخصوصة وهى المقرونة بالخشوع . ثم ختم أوصاف المفلحين بالصلاة أيضا فقال تعالى ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ ثم قال تعالى فى ثمرة تلك الصفات ﴿ أولئك هم الوارثين الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ فوصفهم بالفلاح أولا وبوراثة الفردوس آخرا . وما عندى أن هذرمة اللسان مع غفلة القلب تنتهى إلى هذا الحد ولذلك قال الله عز وجل فى أضدادهم ﴿ ما سلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين ﴾ فالمصلون هم ورثة الفردوس وهم المشاهدون لنور الله تعالى والمتمتعون بقربه ودنوه من قلوبهم نسأل الله أن يجعلنا منهم وأن يعيذنا من عقوبة من تزينت أقواله وقبحت أفعاله إنه الكريم المنان القديم الإحسان وصلى الله على كل عبد مصطفى .

حكايات وأخبار فى صلاة الخاشعين رضي الله عنهم

اعلم أن الخشوع ثمرة الإيمان ونتيجة اليقين الحاصل بجلال الله عز وجل ومن رزق ذلك فإنه يكون خاشعا فى الصلاة وفى غير الصلاة بل فى خلوته وفى بيت المال عند الحاجة . فان موجب الخشوع معرفة اطلاع الله تعالى على العبد ومعرفة جلاله ومعرفة تقصير العبد . فمن هذه المعارف يتولد الخشوع وليست مختصة بالصلاة ولذلك روى عن بعضهم أنه لم يرفع رأسه إلى السماء أربعين سنة حياء من الله سبحانه وخشوعا له . وكان الربيع بن خيثم من شدة غضه لبصره وإطراقه يظن بعض الناس أنه أعمى ، وكان يختلف إلى منزل ابن مسعود عشرين سنة فاذا رأته جاريته قالت لابن مسعود : صديقك الأعمى قد جاء ، فكان يضحك ابن مسعود من قولها ، وكان إذا دق الباب تخرج الجارية إليه فتراه مطرقا غاضا بصره ، وكان ابن مسعود إذا نظر إليه يقول ﴿ وبشر المخبتين ﴾ وأما والله لو رآك محمد صلى الله عليه وسلم لفرح بك ــ وفى لفظ آخر : لأحبك وفى لفظ آخر : لضحك ــ ومشى ذات يوم مع ابن مسعود فى الحدادين فلما نظر إلى الأكوار تنفخ وإلى النار تلتهب صعق وسقط مغشيا عليه وقعد ابن مسعود عند رأسه إلى وقت الصلاة فلم يفق فحمله على ظهره إلى منزله ، فلم يزل مغشيا عليه إلى مثل الساعة التى صعق فيها ففاتته خمس صلوات وابن مسعود عند رأسه يقول : هذا والله هو الخوف ، وكان الربيع يقول : ما دخلت فى صلاة قط فأهمنى فيها إلا ما أقول وما يقال لى . وكان عامر بن عبدالله من خاشعى المصلين وكان إذا صلى ربما ضربت ابنته بالدف وتحدث النساء بما يردن فى البيت ولم يكن يسمع ذلك ولا يعقله . وقيل له ذات يوم هل تحدثك نفسك فى الصلاة بشىء ؟ قال : نعم بوقوفى بين يدى الله عز وجل ومنصرفى إلى إحدى الدارين ، قيل : فهل تجد شيئا مما نجد من أمور الدنيا ؟ فقال : لأن تختلف الأسنة فى احب الى من اجد فى صلاتى ما تجدون . وكان يقول : لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا . وقد كان مسلم بن يسار منهم ، وقد نقلنا انه لم يشعر بسقوط اسطوانة فى المسجد وهو فى الصلاة . وتآكل طرف من اطراف بعضهم واحتيج فيه الى القطع فلم يمكن منه فقيل : إنه فى الصلاة لا يحس بما يجرى عليه ، فقطع وهو فى الصلاة . وقال بعضهم : الصلاة من الآخرة فاذا دخلت فيها خرجت من الدنيا . وقيل لآخر : هل تحدث نفسك بشىء من الدنيا فى الصلاة ؟ فقال : لا فى الصلاة ولا فى غيرها .

وسئل بعضهم : هل تذكر فى الصلاة شيئا ؟ فقال : وهل شىء أحب إلى من الصلاة فأذكره فيها ؟ وكان أبو الدرداء رضى الله عنه يقول : من فقه الرجل أن يبدأ بحاجته قبل دخوله فى الصلاة ليدخل فى الصلاة وقلبه فارغ . وكان بعضهم يخفف الصلاة خيفة الوسواس . وروى أن عمار بن ياسر صلى صلاة فأخفها فقيل له : خففت يا أبا اليقظان فقال : هل رأيتمونى نقصت من حدودها شيئا ؟ قالوا : لا . قال : إنى بادرت سهو الشيطان ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن العبد ليصلى الصلاة لايكتب له نصفها ولا ثلثها ولا ربعها ولا خمسها ولا سدسها ولا عشرها . وكان يقول إنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها(١) » ويقال إن طلحة والزبير وطائفة من الصحابة رضى الله عنهم كانوا أخف الناس صلاة ، وقالوا نبادر بها وسوسة الشيطان . وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال على المنبر : إن الرجل ليشيب عارضاه فى الإسلام وما أكمل لله تعالى صلاة ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لا يتم خشوعها وتواضعها وإقباله على الله عز وجل فيها . وسئل أبو العالية عن قوله ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ قال هو الذى يسهو فى صلاته فلا يدرى على كم ينصرف أعلى شفع أم على وتر ؟ وقال الحسن : هو الذى يسهو عن وقت الصلاة حتى تخرج . وقال بعضهم : هو الذى إن صلاها فى أول الوقت لم يفرح وإن أخرها عن الوقت لم يحزن فلا يرى تعجيلها خيرا ولا تأخيرها إثما . واعلم أن الصلاة قد يحسب بعضها ويكتب بعضها دون بعض كما دلت الأخبار عليه وإن كان الفقيه يقول : إن الصلاة فى الصحة لا تتجزأ ، ولكن ذلك له معنى آخر ذكرناه وهذا المعنى دلت عليه الأحاديث إذ ورد جبر نقصان الفرائض بالنوافل(٢) وفى الخبر « قال عيسى عليه السلام : يقول الله تعالى بالفرائض نجا منى عبدى وبالنوافل تقرب إلى عبدى » وقال النبى صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى لا ينجو منى عبدى إلا بأداء ما افترضته عليه(٣) » وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم « صلى صلاة فترك من قراءتها آية فلما انفتل قال ماذا قرأت فسكت القوم ؛ فسأل أبى بن كعب رضى الله عنه فقال : قرأت سورة كذا وتركت آية كذا فما ندرى أنسخت أم رفعت ؟ فقال : أنت لها يا أبى . ثم أقبل على الآخرين فقال : ما بال أقوام يحضرون صلاتهم ويتمون صفوفهم ونبيهم بين أيديهم لا يدرون ما يتلو عليهم من كتاب ربهم ؟ ألا إن بنى إسرائيل كذا فعلوا فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن قل لقومك تحضرونى أبدانكم وتعطونى ألسنتكم وتغيبون عنى بقلوبكم باطل ما تذهبون إليه(٤) » وهذا يدل على أن استماع ما يقرأ الإمام وفهمه بدل عن قراءة السورة بنفسه . وقال بعضهم : إن الرجل يسجد السجدة عنده انه تقرب بها إلى الله عز وجل ولو قسمت ذنوبه فى سجدته على أهل مدينته لهلكوا ، قيل وكيف يكون ذلك ؟ قال : يكون ساجدا عند الله وقلبه مصغ الى هوى ومشاهد لباطل قد استولى عليه . فهذه صفة الخاشعين . فدلت هذه الحكايات والأخبار مع ما سبق على ان الأصل فى الصلاة الخشوع وحضور القلب وان مجرد الحركات مع الغفلة قليل الجدوى فى المعاد والله اعلم . نسأل الله حسن التوفيق .

---

(١) « أن عمار بن ياسر صلى فأخفها فقيل له خففت يا أبا اليقظان ... الحديث » وفيه « إن العبد ليصلى صلاة لا يكتب له نصفها ولا ثلثها .. إلى آخره » أخرجه أحمد بإسناد صحيح وتقدم المرفوع عنه وهو عند داود والنسائى .

(٢) « جبر نقصان الفرائض بالنوافل » رواه أصحاب السنن والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته » وفيه « فإن انتقص من فرضه شيئا قال الرب عز وجل انظروا هل لعبدى من تطوع فيكمل بها ما نقص من الفريضة » (٣) « قال الله تعالى لا ينجو منى عبدى إلا بأداء ما افترضت عليه » لم أجده . (٤) « صلى صلاة فترك من قراءتها آية فلما التفت قال ماذا قرأت فسكت القوم فسأل أبى بن كعب . . . الحديث » رواه محمد بن نصر فى كتاب الصلاة مرسلا وأبو منصور الديلمى من حديث أبى بن كعب ورواه النسائى مختصرا من حديث عبد الرحمن بن أبزى بإسناد صحيح .

الباب الرابع : فى القدوة والامامة

وعلى الإمام وظائف قبل الصلاة وفى القراءة وفى أركان الصلاة و بعد السلام

أما الوظائف التى هى قبل الصلاة فستة ؛ أولها : أن لايتقدم للإمامة على قوم يكرهونه . فإن اختلفوا كان النظر إلى الأكثرين ، فإن كان الأقلون هم أهل الخير والدين فالنظر إليهم أولى ، وفى الحديث « ثلاثة لا تجاوز صلاتهم رءوسهم : العبد الآبق وامرأة زوجها ساخط عليها وإمام أم قوما وهم له كارهون (١) » وكما ينهى عن تقدمه مع كراهيتهم فكذلك ينهى عن التقدمة إن كان وراءه من هو أفقه منه إلا إذا امتنع من هو أولى منه فله التقدم ، فإن لم يكن شىء من ذلك فليتقدم مهما قدم وعرف من نفسه القيام بشروط الإمامة . ويكره عند ذلك المدافعة فقد قيل إن قوما تدافعوا الإمامة بعد إقامة الصلاة فخسف بهم . وما روى من مدافعة الإمامة بين الصحابة رضى الله عنهم فسببه إيثارهم من رأوه أنه أولى بذلك أو خوفهم على أنفسهم السهو وخطر ضمان صلاتهم ، فان الأئمة ضمناء وكأن من لم يتعود ذلك ربما يشتغل قلبه ويتشوش عليه الإخلاص فى صلاته حياء من المقتدين لا سيما فى جهره بالقراءة ، فكان لاحتراز من احترز أسباب من هذا الجنس . الثانية : إذا خير إنسان بين الأذان والإمامة فينبغى أن يختار الإمامة فان لكل واحد منها فضلا ولكن الجمع مكروه بل ينبغى أن يكون الإمام غير المؤذن. وإذ تعذر الجمع فالإمامة أولى وقال قائلون : الأذان أولى لما نقلناه من فضيلة الأذان ولقوله صلى الله عليه وسلم « الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن(٢) » فقالوا : فيها خطر الضمان . وقال صلى الله عليه وسلم « الإمام أمين فاذا ركع فاركعوا وإذا سجد فاسجدوا (٣) » وفى الحديث « فان أتم فله ولهم وإن نقص فعليه لا عليهم(٤) » ولأنه صلى الله عليه وسلم « اللهم أرشد الأئمة واغفر للمؤذنين(٥) » والمغفرة أولى بالطلب فان الرشد يراد للمغفرة وفى الخبر «من أم فى مسجد سبع سنين وجبت له الجنة بلا حساب ومن أذن أربعين يوما دخل الجنة بغير حساب(٦) » ولذلك نقل عن الصحابة رضى الله عنهم أنهم كانوا يتدافعون الإمامة ، والصحيح أن الإمامة أفضل إذ واظب عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما والأئمة بعدهم . نعم فيها خطر الضمان والفضيلة مع الخطر كما أن رتبة الإمارة والخلافة أفضل لقوله صلى الله عليه وسلم « ليوم من سلطان عادل أفضل من عبادة سبعين سنة(٧) » ولكن فيها خطر ولذلك

الباب الرابع

(١) « ثلاثة لا تجاوز صلاتهم رءوسهم : العبد الآبق... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبى أمامة وقال حسن غريب وضعفه البيهقى . (٢) « الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن » أخرجه أبو داود والترمذى من حديث أبى هريرة، وحكى عن ابن المدينى أنه لم يثبته ورواه أحمد من حديث أبى أمامة بإسناد حسن . (٣) «الإمام أمين فإذا ركع فاركعوا ... الحديث » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة دون قوله « الإمام أمين » وهو بهذه الزيادة فى مسند الحميرى وهو متفق عليه من حديث أنس دون هذه الزيادة . (٤) « فإن أتم فله ولهم « وإن انتقص فعليه ولا عليهم» أخرجه أبو داود وابن ماجة والحاكم وصححه من حديث عقبة بن عامر والبخارى من حديث أبى هريرة « يصلون بكم فإن أصابوا فلكم وإن أخطئوا فلكم وعليهم » . (٥) « اللهم أرشد الأئمة واغفر للمؤذنين » هو بقية حديث « الإمام ضامن» وتقدم قبل بحديثين . (٦) « من أذن فى مسجد سبع سنين وجبت له الجنة ومن أذن أربعين عاما دخل الجنة بغير حساب ، أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث ابن عباس بالشطر الأول نحوه قال الترمذى حديث غريب .

(٧) « ليوم من سلطان عادل أفضل من عبادة سبعين سنة » أخرجه الطبرانى من حديث ابن عباس بسند حسن بلفظ ستين .

وجب تقديم الأفضل والأفقه فقد قال صلى الله عليه وسلم « أئمتكم شفعاؤكم - أو قال وفدكم إلى الله - فان أردتم أن تزكوا صلاتكم فقدموا خياركم (١) » وقال بعض السلف : ليس بعد الأنبياء أفضل من العلماء ولا بعد العلماء أفضل من الأئمة المصلين لأن هؤلاء قاموا بين يدى الله عز وجل وبين خلقه هذا بالنبوة وهذا بالعلم وهذا بعماد الدين وهو الصلاة . وبهذه الحجة احتج الصحابة فى تقديم أبى بكر الصديق رضى الله عنه وعنهم للخلافة ، إذ قالوا نظرنا فاذا الصلاة عماد الدين فاخترنا لدنيانا من رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا (٢) وما قدموا بلالا احتجاجا بأنه رضيه للأذان(٣) وما روى « أنه قال له رجل : يا رسول الله دلنى على عمل أدخل به الجنة ، قال : كن مؤذنا ، قال لا أستطيع ، قال : كن إماما ، قال لا أستطيع ، فقال:صل بإزاء الإمام(٤) » فلعله ظن أنه لا يرضى بامامته إذ الأذان إليه والإمامة إلى الجماعة وتقديمهم له . ثم بعد ذلك توهم أنه ربما يقدر عليها . الثالثة : أن يراعى الإمام أوقات الصلوات فيصلى فى أوائلها ليدرك رضوان الله سبحانه ففضل أول الوقت على آخره كفضل الآخرة على الدنيا (٥) هكذا روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى الحديث « إن العبد ليصلى الصلاة فى آخر وقتها ولم تفته ولما فاته من أول وقتها خير له من الدنيا وما فيها (٦) » ولا ينبغى أن يؤخر الصلاة لانتظار كثرة الجماعة بل عليهم المبادرة لحيازة فضيلة أول الوقت فهى أفضل من كثرة الجماعة ومن تطويل السورة . وقد قيل كانوا إذا حضر اثنان فى الجماعة لم ينتظروا الثالث ، وإذا حضر أربعة فى الجنازة لم ينتظروا الخامس « وقد تأخر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة الفجر وكانوا فى سفر وإنما تأخر للطهارة فلم ينتظر وقدم عبد الرحمن بن عوف فصلى بهم حتى فاتت الرسول عليه الصلاة والسلام ركعة فقام يقضيها ، قال : فأشفقنا من ذلك ، فقال عليه الصلاة والسلام « قد أحسنتم هكذا فافعلوا (٧) » وقد تأخر فى صلاة الظهر فقدموا أبا بكر رضى الله عنه حتى جاء النبى عليه الصلاة والسلام وهو فى الصلاة فقام إلى جانبه (٧) » وليس على الامام انتظار المؤذن وإنما على المؤذن انتظار الإمام للإقامة فاذا حضر فلا ينتظر غيره الرابعة : أن يؤم مخلصاً لله عز وجل ومؤديا أمانة الله تعالى فى طهارته وجميع شروط صلاته . أما الإخلاص

---

(١) « أئمتكم وفدكم إلى الله تعالى فإن أردتم أن تزكوا صلاتكم فقدموا خياركم » أخرجه الدارقطنى والبيهقى وضعف إسناده من حديث ابن عمر والبغوى وابن قانع والطبرانى فى معاجمهم والحاكم من حديث مرثد بن أبى مرثد نحوه وهو منقطع وفيه يحيى الأسلمى وهو ضعيف . (٢) « تقدم الصحابة أبا بكر وقولهم اخترنا لدنيانا من اختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا » أخرجه ابن شاهين فى شرح مذاهب أهل السنة من حديث على قال « لقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يصلى بالناس وإنى لشاهد — ما أنا بغائب ولا بى مرض — فرضينا لدنيانا ما رضى به النبى صلى الله عليه وسلم لديننا » والمرفوع منه متفق عليه من حديث عائشة وأبى موسى فى حديث « قال مروا أبا بكر فليصل بالناس » . (٣) « تقديم الصحابة بلالا » احتجاجا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رضيه للأذان وفيه « قم مع بلال فألق عليه ما رأيت فليؤذن به ... الحديث » وأما تقديمهم له بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم فروى الطبرانى « أن بلالا جاء إلى أبى بكر فقال ياخليفة رسول الله أردت أن أربط نفسى فى سبيل الله حتى أموت فقال أبو بكر أنشدك بالله يابلال وحرمتى وحقى لقد كبرت سنى وضعفت قوتى واقترب أجلى فأقام بلال معه » فلما توفى أبو بكر جاء عمر فقال له مثل ما قال لأبى بكر فأبى عليه فقال عمر فمن يابلال ؟ فقال إلى سعد فإنه قد أذن بقباء على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل عمر الأذان إلى سعد وعقبة ، وفى إسناده جهالة . (٤) « قال له رجل يارسول الله دلنى على عمل أدخل به الجنة قال كن مؤذنا ... الحديث » أخرجه البخارى فى التاريخ والعقيلى فى الضعفاء والطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف . (٥) « فضل أول الوقت على آخره كفضل الآخرة على الدنيا » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف . (٦) « إن العبد ليصلى الصلاة فى أول وقتها ... الحديث » أخرجه الدارقطنى من حديث أبى هريرة نحوه بإسناد ضعيف . (٧) « تأخر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما عن صلاة الفجر وكان فى سفر وإنما تأخر للطهارة فقدموا عبدالرحمن بن عوف ... الحديث » متفق عليه من حديث المغيرة.

(٨) « تأخره فى صلاة الظهر فقدموا أبا بكر ... الحديث » متفق عليه من حديث سهل بن سعد.

فبأن لا يأخذ عليها أجرة فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن أبي العاص الثقفي وقال «اتخذ مؤذناً لا يأخذ على الأذان أجراً (١)» فالأذان طريق إلى الصلاة فهو أولى بأن لا يؤخذ عليه أجر، فإن أخذ رزقا من مسجد قد وقف على من يقوم بإمامته من السلطان أو آحاد الناس فلا يحكم بتحريمه ولكنه مكروه . والكراهية في الفرائض أشد منها في التراويح . وتكون أجرة له على مداومته على حضور الموضع ومراقبة مصالح المسجد في إقامة الجماعة لا على نفس الصلاة . وأما الأمانة فهي الطهارة باطناً عن الفسق والكبائر والإصرار على الصغائر ، فالمترشح للإمامة ينبغي أن يحترز عن ذلك بجهده فانه كالوفد والشفيع للقوم فينبغي أن يكون خير القوم وكذا الطهارة ظاهراً عن الحدث والخبث فانه لا يطلع عليه سواه . فان تذكر في أثناء صلاته حدثاً أو خرج منه ريح فلا ينبغي أن يستحي بل يأخذ بيد من يقرب منه ويستخلفه « فقد تذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنابة في أثناء الصلاة فاستخلف واغتسل ثم رجع ودخل في الصلاة(٢) » وقال سفيان : صل خلف كل بر وفاجر إلا مدمن خمر أو معلن بالفسوق أو عاق لوالديه او عبد آبق . الخامسة : أن لا يكبر حتى تستوي الصفوف فليلتفت يميناً وشمالا فان رأى خللا أمر بالتسوية . قيل كانوا يتحاذون بالمناكب ويتضامون بالكعاب . ولا يكبر حتى يفرغ المؤذن من الإقامة . والمؤذن يؤخر الإقامة عن الأذان بقدر استعداد الناس في الصلاة . ففي الخبر « ليتمهل المؤذن بين الأذان والإقامة بقدر ما يفرغ الآكل من طعامه والمعتصر من اعتصاره(٣) » وذلك لأنه نهى عن مدافعة الأخبثين(٤) وأمر بتقديم العشاء على العشاء(٥) طلباً لفراغ القلب السادسة : أن يرفع صوته بتكبيرة الإحرام وسائر التكبيرات ولا يرفع المأموم صوته إلا بقدر ما يسمع نفسه . وينوي الإمامة لينال الفضل فان لم ينو صحت صلاته وصلاة القوم إذا نووا الاقتداء . ونالوا فضل القدوة وهو لا ينال فضل الإمامة ، وليؤخر المأموم تكبيره عن تكبير الإمام فيبتدىء بعد فراغه والله أعلم .

وأما وظائف القراءة فثلاثة ؛ أولها : أن يسر بدعاء الاستفتاح والتعوذ كالمنفرد ويجهر بالفاتحة والسورة بعدها في جميع الصبح وأولي العشاء والمغرب وكذلك المنفرد . ويجهر بقوله «آمين» في الصلاة الجهرية وكذا المأموم ويقرن المأموم تأمينه بتأمين الإمام معاً لا تعقيبا ويجهر بـ « بسم الله الرحمن الرحيم »(٦) والأخبار فيه متعارضة(٧) واختيار الشافعي رضي الله عنه الجهر . الثانية : أن يكون للإمام في القيام ثلاث سكتات(٨) هكذا رواه سمرة بن جندب وعمران

---

(١) « اتخذ مؤذنا لا يأخذ على أذانه أجرة » أخرجه أصحاب السنن والحاكم وصححه من حديث عثمان بن أبي العاص الثقفي (٢) « تذكر النبي صلى الله عليه وسلم الجنابة في صلاته فاستخلف واغتسل ثم رجع » أخرجه أبو داود من حديث أبي بكرة بإسناد صحيح وليس فيه ذكر الاستخلاف وإنما قال «ثم أومأ إليهم أن مكانكم ... الحديث » وورد الاستخلاف من فعل عمر وعلي وعند البخاري استخلاف عمر في قصة طعنه . (٣) « يمهل المؤذن بين الأذان والإقامة بقدر ما يفرغ الآكل من طعامه والمعتصر من اعتصاره » أخرجه الترمذي والحاكم من حديث جابر «يا بلال اجعل بين أذانك وإقامتك قدر ما يفرغ الآكل من أكله والشارب من شربه والمعتصر إذا دخل لقضاء حاجته » قال الترمذي : إسناده مجهول وقال الحاكم ليس في إسناده مطعون فيه غير عمرو بن قايد . قلت : بل فيه عبد المنعم منكر الحديث قاله البخاري وغيره .
(٤) « النهي عن مدافعة الأخبثين » أخرجه مسلم من حديث عائشة بلفظ « صلاة » وللبيهقي « لا يصلين أحدكم »
(٥) « الأمر بتقديم العشاء على العشاء » تقدم حديث ابن عمر وعائشة « إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابدؤا بالعشاء » متفق عليه. (٦) حديث الجهر بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » أخرجه الدارقطني والحاكم وصححه من حديث ابن عباس
(٧) « ترك الجهر بها » أخرجه مسلم من حديث أنس « صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر فلم أسمع أحدا منهم يقرأ ببسم الله الرحمن الرحيم » وللنسائي يجهر له « بسم الله الرحمن الرحيم ». (٨) حديث سمرة بن جندب وعمران بن حصين في سكتات الإمام أحمد من حديث سمرة قال « كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكتبوا في ذلك إلى أبي بن كعب ؟ فكتب إن سمرة قد حفظ » هكذا وجدته في غير نسخة صحيحة من المسند والمعروف أن عمران أنكر ذلك على سمرة هكذا في غير موضع من المسند رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان روى الترمذي « فأنكر ذلك عمران وقال حفظنا سكتة » وقال حديث حسن انتهى وليس في حديث سمرة إلا سكتتان . ولكن اختلف عنه في محل الثانية ، فروى عنه بعد الفاتحة وروى عنه بعد السدرة وللدارقطني من حديث أبي هريرة وضعفه «من صلى صلاة مكتوبة مع الإمام فليقرأ بفاتحة الكتاب في سكتاته » .

ابن الحصين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أولاهن : إذا كبر وهى الطولى منهن مقدار ما يقرأ من خلفه فاتحة الكتاب وذلك وقت قراءته لدعاء الاستفتاح فانه إن لم يسكت يفوتهم الاستماع فيكون عليه ما نقص من صلاتهم ، فان لم يقرءوا الفاتحة فى سكوته واشتغلوا بغيرها فذلك عليهم لا عليه . السكتة الثانية : إذا فرغ من الفاتحة ليتم من يقرأ الفاتحة فى السكتة الأولى فاتحته وهى كنصف السكتة الأولى . السكتة الثالثة : إذا فرغ من السورة قبل أن يركع وهى أخفها وذلك بقدر ما تنفصل القراءة عن التكبير فقد نهى عن الوصل فيه . ولا يقرأ المأموم لوراء الامام إلا الفاتحة فان لم يسكت الامام قرأ فاتحة الكتاب معه والمقصر هو الامام . وإن لم يسمع المأموم فى الجهرية لبعده أو كان فى السرية فلا بأس بقراءة السورة . الوظيفة الثالثة : أن يقرأ فى الصبح سورتين من المثانى ما دون المائة فان الاطالة فى قراءة الفجر والتغليس بها سنة ، ولا يضره الخروج منها مع الإسفار . ولا بأس بأن يقرأ فى الثانية بأواخر السور نحو الثلاثين أو العشرين إلى أن يختمها لأن ذلك لا يتكرر على الأسماع كثيراً فيكون أبلغ فى الوعظ وأدعى إلى التفكر ، وإنما كره بعض العلماء قراءة بعض أول السور وقطعها . وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ بعض سورة يونس فلما انتهى إلى ذكر موسى وفرعون قطع فركع(١) وروى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ فى الفجر آية من البقرة(٢) وهى قوله ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ﴾ وفى الثانية ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت ﴾ وسمع بلالا يقرأ من ههنا وههنا ، فسأله عن ذلك فقال : أخلط الطيب بالطيب ، فقال : أحسنت (٣) . ويقرأ فى الظهر بطوال المفصل إلى ثلاثين آية وفى العصر بنصف ذلك وفى المغرب بأواخر المفصل . وآخر صلاة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم : المغرب ، قرأ فيها سورة المرسلات ما صلى بعدها حتى قبض(٤) . وبالجملة التخفيف أولى لاسيما إذا كثر الجمع قال صلى الله عليه وسلم فى هذه الرخصة « إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف فان فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة وإذا صلى لنفسه فليطول ما شاء(٥) » وقد كان معاذ بن جبل يصلى بقوم العشاء فقرأ البقرة فخرج رجل من الصلاة وأتم لنفسه ، فقالوا : نافق الرجل ، فتشاكيا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فزجر الرسول عليه الصلاة والسلام معاذ فقال «أفتان أنت يا معاذ اقرأ سورة سبح والسماء والطارق والشمس وضحاها(٦) » وأما وظائف الأركان فثلاثة ، أولها : أن يخفف الركوع والسجود فلا يزيد فى التسبيحات على ثلاث فقد روى عن أنس أنه قال « ما رأيت أخف صلاة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تمام(٧) » نعم روى أيضا أن أنس بن مالك لما صلى خلف عمر بن عبد العزيز وكان أميراً بالمدينة قال « ما صليت وراء أحد اشبه صلاة بصلاة رسول الله صلى الله عليه

---

(١) « قرأ بعض سورة يونس ؛ فلما انتهى إلى ذكر موسى وفرعون قطع وركع » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن السائب وقال : سورة المؤمنين وقال موسى وهرون وعلقه البخارى . (٢) يقرأ فى الفجر « قولوا آمنا بالله » الآية ، وفى الثانية «ربنا آمنا بما أنزلت » أخرجه مسلم من حديث ابن عباس كان يقرأ فى ركعتى الفجر فى الأولى منهما « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا » الآية التى فى البقرة وفى الركعة الآخرة « ربنا آمنا بما أنزلت » أو « إنا أرسلناك بالحق » .

(٣) « سمع بلالا يقرأ من ههنا ومن ههنا ، فسأله عن ذلك فقال أخلط بالطيب فقال أحسنت » أخرجه أبو داود من حديث أبى هريرة بإسناد صحيح نحوه .

(٤) « قراءته فى المغرب بالمرسلات وهى آخر صلاة صلاها » متفق عليه من حديث أم الفضل .

(٥) « إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٦) « صلى معاذ بقوم العشاء فقرأ البقرة فخرج رجل من الصلاة ... الحديث » متفق عليه من حديث جابر وليس فيه ذكر « والسماء والطارق » وهى عند البيهقى .

(٧) حديث أنس « ما رأيت أخف صلاة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تمام » متفق عليه .

وسلم من هذا الشاب ، قال : وكنا نسبح وراءه عشراً عشراً [(١)] » وروى مجملا أنهم قالوا « كنا نسبح وراء رسول الله ﷺ في الركوع والسجود عشراً عشراً [(٢)] » وذلك حسن ، ولكن الثلاث إذا كثر الجمع أحسن . فإذا لم يحضر إلا المتجردون للدين فلا بأس بالعشر ، هذا وجه الجمع بين الروايات . وينبغي أن يقول الإمام عند رفع رأسه من الركوع « سمع الله لمن حمده » . الثانية : في المأموم ، ينبغي أن لا يساوي الإمام في الركوع والسجود بل يتأخر فلا يهوي للسجود إلا إذا وصلت جبهة الإمام إلى المسجد ، هكذا كان اقتداء الصحابة برسول الله ﷺ [(٣)] ولا يهوي للركوع حتى يستوي الإمام راكعاً . وقد قيل إن الناس يخرجون من الصلاة على ثلاثة أقسام : طائفة بخمس وعشرين صلاة وهم الذين يكبرون ويركعون بعد الإمام ، وطائفة بصلاة واحدة وهم الذين يساوونه ، وطائفة بلا صلاة وهم الذين يسابقون الإمام . وقد اختلف في أن الإمام في الركوع هل ينتظر لحوق من يدخل لينال فضل الجماعة وإدراكهم بتلك الركعة ؟ ولعل الأولى أن ذلك مع الإخلاص لا بأس به إذا لم يظهر تفاوت ظاهر للحاضرين فإن حقهم مرعى في ترك التطويل عليهم . الثالثة : لا يزيد في دعاء التشهد على مقدار التشهد حذراً من التطويل ولا يخص نفسه في الدعاء بل يأتي بصيغة الجمع فيقول « اللهم اغفر لنا » ولا يقول « اغفر لي » فقد كره للإمام أن يخص نفسه ، ولا بأس أن يستعيذ في التشهد بالكلمات الخمس المأثورة عن رسول الله ﷺ فيقول « نعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ونعوذ بك من فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضنا إليك غير مفتونين [(٤)] » وقيل : سمي مسيحاً لأنه يمسح الأرض بطولها ، وقيل : لأنه ممسوح العين أي مطموسها .

وأما وظائف التحلل فثلاثة ، أولها : أن ينوي بالتسليمتين السلام على القوم والملائكة . الثانية : أن يثبت عقيب السلام كذلك فعل الرسول ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما فيصلي النافلة في موضع آخر . فإن كان خلفه نسوة لم يقم حتى ينصرفن [(٥)] وفي الخبر المشهور « أنه ﷺ لم يكن يقعد إلا قدر قوله : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام [(٦)] » . الثالثة : إذا وثب فينبغي أن يقبل بوجهه على الناس ويكره للمأموم القيام قبل انفتال الإمام . فقد روي عن طلحة والزبير رضي الله عنهما أنهما صليا خلف إمام فلما سلما قالا للإمام ما أحسن صلاتك وأتمها إلا شيئاً واحداً أنك لما سلمت لم تنفتل بوجهك ، ثم قالا للناس : ما أحسن صلاتكم إلا أنكم انصرفتم قبل أن ينفتل إمامكم . ثم ينصرف الإمام حيث شاء من يمينه وشماله واليمين أحب . هذه وظيفة الصلوات ، وأما الصبح فزيد فيها القنوت فيقول الإمام « اللهم اهدنا » ولا يقول « اللهم اهدني » ويؤمن المأموم فإذا انتهى إلى قوله « إنك تقضي ولا يقضى عليك » فلا يليق به التأمين وهو ثناء ، فيقرأ معه فيقول مثل قوله أو يقول « بلى وأنا على ذلك من الشاهدين » أو « صدقت وبررت » وما أشبه ذلك . وروى حديث في رفع اليدين [(٧)]

---

(١) عن أنس انه صلى خلف عمر بن عبد العزيز فقال ماصليت وراء أحد أشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الشاب ... أخرجه أبو داود والنسائي بإسناد جيد وضعفه ابن القطان . (٢) « كنا نسبح وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم في الركوع والسجود عشراً » لم أجد له أصلا إلا في الحديث الذي قبله وفيه « فحزرنا في ركوعه عشر تسبيحات وفي سجوده عشر تسبيحات » . (٣) « كان الصحابة لايهوون للسجود إلا إذا وصلت جبهة النبي عليه الصلاة والسلام إلى الأرض » متفق عليه من كلام البراء بن عازب . (٤) « التعوذ في التشهد من عذاب جهنم وعذاب القبر ... » تقدم وزاد فيه الغزالي هنا « وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضنا إليك غير مفتونين » لم أجده مقيداً بآخر الصلاة وللترمذي من حديث ابن عباس « إذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون » روى الحاكم نحوه من حديث ثوبان وعبد الرحمن بن عايش وصححهما وسيأتي في الدعاء . (٥) « المكث بعد السلام » أخرجه البخاري من كلام أم سلمة .

(٦) « إنه لم يكن يقعد إلا بقدر قوله : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام » أخرجه مسلم من كلام عائشة . (٧) « رفع اليدين في القنوت » أخرجه البيهقي من كلام أنس بسند جيد في قصة قتل القراء « ولقد رأيت رسول الله عليه الصلاة والسلام كلما صلى الغداة رفع يديه » يدعو عليهم .

فى القنوت فإذا صح الحديث استحب ذلك وإن كان على خلاف الدعوات فى آخر التشهد إذ لا يرفع بسببها اليد بل التعويل على التوقيف وبينهما أيضاً فرق وذلك أن للأيدى وظيفة فى التشهد وهو الوضع على الفخذين على هيئة مخصوصة ولا وظيفة لها ههنا ، فلا يبعد أن يكون رفع اليدين هو الوظيفة فى القنوت ، فانه لائق بالدعاء والله أعلم فهذه جمل آداب القدوة والإمامة والله الموفق .

الباب الخامس : فى فضل الجمعة وآدابها وسننها وشروطها

فضيـــلة الجمعة

اعلم أن هذا يوم عظم عظم الله به الإسلام وخصص به المسلمين . قال الله تعالى ﴿ إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ﴾ فحرم الاشتغال بأمور الدنيا وبكل صارف عن السعى إلى الجمعة . وقال ﷺ : « إن الله عز وجل فرض عليكم يوم الجمعة فى يومى هذا فى مقامى هذا [1] » وقال ﷺ : « من ترك الجمعة ثلاثاً من غير عذر طبع الله على قلبه [2] » وفى لفظ آخر « فقد نبذ الإسلام وراء ظهره [3] » واختلف رجل إلى ابن عباس يسأله عن رجل مات لم يكن يشهد جمعة ولا جماعة ، فقال : فى النار ، فلم يزل يتردد إليه شهراً يسأله عن ذلك وهو يقول فى النار ، وفى الخبر : إن أهل الكتابين أعطوا يوم الجمعة فاختلفوا فيه فصرفوا عنه . وهدانا الله تعالى له وأخره لهذه الأمة وجعله عيدا لهم فهم أولى الناس به سبقاً ، وأهل الكتابين لهم تبع [4] . وفى حديث أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « أتانى جبريل عليه السلام فى كفه مرآة بيضاء وقال : هذه الجمعة يفرضها عليك ربك لتكون لك عيداً ولأمتك من بعدك . قلت : فما لنا فيها ؟ قال : لكم فيها خير ساعة من دعا فيها بخير قسم له أعطاه الله سبحانه إياه أو ليس له قسم ذخر له ما هو أعظم منه ، أو تعوذ من شر هو مكتوب عليه إلا أعاذه الله عز وجل من أعظم منه وهو سيد الأيام عندنا ونحن ندعوه يوم الآخرة يوم المزيد ، قلت : ولم ؟ قال: إن ربك عز وجل اتخذ فى الجنة وادياً أفيح من المسك أبيض فاذا كان يوم الجمعة نزل تعالى من عليين على كرسيه فيتجلى لهم حتى ينظروا إلى وجهه الكريم [5] » وقال صلى الله عليه وسلم « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم عليه السلام وفيه أدخل الجنة وفيه أهبط إلى الأرض وفيه تيب عليه وفيه مات وفيه تقوم الساعة ، وهو عند الله يوم المزيد كذلك تسميه الملائكة فى السماء وهو يوم النظر إلى الله تعالى فى الجنة [6] » وفى الخبر : « إن لله عز وجل فى كل جمعة ستمائة ألف عتيق من النار [7] » وفى حديث أنس رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم

الباب الخامس

(١) « إن الله فرض عليكم الجمعة فى يومى هذا ... » أخرجه ابن ماجه من كلام جابر بإسناد ضعيف .
(٢) « من ترك الجمعة ثلاثا من غير عذر طبع الله على قلبه » أخرجه أحمد واللفظ له واصحاب السنن ورواه الحاكم وصححه من حديث ابن الجعد الضمرى . (٣) « من ترك الجمعة ثلاثا من غير عذر فقد نبذ الإسلام وراء ظهره» أخرجه البيهقى فى الشعب من كلام ابن عباس . (٤) « إن أهل الكتابين أعطوا يوم الجمعة فاختلفوا فيه ... » متفق عليه من حديث أبى هريرة بنحوه . (٥) عن أنس « أتانى جبريل فى كفه مرآة بيضاء فقال هذه الجمعة ... » أخرجه الشافعى فى المسند والطبرانى فى الأوسط وابن مردويه فى التفسير بأسانيد ضعيفة مع اختلاف (٦) « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ... » أخرجه مسلم من كلام أبى هريرة . (٧) « إن لله كل جمعه ستمائة ألف عتيق من النار» أخرجه ابن عدى وابن حبان فى الضعفاء وفى الشعب من كلام أنس قال الدارقطنى فى العلل والحديث غير ثابت .

قال « إذا سلمت الجمعة سلمت الأيام [١] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الجحيم تسعر فى كل يوم قبل الزوال عند استواء الشمس فى كبد السماء فلا تصلوا فى هذه الساعة إلا يوم الجمعة فإنه صلاة كله وإن جهنم لا تسعر فيه [٢] » وقال كعب : إن الله عز وجل فضل من البلدان مكة ومن الشهور رمضان ومن الأيام الجمعة ومن الليالى ليلة القدر ويقال إن الطير والهوام يلقى بعضها بعضا فى يوم الجمعة فتقول : سلام سلام يوم صالح وقال صلى الله عليه وسلم « من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة كتب الله له أجر شهيد ووقى فتنة القبر [٣] » .

بيان شروط الجمعة

اعلم أنها تشارك جميع الصلوات فى الشروط وتتميز عنها بستة شروط (الأول) الوقت : فإن وقعت تسليمة الإمام فى وقت العصر فاتت الجمعة وعليه أن يتمها ظهرا أربعا ، والمسبوق إذا وقعت ركعته الأخيرة خارجا من الوقت ففيه خلاف (الثانى) المكان : فلا تصح فى الصحارى والبرارى وبين الخيام بل لا بد من بقعة جامعة لأبنية لا تنقل يجمع أربعين ممن تلزمهم الجمعة والقرية فيه كالبلد ، ولا يشترط فيه حضور السلطان ولا إذنه ولكن الأحب استئذانه (الثالث) العدد : فلا تنعقد بأقل من أربعين ذكورا مكلفين أحرارا مقيمين لا يظعنون عنها شتاء ولا صيفا ، فإن انفضوا حتى نقص العدد إما فى الخطبة أو فى الصلاة لم تصح الجمعة بل لا بد منهم من الأول إلى الآخر (الرابع) الجماعة : فلو صلى أربعون فى قرية أو فى بلد متفرقين لم تصح جمعتهم . ولكن المسبوق إذا أدرك الركعة الثانية جاز له الانفراد بالركعة الثانية . وإن لم يدرك ركوع الركعة الثانية اقتدى ونوى الظهر وإذا سلم الإمام تممها ظهرا (الخامس) أن لا تكون الجمعة مسبوقة بأخرى فى ذلك البلد . فإن تعذر اجتماعهم فى جامع واحد جاز فى جامعين وثلاثة وأربعة بقدر الحاجة . وإن لم تكن حاجة فالصحيح الجمعة التى يقع بها التحريم أولا . وإذا تحققت الحاجة فالأفضل الصلاة خلف الأفضل من الإمامين ، فإن تساويا فالمسجد الأقدم ، فإن تساويا ففى الأقرب ، ولكثرة الناس أيضا فضل يراعى (السادس) الخطبتان : فهما فريضتان والقيام فيهما فريضة والجلسة بينهما فريضة . وفى الأولى أربع فرائض : التحميد وأقله الحمد لله . والثانية : الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم . والثالثة : الوصية بتقوى الله سبحانه وتعالى . والرابعة : قراءة آية من القرآن . وكذا فرائض الثانية أربعة إلا أنه يجب فيها الدعاء بدل القراءة . واستماع الخطبتين واجب من الأربعين . وأما السنن : فإذا زالت الشمس وأذن المؤذن وجلس الإمام على المنبر انقطعت الصلاة سوى التحية ، والكلام لا ينقطع بافتتاح الخطبة . ويسلم الخطيب على الناس إذا أقبل عليهم بوجهه ويردون عليه السلام فإذا فرغ المؤذن قام مقبلا على الناس بوجهه لا يلتفت يمينا ولا شمالا ويشغل يديه بقائم السيف أو العنزة والمنبر كى لا يعبث بهما أو يضع إحداهما على الأخرى . ويخطب خطبتين بينهما جلسة خفيفة . ولا يستعمل غريب اللغة ولا يمطط ولا يتغنى . وتكون الخطبة قصيرة بليغة جامعة . ويستحب أن يقرأ آية فى الثانية أيضا . ولا يسلم من دخل والخطيب يخطب فان سلم لم يستحق جوابا ، والإشارة بالجواب حسن ، ولا يشمت العاطسين أيضا ، هذه شروط الصحة . فأما شروط الوجوب : فلا تجب الجمعة إلا على ذكر بالغ عاقل مسلم حر مقيم فى قرية تشتمل على أربعين جامعين

---

(١) حديث أنس «إذا سلمت الجمعة سلمت الأيام» أخرجه ابن حبان فى الضعفاء وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب من حديث عائشة ولم أجده من حديث أنس .

(٢) « إن الجحيم تسعر كل يوم قبل الزوال عند استواء الشمس — إلى أن قال — إلا يوم الجمعة ... » أخرجه أبو داود من حديث أبى قتادة وأعله بالانقطاع .

(٣) «من مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد ، ووقى فتنة القبر» أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث جابر روى الترمذى نحوه مختصراً من حديث عبدالله بن عمر وقال غريب ليس إسناده بمتصل . قلت : وصله الترمذى الحكيم فى النوادر

لهذه الصفات ، أو فى قرية من سواد البلد يبلغها نداء البلد من طرف بابها والأصوات ساكنة والمؤذن رفيع الصوت لقوله تعالى ﴿ إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ﴾ ويرخص لهؤلاء فى ترك الجمعة لعذر المطر والوحل والفزع والمرض والتمريض إذا لم يكن للمريض قيم غيره . ثم يستحب لهم - أعنى أصحاب الأعذار - تأخير الظهر إلى أن يفرغ الناس من الجمعة ، فإن حضر الجمعة مريض أو مسافر أو عبد أو امرأة صحت جمعتهم وأجزأت عن الظهر والله أعلم .

بيان آداب الجمعة على ترتيب العادة وهى عشر جمل

(الأول) أن يستعد لها يوم الخميس عزما عليها واستقبالا لفضلها فيشتغل بالدعاء والاستغفار والتسبيح بعد العصر يوم الخميس لأنها ساعة قوبلت بالساعة المبهمة فى يوم الجمعة . قال بعض السلف : إن لله عز وجل فضلا سوى أرزاق العباد لا يعطى من ذلك الفضل إلا من سأله عشية الخميس ويوم الجمعة ، ويغسل فى هذا اليوم ثيابه ويبيضها ويعد الطيب إن لم يكن عنده ، ويفرغ قلبه من الأشغال التى تمنعه من البكور إلى الجمعة ، وينوى فى هذه الليلة صوم يوم الجمعة فإن له فضلا وليكن مضموما إلى يوم الخميس أو السبت - لا مفردا فإنه مكروه - ويشتغل بإحياء هذه الليلة بالصلاة وختم القرآن فلها فضل كثير وينسحب عليها فضل يوم الجمعة . ويجامع أهله فى هذه الليلة أو فى يوم الجمعة فقد استحب ذلك قوم حملوا عليه قوله صلى الله عليه وسلم « رحم الله من بكر وابتكر وغسل واغتسل (١) » وهو حمل الأهل على الغسل ، وقيل معناه غسل ثيابه - فروى بالتخفيف - واغتسل لجسده ، وبهذا تتم آداب الاستقبال ويخرج من زمرة الغافلين الذين إذا أصبحوا قالوا ماهذا اليوم ؟ قال بعض السلف : أوفى الناس نصيبا من الجمعة من انتظرها ورعاها من الأمس ، وأخفهم نصيبا من إذا أصبح يقول : إيش اليوم ؟ وكان بعضهم يبيت ليلة الجمعة فى الجامع لأجلها . (الثانى) إذا أصبح ابتدأ بالغسل بعد طلوع الفجر ، وإن كان لا يبكر فأقربه إلى الرواح أحب ليكون أقرب عهدا بالنظافة ، فالغسل مستحب استحبابا مؤكدا . وذهب بعض العلماء إلى وجوبه قال صلى الله عليه وسلم « غسل الجمعة واجب على كل محتلم (٢) » والمشهور من حديث نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما « من أتى الجمعة فليغتسل (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « من شهد الجمعة من الرجال والنساء فليغتسل (٤) » وكان أهل المدينة إذا تساب المتسابان يقول أحدهما للآخر : لأنت أشر ممن لا يغتسل يوم الجمعة . وقال عمر لعثمان رضى الله عنهما لما دخل وهو يخطب « أهذه الساعة ؟ - منكرا عليه ترك البكور - فقال : مازدت بعد أن سمعت الأذان على أن توضأت وخرجت فقال : الوضوء أيضا ؟ وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمرنا بالغسل (٥) » وقد عرف جواز ترك الغسل بوضوء عثمان رضى الله عنه وبما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال « من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت ومن اغتسل فالغسل أفضل (٦) » ومن اغتسل للجنابة فليفض الماء على بدنه مرة أخرى

---

(١) «رحم الله من بكر وابتكر وغسل واغتسل ...» رواه أصحاب السنن وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أوس بن أوس «من غسل يوم الجمعة واغتسل وبكر وابتكر ...» وحسنه الترمذى .

(٢) « غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم » متفق عليه من حديث أبى سعيد (٣) حديث نافع عن ابن عمر « من أتى الجمعة من الرجال والنساء فليغتسل » متفق عليه وهذا لفظ ابن حبان (٤) « من شهد الجمعة من الرجال والنساء فليغتسلوا » أخرجه ابن حبان والبيهقى من حديث ابن عمر (٥) « قال عمر لعثمان لما دخل وهو يخطب : أهذه الساعة .. — إلى أن قال — والوضوء أيضا وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر بالغسل » متفق عليه من حديث أبى هريرة ولم يسم البخارى وعثمان (٦) « من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت ... » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه ورواه النسائى من حديث سمرة

على نية غسل الجمعة ؛ فإن اكتفى بغسل واحد أجزأه وحصل له الفضل إذا نوى كليهما ودخل غسل الجمعة فى غسل الجنابة . وقد دخل بعض الصحابة على ولده وقد اغتسل فقال له : ألِلجمعة ؟ فقال : بل عن الجنابة ، فقال : أعد غسلا ثانيا ، وروى الحديث فى غسل الجمعة على كل محتلم . وإنما أمره به لأنه لم يكن نواه . وكان لايبعد أن يقال المقصود النظافة وقد حصلت دون النية ، ولكن هذا ينقدح فى الوضوء أيضا وقد جعل فى الشرع قربة فلا بد من طلب فضلها . ومن اغتسل ثم أحدث توضأ ولم يبطل غسله والأحب أن يحترز عن ذلك (الثالث) الزينة ؛ وهى مستحبة فى هذا اليوم وهى ثلاثة : الكسوة والنظافة وتطييب الرائحة . أما النظافة فبالسواك وحلق الشعر وقلم الظفر وقص الشارب وسائر ما سبق فى كتاب الطهارة . قال ابن مسعود : من قلم أظفاره يوم الجمعة أخرج الله عز وجل منه داء وأدخل فيه شفاء ؛ فإن كان قد دخل الحمام فى الخميس أو الأربعاء فقد حصل المقصود . فليتطيب فى هذا اليوم بأطيب طيب عنده ليغلب بها الروائح الكريهة ويوصل بها الروح والرائحة إلى مشام الحاضرين فى جواره « وأحب طيب الرجال ماظهر ريحه وخفى لونه وطيب النساء ماظهر لونه وخفى ريحه [(١)] » روى ذلك فى الأثر . وقال الشافعى رضى الله عنه : من نظف ثوبه قل همه ومن طاب ريحه زاد عقله ، وأما الكسوة فأحبها البياض من الثياب — إذ أحب الثياب إلى الله تعالى البيض — ولا يلبس مافيه شهرة . ولبس السواد ليس من السنة ولا فيه فضل بل كره جماعة النظر إليه لأنه بدعة محدثة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم والعمامة مستحبة فى هذا اليوم . روى واثلة بن الأسقع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال إن الله وملائكته يصلون على أصحاب العمائم يوم الجمعة [(٢)] » فإن أكربه الحر فلا بأس بنزعها قبل الصلاة وبعدها ولكن لا ينزع فى وقت السعى من المنزل إلى الجمعة ولا فى وقت الصلاة ولا عند صعود الإمام المنبر وفى خطبته (الرابع) البكور إلى الجامع : ويستحب أن يقصد الجامع من فرسخين وثلاث وليبكر . ويدخل وقت البكور بطلوع الفجر وفضل البكور عظيم . وينبغى أن يكون فى سعيه إلى الجمعة خاشعاً متواضعاً ناوياً للاعتكاف فى المسجد إلى وقت الصلاة قاصداً للمبادرة إلى جواب نداء الله عز وجل إلى الجمعة إياه ، والمسارعة إلى مغفرته ورضوانه وقد قال صلى الله عليه وسلم « من راح إلى الجمعة فى الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما أهدى دجاجة ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما أهدى بيضة فإذا خرج الإمام طويت الصحف ورفعت الأقلام واجتمعت الملائكة عند المنبر يستمعون الذكر فمن جاء بعد ذلك فإنما جاء لحق الصلاة ليس له من الفضل شىء [(٣)] » والساعة الأولى إلى طلوع الشمس ، والثانية إلى ارتفاعها ، والثالثة إلى انبساطها حين ترمض الأقدام ، والرابعة والخامسة بعد الضحى الأعلى إلى الزوال وفضلهما قليل ، ووقت الزوال حق الصلاة ولا فضل فيه . وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاث لو يعلم الناس ما فيهن لركضوا ركض الإبل فى طلبهن : الأذان والصف الأول والغدو إلى الجمعة [(٤)] » وقال أحمد بن حنبل رضى الله عنه : أفضلهن الغدو إلى الجمعة . وفى الخبر

---

(١) « طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفى لونه وطيب النساء ماظهر لونه وخفى ريحه » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه والنسائى من حديث أبى هريرة (٢) حديث واثلة بن الأسقع « إن الله وملائكته يصلون على أصحاب العمائم يوم الجمعة » أخرجه الطبرانى وعدى ، وقال منكر من حديث ابى الدرداء ولم أره من حديث واثلة (٣) « من راح إلى الجمعة فى الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة .. » متفق عليه من حديث أبى هريرة وليس فيه « ورفعت الأقلام » وهذه اللفظة عند البيهقى من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٤) « ثلاث لو يعلم الناس مافيهن لركضوا ركض الإبل فى طلبهن : الأذان والصف الأول والغدو إلى الجمعة » أخرجه أبو الشيخ فى ثواب الأعمال من حديث أبى هريرة « ثلاث لو يعلم الناس مافيهن ما أخذتهن إلا بالاستهام عليها حرصا على مافيهن من الخير والبركة ... » قال : « والتهجير إلى الجمعة » وفى الصحيحين من حديثه « لو يعلم الناس مافى النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا لاستهموا ولو يعلمون مافى التهجير لاستبقوا إليه ».

« إذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على أبواب المساجد بأيديهم صحف من فضة وأقلام من ذهب يكتبون الأول فالأول على مراتبهم(١) » وجاء في الخبر« إن الملائكة يتفقدون الرجل إذا تأخر عن وقته يوم الجمعة فيسأل بعضهم بعضا عنه : مافعل فلان وما الذي أخره عن وقته ؟ فيقولون : اللهم إن كان أخره فقر فأغنه وإن كان أخره مرض فاشفه وإن كان أخره شغل ففرغه لعبادتك وإن كان أخره لهو فأقبل بقلبه إلى طاعتك (٢) » وكان يرى في القرن الأول سحرا وبعد الفجر الطرقات مملوءة من الناس يمشون في السرج ويزدحمون بها إلى الجامع كأيام العيد حتى اندرس ذلك فقيل : أول بدعة حدثت في الإسلام ترك البكور إلى الجامع . وكيف لا يستحي المسلمون من اليهود والنصارى وهم يبكرون إلى البيع والكنائس يوم السبت والأحد ؟ وطلاب الدنيا كيف يبكرون إلى رحاب الأسواق للبيع والشراء والربح فلم لا يسابقهم طلاب الآخرة ؟ ويقال : إن الناس يكونون في قربهم عند النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى على قدر بكورهم إلى الجمعة . ودخل ابن مسعود رضي الله عنه بكرة الجامع فرأى ثلاثة نفر قد سبقوه بالبكور فاغتم لذلك وجعل يقول في نفسه معاتباً لها : رابع أربعة ، وما رابع أربعة من البكور ببعيد (الخامس) في هيئة الدخول : ينبغي أن لا يتخطى رقاب الناس ولا يمر بين أيديهم والبكور يسهل ذلك عليه فقد ورد وعيد شديد في تخطي الرقاب وهو أنه يجعل جسراً يوم القيامة يتخطاه الناس (٣) » وروى ابن جريج مرسلا « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو يخطب يوم الجمعة إذ رأى رجلا يتخطى رقاب الناس حتى تقدم فجلس فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم صلاته عارض الرجل حتى لقيه فقال : يا فلان ما منعك أن تجمع اليوم معنا قال : يانبي الله قد جمعت معكم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ألم نرك تتخطى رقاب الناس(٤) » أشار به إلى أنه أحبط عمله . وفي حديث مسند أنه قال « مامنعك أن تصلي معنا ؟ قال : أو لم ترني يا رسول الله، فقال صلى الله عليه وسلم : رأيتك تأنيت وآذيت (٥) » أي تأخرت عن البكور وآذيت الحضور . ومهما كان الصف الأول متروكا خاليا فله أن يتخطى رقاب الناس لأنهم ضيعوا حقهم وتركوا موضع الفضيلة . قال الحسن : تخطوا رقاب الناس الذين يقعدون على أبواب الجوامع يوم الجمعة فانه لا حرمة لهم . وإذا لم يكن في المسجد إلا من يصلي فينبغي أن لا يسلم لأنه تكليف جواب في غير محله (السادس) أن لا يمر بين يدي الناس ويجلس حيث هو إلى قرب أسطوانة أو حائط حتى لا يمرون بين يدي المصلي فان ذلك لا يقطع الصلاة ولكنه منهي عنه قال صلى الله عليه وسلم « لأن يقف أربعين عاما خير له من أن يمر بين يدي المصلي (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « لأن يكون الرجل رمادا أو رميا

---

(١) « إذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على أبواب المسجد بأيديهم صحف من فضة وأقلام من ذهب ... » أخرجه ابن مردويه في التفسير من حديث علي بإسناد ضعيف « إذا كان يوم الجمعة نزل جبريل فركز لواء بالمسجد الحرام وغدا سائر الملائكة إلى المساجد التي يجمع فيها يوم الجمعة فركزوا ألويتهم وراياتهم بباب المساجد ثم نشروا قراطيس من فضة وأقلاما من ذهب » (٢) « إن الملائكة يفتقدون العبد إذا تأخر عن وقته يوم الجمعة فيسأل بعضهم بعضا مافعل فلان » أخرجه البيهقي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مع زيادة ونقص بإسناد حسن . واعلم أن المصنف ذكر هذا أثراً فإن لم يرد به حديثا مرفوعا فليس من شرطنا وإنما ذكرناه احتياطا (٣) « من تخطى رقاب الناس يوم الجمعة اتخذ جسراً إلى جهنم » أخرجه الترمذي وضعفه وابن ماجه من حديث معاذ بن أنس .

(٤) حديث ابن جريج مرسلا « أن النبي صلى الله عليه وسلم بينما هو يخطب إذ رأى رجلا يتخطى رقاب الناس ... » وفيه « ما منعك أن تجمع معنا اليوم » أخرجه ابن المبارك في الرقائق . (٥) « ما منعك أن تصلي معنا فقال أو لم ترني قال رأيتك آنيت وآذيت » أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم من حديث عبدالله بن بسر مختصراً .

(٦) « لأن يقف أربعين سنة خير له من أن يمر بين يدي المصلي » أخرجه البزار من حديث زيد بن خالد وفي الصحيحين من حديث أبي جهم « أن يقف أربعين » قال أبو النصر : لاأدري « أربعين يوماً أو شهراً أو سنة » رواه داود وابن حبان من حديث أبي هريرة « مائة عام » .

تذروه الرياح خير له من أن يمر بين يدى المصلى(١) » وقد روى فى حديث آخر فى المار والمصلى حيث صلى على الطريق أو قصر فى الدفع فقال « لو يعلم المار بين يدى المصلى والمصلى ماعليهما فى ذلك لكان أن يقف أربعين سنة خيراً له من أن يمر بين يديه (٢)» والاسطوانة والحائط والمصلى المفروش حد للمصلى فمن اجتاز به فينبغى أن يدفعه قال صلى الله عليه وسلم « ليدفعه فإن أبى فليدفعه فإن أبى فليقاتله فانه شيطان (٣)» وكان أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه يدفع من يمر بين يديه حتى يصرعه ، فربما تعلق به الرجل فاستعدى عند مروان فيخبره أن النبى صلى الله عليه وسلم أمره بذلك . فان لم يجد اسطوانة فلينصب بين يديه شيئا طوله قدر ذراع ليكون ذلك علامة لحده (السابع) أن يطلب الصف الأول فان فضله كثير كما رويناه وفى الحديث « من غسل واغتسل وبكر وابتكر ودنا من الإمام واستمع كان ذلك له كفارة لما بين الجمعتين وزيادة ثلاثة أيام (٤)» وفى لفظ آخر « غفر الله له إلى الجمعة الأخرى — وقد اشترط فى بعضها — ولم يتخط رقاب الناس(٥) » ولا يغفل فى طلب الصف الأول عن ثلاثة أمور ، أولها : أنه إذا كان يرى بقرب الخطيب منكرا يعجز عن تغييره — من لبس حرير من الإمام أو غيره أو صلى فى سلاح كثير ثقيل شاغل أو سلاح مذهب أو غير ذلك . مما يجب فيه الإنكار فالتأخير له أسلم وأجمع للهم ، فعل ذلك جماعة من العلماء طلبا للسلامة . قيل لبشر بن الحرث : نراك تبكر وتصلى فى آخر الصفوف ، فقال : إنما يراد قرب القلوب لاقرب الأجساد . وأشار به إلى أن ذلك اقرب لسلامة قلبه . ونظر سفيان الثورى إلى شعيب بن حرب عند المنبر يستمع إلى الخطبة من أبى جعفر المنصور فلما فرغ من الصلاة قال : شغل قلبى قربك من هذا هل أمنت أن تسمع كلاما يجب عليك إنكاره فلا تقوم به ؟ ثم ذكر ما أحدثوا من لبس السواد فقال : ياأبا عبد الله أليس فى الخبر « ادن واستمع (٦) » فقال : ويحك ذاك للخلفاء الراشدين المهديين ، فأما هؤلاء فكلما بعدت عنهم ولم تنظر إليهم كان أقرب إلى الله عز وجل . وقال سعيد بن عامر « صليت إلى جنب أبى الدرداء فجعل يتأخر فى الصفوف حتى كنا فى آخر صف ، فلما صلينا قلت له : أليس يقال خير الصفوف أولها ؟ قال : نعم إلا أن هذه الأمة مرحومة منظور إليها من بين الأمم(٧) فان الله تعالى إذا نظر إلى عبد فى الصلاة غفر له ولمن وراءه من الناس فانما تأخرت رجاء أن يغفر لى بواحد منهم ينظر الله إليه . وروى بعض الرواة أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذلك ، فمن تأخر على هذه النية إيثارا وإظهارا لحسن الخلق فلا بأس ، وعند هذا يقال « الأعمال بالنيات » ثانيها : إن لم تكن مقصورة عند الخطيب مقتطعة عن المسجد للسلاطين فالصف الأول محبوب وإلا فقد كره بعض العلماء دخول المقصورة ، كان الحسن وبكر المزنى لا يصليان فى المقصورة ورأيا أنها قصرت على السلاطين وهى بدعة أحدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المساجد والمسجد مطلق لجميع الناس وقد اقتطع ذلك على خلافه . وصلى أنس بن مالك

---

(١) « لأن يكون الرجل رماداً تذروه الرياح خير له من أن يمر بين يدى المصلى » أخرجه ابو نعيم فى تاريخ أصبهان وابن عبد البر فى التمهيد موقوفا على عبدالله بن عمر وزاد « متعمدا » . (٢) « لو يعلم المار بين يدى المصلى والمصلى ما عليهما فى ذلك ... » رواه هكذا أبو العباس محمد بن يحيى السراج فى مسنده من كلام زيد بن خالد بإسناد صحيح (٣) حديث أبى سعيد « فليدفعه فإن أبى فليقاتله فإنما هو شيطان » متفق عليه .

(٤) « من غسل واغتسل وبكر وابتكر ودنا من الإمام واستمع ... » أخرجه الحاكم من كلام أوس بن أوس وأصله عند أصحاب السنن . (٥) « أنه اشترط فى بعضها ولم يتخط رقاب الناس » أخرجه أبو داود وابن حبان والحاكم من كلام أبى سعيد وأبى هريرة وقال صحيح على شرط مسلم (٦) « ادن فاستمع » أخرجه أبو داود من كلام سمرة « احضروا الذكر وادنوا من الإمام » وتقدم بلفظ « من هجر ودنا واستمع » وهو عند أصحاب السنن من كلام شداد . (٧) حديث أبى الدرداء « إن هذه الأمة مرحومة منظور اليها من بين الأمم وإن الله إذا نظر إلى عبد فى الصلاة غفر له ولمن وراءه من الناس » ولم أجده

وعمران بن الحصين في المقصورة ولم يكرها ذلك لطلب القرب ، ولعل الكراهية تختص بحالة التخصيص والمنع فأما مجرد المقصورة إذا لم يكن منع فلا يوجد كراهة وثالثها : أن المنبر يقطع بعض الصفوف وإنما الصف الأول الواحد المتصل الذي في فناء المنبر وما على طرفيه مقطوع . وكان الثوري يقول : الصف الأول هو الخارج بين يدى المنبر وهو متجه لأنه متصل ولأن الجالس فيه يقابل الخطيب ويسمع منه ، ولا يبعد أن يقال الأقرب إلى القبلة هو الصف الأول ولا يراعى هذا المعنى . وتكره الصلاة في الأسواق والرحاب الخارجة عن المسجد ، وكان بعض الصحابة يضرب الناس ويقيمهم من الرحاب . (الثامن) أن يقطع الصلاة عند خروج الإمام ويقطع الكلام أيضاً بل يشتغل بجواب المؤذن ثم باستماع الخطبة ، وقد جرت عادة بعض العوام بالسجود عند قيام المؤذنين ولم يثبت له أصل في أثر ولا خبر ، ولكنه إن وافق سجود تلاوة فلا بأس بها للدعاء لأنه وقت فاضل ، ولا يحكم بتحريم هذا السجود فإنه لا سبب لتحريمه ، وقد روى عن على وعثمان رضى الله عنهما أنهما قالا : من استمع وأنصت فله أجران ومن لم يستمع وأنصت فله أجر ومن سمع ولغا فعليه وزران ومن لم يستمع ولغا فعليه وزر واحد ، وقال ﷺ : « من قال لصاحبه والإمام يخطب أنصت أو مه فقد لغا ومن لغا والإمام يخطب فلا جمعة له[(١)] » وهذا يدل على ان الإسكات ينبغى ان يكون باشارة أو رمى حصاة لا بالنطق . وفي حديث ابى ذر « انه لما سأل ابياً والنبى صلى الله عليه وسلم يخطب فقال : متى أنزلت هذه السورة ؟ فأومأ إليه أن اسكت ، فلما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له أبى : اذهب فلا جمعة لك ، فشكاه ابو ذر إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : صدق أبى[(٢)] » وإن كان بعيداً من الإمام فلا ينبغى ان يتكلم في العلم وغيره بل يسكت لأن كل ذلك يتسلسل ويفضى إلى هينمة حتى ينتهى إلى المستمعين ولا يجلس في حلقة من يتكلم فمن عجز من الاستماع بالبعد فلينصت فهو المستحب . وإذا كان تكره الصلاة في وقت خطبة الإمام فالكلام أولى بالكراهية . وقال على كرم الله وجهه : تكره الصلاة في أربع ساعات ، بعد الفجر وبعد العصر ونصف النهار والصلاة والإمام يخطب . (التاسع) أن يراعى في قدوة الجمعة ما ذكرناه في غيرها فاذا سمع قراءة الإمام لم يقرأ سوى الفاتحة ، فاذا فرغ من الجمعة قرأ «الحمد لله» سبع مرات قبل أن يتكلم وقل هو الله أحد والمعوذتين سبعاً سبعاً وروى بعض السلف أن من فعله عصم من الجمعة إلى الجمعة وكان حرزاً له من الشيطان . ويستحب أن يقول بعد الجمعة «اللهم يا غنى يا حميد يا مبدىء يا معيد يا رحيم يا ودود أغننى بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك » يقال من داوم على هذا الدعاء أغناه الله سبحانه عن خلقه ورزقه من حيث لا يحتسب . ثم يصلى بعد الجمعة ست ركعات ، فقد روى ابن عمر رضى الله عنهما أنه ﷺ كان يصلى بعد الجمعة ركعتين[(٣)] ، وروى أبو هريرة أربعاً[(٤)] . وروى على وعبد الله بن عباس رضى الله عنهم ستاً[(٥)] والكل صحيح في أحوال مختلفة ، والأكمل أفضل

---

(١) «من قال لصاحبه والإمام يخطب أنصت فقد لغا ومن لغا لا جمعة له» أخرجه الترمذى والنسائى عن أبى هريرة روى الترمذى قوله « ومن لغا فلا جمعة له » قال الترمذى حسن صحيح وهو في الصحيحين بلفظ « إذا قلت لصاحبك » أخرجه أبو داود من كلام على « من قال صه فقد لغا ومن لغا فلا جمعة له »

(٢) حديث أبى ذر « لما سأل أبيا والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب وقال متى أنزلت هذه السورة ... » أخرجه البيهقى وقال في المعرفة إسناده صحيح أخرجه أبو داود وابن ماجه من كلام أبى بن كعب بسند صحيح أن السائل له أبو الدرداء وأبو ذر ولأحمد من حديث أبى الدرداء أنه سأل أبيا ولابن حبان من حديث جابر أن السائل عبد الله ابن مسعود ولأبى يعلى من حديث جابر قال « قال سعد بن أبى وقاص لرجل : لا جمعة لك فقال له النبى صلى الله عليه وسلم لم ياسعد؟ فقال لأنه كان يتكلم وأنت تخطب فقال صدق سعد » (٣) حديث ابن عمر في الركعتين بعد الجمعة متفق عليه .

(٤) حديث أبى هريرة في الأربع ركعات بعد الجمعة أخرجه مسلم « إذا صلى أحدكم الجمعة فليصل بعدها أربعا » .

(٥) حديث على وعبد الله في صلاته ست ركعات بعد الجمعة أخرجه البيهقى مرفوعا من على وله موقوفا على ابن مسعود أربعا وأبو داود من حديث ابن عمر : كان إذا كان بمكة صلى بعد الجمعة ستا .

(العاشر) أن يلازم المسجد حتى يصلى العصر فإن أقام إلى المغرب فهو الأفضل . يقال من صلى العصر فى الجامع كان له ثواب الحج ومن صلى المغرب فله ثواب حجة وعمرة بأن لم يأمن التصنع ودخول الآفة عليه من نظر الخلق إلى اعتكافه أو خاف الخوض فيما لا يعنى فالأفضل أن يرجع إلى بيته ذاكراً الله عز وجل مفكرا فى آلائه شاكرا لله تعالى على توفيقه خائفا من تقصيره مراقبا لقلبه ولسانه إلى غروب الشمس حتى لا تفوته الساعة الشريفة . ولا ينبغى أن يتكلم فى الجامع وغيره من المساجد بحديث الدنيا قال صلى الله عليه وسلم « يأتى على الناس زمان يكون حديثهم فى مساجدهم أمر دنياهم ليس لله تعالى فيهم حاجة فلا تجالسوهم (١) » .

بيان الآداب والسنن الخارجة عن الترتيب السابق الذى يعم جميع النهار وهى سبعة أمور

(الأول) أن يحضر مجالس العلم بكرة أو بعد العصر ولا يحضر مجالس القصاص فلا خير فى كلامهم ولا ينبغى أن يخلو المريد فى جميع يوم الجمعة عن الخيرات والدعوات حتى توافيه الساعة الشريفة وهو فى خير ولا ينبغى أن يحضر الحلق قبل الصلاة . وروى عبدالله بن عمر رضى الله عنهما « أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن التحلق يوم الجمعة قبل الصلاة (٢) » إلا أن يكون عالما بالله يذكر بأيام الله ويفقه فى دين الله يتكلم فى الجامع بالغداة فيجلس إليه فيكون جامعا بين البكور وبين الاستماع واستماع العلم النافع فى الآخرة أفضل من اشتغاله بالنوافل فقد روى أبو ذر « إن حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة (٣) » قال أنس بن مالك فى قوله تعالى ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ اما إنه ليس بطلب دنيا ولكن عيادة مريض وشهود جنازة وتعلم علم وزيارة اخ فى الله عز وجل : وقد سمى الله عز وجل العلم فضلا فى مواضع قال تعالى ﴿ وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد آتينا داود منا فضلا ﴾ يعنى العلم فتعلم العلم فى هذا اليوم وتعليمه من افضل القربات ، والصلاة افضل من مجالس القصاص إذ كانوا يرونه بدعة ويخرجون القصاص من الجامع . بكر ابن عمر رضى الله عنهما إلى مجلسه فى المسجد الجامع فإذا قاص يقص فى موضعه فقال : قم عن مجلسى ! فقال : لااقوم وقد جلست وسبقتك إليه ، فأرسل ابن عمر إلى صاحب الشرطة فأقامه . فلو كان ذلك من السنة لماجازت إقامته فقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يقيمن احدكم اخاه من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا (٤) » وكان ابن عمر إذا قام الرجل له من مجلسه لم يجلس فيه حتى يعود إليه . وروى ان قاصا كان يجلس بفناء حجرة عائشة رضى الله عنها فأرسلت إلى ابن عمر : إن هذا قد آذانى بقصصه وشغلنى عن سبحتى ، فضربه ابن عمر حتى كسر عصاه على ظهره ثم طرده (الثانى) ان يكون حسن المراقبة للساعة الشريفة ففى الخبر المشهور « إن فى الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله عز وجل فيها شيئا إلا اعطاه (٥) » وفى خبر آخر « لا يصادفها عبد يصلى (٦) » واختلف فيها فقيل إنها عند طلوع الشمس وقيل عند الزوال وقيل مع الأذان إذا صعد الإمام المنبر واخذ فى الخطبة وقيل إذا قام

---

(١) « يأتى على أمتى زمن يكون حديثهم فى مساجدهم أمر دنياهم . . . » أخرجه البيهقى فى الشعب من كلام الحسن مرسلا وأسنده الحاكم من كلام أنس وصحح إسناده وأخرج ابن حبان نحوه من كلام ابن مسعود وقد تقدم

(٢) حديث عبد الله بن عمر فى «النهى عن التحلق يوم الجمعة» أخرجه أبو داود والنسائى ورواه ابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه من جده ولم أجده من كلام ابن عمر . (٣) حديث أبى ذر «حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة » تقدم فى العلم . (٤) « لا يقيمن أحدكم أخاه من مجلسه ... » متفق عليه من كلام ابن عمر .

(٥) « إن فى الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها شيئا إلا أعطاه » أخرجه الترمذى وابن ماجه من كلام عمرو بن عوف المزنى . (٦) « لا يصادفها عبد مصلى » متفق عليه من كلام أبى هريرة .

الناس إلى الصلاة وقيل آخر وقت العصر ـ أعنى وقت الاختيار ـ وقيل قبل غروب الشمس « وكانت فاطمة رضى الله عنها تراعى ذلك الوقت وتأمر خادمتها أن تنظر إلى الشمس فتؤذنها بسقوطها فتأخذ فى الدعاء والاستغفار إلى أن تغرب الشمس ، وتخبر بأن تلك الساعة هى المنتظرة وتؤثره عن أبيها صلى الله عليه وسلم وعليها [١] » وقال بعض العلماء : هى مبهمة فى جميع اليوم مثل ليلة القدر حتى تتوفر الدواعى على مراقبتها . وقيل إنها تنتقل فى ساعات يوم الجمعة كتنقل ليلة القدر وهذا هو الأشبه ، وله سر لا يليق بعلم المعاملة ذكره ولكن ينبغى أن يصدق بما قال صلى الله عليه وسلم « إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها [٢] » ويوم الجمعة من جملة تلك الأيام فينبغى أن يكون العبد فى جميع نهاره متعرضا لها بإحضار القلب وملازمة الذكر والنزوع عن وساوس الدنيا فعساه يحظى بشىء من تلك النفحات . وقد قال كعب الأحبار : إنها فى آخر ساعة من يوم الجمعة وذلك عند الغروب ، فقال أبو هريرة : وكيف تكون آخر ساعة وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يوافقها عبد يصلى ولات حين صلاة ؛ فقال كعب : ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم من قعد ينتظر الصلاة فهو فى الصلاة [٣] قال : بلى ، قال : فذلك صلاة ؟ فسكت أبو هريرة . وكان كعب مائلا إلى أنها رحمة من الله سبحانه للقائمين بحق هذا اليوم وأوان إرسالها عند الفراغ من تمام العمل . وبالجملة هذا وقت شريف مع وقت صعود الإمام المنبر فليكثر الدعاء فيهما (الثالث) يستحب أن يكثر الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا اليوم فقد قال صلى الله عليه وسلم « من صلى على فى يوم الجمعة ثمانين مرة غفر الله له ذنوب ثمانين سنة قيل يارسول الله كيف الصلاة عليك ؟ قال : تقول اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبى الأمى ، وتعقد واحدة ، وإن قلت اللهم صل على محمد وعلى آل محمد صلاة تكون لك رضاء ولحقه أداء وأعطه الوسيلة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته واجزه عنا ماهو أهله واجزه أفضل ما جازيت نبيا عن أمته وصل عليه وعلى جميع إخوانه من النبيين والصالحين يا أرحم الراحمين [٤] » تقول هذا سبع مرات فقد قيل من قالها فى سبع جمع فى كل جمعة سبع مرات وجبت له شفاعته صلى الله عليه وسلم . وإن أراد أن يزيد أتى بالصلاة المأثورة فقال « اللهم اجعل فضائل صلواتك ونوامى بركاتك وشرائف زكواتك ورأفتك ورحمتك وتحيتك على محمد سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين ورسول رب العالمين قائد الخير وفاتح البر ونبى الرحمة وسيد الأمة اللهم ابعثه مقاما محمودا تزلف به قربه وتقر به عينه يغبطه به الأولون والآخرون اللهم اعطه الفضل والفضيلة والشرف والوسيلة والدرجة الرفيعة والمنزلة الشامخة المنيفة اللهم أعط محمدا سؤله وبلغه مأموله واجعله أول شافع وأول مشفع اللهم عظم برهانه وثقل ميزانه وأبلج حجته وارفع فى أعلى المقربين درجته اللهم احشرنا فى زمرته واجعلنا من أهل شفاعته وأحينا على سنته وتوفنا على ملته

---

(١) قول فاطمة فى ساعة الجمعة أخرجه الدارقطنى فى العلل والبيهقى فى الشعب وعلته الاختلاف .

(٢) « إن لربكم فى أيام دهركم نفحات . . . » أخرجه الحكيم فى النوادر والطبرانى فى الأوسط من كلام محمد ابن مسلمة ولابن عبد البر فى التمهيد نحوه من كلام أنس ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الفرج من كلام أبى هريرة واختلف فى إسناده . (٣) «اختلاف كعب وأبى هريرة فى ساعة الجمعة وقول أبى هريرة سمعت رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول لا يوافقها عبد يصلى ولات حين صلاة فقال كعب ألم يقل عليه الصلاة والسلام من قعد ينتظر الصلاة فهو فى الصلاة » قلت وقع فى الإحياء أن كعبا هو القائل إنها آخر ساعة وليس كذلك وإنما هو عبد الله بن سلام وأما كعب فإنما قال إنها فى كل سنة مرة ثم رجع والحديث رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان من حديث أبى هريرة وابن ماجه ونحوه من حديث عبد الله بن سلام . (٤) « من صلى فى يوم الجمعة ثمانين مرة . . . » أخرجه الدارقطنى من رواية ابن المسيب قال أظنه من أبى هريرة وقال حديث غريب ، وقال ابن النعمان حديث حسن .

وأوردنا حوضه واسقنا بكأسه غير خزايا ولا نادمين ولا شاكين ولا مبدلين ولا فاتنين ولا مفتونين آمين يارب العالمين[١]» وعلى الجملة فكل ما أتى به من ألفاظ الصلاة ولو بالمشهورة فى التشهد كان مصلياً . وينبغى أن يضيف إليه الاستغفار فإن ذلك أيضاً مستحب فى هذا اليوم . (الرابع) قراءة القرآن فليكثر منه وليقرأ سورة الكهف خاصة . فقد روى عن ابن عباس وأبى هريرة رضى الله عنهما «أن من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أو يوم الجمعة أعطى نورا من حيث يقرؤها إلى مكة وغفر له إلى يوم الجمعة الأخرى وفضل ثلاثة أيام وصلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح وعوفى من الداء والدبيلة وذات الجنب والبرص والجذام وفتنة الدجال[٢] » ويستحب أن يختم القرآن فى يوم الجمعة وليلتها إن قدر ، وليكن ختمه القرآن فى ركعتى الفجر إن قرأ بالليل أو فى ركعتى المغرب أو بين الأذان والإقامة للجمعة فله فضل عظيم ، وكان العابدون يستحبون أن يقرءوا يوم الجمعة قل هو أحد ألف مرة . ويقال إن من قرأها فى عشر ركعات أو عشرين فهو أفضل من ختمة وكانوا يصلون على النبى صلى الله عليه وسلم ألف مرة وكانوا يقولون « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » ألف مرة وإن قرأ المسبعات الست فى يوم الجمعة أو ليلتها فحسن .وليس يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ سورا بأعيانها إلا فى يوم الجمعة وليلتها كان يقرأ فى صلاة المغرب ليلة الجمعة « قل يا أيها الكافرون . وقل هو أحد » وكان يقرأ فى صلاة العشاء الآخرة ليلة الجمعة : سورة الجمعة والمنافقين[٣] وروى أنه صلى الله عليه وسلم كان يقرؤهما فى ركعتى الجمعة .وكان يقرأ فى الصبح يوم الجمعة : سورة سجدة لقمان وسورة هل أتى على الإنسان[٤]. (الخامس) الصلوات يستحب إذا دخل الجامع أن لا يجلس حتى يصلى أربع ركعات يقرأ فيهن « قل هو أحـــد » مائتى مرة فى كل ركعة خمسين مرة[٥] فقد نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن من فعله لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له » ولا يدع ركعتى التحية وإن كان الإمام يخطب ولكن يخفف . أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك[٦] وفى حديث غريب « أنه صلى الله عليه وسلم سكت للدخل حتى صلاهما[٧] » فقال الكوفيون : إن سكت له الإمام صلاهما . ويستحب فى هذا اليوم أو فى ليلته أن يصلى أربع ركعات بأربع سور : الأنعام والكهف وطه ويس . فإن لم يحسن قرأ يس وسورة سجدة لقمان وسورة الدخان وسورة الملك . ولا يدع قراءة هذه الأربع سور فى ليلة الجمعة ففيها فضل كثير . ومن لا يحسن القرآن قرأ ما يحسن فهو له بمنزلة الختمة . ويكثر من قراءة سورة الإخلاص . ويستحب أن يصلى صلاة التسبيح ـ كما سيأتى فى باب التطوعات كيفيتها ـ لأنه صلى الله عليه وسلم قال لعمه العباس «صلها فى كل جمعة[٨]» وكان ابن عباس رضى الله عنهما لا يدع هذه الصلاة يوم الجمعة بعد الزوال

---

(١) « اللهم اجعل فضائل صلواتك ... » أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم من حديث ابن مسعود نحوه وسنده ضعيف وقفه على ابن مسعود (٢) حديث ابن عباس وأبى هريرة «من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أو يوم الجمعة ... » لم أجده من حديثهما (٢) «القراءة فى المغرب ليلة الجمعة قل يأيها الكافرون ، وقل هو الله أحد ، وفى عشائها الجمعة والمنافقين» أخرجه ابن حبان والبيهقى من حديث سمرة وفى ثقات ابن حبان المحفوظ عن سماك مرسلا قلت لا يصح مسنداً ولا مرسلا (٤) « القراءة فى الجمعة بالجمعة والمنافقين ، وفى صبح الجمعة بالسجدة وهل أتى » أخرجه مسلم من حديث ابن عباس وأبى هريرة (٥) « من دخل يوم الجمعة المسجد فصلى أربع ركعات يقرأ قل هو الله أحد مائتى مرة .. » أخرجه الخطيب فى الرواة عن مالك من حديث ابن عمر وقال غريب جداً .
(٦) «الأمر بالتخفيف فى التحية إذا دخل والأمام يخطب » أخرجه مسلم من حديث جابر والبخارى «الأمر بالركعتين» ولم يذكر التخفيف (٧) « سكوته صلى الله عليه وسلم عن الخطبة للداخل حتى فرغ من التحية » أخرجه الدارقطنى من حديث أنس وقال أسنده عبيد بن محمد ووهم فيه والصواب عن معتمر عن أبيه مرسلا . (٨) « صلاة التسبيح وقوله لعمه العباس صلها فى كل جمعة » أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن خزيمة والحاكم من حديث ابن عباس وقال العقيلى وغيره ليس فيها حديث صحيح .

وكان يخبر عن جلالة فضلها . والأحسن أن يجعل وقته إلى الزوال للصلاة وبعد يوم الجمعة إلى العصر لاستماع العلم وبعد العصر إلى المغرب للتسبيح والاستغفار . (السادس) الصدقة مستحبة فى هذا اليوم خاصة فإنها تتضاعف إلا على من سأل والإمام يخطب وكان يتكلم فى كلام الإمام فهذا مكروه . وقال صالح بن محمد : سأل مسكين يوم الجمعة والإمام يخطب ـ وكان إلى جانب أبى ـ فأعطى رجل أبى قطعة ليناوله إياها فلم يأخذها منه أبى . وقال ابن مسعود إذا سأل الرجل فى المسجد فقد استحق أن لا يعطى وإذا سأل على القرآن فلا تعطوه . ومن العلماء من كره الصدقة على السؤال فى الجامع الذين يتخطون رقاب الناس ؛ إلا أن يسأل قائما أو قاعداً فى مكانه من غير تخط . وقال كعب الأحبار : من شهد الجمعة ثم انصرف فتصدق بشيئين مختلفين من الصدقة ثم رجع فركع ركعتين يتم ركوعهما وسجودهما وخشوعهما ثم يقول : اللهم إنى أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم وباسمك الذى لا إله إلا الله هو الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، لم يسأل الله تعالى شيئا إلا أعطاه . وقال بعض السلف : من أطعم مسكينا يوم الجمعة ثم غدا وابتكر ولم يؤذ أحداً ثم قال حين يسلم الإمام « بسم الله الرحمن الرحيم الحى القيوم أسألك أن تغفر لى وترحمنى وتعافينى من النار » ثم دعا بما بدا له استجيب له (السابع) أن يجعل يوم الجمعة للآخرة فيكف فيه عن جميع أشغال الدنيا ويكثر فيه الأوراد ولا يبتدىء فيه السفر فقد روى « أنه متى سافر فى ليلة الجمعة دعا عليه ملكاه (١) » وهو بعد طلوع الفجر حرام إلا إذا كانت الرفقة تفوت وكره بعض السلف شراء الماء فى المسجد من السقا ليشربه أو يسبله حتى لا يكون مبتاعا فى المسجد مكروه وقالوا لا بأس لو أعطى القطعة خارج المسجد ثم شرب أو سبل فى المسجد . وبالجملة ينبغى أن يزيد فى الجمعة فى أوراده وأنواع خيراته فإن الله سبحانه وتعالى إذا أحب عبدا استعمله فى الأوقات الفاضلة بفواضل الأعمال وإذا مقته استعمله فى الأوقات الفاضلة بسىء الأعمال ليكون ذلك أوجع فى عقابه وأشد لمقته لحرمانه بركة الوقت وانتهاكه حرمة الوقت . ويستحب فى الجمعة دعوات ، وسيأتى ذكرها فى كتاب الدعوات إن شاء الله تعالى . وصلى الله على كل عبد مصطفى .

الباب السادس

فى مسائل متفرقة تعم بها البلوى ويحتاج المريد الى معرفتها

فأما المسائل التى تقع نادرة فقد استقصيناها فى كتب الفقه

مسألة الفعل القليل وإن كان لا يبطل الصلاة فهو مكروه إلا لحاجة وذلك فى دفع المار وقتل العقرب التى تخاف ويمكن قتلها بضربة أو ضربتين فإذا صارت ثلاثا فقد كثرت وبطلت الصلاة ، وكذلك القملة والبرغوث مهما تأذى بهما كان له دفعهما ، وكذلك حاجته إلى الحك الذى يشوش عليه الخشوع . كان معاذ يأخذ القملة والبرغوث فى الصلاة . وابن عمر كان يقتل القملة فى الصلاة حتى يظهر الدم على يده . وقال النخعى : يأخذها ويوهنها ولا شىء عليه إن قتلها . وقال ابن المسيب : يأخذها ويخدرها ثم يطرحها . وقال مجاهد : الأحب إلى أن يدعها إلا أن تؤذيه فتشغله عن صلاته فيوهنها قدر مالا تؤذى ثم يلقيها . وهذه رخصة وإلا فالكمال الاحتراز عن الفعل وإن قل . ولذلك كان بعضهم لا يطرد الذباب وقال : لا أعود نفسى ذلك فيفسد على صلاتى . وقد سمعت أن الفساق بين يدى

---

(١) «من سافر يوم الجمعة دعا عليه ملكاه» أخرجه الدارقطنى فى الإفراد من كلام ابن عمر وفيه ابن لهيعة وقال غريب والخطيب فى الرواة عن مالك من كلام أبى هريرة بسند ضعيف.

الملوك يصبرون على أذى كثير ولا يتحركون . ومهما تثاءب فلا بأس أن يضع يده على فيه وهو الأولى . وإن عطس حمد الله عز وجل فى نفسه ولا يحرك لسانه . وإن تجشأ فينبغى أن لا يرفع رأسه إلى السماء وإن سقط رداؤه فلا ينبغى أن يسويه وكذلك أطراف عمامته فكل ذلك مكروه إلا لضرورة .

(مسألة) الصلاة فى النعلين جائزة وإن كان نزع النعلين سهلا ، وليست الرخصة فى الخف لعسر النزع بل هذه النجاسة معفو عنها . وفى معناها المداس « صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نعليه ، ثم نزع فنزع الناس نعالهم فقال : لم خلعتم نعالكم ؟ قالوا : رأيناك خلعت فخلعنا فقال صلى الله عليه وسلم : إن جبرائيل عليه السلام أتانى فأخبرنى أن بهما خبثاً فإذا أراد أحدكم المسجد فليقلب نعليه ولينظر فيهما فإن رأى خبثاً فليمسحه بالأرض وليصل فيهما[1] » وقال بعضهم : الصلاة فى النعلين أفضل لأنه صلى الله عليه وسلم قال « لم خلعتم نعالكم؟ » وهذه مبالغة فإنه صلى الله عليه وسلم سألهم ليبين لهم سبب خلعه إذ علم أنهم خلعوا على موافقته . وقد روى عبد الله بن السائب « أن النبى صلى الله عليه وسلم خلع نعليه[2] » فإذن قد فعل كليهما فمن خلع فلا ينبغى أن يضعهما عن يمينه ويساره فيضيق الموضع ويقطع الصف بل يضعهما بين يديه ولا يتركهما وراءه فيكون قلبه ملتفتاً إليهما . ولعل من رأى الصلاة فيهما أفضل راعى هذا المعنى وهو التفات القلب إليهما . روى أبو هريرة رضى الله عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا صلى أحدكم فليجعل نعليه بين رجليه[3] » وقال أبو هريرة لغيره : اجعلهما بين رجليك ولا تؤذ بهما مسلما . ووضعهما رسول الله صلى الله عليه وسلم على يساره وكان إماما[4] فللإمام أن يفعل ذلك إذ لا يقف أحد على يساره . والأولى أن لا يضعهما بين قدميه فتشغلانه ولكن قدام قدميه ، ولعله المراد بالحديث . وقد قال جبير بن مطعم : وضع الرجل نعليه بين قدميه بدعة .

(مسألة) إذا بزق فى صلاته لم تبطل صلاته لأنه فعل قليل . ومالا يحصل به صوت لا يعد كلاما وليس على شكل حروف الكلام إلا أنه مكروه فينبغى أن يحترز منه إلا كما أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه إذ روى بعض الصحابة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى القبلة نخامة فغضب غضباً شديداً ثم حكها بعرجون كان فى يده وقال : ائتونى بعبير ، فلطخ أثرها بزعفران ثم التفت إلينا وقال : ايكم يحب ان يبزق فى وجهه ؟ فقلنا : لا أحد، قال: فإن احدكم إذا دخل فى الصلاة فإن الله عز وجل بينه وبين القبلة[5] » وفى لفظ آخر « واجهه الله تعالى فلا يبزقن احدكم تلقاء وجهه ولا عن يمينه ولكن عن شماله او تحت قدمه اليسرى فإن بدرته بادرة فليبصق فى ثوبه وليقل به هكذا ودلك بعضه ببعض » .

(مسألة) لوقوف المقتدى : سنة وفرض ، اما السنة : فأن يقف الواحد عن يمين الإمام متأخراً عنه قليلا ،

الباب السادس

(١) « صلى فى نعليه ثم نزع فنزع الناس نعالهم ... » أخرجه أحمد واللفظ لابن ماجه وأبو داود والحاكم وصححه من حديث أبى سعيد.

(٢) حديث عبد الله ابن السائب فى « خلع النبى صلى الله عليه وسلم نعليه » أخرجه مسلم .

(٣) حديث أبى هريرة « إذا صلى أحدكم فليجعل نعليه بين رجليه » أخرجه أبو داود بسند صحيح وضعفه المنذرى وليس بجيد .

(٤) «وضعه نعليه على يساره » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن السائب .

(٥) « رأى فى القبلة نخـــامة فغضب ... » أخرجه مسلم من حديث جابر واتفقا عليه مختصرا من حديث أنس وعائشة وأبى سعيد وأبى هريرة وابن عمر .

والمرأة الواحدة تقف خلف الامام ، فان وقفت بجنب الامام لم يضر ذلك ولكن خالفت السنة . فان كان معها رجل وقف الرجل عن يمين الامام وهى خلف الرجل . ولا يقف أحد خلف الصف منفرداً بل يدخل فى الصف أو يجر إلى نفسه واحداً من الصف . فإن وقف منفرداً صحت صلاته مع الكراهية . وأما الفرض : فاتصال الصف وهو أن يكون بين المقتدى والإمام رابطة جامعة فانهما فى جماعة فان كانا فى مسجد كفى ذلك جامعاً لأنه بنى له فلا يحتاج إلى اتصال صف بل إلى أن يعرف أفعال الإمام ، صلى ابو هريرة رضى الله عنه على ظهر المسجد بصلاة الإمام . وإذا كان المأموم على فناء المسجد فى طريق او صحراء مشتركة وليس بينهما اختلاف بناء مفرق فيكفى القرب بقدر غلوة سهم وكفى بها رابطة إذ يصل فعل احدهما إلى الآخر . وإنما يشترط إذا وقف فى صحن دار على يمين المسجد او يساره وبابها لاطىء فى المسجد فالشرط ان يمد صف المسجد فى دهليزها من غير انقطاع إلى الصحن . ثم تصح صلاة من فى ذلك الصف ومن خلفه دون من تقدم عليه وهكذا حكم الأبنية المختلفة ، فأما البناء الواحد والعرصة الواحدة فكالصحراء .

(مسألة) المسبوق إذا ادرك آخر صلاة الإمام فهو اول صلاته فليوافق الإمام وليبن عليه وليقنت فى الصبح فى آخر صلاة نفسه . وإن قنت مع الإمام وإن ادرك مع الإمام بعض القيام فلا يشتغل بالدعاء وليبدأ بالفاتحة وليخففها . فان ركع الإمام قبل تمامها وقدر على لحوقه قبل اعتداله من الركوع فليتم . فان عجز وافق الامام وركع وكان لبعض الفاتحة حكم جميعها فتسقط عنه بالسبق . وإن ركع الامام وهو فى السورة فليقطعها . وإن ادرك الامام فى السجود او التشهد كبر للاحرام ثم جلس ولم يكبر بخلاف ما إذا ادركه فى الركوع فانه يكبر ثانياً فى الهوى لأن ذلك انتقال محسوب له . والتكبيرات للانتقالات الأصلية فى الصلاة لا للعوارض بسبب القدوة . ولا يكون مدركاً للركعة ما لم يطمئن راكعاً فى الركوع والامام بعد فى حد الراكعين . فان لم يتم طمأنينته إلا بعد مجاوزة الامام حد الراكعين فاتته تلك الركعة .

(مسألة) من فاتته صلاة الظهر إلى وقت العصر فليصل الظهر أولا ثم العصر ، فإن ابتدأ بالعصر أجزأه ولكن ترك الأولى واقتحم شبهة الخلاف ، فان وجد إماما فليصل العصر ثم ليصل الظهر بعده فان الجماعة أولى بالأداء . فان صلى منفرداً فى أول الوقت ثم أدرك جماعة صلى فى الجماعة ونوى صلاة الوقت والله يحتسب أيهما شاء . فان نوى فائتة أو تطوعا جاز . وإن كان قد صلى فى الجماعة فأدرك جماعة أخرى فلينو الفائتة أو النافلة فاعادة المؤداة بالجماعة مرة أخرى لا وجه له وإنما احتمل ذلك لدرك فضيلة الجماعة .

(مسألة) من صلى ثم رأى على ثوبه نجاسة فالأحب قضاء الصلاة ولا يلزمه . ولو رأى النجاسة فى أثناء الصلاة رمى بالثوب وأتم والأحب الاستئناف . وأصل هذا قصة خلع النعلين حين أخبر جبرائيل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن عليهما نجاسة فانه صلى الله عليه وسلم لم يستأنف الصلاة .

(مسألة) من ترك التشهد الأول أو القنوت أو ترك الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التشهد الأول أو فعل فعلا سهواً وكانت تبطل الصلاة بتعمده أو شك فلا يدر أصلى ثلاثا أو أربعا : أخذ باليقين وسجد سجدتى السهو قبل السلام . فان نسى فبعد السلام مهما تذكر على القرب . فان سجد بعد السلام وبعد أن أحدث فانه لما دخل فى السجود كأنه جعل سلامه نسياناً فى غير محله فلا يحصل التحلل به ، وعاد إلى الصلاة فلذلك يستأنف السلام بعد السجود . فان تذكر سجود السهو بعد خروجه من المسجد أو بعد طول الفصل فقد فات .

(مسألة) الوسوسة فى نية الصلاة سببها خبل فى العقل أو جهل بالشرع ، لأن امتثال امر الله عز وجل مثل

امتثال أمر غيره وتعظيمه كتعظيم غيره فى حق القصد ومن دخل عليه عالم فقام له فلو قال: نويت أن أنتصب قائما تعظيما لدخول زيد الفاضل لأجل فضله مقبلا عليه بوجهى ؛ كان سفها فى عقله بل كما يراه ويعلم فضله تنبعث داعية التعظيم فتقيمه ويكون معظما إلا إذا قام لشغل آخر أو فى غفلة .

واشتراط كون الصلاة ظهرا أداء فرضا فى كونه امتثالا كاشتراط كون القيام مقرونا بالدخول مع الإقبال بالوجه على الداخل وانتفاء باعث آخر سواه . وقصد التعظيم به ليكون تعظيما . فإنه لو قام مدبرا عنه أو صبر فقام بعد ذلك بمدة لم يكن معظما . ثم هذه الصفات لابد وأن تكون معلومة وأن تكون مقصودة ثم لا يطول حضورها فى النفس فى لحظة واحدة وإنما يطول نظم الألفاظ الدالة عليها إما تلفظا باللسان وإما تفكرا بالقلب . فمن لم يفهم نية الصلاة على هذا الوجه فكأنه لم يفهم النية . فليس فيه إلا أنك دعيت إلى أن تصلى فى وقت فأجبت وقمت فالوسوسة محض الجهل . فإن هذه القصود وهذه العلوم تجتمع فى النفس فى حالة واحدة ولا تكون مفصلة الآحاد فى الذهن بحيث تطالعها النفس وتتأملها . وفرق بين حضور الشيء فى النفس وبين تفصيله بالفكر . والحضور مضاد للعزوب والغفلة ، وإن لم يكن مفصلا . فان من علم الحادث مثلا فيعلمه بعلم واحد فى حالة واحدة وهذا العلم يتضمن علوما هى حاضرة وإن لم تكن مفصلة فإن من علم الحادث فقد علم الموجود والمعلوم والتقدم والتأخر والزمان ، وأن التقدم للعدم وأن التأخر للوجود ؛ فهذه العلوم منطوية تحت العلم بالحادث ، بدليل أن العالم بالحادث إذا لم يعلم غيره لو قيل له هل علمت التقدم فقط أو التأخر أو العدم أو تقدم العدم أو تأخر الوجود أو الزمان المنقسم إلى المتقدم والمتأخر ؟ فقال ما عرفته قط كان كاذبا وكان قوله مناقضا لقوله : إنى أعلم الحادث .

ومن الجهل بهذه الدقيقة يثور الوسواس فإن الموسوس يكلف نفسه ان يحضر فى قلبه الظهرية والأدائية والفرضية فى حالة واحدة مفصلة بألفاظها وهو يطالعها وذلك محال . ولو كلف نفسه ذلك فى القيام لأجل العالم لتعذر عليه فبهذه المعرفة يندفع الوسواس وهو أن يعلم أن امتثال أمر الله سبحانه فى النية كامتثال أمر غيره .

ثم أزيد على سبيل التسهيل والترخص وأقول : لو لم يفهم الموسوس النية إلا بإحضار هذه الأمور مفصلة ولم يمثل فى نفسه الامتثال دفعة واحدة وأحضر جملة ذلك فى أثناء التكبير من أوله إلى آخره بحيث لا يفرغ من التكبير إلا وقد حصلت النية كفاه ذلك . ولا نكلفه أن يقرن الجميع بأول التكبير أو آخره فإن ذلك تكليف شطط . ولو كان مأمورا به لوقع للأولين سؤال عنه ولوسوس واحد من الصحابة فى النية ، فعدم وقوع ذلك دليل على أن الأمر على التساهل ، فكيفما تيسرت النيـــة للموسوس ينبغى أن يقنع به حتى يتعود ذلك وتفارقه الوسوسة ، ولا يطالب نفسه بتحقيق ذلك فان التحقيق يزيد فى الوسوسة . وقد ذكرنا فى الفتاوى وجوها من التحقيق فى تحقيق العلوم . والقصود المتعلقة بالنية تفتقر العلماء إلى معرفتها أما العامة فربما ضرها سماعها ويهيج عليها الوسواس فلذلك تركناها .

(مسألة) ينبغى أن لا يتقدم المأموم على الامام فى الركوع والسجود والرفع منهما ولا فى سائر الأعمال ولا ينبغى أن يساويه بل يتبعه ويقفو اثره فهذا معنى الاقتداء ، فان ساواه عمدا لم تبطل صلاته كما لو وقف بجنبه غير متأخر عنه . فإن تقدم عليه ففى بطلان صلاته خلاف ، ولا يبعد أن يقضى بالبطلان تشبيها بما لو تقدم فى الموقف على الإمام ؛ بل هذا أولى لأن الجماعة اقتداء فى الفعل لا فى الموقف فالتبعية فى الفعل أهم . وإنما شرط ترك التقدم فى الموقف تسهيلا للمتابعة فى الفعل وتحصيلا لصورة التبعية إذ اللائق بالمقتدى به أن يتقدم فالتقدم عليه فى الفعل لا وجه له إلا أن يكون سهوا . ولذلك شدد رسول الله صلى الله عليه وسلم النكير فيه فقال « أما يخشى

الذى يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار(١) » وأما التأخر عنه بركن واحد فلا يبطل الصلاة ، وذلك بأن يعتدل الإمام عن ركوعه وهو بعد لم يركع ولكن التأخر إلى هذا الحد مكروه فإن وضع الإمام جبهته على الأرض وهو بعد لم ينته إلى حد الراكعين بطلت صلاته . وكذا إن وضع الإمام جبهته للسجود الثانى وهو بعد لم يسجد السجود الأول .

(مسألة) حق على من حضر الصلاة إذا رأى من غيره إساءة فى صلاته أن يغيره وينكر عليه . وإن صدر من جاهل رفق بالجاهل وعلمه . فمن ذلك الأمر بتسوية الصفوف ومنع المنفرد بالوقوف خارج الصف ، والإنكار على من يرفع رأسه قبل الإمام إلى غير ذلك من الأمور . فقد قال صلى الله عليه وسلم «ويل للعالم من الجاهل حيث لا يعلمه(٢) » وقال ابن مسعود رضى الله عنه : من رأى من يسيء صلاته فلم ينهه فهو شريكه فى وزرها . وعن بلال ابن سعد أنه قال : الخطيئة إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها فإذا أظهرت فلم تغير أضرت بالعامة . وجاء فى الحديث « أن بلالا كان يسوى الصفوف ويضرب عراقيبهم بالدرة(٣) » وعن عمر رضى الله عنه قال : تفقدوا إخوانكم فى الصلاة فإذا فقدتموهم فإن كانوا مرضى فعودوهم وإن كانوا أصحاء فعاتبوهم . والعتاب إنكار على من ترك الجماعة ولا ينبغى أن يتساهل فيه . وقد كان الأولون يبالغون فيه حتى كان بعضهم يحمل الجنازة إلى بعض من تخلف عن الجماعة إشارة إلى أن الميت هو الذى يتأخر عن الجماعة دون الحى ومن دخل المسجد ينبغى أن يقصد يمين الصف : ولذلك تزاحم الناس عليه فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قيل له : تعطلت الميسرة فقال صلى الله عليه وسلم «من عمر ميسرة المسجد كان له كفلان من الأجر(٤) » ومهما وجد غلاما فى الصف ولم يجد لنفسه مكانا فله أن يخرجه إلى خلف ويدخل فيه ـ أعنى إذا لم يكن بالغا ـ وهذا ما أردنا أن نذكره من المسائل التى تعم بها البلوى . وسيأتى أحكام الصلوات المتفرقة فى كتاب الأوراد إن شاء الله تعالى .

الباب السابع : فى النوافل من الصلوات

اعلم أن ما عدا الفرائض من الصلوات ينقسم إلى ثلاثة أقسام : سنن ومستحبات وتطوعات . ونعنى بالسنن ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم المواظبة عليه كالرواتب عقيب الصلوات وصلاة الضحى والوتر والتهجد وغيرها ، لأن السنة عبارة عن الطريق المسلوكة . ونعنى بالمستحبات ما ورد الخبر بفضله ولم ينقل المواظبة عليه ـ كما سننقله فى صلوات الأيام والليالى فى الأسبوع ـ وكالصلاة عند الخروج من المنزل والدخول فيه وأمثاله . ونعنى بالتطوعات ما وراء ذلك مما لم يرد فى عينه أثر ولكنه تطوع به العبد من حيث رغب فى مناجاة الله عز وجل بالصلاة التى ورد الشرع بفضلها مطلقا ، فكأنه متبرع به إذا لم يندب إلى تلك الصلاة بعينها وإن ندب إلى الصلاة مطلقا ، والتطوع عبارة عن التبرع . وسميت الأقسام الثلاثة نوافل من حيث إن النفل هو الزيادة وجملتها زائدة على الفرائض . فلفظ : النافلة والسنة والمستحب والتطوع : أردنا الاصطلاح عليه لتعريف هذه المقاصد . ولا حرج على من يغير هذا الاصطلاح فلا مشاحة فى الألفاظ بعد فهم المقاصد . وكل قسم من هذه الأقسام تتفاوت درجاته فى

---

(١) « أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الإمام » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٢) « ويل للعالم من الجاهل ... » أخرجه صاحب مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف .

(٣) «أن بلالا كان يسوى الصفوف ويضرب عراقيبهم بالدرة » لم أجده .

(٤) «قيل له قد تعطلت الميسرة فقال من عمر ميسرة المسجد ...» أخرجه ابن ماجه من حديث عمر بسند ضعيف

الفضل بحسب ماورد فيها من الأخبار والآثار المعرفة لفضلها وبحسب طول مواظبة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها وبحسب صحة الأخبار الواردة فيها واشتهارها ، ولذلك يقال سنن الجماعات أفضل من سنن الانفراد . وأفضل سنن الجماعات : صلاة العيدثم الكسوف ثم الاستسقاء . وأفضل سنن الانفراد : الوتر ثم ركعتا الفجر ثم مابعدهما من الرواتب على تفاوتها . واعلم أن النوافل باعتبار الإضافة إلى متعلقاتها تنقسم إلى مايتعلق بأسباب كالكسوف والاستسقاء وإلى مايتعلق بأوقات ، والمتعلق بالأوقات ينقسم إلى مايتكرر بتكرر اليوم والليلة أو بتكرار الأسبوع أو بتكرار السنة فالجملة أربعة أقسام .

القسم الأول : مايتكرر بتكرر الايام والليالى وهى ثمانية

خمسة هى رواتب الصلوات الخمس، وثلاثة وراءها وهى صلاة الضحى وإحياء مابين العشاءين والتهجد

(الأولى) راتبة الصبح وهى ركعتانقال رسولالله صلى الله عليه وسلم «ركعتا الفجرخيرمن الدنيا ومافيها[١]» ويدخل وقتها بطلوع الفجر الصادق وهو المستطير دون المستطيل . وإدراك ذلك بالمشاهدة عسير فى أوله إلا أن يتعلم منازل القمر أو يعلم اقتران طلوعه بالكواكب الظاهرة للبصر . فيستدل بالكواكب عليه . ويعرف بالقمرفى ليلتين من الشهر فإن القمر يطلع مع الفجر ليلة ست وعشرين ، ويطلع الصبح مع غروب القمر ليلة اثنى عشر من الشهر هذا هو الغالب ، ويتطرق إليه تفاوت فى بعض البروج وشرح ذلك يطول . وتعلم منازل القمر من المهمات للمريد حتى يطلع به على مقادير الأوقات بالليل وعلى الصبح ، ويفوتوقت ركعتى الفجر بفواتوقت فريضة الصبحوهو طلوع الشمس ، ولكن السنة أداؤهما قبل الفرض . فإن دخل المسجد وقد قامت الصلاة فليشتغل بالمكتوبة فإنه صلى الله عليه وسلم قال « إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة[٢]» ثم إذا فرغمن المكتوبةقام إليهماوصلاهما والصحيح أنهما أداء ما وقعتا قبل طلوع الشمس لأنهما تابعتان للفرض فى وقته وإنما الترتيب بينهما سنة فى التقديم والتأخير إذا لم يصادف جماعة . فإذا صادف جماعة انقلب الترتيب وبقيتا أداء . والمستحب أن يصليهما فى المنزل ويخففهما ، ثم يدخل المسجد ويصلى ركعتين تحية المسجد ، ثم يجلس ولا يصلى إلى أن يصلى المكتوبة . وفيما بين الصبح إلى طلوع الشمس الأحب فيه الذكر والفكر والاقتصار على ركعتى الفجر والفريضة .

(الثانية) راتبة الظهر وهى ست ركعات : ركعتان بعدها وهى أيضاً سنة مؤكدة ، وأربع قبلها وهى أيضاً سنة وإن كانت دون الركعتين الأخيرتين. روى أبو هريرة رضى اللهعنه عنالنبىصلى الله عليه وسلم أنهقال «منصلى أربع ركعات بعد زوال الشمسيحسنقراءتهن وركوعهنوسجودهنصلى معه سبعون ألف ملك يستغفرونلهحتىالليل[٣]» وكان صلى الله عليه وسلم لايدع أربعا بعد الزوال يطيلهن ويقول إن أبواب السماء تفتح فى هـــذه الساعة فأحب أن يرفع لى فيها عمل[٤] » رواه أبو أيوب الأنصارى وتفرد به ، ودل عليه أيضا ماروت أم حبيبة زوج النبى صلى الله عليه وســـلم أنه قال « من صلى فى كل يوم اثنى عشرة ركعة غير المكتوبة بنى له بيت فى الجنة

الباب السابع

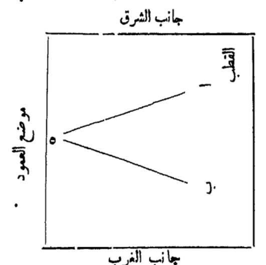
(١) « ركعتا الفجر خير من الدنيا ...» أخرجه مسلم من حديث عائشة .

(٢) « إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة .

(٣) حديث أبى هريرة «منصلى أربع ركعات بعد زوالالشمس يحسن قراءتهن ...»ذكره عبد الملك بن حبيب بلاغا من حديث ابن مسعود لم أره من حديث أبى هريرة .

(٤) حديث أبى أيوب «كان لايدع أربعا بعد الزوال ... » أخرجه أحمد بسند ضعيف نحوه وهو عند أبى داود وابن ماجه مختصرا وروى الترمذى نحوه من حديث عبد الله بن السائب وقال حسن .

ركعتين قبل الفجر وأربعا قبل الظهر وركعتين بعدها وركعتين قبل العصر وركعتين بعد المغرب[١]» وقال ابن عمر رضى الله عنهما : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل يوم عشر ركعات[٢] فذكر ماذكرته أم حبيبة رضى الله عنها إلا ركعتى الفجر فإنه قال : تلك ساعة لم يكن يدخل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن حدثتنى أختى حفصة رضى الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلى ركعتين فى بيتها ثم يخرج! . وقال فى حديثه : ركعتين قبل الظهر وركعتين بعد العشاء فصارت الركعتان قبل الظهر آكد من جملة الأربعة . ويدخل وقت ذلك بالزوال . والزوال يعرف بزيادة ظل الأشخاص المنتصبة مائلة إلى جهة الشرق ؛ إذ يقع للشخص ظل عند الطلوع فى جانب المغرب يستطيل فلا تزال الشمس ترتفع والظل ينقص وينحرف عن جهة المغرب إلى أن تبلغ الشمس منتهى ارتفاعها وهو قوس نصف النهار فيكون ذلك منتهى نقصان الظل . فإذا زالت الشمس عن منتهى الارتفاع أخذ الظل فى الزيادة فمن حيث صارت الزيادة مدركة بالحس دخل وقت الظهر . ويعلم قطعا أن الزوال فى علم الله سبحانه وقع قبله ولكن التكاليف لا ترتبط إلا بما يدخل تحت الحس . والقدر الباقى من الظل الذى منه يأخذ فى الزيادة يطول فى الشتاء ويقصر فى الصيف ، ومنتهى طوله بلوغ الشمس أول الجدى ، ومنتهى قصره بلوغها أول السرطان . ويعرف ذلك بالأقدام والموازين . ومن الطرق القريبة من التحقيق لمن أحسن مراعاته أن يلاحظ القطب الشمالى بالليل ويضع على الأرض لوحا مربعا وضعا مستويا بحيث يكون أحد أضلاعه من جانب القطب ، بحيث لو توهمت سقوط حجر من القطب إلى الأرض ثم توهمت خطا من مسقط الحجر إلى الضلع الذى يليه من اللوح لقام الخط على الضلع على زاويتين قائمتين أى لا يكون الخط مائلا إلى أحد الضلعين . ثم تنصب عموداً على اللوح نصباً مستوياً فى موضع علامة ه وهو بإزاء القطب فيقع ظله على اللوح فى أول النهار مائلا إلى جهة المغرب فى صوب خط ا ثم لا يزال يميل إلى أن ينطبق على خط ب ، بحيث لو مد رأسه لانتهى على الاستقامة إلى مسقط الحجر ، ويكون موازيا للضلع الشرقى والغربى غير مائل إلى أحدهما ، فإذا بطل ميله إلى الجانب الغربى فالشمس فى منتهى الارتفاع ، فإذا انحرف الظل عن الخط الذى على اللوح إلى جانب الشرق فقد زالت الشمس . وهذا يدرك بالحس تحقيقا فى وقت هو قريب من أول الزوال فى علم الله تعالى ، ثم يعلم على رأس الظل عند انحرافه علامة ، فإذا صار الظل من تلك العلامة مثل العمود دخل وقت العصر فهذا القدر لا بأس بمعرفته فى علم الزوال وهذه صورته .



(الثالثة) راتبة العصر وهى أربع ركعات قبل العصر . روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « رحم الله عبدا صلى قبل العصر اربعا[٣] » ففعل ذلك على رجاء الدخول فى دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم مستحب استحبابا مؤكدا فإن دعوته تستجاب لامحالة ولم تكن مواظبته على السنة قبل العصر كمواظبته على ركعتين قبل الظهر .

(الرابعة) راتبة المغرب وهما ركعتان بعد الفريضة لم

---

(١) حديث أم حبيبة « من صلى اثنتى عشر ركعة ... » أخرجه النسائى والحاكم وصحح إسناده على شرط مسلم ورواه مسلم مختصرا ليس فيه تعين أوقات الركعات .

(٢) حديث ابن عمر « حفظت من النبى صلى الله عليه وسلم فى كل يوم عشر ركعات ... » متفق عليه واللفظ للبخارى ولم يقل فى كل يوم (٣) حديث أبى هريرة « رحم الله عبداً صلى أربعاقبل العصر » أخرجه أبو داود والترمذى وابن حبان من حديث ابن عمر وأعله ابن القطان ولم أره من حديث أبى هريرة .

تختلف الرواية فيهما ، وأما ركعتان قبلها بين أذان المؤذن وإقامته على سبيل المبادرة فقد نقل عن جماعة من الصحابة كأبي بن كعب وعبادة بن الصامت وأبي ذر وزيد بن ثابت وغيرهم قال عبادة أو غيره : كان المؤذن إذا أذن لصلاة المغرب ابتدر أصحاب رسول الله ﷺ السواري يصلون ركعتين (١) . وقال بعضهم : كنا نصلى الركعتين قبل المغرب حتى يدخل الداخل فيحسب أنا صلينا(٢) فيسأل : أصليتم المغرب ؟ وذلك يدخل فى عموم قول النبي ﷺ « بين كل أذانين صلاة لمن شاء (٣) » وكان أحمد بن حنبل يصليهما فعابه الناس فتركهما ، فقيل له فى ذلك فقال : لم أر الناس يصلونهما ، فتركهما وقال : لئن صلاهما الرجل فى بيته أو حيث لا يراه الناس فحسن . ويدخل وقت المغرب بغيبوبة الشمس عن الأنظار فى الأراضى المستوية التى ليست محفوفة بالجبال فإن كانت محفوفة بها فى جهة المغرب فيتوقف إلى أن يرى إقبال السواد من جانب المشرق ، قال ﷺ : « إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا فقد أفطر الصائم (٤) » . والأحب المبادرة فى صلاة المغرب خاصة ، وإن أخرت وصليت قبل غيبوبة الشفق الأحمر وقعت أداء ولكنه مكروه . وأخر عمر رضى الله عنه صلاة المغرب ليلة حتى طلع نجم فأعتق رقبة وأخرها ابن عمر حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين . (الخامسة) راتبة العشاء الآخرة أربع ركعات بعد الفريضة . قالت عائشة رضى الله عنها : « كان رسول الله ﷺ يصلى بعد العشاء الآخرة أربع ركعات ثم ينام (٥) » . واختار بعض العلماء من مجموع الأخبار أن يكون عدد الرواتب سبع عشرة كعدد المكتوبة : ركعتان قبل الصبح ، وأربع قبل الظهر وركعتان بعدها وأربع قبل العصر وركعتان بعد المغرب وثلاث بعد العشاء الآخرة وهى الوتر(٦) ومهما عرفت الأحاديث الواردة فيه فلا معنى للتقدير ، فقد قال رسول الله ﷺ : « الصلاة خير موضع فمن شاء أكثر ومن شاء أقل(٧) » فإذا اختيار كل مريد من هذه الصلاة بقدر رغبته فى الخير فقد ظهر فيما ذكرناه أن بعضها آكد من بعض ، وترك الآكد أبعد لاسيما والفرائض تكمل بالنوافل فمن لم يستكثر منها يوشك أن لا تسلم له فريضة من غير جابر . (السادسة) : الوتر : قال أنس بن مالك : « كان رسول الله ﷺ يوتر بعد العشاء بثلاث ركعات ، يقرأ فى الأولى سبح اسم ربك الأعلى وفى الثانية قل يا أيها الكافرون وفى الثالثة قل هو الله أحد (٨) » وجاء فى الخبر : « أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلى بعد الوتر ركعتين جالساً وفى بعضها متربعا (٩) » . وفى بعض الأخبار : « إذا أراد أن يدخل فى فراشه زحف إليه وصلى فوقه ركعتين قبل أن يرقد فيهما إذا زلزلت الأرض وسورة التكاثر (١٠) » وفى رواية أخرى « قل يا أيها الكافرون » ويجوز الوتر موصولا ومفصولا ، بتسليمة

---

(١) قول عبادة أو غيره « فى ابتدار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم السوارى إذا أذن لصلاة المغرب » متفق عليه من حديث أنس لا من حديث عبادة ، وروى عبد الله بن أحمد فى زيادات المسند « أن أبى بن كعب وعبد الرحمن بن عوف كانا يركعان حين تغرب الشمس ركعتين قبل المغرب » . (٢) « كنا نصلى الركعتين قبل المغرب حتى يدخل الداخل فيحسب أنا صلينا » أخرجه مسلم من حديث أنس . (٣) « بين كل أذانين صلاة لمن شاء » متفق عليه من حديث عبد الله بن مغفل . (٤) « إذا قبل الليل من ههنا ... » متفق عليه من حديث عمر . (٥) قول عائشة « كان يصلى بعد العشاء الآخرة أربع ركعات ثم ينام » أخرجه أبو داود . (٦) « الوتر بثلاث بعد العشاء » أخرجه أحمد واللفظ له وللنسائى من حديث عائشة يوتر بثلاث لا يفصل بينهن » . (٧) « الصلاة خير موضع » أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه من كلام أبى ذر . (٨) قول أنس « كان يوتر بعد العشاء بثلاث ركعات يقرأ فى الأولى سبح ... » أخرجه ابن عدي فى ترجمة محمد بن أبان ورواه الترمذى والنسائى وابن ماجه من كلام ابن عباس بسند صحيح .

(٩) « كان يصلى بعد الوتر ركعتين جالسا » أخرجه مسلم من كلام عائشة .

(١٠) « إذا أراد أن يدخل فراشه زحف إليه ثم صلى ركعتين ... » أخرجه البيهقى من كلام أبى أمامه وأنس نحوه وضعفه وليس فيه « زحف إليه » ولا ذكر « ألهاكم التكاثر » .

واحدة وتسليمتين . وقد أوتر رسول الله ﷺ بركعة (١) وثلاث (٢) وخمس (٣) وهكذا بالأوتار (٤) إلى إحدى عشرة ركعة(٥) والرواية مترددة فى ثلاث عشرة(٦) وفى حديث شاذ «سبع عشرة ركعة(٧)» وكانت هذه الركعات - أعنى ما سمينا - جملتها وترا صلاة بالليل وهو التهجد والتهجد بالليل سنة مؤكدة - وسيأتى ذكر فضلها فى كتاب الأوراد - وفى الأفضل خلاف فقيل إن الإيتار بركعة فردة أفضل إذ صح أنه ﷺ كان يواظب على الإيتار بركعة فردة وقيل الموصولة أفضل للخروج عن شبهة الخلاف لاسيما الإمام إذ قد يقتدى به من لا يرى الركعة الفردة صلاة وإن صلى موصولا نوى بالجميع الوتر وإن اقتصر على ركعة واحدة بعد ركعتى العشاء أو بعد فرض العشاء نوى الوتر وصح . لأن شرط الوتر أن يكون فى نفسه وترا وأن يكون موترا لغيره مما سبق قبله وقد أوتر الفرض ولو أوتر قبل العشاء لم يصح ، أى لا ينال فضيلة الوتر الذى هو خير له من حمر النعم(٨) كما ورد به الخبر . وإلا فركعة فركعة صحيحة فى أى وقت كان وإنما لم يصح قبل العشاء لأنه خرق إجماع الخلق فى الفعل ولأنه لم يتقدم ما يصير به وترا . فأما إذا أراد أن يوتر بثلاث مفصولة ففى نيته فى الركعتين نظر . فإنه إن نوى بهما التهجد أو سنة العشاء لم يكن هو من الوتر . وإن نوى الوتر لم يكن هو فى نفسه وترا ، وإنما الوتر ما بعده . ولكن الأظهر أن ينوى الوتر كما ينوى فى الثلاث الموصولة الوتر . ولكن للوتر معنيان ، أحدهما : أن يكون فى نفسه وترا ، والآخر أن ينشأ ليجعله وترا بما بعده فيكون بمجموع الثلاثة وترا ، والركعتان من جملة الثلاث إلا أن وتريته موقوفة على الركعة الثالثة . وإذا كان هو على عزم أن يوترهما بثالثة كان له أن ينوى بهما الوتر . والركعة الثالثة وتر بنفسها وموترة لغيرها . والركعتان لا يوتران غيرهما وليستا وترا بأنفسهما ولكنهما موترتان بغيرهما . والوتر ينبغى أن يكون آخر صلاة الليل فيقع بعد التهجد . وسيأتى فضائل الوتر والتهجد وكيفية الترتيب بينهما فى كتاب ترتيب الأوراد . (السابعة) صلاة الضحى : فالمواظبة عليها من عزائم الأفعال وفواضلها ، أما عدد ركعاتها فأكثر ما نقل فيه ثمانى ركعات . روت أم هانىء أخت على بن أبى طالب رضى الله عنهما « أنه ﷺ صلى الضحى ثمانى ركعات أطالهن وأحسنهن(٩) » ولم ينقل هذا القدر غيرها . أما عائشة رضى الله عنها فذكرت « أنه ﷺ كان يصلى الضحى أربعا ويزيد ما شاء الله سبحانه (١٠) » فلم تحد الزيادة أى أنه كان يواظب على الأربعة ولا ينقص منها وقد يزيد زيادات . وروى فى حديث مفرد « أن النبى ﷺ كان يصلى الضحى ست ركعات (١١) » وأما وقتها فقد روى

---

(١) « الوتر بركعة » متفق عليه من حديث ابن عمر وهو لمسلم من حديث عائشة . (٢) «الوتر بثلاث » تقدم.

(٣) « الوتر بخمس » من حديث عائشة « يوتر من ذلك بخمس ولا يجلس فى شىء إلا فى آخرها » .

(٤) « الوتر بسبع » أخرجه مسلم وأبو داود والنسائى واللفظ له من حديث عائشة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كبر وضعف أوتر بسبع ركعات لا يقعد إلا فى السادسة ثم ينهض ولا يسلم فيصلى السابعة » حديث « الوتر تسع أخرجه مسلم من حديث عائشة وهو فى الذى قبله . (٥) « الوتر بإحدى عشرة أخرجه أبو داود بإسناد صحيح من حديث عائشة «كان يوتر بأربع وثلاث ، وست وثلاث ، وثمان وثلاث، وثلاث ... » ولمسلم من حديثها «كان يصلى بالليل إحدى عشرة ركعة ... » . (٦) « الوتر بثلاث عشرة » تقدم فى الذى قبله . وللترمذى والنسائى من حديث أم سلمة «كان يوتر بثلاث عشرة» وقال الترمذى حسن ، ولمسلم من حديث عائشة «كان يصلى من الليل ثلاث عشرة ركعة » زاد فى رواية « بركعتى الفجر » . (٧) « الوتر سبع عشرة » أخرجه ابن المبارك من حديث طاوس مرسلا «كان يصلى سبع عشرة ركعة من الليل » . (٨) «الوتر خير من حمر النعم» أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث خارجة بن حذافة « إن الله أمدكم بصلاة هى خير لكم من حمر النعم » وضعفه البخارى وغيره .

(٩) «قول أم هانىء صلى الضحى ثمانى ركعات أطالهن وأحسنهن» متفق عليه دون زيادة « أطالهن وأحسنهن » وهى منكرة . (١٠) قول عائشة «كان يصلى الضحى أربعة ويزيد ماشاء الله » أخرجه مسلم .

(١١) «كان يصلى الضحى ست ركعات » أخرجه الحاكم فى فضل صلاة الضحى من حديث جابر ورجاله ثقات .

على رضى الله عنه « أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلى الضحى ستا فى وقتين ، إذا أشرقت الشمس وارتفعت قام وصلى ركعتين — وهو أول الورد الثانى من أوراد النهار كما سيأتى — وإذا انبسطت الشمس وكانت فى ربع السماء من جانب الشرق صلى أربعا (١) » فالأول إنما يكون إذا ارتفعت الشمس قيد نصف رمح والثانى إذا مضى من النهار ربعه بإزاء صلاة العصر فإن وقته أن يبقى من النهار ربعه ، والظهر على منتصف النهار ، ويكون الضحى على منتصف ما بين طلوع الشمس إلى الزوال ، كما أن العصر على منتصف ما بين الزوال إلى الغروب . وهذا أفضل الأوقات ومن وقت ارتفاع الشمس إلى ما قبل الزوال وقت للضحى على الجملة . (الثامنة) إحياء ما بين العشاءين وهى سنة مؤكدة ومما نقل عدده من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بين العشاءين ست ركعات (٢) ولهذه الصلاة فضل عظيم . وقيل إنها المراد بقوله عز وجل ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى بين المغرب والعشاء فإنها من صلاة الأوابين (٣) » وقال صلى الله عليه « من عكف نفسه فيما بين المغرب والعشاء فى مسجد جماعة لم يتكلم إلا بصلاة أو بقرآن كان حقا على الله أن يبنى له قصرين فى الجنة مسيرة كل قصر منهما مائة عام ويغرس له بينهما غراسا لو طافه أهل الأرض لوسعهم (٤) » وسيأتى بقية فضائلها فى كتاب الأوراد إن شاء الله تعالى.

القسم الثانى ما يتكرر بتكرر الأسابيع

وهى صلوات أيام الأسبوع ولياليه لكل يوم ولكل ليلة

أما الأيام فنبدأ فيها بيوم الأحد . يوم الأحد : روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى يوم الأحد أربع ركعات يقرأ فى كل ركعة بفاتحة الكتاب وآمن الرسول مرة كتب الله له بعدد كل نصرانى ونصرانية حسنات وأعطاه الله ثواب نبى وكتب له حجة وعمرة وكتب له بكل ركعة ألف صلاة وأعطاه الله فى الجنة بكل حرف مدينة من مسك أذفر (٥) » وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « وحدوا الله بكثرة الصلاة يوم الأحد فإنه سبحانه واحد لا شريك له فمن صلى يوم الأحد بعد صلاة الظهر أربع ركعات بعد الفريضة والسنة يقرأ فى الأولى فاتحة الكتاب وتنزيل السجدة ، وفى الثانية فاتحة الكتاب وتبارك الملك ثم تشهد وسلم ثم قام فصلى ركعتين أخريين يقرأ فيهما فاتحة الكتاب وسورة الجمعة وسأل الله سبحانه حاجته كان حقا على الله أن يقضى حاجته (٦) » .

يوم الاثنين : روى جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى يوم الاثنين عند ارتفاع النهار ركعتين يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وآية الكرسى مرة وقل هو الله أحد والمعوذتين مرة مرة فإذا سلم

---

(١) « كان إذا أشرقت وارتفعت قام وصلى ركعتين وإذا انبسطت الشمس وكانت فى ربع النهار من جانب المشرق صلى أربعاً » أخرجه الترمذى والنسائى من حديث على كان نبى الله صلى الله عليه وسلم « إذا زالت الشمس من مطلعها قيد رمح أو رمحين كقدر صلاة العصر من مغربها صلى ركعتين ثم أمهل حتى إذا ارتفع الضحى صلى أربع ركعات » لفظ النسائى وقال الترمذى حسن (٢) « صلى بين العشاءين ست ركعات » أخرجه ابن منده فى الضحى والطبرانى فى الأوسط والأصغر من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف والترمذى وضعفه من حديث أبى هريرة « من صلى بعد المغرب ست ركعات لم يتكلم فيما بينهن بسوء عدلن له بعبادة ثنتى عشرة سنة » (٣) « من صلى بين المغرب والعشاء فإنها من صلاة الأوابين » أخرجه ابن المبارك فى الرقائق من رواية ابن المنذر مرسلا . (٤) « من عكف نفسه بين المغرب والعشاء فى مسجد جماعة » أخرجه أبو الوليد الصفار فى — كتاب الصلاة — من طريق عبد الملك بن حبيب بلاغا من حديث عبد الله بن عمر (٥) « من صلى يوم الأحد أربع ركعات ... » أخرجه أبو موسى المدينى من حديث أبى هريرة بسند ضعيف (٦) حديث على « وحدوا الله بكثرة الصلاة يوم الأحد ... » ذكره أبو موسى المدينى فيه بغير إسناد .

استغفر الله عشر مرات وصلى على النبي ﷺ عشر مرات غفر الله تعالى له ذنوبه كلها (١) » وروى أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال « من صلى يوم الاثنين ثنتى عشرة ركعة يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسى مرة فإذا فرغ قرأ قل هو الله أحد اثنتى عشرة مرة واستغفر اثنتى عشرة مرة ينادى به يوم القيامة : أين فلان بن فلان ليقم فليأخذ ثوابه من الله عز وجل ؟ فأول ما يعطى من الثواب الف حلة ويتوج ويقال له ادخل الجنة فيستقبله مائة ألف ملك مع كل ملك هدية يشيعونه حتى يدور على ألف قصر من نور يتلألأ (٢) » .

يوم الثلاثاء : روى يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك قال : « قال رسول الله ﷺ : من صلى يوم الثلاثاء عشر ركعات عند انتصاف النهار (٣) » وفى حديث آخر « عند ارتفاع النهار يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسى مرة وقل هو الله أحد ثلاث مرات لم تكتب عليه خطيئة إلى سبعين يوماً فإن مات إلى سبعين يوما مات شهيداً وغفر له ذنوب سبعين سنة » .

يوم الأربعاء : روى أبو إدريس الخولانى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : « قال رسول الله ﷺ من صلى يوم الأربعاء ثنتى عشرة ركعة عند ارتفاع النهار يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسى مرة وقل هو الله أحد ثلاث مرات والمعوذتين ثلاث مرات نادى مناد عند العرش : يا عبد الله استأنف العمل فقد غفر لك ما تقدم من ذنبك ، ورفع الله سبحانه عنك عذاب القبر وضيقه وظلمته ، ورفع عنك شدائد القيامة ، ورفع له من يومه عمل نبى (٤) » .

يوم الخميس : عن عكرمة عن ابن عباس قال : « قال رسول الله ﷺ : من صلى يوم الخميس بين الظهر والعصر ركعتين يقرأ فى الأولى فاتحة الكتاب وآية الكرسى مائة مرة ، وفى الثانية فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد مائة مرة ويصلى على محمد مائة مرة أعطاه الله ثواب من صام رجب وشعبان ورمضان وكان له من الثواب مثل حاج البيت وكتب له بعدد كل من آمن بالله سبحانه وتوكل عليه حسنة (٥) » .

يوم الجمعة : روى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « يوم الجمعة صلاة كله ما من عبد مؤمن قام إذا استقلت الشمس وارتفعت قدر رمح أو أكثر من ذلك فتوضأ ثم أسبغ الوضوء فصلى سبحة الضحى ركعتين إيماناً واحتساباً إلا كتب له مائتى حسنة ومحا عنه مائتى سيئة ، ومن صلى أربع ركعات رفع الله سبحانه له فى الجنة أربعمائة درجة ، ومن صلى ثمانى ركعات رفع الله تعالى له فى الجنة ثمانمائة درجة وغفر له ذنوبه كلها ومن صلى ثنتى عشرة ركعة كتب الله له ألفين ومائتا حسنة ومحا عنه ألفين ومائتى سيئة ورفع له فى الجنة ألفين ومائتى درجة (٦) » وعن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : من دخل الجامع يوم

---

(١) حديث جابر « من صلى يوم الإثنين عند ارتفاع النهار ركعتين ... » أخرجه أبو موسى المدينى من حديث جابر عن عمر مرفوعا وهو حديث منكر . (٢) حديث أنس « من صلى يوم الإنسان اثنتى عشرة ركعة ... » ذكره أبو موسى المدينى بغير سند وهو منكر (٣) حديث يزيد الرقاشى عن أنس « من صلى يوم الثلاثاء عشرة ركعات عند انتصاف النهار ... » أخرجه أبو موسى المدينى بسند ضعيف ولم يقل «عند انتصاف النهار ولا عند إرتفاعه» (٤) حديث أبى إدريس الخولانى عن معاذ « من صلى يوم الأربعاء اثنتى عشرة ركعة ... » أخرجه أبو موسى المدينى وقال رواته ثقات والحديث مركب . قلت : بل فيه غيرمسمى وهو محمدبن حميد الرازى أحد الكذابين (٥) حديث عكرمة عن ابن عباس « من صلى يوم الخميس بين الظهر والعصر ركعتين ... » أخرجه أبو موسى المدينى بسند ضعيف جدا (٦) حديث على «يوم الجمعة صلاة مامن عبد مؤمن قام إذا استقلت الشمس ... » لم أجد له أصلا وهو باطل

الجمعة فصلى أربع ركعات قبل صلاة الجمعة يقرأ فى كل ركعة الحمد الله وقل هو الله أحد خمسين مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له (١) » .

يوم السبت : روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال : « من صلى يوم السبت أربع ركعات يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد ثلاث مرات فإذا فرغ قرأ آية الكرسى كتب الله له بكل حرف حجة وعمرة ورفع له بكل حرف أجر سنة صيام نهارها وقيام ليلها وأعطاه الله عز وجل بكل حرف ثواب شهيد وكان تحت عرش الله مع النبيين والشهداء (٢) » .

وأما الليالى فليلة الأحد : روى أنس بن مالك فى ليلة الأحد أنه ﷺ قال : « من صلى ليلة الأحد عشرين ركعة يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد خمسين مرة والمعوذتين مرة مرة واستغفر الله عز وجل مائة مرة واستغفر لنفسه ولوالديه مائة مرة وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم مائة مره وتبرأ من حوله وقوته والتجأ إلى الله ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن آدم صفوة الله وفطرته وإبراهيم خليل الله وموسى كليم الله وعيسى روح الله ومحمداً حبيب الله كان له من الثواب بعدد من دعا لله ولدا ومن لم يدع لله ولدا وبعثه الله عز وجل يوم القيامة مع الآمنين ، وكان حقاً على الله أن يدخله الجنة مع النبيين(٣)» .

ليلة الاثنين : روى الأعمش عن أنس قال : « قال رسول الله ﷺ : من صلى ليلة الاثنين أربع ركعات يقرأ فى الركعة الأولى الحمد لله وقل هو الله أحد عشر مرات ، وفى الركعة الثانية الحمد لله وقل هو الله أحد عشرين مرة ، وفى الثالثة الحمد لله وقل هو الله أحد ثلاثين مرة ، وفى الرابعة الحمد لله وقل هو الله أحد أربعين مرة ثم يسلم ويقرأ قل هو الله أحد خمساً وسبعين مرة ، واستغفر الله لنفسه ولوالديه خمساً وسبعين مرة ثم سأل الله حاجته كان حقا على الله ان يعطيه سؤاله ما سأل (٤)» وهى تسمى صلاة الحاجة .

ليلة الثلاثاء : من صلى ركعتين يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وقل هو الله احد والمعوذتين خمس عشرة مرة ، ويقرأ بعد التسليم آية الكرسى خمس عشرة مرة واستغفر الله تعالى خمس عشرة مرة كان له ثواب عظيم واجر جسيم . روى عن عمر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « من صلى ليلة الثلاثاء ركعتين يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وإنا انزلناه وقل هو الله احد سبع مرات اعتق الله رقبته من النار ويكون يوم القيامة قائده ودليله إلى الجنة(٥) » .

ليلة الأربعاء : روت فاطمة رضى الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال : « من صلى ليلة الأربعاء ركعتين يقرأ فى الأولى فاتحة الكتاب وقل اعوذ برب الفلق عشر مرات ، وفى الثانية بعد الفاتحة قل اعوذ برب الناس عشر مرات

---

(١) حديث نافع عن ابن عمر « من دخل الجامع يوم الجمعة فصلى أربع ركعات ... » أخرجه الدارقطنى فى غرائب مالك وقال لايصح وعبد الله بن وصيف مجهول والخطيب فى الرواة عن مالك وقال غريب جدا ولا أعرف له وجها غيرهذا

(٢) حديث أبى هريرة « من صلى يوم السبت أربع ركعات . . . » أخرجه أبو موسى المدينى فى كتاب وظائف الليالى والأيام بسند ضعيف جداً . (٣) « من صلى ليلة الأحد عشرين ركعة ... » ذكره أبو موسى المدينى بغير إسناد وهو منكر وروى أبو موسى من حديث أنس « فى فضل الصلاة فيها ست ركعات وأربع ركعات » وكلاهما ضعيف جدا

(٤) « الأعمش عن أنس « من صلى ليلة الاثنين أربع ركعات ... » ذكره أبو موسى المدينى هكذا عن الأعمش بغير إسناد وأسند من رواية يزيد الرقاشى عن أنس حديثا « فى صلاة ست ركعات فيها » وهو منكر .

(٥) « الصلاة فى ليلة الثلاثاء ركعتين ... » ذكره أبو موسى بغير إسناد حكاية عن بعض المصنفين وأسند من حديث ابن مسعود وجابر حديثا « فى صلاة أربع ركعات فيها » وكلها منكرة .

ثم إذا سلم استغفر الله عشر مرات ثم يصلى على محمد صلى الله عليه وسلم عشر مرات نزل من كل سماء سبعون ألف ملك يكتبون ثوابه إلى يوم القيامة(١)» وفى حديث آخر « ست عشرة ركعة يقرأ بعد الفاتحة ما شاء الله ويقرأ فى آخر الركعتين آية الكرسى ثلاثين مرة وفى الأوليين ثلاثين مرة قل هو الله أحد يشفع فى عشرة من أهل بيته كلهم وجبت عليهم النار » روت فاطمة رضى الله عنها « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من صلى ليلة الأربعاء ست ركعات قرأ فى ركعة بعد الفاتحة قل اللهم مالك الملك إلى آخر الآية فإذا فرغ من صلاته يقول جزى الله محمداً عنا ما هو أهله غفر له ذنوب سبعين سنة وكتب له براءة من النار(٢)» .

ليلة الخميس : قال أبو هريرة رضى الله « قال النبى صلى الله عليه وسلم : من صلى ليلة الخميس ما بين المغرب والعشاء ركعتين يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسى خمس مرات وقل هو الله أحد خمس مرات والمعوذتين خمس مرات فإذا فرغ من صلاته استغفر الله تعالى خمس عشر مرة وجعل ثوابه لوالديه فقد أدى حق والديه عليه وإن كان عاقا لهما ، وأعطاه الله تعالى ما يعطى الصديقين والشهداء(٣) » .

ليلة الجمعة : قال جابر « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى ليلة الجمعة بين المغرب والعشاء اثنتى عشرة ركعة يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد إحدى عشرة مرة فكأنما عبد الله تعالى اثنتى عشرة سنة صيام نهارها وقيام ليلها (٤) » وقال أنس « قال النبى صلى الله عليه وسلم : من صلى ليلة الجمعة صلاة العشاء الآخرة فى جماعة وصلى ركعتى السنة ثم صلى بعدهما عشر ركعات قرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد والمعوذتين مرة مرة ثم أوتر بثلاث ركعات ونام على جنبه الأيمن ووجهه إلى القبلة فكأنما أحيا ليلة القدر (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « أكثروا من الصلاة على فى الليلة الغراء واليوم الأزهر ليلة الجمعة ويوم الجمعة (٦) » .

ليلة السبت : قال أنس « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى ليلة السبت بين المغرب والعشاء اثنتى عشرة ركعة بنى له قصر فى الجنة وكأنما تصدق على كل مؤمن ومؤمنة ، وتبرأ من اليهود ، وكان حقاً على الله أن يغفر له (٧) » .

القسم الثالث : ما يتكرر بتكرر السنين

وهى أربعة : صلاة العيدين والتراويح وصلاة رجب وشعبان (الأولى) صلاة العيدين : وهى سنة مؤكدة وشعار من شعائر الدين وينبغى أن يراعى فيها سبعة أمور ، الأول : التكبير ثلاثاً نسقاً فيقول «الله أكبر الله أكبر

---

(١) « من صلى ليلة الأربعاء ركعتين ... » لم أجد فيه إلا حديث جابر « فى صلاة أربع ركعات فيها » ورواه أبو موسى المدينى وروى من حديث أنس « ثلاثين ركعة » . (٢) حديث فاطمة «من صلى ست ركعات - أى ليلة المغرب والعشاء ركعتين ... » أخرجه أبو موسى المدينى بسند ضعيف جدا . (٣) حديث أبى هريرة « من صلى ليلة الخميس مابين المغرب والعشاء ركعتين ... » أخرجه أبو موسى المدينى وأبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف جدا وهو منكر . (٤) حديث جابر « من صلى ليلة الجمعة بين المغرب والعشاء اثنتى عشرة ركعة ... » باطل لا أصل له . (٥) حديث أنس « من صلى ليلة الجمعة العشاء الآخرة فى جماعة وصلى ركعتى السنة ثم صلى بعدها عشر ركعات ... » باطل لا أصل له وروى المظفر بن الحسين الأرجانى فى كتاب فضائل القرآن وإبراهيم بن المظفر فى كتاب وصول القرآن للميت من حديث أنس « من صلى ركعتين ليلة الجمعة قرأ فيهما بفاتحة الكتاب وإذا زلزلت خمسة عشر مرة » وقال إبراهيم بن المظفر « خمسين مرة أمنه الله من عذاب القبر ومن أهوال يوم القيامة» ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من هذا الوجه ومن حديث ابن عباس أيضا وكلها ضعيفة منكرة وليس يصح فى أيام الاسبوع ولياليه شىء والله أعلم . (٦) « أكثروا على من الصلاة فى الليلة الغراء واليوم الأزهر » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى هريرة وفيه عبد المنعم بن بشير ضعفه ابن معين وابن حبان . (٧) حديث أنس « من صلى ليلة السبت بين المغرب والعشاء اثنتى عشرة ركعة ... » لم أجد له أصلا.

الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا لاإله إلا الله وحده لاشريك له مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » يفتتح بالتكبير ليلة الفطر إلى الشروع فى صلاة العيد ، وفى العيد الثانى يفتتح التكبير عقيب الصبح يوم عرفة إلى آخر النهار يوم الثالث عشر ، وهذا أكمل الأقاويل . ويكبر عقيب الصلوات المفروضة وعقيب النوافل وهو عقيب الفرائض آكد . الثانى : إذا أصبح يوم العيد يغتسل ويتزين ويتطيب كما ذكرناه فى الجمعة والرداء والعمامة هو الأفضل للرجال ، وليجنب الصبيان الحرير والعجائز التزين عند الخروج . الثالث : أن يخرج من طريق ويرجع من طريق آخر (١) هكذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان صلى الله عليه وسلم « يأمر بإخراج العواتق وذوات الخدور (٢) » . الرابع : المستحب الخروج إلى الصحراء إلا بمكة وبيت المقدس ، فإن كان يوم مطر فلا بأس بالصلاة فى المسجد ، ويجوز فى يوم الصحو أن يأمر الإمام رجلا يصلى بالضعفة فى المسجد ويخرج بالأقوياء مكبرين . الخامس : يراعى الوقت فوقت صلاة العيد ما بين طلوع الشمس إلى الزوال ووقت الذبح للضحايا من ما بين ارتفاع الشمس بقدر خطبتين وركعتين إلى آخر اليوم الثالث عشر . ويستحب تعجيل صلاة الأضحى لأجل الذبح وتأخير صلاة الفطر لأجل تفريق صدقة الفطر قبلها . هذه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) . السادس : فى كيفية الصلاة فليخرج الناس مكبرين فى الطريق . وإذا بلغ الإمام المصلى لم يجلس ولم يتنفل ويقطع الناس التنفل ، ثم ينادى مناد : الصلاة جامعة . ويصلى الإمام بهم ركعتين يكبر فى الأولى سوى تكبيرة الإحرام والركوع سبع تكبيرات يقول بين كل تكبيرتين « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » ويقول « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض » عقب تكبيرة الافتتاح ويؤخر الاستعاذة إلى ما وراء الثامنة ويقرأ « سورة ق » فى الأولى بعد الفاتحة « واقتربت » فى الثانية . والتكبيرات الزائدة فى الثانية خمس سوى تكبيرتى القيام والركوع . وبين كل تكبيرتين ما ذكرناه . ثم يخطب خطبتين بينهما جلسة ومن فاتته صلاة العيد قضاها . السابع : أن يضحى بكبش « ضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين وذبح بيده وقال : بسم الله والله أكبر هذا عنى وعمن لم يضح من أمتى (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « من رأى هلال ذى الحجة وأراد أن يضحى فلا يأخذ من شعره ولا من أظفاره شيئاً (٥) » قال أبو أيوب الأنصارى : كان الرجل يضحى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشاة عن أهل بيته ويأكلون ويطعمون (٦) . وله أن يأكل من الضحية بعد ثلاثة أيام فما فوق ، ووردت فيه الرخصة بعد النهى عنه . وقال سفيان الثورى : يستحب أن يصلى بعد عيد الفطر اثنتى عشرة ركعة وبعد عيد الأضحى ست ركعات (٧) وقال هو من السنة . (الثانية) التراويح : وهى

---

(١) « الخروج فى العيد فى طريق والرجوع فى أخرى » أخرجه مسلم من حديث أبى هريره .

(٢) « كان يأمر بإخراج العواتق وذوات الخدور » متفق عليه من حديث أم عطية.

(٣) « تعجيل صلاة الأضحى وتأخير صلاة الفطر » أخرجه الشافعى من رواية أبى الحويرث مرسلا « أن النبى عليه الصلاة والسلام كتب إلى عمرو بن حزم وهو بنجران أن عجل الأضحى وأخر الفطر » .

(٤) « ضحى بكبشين أملحين وذبح بيده وقال : بسم الله والله أكبر هذا عنى وعمن لم يضح من أمتى » متفق عليه دون قوله «عنى» الخ من حديث أنس وهذه الزيادة عند أبى داود والترمذى من حديث جابر وقال الترمذى غريب ومنقطع.

(٥) « من رأى هلال ذى الحجة وأرد أن يضحى فلا يأخذ منى شعره وأظفاره » أخرجه من حديث أم سلمة .

(٦) حديث أبى أيوب « كان الرجل يضحى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الشاة عن أهله فيأكلون ويطعمون» أخرجه الترمذى وابن ماجه قال الترمذى حسن صحيح . (٧) قال سفيان الثورى : من السنة أن يصلى بعد الفطر اثنتى عشرة ركعة وبعد الأضحى ست ركعات . لم أجد له أصلا فى كونه سنة وفى الحديث الصحيح مايخالفه وهو أنه صلى الله عليه وسلم لم يصل قبلها ولا بعدها وقد اختلفوا فى قول التابعى كذا ،وأما قول تابعى التابع كذلك كالثورى فهو مقطوع.

عشرون ركعة وكيفيتها مشهورة ، وهي سنة مؤكدة وإن كانت دون العيدين ، واختلفوا في أن الجماعة فيها أفضل أم الانفراد ؟ وقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ليلتين أو ثلاثاً للجماعة ثم لم يخرج ، وقال : « أخاف أن توجب عليكم (١) » . وجمع عمر رضي الله عنه الناس عليها في الجماعة حيث أمن من الوجوب بانقطاع الوحي فقيل إن الجماعة أفضل لفعل عمر رضي الله عنه ، ولأن الاجتماع بركة وله فضيلة بدليل الفرائض ، ولأنه ربما يكسل في الانفراد ، وينشط عند مشاهدة الجمع . وقيل الانفراد أفضل لأن هذه سنة ليست من الشعائر كالعيدين فإلحاقها بصلاة الضحى وتحية المسجد أولى ، ولم يشرع فيها جماعة . وقد جرت العادة بأن يدخل المسجد جمع معاً ثم لم يصلوا التحية بالجماعة ، ولقوله صلى الله عليه وسلم : « فضل صلاة التطوع في بيته على صلاته في المسجد كفضل صلاة المكتوبة في المسجد على صلاتها في البيت (٢) » . وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « صلاة في مسجدي هذا أفضل من مائة صلاة في غيره من المساجد ، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من ألف صلاة في مسجدي ، وأفضل من ذلك كله رجل يصلي في زاوية بيته ركعتين لا يعلمهما إلا الله عز وجل (٣) » وهذا لأن الرياء والتصنع ربما يتطرق إليه في الجمع ويأمن منه في الوحدة ، فهذا ما قيل فيه . والمختار أن الجماعة أفضل كما رآه عمر رضي الله عنه . فإن بعض النوافل قد شرعت فيها الجماعة ، وهذا جدير بأن يكون من الشعائر التي تظهر . وأما الالتفات إلى الرياء في الجمع والكسل في الانفراد عدول عن مقصود النظر في فضيلة الجمع من حيث إنه جماعة ، وكأن قائله يقول : الصلاة خير من تركها بالكسل والإخلاص خير من الرياء . فلنفرض المسألة فيمن يثق بنفسه أنه لا يكسل لو انفرد ولا يرائي لو حضر الجمع فأيهما أفضل له ؟ فيدور النظر بين بركة الجمع وبين مزيد قوة الإخلاص وحضور القلب في الوحدة ، فيجوز أن يكون في تفضيل أحدهما على الآخر تردد ، ومما يستحب القنوت في الوتر في النصف الأخير من رمضان . أما صلاة رجب : فقد روى بإسناد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما من أحد يصوم أول خميس من رجب ثم يصلي فيما بين العشاء والعتمة اثنتي عشرة ركعة يفصل بين كل ركعتين بتسليمة يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب مرة وإنا أنزلناه في ليلة القدر ثلاث مرات وقل هو الله أحد اثنتي عشرة مرة ، فإذا فرغ من صلاته صلى علي سبعين مرة يقول : اللهم صل على محمد النبي الأمي وعلى آله ثم يسجد ويقول في سجوده سبعين مرة : سبوح قدوس رب الملائكة والروح ، ثم يرفع رأسه ويقول سبعين مرة : رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم ، ثم يسجد سجدة أخرى ويقول فيها مثل ما قال في السجدة الأولى ثم يسأل حاجته في سجوده فإنها تقضى (٤) » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يصلي أحد هذه الصلاة إلا غفر له

---

(١) « خروجه لقيام رمضان ليلتين أو ثلاثا ثم لم يخرج وقال أخاف أن توجب عليكم » متفق عليه من حديث عائشة بلفظ « خشيت أن تفرض عليكم » . (٢) « فضل صلاة التطوع في بيته على صلاته في المسجد كفضل صلاة المكتوبة في المسجد على صلاته في البيت » رواه آدم بن أبي إياس في كتاب القوات من كلام ضمرة بن حبيب مرسلا ورواه ابن أبي شيبة في المصنف فجعله عن ضمرة بن حبيب عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم موقوفا وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح من حديث زيد بن ثابت صلاة المرء في بيته أفضل من صلاته في مسجدي هذا إلا المكتوبة .

(٣) « صلاة في مسجدي هذا أفضل من مائة صلاة في غيره وصلاة في المسجد الحرام أفضل من ألف صلاة في مسجدي وأفضل من هذا كله رجل يصلي ركعتين في زاوية بيته لا يعلمهما إلا الله » أخرجه أبو الشيخ في الثواب من حديث أنس « صلاة في مسجدي تعدل بعشرة آلاف صلاة وصلاة في المسجد الحرام تعدل بمائة ألف صلاة والصلاة بأرض الرباط تعدل بألفي ألف صلاة وأكثر من ذلك كله الركعتان يصليهما العبد في جوف الليل لا يريد بهما إلا وجه الله عز وجل » وإسناده ضعيف وذكر أبو الوليد الصفار في كتاب الصلاة تعليقا من حديث الأوزاعي قال : دخلت على يحيى فأسند لي حديثا فذكره ، إلا أنه قال في الأولى « ألف » وفي الثانية « مائة » . (٤) « ما من أحد يصوم أول خميس من رجب ... » في صلاة الرغائب أورده رزين في كتابه وهو حديث موضوع .

الله تعالى له جميع ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر وعدد الرمل ووزن الجبال وورق الأشجار ويشفع يوم القيامة فى سبعمائة من أهل بيته ممن قد استوجب النار » فهذه صلاة مستحبة ، وإنما أوردناها فى هذا القسم لأنها تتكرر بتكرر السنين وإن كانت رتبتها لاتبلغ رتبة التراويح وصلاة العيد لأن هذه الصلاة نقلها الآحاد ، ولكنى رأيت أهل القدس بأجمعهم يواظبون عليها ولا يسمحون بتركها فأحببت إيرادها . وأما صلاة شعبان : فليلة الخامس عشر منه يصلى مائة ركعة كل ركعتين بتسليمة يقرأ فى كل ركعة بعد الفاتحة قل هو الله أحد إحدى عشرة مرة ، وإن شاء صلى عشر ركعات يقرأ فى كل ركعة بعد الفاتحة مائة مرة قل هو الله أحد ، فهذا أيضا مروى فى جملة الصلوات كان السلف يصلون هذه الصلاة ويسمونها صلاة الخير ويجتمعون فيها وربما صلوها جماعة . روى عن الحسن أنه قال : حدثنى ثلاثون من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أن من صلى هذه الصلاة فى هذه الليلة نظر الله إليه سبعين نظرة وقضى له بكل نظرة سبعين حاجة أدناها المغفرة (١) .

القسم الرابع من النوافل : مايتعلق بأسباب عارضة ولا يتعلق بالمواقيت وهى تسعة

صلاة الخسوف والكسوف والاستسقاء وتحية المسجد وركعتى الوضوء وركعتين بين الأذان والإقامة وركعتين عند الخروج من المنزل والدخول فيه . ونظائر ذلك فنذكر منها ما يحضرنا الآن (الأولى) صلاة الخسوف : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله والصلاة (٢) » قال ذلك لما مات ولده إبراهيم صلى الله عليه وسلم وكسفت الشمس فقال الناس : إنما كسفت لموته . والنظر فى كيفيتها ووقتها ، أما الكيفية : فإذا كسفت الشمس فى وقت الصلاة فيه مكروهة أو غير مكروهة نودى «الصلاة جامعة» وصلى الإمام بالناس فى المسجد ركعتين وركع فى كل ركعة ركوعين أوائلهما أطول من أواخرهما . ولا يجهر فيقرأ فى الأولى من قيام الركعة الأولى الفاتحة والبقرة ، وفى الثانية الفاتحة وآل عمران ، وفى الثالثة الفاتحة وسورة النساء ، وفى الرابعة الفاتحة وسورة المائدة ، أو مقدار ذلك من القرآن من حيث أراد . ولو اقتصر على الفاتحة فى كل قيام أجزأه ولو اقتصر على سور قصار فلا بأس . ومقصود التطويل دوام الصلاة إلى الانجلاء . ويسبح فى الركوع الأول قدر مائة آية ، وفى الثانى قدر ثمانين ، وفى الثالث قدر سبعين ، وفى الرابع قدر خمسين . وليكن السجود على قدر الركوع فى كل ركعة . ثم يخطب خطبتين بعد الصلاة بينهما جلسة ويأمر الناس بالصدقة والعتق والتوبة . وكذلك يفعل بخسوف القمر إلا أنه يجهر فيها لأنها ليلية . فأما وقتها فعند ابتداء الكسوف إلى تمام الانجلاء ويخرج وقتها بأن تغرب الشمس كاسفة . وتفوت صلاة خسوف القمر بأن يطلع قرص الشمس إذ يبطل سلطان الليل ولا تفوت بغروب القمر خاسفاً لأن الليل كله سلطان القمر فإن انجلى فى أثناء الصلاة أتمها مخففة . ومن أدرك الركوع الثانى مع الإمام فقد فاتته تلك الركعة لأن الأصل هو الركوع الأول (الثانية) صلاة الاستسقاء : فإذا غارت الأنهار وانقطعت الأمطار أو انهارت قناة فيستحب للإمام أن يأمر الناس أولا بصيام ثلاثة أيام وما أطاقوا من الصدقة والخروج من المظالم والتوبة من المعاصى ، ثم يخرج بهم فى اليوم الرابع وبالعجائز والصبيان متنظفين فى ثياب بذلة واستكانة متواضعين ـ بخلاف العيد ـ وقيل يستحب

---

(١) « صلاة ليلة شعبان » حديث باطل رواه ابن ماجه من حديث على « إذا كانت النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها » وإسناده ضعيف . (٢) « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ... » أخرجاه من حديث المغيرة بن شعبة .

إخراج الدواب لمشاركتها فى الحاجة ولقوله صلى الله عليه وسلم « لولا صبيان رضع ومشايخ ركع وبهائم رتع لصب عليكم العذاب صبا [(١)] » ولو خرج أهل الذمة أيضا متميزين لم يمنعوا فإذا اجتمعوا فى المصلى الواسع من الصحراء نودى « الصلاة جامعة » فصلى بهم الإمام ركعتين مثل صلاة العيد - بغير تكبير - ثم يخطب خطبتين وبينهما جلسة خفيفة ، وليكن الاستغفار معظم الخطبتين ، وينبغى فى وسط الخطبة الثانية ، أن يستدبر الناس ويستقبل القبلة ويحول رداءه فى هذه الساعة تفاؤلا بتحويل الحال [(٢)] .هكذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجعل أعلاه أسفله وما على اليمين على الشمال وما على الشمال على اليمين . وكذلك يفعل الناس ويدعون فى هذه الساعة سرا ، ثم يستقبلهم فيختم الخطبة ويدعون أرديتهم محولة كما هى حتى ينزعوها متى نزعوا الثياب . ويقول فى الدعاء : اللهم إنك أمرتنا بدعائك ووعدتنا إجابتك فقد دعوناك كما أمرتنا فأجبنا كما وعدتنا اللهم فامنن علينا بمغفرة ما قارفنا وإجابتك فى سقيانا وسعة أرزاقنا . ولا بأس بالدعاء أدبار الصلوات فى الأيام الثلاثة قبل الخروج ولهذا الدعاء آداب وشروط باطنة من التوبة ورد المظالم وغيرها ، وسيأتى ذلك فى كتاب الدعوات (الثالثة) صلاة الجنائز : وكيفيتها مشهورة وأجمع دعاء مأثور ماروى فى الصحيح عن عوف بن مالك قال « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى على جنازة فحفظت من دعائه : اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله ووسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس وأبدله دارا خيرا من داره وأهلا خيرا من أهله وزوجا خيرا من زوجه وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر ومن عذاب النار [(٣)] » حتى قال عوف : تمنيت أن أكون أنا ذلك الميت ومن أدرك التكبيرة الثانية فينبغى أن يراعى ترتيب الصلاة فى نفسه ويكبر مع تكبيرات الإمام فإذا سلم الإمام قضى تكبيره الذى فات كفعل المسبوق ، فإنه لو بادر التكبيرات لم تبق للقدوة فى هذه الصلاة معنى ، فالتكبيرات هى الأركان الظاهرة ، وجدير بأن تقام مقام الركعات فى سائر الصلوات . هذا هو الأوجه عندى وإن كان غيره محتملا . والأخبار الواردة فى فضل صلاة الجنازة وتشييعها مشهورة فلا نطيل بإيرادها ، وكيف لا يعظم فضلها وهى من فرائض الكفايات ؟ وإنما تصير نفلا فى حق من لم تتعين عليه بحضور غيره ، ثم ينال بها فضل فرض الكفاية وإن لم يتعين لأنهم بجملتهم قاموا بما هو فرض الكفاية واسقطوا الحرج عن غيرهم ، فلا يكون ذلك كنفل لا يسقط به فرض عن احد ، ويستحب طلب كثرة الجمع تبركا بكثرة الهمم والأدعية واشتماله على ذى دعوة مستجابة لما روى كريب عن ابن عباس : انه مات له ابن فقال : يا كريب انظر ما اجتمع له من الناس قال : فخرجت فإذا ناس قد اجتمعوا له فأخبرته فقال : تقولهم اربعون قلت : نعم ، قال : اخرجوه فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته اربعون رجلا لا يشركون بالله شيئا إلا شفعهم الله عز وجل فيه [(٤)] » وإذا شيع الجنازة فوصل المقابر او دخلها ابتداء قال : السلام عليكم اهل هذه الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون . والأولى أن لا ينصرف حتى يدفن الميت فإذا سوى على الميت قبره قام عليه وقال : اللهم عبدك رد إليك فارأف به وارحمه اللهم جاف الأرض عن جنبيه وافتح ابواب السماء لروحه وتقبله منك بقبول حسن اللهم

---

(١) « لولا صبيان وضع ومشايخ ركع ... » أخرجه البيهقى وضعفه من حديث أبى هريرة .

(٢) « استدبار الناس واستقبال القبلة وتحويل الرداء فى الاستسقاء » أخرجاه من حديث عبد الله بن زيد المازنى .

(٣) حديث عوف بن مالك فى الصلاة على الجنازة « اللهم اغفر لى وله وارحمنى وارحمه وعافنى وعافه ... » أخرجه مسلم دون الدعاء ليصلى

(٤) حديث ابن عباس « مامن رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون ... » أخرجه مسلم .

إن كان محسنا فضاعف له في إحسانه وإن كان مسيئا فتجاوز عنه (الرابعة) تحية المسجد: ركعتان فصاعدا سنة مؤكدة حتى أنها لا تسقط وإن كان الإمام يخطب يوم الجمعة تأكد وجوب الإصغاء إلى الخطيب. وإن اشتغل بفرض أو قضاء تأدى به التحية وحصل الفضل إذ المقصود أن يخلو ابتداء دخوله عن العبادة الخاصة بالمسجد قياما بحق المسجد. ولهذا يكره أن يدخل المسجد على غير وضوء فإن دخل لعبور أو جلوس فليقل «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» يقولها أربع مرات يقال إنها عدل ركعتين في الفضل. ومذهب الشافعي رحمه الله أنه لا تكره التحية في أوقات الكراهية: وهي بعد العصر وبعد الصبح ووقت الزوال ووقت الطلوع والغروب، لما روى «أنه صلى الله عليه وسلم صلى ركعتين بعد العصر فقيل له أما نهيتنا عن هذا؟ فقال: هما ركعتان كنت أصليهما بعد الظهر فشغلني عنهما الوفد (١)» فأفاد هذا الحديث فائدتين إحداهما: أن الكراهية مقصورة على صلاة لا سبب لها ومن أضعف الأسباب قضاء النوافل إذ اختلف العلماء في أن النوافل هل تقضى وإذا فعل مثل ما فاته هل يكون قضاء؟ وإذا انتفت الكراهية بأضعف الأسباب فبأحرى أن تنتفي بدخول المسجد وهو سبب قوي. ولذلك لا تكره صلاة الجنازة إذا حضرت ولا صلاة الخسوف والاستسقاء في هذه الأوقات لأن لها أسبابا. الفائدة الثانية: قضاء النوافل إذ قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ولنا فيه أسوة حسنة. وقالت عائشة رضي الله عنها «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غلبه نوم أو مرض فلم يقم تلك الليلة صلى من أول النهار اثنتي عشر ركعة (٢)» وقد قال العلماء: من كان في الصلاة ففاته جواب المؤذن فإذا سلم قضى وأجاب وإن كان المؤذن سكت، ولا معنى الآن لقول من يقول: إن ذلك مثل الأول وليس يقضى، إذ لو كان كذلك لما صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في وقت الكراهة. نعم من كان له ورد فعاقه عن ذلك عذر فينبغي أن لا يرخص لنفسه في تركه بل يتداركه في وقت آخر حتى لا تميل نفسه إلى الدعة والرفاهية. وتداركه حسن على سبيل مجاهدة النفس ولأنه صلى الله عليه وسلم قال «أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل (٣)» فيقصد به أن لا يفتر في دوام عمله وروت عائشة رضي الله عنها عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «من عبد الله عز وجل بعبادة ثم تركها ملالة مقته الله عز وجل (٤)» فليحذر أن يدخل تحت الوعيد. وتحقيق هذا الخبر: أنه مقته الله تعالى بتركها ملالة فلولا المقت والإبعاد لما سلطت الملالة عليه. (الخامسة) ركعتان بعد الوضوء: مستحبتان لأن الوضوء قربة ومقصودها الصلاة والأحداث عارضة فربما يطرأ الحدث قبل صلاة فينتقض الوضوء ويضيع السعي فالمبادرة إلى ركعتين استيفاء لمقصود الوضوء قبل الفوات. وعرف ذلك بحديث بلال إذ قال صلى الله عليه وسلم «دخلت الجنة فرأيت بلالا فيها فقلت لبلال بم سبقتني إلى الجنة؟ فقال بلال لا أعرف شيئاً إلا أني لا أحدث وضوءا إلا أصلي عقيبه ركعتين (٥)» (السادسة) ركعتان عند دخول المنزل وعند الخروج منه: روى أبو هريرة رضي الله عنه قال «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا خرجت من منزلك فصل ركعتين يمنعانك مخرج السوء وإذا دخلت إلى منزلك فصل ركعتين

---

(١) «صلى ركعتين بعد العصر فقيل له أما نهيتنا عن هذا فقال هما ركعتان كنت أصليهما بعد الظهر ...» أخرجاه من حديث أم سلمة ولمسلم من حديث عائشة «كان يصلي ركعتين قبل العصر ثم إنه شغل عنهما ...»

(٢) حديث عائشة «كان إذا غلبه نوم مرض فلم يقم تلك الليلة ...» أخرجه مسلم.

(٣) «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل» أخرجاه من حديث عائشة.

(٤) حديث عائشة «من عبد الله عبادة ثم تركها ملالة مقته الله» رواه ابن السني في رياضة المتعبدين موقوفا على عائشة.

(٥) «دخلت فرأيت بلالا فيها فقلت يا بلال بم سبقتني إلى الجنة ...» أخرجاه من حديث أبي هريرة.

يمنعانك مدخل السوء (١)» وفى معنى هذا كل أمر يبتدأ به مما له وقع ، ولذلك ورد ركعتان عند الإحرام(٢) وركعتان عند ابتداء السفر (٣) وركعتان عند الرجوع من السفر (٤) فى المسجد قبل دخول البيت فكل ذلك مأثور من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان بعض الصالحين إذ أكل أكلة صلى ركعتين وإذا شرب شربة صلى ركعتين ، وكذلك فى كل أمر يحدثه . وبداية الأمور ينبغى أن يتبرك فيها بذكر الله عز وجل وهى على ثلاث مراتب : بعضها يتكرر مرارا كالأكل والشرب فيبدأ فيه باسم الله عز وجل قال صلى الله عليه وسلم «كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو ابتر (٥) » الثانية : مالايكثر تكرره وله وقع كعقد النكاح وابتداء النصيحة والمشورة فالمستحب فيها ان يصدر بحمدك الله فيقول المزوج «الحمدلله والصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجتك ابنتى » ويقول القابل « الحمدلله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلت النكاح» وكانت عادة الصحابة رضى الله عنهم فى ابتداء اداء الرسالة والنصيحة والمشورة تقديم التحميد . الثالثة : مالايتكرر كثيرا وإذا وقع دام وكان له وقع كالسفر وشراء دار جديدة الإحرام ومايجرى مجراه فيستحب تقديم ركعتين عليه وادناه الخروج من المنزل والدخول إليه فإنه نوع سفر قريب (السابعة) صلاة الاستخارة : فمن هم بأمر وكان لايدرى عاقبته ولايعرف أن الخير فى تركه أو فى الإقدام عليه فقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم « بأن يصلى ركعتين يقرأ فى الأولى فاتحة الكتاب وقل ياأيها الكافرون ، وفى الثانية الفاتحة وقل هو الله أحد ، فإذا فرغ دعا وقال : اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فانك تقدر ولاأقدر وتعلم ولاأعلم وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ودنياى وعاقبة أمرى وعاجله وآجله فاقدره لى وبارك لى فيه ثم يسره لى وإن كنت تعلم ان هذا الأمر شر لى فى دينى ودنياى وعاقبة امرى وعاجله وآجله فاصرفنى عنه واصرفه عنى واقدر لى الخير اينما كان إنك على كل شىء قدير (٦) » رواه جابر بن عبد الله قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا هم أحدكم بأمر فليصل ركعتين ثم ليسم الأمر ويدعو بما ذكرناه » وقال بعض الحكماء : من اعطى اربعا لم يمنع اربعا ، من اعطى الشكر لم يمنع المزيد ومن اعطى التوبة لم يمنع القبول ومن اعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة ومن اعطى المشورة لم يمنع الصواب . (الثامنة) صلاة الحاجة : (٧) فمن ضاق عليه الأمر ومسته حاجة فى صلاح دينه ودنياه إلى امر تعذر عليه فليصل هذه الصلاة فقد روى عن وهيب بن الورد انه قال : إن من الدعاء الذى لايرد أن يصلى العبد ثنتى عشرة ركعة يقرأ فى كل ركعة

---

(١) حديث أبى هريرة « إذا خرجت من منزلك فصل ركعتين يمنعانك مخرج السوء وإذا دخلت منزلك ... » أخرجه البيهقى فى الشعب من رواية بكر بن عمرو عن صفوان بن سليم : قال بكر حسبته عن أبى سلمة عن أبى هريرة فذكره ، وروى الخرائطى فى مكارم الأخلاق وابن عدى فى الكامل من حديث أبو هريرة «إذا دخل أحدكم بيته فلا يجلس حتى يركع ركعتين فإن الله جاعل له من ركعتيه خيرا » قال ابن عدى: وهو بهذا الإسناد منكر وقال البخارى لا أصل له . (٢) « ركعتى الإحرام » أخرجه البخارى من حديث ابن عمر . (٣) « صلاة ركعتين عند ابتداء السفر » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث أنس « ما استخلف فى أهله من خليفة أحب إلى الله من أربع ركعات يصليهن العبد فى بيته إذا شد عليه ثياب سفره ... » وهو ضعيف . (٤) «الركعتين عند القدوم من السفر» أخرجاه من حديث كعب بن مالك . (٥) « كل أمر ذى بال لايبدأ فيه ببسم الله أبتر » أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه من حديث أبى هريرة . (٦) « صلاة الاستخارة » أخرجه البخارى من حديث جابر قال أحمد حديث منكر .

(٧) حديث ابن مسعود « فى صلاة الحاجة اثنتى عشرة ركعة » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بإسنادين ضعيفين جدا فيهما عمرو بن هارون البلخى كذبه ابن معين وفيه علل أخرى وقد وردت « صلاة الحاجة ركعتين » الترمذى رواه وابن ماجه من حديث عبد الله بن أبى أوفى وقال الترمذى حديث غريب وفى إسناده مقال .

بأم الكتاب وآية الكرسى وقل هو الله أحد فإذا فرغ خر ساجداً ثم قال «سبحان الذى لبس العز وقال به سبحان الذى تعطف بالمجد وتكرم به سبحان الذى أحصى كل شيء بعلمه سبحان الذى لا ينبغى التسبيح إلا له سبحان ذى المن والفضل سبحان ذى العز والكرم سبحان ذى الطول أسألك بمقاعد العز من عرشك ومنتهى الرحمة من كتابك وباسمك الأعظم وجدك الأعلى وكلماتك التامات العامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر أن تصلى على محمد وعلى آل محمد» ثم يسأل حاجته التى لا معصية فيها فيجاب إن شاء الله عز وجل. قال وهيب: بلغنا أنه كان يقال: لا تعلموها لسفهائكم فيتعاونون بها على معصية الله عز وجل (التاسعة) صلاة التسبيح: وهذه الصلاة مأثورة على وجهها ولا تختص بوقت ولا بسبب ويستحب أن لا يخلو الأسبوع عنها مرة واحده أو الشهر مرة. فقد روى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما «أنه صلى الله عليه وسلم قال للعباس بن عبد المطلب: ألا أعطيك ألا أمنحك ألا أحبوك بشيء إذا أنت فعلته غفر الله لك ذنبك أوله وآخره قديمه وحديثه خطأه وعمده سره وعلانيته تصلى أربع ركعات تقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة، فإذا فرغت من القراءة فى أول ركعة وأنت قائم تقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. خمس عشرة مرة ثم تركع فتقولها وأنت راكع عشر مرات، ثم ترفع من الركوع فتقولها قائما عشرا، ثم تسجد فتقولها عشرا، ثم ترفع من السجود فتقولها جالساً عشرا، ثم تسجد فتقولها وأنت ساجد عشرا، ثم ترفع من السجود فتقولها عشرا، فذلك خمس وسبعون فى كل ركعة تفعل ذلك فى أربع ركعات إن استطعت أن تصليها فى كل يوم مرة فافعل فان لم تفعل ففى كل جمعة مرة فان لم تفعل ففى كل شهر مرة فان لم تفعل ففى السنة مرة(١)» وفى رواية أخرى «أنه يقول فى أول الصلاة سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك وتقدست أسماؤك ولا إله غيرك» ثم يسبح خمس عشرة تسبيحة قبل القراءة وعشرا بعد القراءة والباقى كما سبق عشرا عشرا ولا يسبح بعد السجود الأخير قاعداً، وهذا هو الأحسن وهو اختيار ابن المبارك. والمجموع من الروايتين ثلثمائة تسبيحة فان صلاها نهاراً فبتسليمة واحدة وإن صلاها ليلا فبتسليمتين أحسن؛ إذ ورد «أن صلاة الليل مثنى مثنى (٢)» وإن زاد بعد التسبيح قوله «لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم» فهو حسن فقد ورد ذلك فى بعض الروايات فهذه الصلوات المأثورة. ولا يستحب شيء من هذه النوافل فى الأوقات المكروهة إلا تحية المسجد. وما أوردناه بعد التحية من ركعتى الوضوء وصلاة السفر والخروج من المنزل والاستخارة فلا لأن النهى مؤكد، وهذه الأسباب ضعيفة فلا تبلغ درجة الخسوف والاستسقاء والتحية وقد رأيت بعض المتصوفة يصلى فى الأوقات المكروهة ركعتى الوضوء وهو فى غاية البعد لأن الوضوء لا يكون سببا للصلاة بل الصلاة سبب الوضوء. فينبغى أن يتوضأ ليصلى لا أنه يصلى لأنه توضأ. وكل محدث يريد أن يصلى فى وقت الكراهية فلا سبيل له إلا أن يتوضا ويصلى فلا يبقى للكراهية معنى ولا ينبغى أن ينوى ركعتى الوضوء كما ينوى ركعتى التحية بل إذا توضا صلى ركعتين تطوعا كيلا يتعطل وضوء كما كان يفعله بلال فهو تطوع محض يقع عقيب الوضوء. وحديث بلال لم يدل على أن الوضوء سبب كالخسوف والتحية حتى ينوى ركعتى الوضوء فيستحيل أن ينوى بالصلاة الوضوء بل ينبغى أن ينوى بالوضوء الصلاة: وكيف ينتظم أن يقول فى وضوئه أتوضأ لصلاتى وفى صلاته يقول أصلى لوضوئى. بل من أراد أن يحرس وضوءه عن التعطيل فى وقت الكراهية فلينو قضاء إن كان يجوز أن يكون فى ذمته صلاة تطرق إليها خلل لسبب من الأسباب فان قضاء الصلوات فى أوقات الكراهية غير مكروه. فأما نية التطوع فلا وجه لها. ففى النهى فى أوقات الكراهية مهمات ثلاثة أحدها التوقى من مضاهاة عبدة الشمس، والثانى: الاحتراز من انتشار الشياطين إذ قال صلى الله عليه وسلم «إن

---

(١) «صلاة التسبيح» تقدم.

(٢) «صلاة الليل مثنى مثنى» أخرجاه من حديث ابن عمر.

الشمس لتطلع ومعها قرن الشيطان فاذا طلعت قارنها وإذا ارتفعت فارقها فان استوت قارنها فاذا زالت فارقها فاذا تضيفت للغروب قارنها فاذا غربت فارقها[1] » ونهى عن الصلوات فى هذه الأوقات ونبه على العلة ، والثالث : أن سالكى طريق الآخرة لا يزالون يواظبون على الصلوات فى جميع الأوقات والمواظبة على نمط واحد من العبادات يورث الملل . ومهما منع ساعة زاد النشاط وانبعثت الدواعى ، والإنسان حريص على ما منع منه ففى تعطيل هذه الأوقات زيادة تحريض وبعث على انتظار انقضاء الوقت ، فخصت هذه الأوقات بالتسبيح والاستغفار حذرا من الملل بالمداومة وتفرجا بالانتقال من نوع عبادة إلى نوع آخر . ففى الاستطراف والاستجداء لذة ونشـاط وفى الاستمرار على شىء واحد استثقال وملال . ولذلك لم تكن الصلاة سجودا مجردا ولا ركوعا مجردا ولا قياما مجردا بل رتبت العبادات من أعمال مختلفة واذكار متباينة ، فان القلب يدرك من كل عمل منهما لذة جديدة عند الانتقال اليها ولو واظب على الشىء الواحد لتسارع إليه الملل . فاذا كانت هذه أموراً مهمة فى النهى عن ارتكاب أوقات الكراهة إلى غير ذلك من أسرار أخر ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها والله ورسوله أعلم بها ، فهذه المهمات لا تترك إلا بأسباب مهمة فى الشرع مثل قضاء الصلوات وصلاة الاستسقاء والخسوف وتحية المسجد . فاما ما ضعف عنها فلا ينبغى أن يصادم به مقصود النهى . هذا هو الأوجه عندنا والله أعلم .

كمل كتاب : أسرار الصلاة من كتاب إحياء علوم الدين . يتلوه إن شاء الله كتاب : أسرار الزكاة بحمد الله وعونه وحسن توفيقه . والحمد لله وحده وصلاته على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

كتاب أسرار الزكاة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أسعد وأشقى وأمات وأحيا وأضحك وأبكى وأوجد وأفنى وأفقر وأغنى وأضر وأقنى الذى خلق الحيوان من نطفة تمنى ، ثم تفرد عن الخلق بوصف الغنى ، ثم خصص بعض عباده بالحسنى فأفاض عليهم من نعمه ما أيسر به من شاء واستغنى وأحوج إليه من أخفق فى رزقه وأكدى إظهارا للإمتحان والابتلاء ثم جعل الزكاة للدين أساساً ومبنى وبين أن بفضله تزكى من عباده من تزكى ومن غناه زكى ماله من زكى والصلاة على محمد المصطفى سيد الورى وشمس الهدى وعلى آله وأصحابه المخصوصين بالعلم والتقى .

أما بعد : فان الله تعالى جعل الزكاة إحدى مبانى الإسلام وأردف بذكرها الصلاه التى هى على الأعلام فقال تعالى ﴿وأقيموا الصلاه وآتوا الزكاه﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « بنى الإسلام على خمس: شهاده أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة [2] » وشدد الوعيد على المقصرين فيها فقال ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾ ومعنى الإنفاق فى سبيل الله إخراج حق الزكاة قال

---

(١) « إن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان فإذا طلعت قارنها . . . » أخرجه النسائى من حديث عبد الله الصنابحى . وهو مرسل وذلك هو الذى يقول عبد الله الصنابحى ووهم فيه والصواب عبد الرحمن ولم يرى النبى صلى الله عليه وسلم .

كتاب أسرار الزكاة

(٢) « بنى الإسلام على خمس » أخرجاه من حديث ابن عمر .

الأحنف بن قيس : كنت فى نفر من قريش فمر أبو ذر فقال : بشر الكانزين بكى فى ظهورهم يخرج من جنوبهم وبكى فى أقفائهم يخرج من جباههم . وفى رواية أنه يوضع على حلمة ثدى أحدهم فيخرج من نغض كتفيه ويوضع على نغض كتفيه حتى يخرج من حلمة ثدييه يتزلزل . وقال أبو ذر : انتهيت إلى النبى ﷺ وهو جالس فى ظل الكعبة فلما رآنى قال « هم الأخسرون ورب الكعبة فقلت : ومن هم ؟ قال : الأكثرون أموالا إلا من قال هكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ما هم ، ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنى لا يؤدى زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما نفدت أخراها عادت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس[1] » وإذا كان هذا التشديد مخرجا فى الصحيحين فقد صار من مهمات الدين الكشف عن أسرار الزكاة وشروطها الجلية والخفية ومعانيها الظاهرة والباطنة مع الاقتصار على ما لا يستغنى عن معرفته مؤدى الزكاة وقابضها وينكشف ذلك فى أربعة فصول : (الفصل الأول) فى أنواع الزكاة وأسباب وجوبها (الثانى) آدابها وشروطها الباطنة والظاهرة (الثالث) فى القابض وشروط استحقاقه وآداب قبضه (الرابع) فى صدقة التطوع وفضلها

الفصل الأول : أنواع الزكاة وأسباب وجوبها والزكوات باعتبار متعلقاتها ستة أنواع

زكاة النعم والنقدين والتجارة وزكاة الركاز والمعادن وزكاة المعشرات وزكاة الفطر

النوع الأول : زكاة النعم

ولا تجب هذه الزكاة وغيرها إلا على حر مسلم ، ولا يشترط البلوغ بل تجب فى مال الصبى والمجنون ، هذا شرط من عليه . وأما المال فشروطه خمسة : أن يكون نعما سائمة باقية حولا نصاباً كاملا مملوكا على الكمال . الأول : كونه نعما فلا زكاة إلا فى الإبل والبقر والغنم . أما الخيل والبغال والحمير والمتولد من بين الظباء والغنم فلا زكاة فيها . الثانى : السوم : فلا زكاة فى معلوفة ، وإذا أسيمت فى وقت وعلفت فى آخر تظهر بذلك مؤنتها فلا زكاة فيها . الثالث : الحول : قال رسول الله ﷺ « لا زكاة فى مال حتى يحول عليه الحول[2] » ويستثنى من هذا نتاج المال فإنه ينسحب عليه حكم المال وتجب الزكاة فيه لحول الأصول ومهما باع المال فى أثناء الحول أو وهبه انقطع الحول . الرابع : كمال الملك والتصرف : فتجب فى الماشية المرهونة لأنه الذى حجر على نفسه فيه ولا تجب فى الضال والمغصوب إلا إذا عاد بجميع نمائه فتجب زكاة ما مضى عند عوده ولو كان عليه دين يستغرق ماله فلا زكاة عليه فإنه ليس غنياً به إذ الغنى ما يفضل عن الحاجة . الخامس : كمال النصاب .

أما الإبل فلا شىء فيها حتى تبلغ خمساً ففيها جذعة من الضأن والجذعة هى التى تكون فى السنة الثانية ، أو ثنية من المعز وهى التى تكون فى السنة الثالثة . وفى عشر شاتان . وفى خمس عشرة ثلاث شياه . وفى عشرين أربع شياه . وفى خمس وعشرين بنت مخاض وهى التى فى السنة الثانية ، فإن لم يكن فى ماله بنت مخاض فابن لبون ذكر وهو الذى فى السنة الثالثة يؤخذ وإن كان قادراً على شرائها . وفى ست وثلاثين ابنة لبون . ثم إذا بلغت ستا وأربعين ففيها حقة وهى التى فى السنة الرابعة . فإذا صارت إحدى وستين ففيها جذعة وهى التى فى السنة الخامسة فإذا صارت ستا وسبعين ففيها لبون . فإذا صارت إحدى وتسعين ففيها حقتان . فإذا صارت إحدى وعشرين

---

(١) حديث أبى ذر « انتهيت إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى ظل الكعبة فلما رآنى قال هم الأخسرون ورب الكعبة ... » أخرجاه مسلم والبخارى .

(٢) « لا زكاة فى مال حتى يحول عليه الحول » أخرجه أبو داود من حديث على بإسناد جيد وابن ماجه من حديث عائشة بإسناد ضعيف .

ومائة ففيها ثلاث بنات لبون . فإذا صارت مائة وثلاثين فقد استقر الحساب ، فني كل خمسين حقة ، وفي كل أربعين بنت لبون .

وأما البقر فلا شيء فيها حتى تبلغ ثلاثين ففيها تبيع وهو الذي في السنة الثانية . ثم في أربعين مسنة وهي التي في السنة الثالثة . ثم في ستين تبيعان واستقر الحساب بعد ذلك . في كل أربعين مسنة، وكل ثلاثين تبيع .

وأما الغنم فلا زكاة فيها حتى تبلغ أربعين ففيها شاة جذعة من الضأن أو ثنية من المعز . ثم لاشيء فيها حتى تبلغ مائة وعشرين وواحدة ففيها شاتان . إلى مائتي شاة وواحدة ففيها ثلاث شياه إلى أربعمائة ففيها أربع شياه . ثم استقر الحساب في كل مائة شاة . وصدقة الخليطين كصدقة المالك الواحد في النصاب فإذا كان بين رجلين أربعون من الغنم ففيها شاة . وإن كان بين ثلاثة نفر مائة شاة وعشرون ففيها شاة واحدة ، على جميعهم . وخلطة الجوار كخلطة الشيوع ولكن يشترط أن يريحا معا ويسقيا معا ويحلبا معا ويسرحا معا ويكون المرعى معا وإنزاء الفحل معا . وأن يكونا جميعاً من أهل الزكاة ولا حكم في الخلطة للذمي والمكاتب . ومهما نزل في واجب الإبل عن سن إلى سن فهو جائز ما لم يجاوز بنت مخاض في النزول . ولكن تضم إليه جبران السن لسنة واحدة شاتين أوعشرين درهما . ولسنتين أربع شياه أو أربعين درهما . وله أن يصعد في السن ما لم يجاوز الجذعة في الصعود ويأخذ الجبران من الساعين من بيت المال . ولا تؤخذ في الزكاة مريضة إذا كان بعض المال صحيحا ولو واحده . ويؤخذ من الكرائم كريمة ومن اللئام لئيمة . ولا يؤخذ من المال الأكولة ولا الماخض ولا الربا ولا الفحل ولا غراء المال .

النوع الثاني : زكاة المعشرات

يجب العشر في كل مستنبت مقتات بلغ ثمانمائة من ولاشيء فيما دونها ولا في الفواكه والقطن ، ولكن في الحبوب التي تقتات وفي التمر والزبيب . ويعتبر أن تكون ثمانمائة من تمراً أو زبيباً ولا رطبا وعنبا ، ويخرج ذلك بعد التجفيف . ويكمل مال أحد الخليطين بمال الآخر في خلطة الشيوع كالبستان المشترك بين ورثة جميعهم ثمانمائة من زبيب ، فيجب على جميعهم ثمانون مناً من زبيب بقدر حصصهم . ولا يعتبر خلطة الجوار فيه . ولا يكمل نصاب الحنطة بالشعير ، ويكمل نصاب الشعير بالسلت فإنه نوع منه ، هذا قدر الواجب إن كان يسقى بسيح أو قناة فإن كان يسقى بنضح أو دالية فيجب نصف العشر ، فإن اجتمعا فالأغلب يعتبر . وأما صفة الواجب فالتمر والزبيب اليابس والحب اليابس بعد التنقية ولا يؤخذ عنب ولا رطب إلا إذا حلت بالأشجار آفة وكانت المصلحة في قطعها قبل تمام الإدراك ، فيؤخذ الرطب فيكال تسعة للمالك وواحد للفقير . ولا يمنع من هذه القسمة قولنا : إن القسمة بيع ، بل يرخص في مثل هذا للحاجة وقت الوجوب أن يبدو الصلاح في الثمار وأن يشتد الحب . ووقت الأداء بعد الجفاف .

النوع الثالث : زكاة النقدين

إذا تم الحول على وزن مائتي درهم بوزن مكة نقرة خالصة ففيها خمسة دراهم ، وهو ربع العشر ، وما زاد فبحسابه ولو درهما . ونصاب الذهب عشرون مثقالا خالصا بوزن مكة ففيها ربع العشر ، وما زاد فبحسابه ، وإن نقص من النصاب حبة فلا زكاه ، وتجب على من معه دراهم مغشوشة إذا كان فيها هذا المقدار من النقرة الخالصة . وتجب الزكاه في التبر ، وفي الحلي المحظور كأواني الذهب والفضة ، ومراكب الذهب للرجال . ولا تجب في الحلي المباح . وتجب في الدين الذي هو على ملىء ، ولكن تجب عند الاستيفاء ، وإن كان مؤجلا فلا تجب إلا عند حلول الأجل .

النوع الرابع : زكاة التجارة

وهى كزكاة النقدين ، وإنما ينعقد الحول من وقت ملك النقد الذى به اشترى البضاعة إن كان النقد نصاباً ، فإن كان ناقصاً أو اشترى بعرض على نية التجارة فالحول من وقت الشراء . وتؤدى الزكاة من نقد البلد وبه يقوم فإن كان ما به الشراء نقداً وكان نصاباً كاملا كان التقويم به أولى من نقد البلد . ومن نوى التجارة من مال قنية فلا ينعقد الحول بمجرد نيته حتى يشترى به شيئاً ومهما قطع نية التجارة قبل تمام الحول سقطت الزكاة . والأولى أن تؤدى زكاة تلك السنة ، وما كان من ربح فى السلعة فى آخر الحول وجبت الزكاة فيه بحول رأس المال ولم يستأنف له حولا كما فى النتاج . وأموال الصيارفة لاينقطع حولها بالمبادلة الجارية بينهم كسائر التجارات وزكاة ربح مال القراض على العامل وإن كان قبل القسمة ؛ هذا هو الأقيس .

النوع الخامس : الركاز والمعدن

والركاز مال دفن فى الجاهلية ووجد فى أرض لم يجر عليها فى الإسلام ملك ، فعلى واجده فى الذهب والفضة منه الخمس والحول غير معتبر . والأولى أن لا يعتبر النصاب أيضاً لأن إيجاب الخمس يؤكد شبهه بالغنيمة . واعتباره أيضاً ليس ببعيد لأن مصرفه مصرف الزكاة ولذلك يخصص على الصحيح بالنقدين .

وأما المعادن فلا زكاة فيما استخرج منها سوى الذهب والفضة ؛ ففيها بعد الطحن والتخليص ربع العشر على أصح القولين ، وعلى هذا يعتبر النصاب . وفى الحول قولان ، وفى قول : يجب الخمس ، فعلى هذا لا يعتبر . وفى النصاب قولان والأشبه — والعلم عند الله تعالى — أن يلحق فى قدر الواجب بزكاة التجارة فإنه نوع اكتساب . وفى الحول بالمعشرات فلا يعتبر لأنه عين الرفق . ويعتبر النصاب كالمعشرات ، والاحتياط أن يخرج الخمس من القليل والكثير ، ومن عين النقدين أيضاً خروجا عن شبهة هذه الاختلافات فإنها ظنون قريبة من التعارض وجزم الفتوى فيها خطر لتعارض الاشتباه .

النوع السادس : فى صدقة الفطر

وهى واجبة — على لسان رسول الله ﷺ — على كل مسلم فضل عن قوته وقوت من يقوته يوم الفطر وليلته صاع مما يقتات (١) بصاع رسول الله ﷺ وهو منوان وثلثا من ، يخرجه من جنس قوته أو من أفضل منه ، فإن اقتات بالحنطة لم يجز الشعير ، وإن اقتات حبوبا مختلفة اختار خيرها ومن أيها أخرج أجزأه . وقسمتها كقسمة زكاة الأموال فيجب فيها استيعاب الأصناف ولا يجوز إخراج الدقيق والسويق . ويجب على الرجل المسلم فطرة زوجته ومماليكه وأولاده وكل قريب هو فى نفقته أعنى من تجب عليه نفقته من الآباء والأمهات والأولاد . قال صلى الله عليه وسلم : « أدوا صدقة الفطر عمن تمونون (٢) » وتجب صدقة العبد المشترك على الشريكين ، ولا تجب صدقة العبد الكافر . وإن تبرعت الزوجة بالإخراج عن نفسها أجزأها وللزوج الاخراج عنها دون إذنها . وإن فضل عنه ما يؤدى عن بعضهم أدى عن بعضهم ، وأولاهم بالتقديم كانت نفقته آكد . وقد

---

(١) « وجوب صدقة الفطر على كل مسلم » أخرجاه من حديث ابن عمر قال « فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر من رمضان ... » .

(٢) « أدوا زكاة الفطر عمن تمونون » أخرجه الدارقطنى والبيهقى من حديث ابن عمر « أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقة الفطر عن الصغير والكبير والحر والعبد ممن تمونون » قال البيهقى إسناده غير قوى .

قدم رسول الله ﷺ نفقة الولد على نفقة الزوجة ونفقتها على نفقة الخادم (١) فهذه أحكام فقهية لا بد للغنى من معرفتها ، وقد تعرض له وقائع نادرة خارجة عن هذا فله أن يتكل فيها على الاستفتاء عند نزول الواقعة بعد إحاطته بهذا المقدار .

الفصل الثانى : الأداء وشروطه الباطنة والظاهرة

اعلم أنه يجب على مؤدى الزكاة مراعاة خمسة أمور :

(الأول) النية : وهو أن ينوى بقلبه زكاة الفرض ويسن عليه تعيين الأموال . فإن كان له مال غائب فقال هذا عن مالى الغائب إن كان سالما وإلا فهو نافلة جاز ، لأنه لم يصرح به فكذلك يكون عند إطلاقه . ونية الولى تقوم مقام نية المجنون والصبى . ونية السلطان تقوم مقام نية المالك الممتنع عن الزكاة ولكن فى ظاهر حكم الدنيا ـ أعنى فى قطع المطالبة عنه ـ أما فى الآخرة فلا ، بل تبقى ذمته مشغولة إلى أن يستأنف الزكاة وإذا وكل بأداء الزكاة ونوى عند التوكيل أو وكل الوكيل بالنية كفاه لأن توكيله بالنية نية .

(الثانى) البدار عقيب الحول وفى زكاة الفطر لا يؤخرها عن يوم الفطر . ويدخل وقت وجوبها بغروب الشمس من آخر يوم من شهر رمضان . ووقت تعجيلها شهر رمضان كله . ومن أخر زكاة ماله مع التمكن عصى ولم يسقط عنه بتلف ماله وتمكنه بمصادفة المستحق . وإن أخر لعدم المستحق فتلف ماله سقطت الزكاة عنه . وتعجيل الزكاة جائز بشرط أن يقع بعد كمال النصاب وانعقاد الحول ، ويجوز تعجيل زكاة حولين . ومهما عجل ومات المسكين قبل الحول أو ارتد أو صار غنيا بغير ما عجل إليه أو تلف مال المالك أو مات ، فالمدفوع ليس بزكاة ، واسترجاعه غير ممكن إلا إذا قيد الدفع بالاسترجاع فليكن المعجل مراقبا آخر الأمور وسلامة العاقبة .

(الثالث) أن لا يخرج بدلا باعتبار القيمة بل يخرج المنصوص عليه ، فلا يجزىء ورق عن ذهب ولا ذهب عن ورق وإن زاد عليه فى القيمة . ولعل بعض من لا يدرك غرض الشافعى رضى الله عنه يتساهل فى ذلك ويلاحظ المقصود من سد الخلة وما أبعده عن التحصيل ، فإن سد الخلة مقصود وليس هو كل المقصود بل واجبات الشرع ثلاثة أقسام : قسم هو تعبد محض لا مدخل للحظوظ والأغراض فيه . وذلك كرمى الجمرات مثلا إذ لا حظ للجمرة فى وصول الحصى إليها ، فمقصود الشرع فيه الابتلاء بالعمل ليظهر العبد رقه وعبوديته بفعل ما لا يعقل له معنى ، لأن ما يعقل معناه فقد يساعده الطبع عليه ويدعوه إليه فلا يظهر به خلوص الرق والعبودية ، إذ العبودية تظهر بأن تكون الحركة لحق أمر المعبود فقط لا لمعنى آخر . وأكثر أعمال الحج كذلك ولذلك قال ﷺ « لبيك بحجة حقا تعبداً ورقا (٢) » تنبيها على أن ذلك إظهاراً للعبودية بالانقياد لمجرد الأمر وامتثاله كما أمر من غير استئناس العقل منه بما يميل إليه ويحث عليه . القسم الثانى : من واجبات الشرع ما المقصود منه حظ معقول وليس يقصد منه التعبد كقضاء دين الآدميين ورد المغصوب فلا جرم لا يعتبر فيه فعله ونيته . ومهما وصل الحق إلى مستحقه بأخذ المستحق أو ببدل عنه عند رضاه تأدى الوجوب وسقط خطاب الشرع . فهذان قسمان لا تركيب فيهما يشترك فى دركهما جميع الناس والقسم الثالث : هو المركب الذى يقصد منه الأمران جميعا وهو حظ العباد وامتحان المكلف بالاستعباد ، فيجتمع فيه تعبد رمى الجمار وحظ رد الحقوق فهذا قسم فى نفسه معقول ، فإن ورد الشرع به وجب

---

(١) « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم نفقة الولد على نفقة الزوجة ونفقتها على نفقة الخادم » أخرجه أبو داود من حديث أبى هريرة بسند صحيح وابن حبان والحاكم وصححه ورواه النسائى وابن حبان بتقديم « الزوجة على الولد » وسيأتى .

(٢) « لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا » أخرجه البزار والدارقطنى فى العلل من حديث أنس .

الجمع بين المعنيين ولا ينبغى أن ينسى أدق المعنيين وهو التعبد والاسترقاق بسبب أجلاهما . ولعل الأدق هو الأهم والزكاة من هذا القبيل ولم ينتبه له غير الشافعى رضى الله عنه لحظ الفقير مقصود فى سد الخلة وهو جلى سابق إلى الأفهام وحق التعبد فى اتباع التفاصيل مقصود للشرع . وباعتباره صارت الزكاة قرينة للصلاة والحج فى كونها من مبانى الإسلام . ولا شك فى أن على المكلف تعبا فى تمييز أجناس ماله وإخراج حصة كل مال من نوعه جنسه وصفته . ثم توزيعه على الأصناف الثمانية كما سيأتى . والتساهل فيه غير قادح فى حظ الفقير لكنه قادح فى التعبد . ويدل على أن التعبد مقصود بتعيين الأنواع أمور ذكرناها فى كتب الخلاف من الفقهيات . ومن أوضحها أن الشرع أوجب فى خمس من الإبل شاة فعدل من الإبل إلى الشاة ولم يعدل إلى النقدين والتقويم . وإن قدر أن ذلك لقلة النقود فى أيدى العرب بطل بذكره عشرين درهما فى الجبران مع الشاتين فلم لم يذكر فى الجبران قدر النقصان من القيمة ؟ ولم قدر بعشرين درهما وشاتين ؟ وإن كانت الثياب والأمتعة كلها فى معناها . فهذا وأمثاله من التخصيصات يدل على أن الزكاة لم تترك خالية عن التعبدات كما فى الحج ولكن جمع بين المعنيين . والأذهان الضعيفة تقصر عن درك المركبات فهذا شأن الغلط به .

(الرابع) أن لا ينقل الصدقة إلى بلد آخر فإن أعين المساكين فى كل بلدة تمتد إلى أموالها ، وفى النقل تخييب للظنون . فإن فعل ذلك أجزأه فى قول ولكن الخروج عن شبهة الخلاف أولى فليخرج زكاة كل مال فى تلك البلدة ثم لا بأس أن يصرف إلى الغرباء فى تلك البلدة .

(الخامس) أن يقسم ماله بعدد الأصناف الموجودين فى بلده ، فإن استيعاب الأصناف واجب وعليه يدل ظاهر قوله ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ الآية فإنه يشبه قول المريض إنما ثلث مالى للفقراء والمساكين وذلك يقتضى التشريك فى التمليك . والعبادات ينبغى أن يتوقى عن الهجوم فيها على الظواهر . وقد عدم من الثمانية صنفان فى أكثر البلاد : وهم المؤلفة قلوبهم والعاملون على الزكاة . ويوجد فى جميع البلاد أربعة أصناف : الفقراء والمساكين والغارمون والمسافرون ـ أعنى أبناء السبيل ـ وصنفان يوجدان فى بعض البلاد دون البعض : وهم الغزاة والمكاتبون . فإن وجد خمسة أصناف مثلا قسم بينهم زكاة ماله بخمسة أقسام متساوية أو متقاربة وعين لكل صنف قسم . ثم قسم كل قسم أسهم فما فوقه إما متساوية أو متفاوتة وليس عليه التسوية بين آحاد الصنف . فإن له أن يقسمه على عشرة وعشرين فينقص نصيب كل واحد . وأما الأصناف فلا تقبل الزيادة والنقصان فلا ينبغى أن ينقص فى كل صنف عن ثلاثة إن وجد . ثم لو لم يجب إلا صاع للفطرة ووجد خمسة أصناف فعليه أن يوصله إلى خمسة عشر نفراً . ولو نقص منهم واحد مع الامكان غرم نصيب ذلك الواحد . فإن عسر عليه ذلك لقلة الواجب فليتشارك جماعة ممن عليهم الزكاة وليخلط مال نفسه بمالهم وليجمع المستحقين وليسلم إليهم حتى يتساهموا فيه فإن ذلك لا بد منه .

بيان دقائق الآداب الباطنة فى الزكاة

اعلم أن على مريد طريق الآخرة بزكاته وظائف ، الوظيفة الأولى : فهم وجوب الزكاة ومعناها ووجه الامتحان فيها ولم جعلت من مبانى الاسلام مع أنها تصرف مالى وليست من عبادة الأبدان ، وفيه ثلاث معان :

الأول : أن التلفظ بكلمتى الشهادة التزام للتوحيد وشهادة بإفراد المعبود وشرط تمام الوفاء به أن لا يبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد فإن المحبة لا تقبل الشركة ، والتوحيد باللسان قليل الجدوى وإنما يمتحن به درجة المحب بمفارقة المحبوب والأموال محبوبة عند الخلائق لأنها آلة تمتعهم بالدنيا وبسببها يأنسون بهذا العالم وينفرون من الموت مع أن فيه لقاء المحبوب ، فامتحنوا بتصديق دعواهم فى المحبوب واستنزلوا عن المال الذى هو مرموقهم ومعشوقهم.

ولذلك قال الله تعالى ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ وذلك بالجهاد وهو مسامحة بالمهجة شوقاً إلى لقاء الله عز وجل والمسامحة بالمال أهون . ولما فهم هذا المعنى فى بذل الأموال انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام : قسم صدقوا التوحيد ووفوا بعهدهم ونزلوا عن جميع أموالهم فلم يدخروا ديناراً ولا درهماً فأبوا أن يتعرضوا لوجوب الزكاة عليهم حتى قيل لبعضهم : كم يجب من الزكاة فى مائتى درهم ؟ فقال : أما على العوام بحكم الشرع فخمسة دراهم ، وأما نحن فيجب علينا بذل الجميع . ولهذا تصدق أبو بكر رضى الله عنه بجميع ماله وعمر رضى الله عنه بشطر ماله فقال ﷺ « ما أبقيت لأهلك ؟ » فقال : مثله . وقال لأبى بكر رضى الله عنه « ما أبقيت لأهلك » قال : الله ورسوله ، فقال ﷺ « بينكما ما بين كلمتيكما (١) » فالصديق وفى بتمام الصدق فلم يمسك سوى المحبوب عنده وهو الله ورسوله .

القسم الثانى : درجتهم دون درجة هذا وهم الممسكون أموالهم المراقبون لمواقيت الحاجات ومواسم الخيرات ، فيكون قصدهم فى الادخار الإنفاق على قدر الحاجة دون التنعم وصرف الفاضل عن الحاجة إلى وجوه البر مهما ظهر وجوهها ، وهؤلاء لا يقتصرون على مقدار الزكاة . وقد ذهب جماعة من التابعين إلى أن فى المال حقوقا سوى الزكاة كالنخعى والشعبى وعطاء ومجاهد . قال الشعبى بعد أن قيل له : هل فى المال حق سوى الزكاة ؟ قال : نعم، أما سمعت قوله عز وجل ﴿ وآتى المال على حبه ذوى القربى ﴾ الآية ، واستدلوا بقوله عز وجل ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ وبقوله تعالى ﴿ وأنفقوا مما رزقناكم ﴾ وزعموا أن ذلك غير منسوخ بآية الزكاة ، بل هو داخل فى حق المسلم على المسلم ، ومعناه أنه يجب على الموسر مهما وجد محتاجا أن يزيل حاجته فضلا عن مال الزكاة ، والذى يصح فى الفقه فى هذا الباب أنه مهما أرهقته حاجته كانت إزالتها فرض كفاية إذ لا يجوز تضييع مسلم ، ولكن يحتمل أن يقال ليس على الموسر إلا تسليم ما يزيل الحاجة قرضا ولا يلزمه بذله بعد أن أسقط الزكاة عن نفسه ، ويحتمل أن يقال يلزمه بذله فى الحال ولا يجوز له الاقتراض أى لا يجوز له تكليف الفقير قبول القرض وهذا مختلف فيه، والاقتراض نزول إلى الدرجة الأخيرة من درجات العوام وهى درجة القسم الثالث الذين يقتصرون على أداء الواجب فلا يزيدون عليه ولا ينقصون عنه وهى أقل الرتب ، وقد اقتصر جميع العوام عليه لبخلهم بالمال وميلهم إليه ، وضعف حبهم للآخرة قال الله تعالى ﴿ إن يسألكموها ويحفكم تبخلوا ﴾ يحفكم أى يستقصى عليكم فكم من عبد اشترى منه ماله ونفسه بأن له الجنة وبين عبد لا يستقصى عليه لبخله ؛ فهذا أحد معانى أمر الله سبحانه عباده ببذل الأموال . المعنى الثانى : التطهير من صفة البخل فإنه من المهلكات قال ﷺ « ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه(٢) » وقال تعالى ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ وسيأتى فى ربع المهلكات وجه كونه مهلكا وكيفية التقصى منه ، وإنما تزول صفة البخل بأن تتعود بذل المال فحب الشىء لا ينقطع إلا بقهر النفس على مفارقته حتى يصير ذلك اعتياداً . فالزكاة بهذا المعنى طهرة أى تطهر صاحبها عن خبث البخل المهلك ، وإنما طهارته بقدر بذله وبقدر فرحه بإخراجه ، واستبشاره بصرفه إلى الله تعالى . المعنى الثالث : شكر النعمة ، فإن لله عز وجل على عبده نعمة فى نفسه وفى ماله ، فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن والمالية شكر لنعمة المال . وما أخس من ينظر إلى الفقير وقد ضيق عليه فى الرزق وأحوج إليه ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدى شكر الله تعالى على إغنائه عن السؤال وإحواج غيره إليه بربع العشر أو العشر من ماله .

---

(١) « جاء أبو بكر بجميع ماله وعمر بشطر ماله .... » أخرجه أبو داود والترمذى والحاكم وصححه من حديث ابن عمر وليس فيه قوله « بينكما ما بين كلمتيكما » .

(٢) « ثلاث مهلكات ... » تقدم .

الوظيفة الثانية : فى وقت الأداء ؛ ومن آداب ذوى الدين التعجيل عن وقت الوجوب إظهاراً للرغبة فى الامتثال بإيصال السرور إلى قلوب الفقراء ومبادرة لعوائق الزمان أن تعوقه عن الخيرات وعلما بأن فى التأخير آفات مع ما يتعرض العبد له من العصيان لو أخر عن وقت الوجوب . ومهما ظهرت داعية الخير من الباطن فينبغى أن يغتنم فإن ذلك لمة الملك « وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » فما أسرع تقلبه والشيطان يعد الفقر ويأمر بالفحشاء والمنكر . وله لمة عقيب لمة الملك فليغتنم الفرصة فيه وليعين لزكاتها إن كان يؤديها جميعا شهرا معلوما وليجتهد أن يكون من أفضل الأوقات ليكون ذلك سببا لنماء قربته وتضاعف زكاته . وذلك كشهر المحرم فإنه أول السنة وهو من الأشهر الحرم ، أو رمضان فقد كان ﷺ أجود الخلق وكان فى رمضان كالريح المرسلة لا يمسك فيه شيئا (١) ولرمضان فضيلة ليلة القدر وأنه أنزل فيه القرآن . وكان مجاهد يقول : لا تقولوا رمضان فإنه اسم من أسماء الله تعالى ولكن قولوا شهر رمضان . وذو الحجة أيضا من الشهور الكثيرة الفضل فإنه شهر حرام وفيه الحج الأكبر وفيه الأيام المعلومات وهى العشر الأول والأيام المعدودات وهى أيام التشريق . وأفضل أيام شهر رمضان العشر الأواخر ، وأفضل أيام ذى الحجة العشر الأول .

الوظيفة الثالثة : الإسرار ، فإن ذلك أبعد عن الرياء والسمعة ، قال ﷺ « أفضل الصدقة جهد المقل إلى فقير فى سر(٢) » وقال بعض العلماء : ثلاث من كنوز البر منها إخفاء الصدقة (٣) وقد روى أيضا مسندا وقال ﷺ « إن العبد ليعمل عملا فى السر فيكتبه الله له سرا فإن أظهره نقل من السر وكتب فى العلانية فإن تحدث به نقل من السر والعلانية وكتب رياء(٤) » وفى الحديث المشهور « سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله ، أحدهم رجل تصدق بصدقة فلم تعلم شماله بما أعطت يمينه(٥) » وفى الخبر « صدقة السر تطفىء غضب الرب (٦) » وقال تعالى ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ وفائدة الإخفاء الخلاص من آفات الرياء والسمعة فقد قال ﷺ « لا يقبل الله من مسمع ولا مرائى ولا منان والمتحدث بصدقته يطلب السمعة والمعطى فى ملأ من الناس يبغى الرياء والإخفاء والسكوت هو المخلص منه (٧) » وقد بالغ فى فضل الإخفاء جماعة حتى اجتهدوا أن لا يعرف القابض المعطى فكان بعضهم يلقيه فى يد أعمى وبعضهم يلقيه فى طريق الفقير وفى موضع جلوسه حيث يراه ولا يرى المعطى وبعضهم كان يصره فى ثوب الفقير وهو نائم وبعضهم كان يوصل إلى يد الفقير على يد غيره بحيث لا يعرف المعطى وكان يستكتم المتوسط شأنه ويوصيه ألا يفشيه ، كل ذلك توصلا إلى إطفاء غضب الرب سبحانه واحترازا من

---

(١) « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الخلق وأجود مايكون فى رمضان ... » أخرجاه من حديث ابن عباس .

(٢) «أفضل الصدقة جهد المقل إلى فقير فى سر» أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم من حديث أبى ذر ولأبى داود من حديث أبى هريرة « أى الصدقة أفضل ؟ قال جهد المقل » .

(٣) «ثلاث من كنوز البر فذكر منها إخفاء الصدقة » أخرجه أبو نعيم فى كتاب الإيجاز وجوامع الكلم من حديث ابن عباس بسند ضعيف .

(٤) « إن العبد ليعمل عملا فى السر فيكتبه الله له سرا فإن أظهره نقل من السر ... » أخرج الخطيب فى التاريخ من حديث أنس نحوه بإسناده ضعيف .

(٥) « سبعة يظلهم الله فى ظله ... » أخرجاه من حديث أبى هريرة .

(٦) « صدقة السر تطفىء غضب الرب » اخرجه الطبرانى من حديث أبى أمامه ورواه أبو الشيخ فى كتاب الثواب والبيهقى فى الشعب من حديث أبى سعيد كلاهما ضعيف والترمذى وحسنه من حديث أبى هريرة « إن الصدقة لتطفىء غضب الرب » ولابن حبان نحوه من حديث أنس وهو ضعيف أيضا .

(٧) « لايقبل الله من مسمع ولا مراء منان » لم أظفر به هكذا .

الرياء والسمعة . ومهما لم يتمكن إلا بأن يعرفه شخص واحد فتسليمه إلى وكيل ليسلم إلى المسكين والمسكين لا يعرف أولى ، إذ فى معرفه المسكين الرياء والمنة جميعا وليس فى معرفة المتوسط إلا الرياء . ومهما كانت الشهرة مقصودة له حبط عمله لأن الزكاة إزالة للبخل وتضعيف لحب المال . وحب الجاه أشد استيلاء على النفس من حب المال وكل واحد منهما مهلك فى الآخرة ، ولكن صفة البخل تنقلب فى القبر فى حكم المثال عقربا لاذعا ، وصفة الرياء تنقلب فى القبر أفعى من الأفاعى وهو مأمور بتضعيفهما أو قتلهما لدفع أذاهما أو تخفيف أذاهما فمهما قصد الرياء والسمعة فكأنه جعل بعض أطراف العقرب مقويا للحية فبقدر ما ضعف من العقرب زاد فى قوة الحية ولو ترك الأمر كما كان لكان الأمر أهون عليه . وقوة هذه الصفات التى بها قوتها العمل بمقتضاها ، وضعف هذه الصفات بمجاهدتها ومخالفتها والعمل بخلاف مقتضاها فأى فائدة فى أن يخالف دواعى البخل ويجيب دواعى الرياء فيضعف الأدنى ويقوى الأقوى ؟ وستأتى أسرار هذه المعانى فى ربع المهلكات .

الوظيفة الرابعة : أن يظهر حيث يعلم أن فى إظهاره ترغيبا للناس فى الاقتداء ويحرس سره من داعية الرياء بالطريق الذى سنذكره فى معالجة الرياء فى كتاب الرياء فقد قال الله عز وجل ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هى ﴾ وذلك حيث يقتضى الحال الإبداء إما للاقتداء وإما لأن السائل إنما سأل على ملأ من الناس فلا ينبغى أن يترك التصدق خيفة من الرياء فى الإظهار بل ينبغى أن يتصدق ويحفظ سره عن الرياء بقدر الإمكان ، وهذا لأن فى الإظهار محذورا ثالثا سوى المن والرياء وهو هتك ستر الفقير ، فإنه ربما يتأذى بأن يرى فى صورة المحتاج فمن أظهر السؤال فهو الذى هتك ستر نفسه . فلا يحذر هذا المعنى فى إظهاره وهو كإظهار الفسق على من تستر به فإنه محظور ، والتجسس فيه والاعتياد بذكره منهى عنه ، فأما من أظهره فإقامة الحد عليه إشاعة ولكن هو السبب فيها. وبمثل هذا المعنى قال ﷺ : « من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له [١] » وقد قال الله تعالى ﴿ وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ﴾ ندب إلى العلانية أيضا لما فيها من فائدة الترغيب فليكن العبد دقيق التأمل فى وزن هذه الفائدة بالمحذور الذى فيه فإن ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص ، فقد يكون الإعلان فى بعض الأحوال لبعض الأشخاص أفضل . ومن عرف الفوائد والغوائل ولم ينظر بعين الشهوة اتضح له الأولى والأليق بكل حال .

الوظيفة الخامسة : أن لا يفسد صدقته بالمن والأذى قال الله تعالى ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ واختلفوا فى حقيقة المن والأذى فقيل المن أن يذكرها والأذى أن يظهرها . وقال سفيان : من من فسدت صدقته فقيل له: كيف المن ؟ فقال أن يذكره ويتحدث به . وقيل : المن أن يستخدمه بالعطاء ، والأذى أن يعيره بالفقر . وقيل المن أن يتكبر عليه لأجل عطائه ، والأذى أن ينتهره أو يوبخه بالمسألة . وقد قال ﷺ : « لا يقبل الله صدقة منان [٢] » وعندى أن المن له أصل ومغرس وهو من أحوال القلب وصفاته ، ثم يتفرع عليه أحوال ظاهرة على اللسان والجوارح فأصله أن يرى نفسه محسنا إليه ومنعما عليه ، وحقه أن يرى الفقير محسنا إليه بقبول حق الله عز وجل منه الذى هو طهارته ونجاته من النار ، وأنه لو لم يقبله لبقى مرتهنا به فحقه أن يتقلد منة الفقير إذ جعل كفه نائبا عن الله عز وجل فى قبض حقه سبحانه وتعالى . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الصدقة تقع بيد الله عز وجل قبل أن تقع فى يد السائل [٣] » فليتحقق أنه مسلم إلى الله عز وجل حقه والفقير آخذ من الله تعالى رزقه بعد صيرورته إلى الله عز وجل . ولو كان عليه دين لإنسان فأحال به عبده أو خادمه الذى هو متكفل برزقه

---

(١) « من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له » أخرجه عدى وابن حبان فى الضعفاء من حديث أنس بسند ضعيف .

(٢) « لا يقبل الله صدقة منان » هو كالذى قبله بحديث لم أجده .

(٣) « إن الصدقة تقع بيد الله قبل أن تقع فى يد السائل » أخرجه الدارقطنى فى الأفراد من حديث ابن عباس وقال غريب من حديث عكرمة عنه ورواه البيهقى فى الشعب بسند ضعيف .

لكان اعتقاد مؤدى الدين كون القابض تحت منته سفها وجهلا ، فإن المحسن إليه هو المتكفل برزقه ،أما هو فإنما يقضى الذى لزمه بشراء ما أحبه فهو ساع فى حق نفسه فلم يمن به على غيره . ومهما عرف المعانى الثلاثة التى ذكرناها فى فهم وجوب الزكاة أو أحدها لم ير نفسه محسنا إلا إلى نفسه؛إما ببذل ماله إظهارا لحب الله تعالى أو تطهيرا لنفسه عن رذيلة البخل أو شكراً على نعمة المال طلبا للمزيد . وكيفما كان فلا معاملة بينه و بين الفقير حتى يرى نفسه محسنا إليه ، ومهما حصل هذا الجهل بأن رأى نفسه محسنا إليه تفرع منه على ظاهره ماذكر فى معنى المن وهو التحدث به وإظهاره وطلب المكافأة منه بالشكر والدعاء والخدمة والتوقير والتعظيم والقيام بالحقوق والتقديم فى المجالس والمتابعة فى الأمور ؛ فهذه كلها ثمرات المنة ، ومعنى المنة فى الباطن ما ذكرناه . وأما الأذى : فظاهره التوبيخ والتعبير وتخشين الكلام وتقطيب الوجه وهتك الستر بالإظهار وفنون الاستخفاف ، وباطنه وهو منبعه أمران ، أحدهما : كراهيته لرفع اليد عن المال وشدة ذلك على نفسه فإن ذلك يضيق الخلق لا محالة . والثانى : رؤيته أنه خير من الفقير وأن الفقير لسبب حاجته أخس منه وكلاهما منشؤه الجهل . أما كراهية تسليم المال فهو حمق لأن من كره بذل درهم فى مقابلة ما يساوى ألفا فهو شديد الحمق . ومعلوم أنه يبذل المال لطلب رضا الله عز وجل والثواب فى الآخرة وذلك أشرف مما بذله أو يبذله لتطهير نفسه عن رذيلة البخل أو شكراً لطلب المزيد . وكيفما فرض فالكراهة لا وجه لها . وأما الثانى : فهو أيضاً جهل لأنه لو عرف فضل الفقر على الغنى وعرف خطر الأغنياء لما استحقر الفقير بل تبرك به وتمنى درجته ،فصلحاء الأغنياء يدخلون الجنة بعد الفقراء بخمسمائة عام . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « هم الأخسرون ورب الكعبة فقال أبو ذر : من هم ؟ قال : هم الأكثرون أموالا » الحديث ، ثم كيف يستحقر الفقير وقد جعله الله تعالى متجرة له ؟ إذ يكتسب المال بجهده ويستكثر منه ويجتهد فى حفظه بمقدار الحاجة وقد ألزم أن يسلم إلى الفقير قدر حاجته ويكف عنه الفاضل الذى يضره لو سلم إليه ، فالغنى مستخدم للسعى فى رزق الفقير ويتميز عليه بتقليد المظالم والتزام المشاق وحراسة الفضلات إلى أن يموت فيأكله أعداؤه ، فإذن مهما انتقلت الكراهية وتبدلت بالسرور والفرح بتوفيق الله تعالى له فى أداء الواجب وتفضيله الفقير حتى يخلصه عن عهدته بقبوله منه انتفى الأذى والتوبيخ وتقطيب الوجه وتبدل بالاستبشار والثناء وقبول المنة فهذا منشأ المن والأذى

فان قلت : فرؤيته نفسه فى درجة المحسن أمر غامض فهل من علامة يمتحن بها قلبه فيعرف بها أنه لم ير نفسه محسنا ؟

فاعلم أن له علامة دقيقة واضحة وهو أن يقدر أن الفقير لو جنى عليه جناية أو مالأ عدواً له عليه مثلا هل كان يزيد استنكاره واستبعاده له على استنكاره قبل التصدق ؟ فان زاد لم تخل صدقته عن شائبة المنة لأنه توقع بسببه ما لم يكن يتوقعه قبل ذلك .

فان قلت : فهذا أمر غامض ولا ينفك قلب أحد عنه فما دواؤه ؟

فاعلم أن له دواء باطنا ودواء ظاهراً . أما الباطن : فالمعرفة بالحقائق التى ذكرناها فى فهم الوجوب وان الفقير هو المحسن إليه فى تطهيره بالقبول . وأما الظاهر : فالأعمال التى يتعاطاها متقلد المنة فان الأفعال التى تصدر عن الأخلاق تصبغ القلب بالأخلاق – كما سيأتى أسراره فى الشطر الأخير من الكتاب – ولهذا كان بعضهم يضع الصدقة بين يدى الفقير ويتمثل قائماً بين يديه يسأله قبولها حتى يكون هو فى صورة السائلين وهو يستشعر مع ذلك كراهية لو رده . وكان بعضهم يبسط كفه ليأخذ الفقير من كفه وتكون يد الفقير هى العليا . وكانت عائشة وأم سلمه رضى الله عنهما إذا أرسلتا معروفا إلى فقير قالتا للرسول : احفظ ما يدعو به ثم كانتا تردان عليه مثل قوله ، وتقولان : هذا بذاك حتى تخلص لنا صدقتنا . فكانوا لا يتوقعون الدعاء لأنه شبه المكافأة وكانوا يقابلون الدعاء

بمثله . وهكذا فعل عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضى الله عنهما . وهكذا كان أرباب القلوب يداوون قلوبهم ولا دواء من حيث الظاهر إلا هذه الأعمال الدالة على التذلل والتواضع وقبول المنة ، ومن حيث الباطن المعارف التى ذكرناها ، هذا من حيث العمل وذلك من حيث العلم . ولا يعالج القلب إلا بمعجون العلم والعمل ، وهذه الشربطة من الزكوات تجرى مجرى الخشوع من الصلاة وثبت ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم « ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها [1] » وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم « لا يتقبل الله صدقة من منان » وكقوله عز وجل ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ وأما فتوى الفقيه بوقوعها موقعها وبراءة ذمته عنها دون هذا الشرط فحديث آخر وقد أشرنا إلى معناه فى كتاب الصلاة .

الوظيفة السادسة : أن يستصغر العطية فإنه إن استعظمها أعجب بها والعجب من المهلكات وهو محبط الأعمال قال تعالى ﴿ ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ﴾ ويقال إن الطاعة كلما استصغرت عظمت عند الله عز وجل . والمعصية كلما استعظمت صغرت عند الله عز وجل . وقيل لا يتم المعروف إلا بثلاثة أمور: تصغيره وتعجيله وستره وليس الاستعظام هو المن والأذى ؛ فإنه لو صرف ماله إلى عمارة مسجد أو رباط أمكن فيه الاستعظام ولا يمكن فيه المن والأذى بل العجب والاستعظام يجرى فى جميع العبادات ودواؤه علم وعمل . أما العلم : فهو أن يعلم أن العشر أو ربع العشر قليل من كثير وأنه قد قنع لنفسه بأخس درجات البذل كما ذكرنا فى فهم الوجوب فهو جدير بأن يستحي منه فكيف يستعظمه ؟ وإن ارتقى إلى الدرجة العليا فبذل كل ماله أو أكثره فليتأمل أنه من أين له المال وإلى ماذا يصرفه ؟ فالمال لله عز وجل وله المنة عليه إذ أعطاه ووفقه لبذله فلم يستعظم فى حق الله ما هو عين حق الله سبحانه ؟ وإن كان مقامه يقتضى أن ينظر إلى الآخرة وأنه يبذله للثواب فلم يستعظم بذل ما ينتظر عليه أضعافه ؟ وأما العمل : فهو أن يعطيه عطاء الخجل من بخله بامساك بقية ماله عن الله عز وجل فتكون هيئته الانكسار والحياء ، كهيئة من يطالب برد وديعة فيمسك بعضها ويرد البعض ، لأن المال كله لله عز وجل وبذل جميعه هو الأحب عند الله سبحانه ، وإنما لم يأمر به عبده لأنه يشق عليه بسبب بخله كما قال الله عز وجل ﴿ فيحفكم تبخلوا ﴾ .

الوظيفة السابعة : أن ينتقى من ماله أجوده وأحبه إليه وأجله وأطيبه فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا . وإذا كان المخرج من شبهة فربما لا يكون ملكا له مطلقا فلا يقع الموقع . وفى حديث أبان عن أنس بن مالك «طوبى لعبد أنفق من مال اكتسبه من غير معصية [2]» وإذا لم يكن المخرج من جيد المال فهو من سوء الأدب إذ قد يمسك الجيد لنفسه أو لعبده أو لأهله فيكون قد آثر على الله عز وجل غيره ، ولو فعل هذا بضيفه وقدم إليه أردأ طعام فى بيته لأوغر بذلك صدره ، هذا إن كان نظره إلى الله عز وجل ، وإن كان نظره إلى نفسه وثوابه فى الآخرة فليس بعاقل من يؤثر غيره على نفسه ، وليس له من ماله إلا ما تصدق به فأبقى او اكل فأفنى ، والذى يأكله قضاء وطر فى الحال فليس من العقل قصر النظر على العاجلة وترك الادخار وقد قال الله تعالى ﴿ ياايها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما اخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا ان تغمضوا فيه ﴾ اى لا تأخذوه إلا مع كراهية وحياء وهو معنى الإغماض فلا تؤثروا به ربكم . وفى الخبر «سبق درهم مائة ألف درهم[3]

---

(١) « ليس للمؤمن من صلاته إلا ما عقل منها » تقدم فى الصلاة .

(٢) حديث أنس « طوبى لعبد أنفق من مال اكتسبه من غير معصية » أخرجه عدى والبزار .

(٣) « سبق درهم مائة ألف » أخرجه النسائى وابن حبان وصححه من حديث أبى هريرة .

وذلك بأن يخرجه الإنسان وهو من أحل ماله وأجوده فيصدر ذلك عن الرضا والفرح بالبذل ، وقد يخرج مائة ألف درهم مما يكره من ماله فيدل ذلك على أنه ليس يؤثر الله عز وجل بشيء مما يحبه . وبذلك ذم الله تعالى قوما جعلوا لله ما يكرهون فقال تعالى ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا ﴾ وقف بعض القراء على النفي تكذيباً لهم ، ثم ابتدأ وقال ﴿ جرم أن لهم النار ﴾ أى كسب لهم جعلهم لله ما يكرهون النار.

الوظيفة الثامنة : أن يطلب لصدقته من تزكو به الصدقة ولايكتفي بأن يكون من عموم الأصناف الثمانية فإن فى عمومهم خصوص صفات فليراع خصوص تلك الصفات وهى ستة :

الأولى : أن يطلب الأتقياء المعرضين عن الدنيا المتجردين لتجارة الآخرة ، قال ﷺ : « لا تأكل إلا طعام تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى (١) » وهذا لأن التقى يستعين به على التقوى فتكون شريكا له فى طاعته بإعانتك إياه وقال ﷺ : « أطعموا طعامكم الأتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين (٢) » وفى لفظ آخر « أضف بطعامك من تحبه فى الله تعالى (٣) » وكان بعض العلماء يؤثر بالطعام فقراء الصوفية دون غيرهم فقيل له : لو عممت بمعروفك جميع الفقراء لكان أفضل . فقال : لا هؤلاء قوم هممهم لله سبحانه فإذا طرقتهم فاقة تشتت هم أحدهم فلأن أرد همة واحد إلى الله عز وجل أحب إلى من أن أعطى ألفاً ممن همته الدنيا ، فذكر هذا الكلام للجنيد فاستحسنه وقال : هذا ولى من أولياء الله تعالى وقال : ما سمعت منذ زمان كلاما أحسن من هذا ، ثم حكى أن هذا الرجل اختل حاله وهم بترك الحانوت فبعث إليه الجنيد مالا وقال : اجعله بضاعتك ولا تترك الحانوت فإن التجارة لا تضر مثلك ، وكان هذا الرجل بقالا لا يأخذ من الفقراء ثمن ما يبتاعون منه .

الصفة الثانية : ان يكون من أهل العلم خاصة فإن ذلك إعانة له على العلم ، والعلم أشرف العبادات مهما صحت فيه النية . وكان ابن المبارك يخصص بمعروفه أهل العلم فقيل له : لو عممت ، فقال : إنى لا أعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء فإذا اشتغل قلب أحدهم بحاجته لم يتفرغ للعلم ولم يقبل على التعلم فتفريغهم للعلم أفضل .

الصفة الثالثة : أن يكون صادقا فى تقواه وعلمه بالتوحيد . وتوحيده أنه إذا أخذ العطاء حمد الله عز وجل وشكره ورأى أن النعمة منه ولم ينظر إلى واسطة فهذا هو أشكر العباد لله سبحانه وهو أن يرى أن النعمة كلها منه . وفى وصية لقمان لابنه : لاتجعل بينك وبين الله منعما واعدد نعمة غيره عليك مغرما . ومن شكر غير الله سبحانه فكأنه لم يعرف المنعم ولم يتيقن أن الواسطة مقهور مسخر بتسخير الله عز وجل إذ سلط الله تعالى عليه دواعى الفعل ويسر له الأسباب فأعطى وهو مقهور ، ولو أراد تركه لم يقدر عليه بعد أن ألقى الله عز وجل فى قلبه أن صلاح دينه ودنياه فى فعله . فمهما قوى الباعث أوجب ذلك جزم الإرادة وانتهاض القدرة ولم يستطع العبد مخالفة الباعث القوى الذى لا تردد فيه . والله عز وجل خالق للبواعث ومهيجها ومزيل للضعف والتردد عنها ومسخر القدرة للانتهاض بمقتضى البواعث . فمن تيقن هذا لم يكن له نظر إلا إلى مسبب الأسباب . وتيقن مثل هذا العبد أنفع للمعطى من ثناء غيره وشكره ، فذلك حركة لسان يقل فى الأكثر جدواه وإعانة مثل هذا العبد الموحد لاتضيع ، وأما الذى يمدح بالعطاء ويدعو بالخير فسيذم بالمنع ويدعو بالشر عند الإيذاء وأحواله متفاوتة . وقد روى أنه ﷺ بعث معروفا إلى بعض الفقراء ، وقال للرسول احفظ ما يقول ، فلما أخذ قال : الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره ولا يضيع من شكره ، ثم قال : اللهم إنك لم تنس فلانا — يعنى نفسه — فاجعل فلانا لا ينساك — يعنى بفلان نفسه — فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك

---

(١) « لاتأكل إلا طعام تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى » أخرجه أبو داود والترمذى من حديث أبى سعيد بلفظ « لاتصحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقى ».

(٢) « أطعموا طعامكم الأتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين » أخرجه ابن المبارك فى البر والصلة من حديث أبى سعيد الخدرى قال ابن طاهر غريب فيه مجهول .

(٣) « أضف بطعامك من تحبه الله » أخرجه ابن المبارك أنبأنا جويبر عن الضحاك مرسلا .

فسر وقال ﷺ : علمت أنه يقول ذلك (١) » فانظر كيف قصر التفاته على الله وحده « وقال ﷺ لرجل : تب فقال : أتوب إلى الله وحده ولا أتوب إلى محمد ، فقال ﷺ عرف الحق لأهله (٢) » ولما نزلت براءة عائشة رضى الله عنها فى قصة الإفك قال أبو بكر رضى الله عنه لها : قومى فقبلى رأس رسول الله ﷺ ، فقالت : والله لا افعل ولا أحمد إلا الله . فقال ﷺ : دعها يا أبا بكر (٣) » وفى لفظ آخر « أنها رضى الله عنها قالت لأبى بكر رضى الله عنه : لا بحمدك ولا بحمد صاحبك » فلم ينكر رسول الله ﷺ عليها ذلك مع أن الوحى وصل إليها على لسان رسول الله ﷺ . ورؤية الأشياء من غير الله سبحانه وصف الكافرين قال الله تعالى ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ ومن لم يصف باطنه عن رؤية الوسائط إلا من حيث إنهم وسائط فكأنه لم ينفك عن الشرك الخفى سره . فليتق الله سبحانه فى تصفية توحيده من كدورات الشرك وشوائبه .

الصفة الرابعة : ان يكون مستترا مخفيا حاجته لا يكثر البث والشكوى او يكون من اهل المروءة ممن ذهبت نعمته وبقيت عادته فهو يتعيش فى جلباب التجمل قال الله تعالى ﴿ يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا ﴾ اى لا يلحون فى السؤال لأنهم اغنياء بيقينهم اعزة بصبرهم ، وهذا ينبغى ان يطلب بالتفحص عن أهل الدين فى كل محلة ويستكشف عن بواطن أحوال أهل الخير والتجمل فثواب صرف المعروف إليهم أضعاف ما يصرف إلى المجاهرين بالسؤال .

الصفة الخامسة : أن يكون معيلا أو محبوساً بمرض أو سبب من الأسباب فيوجد فيه معنى قوله عز وجل : ﴿ للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله ﴾ أى حبسوا فى طريق الآخرة بعيلة أو ضيق معيشة أو إصلاح قلب ﴿ لا يستطيعون ضرباً فى الأرض ﴾ لأنهم مقصوصو الجناح مقيدو الأطراف . فهذه الأسباب كان عمر رضى الله عنه يعطى أهل البيت القطيع من الغنم ـ العشرة فما فوقها ـ وكان ﷺ يعطى العطاء على قدر العيلة (٤) وسأل عمر رضى الله عنه عن جهد البلاء فقال : كثرة العيال وقلة المال .

الصفة السادسة : أن يكون من الأقارب وذوى الأرحام فتكون صدقة وصلة رحم وفى صلة الرحم من الثواب مالا يحصى قال على رضى الله عنه : لأن أصل أخا من إخوانى بدرهم أحب إلى من أن أتصدق بعشرين درهما ولأن أصله بعشرين درهما أحب إلى من أن أتصدق بمائة درهم ولأن أصله بمائة درهم أحب إلى من أن أعتق رقبة . والأصدقاء وإخوان الخير أيضاً

---

(١) « بعث معروفا إلى بعض الفقراء وقال للرسول احفظ مايقول فلما أخذه قال الحمد لله الذى لاينسى من ذكره ... » لم أجد له أصلا إلا فى حديث ضعيف من حديث ابن عمر روى ابن منده فى الصحابة أوله ولم يسق هذه القطعة التى أوردها المصنف وسمى الرجل حديرا ، فقد روينا من طريق البيهقى « أنه وصل لحدير من أبى الدرداء شىء فقال اللهم إنك لم تنس حديرا فاجعل حديرا لا ينساك » وقيل إن هذا آخر لاصحبة له يكنى أبا حريرة وقد ذكره ابن حبان فى ثقات التابعين . (٢) « قال لرجل تب فقال أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد ... » أخرجه أحمد والطبرانى من حديث الأسود ابن سريع بسند ضعيف . (٣) « لما نزلت براءة عائشة قال أبو بكر قومى فقبلى رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ... » أخرجه أبو داود من حديث عائشة بلفظ « فقال أبواى قومى فقبلى رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أحمد الله لا إياكما » وللبخارى تعليقا « فقال أبى قومى إليه فقلت لا والله لا أقوم إليه ولا أحمده ولاأحمدكما ولكن أحمد الله » وله ولمسلم « فقالت لى أمى قومى إليه فقلت لا والله لا أقوم إليه ولا أحمدإلا الله » وللطبرانى « فقالت بحمد الله لا بحمد صاحبك » وله من حديث ابن عباس « فقالت لا بحمدك ولا بحمد صاحبك » وله من حديث ابن عمر « فقال أبو بكر قومى فاحتضنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لا والله لا أدنو منه ... » وفيه « أنها قالت للنبى صلى الله عليه وسلم بحمد الله لابحمدك » . (٤) « كان يعطى العطاء على مقدار العيلة » لم أر له أصلا ولأبى داود من حديث عوف بن مالك « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه الفىء قسمه فى يومه وأعطى الآهل حظين وأعطى العزب حظا » .

يقدمون على المعارف كما يتقدم الأقارب على الأجانب ؛ فليراع هذه الدقائق فهذه هى الصفات المطلوبة ، وفى كل صفة درجات فينبغى أن يطلب أعلاها ، فإن وجد من جمع جملة من هذه الصفات فهى الذخيرة الكبرى والغنيمة العظمى ومهما اجتهد فى ذلك وأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد ؛ فإن أحد أجريه فى الحال تطهيره نفسه عن صفة البخل وتأكيد حب الله عز وجل فى قلبه واجتهاده فى طاعته ، وهذه الصفات هى التى تقوى فى قلبه إلى لقاء الله عز وجل . والأجر الثانى مايعود إليه من فائدة دعوة الآخذ وهمته فإن قلوب الأبرار لها آثار فى الحال والمآل ، فإن أصاب حصل الأجران وإن أخطأ حصل الأول دون الثانى فبهذا يضاعف أجر المصيب فى الاجتهاد ههنا وفى سائر المواضع والله أعلم .

الفصل الثالث : فى القابض وأسباب استحقاقه ووظائف قبضه

بيان أسباب الاستحقاق

اعلم أنه لا يستحق الزكاة إلا حر مسلم ليس بهاشمى ولا بمطلبى اتصف بصفة من صفات الأصناف الثمانية المذكورين فى كتاب الله عز وجل . ولا تصرف زكاة إلى كافر ولا إلى عبد ولا إلى هاشمى ولا إلى مطلبى . أما الصبى والمجنون فيجوز الصرف إليهما إذا قبض وليهما فلنذكر صفات الأصناف الثمانية :

(الصنف الأول) الفقراء : والفقير هو الذى ليس له مال ولا قدرة له على الكسب ، فإن كان معه قوت يومه وكسوة حاله فليس بفقير ولكنه مسكين ، وإن كان معه نصف قوت يومه فهو فقير ، وإن كان معه قميص وليس معه منديل ولا خف ولا سراويل ولم تكن قيمة القميص بحيث تفى بجميع ذلك كما يليق بالفقراء فهو فقير ؛ لأنه فى الحال قد عدم ماهو محتاج إليه وما هو عاجز عنه فلا ينبغى أن يشترط فى الفقير أن لا يكون له كسوة ساتر العورة فإن هذا غلو ، والغالب أنه لا يوجد مثله ولا يخرجه عن الفقر كونه معتادا للسؤال ؛ فلا يجعل السؤال كسبا بخلاف مالو قدر على كسب فإن ذلك يخرجه عن الفقر فإن قدر على الكسب بآلة فهو فقير ويجوز أن يشترى له آلة . وإن قدر على كسب لا يليق بمروءته وبحال مثله فهو فقير ، وإن كان متفقها ويمنعه الاشتغال بالكسب عن التفقه فهو فقير ولا تعتبر قدرته ، وإن كان متعبداً يمنعه الكسب من وظائف العبادات وأوراد الأوقات فليكتسب لأن الكسب أولى من ذلك قال صلى الله عليه وسلم «طلب الحلال فريضة بعد الفريضة[1]» وأراد به السعى فى الاكتساب ، وقال عمر رضى الله عنه : كسب فى شبهة خير من مسألة . وإن كان مكتفيا بنفقة أبيه أو من تجب عليه نفقته فهذا أهون من الكسب فليس بفقير .

(الصنف الثانى) المساكين : والمسكين هو الذى لايفى دخله بخرجه فقد يملك ألف درهم وهو مسكين وقد لا يملك إلا فأسا وحبلا وهو غنى ، والدويرة التى يسكنها والثوب الذى يستره على قدر حاله لا يسلبه اسم المسكين ، وكذا أثاث البيت - أعنى مايحتاج إليه - وذلك مايليق به ، وكذا كتب الفقه لاتخرجه عن المسكنة وإذ لم يملك إلا الكتب فلا تلزمه صدقة الفطر . وحكم الكتاب حكم الثوب وأثاث البيت فإنه محتاج إليه ولكن ينبغى أن يحتاط فى قطع الحاجة بالكتاب ، فالكتاب محتاج لثلاثة أغراض : التعليم والاستفادة والتفرج بالمطالعة . أما حاجة التفرج فلا تعتبر كاقتناء كتب الأشعار وتواريخ الأخبار وأمثال ذلك مما لا ينفع فى الآخرة ولا يجرى فى الدنيا إلا مجرى التفرج والاستئناس فهذا يباع فى الكفارة وزكاة الفطر وتمنع اسم المسكنة . وأما حاجة التعليم إن كان لأجل الكسب كالمؤدب والمعلم والمدرس بأجرة فهذه آلته فلا تباع فى الفطرة كأدوات الخياط وسائر المحترفين ،

(١) « طلب الحلال فريضة » أخرجه الطبرانى والبيهقى فى شعب الإيمان من حديث ابن مسعود بسند ضعيف.

وإن كان يدرس للقيام بفرض الكفاية فلا تباع ولا يسلبه ذلك اسم المسكين لأنها حاجة مهمة ، وأما حاجة الاستفادة والتعلم من الكتاب كادخاره كتب طب ليعالج بها نفسه أو كتاب وعظ ليطالع فيه ويتعظ به فإن كان فى البلد طبيب وواعظ فهذا مستغنى عنه وإن لم يكن فهو محتاج إليه . ثم ربما لا يحتاج إلى مطالعة الكتاب إلا بعد مدة فينبغى أن يضبط مدة الحاجة . والأقرب أن يقال مالا يحتاج إليه فى السنة فهو مستغنى عنه فإن من فضل من قوت يومه شىء لزمته الفطرة . فإذا قدرنا القوت باليوم فحاجة أثاث البيت وثياب البدن ينبغى أن تقدر بالسنة ، فلا تباع ثياب الصيف فى الشتاء والكتب بالثياب والأثاث أشبه وقد يكون له من كتاب نسختان فلا حاجة إلى إحداهما. فإن قال : إحداهما أصح والأخرى أحسن فأنا محتاج إليهما قلنا : اكتف بالأصح وبع الأحسن ودع التفرج والترفه. وإن كان نسختان من علم واحد إحداهما بسيطة والأخرى وجيزة فإن كان مقصوده الاستفادة فليكتف بالبسيطة وإن كان قصده التدريس فيحتاج إليهما إذ فى كل واحدة فائدة ليست فى الأخرى . وأمثال هذه الصور لا تنحصر ولم يتعرض له فى فن الفقه وإنما أوردناه لعموم البلوى والتنبيه بحسن هذا النظر على غيره . فان استقصاء هذه الصور غير ممكن إذ يتعدى مثل هذا النظر فى أثاث البيت فى مقدارها وعددها ونوعها وفى ثياب البدن وفى الدار وسعتها وضيقها . وليس لهذه الأمور حدود محدودة ولكن الفقيه يجتهد فيها برأيه ويقرب فى التحديدات بما يراه ويقتحم فيه خطر الشبهات . والمتورع يأخذ فيه بالأحوط ويدع ما يريبه إلى مالا يريبه . والدرجات المتوسطة المشكلة بين الأطراف المتقابلة الجلية كثيرة ولا ينجى منها إلا الاحتياط والله أعلم .

(الصنف الثالث) العاملون : وهم السعاة الذين يجمعون الزكوات سوى الخليفة والقاضى ويدخل فيه العريف والكاتب والمستوفى والحافظ والنقال ولا يزاد واحد منهم على أجرة المثل ، فان فضل شىء من الثمن عن أجر مثلهم رد على بقية الأصناف وإن نقص كمل من مال المصالح .

(الصنف الرابع) المؤلفة قلوبهم على الإسلام : وهم الأشراف الذين أسلموا وهم مطاعون فى قومهم ، وفى إعطائهم تقريرهم على الإسلام وترغيب نظائرهم وأتباعهم .

(الصنف الخامس) المكاتبون : فيدفع إلى السيد سهم المكاتب وإن دفع إلى المكاتب جاز ولا يدفع السيد زكاته إلى مكاتب نفسه لأنه يعد عبدا له .

(الصنف السادس) الغارمون : والغارم هو الذى استقرض فى طاعة أو مباح وهو فقير فان استقرض فى معصية فلا يعطى إلا إذا تاب ، وإن كان غنيا لم يقض دينه إلا إذا كان قد استقرض لمصلحة أو إطفاء فتنة

(الصنف السابع) الغزاة : الذين ليس لهم مرسوم فى ديوان المرتزقة فيصرف إليهم سهم وإن كانوا أغنياء إعانة لهم على الغزو .

(الصنف الثامن) ابن السبيل : وهو الذى شخص من بلده ليسافر فى غير معصية أو اجتاز بها فيعطى إن كان فقيرا وإن كان له مال ببلد آخر أعطى بقدر بلغته .

فان قلت : فبم تعرف هذه الصفات؟ قلنا : أما الفقر والمسكنة فبقول الآخذ ولا يطالب ببينة ولا يحلف بل يجوز اعتماد قوله إذا لم يعلم كذبه . وأما الغزو والسفر فهو أمر مستقبل فيعطى بقوله إنى غاز فان لم يف به استرد . وأما بقية الأصناف فلابد فيها من البينة فهذه شروط الاستحقاق . وأما مقدار ما يصرف إلى كل واحد فسيأتى .

بيان وظائف القابض وهى خمسة

(الأولى) ان يعلم ان الله عز وجل اوجب صرف الزكاة إليه ليكفى همه ويجعل همومه هما واحدا . فقد تعبد الله عز وجل الخلق بأن يكون همهم واحداً وهو الله سبحانه واليوم الآخر هو المعنى بقوله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ولكن لما اقتضت الحكمة ان يسلط على العبد الشهوات والحاجات وهى تفرق همة

اقتضى الكرم إفاضة نعمة تكفى الحاجات فأكثر الأموال وصبها فى أيدى عباده لتكون آلة لهم فى دفع حاجاتهم ووسيلة لتفرغهم لطاعاتهم ، فمنهم من أكثر ماله فتنة وبلية فأقحمه فى الخطر ومنهم من أحبه فحماه عن الدنيا كما يحمى المشفق مريضه فزوى عنه فضولها وساق إليه قدر حاجته على يد الأغنياء ليكون سهل الكسب والتعب فى الجمع والحفظ عليهم ، وفائدته تنصب إلى الفقراء فيتجردون لعبادة الله والاستعداد لما بعد الموت فلا تصرفهم عنها فضول الدنيا ولا تشغلهم عن التأهب الفاقة وهذا منتهى النعمة . فحق الفقير أن يعرف قدر نعمة الفقر ويتحقق أن فضل الله عليه فيما زواه عنه أكثر من فضله فيما أعطاه كما سيأتى فى كتاب الفقر تحقيقه وبيانه إن شاء الله تعالى . فليأخذ ما يأخذه من الله سبحانه رزقا له وعونا له على الطاعة ولتكن نيته فيه أن يتقوى به على طاعة الله فإن لم يقدر عليه فليصرفه إلى ما أباحه الله عز وجل فإن استعان به على معصية الله كان كافرا لأنعم الله عز وجل مستحقا للبعد والمقت من الله سبحانه .

(الثانية) أن يشكر المعطى ويدعو له ويثنى عليه ويكون شكره ودعاؤه بحيث لا يخرجه عن كونه واسطة ولكنه طريق وصول نعمة الله سبحانه إليه ، وللطريق حق من حيث جعله الله طريقا وواسطة وذلك لا ينافى رؤية النعمة من الله سبحانه فقد قال صلى الله عليه وسلم « من لم يشكر الناس لم يشكر الله (١) » وقد أثنى الله عز وجل على عباده فى مواضع على أعمالهم وهو خالقها وفاطر القدرة عليها نحو قوله تعالى ﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾ إلى غير ذلك . وليقل القابض فى دعائه طهر الله قلبك فى قلوب الأبرار وزكى عملك فى عمل الأخيار وصلى على روحك فى أرواح الشهداء وقد قال صلى الله عليه وسلم « من أسدى إليكم معروفا فكافئوه فإن لم تستطيعوا فادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه (٢) » ومن تمام الشكر أن يستر عيوب العطاء إن كان فيه عيب ولا يحقره ولا يذمه ولا يعيره بالمنع إذا منع ويفخم عند نفسه وعند الناس صنيعه . فوظيفة المعطى الاستصغار ووظيفة القابض تقلد المنة والاستعظام . وعلى كل عبد القيام بحقه ؛ وذلك لا تناقض فيه إذ موجبات التصغير والتعظيم تتعارض . والنافع للمعطى ملاحظة أسباب التصغير ويضره خلافه والآخذ بالعكس منه . وكل ذلك لا يناقض رؤية النعمة من الله عز وجل فإن من لا يرى الواسطة واسطة فقد جهل وإنما المنكر أن يرى الواسطة أصلا .

(الثالثة) أن ينظر فيما يأخذه فان لم يكن من حل تورع عنه ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ ولن يعدم المتورع عن الحرام فتوحا من الحلال . فلا يأخذ من أموال الأتراك والجنود وعمال السلاطين ومن أكثر كسبه من الحرام إلا إذا ضاق الأمر عليه وكان ما يسلم إليه لا يعرف له مالكا معينا فله أن يأخذ بقدر الحاجة ، فان فتوى الشرع فى مثل هذا أن يتصدق به ـ على ما سيأتى بيانه فى كتاب الحلال والحرام ـ وذلك إذا عجز عن الحلال فاذا أخذ لم يكن أخذه أخذ زكاة إذ لا يقع زكاة عن مؤديه وهو حرام .

(الرابعة) أن يتوقى مواقع الريبة والاشتباه فى مقدار ما يأخذه إلا المقدار المباح ولا يأخذ إلا إذا تحقق أنه موصوف بصفة الاستحقاق . فان كان يأخذه بالكتابة والغرامة فلا يزيد على مقدار الدين . وإن كان يأخذ بالعمل فلا يزيد على أجرة المثل وإن أعطى زيادة أبى وامتنع إذ ليس المال للمعطى حتى يتبرع به . وإن كان مسافرا لم يزد على الزاد وكراء الدابة إلى مقصده . وإن كان غازيا لم يأخذ إلا ما يحتاج إليه للغزو خاصة من خيل وسلاح ونفقة . وتقدير ذلك بالاجتهاد وليس له حد وكذا زاد السفر ، والورع ترك ما يريبه إلا ما لا يريبه . وإن اخذ بالمسكنة فلينظر اولا إلى اثاث بيته وثيابه

---

(١) « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » أخرجه الترمذى وحسنه من حديث أبى سعيد وله ولأبى داود وابن حبان نحوه من حديث أبى هريرة وقال حسن صحيح . (٢) « من أسدى إليكم معروفا فكافئوه ... » أخرجه أبو داود والنسائى من حديث ابن عمر بإسناد صحيح بلفظ « من صنع » .

وكتبه هل فيها ما يستغنى عنه بعينه أو يستغنى عن نفاسته فيمكن أن يبدل بما يكفى ويفضل بعض قيمته ؟ وكل ذلك إلى اجتهاده . وفيه طرف ظاهر يتحقق معه أنه مستحق وطرف آخر مقابل يتحقق معه أنه غير مستحق وبينهما أوساط مشتبهة ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، والاعتماد فى هذا على قول الآخذ ظاهرا . وللمحتاج فى تقدير الحاجات مقامات فى التضييق والتوسيع ولا تنحصر مراتبه وميل الورع إلى التضييق وميل المتساهل إلى التوسيع حتى يرى نفسه محتاجا إلى فنون من التوسع وهو ممقوت فى الشرع . ثم إذا تحققت حاجته فلا يأخذن مالا كثيرا بل ما يتمم كفايته من وقت أخذه إلى سنة . فهذا أقصى مايرخص فيه من حيث أن السنة إذا تكررت تكررت أسباب الدخل. ومن حيث إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ادخر لعياله قوت سنة(١) فهذا اقرب ماحد به حد الفقير والمسكين ولو اقتصر على حاجة شهره أو حاجة يومه فهو اقرب للتقوى . ومذاهب العلماء فى قدر المأخوذ بحكم الزكاة والصدقة مختلفة فمن مبالغ فى التقليل إلى حد اوجب الاقتصار على قدر قوت يومه وليلته وتمسكوا بما روى سهل بن الحنظلية « انه صلى الله عليه وسلم نهى عن السؤال مع الغنى فسئل عن غناه فقال صلى الله عليه وسلم غداؤه وعشاؤه(٢) » وقال آخرون : يأخذ إلى حد الغنى . وحد الغنى نصاب الزكاة إذ لم يوجب الله تعالى الزكاة إلا على الأغنياء فقالوا له ان يأخذ بنفسه ولكل واحد من عياله نصاب زكاة . وقال آخرون : حد الغنى خمسون درهما او قيمتها من الذهب لما روى ابن مسعود انه صلى الله عليه وسلم قال « من سأل وله مال يغنيه جاء يوم القيامة وفى وجهه خموش فسئل وما غناه ؟ قال خمسون درهما او قيمتها من الذهب(٣) » وقيل : راويه ليس بقوى وقال قوم : اربعون ، لما رواه عطاء بن يسار منقطعاً انه صلى الله عليه وسلم قال « من سأل وله اوقية فقد الحف فى السؤال(٤) » وبالغ آخرون فى التوسيع فقالوا : له ان يأخذ مقدار مايشترى به ضيعة فيستغنى به طول عمره او يهىء بضاعة ليتجر بها ويستغنى بها طول عمره لأن هذا هو الغنى . وقد قال عمر رضى الله عنه : إذا اعطيتم فأغنوا ؛ حتى ذهب قوم إلى ان من افتقر فله ان يأخذ بقدر ما يعود به إلى مثل حاله ولو عشرة آلاف درهم إلا إذا خرج عن حد الاعتدال ، ولما شغل ابو طلحة ببستانه عن الصلاة قال : جعلته صدقة، فقال صلى الله عليه وسلم « اجعله فى قرابتك فهو خير لك(٥) » فأعطاه حسان وابا قتادة . فحائط من نخل لرجلين كثير مغن واعطى عمر رضى الله عنه اعرابيا ناقة معها ظئر لها ، فهذا ماحكى فيه فأما التقليل إلى قوت اليوم او الأوقية فذلك ورد فى كراهية السؤال والتردد على الأبواب وذلك مستنكر وله حكم آخر ؛ بل التجويز إلى ان يشترى ضيعة فيستغنى بها اقرب إلى الاحتمال وهو ايضا مائل إلى الإسراف والأقرب إلى الاعتدال كفاية سنة فما وراءه فيه خطر وفيما دونه تضييق . وهذه الأمور إذا لم يكن فيها تقدير جزم بالتوقيف فليس للمجتهد إلا الحكم بما يقع له . ثم يقال للورع «استفت قلبك وإن افتوك وافتوك(٦) » كما قاله صلى الله عليه وسلم إذ الإثم حزاز القلوب ، فاذا وجد القابض فى نفسه شيئا مما يأخذه فليتق الله فيه ولا يترخص تعللا بالفتوى من

---

(١) « ادخر لعياله قوت سنة » أخرجاه من حديث عمر « كان يعزل نفقة أهله سنة » وللطبرانى فى الأوسط من حديث أنس « كان إذا ادخر لأهله قوت سنة تصدق بما بقى » قال الذهبى حديث منكر .

(٢) حديث سهل بن الحنظلية « فى النهى عن السؤال مع الغنى فيسأل ما يغنيه فقال غداؤه وعشاؤه » أخرجه أبو داود وابن حبان بلفظ « من سأل وله مايغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم ... » .

(٣) حديث ابن مسعود « من سأل وله مايغنيه جاء يوم القيامة وفى وجهه خموش ... » أخرجه أصحاب السنن وحسنه الترمذى وضعفه النسائى والخطابى .

(٤) حديث عطاء بن يسار منقطعا « من سأل وله أوقية فقد ألحف فى السؤال » أخرجه أبو داود والنسائى من رواية عطاء عن رجل من بنى اسد متصلا وليس بمنقطع كما ذكر المصنف لأن الرجل صحابى فلا يضر عدم تسميته وأخرجه أبو داود والنسائى وابن حبان من حديث أبى سعيد (٥) حديث « لما شغل أبا طلحة بستانه عن الصلاة قال جعلته صدقة » تقدم فى الصلاة (٦) « استفت قلبك وإن أفتوك » تقدم فى العلم .

علماء الظاهر فإن لفتواهم قيوداً ومطلقات من الضرورات ، وفيها تخمينات واقتحام شبهات . والتوقى من الشبهات من شيم ذوى الدين وعادات السالكين لطريق الآخرة .

(الخامسة) أن يسأل صاحب المال عن قدر الواجب عليه فإن كان ما يعطيه فوق الثمن فلا يأخذه منه فإنه لا يستحق مع شريكه إلا الثمن فلينقص من الثمن مقدار ما يصرف إلى اثنين من صنفه . وهذا السؤال واجب على أكثر الخلق فإنهم لا يراعون هذه القسمة إما لجهل وإما لتساهل ، وإنما يجوز ترك السؤال عن مثل هذه الأمور إذا لم يغلب على الظن احتمال التحريم . وسيأتى ذكر مظان السؤال ودرجة الاحتمال فى كتاب الحلال والحرام إن شاء الله تعالى .

الفصل الرابع : فى صدقة التطوع وفضلها وآداب أخذها وإعطائها

بيان فضيلة الصدقة

من الأخبار : قوله ﷺ « تصدقوا ولو بتمرة فإنها تسد من الجائع وتطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار(١) » وقال ﷺ « اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة (٢) » وقال ﷺ « ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيبا إلا كان الله آخذها بيمينه فيربيها كما يربى أحدكم فصيله حتى تبلغ التمرة مثل أحد (٣) » وقال ﷺ لأبى الدرداء «إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها ثم انظر إلى أهل بيت من جيرانك فأصبهم منه بمعروف(٤)» وقال ﷺ « ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله عز وجل الخلافة على تركته(٥) » وقال ﷺ « كل امرىء فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس (٦) » وقال ﷺ « الحسنة تسد سبعين بابا من الشر(٧) » وقال ﷺ « صدقة السر تطفىء غضب الرب » وقال رسول الله ﷺ « ما الذى أعطى من سعة بأفضل أجراً من الذى يقبل من حاجة(٨) » ولعل المراد به الذى يقصد من دفع حاجته التفرغ للدين فيكون مساويا للمعطى الذى يقصد بإعطائه عمارة دينه . وسئل رسول الله ﷺ « أى الصدقة أفضل ؟ قال : أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل البقاء وتخشى الفاقة ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان (٩) » وقد قال ﷺ يوما لأصحابه « تصدقوا فقال رجل إن عندى ديناراً فقال أنفقه على نفسك فقال إن عندى آخر قال أنفقه

---

(١) « تصدقوا ولو بتمرة فإنها تسد من الجائع وتطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار » أخرجه ابن المبارك فى الزهد من حديث عكرمة مرسلا ولأحمد من حديث عائشة بسند حسن « استترى من النار ولو بشق تمرة فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان » ولأبى يعلى والبزار من حديث أبى بكر « اتقوا النار ولو بشق تمرة فإنها تقوم المعوج وتدفع ميتة السوء وتقع من الجائع موقعها من الشبعان » وإسناده ضعيف وللترمذى والنسائى فى الكبرى وابن ماجه فى حديث معاذ « والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار » . (٢) « اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة » أخرجاه من حديث عدى بن حاتم . (٣) « ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيبا ... » أخرجه البخارى تعليقا ومسلم والترمذى والنسائى فى الكبرى واللفظ لابن ماجه من حديث أبى هريرة .

(٤) «قال لأبى الدرداء إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها ...» أخرجه من حديث أبى ذر أنه قال ذلك له وما ذكره المصنف أنه قال لأبى الدرداء وهم . (٥) «ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله الخلافة على تركته » أخرجه ابن المبارك فى الزهد من حديث ابن شهاب مرسلا بإسناد صحيح وأسنده الخطيب فيمن روى عن ذلك من حديث ابن عمر وضعفه.

(٦) « كل امرىء فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس» أخرجه ابن حبان والحاكم وصححه على شرط مسلم من حديث عقبة ابن عامر . (٧) « الصدقة تسد سبعين بابا من الشر » أخرجه ابن المبارك فى البر من حديث أنس بسند ضعيف « إن الله ليدرأ بالصدقة سبعين بابا من ميتة السوء » . (٨) « ما المعطى من سعة بأفضل أجرا من الذى يقبل من حاجة » أخرجه ابن حبان فى الضعفاء والطبرانى فى الأوسط من حديث أنس ورواه فى الكبير من حديث ابن عمر بسند ضعيف . (٩) « سئل أى الصدقة أفضل قال أن تصدق وأنت صحيح شحيح ...» أخرجاه من حديث أبى هريرة

على زوجتك قال إن عندى آخر قال أنفقه على ولدك قال إن عندى آخر قال أنفقه على خادمك قال إن عندى آخر قال ﷺ أنت أبصر به[١]» وقال ﷺ « لاتحل الصدقة لآل محمد إنما هى أوساخ الناس[٢]» وقال «ردوا مذمة السائل ولو بمثل رأس الطائر من الطعام[٣]» وقال ﷺ « لو صدق السائل ما أفلح من رده[٤]» وقال عيسى عليه السلام : من رد سائلا خائبا من بيته لم تغش الملائكة ذلك البيت سبعة أيام « وكان نبينا ﷺ لا يكل خصلتين إلى غيره كان يضع طهوره بالليل ويخمره وكان يناول المسكين بيده[٥]» وقال ﷺ « ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان إنما المسكين المتعفف اقرءوا إن شئتم لا يسألون الناس إلحافاً[٦]» وقال ﷺ « مامن مسلم يكسو مسلماً إلا كان فى حفظ الله عز وجل ما دامت عليه منه رقعة[٧]» . الآثار : قال عروة بن الزبير لقد تصدقت عائشة رضى الله عنها بخمسين ألفاً وإن درعها لمرقع . وقال مجاهد فى قول الله عز وجل ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيراً﴾ فقال : وهم يشتهونه ، وكان عمر رضى الله عنه يقول : اللهم اجعل الفضل عند خيارنا لعلهم يعودون به على ذوى الحاجة . وقال عمر بن عبد العزيز : الصلاة تبلغك نصف الطريق والصوم يبلغك باب الملك والصدقة تدخلك عليه . وقال ابن أبى الجعد : إن الصدقة لتدفع سبعين باباً من السوء وفضل سرها على علانيتها بسبعين ضعفاً وإنها لتفك لحى سبعين شيطاناً وقال ابن مسعود : إن رجلا عبد الله سبعين سنة ثم أصاب فاحشة فأحبط عمله ثم مر بمسكين فتصدق عليه برغيف فغفر الله ذنبه ورد عليه عمل السبعين سنة . وقال لقمان لابنه : إذا أخطأت خطيئة فأعط صدقة . وقال يحيى بن معاذ : ما أعرف حبة تزن جبال الدنيا إلا الحبة من الصدقة . وقال عبد العزيز بن أبى رؤاد : كان يقال ثلاثة من كنوز الجنة كتمان المرض وكتمان الصدقة وكتمان المصائب . وروى مسنداً وقال عمر بن الخطاب : إن الأعمال تباهت : فقالت الصدقة أنا أفضلكن . وكان عبد الله بن عمر يتصدق بالسكر ويقول : سمعت الله يقول ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ والله يعلم أنى أحب السكر . وقال النخعى : إذا كان الشىء لله عز وجل لا يسرنى أن يكون فيه عيب . وقال عبيد بن عمير : يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط وأعطش ما كانوا قط وأعرى ما كانوا قط ، فمن أطعم لله عز وجل أشبعه الله ومن سقى لله عز وجل سقاه الله ومن كسا لله عز وجل كساه الله . وقال الحسن : لو شاء الله لجعلكم أغنياء لا فقير فيكم ولكنه ابتلى بعضكم ببعض . وقال الشعبى : من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته فقد أبطل صدقته وضرب بها وجهه . وقال مالك : لا نرى بأساً من شرب الموسر من الماء الذى يتصدق به ويسقى فى المسجد لأنه إنما جعل للعطشان من كان ، ولم يرد به أهل الحاجة والمسكنة على الخصوص . ويقال : إن الحسن مر به نخاس

---

(١) « قال يوما لأصحابه تصدقوا فقال رجل إن عندى دينارا فقال أنفقه على نفسك ... » أخرجه أبو داود والنسائى واللفظ له وابن حبان والحاكم من حديث أبى هريرة وقد تقدم قبل بيسير .

(٢) « لا تحل الصدقة لآل محمد ... » أخرجه مسلم من حديث المطلب بن ربيعة .

(٣) « ردوا مذمة السائل ولو بمثل رأس الطائر من الطعام » أخرجه العقيلى فى الضعفاء من حديث عائشة .

(٤) « لو صدق السائل ما أفلح من رده » أخرجه العقيلى فى الضعفاء وابن عبد البر فى التمهيد من حديث عائشة قال العقيلى لا يصح فى هذا الباب شىء وللطبرانى نحوه من حديث أبى أمامه بسند ضعيف .

(٥) « كان لا يكل خصلتين إلى غيره ... » أخرجه الدارقطنى من حديث ابن عباس بسند ضعيف ورواه ابن المبارك فى البر مرسلا .

(٦) « ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان ... » متفق عليه من حديث عائشة .

(٧) « مامن مسلم يكسو مسلما إلا كان فى حفظ الله ... » أخرجه الترمذى وحسنه والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن عباس وفيه خالد بن طهمان ضعيف .

ومعه جارية فقال للنخاس أترضى ثمنها الدرهم والدرهمين ؟ قال لا : قال : فاذهب فإن الله عز وجل رضى فى الحور العين بالفلس واللقمة .

بيان إخفاء الصدقة وإظهارها

قد اختلف طريق طلاب الإخلاص فى ذلك فمال قوم إلى أن الإخفاء أفضل ومال قوم إلى أن الإظهار أفضل ونحن نشير إلى مافى كل واحد من المعانى والآفات ثم نكشف الغطاء عن الحق فيه .

أما الإخفاء ففيه خمسة معان (الأول) أنه أبقى للستر على الآخذ فإن أخذه ظاهرا هتك لستر المروءة وكشف عن الحاجة وخروج عن هيئة التعفف والتصون المحبوب الذى يحسب الجاهل أهله أغنياء من التعفف . (الثانى) أنه أسلم لقلوب الناس وألسنتهم فإنهم ربما يحسدون أو ينكرون عليه أخذه ويظنون أنه آخذ مع الاستغناء أو ينسبونه إلى أخذ زيادة . والحسد وسوء الظن والغيبة من الذنوب الكبائر وصيانتهم عن هذه الجرائم أولى . وقال أبو أيوب السختيانى : إنى لأترك لبس الثوب الجديد خشية أن يحدث فى جيرانى حسدا . وقال بعض الزهاد : ربما تركت استعمال الشيء لأجل إخوانى يقولون من أين له هذا ؟ وعن إبراهيم التيمى: أنه رؤى عليه قميص جديد فقال بعض إخوانه من أين لك هذا ؟ فقال كسانيه أخى خيثمة ولو علمت أن أهله علموا به ماقبلته . (الثالث) إعانة المعطى على إسرار العمل فإن فضل السر على الجهر فى الإعطاء أكثر والإعانة على إتمام المعروف معروف، والكتمان لا يتم إلا باثنين فمهما أظهر هذا انكشف أمر المعطى . ودفع رجل إلى بعض العلماء شيئا ظاهرا فرده إليه ودفع إليه آخر شيئا فى السر فقبله ، فقيل له فى ذلك فقال : إن هذا عمل الأدب فى إخفاء معروفه فقبلته وذاك أساء أدبه فى عمله فرددته عليه وأعطى رجل لبعض الصوفية شيئا فى الملأ فرده فقال له : لم ترد على الله عز وجل ما أعطاك ؟ فقال : إنك أشركت غير الله سبحانه فيما كان لله تعالى ولم تقنع بالله عز وجل فرددت عليك شركك وقبل بعض العارفين فى السر شيئا كان رده فى العلانية فقيل له فى ذلك ، فقال عصيت الله بالجهر فلم أك عونا لك على المعصية وأطعته بالإخفاء فأعنتك على برك . وقال الثورى : لو علمت أن أحدهم لا يذكر صدقته ولا يتحدث بها لقبلت صدقته (الرابع) أن فى إظهار الأخذ ذلا وامتهانا وليس للمؤمن أن يذل نفسه . كان بعض العلماء يأخذ فى السر ولا يأخذ فى العلانية ويقول : إن فى إظهاره إذلالا للعلم وامتهانا لأهله فما كنت بالذى أرفع شيئا من الدنيا بوضع العلم وإذلال أهله (الخامس) الاحتراز عن شبهة الشركة قال صلى الله عليه وسلم « من أهدى له هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها[1] » وبأن يكون ورقا أو ذهبا لا يخرج عن كونه هدية قال صلى الله عليه وسلم « أفضل ما يهدى الرجل إلى أخيه ورقا أو يطعمه خبزا [2] » فجعل الورق هدية بانفراده فما يعطى فى الملأ مكروه إلا برضا جميعهم ولا يخلو عن شبهة ، فإذا انفرد سلم من هذه الشبهة.

أما الإظهار والتحدث به ففيه معان أربعة (الأول) الإخلاص والصدق والسلامة عن تلبيس الحال والمراءاة (والثانى) إسقاط الجاه والمنزلة وإظهار العبودية والمسكنة والتبرى عن الكبرياء ودعوى الاستغناء وإسقاط النفس من أعين الخلق . قال بعض العارفين لتلميذه : أظهر الأخذ على كل حال إن كنت آخذ فإنك لا تخلو عن احد رجلين

---

(١) « من أهدى له هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها » أخرجه العقيلى وابن حبان فى الضعفاء والطبرانى فى الأوسط والبيهقى من حديث ابن عباس قال العقيلى لا يصح فى هذا المتن حديث .

(٢) « أفضل مايهدى الرجل إلى أخيه ورقا أو يعطيه خبزا » أخرجه عدى وضعفه من حديث ابن عمر « أفضل العمل عند الله أن يقضى عن مسلم دينه أو يدخل عليه سرورا أو يطعمه خبزا » ولأحمد والترمذى وصححه من حديث البراء « من منح منحة ورق أو منحة لبن أو أهدى رفاقا فهو كعتاق نسمة » .

رجل تسقط من قلبه إذا فعلت ذلك فذلك هو المراد لأنه أسلم لدينك وأقل لآفات نفسك ، أو رجل تزداد فى قلبه بإظهارك الصدق فذلك الذى يريده أخوك لأنه تزداد ثوابا بزيادة حبه لك وتعظيمه إياك فتؤجر أنت إذ كنت سبب مزيد ثوابه . (الثالث) هو ان العارف لانظر له إلا إلى الله عز وجل والسر والعلانية فى حقه واحد فاختلاف الحال شرك فى التوحيد قال بعضهم : كنا لا نعبأ بدعاء من يأخذ فى السر ويرد فى العلانية. والالتفات إلى الخلق حضروا ام غابوا نقصان فى الحال ، بل ينبغى ان يكون النظر مقصورا على الواحد الفرد . حكى ان بعض الشيوخ كان كثير الميل إلى واحد من جملة المريدين فشق على الآخرين فأراد ان يظهر لهم فضيلة ذلك المريد ، فأعطى كل واحد منهم دجاجة وقال : لينفرد كل واحد منكم بها وليذبحها حيث لا يراه احد . فانفرد كل واحد وذبح إلا ذلك المريد فإنه رد الدجاجة . فسألهم فقالوا : فعلنا ما أمرنا به الشيخ ، فقال الشيخ للمريد : مالك لم تذبح كما ذبح اصحابك ؟ فقال ذلك المريد : لم اقدر على مكان لا يرانى فيه احد فان الله يرانى فى كل موضع ، فقال الشيخ : لهذا اميل إليه لأنه لا يلتفت لغير الله عز وجل . (الرابع) ان الإظهار إقامة لسنة الشكر وقد قال تعالى ﴿ واما بنعمة ربك فحدث ﴾ والكتمان كفران النعمة وقد ذم الله عز وجل من كتم ما آتاه الله عز وجل وقرنه بالبخل فقال تعالى ﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « إذا انعم الله على عبد نعمة احب ان ترى نعمته عليه[1] » واعطى رجل بعض الصالحين شيئا فى السر فرفع به يده وقال : هذا من الدنيا والعلانية فيها افضل والسر فى امور الآخرة افضل . ولذلك قال بعضهم : إذا اعطيت فى الملأ فخذ ثم اردد فى السر والشكر فيه محثوث عليه . قال صلى الله عليه وسلم « من لم يشكر الناس لم يشكر الله عز وجل[2] » والشكر قائم مقام المكافأة حتى قال صلى الله عليه وسلم « من اسدى إليكم معروفا فكافئوه فان لم تستطيعوا فأثنوا عليه به خيرا وادعوا له حتى تعلموا انكم قد كافأتموه » ولما قال المهاجرون فى الشكر « يا رسول الله مارأينا خيرا من قوم نزلنا عندهم قاسمونا الأموال حتى خفنا ان يذهبوا بالأجر كله فقال صلى الله عليه وسلم كلما شكرتم لهم واثنيتم عليهم به فهو مكافأة[3] ».

فالآن إذا عرفت هذه المعانى فاعلم ان ما نقل من اختلاف الناس فيه ليس اختلافا فى المسئلة بل هو اختلاف حال ، فنكشف الغطاء فى هذا انا لا نحكم حكما بتاً بأن الإخفاء افضل فى كل حال او الإظهار افضل بل يختلف ذلك باختلاف النيات وتختلف النيات باختلاف الأحوال والأشخاص فينبغى أن يكون المخلص مراقبا لنفسه حتى لا يتدلى بحبل الغرور ولا ينخدع بتلبيس الطبع ومكر الشيطان والمكر والخداع اغلب فى معانى الإخفاء منه فى الإظهار مع ان له دخلا فى كل واحد منهما . فأما مدخل الخداع فى الإسرار فمن ميل الطبع إليه لما فيه من خفض الجاه والمنزلة وسقوط القدر عن اعين الناس ونظر الخلق إليه بعين الازدراء وإلى المعطى بعين المنعم المحسن فهذا هو الداء الدفين ويستكن فى النفس . والشيطان بواسطته يظهر معانى الخير حتى يتعلل بالمعانى الخمسة التى ذكرناها . ومعيار كل ذلك ومحكه امر واحد وهو ان يكون تألمه بانكشاف اخذه الصدقة كتألمه بانكشاف صدقة اخذها بعض نظرائه وأمثاله ، فانه إن كان يبغى صيانة الناس عن الغيبة والحسد وسوء الظن او يتقى

---

(١) « إذا أنعم الله تعالى على عبد نعمة أحب أن ترى عليه » أخرجه أحمد من حديث عمران بن حصين بسند صحيح وحسنه الترمذى من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

(٢) « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » تقدم .

(٣) « قالت المهاجرون يارسول الله ما رأينا خيرا من قوم نزلنا عليهم ... » أخرجه الترمذى وصححه من حديث أنس ورواه مختصرا أبو داود والنسائى فى اليوم والليلة والحاكم وصححه ابن ماجه .

انتهاك الستر أو إعانة المعطى على الإسرار أو صيانة العلم عن الابتذال فكل ذلك مما يحصل بانكشاف صدقة أخيه ، فإن كان انكشاف أمره أثقل عليه من انكشاف أمر غيره فتقديره الحذر من هذه المعانى أغاليط وأباطيل من مكر الشيطان وخدعه ، فإن إذلال العلم محذور من حيث إنه علم لا من حيث إنه علم زيد أو علم عمرو والغيبة محذورة من حيث إنها تعرض لعرض مصون لا من حيث إنها تعرض لعرض زيد على الخصوص ومن أحسن من ملاحظة مثل هذا ربما يعجز الشيطان عنه وإلا فلا يزال كثير العمل قليل الحظ . وأما جانب الإظهار فميل الطبع إليه من حيث إنه تطييب لقلب المعطى واستحثاث له على مثله وإظهاره عند غيره أنه من المبالغين فى الشكر حتى يرغبوا فى إكرامه وتفقده وهذا داء دفين فى الباطن ، والشيطان لا يقدر على المتدين إلا بأن يروج عليه هذا الخبث فى معرض السنة ويقول له الشكر من السنة والإخفاء من الرياء ويورد عليه المعانى التى ذكرناها ليحمله على الإظهار وقصده الباطن ماذكرناه ومعيار ذلك ومحكه أن ينظر إلى ميل نفسه إلى الشكر حيث لاينتهى الخبر إلى المعطى ولا إلى من يرغب فى عطائه ، وبين يدى جماعة يكرهون إظهار العطية ويرغبون فى إخفائها وعادتهم أنهم لا يعطون إلا من يخفى ولا يشكر . فإن استوت هذه الأحوال عنده فليعلم أن باعثه هو إقامة السنة فى الشكر والتحدث بالنعمة وإلا فهو مغرور . ثم إذا علم أن باعثه السنة فى الشكر فلا ينبغى أن يغفل عن قضاء حق المعطى فينظر فإن كان هو ممن يحب الشكر والنشر فينبغى أن يخفى ولا يشكر ؛ لأن قضاء حقه أن لا ينصره على الظلم وطلبه الشكر ظلم . وإذا علم من حاله أنه لايحب الشكر ولايقصده فعند ذلك يشكره ويظهر صدقته . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للرجل الذى مدح بين يديه « ضربتم عنقه لو سمعها ما أفلح (١) » مع أنه صلى الله عليه وسلم كان يثنى على قوم فى وجوههم لثقته بيقينهم وعلمه بأن ذلك لايضرهم بل يزيد فى رغبتهم فى الخير فقال لواحد « إنه سيد أهل الوبر (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم فى آخر « إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه (٣) » وسمع كلام رجل فأعجبه فقال صلى الله عليه وسلم « إن من البيان لسحرا (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا علم أحدكم من أخيه خيرا فليخبره يزداد رغبة فى الخير (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا مدح المؤمن ربا الإيمان فى قلبه (٦) » وقال الثورى : من عرف نفسه لم يضره مدح الناس . وقال أيضا ليوسف بن أسباط : إذا أوليتك معروفا كنت أنا أسر به منك ورأيت ذلك نعمة من الله عز وجل على فاشكر وإلا فلا تشكر . ودقائق هذه المعانى ينبغى أن يلحظها من يراعى قلبه فإن أعمال الجوارح مع إهمال هذه الدقائق ضحكة للشيطان وشماتة له لكثرة التعب وقلة النفع ، ومثل هذا العلم هو الذى يقال فيه : إن تعلم مسألة واحدة منه أفضل من عبادة سنة إذ بهذا العلم تحيا عبادة العمر وبالجهل به تموت عبادة العمر كله وتتعطل . وعلى الجملة فالأخذ فى الملأ والرد فى السر أحسن المسالك وأسلمها ، فلا ينبغى أن يدفع بالتزويقات إلا أن تكمل المعرفة

---

(١) « قال للرجل الذى مدح بين يديه ضربتم عنقه لو سمعها ما أفلح » متفق عليه من حديث أبى بكرة بلفظ « ويحك قطعت عنق صاحبك » زاد الطبرانى فى رواية « والله لو سمعها ما أفلح أبدا » وفى سنده على بن زيد بن جدعان متكلم فيه وابن ماجه نحوه من حديث أبى موسى . (٢) « إنه سيد الوبر » أخرجه العنبرى والطبرانى وابن قانع فى معاجمهم وابن حبان فى الثقات من حديث قيس بن عاصم المنقرى « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له ذلك » .

(٣) « إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر ورواه أبو داود فى المراسيل من حديث الشعبى مرسلا بسند صحيح وقال روى متصلا وهو ضعيف والحاكم نحوه من حديث معبد بن خالد الأنصارى عن أبيه وصحح إسناده .

(٤) « إن من البيان لسحرا » أخرجه البخارى من حديث ابن عمر .

(٥) « إذا علم أحدكم من أخيه خيرا فليخبره فإنه يزداد رغبة فى الخير » أخرجه الدارقطنى فى العلل من رواية ابن المسيب عن أبى هريرة . وقال لايصح عن الزهرى وروى عن ابن المسيب مرسلا .

(٦) « إذا مدح المؤمن ربا الإيمان فى قلبه » أخرجه من حديث أسامة بن زيد بسند ضعيف .

بحيث يستوى السر والعلانية وذلك هو الكبريت الأحمر الذى يتحدث به ولا يرى . نسأل الله الكريم حسن العون والتوفيق .

بيان الأفضل من أخذ الصدقة أو الزكاة

كان إبراهيم الخواص والجنيد وجماعة يرون أن الأخذ من الصدقة أفضل فان فى أخذ الزكاة مزاحمة للمساكين وتضييقا عليهم ولأنه ربما لا يكمل فى أخذه صفة الاستحقاق كما وصف فى الكتاب العزيز وأما الصدقة فالأمر فيها أوسع . وقال قائلون : الزكاة دون الصدقة لأنها أعانة على الواجب . ولو ترك المساكين كلهم أخذ الزكاة لأثموا . ولأن الزكاة لامنة فيها وإنما هو حق واجب لله سبحانه رزقا لعباده المحتاجين . ولأنه أخذ بالحاجة والإنسان يعلم حاجة نفسه قطعا . وأخذ الصدقة أخذ بالدين فان الغالب أن المتصدق يعطى من يعتقد فيه خيراً ؛ ولأن مرافقة المساكين أدخل فى الذل والمسكنة وأبعد من التكبر ؛ إذ قد يأخذ الإنسان الصدقة فى معرض الهدية فلا تتميز عنه ؛ وهذا تنصيص على ذل الآخذ وحاجته . والقول الحق فى هذا أن هذا يختلف بأحوال الشخص وما يغلب عليه وما يحضره من النية فان كان فى شبهة من اتصافه بصفة الاستحقاق فلا ينبغى أن يأخذ الزكاة . فإذا علم أنه مستحق قطعا إذا حصل عليه دين صرفه إلى خير وليس له وجه فى قضائه فهو مستحق قطعا . فاذا خير هذا بين الزكاة وبين الصدقة فاذا كان صاحب الصدقة لايتصدق بذلك المال لو لم يأخذه هو فليأخذ الصدقة ؛ فان الزكاة الواجبة يصرفها صاحبها إلى مستحقها ففى ذلك تكثير للخير وتوسيع على المساكين . وإن كان المال معرضا للصدقة ولم يكن فى اخذ الزكاة تضييق على المساكين فهو مخير والأمر فيهما يتفاوت واخذ الزكاة اشد فى كسر النفس وإذلالها فى اغلب الأحوال والله اعلم .

كمل كتاب أسرار الزكاة بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ، ويتلوه ان شاء الله تعالى كتاب اسرار الصوم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وعلى الملائكة والمقربين من اهل السموات والأرضين وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا دائما إلى يوم الدين والحمد لله وحده وحسبنا الله ونعم الوكيل .

كتاب أسرار الصوم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد الله الذى اعظم على عبادة المنة ، بما دفع عنهم كيد الشيطان وفنه ، ورد أمله وخيب ظنه ، اذ جعل الصوم حصنا لأوليائه وجنة ، وفتح لهم به ابواب الجنة ، وعرفهم ان وسيلة الشيطان إلى قلوبهم الشهوات المستكنة ، وان بقمعها تصبح النفس المطمئنة ظاهرة الشوكة فى قصم خصمها قوية المنة ، والصلاة على محمد قائد الخلق وممهد السنة وعلى آله واصحابه ذوى الأبصار الثاقبة والعقول المرجحنة وسلم تسليما كثيرا . اما بعد : فان الصوم ربع الإيمان بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم « الصوم نصف الصبر (١) » وبمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم « الصبر نصف

كتاب أسرار الصيام

(١) «الصوم نصف الصبر» أخرجه الترمذى وحسنه من حديث رجل من بنى سليم وابن ماجه من حديث أبى هريرة .

الإيمان(١) » ثم هو متميز بخاصة النسبة إلى الله تعالى من بين سائر الأركان إذ قال الله تعالى فيما حكاه عنه نبيه صلى الله عليه وسلم « كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به(٢) » وقد قال الله تعالى ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ والصوم نصف الصبر فقد جاوز ثوابه قانون التقدير والحساب وناهيك فى معرفة فضله قوله صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده لخلوف فم الصائم أطيب عنده الله من ريح المسك يقول الله عز وجل إنما يذر شهوته وطعامه وشرابه لأجلى فالصوم لى وأنا أجزى به(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « للجنة باب يقال له الريان لايدخله إلا الصائمون وهو موعود بلقاء الله تعالى فى جزاء صومه(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « للصائم فرحتان فرحة عند إفطاره وفرحة عند لقاء ربه(٥) وقال صلى الله عليه وسلم « لكل شىء باب وباب العبادة الصوم(٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « نوم الصائم عبادة(٧) » وروى أبو هريرة رضى الله عنه « أنه صلى الله عليه وسلم قال : إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين ونادى مناد يا باغى الخير هلم ويا باغى الشر أقصر(٨) » وقال وكيع فى قوله تعالى ﴿ كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية ﴾ هى هى أيام الصيام إذ تركوا فيها الأكل والشرب وقد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رتبة المباهاة بين الزهد فى الدنيا وبين الصوم فقال « إن الله تعالى يباهى ملائكته بالشاب العابد فيقول : أيها الشاب التارك شهوته لأجلى المبذل شبابه لى أنت عندى كبعض ملائكتى(٩) » وقال صلى الله عليه وسلم فى الصائم « يقول الله عز وجل : انظروا ياملائكتى إلى عبدى ترك شهوته ولذته وطعامه وشرابه من أجلى(١٠) » وقيل فى قوله تعالى ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ قيل كان عملهم الصيام لأنه قال ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ فيفرغ للصائم جزاؤه إفراغا ويجازف جزافا فلا يدخل تحت وهم وتقدير ، وجدير بأن يكون كذلك لأن الصوم إنما كان له ومشرفا بالنسبة إليه وإن كانت العبادات كلها له كما شرف البيت بالنسبة إلى نفسه والأرض كلها له لمعنيين ، أحدهما : ان الصوم كف وترك وهو فى نفسه سر ليس فيه عمل يشاهد . وجميع أعمال الطاعات بمشهد من الخلق ومرأى والصوم لايراه إلا الله عز وجل فإنه عمل فى الباطن بالصبر المجرد . والثانى : أنه قهر لعدو الله عز وجل فان وسيلة الشيطان لعنه الله الشهوات ؛ وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب . ولذلك قال ﷺ « إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا

---

(١) « الصبر نصف الإيمان» أخرجه أبو نعيم فى الحلية والخطيب فى التاريخ من حديث ابن مسعود بسند حسن .
(٢) « كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم ... » أخرجاه من حديث أبى هريرة .
(٣) « والذى نفسى بيده لخلوف فم الصائم ... » أخرجاه من حديثه وهو بعض الذى قبله .
(٤) « للجنة باب يقال له الريان ... » أخرجاه من حديث سهل بن سعد .
(٥) « للصائم فرحتان ... » أخرجاه من حديث أبى هريرة . (٦) « لكل شىء باب وباب العبادة الصوم » أخرجه ابن المبارك فى الزهد ومن طريقه أبو الشيخ فى الثواب من حديث أبى الدرداء بسند ضعيف .
(٧) « نوم الصائم عبادة» رويناه فى أمالى ابن منده من روايه ابن المغيرة القراس عن عبد الله بن عمر بسند ضعيف ولعله عبد الله بن عمرو فإنهم لم يذكروا لابن المغيرة رواية إلا عنه ، ورواه أبو المنصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث عبد الله بن أبى أوفى وفيه سليمان بن عمرو النخعى أحد الكذابين .
(٨) « إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة ... » أخرجه الترمذى وقال غريب وابن ماجه والحاكم وصححه على شرطهما من حديث أبى هريرة وصحح البخارى وقفه على مجاهد وأصله متفق عليه دون قوله « ونادى مناد » .
(٩) « إن الله تعالى يباهى ملائكته بالشاب العابد فيقول أيها الشاب التارك شهوته ...» أخرجه عدى من حديث ابن مسعود بسند ضعيف . (١٠) « يقول الله تعالى لملائكته ياملائكتى انظروا إلى عبدى ترك شهوته ولذته وطعامه وشرابه من أجلى » .

مجاريه بالجوع(١)» ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها « داومى قرع باب الجنة ؛ قالت بماذا قال ﷺ بالجوع(٢)» ـ وسيأتى فضل الجوع فى كتاب : شره الطعام ـ وعلاجه من ربع المهلكات ـ فلما كان الصوم على الخصوص قمعاً للشيطان وسدا لمسالكه وتضييقاً لمجاريه استحق التخصيص بالنسبة إلى الله عز وجل ففى قمع عدو الله نصرة لله سبحانه وناصر الله تعالى موقوف على النصرة له قال الله تعالى ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ فالبداية بالجهد من العبد والجزاء بالهداية من الله عز وجل ولذلك قال تعالى ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ وقال تعالى ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ وإنما التغير تكثير الشهوات فهى مرتع الشياطين ومرعاهم فما دامت مخصبة لم ينقطع ترددهم وما داموا يترددون لم ينكشف للعبد جلال الله سبحانه وكان محجوبا عن لقائه : وقال ﷺ « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السموات(٣)» فمن هذا الوجه صار الصوم باب العبادة وصار جنة وإذا عظمت فضيلته إلى هذا الحد فلابد من بيان شروطه الظاهرة والباطنة بذكر أركانه وسننه وشروطه الباطنة . ونبين ذلك بثلاثة فصول .

الفصل الأول : فى الواجبات والسنن الظاهرة واللوازم بإفساده

أما الواجبات الظاهرة فستة

(الأول) مراقبة أول شهر رمضان وذلك برؤية الهلال فإن غم فاستكمال ثلاثين يوما من شعبان . ونعنى بالرؤية العلم ، ويحصل ذلك بقول عدل واحد . ولا يثبت هلال شوال إلا بقول عدلين احتياطا للعبادة . ومن سمع عدلا ووثق بقوله وغلب على ظنه صدقه لزمه الصوم وإن لم يقض القاضى به فليتبع كل عبد فى عبادته موجب ظنه . وإذا رؤى الهلال ببلدة ولم ير بأخرى وكان بينهما أقل من مرحلتين وجب الصوم على الكل وإن كان أكثر كان لكل بلدة حكمها ولا يتعدى الوجوب .(الثانى) النية : ولابد لكل ليلة من نية مبيتة معينة جازمة فلو نوى أن يصوم شهر رمضان دفعة واحدة لم يكفه ، وهو الذى عنينا بقولنا « كل ليلة » ولو نوى بالنهار لم يجزه صوم رمضان ولا صوم الفرض إلا التطوع ، وهو الذى عنينا بقولنا « مبيتة » ولو نوى الصوم مطلقا أو الفرض مطلقا لم يجزه حتى ينوى فريضة الله عز وجل صوم رمضان ولو نوى ليلة الشك أن يصوم غدا إن كان من رمضان لم يجزه فإنها ليست جازمة إلا أن تستند نيته إلى قول شاهد عدل ، واحتمال غلط العدل أو كذبه لا يبطل الجزم أو يستند إلى استصحاب حال كالشك فى الليلة الأخيرة من رمضان ، فذلك لا يمنع جزم النية أو يستند إلى اجتهاد كالمحبوس فى المطمورة إذا غلب على ظنه دخول رمضان باجتهاده فشكه لا يمنعه من النية ومهما كان شاكا ليلة الشك لم ينفعه جزمه النية باللسان فإن النية محلها القلب . ولا يتصور فيه جزم القصد مع الشك كما لو قال فى وسط رمضان : أصوم غدا إن كان من رمضان فإن ذلك لا يضره لأنه ترديد لفظ ومحل النية لا يتصور فيه تردد بل هو قاطع بأنه من رمضان . ومن نوى ليلا ثم أكل لم تفسد نيته ولو نوت امرأة فى الحيض ثم طهرت قبل الفجر صح صومها .(الثالث) الإمساك عن إيصال شىء إلى الجوف عمدا مع ذكر الصوم فيفسد صومه بالأكل والشرب والسعوط والحقنة ، ولا يفسد بالفصد والحجامة

---

(١) « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ... » متفق عليه من حديث صفية دون قوله « فضيقوا مجاريه بالجوع » .

(٢) « قال لعائشة داومى قرع باب الجنة » لم أجده أصلا .

(٣) « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم ... » أخرجه أحمد من حديث أبى هريرة بنحوه .

والاكتحال وإدخال الميل فى الأذن والإحليل إلا أن يقطر فيه ما يبلغ المثانة وما يصل بغير قصد من غبار الطريق أو ذبابة تسبق إلى جوفه أو ما يسبق إلى جوفه فى المضمضة . فلا يفطر إلا إذا بالغ فى المضمضة فيفطر لأنه مقصر وهو الذى أردنا بقولنا « عمدا » فأما ذكر الصوم فأردنا به الاحتراز عن الناسى فإنه لايفطر أما من أكل عامدا فى طرفى النهار ثم ظهر له أنه أكل نهارا بالتحقيق فعليه القضاء . وإن بقى على حكم ظنه واجتهاده فلا قضاء عليه ولا ينبغى أن يأكل فى طرفى النهار إلا بنظر واجتهاد . (الرابع) الإمساك عن الجماع : وحده مغيب الحشفة وإن جامع ناسيا لم يفطر وإن جامع ليلا أو احتلم فأصبح جنبا لم يفطر وإن طلع الفجر وهو مخالط أهله فنزع فى الحال صح صومه فإن صبر فسد ولزمته الكفارة . (الخامس) الإمساك عن الاستمناء : وهو إخراج المنى قصدا بجماع أو بغير جماع فإن ذلك يفطر . ولا يفطر بقبلة زوجته ولا بمضاجعتها مالم ينزل ، لكن يكره ذلك إلا أن يكون شيخاً أو مالكا لإربه ، فلا بأس بالتقبيل وتركه أولى وإذاكان يخاف من التقبيل أن ينزل فقبل وسبق المنى أفطر لتقصيره . (السادس) الإمساك عن إخراج القيء : فالاستقاء يفسد الصوم وإن ذرعه القيء لم يفسد صومه ، وإذا ابتلع نخامة من حلقه أو صدره لم يفسد صومه رخصة لعموم البلوى به إلا أن يبتلعه بعد وصوله إلى فيه فإنه يفطر عند ذلك .

وأما لوازم الإفطار فأربعة

القضاء والكفارة والفدية وإمساك بقية النهار تشبها بالصائمين . أما القضاء : فوجوبه عام على كل مسلم مكلف ترك الصوم بعذر أو بغير عذر ، فالحائض تقضى الصوم وكذا المرتد . أما الكافر والصبى والمجنون فلا قضاء عليهم ولا يشترط التتابع فى قضاء رمضان ولكن يقضى كيف شاء متفرقا ومجموعا .

وأما الكفارة : فلا تجب إلا بالجماع . واما الاستمناء والأكل والشرب وماعدا الجماع لاتجب به كفارة فالكفارة عتق رقبة فإن أعسر فصوم شهرين متتابعين وإن عجز فإطعام ستين مسكينا مدا مدا .

وأما إمساك بقية النهار : فيجب على من عصى بالفطر أو قصر فيه ولا يجب على الحائض إذا طهرت إمساك بقية نهارها ولا على المسافر إذا قدم مفطرا من سفر بلغ مرحلتين . ويجب الإمساك إذا شهد بالهلال عدل واحد يوم الشك . والصوم فى السفر أفضل من الفطر إلا إذا لم يطق ولا يفطر يوم يخرج وكان مقيما فى أوله ولا يوم يقدم إذا قدم صائماً .

وأما الفدية : فتجب على الحامل والمرضع إذا أفطرتا خوفا على ولديهما ، لكل يوم مد حنطة لمسكين واحد مع القضاء . والشيخ الهرم إذا لم يصم تصدق عن كل يوم مدا .

وأما السنن فست : تأخير السحور ، وتعجيل الفطر بالتمر أو الماء قبل الصلاة ، وترك السواك بعد الزوال ، والجود فى شهر رمضان لما سبق من فضائله فى الزكاة ، ومدارسة القرآن . والاعتكاف فى المسجد ، ولا سيما فى العشر الأخير فهو عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان إذا دخل العشر الأواخر طوى الفراش وشد المئزر ودأب وأدأب أهله [(١)] » أى أداموا النصب فى العبادة إذ فيها ليلة القدر والأغلب أنها فى أوتارها وأشبه الأوتار ليلة إحدى وثلاث وخمس وسبع . والتتابع فى هذا الاعتكاف أولى فإن نذر اعتكافا متتابعا او نواه انقطع تتابعه بالخروج من

(١) « كان إذا دخل الأواخر طوى الفراش ... » متفق عليه من حديث عائشة بلفظ « أحيا الليل وأيقظ أهله وجد وشد المئزر » .

غير ضرورة ؛ كما لو خرج لعيادة او شهادة او جنازة او زيارة او تجديد طهارة وإن خرج لقضاء الحاجة لم ينقطع . وله ان يتوضأ فى البيت . ولا ينبغى ان يعرج على شغل آخر « كان صلى الله عليه وسلم لايخرج الا لحاجة الإنسان ولا يسأل عن المريض الا ماراً [١] » وينقطع التتابع بالجماع ولا ينقطع بالتقبيل . ولا بأس فى المسجد بالطيب وعقد النكاح وبالأكل والنوم وغسل اليد فى الطست فكل ذلك قد يحتاج اليه فى التتابع ولا ينقطع التتابع بخروج بعض بدنه « كان صلى الله عليه وسلم يدنى رأسه فترجله عائشة رضى الله عنها وهى فى الحجرة [٢] » ومهما خرج المعتكف لقضاء حاجته فاذا عاد ينبغى ان يستأنف النية الا اذا كان قد نوى اولا عشرة ايام مثلا . والأفضل مع ذلك التجديد .

الفصل الثانى : فى أسرار الصوم وشروطه الباطنة

اعلم ان الصوم ثلاث درجات : صوم العموم وصوم الخصوص وصوم خصوص الخصوص . اما صوم العموم فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة كما سبق تفصيله واما صوم الخصوص فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام واما صوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية ، ويحصل الفطر فى هذا الصوم بالفكر فيما سوى الله عز وجل واليوم الآخر وبالفكر فى الدنيا الا دنيا تراد للدين ، فإن ذلك من زاد الآخرة وليس من الدنيا حتى قال أرباب القلوب : من تحركت همته بالتصرف فى نهاره لتدبير ما يفطر عليه كتبت عليه خطيئة ، فان ذلك من قلة الوثوق بفضل الله عز وجل وقلة اليقين برزقه الموعود ، وهذه رتبة الأنبياء والصديقين والمقربين ولا يطول النظر فى تفصيلها قولا ولكن فى تحقيقها عملا ، فانه إقبال بكنه الهمة على الله عز وجل وانصراف عن غير الله سبحانه وتلبس بمعنى قوله عز وجل ﴿ قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ﴾ واما صوم الخصوص وهو صوم الصالحين فهو كف الجوارح عن الآثام وتمامه بستة امور :

الأول : غض البصر وكفه عن الاتساع فى النظر الى كل ما يذم ويكره والى كل ما يشغل القلب ويلهى عن ذكر الله عز وجل قال صلى الله عليه وسلم « النظرة سهم مسموم من سهام ابليس لعنه الله فمن تركها خوفا من الله آتاه الله عز وجل ايمانا يجد حلاوته فى قلبه [٣] » وروى جابر عن انس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال « خمس يفطرن الصائم الكذب والغيبة والنميمة واليمين الكاذبة والنظر بشهوة [٤] » .

الثانى : حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخصومة والمراء ، وإلزامه السكوت وشغله بذكر الله سبحانه وتلاوة القرآن فهذا صوم اللسان . وقد قال سفيان : الغيبة تفسد الصوم . رواه بشر بن الحرث عنه . وروى ليث عن مجاهد : خصلتان يفسدان الصيام الغيبة والكذب . وقال صلى الله عليه وسلم « انما الصوم جنة فاذا كان احدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل وان امرؤ قاتله او شاتمه فليقل إنى صائم إنى صائم [٥] » وجاء فى الخبر « ان امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ فأجهدهما الجوع والعطش من آخر النهار حتى كادتا ان تتلفا فبعثتا الى رسول الله ﷺ يستاذناه فى الإفطار فأرسل اليهما قدحا وقال ﷺ : قل لهما

---

(١) « كان لايخرج إلا لحاجة ولا يسأل عن المريض إلا مارا » متفق على الشطر الأول من حديث عائشة والشطر الثانى رواه أبو داود بنحوه بسند لين .

(٢) « كان يدنى رأسه لعائشة » متفق عليه من حديثها .

(٣) « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ... » أخرجه الحاكم وصحح إسناده من حديث حذيفة .

(٤) حديث جابر عن أنس « خمس يفطرن الصائم ... » أخرجه الأزدى فى الضعفاء من رواية جابان عن أنس وقوله جابر تصحيف قال أبو حاتم الرازى هذا كذاب .

(٥) « الصوم جنة فإذا كان أحدكم صائما ... » أخرجاه من حديث أبى هريرة .

قيئاً فيه ما أكلتا فقاءت إحداهما نصفه دما عبيطاً ولحماً غريضاً وقاءت الأخرى مثل ذلك حتى ملأتاه فعجب الناس من ذلك فقال ﷺ هاتان صامتاعما أحل الله لهما وأفطرتا على ماحرم الله تعالى عليهما . قعدت إحداهما إلى الأخرى فجعلتا يغتابان الناس فهذا ما أكلتا من لحومهم[١] » .

الثالث : كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه لأن كل ماحرم قوله حرم الإصغاء إليه ولذلك سوى الله عز وجل بين المستمع وآكل السحت فقال تعالى ﴿ سماعون للكذب أكالون للسحت ﴾ وقال عز وجل ﴿ لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ﴾ فالسكوت على الغيبة حرام وقال تعالى ﴿ إنكم إذاً مثلهم ﴾ ولذلك قال ﷺ « المغتاب والمستمع شريكان فى الإثم[٢] » .

الرابع : كف بقية الجوارح عن الآثام من اليد والرجل عن المكاره ، وكف البطن عن الشبهات وقت الإفطار . فلا معنى للصوم وهو الكف عن الطعام الحلال ثم الإفطار على الحرام . فمثال هذا الصائم مثال من يبنى قصراً ويهدم مصراً فإن الطعام الحلال إنما يضر بكثرته لا بنوعه ، فالصوم لتقليله : وتارك الاستكثار من الدواء خوفاً من ضرره إذا عدل إلى تناول السم كان سفيهاً . والحرام سم مهلك للدين . والحلال دواء ينفع قليله ويضر كثيره . وقصد الصوم تقليله ، وقد قال ﷺ « كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش[٣] » فقيل هو الذى يفطر على الحرام ، وقيل هو الذى يمسك عن الطعام الحلال ويفطر على لحوم الناس بالغيبة وهو حرام ، وقيل هو الذى لا يحفظ جوارحه عن الآثام .

الخامس : أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلىء جوفه فما من وعاء أبغض إلى الله عز وجل من بطن ملىء من حلال . وكيف يستفاد من الصوم قهر عدو الله وكسر الشهوة إذا تدارك الصائم عند فطره مافاته ضحوة نهاره وربما يزيد عليه فى ألوان الطعام ؟ حتى استمرت العادات بأن تدخر جميع الأطعمة لرمضان فيؤكل من الأطعمة فيه مالا يؤكل فى عدة أشهر . ومعلوم أن مقصود الصوم الخواء وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى. وإذا دفعت المعدة من ضحوة نهار إلى العشاء حتى هاجت شهوتها وقويت رغبتها ثم أطعمت من اللذات واشبعت زادت لذتها وتضاعفت قوتها وانبعث من الشهوات ماعساها كانت راكدة لو تركت على عادتها . فروح الصوم وسره تضعيف القوى التى هى وسائل الشيطان فى العود إلى الشرور ، ولن يحصل ذلك إلا بالتقليل وهو أن يأكل أكلته التى كان يأكلها كل ليلة لو لم يصم فأما إذا جمع ما كان يأكل ضحوة إلى ما كان يأكل ليلا فلم ينتفع بصومه . بل من الآداب أن لا يكثر النوم بالنهار حتى يحس بالجوع والعطش ويستشعر ضعف القوى فيصفو عند ذلك قلبه ويستديم فى كل ليلة قدراً من الضعف حتى يخف عليه تهجده وأوراده ، فعسى الشيطان أن لا يحوم على قلبه فينظر إلى ملكوت السماء . وليلة القدر عبارة عن الليلة التى ينكشف فيها شىء من الملكوت وهو المراد بقوله تعالى ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة ﴾ ومن جعل بين قلبه وبين صدره مخلاة من الطعام فهو عنه محجوب . ومن أخلى معدته فلا يكفيه ذلك لرفع الحجاب مالم يخل همته عن غير الله عز وجل وذلك هو الأمر كله ومبدأ جميع ذلك تقليل الطعام. وسيأتى له مزيد بيان فى كتاب الأطعمة إن شاء الله عز وجل .

السادس : أن يكون قلبه بعد الإفطار معلقاً مضطرباً بين الخوف والرجاء إذ ليس يدرى أيقبل صومه فهو من المقربين أو يرد عليه فهو من الممقوتين ؟ وليكن كذلك فى آخر كل عبادة يفرغ منها فقد روى عن الحسن بن

---

(١) « أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ... » فى الغيبة للصائم أخرجه أحمد من حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث بسند فيه مجهول .

(٢) « المغتاب والمستمع شريكان فى الإثم » غريب وللطبرانى من حديث ابن عمر بسند ضعيف نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة .

(٣) « كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش » أخرجه النسائي من حديث أبي هريرة .

أبي الحسن بن الحسن البصري أنه مر بقوم وهم يضحكون فقال: إن الله عز وجل جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه يستبقون فيه لطاعته فسبق قوم ففازوا وتخلف أقوام فخابوا فالعجب كل العجب للضاحك اللاعب في اليوم الذي فاز فيه السابقون وخاب فيه المبطلون . أما والله لو كشف الغطاء لاشتغل المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته أي كان سرور المقبول يشغله عن اللعب وحسرة المردود تسد عليه باب الضحك وعن الأحنف بن قيس : أنه قيل له إنك شيخ كبير وأن الصيام يضعفك فقال : إني أعده لسفر طويل والصبر على طاعة الله سبحانه أهون من الصبر على عذابه . فهذه هي المعاني الباطنة في الصوم .

فإن قلت : فمن اقتصر على كف شهوة البطن والفرج وترك هذه المعاني فقد قال الفقهاء : صومه صحيح فما معناه ؟

فاعلم أن فقهاء الظاهر يثبتون شروط الظاهر بأدلة هي أضعف من هذه الأدلة التي أوردناها في هذه الشروط الباطنة لاسيما الغيبة وأمثالها ، ولكن ليس إلى فقهاء الظاهر من التكليفات إلا ما يتيسر على عموم الغافلين المقبلين على الدنيا الدخول تحته . فأما علماء الآخرة فيعنون بالصحة القبول وبالقبول الوصول إلى المقصود . ويفهمون أن المقصود من الصوم التخلق بخلق من أخلاق الله عز وجل وهو الصمدية ، والاقتداء بالملائكة في الكف عن الشهوات بحسب الإمكان فإنهم منزهون عن الشهوات . والإنسان رتبته فوق رتبة البهائم لقدرته بنور العقل على كسر شهوته ودون رتبة الملائكة لاستيلاء الشهوات عليه وكونه مبتلى بمجاهدتها ، فكلما انهمك في الشهوات انحط إلى أسفل السافلين والتحق بغمار البهائم ، وكلما قمع الشهوات ارتفع إلى أعلى عليين والتحق بأفق الملائكة والملائكة مقربون من الله عز وجل والذي يقتدى بهم ويتشبه بأخلاقهم يقرب من الله عز وجل كقربهم ، فإن الشبيه من القريب قريب ، وليس القرب ثم بالمكان بل بالصفات . وإذا كان هذا سر الصوم عند أرباب الألباب وأصحاب القلوب فأي جدوى لتأخير أكلة وجمع أكلتين عند العشاء مع الانهماك في الشهوات الأخر طول النهار ؟ ولو كان لمثله جدوى فأي معنى لقوله صلى الله عليه وسلم « كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش » ولهذا قال أبو الدرداء : ياحبذا نوم الأكياس وفطرهم كيف لا يعيبون صوم الحمق وسهرهم ! ولذرة من ذوي يقين وتقوى أفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادة من المغترين . ولذلك قال بعض العلماء : كم من صائم مفطر وكم من مفطر صائم . والمفطر الصائم هو الذي يحفظ جوارحه عن الآثام ويأكل ويشرب ، والصائم المفطر هو الذي يجوع ويعطش ويطلق جوارحه . ومن فهم معنى الصوم وسره علم أن مثل من كف عن الأكل والجماع وأفطر بمخالطة الآثام كمن مسح على عضو من أعضائه في الوضوء ثلاث مرات فقد وافق في الظاهر العدد إلا أنه ترك المهم وهو الغسل فصلاته مردودة عليه بجهله . ومثل من أفطر بالأكل وصام بجوارحه عن المكاره كمن غسل أعضاءه مرة مرة فصلاته متقبلة إن شاء الله لإحكامه الأصل وإن ترك الفضل . ومثل من جمع بينهما كمن غسل كل عضو ثلاث مرات فجمع بين الأصل والفضل وهو الكمال . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته[١] » . ولما تلا قوله عز وجل ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ وضع يده على سمعه وبصره فقال : « السمع أمانة والبصر أمانة[٢] » ولولا أنه من أمانات الصوم لما قال صلى الله عليه وسلم « فليقل إني صائم » أي إني أودعت لساني لأحفظه فكيف أطلقه بجوابك ؟ فإذن قد ظهر أن لكل عبادة ظاهراً وباطناً

(١) « إنما الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته » أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود في حديث في الأمانة والصوم وإسناده حسن .

(٢) « لما تلا قوله تعالى ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ وضع يده على سمعه وبصره وقال السمع والبصر أمانة » أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة دون قوله « السمع أمانة » .

وقشراً ولباً ، ولقشرها درجات ولكل درجة طبقات ، فإليك الخيرة الآن فى أن تقنع بالقشر عن اللباب أو تتحيز إلى غمار أرباب الألباب .

الفصل الثالث : فى التطوع بالصيام وترتيب الأوراد فيه

اعلم أن استحباب الصوم يتأكد فى الأيام الفاضلة وفواضل الأيام بعضها يوجد فى كل سنة وبعضها يوجد فى كل شهر وبعضها فى كل أسبوع . أما فى السنة بعد أيام رمضان فيوم عرفة ويوم عاشوراء والعشر الأول من ذى الحجة والعشر الأول من المحرم وجميع الأشهر الحرم مظان الصوم وهى أوقات فاضلة « وكان رسول الله ﷺ يكثر صوم شعبان حتى كان يظن أنه فى رمضان[1] » وفى الخبر « أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم[2] » لأنه ابتداء السنة فبناؤها على الخير أحب وأرجى لدوام بركته . وقال ﷺ « صوم يوم من شهر حرام أفضل من ثلاثين من غيره وصوم يوم من رمضان أفضل من ثلاثين من شهر حرام[3] » وفى الحديث « من صام ثلاثة أيام من شهر حرام الخميس والجمعة والسبت كتب الله له بكل يوم عبادة تسعمائة عام[4] » وفى الخبر : إذا كان النصف من شعبان فلا صوم حتى رمضان[5] ولهذا يستحب أن يفطر قبل رمضان أياما فان وصل شعبان برمضان فجائز[6] فعل ذلك رسول الله ﷺ مرة وفصل مراراً كثيرة[7] ولا يجوز أن يقصد استقبال رمضان بيومين أو ثلاثة إلا أن يوافق وردا له ، وكره بعض الصحابة أن يصام رجب كله حتى لا يضاهى بشهر رمضان . فالأشهر الفاضلة : ذو الحجة والمحرم ورجب وشعبان . والأشهر الحرم : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ؛ واحد فرد وثلاثة سرد . وأفضلها ذو الحجة لأن فيه الحج والأيام المعلومات والمعدودات . وذو القعدة من الأشهر الحرم وهو من أشهر الحج ، وشوال من أشهر الحج وليس من الحرم ، والمحرم ورجب ليسا من أشهر الحج . وفى الخبر « ما من أيام العمل فيهن أفضل وأحب إلى الله عز وجل من أيام عشر ذى الحجة إن صوم يوم منه يعدل صيام سنة وقيام ليلة منه تعدل قيام ليلة القدر ، قيل : ولا الجهاد فى سبيل الله ، قال : ولا الجهاد فى سبيل الله إلا من عقر جواده أو أهريق دمه[8] » وأما ما يتكرر فى الشهر : فأول الشهر وأوسطه وآخره . ووسطه الأيام البيض وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر . وأما فى الأسبوع : فالاثنين والخميس والجمعة فهذه هى الأيام الفاضلة فيستحب فيها الصيام وتكثير الخيرات لتضاعف أجورها ببركة هذه الأوقات . وأما صوم الدهر فانه شامل للكل وزيادة ، وللسالكين فيه طرق فمنهم من

---

(١) « كان يكثر صيام شعبان » متفق عليه من حديث عائشة . (٢) « أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة (٣) « صوم يوم من شهر حرام أفضل من صوم ثلاثين ... » لم أجده هكذا وفى المعجم الصغير للطبرانى من حديث ابن عباس « من صام يوما من المحرم فله بكل يوم ثلاثين يوما » (٤) « من صام ثلاثة أيام من شهر حرام الخميس والجمعة والسبت ... » أخرجه الأزدى فى الضعفاء من حديث أنس (٥) « إذا كان النصف من شعبان فلا صوم حتى رمضان » أخرجه الأربعة من حديث أبى هريرة وابن حبان فى صحيحه عنه « إذا كان النصف من شعبان فأفطروا حتى يجىء رمضان » وصححه الترمذى (٦) « وصل شعبان برمضان مرة ... » أخرجه الأربعة من حديث أم سلمة « لم يكن يصوم من السنة شهراً تاما إلا شعبان يصل به رمضان وأخرج أبو داود والنسائى نحوه من حديث عائشة (٧) « فصل شعبان من رمضان مراراً » أخرجه أبو داود من حديث عائشة قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحفظ من هلال شعبان مالا يتحفظ من غيره فإن غم عليه عد ثلاثين يوما ثم صام » وأخرجه الدارقطنى وقال إسناده صحيح والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين (٨) « ما من أيام العمل فيهن أفضل وأحب إلى الله من عشر ذى الحجة ... » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة دون قوله « قيل والجهاد » إلخ وعند البخارى من حديث ابن عباس « ما العمل فى أيام أفضل من العمل فى العشر قالوا ولا الجهاد قال ولا الجهاد إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشىء »

كره ذلك إذ وردت أخبار تدل على كراهته . والصحيح أنه إنما يكره لشيئين ؛ أحدهما : أن لا يفطر في العيدين وأيام التشريق فهو الدهر كله (١) والآخر أن يرغب عن السنة في الإفطار ويجعل الصوم حجراً على نفسه مع أن سبحانه يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه . فاذا لم يكن شيء من ذلك ورأى صلاح نفسه في صوم الدهر فليفعل ذلك. فقد فعله جماعة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم وقال ﷺ فيما رواه أبو موسى الأشعري « من صام الدهر كله ضيقت عليه جهنم وعقد تسعين(٢) » ومعناه لم يكن له فيها موضع ، ودونه درجة أخرى وهو صوم نصف الدهر بأن يصوم يوما ويفطر يوما وذلك أشد على النفس وأقوى في قهرها وقد ورد في فضله أخبار كثيرة لأن العبد فيه بين صوم يوم وشكر يوم فقد قال ﷺ « عرضت على مفاتيح خزائن الدنيا وكنوز الأرض فرددتها وقلت أجوع يوماً وأشبع يوماً أحمدك إذا شبعت وأتضرع إليك إذا جعت(٣) » وقال ﷺ « أفضل الصيام صوم أخي داود كان يصوم يوماً ويفطر يوماً (٤) » ومن ذلك « منازلته ﷺ لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما في الصوم وهو يقول : إني أطيق أكثر من ذلك فقال ﷺ : صم يوماً وأفطر يوماً ، فقال : إني أريد أفضل من ذلك ، فقال ﷺ : لا أفضل من ذلك (٥) » وقد روى « أنه ﷺ ما صام شهراً كاملا قط إلا رمضان(٦) » بل كان يفطر منه ، ومن لا يقدر على صوم نصف الدهر فلا بأس بثلثه وهو أن يصوم يوما ويفطر يومين ، وإذا صام ثلاثة من أول الشهر وثلاثة من الوسط وثلاثة من الآخر فهو ثلث ، وواقع من الأوقات الفاضلة . وإن صام الاثنين والخميس والجمعة فهو قريب من الثلث . وإذا ظهرت أوقات الفضيلة فالكمال في أن يفهم الإنسان معنى الصوم وأن مقصوده تصفية القلب وتفريغ الهم لله عز وجل . والفقيه بدقائق الباطن ينظر إلى أحواله فقد يقتضي حاله دوام الصوم وقد يقتضي دوام الفطر وقد يقتضي مزج الإفطار بالصوم . وإذا فهم المعنى وتحقق وحده في سلوك طريق الاخرة بمراقبة القلب لم يخف عليه صلاح قلبه وذلك لا يوجب ترتيباً مستمراً . ولذلك روى أنه ﷺ « كان يصوم حتى يقال لا يفطر ويفطر حتى يقال لا يصوم ، وينام حتى يقال لا يقوم ويقوم حتى يقال لا ينام (٧) » وكان ذلك بحسب ما ينكشف له بنور النبوة من القيام بحقوق الأوقات . وقد كره العلماء أن يوالي بين الإفطار أكثر من أربعة أيام تقديراً بيوم العيد وأيام التشريق وذكروا أن ذلك يقسي القلب ويولد رديء العادات ويفتح أبواب الشهوات ولعمري هو كذلك في حق أكثر الخلق لاسيما من يأكل في اليوم والليلة مرتين . فهذا ما أردنا ذكره من ترتيب الصوم المتطوع به ، والله أعلم بالصواب .

تم كتاب : أسرار الصوم ، والحمد لله بجميع محامده كلها ما علمنا منها وما لم نعلم على جميع نعمه كلها ما علمنا منها

---

(١) الأحاديث الدالة على كراهة صيام الدهر أخرجها البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمرو في حديث لابن ماجه « لاضام من صام الأبد » ولمسلم من حديث أبي قتاده « قيل يارسول الله كيف بمن صام الدهر قال لا صام ولا أفطر » أخرج النسائي نحوه من حديث عبد الله بن عمر وعمران بن حصين وعبد الله بن الشخير . (٢) حديث أبي موسى الأشعري « من صام الدهر كله ضيقت عليه جهنم هكذا وعقد تسعين » أخرجه أحمد والنسائي في الكبرى وابن حبان وحسنه أبو علي الطوسي (٣) «عرضت على مفاتيح خزائن الدنيا ... » أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة بلفظ «عرض على ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا» وقال حسن (٤) «أفضل الصيام صوم أخي داود ... » أخرجاه من حديث عبد الله بن عمر (٥) « مبنازلته لعبد الله بن عمرو وقوله : صم يوما وأفطر يوما» أخرجاه من حديثه (٦) «ماصام شهرا كاملا قط إلا رمضان» أخرجاه من حديث عائشة . (٧) «كان يصوم حتى يقال لايفطر...» أخرجاه من حديث عائشة وابن عباس دون ذكر « القيام والنوم » والبخاري من حديث أنس « كان يفطر من الشهر حتى يظن أن لايصوم منه شيئا ويصوم حتى يظن أن لايفطر منه شيئا وكان لاتشاء تراه من الليل مصليا إلا رأيته ولا نائما إلا رأيته »

وما لم نعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وكرم وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب :أسرار الحج ، والله المعين لارب غيره وما توفيق إلا بالله وحسبنا الله ونعم الوكيل .

كتاب أسرار الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى جعل كلمة التوحيد لعباده حرزاً وحصنا ، وجعل البيت العتيق مثابة للناس وأمنا ،وأكرمه بالنسبة إلى نفسه تشريفا وتحصينا ومنا ، وجعل زيارته والطواف به حجابا بين العبد وبين العذاب ومجنا ،والصلاة على محمد نبى الرحمة وسيد الأمة وعلى آله وصحبه قادة الحق وسادة الخلق وسلم تسليما كثيراً . أما بعد : فإن الحج من بين أركان الإسلام ومبانيه عبادة العمر وختام الأمر وتمام الإسلام وكمال الدين . فيه أنزل الله عز وجل قوله ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ وفيه قال صلى الله عليه وسلم « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا(١) » فأعظم بعبادة يعدم الدين بفقدها الكمال ويساوى تاركها اليهود والنصارى فى الضلال ، وأجدر بها أن تصرف العناية إلى شرحها وتفصيل أركانها وسننها وآدابها وفضائلها وأسرارها . وجملة ذلك ينكشف بتوفيق الله عز وجل فى ثلاثة أبواب :

الباب الأول : فى فضائلها وفضائل مكة والبيت العتيق وجمل أركانها وشرائط وجوبها .

الباب الثانى : فى أعمالها الظاهرة على الترتيب من مبدإ السفر إلى الرجوع .

الباب الثالث : فى آدابها الدقيقة وأسرارها الخفية وأعمالها الباطنة فلنبدأ بالباب الأول وفيه فصلان :

الفصل الأول : فى فضائل الحج وفضيلة البيت ومكة والمدينة حرسهما الله تعالى وشد الرجال إلى المساجد

فضيلة الحج

قال الله عز وجل ﴿ وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ﴾ وقال قتادة لما أمر الله عز وجل إبراهيم صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا وعلى كل عبد مصطفى أن يؤذن فى الناس بالحج نادي : يا ايها الناس إن الله عز وجل بنى بيتا فحجوه وقال تعالى ﴿ ليشهدوا منافع لهم ﴾ قيل التجارة فى الموسم والأجر فى الآخرة . ولما سمع بعض السلف هذا قال : غفر لهم ورب الكعبة . وقيل فى تفسير قوله عز وجل ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ اى طريق مكة يقعد الشيطان عليها ليمنع الناس منها وقال صلى الله عليه وسلم « من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته امه(٢) » وقال ايضا صلى الله عليه وسلم « ما رؤى

كتاب أسرار الحج

(١) «من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا » أخرجه عدى من حديث أبى هريرة والترمذى نحوه من حديث على وقال غريب وفى إسناده مقال .

(٢) « من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » أخرجاه من حديث أبى هريرة .

الشيطان فى يوم أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه يوم عرفة(١) » وما ذاك إلا لما يرى من نزول الرحمة وتجاوز الله سبحانه عن الذنوب العظام إذ يقال « إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة (٢) » وقد أسنده جعفر بن محمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذكر بعض المكاشفين من المقربين أن إبليس لعنة الله عليه ظهر له فى صورة شخص بعرفة فإذا هو ناحل الجسم مصفر اللون باكى العين مقصوف الظهر فقال له : ما الذى أبكى عينك ؟ قال خروج الحاج إليه بلا تجارة ، أقول قد قصدوه أخاف أن لا يخيبهم فيحزننى ذلك قال : فما الذى أنحل جسمك ؟ قال : صهيل الخيل فى سبيل الله عز وجل ولو كانت فى سبيلى كان أحب إلى ، قال : فما الذى غير لونك ؟ قال : تعاون الجماعة على الطاعة ولو تعاونوا على المعصية كان أحب إلى ، قال : فما الذى قصف ظهرك ؟ قال : قول العبد أسألك حسن الخاتمة ، أقول يا ويلتى متى يعجب هذا بعمله أخاف أن يكون قد فطن ؟ وقال صلى الله عليه وسلم « من خرج من بيته حاجا أو معتمراً فمات أجرى له أجر الحاج المعتمر إلى يوم القيامة ومن مات فى إحدى الحرمين لم يعرض ولم يحاسب وقيل له ادخل الجنة (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « حجة مبرورة خير من الدنيا وما فيها وحجة مبرورة ليس لها جزاء إلا الجنة (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « الحجاج والعمار وفد الله عز وجل وزواره إن سألوه أعطاهم وإن استغفروه غفر لهم وإن دعوا استجيب لهم وإن شفعوا شفعوا (٥) » وفى حديث مسند من طريق أهل البيت عليهم السلام « أعظم الناس ذنبا من وقف بعرفة فظن أن الله تعالى لم يغفر له(٦) » وروى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال « ينزل على هذا البيت فى كل يوم مائة وعشرون رحمة ستون للطائفين وأربعون للمصلين وعشرون للناظرين (٧) » وفى الخبر « استكثروا من الطواف بالبيت فإنه من أجل شىء تجدونه فى صحفكم يوم القيامة وأغبط عمل تجدونه (٨) » ولهذا يستحب الطواف ابتداء من غير حج ولا عمرة وفى الخبر « من طاف أسبوعا حافيا حاسراً كان له كعتق رقبة ومن طاف أسبوعا فى المطر غفر له ما سلف من ذنبه (٩) » ويقال : إن الله عز وجل إذا غفر لعبد ذنبا فى الموقف غفره لكل من أصابه فى ذلك الموقف . وقال بعض السلف : إذا وافق يوم عرفة يوم جمعة غفر لكل أهل عرفة وهو أفضل

---

(١) « ماروئى الشيطان فى يوم هو أصغر ... » أخرجه مالك عن إبراهيم بن أبى عبلة عن طلحة بن عبد الله بن كريز مرسلا . (٢) « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة » لم أجد له أصلا .

(٣) « من خرج من بيته حاجا أو معتمرا فمات أجرى الله له أجر الحاج المعتمر إلى يوم القيامة ومن مات فى أحد الحرمين لم يعرض ولم يحاسب وقيل له ادخل الجنة » أخرجه البيهقى فى الشعب بالشطر الأول من حديث أبى هريرة . وروى هو والدارقطنى من حديث عائشة الشطر الثانى نحوه وكلاهما ضعيف . (٤) « حجة مبرورة خير من الدنيا وما فيها وحجة مبررة ليس لها جزاء إلا الجنة » أخرجاه من حديث أبى هريرة الشطر الثانى بلفظ « الحج المبرور » وقال « إن الحجة المبرورة » وعند ابن عدى « حجة مبرورة » . (٥) « الحجاج والعمار وفد الله وزواره .. » أخرجه من حديث أبى هريرة دون قوله « وزواره » ودون قوله « إن سألوه أعطاهم وإن شفعوا شفعوا » وله من حديث ابن عمر « وسألوه فأعطاهم » ورواه ابن حبان . (٦) « أعظم الناس ذنبا من وقف بعرفه فظن أن الله لم يغفر له » أخرجه الخطيب فى المتفق والمفترق وأبو منصور شهردار بن شيرويه الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر بإسناده ضعيف .

(٧) « ينزل على هذا البيت فى كل يوم مائة وعشرون رحمة » أخرجه ابن حبان فى الضعفاء والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بإسناد حسن وقال أبو حاتم حديث منكر . (٨) « استكثروا من الطواف بالبيت ... » أخرجه ابن حبان والحاكم من حديث ابن عمر « استمتعوا من هذا البيت فإنه هدم مرتين ويرفع فى الثالثة » وقال الحاكم على شرط الشيخين . (٩) « من طاف أسبوعا حافيا حاسرا كان له كعتق رقبة ومن طاف أسبوعا فى المطر غفر له ماسلف من ذنوبه » لم أجده هكذا وعند الترمذى وابن ماجه من حديث ابن عمر « من طاف بهذا البيت أسبوعا فأحصاه كان كعتق رقبة » لفظ الترمذى وحسنه .

يوم فى الدنيا وفيه «حج رسول الله ﷺ حجة الوداع وكان واقفا إذ نزل قوله عز وجل ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾(١) » قال أهل الكتاب : لو أنزلت هذه الآية علينا لجعلناها يوم عيد فقال عمر رضى الله عنه : أشهد لقد أنزلت هذه الآية فى يوم عيدين اثنين ؛ يوم عرفة ويوم جمعة على رسول الله ﷺ وهو واقف بعرفة . وقال ﷺ « اللهم اغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج(٢) » ويروى أن على ابن موفق حج عن رسول الله ﷺ حججاً قال : فرأيت رسول الله ﷺ فى المنام فقال لى : يا ابن موفق حججت عنى؟ قلت : نعم ، ولبيت عنى ؟ قلت : نعم ، قال ، فإنى أكافئك بها يوم القيامة آخذ بيدك فى الموقف فأدخلك الجنة والخلائق فى كرب الحساب . وقال مجاهد وغيره من العلماء : إن الحجاج إذا قدموا مكة تلقتهم الملائكة فسلموا على ركبان الإبل وصافحوا ركبان الحمر واعتنقوا المشاة اعتناقا . وقال الحسن : من مات عقيب رمضان أو عقيب غزو أو عقيب حج مات شهيداً . وقال عمر رضى الله عنه : الحاج مغفور له ولمن يستغفر له فى شهر ذى الحجة والمحرم وصفر وعشرين من ربيع الأول . وقد كان من سنة السلف رضى الله عنهم أن يشيعوا الغزاة وأن يستقبلوا الحاج ويقبلوا بين أعينهم ويسألوهم الدعاء ويبادرون ذلك قبل أن يدنسوا بالآثام . ويروى عن ابن موفق قال : حججت سنة فلما كان ليلة عرفة نمت بمنى فى مسجد الخيف فرأيت فى المنام كأن ملكين قد نزلا من السماء عليهما ثياب خضر فنادى أحدهما صاحبه : ياعبد الله فقال الاخر : لبيك ياعبد الله ، قال : تدرى كم حج بيت ربنا عز وجل فى هذه السنة ؟ قال : لاأدرى قال : حج بيت ربنا ستمائة ألف أفتدرى كم قبل منهم ؟ قال : لا ، قال : ستة أنفس ، قال : ثم ارتفعا فى الهواء فغابا عنى فانتبهت فزعاً واغتممت غما شديداً وأهمنى أمرى فقلت : إذا قبل حج ستة أنفس فأين أكون أنا فى ستة أنفس ؟ فلما أفضت من عرفة قمت عند المشعر الحرام فجعلت أفكر فى كثرة الخلق وفى قلة من قبل منهم ؛ فحملنى النوم فإذا الشخصان قد نزلا على هيئتهما ؛ فنادى أحدهما صاحبه وأعاد الكلام بعينه ثم قال : أتدرى ماذا حكم ربنا عز وجل فى هذه الليلة ؟ قال : لا ، قال : فإنه وهب لكل واحد من الستة مائة ألف ، قال : فانتبهت وبى من السرور مايجل عن الوصف . وعنه أيضاً رضى الله عنه قال : حججت سنة فلما قضيت مناسكى تفكرت فيمن لايقبل حجه فقلت : اللهم إنى قد وهبت حجتى وجعلت ثوابها لمن لم تقبل حجته قال : فرأيت رب العزة فى النوم جل جلاله فقال لى . ياعلى تتسخى على وأنا خلقت السخاء والأسخياء وأنا أجود الأجودين وأكرم الأكرمين وأحق بالجود والكرم من العالمين قد وهبت كل من لم أقبل حجه لمن قبلته .

فضيلة البيت ومكة المشرفة

قال صلى الله عليه وسلم «إن الله عز وجل قد وعد هذا البيت أن يحجه كل سنة ستمائة ألف فإن نقصوا أكملهم الله عز وجل من الملائكة(٣) » وأن الكعبة تحشر كالعروس المزفوفة وكل من حجها يتعلق بأستارها يسعون حولها حتى تدخل الجنة فيدخلون معها وفى الخبر «إن الحجر الأسود ياقوتة من يواقيت الجنة وإنه يبعث يوم القيامة له عينان ولسان ينطق

---

(١) « قوله فى حجة الوداع يوم الجمعة ونزول ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ الحديث » أخرجاه من حديث عمر .

(٢) « اللهم اغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج » أخرجه من حديث أبى هريرة وقال صحيح على شرط مسلم .

(٣) « إن الله قد وعد البيت أن يحجه فى كل سنة ستمائة ألف ... » لم أجد له أصلا .

به يشهد لكل من استلمه بحق[١] » وكان صلى الله عليه وسلم يقبله كثيراً[٢] وروى أنه صلى الله عليه وسلم سجد عليه وكان يطوف على الراحلة فيضع المحجن عليه ثم يقبل طرف المحجن[٣] وقبله عمر رضى الله عنه ثم قال : إنى لأعلم إنك حجر لا تضر ولا تنفع[٤] ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ماقبلتك ، ثم بكى حتى علا نشيجه فالتفت إلى ورائه فرأى علياً كرم الله وجهه ورضى الله عنه فقال : يا أبا الحسن ههنا تسكب العبرات وتستجاب الدعوات ، فقال على رضى الله عنه : يا أمير المؤمنين بل هو يضر وينفع ، قال : وكيف ؟ قال : إن الله تعالى لما أخذ الميثاق على الذرية كتب عليهم كتاباً ثم القمه هذا الحجر ؛ فهو يشهد للمؤمنين بالوفاء ويشهد على الكافر بالجحود . قيل : فذلك هو معنى قول الناس عند الاستلام «اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك ووفاء بعهدك» وروى عن الحسن البصرى رضى الله عنه : ان صوم يوم فيها بمائة ألف يوم وصدقة درهم بمائة ألف درهم وكذلك كل حسنة بمائة ألف ويقال : طواف سبعة أسابيع يعدل عمرة وثلاث عمر يعدل حجة . وفى الخبر الصحيح «عمرة فى رمضان كحجة معى[٥]» وقال صلى الله عليه وسلم «أنا أول من تنشق عنه الأرض ثم آتى أهل البقيع فيحشرون معى ثم آتى أهل مكة فأحشر بين الحرمين[٦] » وفى الخبر « إن آدم صلى الله عليه وسلم لما قضى مناسكه لقيته الملائكة فقالوا : بر حجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام[٧] » وجاء فى الأثر : إن الله عزوجل ينظر فى كل ليلة إلى أهل الأرض فأول من ينظر إليه أهل الحرم وأول من ينظر إليه من أهل الحرم أهل المسجد الحرام فمن رآه طائفاً غفر له ومن رآه مصلياً غفر له ومن رآه قائماً مستقبل الكعبة غفر له . وكوشف بعض الأولياء رضى الله عنهم قال : إنى رأيت الثغور كلها تسجد لعبادان ورأيت عبادان ساجدة لجدة ويقال : لا تغرب الشمس من يوم إلا ويطوف بهذا البيت رجل من الأبدال ، ولا يطلع الفجر من ليلة إلا طاف به واحد من الأوتاد ، وإذا انقطع ذلك كان سبب رفعه من الأرض فيصبح الناس وقد رفعت الكعبة لا يرى الناس لها أثراً ؛ وهذا إذا أتى عليها سبع سنين لم يحجها أحد . ثم يرفع القرآن من المصاحف فيصبح الناس فإذا الورق أبيض يلوح ليس فيه حرف . ثم ينسخ القرآن من القلوب فلا يذكر منه كلمة . ثم يرجع الناس إلى الأشعار والأغانى وأخبار الجاهلية . ثم يخرج الدجال وينزل عيسى عليه السلام فيقتله والساعة عند ذلك بمنزلة الحامل المقرب التى تتوقع ولادتها . وفى الخبر « استكثروا من الطواف بهذا البيت قبل أن يرفع فقد هدم مرتين ويرفع فى الثالثة[٨] » وروى عن على رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : قال

---

(١) « إن الحجر ياقوتة من يواقيت الجنة ويبعث يوم القيامة له عينان .. » أخرجه الترمذى وصححه النسائى من حديث ابن عباس «الحجر الأسود من الجنة» لفظ النسائى وباقى الحديث رواه الترمذى وحسنه وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن عباس أيضاً وللحاكم من حديث أنس « إن الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة » وصحح إسناده ورواه النسائى وابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن عمر .

(٢) « أنه صلى الله عليه وسلم كان يقبله كثيرا » أخرجاه من حديث عمر دون قوله « كثيرا » والنسائى « أنه كان يقبله كل مرة ثلاثا إن رآه خاليا » . (٣) «إنه كان يسجد عليه » أخرجه البزار والحاكم من حديث عمر وصحح إسناده

(٤) « قبله عمر وقال إنى لأعلم انك حجر » أخرجاه دون الزيادة التى رواها على ورواه بتلك الزيادة الحاكم وقال ليس من شرط الشيخين . (٥) «عمرة فى رمضان كحجة معى» أخرجاه من حديث ابن عباس دون قوله «معى» فهى عند مسلم على الشك « تقضى حجة أو حجة معى » ورواه الحاكم بزيادتها عن غير شك . (٦) « أنا أول من تنشق عنه الأرض ثم آتى أهل البقيع فيحشرون معى ... » أخرجه الترمذى وحسنه وابن حبان من حديث ابن عمر .

(٧) « إن آدم لما قضى مناسكه لقيته الملائكة فقالوا بر حجك يا آدم ... » رواه المفضل الجعدى ومن طريقة ابن الجوزى فى العلل من حديث ابن عباس وقال لا يصح ورواه الأزرقى فى تاريخ مكة موقوفا على ابن عباس .

(٨) « استكثروا من الطواف بهذا البيت ... » أخرجه البزار وابن حبان والحاكم وصححه من حديث ابن عمر « استمتعوا من هذا البيت فإنه هدم مرتين ويرفع فى الثالثة » .

الله تعالى « إذا أردت أن أخرب الدنيا بدأت ببيتى فخربته ثم أخرب الدنيا على أثره (١) » .

فضيلة المقام بمكة حرسها الله تعالى وكراهيته

كره الخائفون والمحتاطون من العلماء المقام بمكة لمعان ثلاثة :

الأول : خوف التبرم والأنس بالبيت ، فإن ذلك ربما يؤثر فى تسكين حرقة القلب فى الاحترام ، وهكذا كان عمر رضى الله عنه يضرب الحجاج إذا حجوا ويقول : يا أهل اليمن يمنكم ويا أهل الشام شامكم ويا أهل العراق عراقكم . ولذلك هم عمر رضى الله عنه بمنع الناس من كثرة الطواف ، وقال : خشيت أن يأنس الناس بهذا البيت.

الثانى : تهييج الشوق بالمفارقة لتنبعث داعية العود ، فإن الله تعالى جعل البيت مثابة للناس وأمناً ، أى يثوبون ويعودون إليه مرة بعد أخرى ولا يقضون منه وطراً . وقال بعضهم : تكون فى بلد وقلبك مشتاق إلى مكة متعلق بهذا البيت خير لك من أن تكون فيه وأنت متبرم بالمقام وقلبك فى بلد آخر . وقال بعض السلف : كم من رجل بخراسان وهو أقرب إلى هذا البيت ممن يطوف به ! ويقال : إن لله تعالى عباداً تطوف بهم الكعبة تقرباً إلى الله عز وجل .

الثالث : الخوف من ركوب الخطايا والذنوب بها ؛ فإن ذلك مخطر وبالحرى أن يورث مقت الله عز وجل لشرف الموضع . وروى عن وهيب بن الورد المكى قال : كنت ذات ليلة فى الحجر أصلى فسمعت كلاما بين الكعبة والأستار يقول : إلى الله أشكو ثم إليك يا جبرائيل ما ألقى من الطائفين حولى من تفكرهم فى الحديث ولغوهم ولهوهم لئن لم ينتهوا عن ذلك لأنتفضن انتفاضة يرجع كل حجر منى إلى الجبل الذى قطع منه . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : ما من بلد يؤاخذ فيه العبد بالنية قبل العمل إلا مكة وتلا قوله تعالى ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ أى أنه على مجرد الإرادة . ويقال : إن السيئات تضاعف بها كما تضاعف الحسنات . وكان ابن عباس رضى الله عنه يقول : الاحتكار بمكة من الإلحاد فى الحرم ، وقيل الكذب أيضاً . وقال ابن عباس : لأن أذنب سبعين ذنباً بركية أحب إلى من أن أذنب ذنباً واحداً بمكة : وركية : منزل بين مكة والطائف . ولخوف ذلك انتهى بعض المقيمين إلى أن لم يقض حاجته فى الحرم بل كان يخرج إلى الحل عند قضاء الحاجة. وبعضهم أقام شهرا وما وضع جنبه على الأرض . وللمنع من الإقامة كره بعض العلماء أجور دور مكة . ولا تظنن أن كراهة المقام يناقض فضل البقعة لأن هذه كراهة علتها ضعف الخلق وقصورهم عن القيام بحق الموضع . فمعنى قولنا إن ترك المقام به أفضل أى بالإضافة إلى مقام مع التقصير والتبرم ، وإما أن يكون أفضل من المقام مع الوفاء بحقه فهيهات ! وكيف لا ولما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة استقبل الكعبة وقال : « إنك لخير أرض الله عز وجل وأحب بلاد الله تعالى إلى ولولا أنى أخرجت منك لما خرجت (٢) » والنظر إلى البيت عبادة والحسنات فيها مضاعفة كما ذكرناه .

فضيلة المدينة الشريفة على سائر البلاد

ما بعد مكة بقعة أفضل من مدينة رسول الله ﷺ فالأعمال فيها أيضاً مضاعفة ، قال ﷺ : « صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام (٣) » وكذلك كل عمل بالمدينة بألف

---

(١) «قال الله إذا أردت أن أخرب الدنيا بدأت ببيتى فخربته ثم أخرب الدنيا على أثره » ليس له أصل .

(٢) « إنك لخير أرض الله وأحب بلاد الله إلى الله ولولا أنى أخرجت منك ماخرجت » أخرجه الترمذى وصححه النسائى فى الكبرى وابن ماجه وابن حبان من حديث عبد الله بن عدى بن الحمراء (٣) « صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » متفق عليه من حديث أبى هريرة ورواه مسلم من حديث ابن عمر .

وبعد مدينته الأرض المقدسة فان الصلاة فيها بخمسمائة صلاة فيما سواها إلا المسجد الحرام ، وكذلك سائر الأعمال . وروى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « صلاة في مسجد المدينة بعشرة آلاف صلاة وصلاة في المسجد الأقصى بألف صلاة وصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة[1] » وقال ﷺ : « من صبر على شدتها ولأوائها كنت له شفيعاً يوم القيامة[2] » وقال ﷺ : « من استطاع أن يموت بالمدينة فانه لن يموت بها أحد إلا كنت له شفيعاً يوم القيامة[3] » وما بعد هذه البقاع الثلاث فالمواضع فيها متساوية إلا الثغور فان المقام بها للمرابطة فيها فيه فضل عظيم . ولذلك قال ﷺ : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى[4] » وقد ذهب بعض العلماء إلى الاستدلال بهذا الحديث في المنع من الرحلة لزيارة المشاهد وقبور العلماء والصلحاء . وما تبين لي أن الأمر كذلك بل الزيارة مأمور بها قال ﷺ : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجراً [5] » والحديث إنما ورد في المساجد وليس في معناها المشاهد ، لأن المساجد بعد المساجد الثلاثة متماثلة ولا بلد إلا وفيه مسجد فلا معنى للرحلة إلى مسجد آخر ، وأما المشاهد فلا تتساوى بل بركة زيارتها على قدر درجاتهم عند الله عز وجل ، نعم لو كان في موضع لا مسجد فيه فله أن يشد الرحال إلى موضع فيه مسجد وينتقل إليه بالكلية إن شاء . ثم ليت شعري هل يمنع هذا القائل من شد الرحال إلى قبور الأنبياء مثل إبراهيم وموسى ويحيى وغيرهم عليهم السلام ، فالمنع من ذلك في غاية الإحالة ، فاذا جوز هذا فقبور الأولياء والعلماء والصلحاء في معناها ، فلا يبعد أن يكون ذلك من أغراض الرحلة كما أن زيارة العلماء في الحياة من المقاصد ، هذا في الرحلة أما المقام فالأولى بالمريد أن يلازم مكانه إذا لم يكن قصده من السفر استفادة العلم مهما سلم له حاله في وطنه ، فان لم يسلم فيطلب من المواضع ما هو أقرب إلى الخمول وأسلم للدين وأفرغ للقلب وأيسر للعبادة فهو أفضل المواضع له قال ﷺ « البلاد بلاد الله والخلق عباده فأي موضع رأيت فيه رفقاً فأقم واحمد الله تعالى[6] » وفي الخبر « من بورك له في شيء فليلزمه ومن جعلت معيشته في شيء فلا ينتقل عنه حتى لا يتغير عليه [7] » وقال أبو نعيم : رأيت سفيان الثوري وقد جعل جرابه على كتفه وأخذ نعله بيده فقلت : إلى أين يا أبا عبد الله ؟ فقال : إلى بلد أملأ فيه جرابي بدرهم . وفي حكاية أخرى : بلغني عن قرية رخص أقيم فيها ، قال فقلت : وتفعل هذا يا أبا عبد الله ؟ فقال : نعم إذا سمعت برخص في بلد فاقصده فانه أسلم لدينك وأقل لهمك ، وكان يقول هذا زمان سوء لا يؤمن فيه على الخاملين فكيف

---

(١) حديث ابن عباس « صلاة في مسجد المدينة بعشرة آلاف صلاة وصلاة في المسجد الأقصى بألف صلاة وصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة » غريب لم أجده بجملته هكذا وأخرجه ابن ماجه من حديث ميمونة بإسناد جيد في بيت المقدس « ائتوه فصلوا فيه فإن صلاة فيه كألف صلاة في غيره » ولابن ماجه من حديث أنس « صلاة بالمسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة وصلاة في مسجدي بخمسين ألف صلاة » وليس في إسناده من ضعف وقال الذهبي إنه منكر

(٢) « لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شفيعا يوم القيامة » من حديث أبي هريرة وابن عمر وأبي سعيد

(٣) « من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها ... » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عمر قال الترمذي حسن صحيح .

(٤) « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ... » متفق عليه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد .

(٥) « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها » أخرجه مسلم من حديث بريدة بن الحصيب

(٦) « البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فأي موضع رأيت فيه رفقا فأقم » أخرجه أحمد والطبراني من حديث الزبير بسند ضعيف .

(٧) « من رزق في شيء فليلزمه ومن جعلت معيشته في شيء فلا ينتقل عنه حتى يتغير عليه » أخرجه ابن ماجه من حديث أنس بالجملة الأولى بسند حسن ومن حديث عائشة بسند فيه جهالة بلفظ « إذا سبب لأحدكم رزقا من وجه فلا يدعه حتى يتغير أو يتنكر له » .

بالمشهورين ؟ هذا زمان تنقل يتنقل الرجل من قرية إلى قرية يفر بدينه من الفتن . ويحكى عنه أنه قال : والله ما أدرى أى البلاد أسكن ؟ فقيل له : خراسان ، فقال : مذاهب مختلفة وآراء فاسدة . قيل : فالشام ، قال: يشار إليك بالأصابع ـ أراد الشهرة ـ قيل : فالعراق، قال: بلد الجبابرة ، قيل: مكة، قال: مكة تذيب الكيس والبدن وقال له رجل غريب : عزمت على المجاورة بمكة فأوصنى ، قال : أوصيك بثلاث لا تصلين فى الصف الأول ولا تصحبن قرشياً ولا تظهرن صدقة ، وإنما كره الصف الأول لأنه يشتهر فيفتقد إذا غاب فيختلط بعمله التزين والتصنع .

الفصل الثانى

فى شروط وجوب الحج وصحة أركانه وواجباته ومحظوراته

أما الشرائط فشرط صحة الحج اثنان : الوقت والإسلام . فيصح حج الصبى ويحرم بنفسه إن كان مميزاً ويحرم عنه وليه إن كان صغيراً ويفعل به ما يفعل فى الحج من الطواف والسعى وغيره . وأما الوقت فهو شوال وذو القعدة وتسع من ذى الحجة إلى طلوع الفجر من يوم النحر ، فمن أحرم بالحج فى غير هذه المدة فهى عمرة وجميع السنة وقت العمرة ، ولكن من كان معكوفا على النسك أيام منى فلا ينبغى أن يحرم بالعمرة لأنه لا يتمكن من الاشتغال عقيبه لاشتغاله بأعمال منى . وأما شروط وقوعه عن حجة الإسلام فخمسة : الإسلام والحرية والبلوغ والعقل والوقت فإن أحرم الصبى أو العبد ولكن عتق العبد وبلغ الصبى بعرفة أو بمزدلفة وعاد إلى عرفة قبل طلوع الفجر أجزأهما عن حجة الإسلام ، لأن الحج عرفة ، وليس عليهما دم إلا شاة . وتشترط هذه الشرائط فى وقوع العمرة عن فرض الإسلام إلا الوقت . وأما شروط وقوع الحج نفلا عن الحر البالغ فهو بعد براءة ذمته عن حجة الإسلام . فحج الإسلام متقدم ، ثم القضاء لمن أفسده فى حالة الوقوف ، ثم النذر ، ثم النيابة ، ثم النفل ؛ وهذا الترتيب مستحق ، وكذلك يقع وإن نوى خلافه . وأما شروط لزوم الحج فخمسة : البلوغ والإسلام والعقل والحرية والاستطاعة . ومن لزمه فرض الحج لزمه فرض العمرة . ومن أراد دخول مكة لزيارة أو تجارة ولم يكن حطابا لزمه الإحرام على قول ثم يتحلل بعمل عمرة أو حج . وأما الاستطاعة فنوعان : أحدهما المباشرة وذلك له أسباب أما فى نفسه فبالصحة ، وأما فى الطريق فبأن تكون خصبة آمنة بلا بحر مخطار ولا عدو قاهر . وأما فى المال فبأن يجد نفقة ذهابه وإيابه إلى وطنه ـ كان له أهل أو لم يكن ـ لأن مفارقة الوطن شديدة وأن يملك نفقة من تلزمه نفقته فى هذه المدة وأن يملك ما يقضى به ديونه وأن يقدر على راحلة أو كرائها بمحمل أو زاملة إن استمسك على الزاملة وأما النوع الثانى : فاستطاعة المعضوب بماله وهو أن يستأجر من يحج عنه بعد فراغ الأجير عن حجة الإسلام لنفسه . ويكفى نفقة الذهاب بزاملة فى هذا النوع ، والابن إذا عرض طاعته على الأب الزمن صار به مستطيعاً ولو عرض ماله لم يصر به مستطيعاً ؛ لأن الخدمة بالبدن فيها شرف للولد ، وبذل المال فيه منة على الوالد . ومن استطاع لزمه الحج وله التأخير ولكنه فيه على خطر فإن تيسر له ولو فى آخر عمره سقط عنه ، وإن مات قبل الحج لقى الله عز وجل عاصياً بترك الحج ، وكان الحج فى تركته يحج عنه وإن لم يوص كسائر ديونه . وإن استطاع فى سنة فلم يخرج مع الناس وهلك ماله فى تلك السنة ـ قبل حج الناس ـ ثم مات لقى الله عز وجل ولا حج عليه ومن مات ولم يحج مع اليسار فأمره شديد عند الله تعالى . قال عمر رضى الله عنه : لقد هممت أن أكتب فى الأمصار بضرب الجزية على من لم يحج ممن يستطيع إليه سبيلا ؛ وعن سعيد بن جبير وإبراهيم النخعى ومجاهد وطاوس لو علمت رجلا غنيا وجب عليه الحج ثم مات قبل أن يحج ما صليت عليه . وبعضهم كان له جار موسر فمات ولم يحج فلم يصل عليه وكان ابن عباس يقول: من مات ولم يزك ولم يحج سأل الرجعة إلى الدنيا وقرأ قوله عز وجل ﴿ رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت ﴾ قال .

الحج وأما الأركان التى لا يصح الحج بدونها فخمسة : الإحرام والطواف والسعى بعده والوقوف بعرفة والحلق بعده على قول وأركان العمرة كذلك إلا الوقوف والواجبات المجبورة بالدم ست : الإحرام من الميقات فمن تركه وجاوز الميقات محلا فعليه شاة والرمى فيه الدم قولا واحداً ، وأما الصبر بعرفة إلى غروب الشمس والمبيت بمزدلفة والمبيت بمنى وطواف الوداع فهذه الأربعة يجبر تركها بالدم على أحد القولين ، وفى القول الثانى فيها دم على وجه الاستحباب وأما وجوه أداء الحج والعمرة فثلاثة :

(الأول) : الإفراد وهو الأفضل وذلك أن يقدم الحج وحده فإذا فرغ خرج إلى الحل فأحرم واعتمر . وأفضل الحل لإحرام العمرة الجعرانة ثم التنعيم ثم الحديبية . وليس على المفرد دم إلا أن يتطوع .

(الثانى) القران وهو أن يجمع فيقول « لبيك بحجة وعمرة معاً » فيصير محرماً بهما ويكفيه أعمال الحج وتندرج العمرة تحت الحج كما يندرج الوضوء تحت الغسل ؛ إلا أنه إذا طاف وسعى قبل الوقوف بعرفة فسعيه محسوب من النسكين وأما طوافه فغير محسوب ؛ لأن شرط الطواف الفرض فى الحج أن يقع بعد الوقوف ، وعلى القارن دم شاة إلا أن يكون مكيا فلا شىء عليه لأنه لم يترك ميقاته إذ ميقاته مكة .

(الثالث) التمتع وهو أن يجاوز الميقات محرماً بعمرة ويتحلل بمكة ويتمتع بالمحظورات إلى وقت الحج ثم يحرم بالحج ولا يكون متمتعاً إلا بخمس شرائط ؛ أحدها: أن لا يكون من حاضرى المسجد الحرام وحاضره من كان منه على مسافة لا تقصر فيها الصلاة . الثانى : أن يقدم العمرة على الحج . الثالث : أن تكون عمرته فى أشهر الحج. والرابع : أن لا يرجع إلى ميقات الحج ولا إلى مثل مسافته لإحرام الحج . الخامس : أن يكون حجه وعمرته عن شخص واحد فإذا وجدت هذه الأوصاف كان متمتعاً ولزمه دم شاة ؛ فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج قبل يوم النحر متفرقة أو متتابعة وسبعة إذا رجع إلى الوطن ، وإن لم يصم الثلاثة حتى رجع إلى الوطن صام العشرة تتابعاً أو متفرقاً وبدل دم القران والتمتع سواء . والأفضل الإفراد ثم التمتع ثم القران . واما محظورات الحج والعمرة فستة ؛ الأول: اللبس للقميص والسراويل والخف والعمامة بل ينبغى أن يلبس إزاراً ورداء ونعلين . فإن لم يجد نعلين فكعبين فإن لم يجد إزاراً فسراويل ولا بأس بالمنطقة والاستظلال فى المحمل أن يغطى رأسه فإن إحرامه فى الرأس : وللمرأة أن تلبس كل مخيط بعد أن لا تستر وجهها بما يماسه فإن إحرامها فى وجهها . الثانى الطيب فليجتنب كل ما يعده العقلاء طيباً فإن تطيب أو لبس فعليه دم شاة . الثالث : الحلق والقلم وفيهما الفدية أعنى دم شاة ؛ ولا بأس بالكحل ودخول الحمام والفصد والحجامة وترجيل الشعر . الرابع : الجماع وهو مفسد قبل التحلل الأول وفيه بدنة أو بقرة أو سبع شياه وإن كان بعد التحلل الأول لزمه البدنة ولم يفسد حجه . الخامس : مقدمات الجماع كالقبلة والملامسة التى تنقض الطهر مع النساء فهو محرم وفيه شاة وكذا فى الاستمناء ، ويحرم النكاح والإنكاح ولا دم فيه لأنه لا ينعقد. السادس : قتل صيد البر أعنى ما يؤكل أو هو متولد من الحلال والحرام فان قتل صيداً فعليه مثله من النعم يراعى فيه التقارب فى الخلقة وصيد البحر حلال ولا جزاء فيه .

الباب الثانى فى ترتيب الأعمال الظاهرة من أول السفر إلى الرجوع وهى عشرة جمل

الجملة الأولى : فى السير من أول الخروج إلى الإحرام وهى ثمانية

(الأولى) فى المال : فينبغى ان يبدأ بالتوبة ورد المظالم وقضاء الديون وإعداد النفقة لكل من تلزمه نفقته إلى وقت الرجوع ويرد ما عنده من الودائع . ويستصحب من المال الحلال الطيب ما يكفيه لذهابه وإيابه من غير

تقدير بل على وجه يمكنه معه التوسع فى الزاد والرفق بالضعفاء والفقراء . ويتصدق بشيء قبل خروجه ويشترى لنفسه دابة قوية على الحمل لاتضعف أو يكتريها فإن اكترى فليظهر للمكارى كل ما يريد أن يحمله من قليل أو كثير ويحصل رضاه فيه .

(الثانية) فى الرفيق : ينبغى أن يلتمس رفيقاً صالحاً محباً للخير معيناً عليه إن نسى ذكره وإن ذكر أعانه وإن جبن شجعه وإن عجز قواه وإن ضاق صدره صبره . ويودع رفقاءه المقيمين وإخوانه وجيرانه فيودعهم ويلتمس أدعيتهم فإن الله تعالى جاعل فى أدعيتهم خيراً ، والسنة فى الوداع أن يقول : أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك (١) ، وكان ﷺ يقول لمن أراد السفر : « فى حفظ الله وكنفه زودك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك للخير أينما كنت(٢) » .

(الثالثة) فى الخروج من الدار : ينبغى إذا هم بالخروج أن يصلى ركعتين أولا يقرأ فى الأولى بعد الفاتحة : قل يا أيها الكافرون وفى الثانية الإخلاص فإذا فرغ رفع يديه ودعا الله سبحانه عن إخلاص صاف ونية صادقة وقال : اللهم أنت الصاحب فى السفر وأنت الخليفة فى الأهل والمال والولد والأصحاب احفظنا وإياهم من كل آفة وعاهة . اللهم إنا نسألك أن تطوى لنا الأرض وتهون علينا السفر وأن ترزقنا فى سفرنا سلامة البدن والدين والمال وتبلغنا حج بيتك وزيارة قبر نبيك محمد ﷺ . اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر فى الأهل والمال والولد والأصحاب. اللهم اجعلنا وإياهم فى جوارك ولا تسلبنا وإياهم نعمتك ولا تغير ما بنا وبهم من عافيتك .

(الرابعة) إذا حصل على باب الدار قال : بسم الله توكلت على الله لاحول ولا قوة إلا بالله رب أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أذل أو أذل أو أزل أو أزل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل على . اللهم إنى لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة بل خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك وقضاء فرضك واتباع سنة نبيك وشوقا إلى لقائك . فاذا مشى قال : اللهم بك انتشرت وعليك توكلت وبك اعتصمت وإليك توجهت . اللهم أنت ثقتى وأنت رجائى فاكفنى ما أهمنى وما لا أهتم به وما أنت أعلم به منى عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك . اللهم زودنى التقوى واغفر لى ذنبى ووجهنى للخير أينما توجهت . ويدعو بهذا الدعاء فى كل منزل يدخل عليه .

(الخامسة) فى الركوب : فاذا ركب الراحلة يقول : بسم الله وبالله والله أكبر توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون . اللهم إنى وجهت وجهى إليك وفوضت أمرى كله إليك وتوكلت فى جميع أمورى عليك أنت حسبى ونعم الوكيل . فاذا استوى على الراحلة واستوت تحته قال : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر - سبع مرات - وقال : ﴿ الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ﴾ اللهم أنت الحامل على الظهر المستعان على الأمور .

(السادسة) فى النزول : والسنة أن لاينزل حتى يحمى النهار ويكون أكثر سيره بالليل قال ﷺ «عليكم بالدلجة فان الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار(٣) » وليقلل نومه بالليل حتى يكون عونا على السير . ومهما أشرف

الباب الثانى : فى ترتيب الأفعال الظاهرة

(١) « استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك » أخرجه الترمذى وصححه والنسائى من حديث ابن عمر «أنه كان يقول للرجل إذا أراد سفرا : ادن منى حتى أودعك كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يودعنا » .

(٢) « كان صلى الله عليه وسلم يقول لمن أراد سفرا : فى حفظ الله وكنفه زودك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك للخير أينما توجهت » أخرجه الطبرانى فى الدعاء من حديث أنس وهو عند الترمذى وحسنه دون قوله « فى حفظ الله وكنفه » .

(٣) «عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل مالا تطوى بالنهار » أخرجه أبو داود من حديث أنس دون قوله «ماتطوى بالنهار » وهذه الزيادة فى الموطأ من حديث خالد بن معدان مرسلا .

على المنزل فليقل : اللهم رب السموات السبع وما أظللن ورب الأرضين السبع وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن ورب الرياح وما ذرين ورب البحار وما جرين أسألك خير هذا المنزل وخير أهله وأعوذ بك من شره وشر ما فيه اصرف عنى شر شرارهم . فاذا نزل المنزل صلى ركعتين فيه ثم قال : أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق فاذا جن عليه الليل يقول : يا أرض ربى وربك الله أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك وشر ما دب عليك أعوذ بالله من شر كل أسد وأسود وحية وعقرب ومن شر ساكن البلد ووالد وما ولد ﴿ وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم ﴾ .

(السابعة) فى الحراسة : ينبغى أن يحتاط بالنهار فلا يمشى منفرداً خارج القافلة لأنه ربما يغتال أو ينقطع ويكون بالليل متحفظاً عند النوم فان نام فى ابتداء الليل افترش ذراعه ، وإن نام فى آخر الليل نصب ذراعه نصباً وجعل رأسه فى كفه هكذا كان ينام النبى ﷺ فى سفره[1] لأنه ربما استثقل النوم فتطلع الشمس وهو لا يدرى فيكون ما يفوته من الصلاة أفضل مما يناله من الحج والأوجب فى الليل أن يتناوب الرفيقان فى الحراسة فاذا نام أحدهما حرس الآخر[2] فهو السنة فان قصده عدو أو سبع فى ليل أو نهار فليقرأ آية الكرسى وشهد الله والإخلاص والمعوذتين وليقل بسم الله ماشاء الله لاقوة إلا بالله حسبى الله توكلت على الله ماشاء الله لا يأتى بالخير إلا الله ماشاء الله لا يصرف السوء إلا الله حسبى الله وكفى سمع الله لمن دعا ليس وراء الله منتهى ولا دون الله ملجأ ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾ تحصنت بالله العظيم واستغثت بالحى الذى لا يموت اللهم احرسنا بعينك التى لا تنام واكنفنا بركنك الذى لا يرام . اللهم أعطف علينا قلوب عبادك وإمائك برأفة ورحمة إنك أنت ارحم الراحمين .

(الثامنة) مهما علا نشزاً من الأرض فى الطريق فيستحب ان يكبر ثلاثاً ثم يقول : اللهم لك الشرف على كل شرف ولك الحمد على كل حال . ومهما هبط سبح ومهما خاف الوحشة فى سفره قال : سبحان الله الملك القدوس رب الملائكة والروح جللت السموات بالعزة والجبروت .

الجملة الثانية : فى آداب الإحرام من الميقات إلى دخول مكة وهى خمسة

(الأول) أن يغتسل وينوى به غسل الإحرام أعنى إذا انتهى إلى الميقات المشهور الذى يحرم الناس منه . ويتمم غسله بالتنظيف ويسرح لحيته ورأسه ويقلم أظفاره ويقص شاربه ويستكمل النظافة التى ذكرناها فى الطهارة (الثانى) أن يفارق الثياب المخيطة ويلبس ثوبى الإحرام فيرتدى ويتزر بثوبين أبيضين فالأبيض هو أحب الثياب إلى الله عز وجل ، ويتطيب فى ثيابه وبدنه ولا بأس بطيب يبقى بعد الإحرام ، فقد رؤى بعض المسك على مفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الإحرام مما كان استعمله قبل الإحرام[3] . (الثالث) أن يصبر بعد لبس الثياب حتى تنبعث به راحلته إن كان راكباً أو يبدأ بالسير إن كان راجلا فعند ذلك ينوى الإحرام بالحج أو العمرة

---

(١) « كان إذا نام فى أول الليل افترش ذراعه وإذا نام فى آخر الليل نصب ذراعه نصبا وجعل ذراعه فى كفه » أخرجه أحمد والترمذى فى الشمائل من حديث أبى قتاده بإسناد صحيح وعزاه أبو مسعود الدمشقى والحميدى إلى مسلم ولم أره فيه .

(٢) « تناوب الرفيقين فى الحراسة فإذا نام أحدهما حرس الآخر » أخرجه البيهقى من طريق ابن إسحق من حديث جابر فى حديث فيه « فقال الأنصارى للمهاجرى أى الليل أحب إليك أن أكفيكه أوله أو آخره ؟ فقال : بل اكفنى أوله فاضطجع المهاجرى ... » والحديث عند أبى داود ولكن ليس فيه قول الأنصارى للمهاجرى .

(٣) « رؤية وبيص المسك على مفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الإحرام » متفق عليه من حديث عائشة قالت « كأنما أنظر إلى وبيص المسك » الحديث .

قرانا أو إفرادا كما أراد ويكفى مجرد النية لانعقاد الإحرام ولكن السنة أن يقرن بالنية لفظ التلبية فيقول «لبيك اللهم لبيك لبيك لاشريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك» وإن زاد قال «لبيك وسعديك والخير كله بيديك والرغباء إليك بحجة حقا تعبدا ورقاً اللهم صل على محمد وعلى آل محمد»

(الرابع) إذا انعقد إحرامه بالتلبية المذكورة فيستحب أن يقول: اللهم إنى أريد الحج فيسره لى وأعنى على أداء فرضه وتقبله منى. اللهم إنى نويت أداء فريضتك فى الحج فاجعلنى من الذين استجابوا لك وآمنوا بوعدك واتبعوا أمرك واجعلنى من وفدك الذين رضيت عنهم وارتضيت وقبلت منهم. اللهم فيسر لى أداء مانويت من الحج. اللهم قد أحرم لك لحمى وشعرى ودمى وعصبى ومخى وعظامى وحرمت على نفسى النساء والطيب ولبس المخيط ابتغاء وجهك والدار الآخرة ومن وقت الإحرام حرم عليه المحظورات الستة التى ذكرناها من قبل فليجتنبها.

(الخامس) يستحب تجديد التلبية فى دوام الإحرام خصوصا عند اصطدام الرفاق وعند اجتماع الناس وعند كل صعود وهبوط وعند كل ركوب ونزول رافعا بها صوته بحيث لا يبح حلقه ولا ينبهر، فإنه لا ينادى أصم ولا غائبا(١) كما ورد فى الخبر. ولا بأس برفع الصوت بالتلبية فى المساجد الثلاثة فإنها مظنة المناسك — أعنى المسجد الحرام ومسجد الخيف ومسجد الميقات — وأما سائر المساجد فلا بأس فيها بالتلبية من غير رفع صوت. وكان صلى الله عليه وسلم إذا أعجبه شىء قال «لبيك إن العيش عيش الآخرة(٢)».

الجملة الثالثة : فى آداب دخول مكة إلى الطواف وهى ستة

(الأول) أن يغتسل بذى طوى لدخول مكة. والاغتسالات المستحبة المسنونة فى الحج تسعة؛ الأول: للإحرام من الميقات ثم لدخول مكة ثم لطواف القدوم ثم للوقوف بعرفة ثم للوقوف بمزدلفة ثم ثلاثة أغسال لرمى الجمار الثلاث، ولا غسل لرمى جمرة العقبة، ثم لطواف الوداع. ولم ير الشافعى رضى الله عنه فى الجديد: الغسل لطواف الزيارة ولطواف الوداع فتعود إلى سبعة. الثانى: أن يقول عند الدخول فى أول الحرم وهو خارج مكة «اللهم هذا حرمك وأمنك فحرم لحمى ودمى وشعرى وبشرى على النار وآمنى من عذابك يوم تبعث عبادك واجعلنى من أوليائك وأهل طاعتك. الثالث: أن يدخل مكة من جانب الأبطح وهو من ثنية كداء — بفتح الكاف — عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم من جادة الطريق اليها(٣) فالتأسى به أولى، وإذا خرج خرج من ثنية كدى — بضم الكاف — وهى الثنية السفلى والأولى هى العليا. الرابع: إذا دخل مكة وانتهى إلى رأس الردم فعنده يقع بصره على البيت فليقل «لا إله إلا الله والله أكبر اللهم أنت السلام ومنك السلام ودارك دار السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام اللهم إن هذا بيتك عظمته وكرمته وشرفته اللهم فزده تعظيما وزده تشريفا وتكريما وزده مهابة وزد من حجه براً وكرامة اللهم افتح لى أبواب رحمتك وأدخلنى جنتك وأعذنى من الشيطان الرجيم». الخامس: إذا دخل المسجد الحرام فليدخل من باب بنى شيبة وليقل «بسم الله وبالله ومن الله وإلى الله وفى سبيل الله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا قرب من البيت قال الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى. اللهم

---

(١) «إنكم لاتنادون أصم ولا غائبا» متفق عليه من حديث أبى موسى

(٢) «كان إذا كان أعجبه شىء قال: لبيك إن العيش عيش الآخرة» أخرجه الشافعى فى المسند من حديث مجاهد مرسلا وللحاكم وصححه من حديث ابن عباس «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف بعرفات فلما قال لبيك اللهم لبيك» قال «إنما الخير خير الآخرة».

(٣) «دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثنية كداء — بفتح الكاف —» متفق عليه من حديث ابن عمر قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل مكة من الثنية العليا التى بالبطحاء..».

صلى على محمد عبدك ورسولك وعلى إبراهيم خليلك وعلى جميع أنبيائك ورسلك » وليرفع يديه وليقل « اللهم إنى أسألك فى مقامى هذا اول مناسكى أن تتقبل توبتى وأن تتجاوز عن خطيئتى وتضع عنى وزرى الحمد لله الذى بلغنى بيته الحرام الذى جعله مثابة للناس وأمنا وجعله مباركا وهدى للعالمين . اللهم إنى عبدك والبلد بلدك والحرم حرمك والبيت بيتك جئتك أطلب رحمتك وأسألك مسئلة المضطر الخائف من عقوبتك الراجى لرحمتك الطالب مرضاتك .
السادس : أن تقصد الحجر الأسود بعد ذلك وتمسه بيدك اليمنى وتقبله وتقول « اللهم أمانتى أديتها وميثاقى وفيته اشهد لى بالموافاة فإن لم يستطع التقبيل وقف فى مقابلته ويقول ذلك . ثم لايعرج على شىء دون الطواف وهو طواف القدوم إلا أن يجد الناس فى المكتوبة فيصلى معهم ثم يطوف .

الجملة الرابعة : فى الطواف

فإذا أراد افتتاح الطواف إما للقدوم وإما لغيره فينبغى أن يراعى أموراً ستة (الأول) أن يراعى شروط الصلاة من طهارة الحدث والخبث فى الثوب والبدن والمكان وستر العورة فالطواف بالبيت صلاة ولكن الله سبحانه أباح فيه الكلام . وليضطبع قبل ابتداء الطواف وهو أن يجعل وسط ردائه تحت إبطه اليمنى ويجمع طرفيه على منكبه الأيسر فيرخى طرفا وراء ظهره وطرفا على صدره . ويقطع التلبية عند ابتداء الطواف ويشتغل بالأدعية التى سنذكرها (الثانى) إذا فرغ من الاضطباع فليجعل البيت على يساره وليقف عند الحجر الأسود وليتنح عنه قليلا ليكون الحجر قدامه فيمر بجميع الحجر بجميع بدنه فى ابتداء طوافه . وليجعل بينه وبين البيت قدر ثلاث خطوات ليكون قريبا من البيت فإنه أفضل ولكيلا يكون طائفا على الشاذروان فإنه من البيت ، وعند الحجر الأسود قد يتصل الشاذروان بالأرض ويلتبس ، والطائف عليه لا يصح طوافه ؛ لأنه طائف فى البيت ، والشاذروان هو الذى فضل عن عرض جدار البيت بعد أن ضيق أعلى الجدار ثم من هذا الموقف يبتدىء الطواف (الثالث) أن يقول قبل مجاوزة الحجر بل فى ابتداء الطواف « بسم الله والله أكبر اللهم إيمانا بك وتصديقا بكتابك ووفاء بعهدك واتباعا لسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم » ويطوف . فأول ما يجاوز الحجر ينتهى إلى باب البيت فيقول « اللهم هذا البيت بيتك وهذا الحرم حرمك وهذا الأمن أمنك وهذا مقام العائذ بك من النار » وعند ذكر المقام يشير بعينه إلى مقام إبراهيم عليه السلام « اللهم إن بيتك عظيم ووجهك كريم وأنت أرحم الراحمين فأعذنى من النار ومن الشيطان الرجيم وحرم لحمى ودمى على النار وآمنى من أهوال يوم القيامة واكفنى مؤنة الدنيا والآخرة » ثم يسبح الله تعالى ويحمده حتى يبلغ الركن العراقى فعنده يقول « اللهم إنى أعوذ بك من الشرك والشك والكفر والنفاق والشقاق وسوء الأخلاق وسوء المنظر فى الأهل والمال والولد » فإذا بلغ الميزاب قال « اللهم أظلنا تحت عرشك يوم لاظل إلا ظلك اللهم اسقنى بكأس محمد صلى الله عليه وسلم شربة لا اظمأ بعدها أبداً » فإذا بلغ الركن الشامى قال « اللهم اجعله حجا مبروراً وسعيا مشكوراً وذنبا مغفوراً وتجارة لن تبور ياعزيز ياغفور رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم » فإذا بلغ الركن اليمانى قال « اللهم إنى أعوذ بك من الكفر وأعوذ بك من الفقر ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات وأعوذ بك من الخزى فى الدنيا والآخرة » ويقول بين الركن اليمانى والحجر الأسود « اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا برحمتك فتنة القبر وعذاب النار » فإذا بلغ الحجر الأسود قال « اللهم اغفر لى برحمتك أعوذ برب هذا الحجر من الدين والفقر وضيق الصدر وعذاب القبر » وعند ذلك قد تم شوط واحد فيطوف كذلك سبعة أشواط فيدعو بهذه الأدعية فى كل شوط (الرابع) أن يرمل فى ثلاثة أشواط ويمشى فى الأربعة الأخر على الهيئة المعتادة . ومعنى الرمل الإسراع فى المشى مع تقارب الخطا ، وهو دون العدو وفوق المشى المعتاد . والمقصود

منه ومن الاضطباع إظهار الشطارة والجلادة والقوة، هكذا كان القصد أولا قطعا لطمع الكفار وبقيت تلك السنة(١) والأفضل الرمل مع الدنو من البيت فإن لم يمكنه للزحمة فالرمل مع البعد أفضل فيخرج إلى حاشية المطاف وليرمل ثلاثا ثم ليقرب إلى البيت فى المزدحم وليمش أربعا . وإن أمكنه استلام الحجر فى كل شوط فهو الأحب ، وإن منعه الزحام أشار باليد وقبل يده ، وكذلك استلام الركن اليمانى يستحب من سائر الأركان . وروى « أنه صلى الله عليه وسلم كان يستلم اليمانى (٢) ويقبله(٣) ويضع خده عليه(٤) » ومن أراد تخصيص الحجر بالتقبيل واقتصر فى الركن اليمانى على الاستلام أغنى عن اللمس باليد فهو أولى (الخامس) إذا تم الطواف سبعا فليأت الملتزم وهو بين الحجر والباب وهو موضع استجابة الدعوة ، وليلتزق بالبيت وليتعلق بالأستار وليلصق بطنه بالبيت وليضع عليه خده الأيمن وليبسط عليه ذراعيه وكفيه ، وليقل « اللهم يارب البيت العتيق أعتق رقبتى من النار وأعذنى من الشيطان الرجيم وأعذنى من كل سوء وقنعنى بما رزقتنى وبارك لى فيما آتيتنى اللهم إن هذا البيت بيتك والعبد عبدك وهذا مقام العائذ بك من النار اللهم اجعلنى من أكرم وفدك عليك » ثم ليحمد الله كثيرا فى هذا الموضع وليصل على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الرسل كثيرا وليدع بحوائجه الخاصة وليستغفر من ذنوبه . كان بعض السلف فى هذا الموضع يقول لمواليه : تنحوا عنى حتى أقر لربى بذنوبى (السادس) إذا فرغ من ذلك ينبغى أن يصلى خلف المقام ركعتين يقرأ فى الأولى قل ياأيها الكافرون وفى الثانية الإخلاص وهما ركعتا الطواف . قال الزهرى : مضت السنة أن يصلى لكل سبع ركعتين (٥) وإن قرن بين أسابيع وصلى ركعتين جاز(٦) فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل أسبوع طواف . وليدع بعد ركعتى الطواف وليقل «اللهم يسر لى اليسرى وجنبنى العسرى واغفر لى فى الآخرة والأولى واعصمنى بألطافك حتى لا أعصيك وأعنى على طاعتك بتوفيقك وجنبنى معاصيك واجعلنى ممن يحبك ويحب ملائكتك ورسلك ويحب عبادك الصالحين. اللهم حببنى إلى ملائكتك ورسلك وإلى عبادك الصالحين

---

(١) « مشروعية الرمل والاضطباع قطعا لطمع الكفار وبقيت تلك السنة » أما الرمل فمتفق عليه من حديث ابن عباس قال « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال المشركون إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب فأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يرملوا الأشواط الثلاثة ... » وأما الاضطباع فروى أبو داود وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عمر قال « فيم الرملان الآن والكشف عن المناكب وقد أظهر الله الإسلام ونفى الكفر وأهله ومع ذلك لاتدع شيئا كنا نفعله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم » . (٢) « استلامه صلى الله عليه وسلم للركن اليمانى» متفق عليه من حديث ابن عمر قال « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يقدم مكة إذا استلم الركن الأسود ... » ولهما من حديثه « لم أر رسول الله صلى الله عليه وسلم يمس من الإركان إلا اليمانيين » ولمسلم من حديث ابن عباس » لم أره يستلم غير الركنين اليمانيين « وله من حديث جابر الطويل « حتى إذا أتيت البيت معه استلم الركن» .

(٣) « تقبيله عليه الصلاة والسلام له » متفق عليه من حديث عمر « أنه قبل الحجر وقال لولا أنى رأيت رسول الله عليه الصلاة والسلام قبلك ماقبلتك » وللبخارى من حديث ابن عمر « رأيت رسول الله عليه الصلاة والسلام يستلمه ويقبله » وله فى التاريخ من حديث ابن عباس «كان النبى عليه الصلاة والسلام إذا استلم الركن اليمانى قبله » .

(٤) « وضع الخد عليه» أخرجه الدارقطنى من حديث ابن عباس «أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قبل الركن اليمانى ... » قال الحاكم صحيح الإسناد قلت فيه عبد الله بن مسلم بن هرمز ضعفه الجمهور .

(٥) حديث الزهرى «مضت السنة أن يصلى لكل أسبوع ركعتين» ذكره البخارى تعليقا السنة أفضل لم يطف النبى عليه الصلاة والسلام أسبوعا إلا صلى ركعتين وفى الصحيحين من حديث ابن عمر «قدم رسول الله عليه الصلاة والسلام وطاف بالبيت سبعا وصلى خلف المقام ركعتين » .

(٦) « قرانه عليه الصلاة والسلام بين أسابيع » ابن أبى حاتم من حديث ابن عمر « أن النبى عليه الصلاة والسلام قرن ثلاثة أطواف ليس بينها صلاة » ورواه العقيلى فى الضعفاء وابن شاهين فى أماليه من حديث أبى هريرة وزاد «ثم صلى لكل أسبوع ركعتين » وفى إسنادهما عبد السلام بن أبى الجنوب منكر الحديث .

اللهم فكما هديتنى إلى الإسلام فثبتنى عليه بألطافك وولايتك واستعملنى لطاعتك وطاعة رسولك وأجرنى من مضلات الفتن، ثم ليعد إلى الحجر وليستلمه وليختم به الطواف قال ﷺ «من طاف بالبيت أسبوعا وصلى ركعتين فله من الأجر كعتق رقبة(١)» وهذه كيفية الطواف. والواجب من جملته بعد شروط الصلاة أن يستكمل عدد الطواف سبعا بجميع البيت، وأن يبتدىء بالحجر الأسود ويجعل البيت على يساره وأن يطوف داخل المسجد وخارج البيت لا على الشاذروان ولا فى الحجر، وأن يوالى بين الأشواط ولا يفرقها تفريقا خارجا عن المعتاد وما عدا هذا فهو سنن وهيئات.

الجملة الخامسة: فى السعى

فإذا فرغ من الطواف فليخرج من باب الصفا وهو فى محاذاة الضلع الذى بين الركن اليمانى والحجر. فإذا خرج من ذلك الباب وانتهى إلى الصفا وهو جبل فيرقى فيه درجات فى حضيض الجبل بقدر قامة الرجل. رقى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت له الكعبة (٢). وابتداء السعى من أصل الجبل كاف وهذه الزيادة مستحبة، ولكن بعض تلك الدرج مستحدثة فينبغى أن لا يخلفها وراء ظهره فلا يكون متمما للسعى. وإذا ابتدأ من ههنا سعى بينه وبين المروة سبع مرات. وعند رقيه فى الصفا ينبغى أن يستقبل البيت ويقول «الله أكبر الله أكبر الحمد لله على ما هدانا الحمد لله بمحامده كلها على جميع نعمه كلها لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت بيده الخير وهو على كل شىء قدير لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون لا إله إلا الله مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ اللهم إنى أسألك إيمانا دائما ويقينا صادقا وعلما نافعا وقلبا خاشعا ولسانا ذاكرا وأسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة فى الدنيا والآخرة ويصلى على محمد ﷺ» ويدعو الله عز وجل بما شاء من حاجته عقيب هذا الدعاء. ثم ينزل ويبتدىء السعى وهو يقول «رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» ويمشى على هينة حتى ينتهى إلى الميل الأخضر وهو أول ما يلقاه إذا نزل من الصفا — وهو على زاوية المسجد الحرام — فإذا بقى بينه وبين محاذاة الميل ستة أذرع أخذ فى السير السريع وهو الرمل حتى ينتهى إلى الميلين الأخضرين. ثم يعود إلى الهينة فإذا انتهى إلى المروة صعدها كما صعد الصفا وأقبل بوجهه على الصفا ودعا بمثل ذلك الدعاء. وقد حصل السعى مرة واحدة، فإذا عاد إلى الصفا حصلت مرتان يفعل ذلك سبعا ويرمل فى موضع الرمل فى كل مرة ويسكن فى موضع السكون — كما سبق — وفى كل نوبة يصعد الصفا والمروة فإذا فعل ذلك فقد فرغ من طواف القدوم والسعى وهما سنتان. والطهارة مستحبة للسعى وليست بواجبة بخلاف الطواف وإذا سعى فينبغى أن لا يعيد السعى بعد الوقوف ويكتفى بهذا ركنا، فإنه ليس من شروط السعى أن يتأخر عن الوقوف وإنما ذلك شرط فى طواف الركن. نعم شرط كل سعى أن يقع بعد طواف أى طواف كان.

---

(١) «من طاف بالبيت أسبوعا وصلى ركعتين فله من الأجر كعتق رقبة» أخرجه الترمذى وحسنه والنسائى وابن ماجه من حديث ابن عمر «من طاف بالبيت وصلى ركعتين كان كعتق رقبة» لفظ ابن ماجه وقال الآخر «من طاف بهذا البيت أسبوعا فأحصاه كان كعتق رقبة» وللبيهقى فى الشعب «من طاف أسبوعا وركع ركعتين كانت كعتاق رقبة».

(٢) «أنه رقى على الصفا حتى بدت له الكعبة» أخرجه مسلم من حديث جابر «فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت» وله من حديث أبى هريرة «أتى الصفا فعلا عليه حتى نزل إلى البيت».

الجملة السادسة . فى الوقوف وما قبله

الحاج اذا انتهى يوم عرفة الى عرفات يتفرغ لطواف القدوم ودخول مكة قبل الوقوف . واذا وصل قبل ذلك بأيام فطاف طواف القدوم فيمكث محرما إلى اليوم السابع من ذى الحجة . فيخطب الإمام بمكة خطبة بعد الظهر عند الكعبة ويأمر الناس بالاستعداد للخروج الى منى يوم التروية والمبيت بها ، وبالغدو منها الى عرفة لإقامة فرض الوقوف بعد الزوال ؛ اذ وقت الوقوف من الزوال إلى طلوع الفجر الصادق من يوم النحر ، فينبغى أن يخرج الى منى ملبيا . ويستحب له المشى من مكة فى المناسك الى انقضاء حجته ان قدر عليه . والمشى من مسجد ابراهيم عليه السلام الى الموقف أفضل وآكد . فاذا انتهى الى منى قال « اللهم هذه منى فامنن على بما مننت به على أوليائك وأهل طاعتك وليمكث هذه الليلة بمنى — وهو مبيت منزل لايتعلق به نسك — فاذا أصبح يوم عرفة صلى الصبح فاذا طلعت الشمس على ثبير سار الى عرفات ويقول « اللهم اجعلها خير غدوة غدوتها قط وأقربها من رضوانك وأبعدها من سخطك اللهم إليك غدوت وإياك رجوت وعليك اعتمدت ووجهك أردت فاجعلنى ممن تباهى به اليوم من هو خير منى وأفضل . فاذا أتى عرفات فليضرب خباءه بنمرة قريباً من المسجد فثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبته (١) ونمرة هى بطن عرفة دون الموقف ودون عرفة . وليغتسل للوقوف فاذا زالت الشمس خطب الإمام خطبة وجيزة وقعد ، وأخذ المؤذن فى الأذان والإمام فى الخطبة الثانية ووصل الإقامة بالأذان ، وفرغ الإمام مع تمام اقامة المؤذن . ثم جمع بين الظهر والعصر بأذان واقامتين ، وقصر الصلاة ، وراح الى الموقف فليقف بعرفة ولا يقفن فى وادى عرنة . وأما مسجد ابراهيم عليه السلام فصدره فى الوادى وأخرياته من عرفة فمن وقف فى صدر المسجد لم يحصل له الوقوف بعرفة . ويتميز مكان عرفة من المسجد بصخرات كبار فرشت ثم . والأفضل ان يقف عند الصخرات بقرب الإمام مستقبلا للقبلة راكبا . وليكثر من أنواع التحميد والتسبيح والتهليل والثناء على الله عز وجل والدعاء والتوبة . ولا يصوم فى هذا اليوم ليقوى على المواظبة على الدعاء . ولا يقطع التلبية يوم عرفة بل الأحب ان يلبى تارة ويكب على الدعاء اخرى . وينبغى ان لاينفصل من طرف عرفة الا بعد الغروب ليجمع فى عرفة بين الليل والنهار . وان امكنه الوقوف يوم الثامن ساعة عند امكان الغلط فى الهلال فهو الحزم وبه الأمن من الفوات . ومن فاته الوقوف حتى طلع الفجر يوم النحر فقد فاته الحج ، فعليه ان يتحلل عن احرامه بأعمال العمرة ثم يريق دما لأجل الفوات ، ثم يقضى العام الآتى ، وليكن اهم اشتغاله فى هذا اليوم الدعاء . ففى مثل تلك البقعة ومثل ذلك الجمع ترجى اجابة الدعوات . والدعاء المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) وعن السلف

---

(١) « ضربه صلى الله عليه وسلم قبته بنمرة » أخرجه مسلم من جابر الطويل « فأمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة ... » (٢) « الدعاء المأثور فى يوم عرفه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ... » أخرجه الترمذى من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال خير الدعاء دعاء يوم عرفة وخير ماقلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك والحمد وهو على كل شئ قدير » وقال حسن غريب وله من حديث على قال « أكثر مادعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية عرفة فى الموقف اللهم لك الحمد كالذى تقول وخيرا مما تقول لك صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى وإليك مآبى ولك رب تراثى اللهم إنى أعوذ بك من شر ماتجىء به الريح » وقال ليس بالقوى إسناده وروى المستغفرى فى الدعوات من حديثه «ياعلى إن أكثر دعاء من قبلى يوم عرفة أن أقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير اللهم اجعل فى بصرى نوراً وفى سمعى نورا وفى قلبى نوراً اللهم اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى اللهم إنى أعوذ بك من وسواس الصدر وشتات الأمر وفتنة القبر وشر مايلج فى الليل وشر مايلج فى النهار وشر ماتهب به الرياح ومن شر بوائق الدهر» وإسناده ضعيف وروى الطبرانى =

فى يوم عرفة أول مايدعو به فليقل « لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير . اللهم اجعل فى قلبى نورا وفى سمعى نورا وفى بصرى نورا وفى لسانى نورا . اللهم اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى» وليقل: اللهم رب الحمد كما تقول وخيراً مما تقول وخيراً مما تقول لك صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى وإليك مآبى وإليك ثوابى . اللهم إنى أعوذ بك من وساوس الصدر وشتات الأمر وعذاب القبر . اللهم إنى أعوذ بك من شر مايلج فى الليل ومن شر ما يلج فى النهار ومن شر ماتهب به الرياح . ومن شر بوائق الدهر . اللهم إنى أعوذ بك من تحول عافيتك وفجأة نقمتك وجميع سخطك . اللهم اهدنى بالهدى واغفر لى فى الآخرة والأولى ياخير مقصود وأسنى منزول به وأكرم مسئول ما لديه أعطنى العشية أفضل ما أعطيت أحداً من خلقك وحجاج بيتك ياأرحم الراحمين . اللهم يارفيع الدرجات ومنزل البركات ويافاطر الأرضين والسموات ضجت إليك الأصوات بصنوف اللغات يسألونك الحاجات وحاجتى إليك أن لا تنسانى فى دار البلاء إذا نسينى أهل الدنيا . اللهم إنك تسمع كلامى وترى مكانى وتعلم سرى وعلانيتى ولا يخفى عليك شىء من أمرى أنا البائس الفقير المستغيث المستجير الوجل المشفق المعترف بذنبه أسألك مسئلة المسكين وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضرير دعاء من خضعت لك رقبته وفاضت لك عبرته وذل لك جسده ورغم لك أنفه . اللهم لا تجعلنى بدعائك رب شقيا وكن بى رءوفا رحيما ياخير المسئولين وأكرم المعطين إلهى من مدح لك نفسه فإنى لائم نفسى . الهى أخرست المعاصى لسانى فمالى وسيلة من عمل ولا شفيع سوى الأمل . إلهى إنى أعلم أن ذنوبى لم تبق لى عندك جاها ولا للاعتذار وجهاً ولكنك أكرم الأكرمين . الهى ان لم أكن أهلاً أن أبلغ رحمتك فان رحمتك أهل أن تبلغنى ورحمتك وسعت كل شىء وأنا شىء إلهى إن ذنوبى وان كانت عظاما ولكنها صغار فى جنب عفوك فاغفرها لى يا كريم إلهى أنت أنت وأنا أنا ، أنا العواد الى الذنوب وأنت العواد الى المغفرة . الهى ان كنت لاترحم الا أهل طاعتك فالى من يفزع المذنبون . الهى تجنبت عن طاعتك عمداً وتوجهت إلى معصيتك قصداً فسبحانك ما أعظم حجتك على وأكرم عفوك عنى فبوجوب حجتك على وانقطاع حجتى عنك وفقرى إليك وغناك عنى إلا غفرت لى يا خير من دعاه داع وأفضل من رجاه راج بحرمة الإسلام وبذمة محمد عليه السلام أتوسل اليك فاغفر لى جميع ذنوبى واصرفنى من موقفى هذا مقضى الحوائج وهب لى ما سألت وحقق رجائى فيما تمنيت . إلهى دعوتك بالدعاء الذى علمتنيه فلا تحرمنى الرجاء الذى عرفتنيه الهى ما أنت صانع العشية بعبد مقر لك بذنبه خاشع لك بذلته مستكين بجرمه متضرع اليك من عمله تائب اليك من اقترافه مستغفر لك من ظلمه مبتهل اليك فى العفو عنه طالب اليك نجاح حوائجه راج اليك فى موقفه مع كثرة ذنوبه فياملجأ كل حى وولى كل مؤمن من أحسن فبرحمتك يفوز ومن أخطأ فبخطيئته يهلك . اللهم اليك خرجنا وبفنائك أنخنا وإياك أملنا وما عندك طلبنا ولإحسانك تعرضنا ورحمتك رجونا ومن عذابك أشفقنا واليك بأثقال الذنوب هربنا ولبيتك الحرام حججنا يامن يملك حوائج السائلين ويعلم ضمائر الصامتين يا من ليس معه رب يدعى ويامن ليس فوقه خالق يخشى ويامن ليس له وزير يؤتى ولا حاجب يرشى يامن لايزداد على كثرة السؤال الاجوداً وكرماوعلى كثرة الحوائج الاتفضلا واحسانا . اللهم انك جعلت لكل ضيف قرى ونحن أضيافك فاجعل قرانا منك الجنة . اللهم إن لكل وفد جائزة ولكل زائر كرامة ولكل سائل عطية ولكل راج ثوابا ولكل ملتمس لما عندك جزاء ولكل

= فى المعجم الصغير من حديث ابن عباس قال «كان مما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية عرفة : اللهم إنك ترى مكانى وتسمع كلامى وتعلم سرى وعلانيتى ولا يخفى عليك شىء من أمرى أنا البائس الفقير» الحديث إلى قوله ياخير المسؤلين وياخير المعطين؛ وإسناده ضعيف وباقى الدعاء من دعاء بعض السلف وفى بعضه ماهو مرفوع ولكن ليس مقيدا بموقف عرفة .

مسترحم عندك رحمة ولكل راغب إليك زلفى ولكل متوسل إليك عفواً وقد وفدنا إلى بيتك الحرام ووقفنا بهذه المشاعر العظام وشهدنا هذه المشاهد الكرام رجاء لما عندك فلا تخيب رجاءنا . إلهنا تابعت النعم حتى اطمأنت الأنفس بتتابع نعمك وأظهرت العبر حتى نطقت الصوامت بحجتك وظاهرت المنن حتى اعترف أولياؤك بالتقصير عن حقك وأظهرت الآيات حتى أفصحت السموات والأرضون بأدليك وقهرت بقدرتك حتى خضع كل شيء لعزتك وعنت الوجوه لعظمتك إذا أساءت عبادك حلمت وأمهلت وإن أحسنوا تفضلت وقبلت وإن عصوا سترت وإن أذنبوا عفوت وغفرت وإذا دعونا أجبت وإذا نادينا سمعت وإذا أقبلنا إليك قربت وإذا ولينا عنك دعوت . إلهنا إنك قلت فى كتابك المبين لمحمد خاتم النبيين ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف ﴾ فأرضاك عنهم الإقرار بكلمة التوحيد بعد الجحود وإنا نشهد لك بالتوحيد مخبتين ولمحمد بالرسالة مخلصين فاغفر لنا بهذه الشهادة سوالف الإجرام ولا تجعل حظنا فيه أنقص من حظ من دخل فى الإسلام إلهنا إنك أحببت التقرب إليك بعتق ماملكت أيماننا ونحن عبيدك وأنت أولى بالتفضل فاعتقنا . وإنك امرتنا ان نتصدق على فقرائنا ونحن فقراؤك وأنت أحق بالتطول فتصدق علينا . ووصيتنا بالعفو عمن ظلمنا وقد ظلمنا أنفسنا وأنت أحق بالكرم فاعف عنا . ربنا اغفر لنا وارحمنا أنت مولانا ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا برحمتك عذاب النار »
وليكثر من دعاء الخضر عليه السلام وهو ان يقول « يامن لا يشغله شأن عن شأن ولا سمع عن سمع ولا تشتبه عليه الأصوات ، يامن لا تغلطه المسائل ولا تختلف عليه اللغات ، يامن لا يبرمه إلحاح الملحين ولا تضجره مسئلة السائلين أذقنا برد عفوك وحلاوة مناجاتك » وليدع بما بداله وليستغفر له ولوالديه ولجميع المؤمنين والمؤمنات وليلح فى الدعاء وليعظم المسألة فإن الله لا يتعاظمه شيء . وقال مطرف بن عبد الله وهو بعرفة : اللهم لا ترد الجميع من أجلى . وقال بكر المزنى : قال رجل لما نظرت إلى أهل عرفات ظننت أنهم قد غفر لهم لولا أنى كنت فيهم .

الجملة السابعة : فى بقية أعمال الحج بعد الوقوف من المبيت والرمى والنحر والحلق والطواف

فإذا أفاض من عرفة بعد غروب الشمس فينبغى أن يكون على السكينة والوقار وليجتنب وجف الخيل وإيضاع الإبل كما يعتاده بعض الناس ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم « نهى عن وجيف الخيل وإيضاع الإبل وقال : اتقوا الله وسيروا سيراً جميلا لا تطأوا ضعيفاً ولا تؤذوا مسلما [(١)] » فإذا بلغ المزدلفة اغتسل لها لأن المزدلفة من الحرم فليدخله بغسل ، وإن قدر على دخوله ماشيا فهو أفضل وأقرب الى توقير الحرم . ويكون فى الطريق رافعاً صوته بالتلبية فإذا بلغ المزدلفة قال « اللهم ان هذه مزدلفة جمعت فيها ألسنة مختلفة تسألك حوائج مؤتلفة فاجعلنى ممن دعاك فاستجبت له وتوكل عليك فكفيته » ثم يجمع بين المغرب والعشاء بمزدلفة فى وقت العشاء قاصراً له بأذان وإقامتين ليس بينهما نافلة ، ولكن يجمع نافلة المغرب والعشاء والوتر بعد الفريضتين ، ويبدأ بنافلة المغرب ثم بنافلة العشاء كما فى الفريضتين . فإن ترك النوافل فى السفر خسران ظاهر . وتكليف إيقاعها فى الأوقات اصرار وقطع للتبعية بينهما وبين الفرائض . فإذا جاز أن يؤدى النوافل مع الفرائض بتيمم واحد بحكم التبعية فبأن يجوز أداؤهما على حكم الجمع بالتبعية أولى . ولا يمنع من هذا مفارقة النفل للفرض فى جواز أدائه على الراحلة لما أومأنا اليه من التبعية والحاجة . ثم يمكث تلك الليلة

---

(١) « نهى النبي عن وجيف الخيل وإيضاع الإبل » أخرجه النسائى والحاكم وصححه من حديث أسامة بن زيد عليكم بالسكينة والوقار فإن البر ليس فى إيضاع الإبل » وقال الحاكم « ليس البر بإيجاف الخيل والإبل » وللبخارى من حديث ابن عباس « فإن البر ليس بالإيضاع » .

بمزدلفة وهو مبيت نسك ، ومن خرج منها فى النصف الأول من الليل ولم يبت فعليه دم ، واحياء هذه الليلة الشريفة من محاسن القربات لمن يقدر عليه ثم اذا انتصف الليل يأخذ فى التأهب للرحيل ويتزود الحصى منها ـ ففيها أحجار رخوة ـ فليأخذ سبعين حصاة فإنها قدر الحاجة ، ولا بأس بأن يستظهر بزيادة فربما يسقط منه بعضها ، ولتكن الحصى خفافا بحيث يحتوى عليه أطراف البراجم . ثم ليغلس بصلاة الصبح وليأخذ فى المسير حتى اذا انتهى الى المشعر الحرام وهو آخر المزدلفة فيقف ويدعو الى الأسفار ويقول « اللهم بحق المشعر الحرام والبيت الحرام والشهر الحرام والركن والمقام أبلغ روح محمد منا التحية والسلام وأدخلنا دار السلام ياذا الجلال والإكرام » ثم يدفع منها قبل طلوع الشمس حتى ينهى الى موضع يقال له وادى محسر فيستحب له أن يحرك دابته حتى يقطع عرض الوادى وان كان راجلا أسرع فى المشى . ثم اذا أصبح يوم النحر خلط التلبية بالتكبير فيلبى تارة ويكبر أخرى ، فينتهى الى منى ومواضع الجمرات وهى ثلاثة فيتجاوز الأولى والثانية فلا شغل له معهما يوم النحر ، حتى ينتهى الى جملة العقبة وهى على يمين مستقبل القبلة فى الجادة ـ والمرمى مرتفع قليلا فى سفح الجبل وهو ظاهر بمواقع الجمرات ـ ويرمى جمرة العقبة بعد طلوع الشمس بقدر رمح . وكيفيته أن يقف مستقبلا القبلة وان استقبل الجمرة فلا بأس ويرمى سبع حصيات رافعا يده ، ويبدل التلبية بالتكبير ويقول مع كل حصاة « الله أكبر على طاعة الرحمن ورغم الشيطان اللهم تصديقا بكتابك واتباعا لسنة نبيك » فإذا رمى قطع التلبية والتكبير الا التكبير عقيب فرائض الصلوات من ظهر يوم النحر الى عقيب الصبح من آخر أيام التشريق . ولا يقف فى هذا اليوم للدعاء بل يدعو فى منزله . وصفة التكبير أن يقول « الله أكبر الله أكبر الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا لا اله الا الله وحده لاشريك له مخلصين له الدين ولو كره الكافرون لا اله الا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده لا اله الا الله والله أكبر » ثم ليذبح الهدى ان كان معه والأولى أن يذبح بنفسه وليقل « بسم الله والله أكبر اللهم منك وبك واليك تقبل منى كما تقبلت من خليلك ابراهيم » والتضحية بالبدن أفضل ثم بالبقر ثم بالشاة . والشاة أفضل من مشاركة ستة فى البدنه أو البقرة . والضأن أفضل من المعز قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خير الأضحية الكبش الأقرن والبيضاء أفضل من الغبراء والسوداء[1] » وقال أبو هريرة : البيضاء أفضل فى الأضحى من دم سوداوين وليأكل منه ان كانت من هدى التطوع ولا يضحين بالعرجاء والجدعاء والعضباء والجرباء والشرقاء والخرقاء والمقابلة والمدابرة والعجفاء والجدع فى الأنف والأذن للقطع منهما ، والعضب فى القرن وفى نقصان القوائم ، والشرقاء المشقوقة الأذن من فوق ، والخرقاء من أسفل ، والمقابلة المخروقة الأذن من قدام ، والمدابرة من خلف ، والعجفاء المهزولة التى لاتنقى أى لامخ فيها من الهزال . ثم ليحلق بعد ذلك والسنة أن يستقبل القبلة ويبتدئ بمقدم رأسه فيحلق الشق الأيمن الى العظمين المشرفين على القفا ثم ليحلق الباقى ويقول « اللهم أثبت لى بكل شعرة حسنة وامح عنى بها سيئة وارفع لى بها عندك درجة » والمرأة تقصر الشعر . والأصلع يستحب له امرار الموسى على رأسه. ومهما حلق بعد رمى الجمرة فقد حصل له التحلل الأول وحل له كل المحذورات الا النساء والصيد . ثم يفيض الى مكة ويطوف كما وصفناه . وهذا الطواف طواف ركن فى الحج ويسمى طواف الزيارة وأول وقته بعد نصف الليل من ليلة النحر ، وافضل وقته يوم النحر ولا آخر لوقته بل له ان يؤخر إلى وقت شاء ، ولكن يبقى مقيدا بعلقة الإحرام فلا تحل له النساء الى ان يطوف فاذا طاف تم التحلل وحل الجماع وارتفع الإحرام بالكلية ولم يبق

---

(١) « خير الأضحية الكبش » أخرجه أبو داود من حديث عبادة الصامت والترمذى من حديث أبى أمامة . قال الترمذى غريب وعفير بضعف فى الحديث .

إلا رمى أيام التشريق والمبيت بمنى وهى واجبات بعد زوال الإحرام على سبيل الاتباع للحق وكيفية هذا الطواف مع الركعتين كما سبق فى طواف القدوم ، فإذا فرغ من الركعتين فليسع كما وصفنا إن لم يكن سعى بعد طواف القدوم وإن كان قد سعى فقد وقع ذلك ركنا فلا ينبغى أن يعيد السعى ، وأسباب التحلل ثلاثة : الرمى والحلق والطواف الذى هو ركن ، ومهما أتى باثنين من هذه الثلاثة فقد تحلل أحد التحللين ، ولا حرج عليه فى التقديم والتأخير بهذه الثلاث مع الذبح ، ولكن الأحسن أن يرمى ثم يذبح ثم يحلق ثم يطوف ، والسنة للإمام فى هذا اليوم أن يخطب بعد الزوال وهى خطبة وداع رسول الله صلى الله عليه وسلم ففى الحج أربع خطب : خطبة يوم السابع وخطبة يوم عرفة وخطبة يوم النحر (١) وخطبة يوم النفر الأول ؛ وكلها عقيب الزوال وكلها إفراد إلا خطبة يوم عرفة فإنهما خطبتان بينهما جلسة . ثم إذا فرغ من الطواف عاد إلى منى للمبيت والرمى فيبيت تلك الليلة بمنى وتسمى ليلة القر لأن الناس فى غد يقرون بمنى ولا ينفرون . فإذا أصبح اليوم الثانى من العيد وزالت الشمس اغتسل للرمى وقصد الجمرة الأولى التى تلى عرفة وهى على يمين الجادة ويرمى إليها بسبع حصيات، فإذا تعداها انحرف قليلا عن يمين الجادة ووقف مستقبل القبلة وحمد الله تعالى وهلل وكبر ودعا مع حضور القلب وخشوع الجوارح ووقف مستقبل القبلة قدر قراءة سورة البقرة مقبلا على الدعاء ، ثم يتقدم إلى الجمرة الوسطى ويرمى كما رمى الأولى ويقف كما وقف الأولى ثم يتقدم إلى جمرة العقبة ويرمى سبعا ، ولا يعرج على شغل بل يرجع إلى منزله ويبيت تلك الليلة بمنى وتسمى هذه الليلة ليلة النفر الأول، ويصبح فإذا صلى الظهر فى اليوم الثانى من أيام التشريق رمى فى هذا اليوم إحدى وعشرين حصاة كاليوم الذى قبله ، ثم هو مخير بين المقام بمنى وبين العود إلى مكة . فإن خرج من منى قبل غروب الشمس فلا شىء عليه وإن صبر إلى الليل فلا يجوز له الخروج بل لزمه المبيت حتى يرمى فى يوم النفر الثانى أحدا وعشرين حجرا كما سبق ، وفى ترك المبيت والرمى إراقة دم وليتصدق باللحم ، وله أن يزور البيت فى ليالى منى بشرط أن لا يبيت إلا بمنى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك (٢) ولا يتركن حضور الفرائض مع الإمام فى مسجد الخيف فإن فضله عظيم فإذا أفاض من منى فالأولى أن يقيم بالمحصب من منى ويصلى العصر والمغرب والعشاء ويرقد رقدة(٣) فهو السنة . رواه جماعة من الصحابة رضى الله عنهم ، فان لم يفعل ذلك فلا شىء عليه.

الجملة الثامنة :فى صفة العمرة وما بعدها إلى طواف الوداع

من أراد أن يعتمر قبل حجة أو بعده كيفما أراد فليغتسل ويلبس ثياب الإحرام كما سبق فى الحج ويحرم بالعمرة من ميقاتها ، وأفضل مواقيتها الجعرانة ثم التنعيم ثم الحديبية ، وينوى العمرة ويلبى ويقصد مسجد عائشة رضى الله

---

(١) « الخطبة يوم النحر وهى خطبة وداع النبى ﷺ » أخرجه البخارى من حديث أبى بكرة « خطبنا ﷺ يوم النحر» وله من حديث ابن عباس «خطب الناس يوم النحر» وفى حديث علقه البخارى ووصله ابن ماجه من حديث ابن عمر «وقف النبى ﷺ يوم النحر بين الجمرات فى الحجة التى حج فيها فقال : أى يوم هذا ؟ ...» وفيه « ثم ودع الناس فقالوا هذه حجة الوداع » .

(٢) « زيارة البيت فى ليالى منى والمبيت بمنى » أخرجه أبو داود فى المراسيل من حديث طاوس « قال أشهد أن رسول الله ﷺ كان يفيض كل ليلة من ليالى منى » قال أبو داود وقد أسند قلت وصله ابن عـــدى عن طاوس عن ابن عباس «كان النبى ﷺ يزور البيت أيام منى» وفيه عمر بن رباح ضعيف والمرسل صحيح الإسناد ولأبى داود من حديث عائشة « أن النبى ﷺ مكث بمنى ليالى أيام التشريق »

(٣) « نزول المحصب وصلاة العصر والمغرب والعشاء به والرقود به رقدة» أخرجه البخارى من حديث أنس «أن النبى ﷺ صلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء بالبطحاء ثم هجع هجعة ... »

عنها ويصلي ركعتين ويدعو بما شاء . ثم يعود إلى مكة وهو يلبي حتى يدخل المسجد الحرام ، فاذا دخل المسجد ترك التلبية وطاف سبعا وسعى سبعا كما وصفنا ، فاذا فرغ حلق رأسه وقد تمت عمرته ، والمقيم بمكة ينبغي أن يكثر الاعتمار والطواف وليكثر النظر إلى البيت . فاذا دخله فليصل ركعتين بين العمودين فهو الأفضل وليدخله حافياً موقراً . قيل لبعضهم : هل دخلت بيت ربك اليوم ؟ فقال : والله ما أرى هاتين القدمين أهلا للطواف حول بيت ربي فكيف أراهما أهلا لأن أطأ بهما بيت ربي ! وقد علمت حيث مشيتا وإلى أين مشيتا ، وليكثر شرب ماء زمزم وليستق بيده من غير استنابة إن أمكنه وليرتو منه حتى يتضلع وليقل : اللهم اجعله شفاء من كل داء وسقم وارزقني الإخلاص واليقين والمعافاة في الدنيا والآخرة قال صلى الله عليه وسلم « ماء زمزم لما شرب له [(١)] » أي يشفي ما قصد به .

الجملة التاسعة : في طواف الوداع

مهما عن له الرجوع إلى الوطن بعد الفراغ من إتمام الحج والعمرة فلينجز أولا أشغاله وليشد رحاله وليجعل آخر أشغاله وداع البيت ، ووداعه بأن يطوف به سبعاً كما سبق ولكن من غير رمل واضطباع ، فاذا فرغ منه صلى ركعتين خلف المقام وشرب من ماء زمزم ، ثم يأتي الملتزم ويدعو ويتضرع ويقول « اللهم إن البيت بيتك والعبد عبدك وابن عبدك وابن أمتك حملتني على ما سخرت لي من خلقك حتى سيرتني في بلادك وبلغتني بنعمتك حتى اعنتني على قضاء مناسكك ، فان كنت رضيت عني فازدد عني رضا وإلا فمن الآن قبل تباعدي عن بيتك هذا أوان انصرافي إن أذنت لي غير مستبدل بك ولا ببيتك ولا راغب عنك ولا عن بيتك . اللهم أصحبني العافية في بدني والعصمة في ديني وأحسن منقلبي وارزقني طاعتك أبداً ما أبقيتني واجمع لي خير الدنيا والآخرة إنك على كل شيء قدير ، اللهم لاتجعل هذا آخر عهدي ببيتك الحرام وإن جعلته آخر عهدي فعوضني عنه الجنة » والأحب أن لا يصرف بصره عن البيت حتى يغيب عنه .

الجملة العاشرة : في زيارة المدينة وآدابها

قال صلى الله عليه وسلم « من زارني بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي [(٢)] » وقال صلى الله عليه وسلم « من وجد سعة ولم يفد إلى فقد جفاني [(٣)] » وقال صلى الله عليه وسلم « من جاءني زائراً لايهمه إلا زيارتي كان حقا على الله سبحانه أن أكون له شفيعا [(٤)] » فمن قصد زيارة المدينة فليصل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في طريقه كثيرا فاذا وقع بصره على حيطان المدينة وأشجارها قال « اللهم هذا حرم رسولك فاجعله لي وقاية من النار وأماناً من العذاب وسوء الحساب » وليغتسل قبل الدخول من بئر الحرة وليتطيب وليلبس أنظف ثيابه فاذا دخلها فليدخلها

---

(١) « ماء زمزم لما شرب له » أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بسند ضعيف ورواه الدارقطني والحاكم في المستدرك من حديث ابن عباس قال الحاكم صحيح الإسناد إن سلم من محمد بن حبيب الجارودي قال ابن القطان سلم منه فإن الخطيب قال فيه كان صدوقا ، قال ابن القطان لكن الراوي عنه مجهول وهو محمد بن هشام المروزي . (٢) « من زارني بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي » أخرجه الطبراني والدارقطني من حديث ابن عمر . (٣) « من وجد سعة ولم يفد إلى فقد جفاني » أخرجه ابن عدي والدارقطني في غرائب مالك وابن حبان في الضعفاء والخطيب في الرواة عن مالك من حديث ابن عمر « من حج ولم يزرني فقد جفاني » وذكره ابن الجوزي في الموضوعات وروى ابن النجار في تاريخ المدينة من حديث أنس « مامن أحد من أمتي له سعة ثم لم يزرني فليس له عذر » (٤) « من جاءني زائراً لاتهمه إلا زيارتي كان حقا على الله أن أكون له شفيعا » أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر وصححه ابن السكن

متواضعاً معظما وليقل : بسم الله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيراً ﴾ ثم يقصد المسجد ويدخله ويصلي بجنب المنبر ركعتين . ويجعل عمود المنبر حذاء منكبه الأيمن ويستقبل السارية التي إلى جانبها الصندوق وتكون الدائرة التي في قبلة المسجد بين عينيه فذلك موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يغير المسجد . وليجتهد أن يصلي في المسجد الأول قبل أن يزاد فيه . ثم يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيقف عند وجهه وذلك بأن يستدبر القبلة ويستقبل جدار القبر على نحو من أربعة أذرع من السارية التي في زاوية جدار القبر ، ويجعل القنديل على رأسه وليس من السنة أن يمس الجدار ولا أن يقبله بل الوقوف من بعد أقرب للاحترام ، فيقف ويقول «السلام عليك يارسول الله السلام عليك يانبي الله السلام عليك ياأمين الله السلام عليك ياحبيب الله السلام عليك ياصفوة الله السلام عليك ياخيرة الله السلام عليك ياأحمد السلام عليك يامحمد السلام عليك ياأبا القاسم السلام عليك ياماحي السلام عليك ياعاقب السلام عليك ياحاشر السلام عليك يابشير السلام عليك يانذير السلام عليك ياطهر السلام عليك ياطاهر السلام عليك ياأكرم ولد آدم السلام عليك ياسيد المرسلين السلام عليك ياخاتم النبيين السلام عليك يارسول رب العالمين السلام عليك ياقائد الخير السلام عليك يافاتح البر السلام عليك يانبي الرحمة السلام عليك ياهادي الأمة السلام عليك ياقائد الغر المحجلين السلام عليك وعلى أهل بيتك الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا السلام عليك وعلى أصحابك الطيبين وعلى أزواجك الطاهرات أمهات المؤمنين جزاك الله عنا أفضل ماجزى نبيا عن قومه ورسولا عن أمته وصلى عليك كلما ذكرك الذاكرون وكلما غفل عنك الغافلون وصلى عليك في الأولين والآخرين أفضل وأكمل وأعلى وأجل وأطيب وأطهر ماصلى على أحد من خلقه كما استنقذنا بك من الضلالة وبصرنا بك من العماية وهدانا بك من الجهالة أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أنك عبده ورسوله وأمينه وصفيه وخيرته من خلقه وأشهد أنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وجاهدت عدوك وهديت أمتك وعبدت ربك حتى أتاك اليقين فصلى الله عليك وعلى أهل بيتك الطيبين وسلم وشرف وكرم وعظم » وإن كان قد أوصى بتبليغ سلام فيقول « السلام عليك من — فلان — السلام عليك من — فلان — ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على أبي بكر الصديق رضي الله عنه لأن رأسه عند منكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأس عمر رضي الله عنه عند منكب أبي بكر رضي الله عنه . ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على الفاروق عمر رضي الله عنه ويقول السلام عليكما ياوزيري رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعاونين له على القيام بالدين مادام حيا والقائمين في أمته بعده بأمور الدين تتبعان في ذلك آثاره وتعملان بسنته فجزاكما الله خير ما جزى وزيري نبي عن دينه ثم يرجع فيقف عند رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم — بين القبر والاسطوانة اليوم — ويستقبل القبلة وليحمد الله عز وجل وليمجده وليكثر من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يقول « اللهم إنك قد قلت وقولك الحق ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ﴾ اللهم إنا قد سمعنا قولك وأطعنا أمرك وقصدنا نبيك متشفعين به إليك في ذنوبنا وما أثقل ظهورنا من أوزارنا تائبين من زللنا معترفين بخطايانا وتقصيرنا فتب اللهم علينا وشفع نبيك هذا فينا وارفعنا بمنزلته عندك وحقه عليك . اللهم اغفر للمهاجرين والأنصار واغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان . اللهم لاتجعله آخر العهد من قبر نبيك ومن حرمك ياأرحم الراحمين . ثم يأتي الروضة فيصلي فيها ركعتين ويكثر من الدعاء ما استطاع لقوله صلى الله عليه وسلم « ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي [1] » ويدعو عند المنبر ويستحب

---

(١) « مابين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي » متفق عليه من حديث أبي هريرة وعبد الله ابن زيد .

أن يضع يده على الرمانة السفلى التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع يده عليها عند الخطبة (١) ويستحب له أن يأتى أحدا يوم الخميس ويزور قبور الشهداء فيصلى الغداة فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ثم يخرج ويعود إلى المسجد لصلاة الظهر فلا يفوته فريضة فى الجماعة فى المسجد . ويستحب أن يخرج كل يوم إلى البقيع بعد السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويزور قبر عثمان رضى الله عنه وقبر الحسن بن على رضى الله عنهما ، وفيه أيضا قبر على بن الحسين ومحمد بن على وجعفر بن محمد رضى الله عنهم ، ويصلى فى مسجد فاطمة رضى الله عنها ويزور قبر إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبر صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فذلك كله بالبقيع ويستحب له أن يأتى مسجد قباء فى كل سبت ويصلى فيه لما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال من خرج من بيته حتى يأتى مسجد قباء ويصلى فيه كان له عدل عمرة (٢) » ويأتى بئر أريس يقال إن النبى صلى الله عليه وسلم تفل فيها وهى عند المسجد فيتوضأ منها ويشرب من مائها(٣) ويأتى مسجد الفتح وهو على الخندق وكذا يأتى سائر المساجد والمشاهد ويقال إن جميع المشاهد والمساجد بالمدينة ثلاثون موضعا يعرفها أهل البلد فيقصد ما قدر عليه وكذلك يقصد الآبار التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ منها ويغتسل ويشرب (٤) وهى سبع آبار طلبا للشفاء

---

(١) « وضعه ﷺ يده عند الخطبة على رمانة المنبر» لم أقف له على أصل وذكر محمد بن الحسن ابن زبالة فى تاريخ المدينة أن طول رمانتى المنبر اللتين كان يمسكهما ﷺ بيديه الكريمتين إذا جلس شبرا وأصبعان

(٢) «من خرج من بيته حتى يأتى مسجد قباء ويصلى فيه كان عدل عمرة» أخرجه النسائى وابن ماجه من حديث سهل بن حنيف بإسناد صحيح (٣) « أن النبى ﷺ تفل فى بئر أريس » لم أقف له على أصل وإنما ورد أنه تفل فى بئر البصة وبئر غرس ـ كما سيأتى عند ذكرها ـ (٤) « الآبار التى كان النبى ﷺ يتوضأ منها ويغتسل ويشرب منها وهى سبعة آبار . قلت : وهى بئر أريس وبئر حا وبئر رومة وبئر غرس وبئر بضاعة وبئر البصة وبئر السقيا أو العهن أو بئر جمل . فحديث « بئر أريس » رواه مسلم من حديث أبى موسى الأشعرى فى حديث فيه « حتى دخل بئر أريس قال : فجلست عند بابها وبابها من جريد حتى قضى النبى ﷺ حاجته وتوضأ ... » وحديث «بئر حا» متفق عليه من حديث عثمان « كان أبو طلحة أكثر أنصارى بالمدينة نخلا وكان أحب أمواله إليه بئر حا وكانت متقبلة المسجد وكان النبى ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب ... » وحديث « بئر رومة » رواه الترمذى والنسائى من حديث عثمان أنه قال أنشدكم بالله والإسلام هل تعلمون أن النبى ﷺ قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة فقال من يشترى بئر رومة ويجعل دلوه مع دلاء المسلمين ... » قال الترمذى حديث حسن ، وفى رواية لهما « هل تعلمون أن رومة لم يكن يشرب منها أحد إلا بالثمن فابتعتها فجعلتها للغنى والفقير وابن السبيل ... » وقال حسن صحيح وروى البغوى والطبرانى من حديث بشير الأسلمى قال «لما قدم المهاجرين المدينة استنكروا الماء وكانت لرجل من بنى غفار عين يقال لها رومة وكان يبيع منها القربة بمد » وحديث « بئر غرس » رواه ابن حبان فى الثقات من حديث أنس « أنه قال ائتونى بماء من بئر غرس فإنى رأيت النبى ﷺ يشرب منها ويتوضأ » ولابن ماجه بإسناد جيد مرفوعا « إذا أنا مت فاغسلونى بسبع قرب من بئرى بئر غرس» وروينا فى تاريخ المدينة لابن النجار بإسناد ضعيف مرسلا «أن النبى ﷺ توضأ وبزق فيها وغسل منها حين توفى » وحديث « بئر بضاعة » رواه أصحاب السنن من حديث أبى سعيد الخدرى « أنه قيل للنبى ﷺ أتتوضأ من بئر بضاعة » وفى رواية « أنه يستقى لك من بئر بضاعة ... » قال يحيى بن معين إسناده جيد وقال الترمذى حسن وللطبرانى من حديث أبى أسيد « بصق النبى ﷺ فى بئر بضاعة » ورويناه أيضاً فى تاريخ ابن النجار من حديث سهل بن سعد وحديث « بئر البصة » رواه ابن عدى من حديث أبى سعيد الخضرى « أن النبى ﷺ جاءه يوما فقال هل عندكم من سدر أغسل به رأسى فإن اليوم الجمعة ؟ قال نعم فأخرج له سدرا وخرج معه إلى البصة فغسل النبى ﷺ رأسه وصب غسالة رأسه ومراق شعره فى البصة» وفيه محمد بن زبالة ضعيف وحديث «بئر السقيا » ولأحمد من حديث عائشة « أن النبى ﷺ كان يستعذب له من بيوت السقيا » زاد البزار فى مسنده « أو من بئر السقيا» ولأحمد من حديث على «خرجنا مع النبى ﷺ حتى إذ كنا بالسقيا التى كانت لسعد بن أبى وقاص =

وتبركا به صلى الله عليه وسلم وإن أمكنه الإقامة بالمدينة مع مراعاة الحرمة فلها فضل عظيم قال صلى الله عليه وسلم « لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شفيعاً يوم القيامة (١) » وقال صلى الله عليه وسلم «من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت فانه لن يموت بها أحد إلا كنت له شفيعاً أو شهيدا يوم القيامة (٢) » ثم إذا فرغ من أشغاله وعزم على الخروج من المدينة فالمستحب أن يأتي القبر الشريف ويعيد دعاء الزيارة ـ كما سبق ـ ويودع رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسأل الله عز وجل أن يرزقه العودة إليه ويسأل السلامة في سفره . ثم يصلى ركعتين في الروضة الصغيرة وهي موضع مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن زيدت المقصورة في المسجد . فاذا خرج فليخرج رجله اليسرى أولا ثم اليمنى وليقل « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ولا تجعله آخر العهد بنبيك وحط أوزاري بزيارته وأصحبني في سفري السلامة ويسر رجوعي إلى أهلي ووطني سالما ياأرحم الراحمين » وليتصدق على جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قدر عليه وليتتبع المساجد التي بين المدينة ومكة فيصلى فيها وهي عشرون موضعا .

فصل : في سنن الرجوع من السفر

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على رأس كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ويقول : لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده(٣) » وفي بعض الروايات « كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » فينبغي أن يستعمل هذه السنة في رجوعه . وإذا أشرف على مدينته يحرك الدابة ويقول « اللهم اجعل لنا بها قرارا ورزقا حسنا . ثم ليرسل إلى أهله من يخبرهم بقدومه كي لايقدم عليهم بغتة فذلك هو السنة (٤) ولا ينبغي أن يطرق أهله ليلا فاذا دخل البلد فليقصد المسجد أولا وليصل ركعتين فهو السنة(٥) كذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فاذا دخل بيته قال « توبا توبا لربنا أوبا لايغادر علينا حوبا » فاذا استقر في منزله فلا ينبغي أن ينسى ما أنعم الله به عليه من زيارة بيته وحرمه وقبر نبيه صلى الله عليه وسلم فيكفر تلك النعمة بأن يعود إلى الغفلة واللهو والخوض في المعاصي ، فما ذلك علامة الحج المبرور بل علامته أن يعود زاهدا في الدنيا راغبا في الاخرة متأهبا للقاء رب البيت بعد لقاء البيت .

الباب الثالث : في الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة

بيان دقائق الآداب وهي عشرة

(الأول) أن تكون النفقة حلالا وتكون اليد خالية من تجارة تشغل القلب وتفرق الهم حتى يكون الهم مجردا

= قال النبي ﷺ ائتوني بوضوء فلما توضأ قام ... » وأما بئر جمل ففي الصحيحين من حديث أبي الجهيم « أقبل النبي ﷺ نحو بئر جمل ... » وصله البخاري وعلقه مسلم والمشهور أن الآبار بالمدينة سبعة . وقد روى الدارمي من حديث عائشة « أن النبي ﷺ قال في مرضه : صبوا على سبع قرب من آبار شتى ... وهو عند البخاري دون قوله « من آبار شتى » .

(١) «لايصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت شفيعا يوم القيامة» تقدم في الباب قبله . (٢) «من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها ... » تقدم في الباب قبله . (٣) « كان النبي ﷺ إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على كل شرف من الأرض ... » متفق عليه من حديث ابن عمر وما زاده في آخره في بعض الروايات من قوله « وكل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » رواه المحاملي في الدعاء بإسناد جيد . (٤) « إرسال المسافر إلى أهل بيته من يخبرهم بقدومه كيلا يقدم عليهم بغتة » لم أجد فيه ذكر الإرسال وفي الصحيحين من جابر « كنا مع النبي ﷺ في غزاة فلما قدمنا المدينة ذهبنا لندخل فقال امهلوا حتى ندخل ليلا أي عشاء كي تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة » .

(٥) « صلاة ركعتين في المسجد عند القدوم من السفر » تقدم في الصلاة .

الله تعالى والقلب مطمئنا منصرفا إلى ذكر الله تعالى وتعظيم شعائره . وقد روى فى خبر من طريق أهل البيت « إذا كان آخر الزمان خرج الناس إلى الحج أربعة أصناف سلاطينهم للنزهة وأغنياؤهم للتجارة وفقراؤهم للمسألة وقراؤهم للسمعة (١) » وفى الخبر إشارة إلى جملة أغراض الدنيا التى يتصور أن تتصل بالحج ، فكل ذلك مما يمنع فضيلة الحج ويخرجه عن حيز حج الخصوص ، ولا سيما إذا كان متجردا بنفس الحج بأن يحج لغيره بأجرة فيطلب الدنيا بعمل الاخرة . وقد كره الورعون وأرباب القلوب ذلك إلا أن يكون قصده المقام بمكة ولم يكن له ما يبلغه فلا بأس أن يأخذ ذلك على هذا القصد ، لا ليتوصل بالدين إلى الدنيا بل بالدنيا إلى الدين . فعند ذلك ينبغى أن يكون قصده زيارة بيت الله عز وجل ومعاونة أخيه المسلم بإسقاط الفرض عنه . وفى مثله ينزل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « يدخل الله سبحانه بالحجة الواحدة ثلاثة الجنة : الموصى بها والمنفذ لها ومن حج بها عن أخيه (٢) » ولست أقول لاتحل الأجرة أو يحرم ذلك بعد أن أسقط فرض الإسلام عن نفسه ، ولكن الأولى أن لا يفعل ولا يتخذ ذلك مكسبه ومتجره فإن الله عز وجل يعطى الدنيا بالدين ولا يعطى الدين بالدنيا . وفى الخبر « مثل الذى يغزو فى سبيل الله عز وجل ويأخذ أجرا مثل أم موسى عليه السلام ترضع ولدها وتأخذ أجرها (٣) » فمن كان مثاله فى أخذ الأجرة على الحج مثال أم موسى فلا بأس بأخذه فإنه يأخذ ليتمكن من الحج والزيارة فيه ، وليس يحج ليأخذ الأجرة بل يأخذ الأجرة ليحج كما كانت تأخذ أم موسى ليتيسر لها الإرضاع بتلبيس حالها عليهم .

(الثانى) أن لا يعاون أعداء الله سبحانه بتسليم المكس وهم الصادون عن المسجد الحرام من أمراء مكة والأعراب المترصدين فى الطريق . فإن تسليم المال إليهم إعانة على الظلم وتيسير لأسبابه عليهم فهو كالإعانة بالنفس ، فليتلطف فى حيلة الخلاص فإن لم يقدر فقد قال بعض العلماء — ولا بأس بما قاله — إن ترك التنفل بالحج والرجوع عن الطريق أفضل من إعانة الظلمة فان هذه بدعة أحدثت وفى الانقياد لها ما يجعلها سنة مطردة وفيه ذل وصغار على المسلمين ببذل جزية . ولا معنى لقول القائل إن ذلك يؤخذ منى وأنا مضطر فإنه لو قعد فى البيت أو رجع من الطريق لم يؤخذ منه شىء بل ربما يظهر أسباب الترفه فتكثر مطالبته فلو كان فى زى الفقراء لم يطالب فهو الذى ساق نفسه إلى حالة الاضطرار .

(الثالث) التوسع فى الزاد وطيب النفس بالبذل والإنفاق من غير تقتير ولا إسراف بل على اقتصاد ، وأعنى بالإسراف التنعم بأطايب الأطعمة والترفه بشرب أنواعها على عادة المترفين . فأما كثرة البذل فلا سرف فيه . إذ لا خير فى السرف ولا سرف فى الخير ، كما قيل . وبذل الزاد فى طريق الحج نفقته فى سبيل الله عز وجل والدرهم بسبعمائة درهم قال ابن عمر رضى الله عنهما : من كرم الرجل طيب زاده فى سفره . وكان يقول أفضل الحاج أخلصهم نية وأزكاهم نفقة وأحسنهم يقينا . وقال صلى الله عليه وسلم « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة فقيل له يارسول الله مابر الحج ؟ فقال : طيب الكلام وإطعام الطعام (٤) » .

الباب الثالث : فى الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة

(١) « إذا كان فى آخر الزمان خرج الناس للحج أربعة أصناف سلاطينهم للنزهة وأغنياؤهم للتجارة وفقراؤهم للسؤال وقراؤهم للسمعة » أخرجه الخطيب من حديث أنس بإسناد مجهول وليس فيه ذكر السلاطين ، ورواه أبوعثمان الصابونى فى كتاب المائتين فقال « تحج أغنياء أمتى للنزهة وأوساطهم للتجارة وفقراؤهم للمسألة وقراؤهم للرياء والسمعة » .

(٢) « يدخل الله بالحجة الواحدة ثلاثة الجنة الموصى بها والمنفذ لها ومن حج بها عن أخيه » أخرجه البيهقى من حديث جابر بسند ضعيف . (٣) « مثل الذى يغزو ويأخذ أجرا مثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها » أخرجه ابن عدى من حديث معاذ وقال مستقيم الإسناد منكر المتن . (٤) « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة ، فقيل له مابر الحج ؟ قال طيب الكلام وإطعام الطعام » أخرجه أحمد من حديث جابر بإسناد لين ورواه الحاكم مختصراً وقال صحيح الإسناد .

(الرابع) ترك الرفث والفسوق والجدال كما نطق به القرآن . والرفث اسم جامع لكل لغو وخنى وفحش من الكلام ويدخل فيه مغازلة النساء ومداعبتهن والتحدث بشأن الجماع ومقدماته، فإن ذلك يهيج داعية الجماع المحظور والداعى إلى المحظور محظور والفسق اسم جامع لكل خروج عن طاعة الله عز وجل. والجدال هو المبالغة فى الخصومة والمماراة بما يورث الضغائن ويفرق فى الحال الهمة ويناقض حسن الخلق . وقد قال سفيان : من رفث فسد حجه . وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم طيب الكلام مع إطعام الطعام من بر الحج. والمماراة تناقض طيب الكلام فلا ينبغى أن يكون كثير الاعتراض على رفيقه وجماله وعلى غيره من أصحابه بل يلين جانبه ويخفض جناحه للسائرين إلى بيت الله عز وجل ويلزم حسن الخلق وليس حسن الخلق كف الأذى بل احتمال الأذى وقيل سمى السفر سفرا لأنه يسفر عن أخلاق الرجال . ولذلك قال عمر رضى الله عنه لمن زعم أنه يعرف رجلا: هل صحبته فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق؟ قال : لا ، فقال : ما أراك تعرفه .

(الخامس) أن يحج ماشيا إن قدر عليه فذلك الأفضل . أوصى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما بنيه عند موته فقال : يا بنى حجوا مشاة فإن للحاج الماشى بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة من حسنات الحرم ، قيل وما حسنات الحرم ؟ قال : الحسنة بمائة ألف والاستحباب فى المشى فى المناسك والتردد من مكة إلى الموقف وإلى منى آكد منه فى الطريق . وإن أضاف إلى المشى الإحرام من دويرة أهله فقد قيل إن ذلك من إتمام الحج قاله عمر وعلى وابن مسعود رضى الله عنهم فى معنى قوله عز وجل ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ وقال بعض العلماء : الركوب أفضل لما فيه من الإنفاق والمؤنة ولأنه أبعد عن ضجر النفس وأقل لأذاه وأقرب إلى سلامته وتمام حجه وهذا عند التحقيق ليس مخالفا للأول بل ينبغى أن يفصل . ويقال من سهل عليه المشى فهو أفضل فإن كان يضعف ويؤدى به إلى سوء الخلق وقصور عن عمل فالركوب له أفضل ، كما أن الصوم للمسافر أفضل وللمريض مالم يفض إلى ضعف وسوء خلق .
وسأل بعض العلماء عن العمرة أيمشى فيها أو يكترى حماراً بدرهم ؟ فقال : إن كان وزن الدرهم أشد عليه فالكراء أفضل من المشى ، وإن كان المشى أشد عليه كالأغنياء فالمشى له أفضل ، فكأنه ذهب فيه إلى طريق مجاهدة النفس وله وجه ولكن الأفضل له أن يمشى ويصرف ذلك الدرهم إلى خير فهو أولى من صرفه إلى المكارى عوضا عن ابتذال الدابة . فإذا كانت لا تتسع نفسه للجمع بين مشقة النفس ونقصان المال فما ذكره غير بعيد فيه .

(السادس) أن لا يركب إلا زاملة أما المحمل فليجتنبه إلا إذا كان يخاف على الزاملة أن لا يستمسك عليها لعذر وفيه معنيان أحدهما : التخفيف على البعير فإن المحمل يؤذيه . والثانى : اجتناب زى المترفين المتكبرين «حج رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلة وكان تحته رحل رث وقطيفة خلقه قيمتها أربعة دراهم(١) وطاف على الراحلة لينظر لينظر الناس إلى هديه وشمائله(٢) » وقال صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم « خذوا عنى مناسككم(٣) » وقيل إن هذه المحامل أحدثها الحجاج وكان العلماء وقته ينكرونها . فروى سفيان الثورى عن أبيه أنه قال : برزت من الكوفة إلى القادسية للحج ووافيت الرفاق من البلدان فرأيت الحجاج كلهم على زوامل وجوالقات ورواحل وما رأيت فى جميعهم إلا محملين . وكان ابن عمر إذا نظر إلى ما أحدث الحجاج من الزى والمحامل يقول الحاج قليل والركب كثير ثم نظر إلى رجل مسكين رث الهيئة تحته جوالق فقال : هذا نعم من الحجاج .

---

(١) «حج النبى ﷺ على راحلته وكان تحته رحل رث وقطيفة خلقة قيمتها أربعة دراهم» أخرجه الترمذى فى الشمائل وابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف . (٢) « طوافه ﷺ على راحلته » تقدم
(٣) « خذوا عنى مناسككم » أخرجه مسلم والنسائى واللفظ له من حديث جابر .

(السابع) أن يكون رث الهيئة أشعث أغبر غير مستكثر من الزينة ولا مائل إلى أسباب التفاخر والتكاثر فيكتب فى ديوان المتكبرين المترفهين ويخرج عن حزب الضعفاء والمساكين وخصوص الصالحين، فقد أمر صلى الله عليه وسلم بالشعث والاختفاء[١] ونهى عن التنعم والرفاهية[٢] فى حديث فضالة بن عبيد وفى الحديث «إنما الحاج الشعث التفث[٣] ويقول الله تعالى : انظرو إلى زوار بيتى قد جاءونى شعثا غبراً من كل فج عميق[٤] » وقال تعالى ﴿ثم ليقضوا تفثهم﴾ والتفث الشعث والاغبرار ، وقضاؤه بالحلق وقص الشارب والأظفار وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أمراء الأجناد : اخلولقوا واخشوشنو أى البسوا الخلقان واستعملوا الخشونة فى الأشياء . وقد قيل : زين الحجيج أهل اليمن لأنهم على هيئة التواضع والضعف وسيرة السلف . فينبغى أن يجتنب الحمرة فى زيه على الخصوص والشهرة كيفما كانت على العموم . فقد روى « أنه صلى الله عليه وسلم كان فى سفر فنزل أصحابه منزلا فسرحت الإبل فنظر إلى أكسية حمر على الأقتاب فقال صلى الله عليه وسلم أرى هذه الحمرة قد غلبت عليكم[٥] قالوا فقمنا إليها ونزعناها عن ظهورها حتى شرد بعض الإبل » .

(الثامن) أن يرفق بالدابة فلا يحملها مالا تطيق والمحمل خارج عن حد طاقتها والنوم عليها يؤذيها ويثقل عليها كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلا غفوة عن قعود وكانوا لا يقفون عليها الوقوف الطويل قال صلى الله عليه وسلم «لاتتخذوا ظهور دوابكم كراسى[٦] » ويستحب أن ينزل عن دابته غدوة وعشية يروحها بذلك فهو سنة[٧] وفيه آثار عن السلف . وكان بعض السلف يكترى بشرط أن لا ينزل ويوفى الأجرة ثم كان ينزل عنها ليكون بذلك محسنا إلى الدابة ، فيكون فى حسناته ويوضع فى ميزانه لا فى ميزان المكارى. وكل من آذى بهيمة وحملها مالا تطيق طولب طولب به يوم القيامة . قال أبو الدرداء لبعير له عند الموت : يأيها البعير لاتخاصمنى إلى ربك فإنى لم أكن أحملك فوق طاقتك . وعلى الجملة فى كل كبد حراء أجر فليراع حق الدابة وحق المكارى جميعا وفى نزوله ساعة ترويح الدابة وسرور قلب المكارى قال رجل لابن المبارك : احمل لى هذا الكتاب معك لتوصله فقال: حتى استأمر الجمال فإنى قد اكتريت . فانظر كيف تورع من استصحاب كتاب لاوزن له؟ وهو طريق الحزم فى الورع فان فتح باب القليل انجر إلى الكثير يسيرا يسيرا .

(التاسع) أن يتقرب باراقة دم وإن لم يكن واجبا عليه ويجتهد أن يكون من سمين النعم ونفيسه ، ليأكل منه إن كان تطوعا ولا يأكل منه إن كان واجبا قيل فى تفسير قوله تعالى ﴿ذلك ومن يعظم شعائر الله﴾ إنه تحسينه وتسمينه. وسوق الهدى من الميقات أفضل إن كان لا يجهده ولا يكده . وليترك المكاس فى شرائه فقد كانوا يغالون فى ثلاث ويكرهون

---

(١) «الأمر بالشعث والاختفاء» أخرجه البغوى والطبرانى من حديث عبد الله بن أبى حدرد قال «قال النبى ﷺ تمعددوا واخشوشنوا وانصلوا وامشوا حفاة » وفيه اختلاف ورواه ابن عدى من حديث أبى هريرة وكلاهما ضعيف .

(٢) حديث فضالة بن عبيد «فى النهى عن التنعم والرفاهية وأن النبى ﷺ كان ينهى عن كثير من الإرفاه» ولأحمد من حديث معاذ « إياك والتنعم ... » (٣) « إنما الحاج الشعث والتفث » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث عمر وقال غريب . (٤) « يقول الله تعالى انظروا إلى زوار بيتى قد جاءوا شعثا غبرا من كل فج عميق » أخرجه الحاكم وصححه من حديث أبى هريرة دون قوله «من كل فج عميق وكذا رواه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو (٥) « أنه ﷺ كان فى سفر فنزل أصحابه منزلا فسرحت الإبل فنظر إلى أكسية حمر على الأقتاب فقال أرى هذه الحمرة قد غلبت عليكم ...» أخرجه أبوداود من كلام رافع بن خديج وفيه رجل يسم . (٦) «لاتتخذوا ظهور دوابكم كراسى أخرجه أحمد من حديث سهل بن معاذ بسند ضعيف ورواه الحاكم وصححه من رواية معاذ بن أنس عن أبيه. (٧) « النزول عن الدابة غدوة وعشية يريحها بذلك » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أنس بإسناد جيد « أن النبى ﷺ كان إذا صلى الفجر فى السفر مشى » ورواه البيهقى فى الادب وقال « مشى قليلا وناقته تقاد »

المكاس فيهن : الهدى والأضحية والرقبة ، فإن أفضل ذلك ثمناً وأنفسه عند أهله . وروى ابن عمر « أن عمر رضى الله عنهما أهدى بختية فطلبت منه بثلثمائة دينار فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ويشترى بثمنها بدنا فنهاه عن ذلك وقال بل أهدها[١] » وذلك لأن القليل الجيد خير من الكثير الدون . وفى ثلثمائة دينار قيمة ثلاثين بدنة وفيها تكثير اللحم ولكن ليس المقصود اللحم إنما المقصود تزكية النفس وتطهيرها عن صفة البخل وتزيينها بجمال التعظيم لله عز وجل ف﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم﴾ وذلك يحصل بمراعاة النفاسة فى القيمة كثر العدد أو قل « وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بر الحج فقال العج والثج[٢] » والعج هو رفع الصوت بالتلبية ، والثج هو نحر البدن . وروت عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « ما عمل آدمى يوم النحر أحب إلى الله عز وجل من إهراقه دما وإنها لتأتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها وإن الدم يقع من الله عز وجل بمكان قبل أن يقع بالأرض فطيبوا بها نفساً[٣] » وفى الخبر « لكم بكل صوفة من جلدها حسنة وكل قطرة من دمها حسنة وإنها لتوضع فى الميزان فأبشروا[٤] » وقال صلى الله عليه وسلم «استنجدوا هداياكم فإنها مطاياكم يوم القيامة» . (العاشر) أن يكون طيب النفس بما أنفقه من نفقة وهدى وبما أصابه من خسران ومصيبة فى مال أو بدن إن أصابه ذلك فإن ذلك من دلائل قبول حجه . فإن المصيبة فى طريق الحج تعدل النفقة فى سبيل الله عز وجل الدرهم بسبعمائة درهم وهو بمثابة الشدائد فى طريق الجهاد فله بكل أذى احتمله وخسران أصابه ثواب فلا يضيع منه شىء عند الله عز وجل . ويقال إن من علامة قبول الحج أيضاً ترك ما كان عليه من المعاصى وأن يتبدل بإخوانه البطالين إخوانا صالحين ، وبمجالس اللهو والغفلة مجالس الذكر واليقظة .

بيان الأعمال الباطلة ووجه الإخلاص فى النية وطريق الاعتبار بالمشاهد الشريفة
وكيفية الافتكار فيها والتذكر لأسرارها ومعانيها من أول الحج إلى آخره

أعلم أن أول الحج الفهم ـ أعنى فهم موقع الحج فى الدين ـ ثم الشوق إليه ثم العزم عليه ثم قطع العلائق المانعة منه ثم شراء ثوب الإحرام ثم شراء الزاد ثم اكتراء الراحلة ثم الخروج ثم المسير فى البادية ثم الإحرام من الميقات بالتلبية ثم دخول مكة ثم استتمام الأفعال كما سبق . وفى كل واحد من هذه الأمور تذكرة للمتذكر وعبرة للمعتبر وتنبيه للمريد الصادق وتعريف وإشارة للفطن . فلنرمز إلى مفاتحها حتى إذا انفتح بابها وعرفت أسبابها انكشفت لكل حاج من أسرارها ما يقتضيه صفاء قلبه وطهارة باطنه وغزارة فهمه .

أما الفهم : اعلم أنه لا وصول إلى الله سبحانه وتعالى إلا بالتنزه عن الشهوات والكف عن اللذات والاقتصار على الضرورات فيها والتجرد لله سبحانه فى جميع الحركات والسكنات . ولأجل هذا انفرد الرهبانيون فى الملل السالفة

---

(١) حديث ابن عمر «أن عمر أهدى نجيبة فطلبت منه بثلثمائة دينار فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ويشترى بثمنها بدنا فنهاه عن ذلك وقال بل اهدها » أخرجه أبو داود وقال « انحرها » (٢) «سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بر الحج ؟ فقال : العج والثج » أخرجه الترمذى واستغربه وابن ماجه والحاكم والبزار واللفظ له من من حديث أبى بكر وقال الباقولى « أى الحج أفضل » (٣) حديث عائشة « ماعمل ابن آدم يوم النحر أحب إلى الله من إهراقه دما ...» أخرجه الترمذى وحسنه وابن ماجه وضعفه ابن حبان وقال البخارى إنه مرسل ووصله ابن خزيمة (٤) « لكم بكل صوفة من جلدها حسنة وكل قطرة من دمها حسنة وإنها لتوضع فى الميزان فأبشروا» أخرجه ابن ماجه وصححه البيهق من حديث زيد بن أرقم فى حديث فيه « بكل شعرة حسنة قالوا فالصوف قال بكل شعرة عن الصوف حسنة » وفى رواية للبيهقى « بكل قطرة حسنة » قال البخارى لا يصح وروى أبو الشيخ فى كتاب الضحايا من حديث على « أما أنها يجاء بها يوم القيامة بلحومها ودمائها حتى توضع فى ميزانك » يقولها لفاطمة .

عن الخلق وانحازوا إلى قلل الجبال وآثروا التوحش عن الخلق لطلب الأنس بالله عز وجل . فتركوا لله عز وجل اللذات الحاضرة وألزموا أنفسهم المجاهدات الشاقة طمعاً فى الآخرة وأثنى الله عز وجل عليهم فى كتابه فقال ﴿ ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ﴾ فلما اندرس ذلك وأقبل الخلق على اتباع الشهوات وهجروا التجرد لعبادة الله عز وجل وفتروا عنه بعث الله عز وجل نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم لإحياء طريق الآخرة وتجديد سنة المرسلين فى سلوكها . فسأله أهل الملل عن الرهبانية والسياحة فى دينه فقال صلى الله عليه وسلم : أبدلنا الله بها الجهاد والتكبير على كل شرف[1] يعنى الحج « وسئل صلى الله عليه وسلم عن السائحين فقال : هم الصائمون[2] » فأنعم الله عز وجل على هذه الأمة بأن جعل الحج رهبانية لهم فشرف البيت العتيق بالإضافة إلى نفسه تعالى . ونصبه مقصداً لعباده وجعل ماحواليه حرما لبيته تفخيما لأمره . وجعل عرفات كالميزاب على فناء حوضه . وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره . ووضعه على مثال حضرة الملوك يقصده الزوار من كل فج عميق ومن كل أوب سحيق شعثا غبرا متواضعين لرب البيت ومستكينين له خضوعا لجلاله واستكانة لعزته . مع الاعتراف بتنزيهه عن أن يحويه بيت أو يكتنفه بلد ليكون ذلك أبلغ فى رقهم وعبوديتهم وأتم فى إذعانهم وانقيادهم . ولذلك وظف عليهم فيها أعمالا لا تأنس بها النفوس ولا تهتدى إلى معانيها العقول كرمى الجمار بالأحجار ، والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار . وبمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية . فإن الزكاة إرفاق ووجهه مفهوم وللعقل إليه ميل . والصوم كسر للشهوة التى هى آلة عدو الله وتفرغ للعبادة بالكف عن الشواغل . والركوع والسجود فى الصلاة تواضع لله عز وجل بأفعال هى هيئة التواضع وللنفوس أنس بتعظيم الله عز وجل . فأما ترددات السعى ورمى الجمار وامثال هذه الأعمال فلاحظ للنفوس ولا أنس للطبع فيها ولا اهتداء للعقل إلى معانيها . فلا يكون فى الإقدام عليها باعث إلا الأمر المجرد وقصد الامتثال للأمر من حيث إنه امر واجب الاتباع فقط . وفيه عزل للعقل عن تصرفه وصرف النفس والطبع عن محل أنسه فإن كل ماأدرك العقل معناه ، مال الطبع إليه ميلاما . فيكون ذلك الميل معينا للأمر وباعثا معه على الفعل فلا يكاد يظهر به كمال الرق والانقياد . ولذلك قال ﷺ فى الحج على الخصوص « لبيك بحجة حقاً تعبداً ورقا[3] » ولم يقل ذلك فى صلاة ولا غيرها . وإذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ربط نجاة الخلق بأن تكون أعمالهم على خلاف هوى طباعهم وأن يكون زمامها بيد الشرع فيترددون فى أعمالهم على سنن الانقياد وعلى مقتضى الاستعباد . وكان مالا يهتدى إلى معانيه أبلغ أنواع التعبدات فى تزكية النفوس وصرفها عن مقتضى الطباع والأخلاق ، مقتضى الاسترقاق . وإذا تفطنت لهذا فهمت أن تعجب النفوس من هذه الأفعال العجيبة مصدره الذهول عن أسرار التعبدات . وهذا القدر كاف فى تفهم أصل الحج إن شاء الله تعالى .

وأما الشوق : فإنما ينبعث بعد الفهم والتحقق بأن البيت بيت الله عز وجل وأنه وضع على مثال حضرة الملوك

---

(١) « سئل عن الرهبانية والسياحة فقال : بدلنا الله بها الجهاد والتكبير على كل شرف » أخرجه أبو داود من حديث أبى أمامة « أن رجلا قال يارسول الله ائذن لى فى السياحة فقال إن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله » رواه الطبرانى بلفظ « إن لكل أمة سياحة وسياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله ولكل أمة رهبانية ورهبانية أمتى الرباط فى نحر العدو » وللبيهقى فى الشعب من حديث أنس « رهبانية أمتى الجهاد فى سبيل الله » وكلاهما ضعيف والترمذى وحسنه والنسائى فى اليوم والليلة وابن ماجه من حديث أبى هريرة « أن رجلا قال يارسول الله إنى أريد أن أسافر فأوصنى قال عليك بتقوى الله والتكبير على كل شرف » .

(٢) « سئل عن السائحين فقال هم الصائمون » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة وقال المحفوظ عن عبيد بن عمير عن عمر مرسلا .

(٣) « لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا » تقدم فى الزكاة .

فقاصده قاصد إلى الله عز وجل وزائر له وأن من قصد البيت فى الدنيا جدير بأن لايضيع زيارته فيرزق مقصود الزيارة فى ميعاده المضروب له وهو النظر إلى وجه الله الكريم فى دار القرار ، من حيث إن العين القاصرة الفانية فى دار الدنيا لاتتهيأ لقبول نور النظر إلى وجه الله عز وجل ولا تطيق احتماله ولا تستعد للاكتحال به لقصورها ، وأنها إن أمدت فى الدار الآخرة بالبقاء ونزهت عن أسباب التغيير والفناء استعدت للنظر والإبصار ولكنها بقصد البيت والنظر إليه تستحق لقاء رب البيت بحكم الوعد الكريم . فالشوق إلى لقاء الله عز وجل يشوقه إلى أسباب اللقاء لامحالة ، هذا مع أن المحب مشتاق إلى كل ماله إلى محبوبه إضافة والبيت مضاف إلى الله عز وجل فبالحرى أن يشتاق إليه لمجرد هذه الإضافة فضلا عن الطلب لنيل ما وعد عليه من الثواب الجزيل .

وأما العزم : فليعلم أنه بعزمه قاصدا إلى مفارقة الأهل والوطن ومهاجرة الشهوات واللذات متوجها إلى زيارة بيت الله عز وجل . وليعظم فى نفسه قدر البيت وقدر رب البيت وليعلم أنه عزم على أمر رفيع شأنه خطير أمره وأن من طلب عظيما خاطر بعظيم ، وليجعل عزمه خالصا لوجه الله سبحانه بعيدا عن شوائب الرياء والسمعة . وليتحقق أنه لايقبل من قصده وعمله إلا الخالص وإن من أفحش الفواحش أن يقصد بيت الله وحرمه والمقصود غيره . فليصحح مع نفسه العزم وتصحيحه بإخلاصه وإخلاصه باجتناب كل ما فيه رياء وسمعة فليحذر أن يستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير .

وأما قطع العلائق : فمعناه رد المظالم والتوبة الخالصة لله تعالى عن جملة المعاصى فكل مظلمة علاقة وكل علاقة مثل غريم حاضر متعلق بتلابيبه ينادى عليه ويقول : إلى أين تتوجه أتقصد بيت ملك الملوك وأنت مضيع أمره فى منزلك هذا ومستهين به ومهمل له ؟ أو لاتستحى أن تقدم عليه قدوم العبد العاصى فيردك ولا يقبلك ؟ فإن كنت راغبا فى قبول زيارتك فنفذ أوامره ورد المظالم وتب إليه أولا من جميع المعاصى واقطع علاقة قلبك عن الالتفات الى ماوراءك لتكون متوجها اليه بوجه قلبك كما أنك متوجه الى بيته بوجه ظاهرك فإن لم تفعل ذلك لم يكن لك من سفرك أولا إلا النصب والشقاء وآخراً إلا الطرد والرد . وليقطع العلائق عن وطنه قطع من انقطع عنه وقدر أن لايعود اليه وليكتب وصيته لأولاده وأهله فإن المسافر وماله لعلى خطر إلا من وقى الله سبحانه . وليذكر عند قطعه العلائق لسفر الحج قطع العلائق لسفر الآخرة فان ذلك بين يديه على القرب وما يقدمه من هـــذا السفر طمع فى تيسير ذلك السفر فهو المستقر واليه المصير . فلا ينبغى أن يغفل عن ذلك السفر عند الاستعداد بهذا السفر .

وأما الزاد : فليطلبه من موضع حلال واذا أحس من نفسه الحرص على استكثاره وطلب مايبقى منه على طول السفر ولا يتغير ولا يفسد قبل بلوغ المقصد فليتذكر أن سفر الآخرة أطول من هـذا السفر ، وأن زاده التقوى وأن ما عداه مما يظن أنه زاده يتخلف عنه عند الموت ويخونه فلا يبقى معه ، كالطعام الرطب الذى يفسد فى أول منازل السفر فيبقى وقت الحاجة متحيرا محتاجا لا حيلة له . فليحذر أن تكون أعماله التى هى زاده الى الآخرة لا تصحبه بعد الموت بل يفسدها شوائب الرياء وكدورات التقصير .

وأما الراحلة : اذا أحضرها فليشكر الله بقلبه على تسخير الله عز وجل له الدواب لتحمل عنه الأذى وتخفف عنه المشقة . وليذكر عنده المركب الذى يركبه الى دار الآخرة وهى الجنازة التى يحمل عليها . فإن أمر الحج من وجه يوازى أمر السفر إلى الآخرة ولينظر أيصلح سفره على هذا المركب لأن يكون زادا له لذلك السفر على ذلك المركب ؟ فما أقرب ذلك منه . وما يدريه لعل الموت قريب ويكون ركوبه للجنازة قبل ركوبه للجمل . وركوب

الجنازة مقطوع به وتيسر أسباب السفر مشكوك فيه فكيف يحتاط فى أسباب السفر المشكوك فيه ويستظهر فى زاده وراحلته ويهمل أمر السفر المستيقن ؟

وأما شراء ثوبى الإحرام : فليذكر عنده الكفن ولفه فيه فإنه سيرتدى ويتزر بثوبى الإحرام عند القرب من بيت الله عز وجل وربما لا يتم سفره اليه . وأنه سيلقى الله عز وجل ملفوفا فى ثياب الكفن لا محالة . فكما لا يلقى بيت الله عز وجل إلا مخالفا عادته فى الزى والهيئة فلا يلقى الله عز وجل بعد الموت إلا فى زى مخالف لزى الدنيا. وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب إذ ليس فيه مخيط كما فى الكفن .

وأما الخروج من البلد : فليعلم عنده أنه فارق الأهل والوطن متوجها الى الله عز وجل فى سفر لا يضاهى أسفار الدنيا . فليحضر فى قلبه أنه ماذا يريد وأين يتوجه وزيارة من يقصد ؟ وأنه متوجه الى ملك الملوك فى زمرة الزائرين له الذين نودوا فأجابوا وشوقوا فاشتاقوا واستنهضوا فنهضوا وقطعوا العلائق وفارقوا الخلائق وأقبلوا على بيت الله عز وجل الذى فخم أمره وعظم شأنه ورفع قدره تسليا بلقاء البيت عن لقاء رب البيت الى أن يرزقوا منتهى مناهم ويسعدوا بالنظر الى مولاهم . وليحضر فى قلبه رجاء الوصول والقبول لا إدلالا بأعماله فى الارتحال ومفارقة الأهل والمال ولكن ثقة بفضل الله عز وجل ورجاء لتحقيقه وعده لمن زار بيته وليرج أنه ان لم يصل اليه وأدركته المنية فى الطريق لقى الله عز وجل وافدا اليه إذ قال جل جلاله ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ .

وأما دخول البادية إلى الميقات ومشاهدة تلك العقبات : فليتذكر فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت إلى ميقات يوم القيامة وما بينهما من الأهوال والمطالبات . وليتذكر من هول قطاع الطريق هول سؤال منكر ونكير ومن سباع البوادى عقارب القبر وديدانه وما فيه من الأفاعى والحيات ومن انفراده عن أهله وأقاربه وحشة القبر وكربته ووحدته . وليكن فى هذه المخاوف فى أعماله وأقواله متزودا لمخاوف القبر .

وأما الإحرام والتلبية من الميقات : فليعلم أن معناه إجابة نداء الله عز وجل فارج أن تكون مقبولا واخش أن يقال لك لا لبيك ولا سعديك فكن بين الرجاء والخوف متردداً وعن حولك وقوتك متبرئاً وعلى فضل الله عز وجل وكرمه متكلا . فإن وقت التلبية هو بداية الأمر وهى محل الخطر . قال سفيان بن عيينة : حج على ابن الحسين رضى الله عنهما فلما أحرم واستوت به راحلته اصفر لونه وانتفض ووقعت عليه الرعدة ولم يستطع أن يلبى فقيل له : لم لا تلبى ؟ فقال . أخشى أن يقال لى لا لبيك ولا سعديك . فلما لبى غشى عليه ووقع عن راحلته فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجه وقال أحمد بن أبى الحوارى : كنت مع أبى سليمان الدارانى رضى الله عنه حين أراد الإحرام فلم يلب حتى سرنا ميلا فأخذته الغشية ثم أفاق وقال : ياأحمد إن الله سبحانه أوحى إلى موسى عليه السلام مر ظلمة بنى إسرائيل أن يقلوا من ذكرى فإنى أذكر من ذكرنى منهم باللعنة . ويحك ياأحمد بلغنى أن من حج من غير حله ثم لبى قال الله عز وجل لا لبيك ولا سعديك حتى ترد ما فى يديك فما نأمن أن يقال لنا ذلك . وليتذكر الملبى عند رفع الصوت بالتلبية فى الميقات إجابته لنداء الله عز وجل إذ قال ﴿ وأذن فى الناس بالحج ﴾ ونداء الخلق بنفخ الصور وحشرهم من القبور وازدحامهم فى عرصات القيامة مجيبين لنداء الله سبحانه ، ومنقسمين إلى مقربين وممقوتين ، ومقبولين ومردودين . ومترددين فى أول الأمر بين الخوف والرجاء تردد الحاج فى الميقات حيث لايدرون أيتيسر لهم إتمام الحج وقبوله أم لا ؟

وأما دخول مكة : فليتذكر عندها أنه قد انتهى إلى حرم الله تعالى آمنا وليرج عنده أن يأمن بدخوله من عقاب الله عز وجل وليخش أن لا يكون أهلا للقرب فيكون بدخوله الحرم خائباً ومستحقاً للمقت . وليكن رجاؤه فى جميع الأوقات غالباً فالكرم عميم والرب رحيم وشرف البيت عظيم وحق الزائر مرعى وذمام المستجير اللائذ غير مضيع .

وأما وقوع البصر على البيت : فينبغى أن يحضر عنده عظمة البيت فى القلب ويقدر كأنه مشاهد لرب البيت لشدة تعظيمه إياه . وارج أن يرزقك الله تعالى النظر إلى وجهه الكريم كما رزقك الله النظر إلى بيته العظيم . واشكر الله تعالى على تبليغه إياك هذه الرتبة وإلحاقه إياك بزمرة الوافدين عليه . واذكر عند ذلك انصباب الناس فى القيامة إلى جهة الجنة آملين لدخولها كافة ثم انقسامهم إلى مأذونين فى الدخول ومصروفين انقسام الحاج إلى مقبولين ومردودين . ولا تغفل عن تذكر أمور الآخرة فى شىء مما تراه فإن كل أحوال الحاج دليل على أحوال الآخرة .

وأما الطواف بالبيت : فاعلم أنه صلاة فأحضر فى قلبك فيه من التعظيم والخوف والرجاء والمحبة مافصلناه فى كتاب الصلاة . واعلم أنك بالطواف متشبه بالملائكة المقربين الحافين حول العرش الطائفين حوله . ولا تظنن أن المقصود طواف جسمك بالبيت بل المقصود طواف قلبك بذكر رب البيت حتى لاتبتدىء الذكر إلا منه ولا تختم إلا به كما تبتدىء الطواف من البيت وتختم بالبيت . واعلم أن الطواف الشريف هو طواف القلب بحضرة الربوبية وأن البيت مثال ظاهر فى عالم الملك لتلك الحضرة التى لاتشاهد بالبصر وهى عالم الملكوت ، كما أن البدن مثال ظاهر فى عالم الشهادة للقلب الذى لا يشاهد بالبصر وهو فى عالم الغيب . وأن عالم الملك والشهادة مدركة إلى عالم الغيب والملكوت لمن فتح الله له الباب وإلى هذه الموازنة وقعت الإشارة بأن البيت المعمور فى السموات بإزاء الكعبة . فإن طواف الملائكة به كطواف الإنس بهذا البيت . ولما قصرت رتبة أكثر الخلق عن مثل ذلك الطواف أمروا بالتشبه بهم بحسب الإمكان ووعدوا بأن من تشبه بقوم فهو منهم[1] والذى يقدر على مثل ذلك الطواف هو الذى يقال إن الكعبة تزووه وتطوف به على مارآه بعض المكاشفين لبعض أولياء الله سبحانه وتعالى .

وأما الاستلام : فاعتقد عنده أنك مبايع لله عز وجل على طاعته فصمم عزيمتك على الوفاء ببيعتك فمن غدر فى المبايعة استحق المقت . وقد روى ابن عباس رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال « الحجر الأسود يمين الله عز وجل فى الأرض يصافح بها خلقه كما يصافح الرجل أخاه[2] » .

وأما التعلق بأستار الكعبة والالتصاق بالملتزم : فلتكن نيتك فى الالتزام طلب القرب حباً وشوقا للبيت ولرب البيت وتبركا بالمماسة ورجاء للتحصن عن النار فى كل جزء من بدنك لا فى البيت . ولتكن نيتك فى التعلق بالستر الإلحاح فى طلب المغفرة وسؤال الأمان كالمذنب المتعلق بثياب من أذنب إليه المتضرع إليه فى عفوه عنه المظهر له أنه لاملجأ له منه إلا إليه ولا مفزع له إلا كرمه وعفوه وأنه لايفارق ذيله إلا بالعفو وبذل الأمن فى المستقبل .

وأما السعى بين الصفا والمروة فى فناء البيت : فانه يضاهى تردد العبد بفناء دار الملك جائيا وذاهبا مرة بعد أخرى

---

(١) « من تشبه بقوم فهو منهم » أخرجه أبو داود من حديث ابن عمر بسند صحيح .

(٢) حديث ابن عباس «الحجر يمين الله فى الأرض يصافح بها خلقه ... » تقدم فى العلم من حديث عبدالله بن عمرو .

إظهارا للخلوص فى الخدمة ورجاء للملاحظة بعين الرحمة ، كالذى دخل على الملك وخرج وهو لايدرى ما الذى يقضى به الملك فى حقه من قبول أو رد ؟ فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة بعد أخرى يرجوأن يرحم فى الثانية إن لم يرحم فى الأولى . وليتذكر عند تردده بين الصفا والمروة تردده بين كفتى الميزان فى عرصات القيامة وليمثل الصفا بكفة الحسنات والمروة بكفة السيئات . وليتذكر تردده بين الكفتين ناظراً إلى الرجحان والنقصان متردداً بين العذاب والغفران .

وأما الوقوف بعرفة : فاذكر - بما ترى من ازدحام الخلق وارتفاع الأصوات واختلاف اللغات واتباع الفرق أئمتهم فى الترددات على المشاعر اقتفاء لهم وسيراً بسيرهم - عرصات القيامة واجتماع الأمم مع الأنبياء والأئمة واقتفاء كل أمة نبيها وطمعهم فى شفاعتهم وتحيرهم فى ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول وإذا تذكرت ذلك فألزم قلبك الضراعة والابتهال إلى الله عز وجل فتحشر فى زمرة الفائزين المرحومين وحقق رجاءك بالإجابة فالموقف شريف والرحمة إنما تصل من حضرة الجلال إلى كافة الخلق بواسطة القلوب العزيزة من أوتاد الأرض ولا ينفك الموقف عن طبقة من الأبدال والأوتاد وطبقة من الصالحين وأرباب القلوب . فاذا اجتمعت هممهم وتجردت للضراعة والابتهال قلوبهم وارتفعت إلى الله سبحانه أيديهم وامتدت إلى أعناقهم وشخصت نحو السماء أبصارهم مجتمعين بهمة واحدة على طلب الرحمة فلا تظنن أنه يخيب أملهم ويضيع سعيهم ويدخر عنهم رحمة تغمرهم . ولذلك قيل : إن من أعظم الذنوب أن يحضر عرفات ويظن أن الله تعالى لم يغفر له . كأن اجتماع الهمم والاستظهار بمجاورة الأبدال والأوتاد المجتمعين من أقطار البلاد هو سر الحج وغاية مقصوده فلا طريق إلى استدرار رحمة الله سبحانه مثل اجتماع الهمم وتعاون القلوب فى وقت واحد على صعيد واحد .

وأما رمى الجمار : فاقصد به الانقياد للأمر إظهاراً للرق والعبودية وانتهاضا لمجرد الامتثال من غير حظ للعقل والنفس فيه . ثم اقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام حيث عرض له إبليس لعنه الله تعالى فى ذلك الموضع ليدخل على حجه شبهة أو يفتنه بمعصية فأمره الله عز وجل أن يرميه بالحجارة طرداً له وقطعاً لأمله . فان خطر لك : أن الشيطان عرض له وشاهده فلذلك رماه وأما أنا فليس يعرض لى الشيطان ؟ فاعلم أن هذا الخاطر من الشيطان وأنه الذى ألقاه فى قلبك ليفتر عزمك فى الرمى ويخيل إليك أنه فعل لافائدة فيه وأنه يضاهى اللعب فلم تشتغل به؟ فاطرده عن نفسك بالجد والتشمير فى الرمى فيه برغم أنف الشيطان . واعلم أنك فى الظاهر ترمى الحصى إلى العقبة وفى الحقيقة ترمى به وجه الشيطان وتقصم به ظهره إذ لايحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى تعظيما له بمجرد الأمر من غير حظ للنفس والعقل فيه .

وأما ذبح الهدى : فاعلم أنه تقرب إلى الله تعالى بحكم الامتثال فأكمل الهدى وارج أن يعتق الله بكل جزء منه جزءاً منك من النار (١) فهكذا ورد الوعد . فكلما كان الهدى أكبر وأجزاؤه أوفر كان فداؤك من النار أعم .

وأما زيارة المدينة : فاذا وقع بصرك على حيطانها فتذكر انها البلدة التى اختارها الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم وجعل إليها هجرته وانها داره التى شرع فيها فرائض ربه عز وجل وسنته وجاهد عدوه وأظهر بها دينه إلى أن

---

(١) « أنه يعتق بكل جزء من الأضحية جزءاً من المضحى من النار » لم أقف له على أصل وفى كتاب الضحايا لأبى الشيخ من حديث أبى سعيد « فإن لك بأول قطرة تقطر من دمها أن يغفر ذلك ما تقدم من نوبك » يقوله لفاطمة وإسناده ضعيف .

يوفاه الله عز وجل . ثم جعل تربته فيها وتربة وزيريه القائمين بالحق بعده رضى الله عنهما . ثم مثل فى نفسك مواقع أقدام رسول الله صلى الله عليه وسلم عند تردداته فيها وأنه مامن موضع قدم تطؤه إلا وهو موضع أقدامه العزيزة فلا تضع قدمك عليه إلا عن سكينة ووجل . وتذكر مشيه وتخطيه فى سككها وتصور خشوعه وسكينته فى المشى وما استودع الله سبحانه قلبه من عظيم معرفته ورفعة ذكره مع ذكره تعالى حتى قرنه بذكر نفسه وإحباطه عمل من هتك حرمته ولو برفع صوته فوق صوته . ثم تذكر ما من الله تعالى به على الذين أدركوا صحبته وسعدوا بمشاهدته واستماع كلامه وأعظم تأسفك على مافاتك من صحبته وصحبة أصحابه رضى الله عنهم . ثم اذكر أنك قد فاتتك رؤيته فى الدنيا وإنك من رؤيته فى الآخرة على خطر ، وأنك ربما لا تراه إلا بحسرة وقد حيل بينك وبين قبوله إياك بسوء عملك كما قال صلى الله عليه وسلم « يرفع الله إلى أقواما فيقولون يا محمد يا محمد فأقول يارب أصحابى فيقول إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك فأقول بعداً وسحقاً [(١)] » فإن تركت حرمة شريعته ولو فى دقيقة من الدقائق فلا تأمن أن يحال بينك وبينه بعدولك عن محجته . وليعظم مع ذلك رجاؤك أن لا يحول الله تعالى بينك وبينه بعد أن رزقك الإيمان وأشخصك من وطنك لأجل زيارته من غير تجارة ولاحظ فى دنيا بل لمحض حبك له وشوقك إلى أن تنظر إلى آثاره وإلى حائط قبره ؛ إذ سمحت نفسك بالسفر بمجرد ذلك لما فاتك رؤيته فما أجدرك بأن ينظر الله تعالى إليك بعين الرحمة . فإذا بلغت المسجد فاذكر أنها العرصة التى اختارها الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم ولأول المسلمين وأفضلهم عصابة . وأن فرائض الله سبحانه أول ما أقيمت فى تلك العرصة . وأنها جمعت أفضل خلق الله حياً وميتاً فليعظم أملك فى الله سبحانه أن يرحمك بدخولك إياه فادخله خاشعاً معظماً . وما أجدر هذا المكان بأن يستدعى الخشوع من قلب مؤمن كما حكى عن أبى سليمان أنه قال : حج أويس القرنى رضى الله عنه ودخل المدينة فلما وقف على باب المسجد قيل له : هذا قبر النبى صلى الله عليه وسلم فغشى عليه . فلما أفاق قال : اخرجونى فليس يلذ لى بلد فيه محمد صلى الله عليه وسلم مدفون .

وأما زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم : فينبغى أن تقف بين يديه كما وصفنا وتزوره ميتا كما تزوره حيا ولا تقرب من قبره إلا كما كنت تقرب من شخصه الكريم لو كان حيا . وكما كنت ترى الحرمة فى أن لا تمس شخصه ولا تقبله بل تقف من بعد ماثلا بين يديه فكذلك فافعل فإن المس والتقبيل للمشاهد عادة النصارى واليهود . واعلم أنه عالم بحضورك وقيامك وزيارتك وأنه يبلغه سلامك وصلاتك . فمثل صورته الكريمة فى خيالك موضوعا فى اللحد بإزائك وأحضر عظيم رتبته فى قلبك فقد روى عنه صلى الله عليه وسلم « أن الله تعالى وكل بقبره ملكا يبلغه سلام من سلم عليه من أمته [(٢)] » هذا فى حق من لم يحضر قبره فكيف بمن فارق الوطن وقطع البوادى شوقا إلى لقائه واكتفى بمشاهدة مشهده الكريم إذ فاته مشاهدة غرته الكريمة ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم « من صلى على مرة واحدة صلى الله عليه عشراً [(٣)] » فهذا جزاؤه فى الصلاة عليه بلسانه فكيف بالحضور لزيارته ببدنه ؟ ثم ائت منبر الرسول صلى الله عليه وسلم وتوهم صعود النبى صلى الله عليه وسلم المنبر ومثل فى قلبك طلعته البهية كأنها على المنبر وقد أحدق به المهاجرون والأنصار رضى الله عنهم وهو صلى الله عليه وسلم يحثهم على طاعة الله عز وجل بخطبته

---

(١) « يرفع إلى أقوام فيقولون يامحمد يامحمد فأقول يارب أصحابى فيقول إنك لاتدرى ما أحدثوا بعدك فأقول بعدا وسحقا » متفق عليه من حديث ابن مسعود وأنس وغيرهما دون قوله « يامحمد يامحمد » .

(٢) « إن الله وكل بقبره صلى الله عليه وسلم ملكا يبلغه سلام من سلم عليه من أمته » أخرجه النسائى وابن حبان والحاكم من حديث ابن مسعود بلفظ « إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغونى عن أمتى السلام » .

(٣) « من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشرا » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وعبد الله بن عمرو .

وسل الله عز وجل أن لا يفرق فى القيامة بينك وبينه فهذه وظيفة القلب فى أعمال الحج . فإذا فرغ منها كلها فينبغى أن يلزم قلبه الحزن والهم والخوف وأنه ليس يدرى أقبل منه حجه وأثبت فى زمرة المحبوبين أم رد حجه وألحق بالمطرودين ؟ وليتعرف ذلك من قلبه وأعماله فإن صادف قلبه قد ازداد تجافيا عن دار الغرور وانصرافا إلى دار الأنس بالله تعالى ووجد أعماله قد اتزنت بميزان الشرع فليثق بالقبول فإن الله تعالى لا يقبل إلا من أحبه ، ومن أحبه تولاه وأظهر عليه آثار محبته وكف عنه سطوة عدوه إبليس لعنه الله . فإذا ظهر ذلك عليه دل على القبول ، وإن كان الأمر بخلافه فيوشك أن يكون حظه من سفره : العناء والتعب نعوذ بالله سبحانه وتعالى من ذلك .

تم كتاب : أسرار الحج . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب آداب تلاوة القرآن .

كتاب آداب تلاوة القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى امتن على عباده بنبيه المرسل صلى الله عليه وسلم وكتابه المنزل ﴿ الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ حتى اتسع على أهل الأفكار طريق الاعتبار بما فيه من القصص والأخبار واتضح به سلوك المنهج القويم والصراط المستقيم بما فصل فيه من الأحكام ، وفرق بين الحلال والحرام فهو الضياء والنور وبه النجاة من الغرور وفيه شفاء لما فى الصدور . ومن خالفه من الجبابرة قصمه الله ومن ابتغى العلم فى غيره أضله الله . هو حبل الله المتين ونوره المبين والعروة الوثقى والمعتصم الأوفى وهو المحيط بالقليل والكثير والصغير والكبير . لا تنقضى عجائبه ولا تتناهى غرائبه لا يحيط بفوائده عند أهل العلم تحديد ولا يخلقه عند أهل التلاوة كثرة الترديد . هو الذى أرشد الأولين والآخرين ولما سمعه الجن لم يلبثوا أن ولوا إلى قومهم منذرين ﴿ فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ﴾ فكل من آمن به فقد وفق ومن قال به فقد صدق ومن تمسك به فقد هدى ومن عمل به فقد فاز وقال تعالى ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ ومن أسباب حفظه فى القلوب والمصاحف استدامة تلاوته والمواظبة على دراسته مع القيام بآدابه وشروطه والمحافظة على ما فيه من الأعمال الباطنة والآداب الظاهرة . وذلك لا بد من بيانه وتفصيله وتنكشف مقاصده فى أربعة أبواب :

(الباب الأول) فى فضل القرآن وأهله .

(الباب الثانى) فى آداب التلاوة فى الظاهر .

(الباب الثالث) فى الأعمال الباطنة عند التلاوة .

(الباب الرابع) فى فهم القرآن وتفسيره بالرأى وغيره .

الباب الأول : فى فضل القرآن وأهله وذم المقصرين فى تلاوته

فضيلة القرآن

قال صلى الله عليه وسلم « من قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتى أفضل مما أوتى فقد استصغر ما عظمه الله

تعالى (١) » وقال ﷺ « ما من شفيع أفضل منزلة عند الله تعالى من القرآن لا نبي ولا ملك ولا غيره (٢) » وقال ﷺ « لو كان القرآن في إهاب ما مسته النار(٣) » وقال « أفضل عبادة أمتي تلاوة القرآن(٤) » وقال ﷺ « إن الله عز وجل قرأ طه ويس قبل أن يخلق الخلق بألف عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالت : طوبى لأمة ينزل عليهم هذا وطوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى لألسنة تنطق بهذا (٥) » وقال ﷺ « خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٦) » وقال ﷺ « يقول الله تبارك وتعالى من شغله قراءة القرآن عن دعائي ومسألتي أعطيته أفضل ثواب الشاكرين(٧) » وقال ﷺ « ثلاثة يوم القيامة على كثيب من مسك أسود لا يهولهم فزع ولا ينالهم حساب حتى يفرغ ما بين الناس : رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله عز وجل ورجل أم به قوماً وهم به راضون (٨) » وقال ﷺ « أهل القرآن أهل الله وخاصته(٩) » وقال ﷺ « إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد فقيل يارسول الله وما جلاؤها ؟ فقال : تلاوة القرآن وذكر الموت (١٠) » وقال ﷺ « لله أشد أذناً إلى قارىء القرآن من صاحب القينة إلى قينته (١١) »

الآثار : قال أبو أمامة الباهلي : اقرءوا القرآن ولا تغرنكم هذه المصاحف المعلقة فإن الله لا يعذب قلباً هو وعاء للقرآن . وقال ابن مسعود : إذا أردتم العلم فانثروا القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين . وقال أيضاً : اقرؤا القرآن فإنكم تؤجرون عليه بكل حرف منه عشر حسنات أما إني لا أقول : الحرف الم ولكن الألف حرف واللام حرف والميم حرف . وقال أيضاً لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن فإن كان يحب القرآن ويعجبه فهو يحب الله ورسوله ﷺ وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله سبحانه ورسوله ﷺ . وقال عمرو بن العاص : كل آية في القرآن درجة في الجنة ومصباح في بيوتكم وقال أيضاً : من قرأ القرآن فقد أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يوحى إليه . وقال أبو هريرة : إن البيت الذي يتلى فيه القرآن اتسع بأهله وكثرة خيره وحضرته الملائكة وخرجت منه

كتاب آداب تلاوة القرآن

الباب الأول في فضل القرآن وأهله

(١) « من قرأ القرآن ثم رأى أحدا أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ماعظمه الله » أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن عمر بسند ضعيف (٢) « مامن شفيع أعظم منزلة عند الله من القرآن لانبي ولا ملك ولا غيره » رواه عبد الملك بن حبيب من رواية سعيد بن سليم مرسلا وللطبراني من كلام ابن مسعود « القرآن شافع مشفع » ولمسلم من كلام أبي أمامة «اقرءوا القرآن فإنه يجيء يوم القيامة شفيعا لصاحبه» . (٣) « لو كان القرآن في إهاب مامسته النار » أخرجه الطبراني وابن حبان في الضعفاء من حديث سهل بن سعد ولأحمد والدارمي والطبراني من حديث عقبة بن عامر وفيه لهيعة ورواه ابن عدي والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عصمة بن مالك بسند ضعيف (٤) « أفضل عبادة أمتي تلاوة القرآن » أخرجه ابو نعيم في فضائل القرآن من حديث النعمان بن بشير وأنس وإسنادهما ضعيف

(٥) « إن الله عز وجل قرأ طه ويس قبل أن يخلق الخلق بألف عام ... » أخرجه الدارمي من حديث أبي هريرة بسند ضعيف (٦) « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » أخرجه البخاري من حديث عثمان بن عفان (٧) « يقول من شغله قراءة القرآن عن دعائي ومسئلتي أعطيه ثواب الشاكرين » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد « من شغله عن ذكري أو مسئلتي أعطيه أفضل ماأعطي السائلين» وقال حسن غريب ورواه ابن شاهين بلفظ المصنف (٨) «ثلاثة يوم القيامة على كثيب من مسك ... » تقدم في الصلاة . (٩) « أهل القرآن أهل الله وخاصته » أخرجه النسائي في الكبرى وابن ماجه من حديث أنس بإسناد حسن . (١٠) « إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد قيل ماجلاؤه قال تلاوة القرآن وذكر الموت » أخرجه البيهقي من حديث ابن عمر بسند ضعيف (١١) « لله أشد أذنا إلى قارىء القرآن من صاحب القينة إلى قينته » أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث فضالة بن عبيد .

الشياطين ، وإن البيت الذى لايتلى فيه كتاب الله عز وجل : ضاق بأهله وقل خيره وخرجت منه الملائكة وحضرته الشياطين . وقال أحمد بن حنبل : رأيت الله عز وجل فى المنام فقلت : يا رب ما أفضل ما تقرب به المتقربون إليك قال : بكلامى يا أحمد ، قال قلت : يارب بفهم أو بغير فهم ؟ قال : بفهم وبغير فهم . وقال محمد بن كعب القرظى: إذا سمع الناس القرآن من الله عز وجل يوم القيامة فكأنهم لم يسمعوه قط . وقال الفضيل بن عياض : ينبغى لحامل القرآن أن لا يكون له إلى أحد حاجة ولا إلى الخلفاء فمن دونهم فينبغى أن تكون حوائج الخلق إليه . وقال أيضاً : حامل القرآن حامل راية الإسلام فلا ينبغى أن يلهو مع من يلهو ولا يسهو مع من يسهو ولا يلغو مع من يلغو تعظيما لحق القرآن وقال سفيان الثورى : إذا قرأ الرجل القرآن قبل الملك ما بين عينيه . وقال عمرو بن ميمون : من نشر مصحفاً حين يصلى الصبح فقرأ منه مائة آية رفع الله عز وجل له مثل عمل جميع أهل الدنيا . وروى أن خالد بن عقبة جاء إلى رسول الله ﷺ وقال : اقرأ على القرآن ، فقرأ عليه ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ﴾ الآية ، فقال له : أعد ، فقال : والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمورق وإن أعلاه لمثمر ، وما يقول هذا بشر [١] » وقال الحسن : والله ما دون القرآن من غنى ولا بعده من فاقة . وقال الفضيل : من قرأ خاتمة الحشر حين يصبح ثم مات من يومه ختم له بطابع الشهداء ومن قرأها حين يمسى ثم مات ختم له بطابع الشهداء وقال القاسم بن عبد الرحمن : قلت لبعض النساك : ما ههنا أحد نستأنس به ؟ فمد يده إلى المصحف فوضعه على حجره قائلا : هذا وقال على بن ابى طالب رضى الله عنه : ثلاث يزدن فى الحفظ ويذهبن البلغم ، السواك والصيام وقراءة القرآن .

فى ذم تلاوة الغافلين

قال أنس بن مالك : رب تال للقرآن والقرآن يلعنه وقال ميسرة : الغريب هو القرآن فى جوف الفاجر وقال أبو سليمان الدارانى : الزبانية أسرع إلى حملة القرآن الذين يعصون الله عز وجل منهم إلى عبدة الأوثان حين عصوا الله تعالى بعد القرآن وقال بعض العلماء : إذا قرأ ابن آدم القرآن ثم خلط ثم عاد فقرأ قيل له : مالك ولكلامى وقال ابن الرماح ندمت على استظهارى القرآن لأنه بلغنى أن أصحاب القرآن يسألون عما يسأل عنه الأنبياء يوم القيامة . وقال ابن مسعود ينبغى لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس ينامون وبنهاره إذا الناس يفرطون وبحزنه إذا الناس يفرحون وببكائه إذا الناس يضحكون وبصمته إذا الناس يخوضون وبخشوعه إذا الناس يختالون . وينبغى لحامل القرآن أن يكون مستكيناً ليناً وليس له أن يكون جافياً ولا مماريا ولا صياحاً ولا صخاباً ولا حديداً . وقال صلى الله عليه وسلم « أكثر منافقى هذه الأمة قراؤها [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « إقرإ القرآن ما نهاك فإن لم ينهك فلست تقرؤه [٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « ما آمن بالقرآن من استحل محارمه [٤] » وقال بعض السلف

---

(١) «أن خالد بن عقبة جاء إلى رسول الله صلى عليه وسلم وقال اقرأ على فقرأ عليه ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى﴾ فقال أعد فأعاد فقال : إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر ومايقول هذا بشر » ذكره ابن عبد البر فى الاستيعاب بغير إسناد ورواه البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بسند جيد إلا أنه قال « الوليد بن المغيرة » بدل « خالد بن عقبة » وكذا ذكره ابن إسحق فى السيرة بنحوه (٢) « أكثر منافقى أمتى قراءها » أخرجه أحمد من حديث عقبة بن عامر وعبد الله بن عمر وفيهما ابن لهيعة (٣) « اقرأ القرآن ما نهاك فإن لم ينهك فلست تقرؤه » أخرجه الطبرانى من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف (٤) « ما آمن بالقرآن من استحل محارمه » أخرجه الترمذى من حديث صهيب وقال ليس إسناده بالقوى .

إن العبد ليفتتح سورة فتصلي عليه الملائكة حتى يفرغ منها ، وإن العبد ليفتتح سورة فتلعنه حتى يفرغ منها ، فقيل له وكيف ذلك ؟ فقال : إذا أحل حلالها وحرم حرامها صلت عليه وإلا لعنته . وقال بعض العلماء : إن العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهو لا يعلم يقول ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ وهو ظالم نفسه ﴿ألا لعنة الله على الكاذبين ﴾ وهو منهم وقال الحسن : إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل وجعلتم الليل جملا فأنتم تركبونه فتقطعون به مراحله ، وإن من كان قبلكم رأوه رسائل من ربهم فكانو يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار . وقال ابن مسعود أنزل القرآن عليهم ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملا إن أحدكم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته مايسقط منه حرفا وقد أسقط العمل به . وفى حديث ابن عمر وحديث جندب رضى الله عنهما : لقد عشنا دهرا طويلا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن فتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها وآمرها وزاجرها وما ينبغى أن يقف عنده منها ، ثم لقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لايدرى ما آمره ولا زاجره ولا ما ينبغى أن يقف عنده منه ينثره نثر الدقل[١] وقد ورد فى التوراة : يا عبدى أما تستحى منى يأتيك كتاب من بعض إخوانك وأنت فى الطريق تمشى فتعدل عن الطريق وتقعد لأجله وتقرؤه وتتدبره حرفا حرفا حتى لا يفوتك شيء منه ، وهذا كتابى أنزلته إليك انظر كم فصلت لك من القول وكم كررت عليك فيه لتتأمل طوله وعرضه ثم أنت معرض عنه أفكنت أهون عليك من بعض إخوانك ؟ يا عبدى يقعد إليك بعض إخوانك فتقبل عليه بكل وجهك وتصغى إلى حديثه بكل قلبك فإن تكلم متكلم أو شغلك شاغل عن حديثه أومأت إليه أن كف وها أنا ذا مقبل عليك ومحدث لك وأنت معرض بقلبك عنى أفجعلتنى أهون عندك من بعض إخوانك ؟

الباب الثانى : فى ظاهر آداب التلاوة وهى عشرة

(الأول) فى حال القارىء : وهو أن يكون على الوضوء واقفا على هيئة الأدب والسكون إما قائما وإما جالسا مستقبل القبلة مطرقا رأسه غير متربع ولا متكىء ولا جالس على هيئة التكبر ، ويكون جلوسه وحده كجلوسه بين يدى أستاذه . وأفضل الأحوال أن يقرأ فى الصلاة قائما وأن يكون فى المسجد فذلك من أفضل الأعمال . فإن قرأ على غير وضوء وكان مضطجعا فى الفراش فله أيضا فضل ولكنه دون ذلك . قال الله تعالى ﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ﴾ فأثنى على الكل ولكن قدم القيام فى الذكر ثم القعود ثم الذكر مضطجعا . قال على رضى الله عنه من قرأ القرآن وهو قائم فى الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة ومن قرأه وهو جالس فى الصلاة فله بكل حرف خمسون حسنة . ومن قرأ فى غير صلاة وهو على وضوء فخمس وعشرون حسنة . ومن قرأه على غير وضوء فعشر حسنات . وما كان من القيام بالليل فهو أفضل لأنه أفرغ للقلب قال أبو ذر الغفارى رضى الله عنه : إن كثرة السجود بالنهار وإن طول القيام بالليل أفضل (الثانى) فى مقدار القراءة : وللقراء عادات مختلفة فى الاستكثار والاختصار فمنهم من يختم القرآن فى اليوم والليلة مرة وبعضهم مرتين وانتهى بعضهم إلى ثلاث ومنهم من يختم فى الشهر مرة وأولى ما يرجع إليه فى التقديرات قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث لم يفقهه [٢] » وذلك لأن الزيادة عليه تمنعه الترتيل . وقد قالت عائشة رضى الله عنها — لما سمعت رجلا يهذر القرآن هذرا — « إن هذا ماقرأ القرآن ولا سكت » وأمر النبى صلى الله

---

(١) حديث ابن عمر وحديث « لقد عشنا دهرا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن ... » تقدما فى العلم .

الباب الثانى فى ظاهر آداب التلاوة

(٢) «من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث لم يفقهه» أخرجه أصحاب السنن من حديث عبد الله بن عمر وصححه الترمذى .

عليه وسلم عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ان يختم القرآن فى كل سبع [١] وكذلك كان جماعة من الصحابة رضى الله عنهم يختمون القرآن فى كل جمعة كعثمان وزيد بن ثابت وابن مسعود وأبى بن كعب رضى الله عنهم ففى الختم أربع درجات : الختم فى يوم و ليلة وقد كرهه جماعة والختم فى كل شهر كل يوم جزء من ثلاثين جزءا ـ وكأنه مبالغة فى الاقتصار كما أن الأول مبالغة فى الاستكثار ـ وبينهما درجتان معتدلتان إحداهما فى الأسبوع مرة والثانية فى الأسبوع مرتين تقريبا من الثلاث والأحب أن يختم ختمة بالليل وختمة بالنهار ، ويجعل ختمة بالنهار يوم الاثنين فى ركعتى الفجر أو بعدهما ، ويجعل ختمة بالليل ليلة الجمعة فى ركعتى المغرب أو بعدهما ، ليستقبل أول النهار وأول الليل بختمته . فإن الملائكة عليهم السلام تصلى عليه إن كانت ختمته ليلا حتى يصبح وإن كان نهارا حتى يمسى فتشمل بركتهما جميع الليل والنهار والتفصيل فى مقدار القراءة أنه إن كان من العابدين السالكين طريق العمل فلا ينبغى أن ينقص عن ختمتين فى الأسبوع . وإن كان من السالكين بأعمال القلب وضروب الفكر أو من المشتغلين بنشر العلم فلا بأس أن يقتصر فى الأسبوع على مرة : وإن كان نافذ الفكر فى معانى القرآن فقد يكتفى فى الشهر بمرة لكثرة حاجته إلى كثرة الترديد والتأمل .

(الثالث) فى وجه القسمة : أما من ختم فى الأسبوع مرة فيقسم القرآن سبعة أحزاب فقد حزب الصحابة رضى الله عنهم القرآن أحزابا [٢] فروى أن عثمان رضى الله عنه كان يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة ، وليلة السبت بالأنعام إلى هود ، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم ، وليلة الاثنين بطه إلى طسم ، موسى وفرعون ، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص ، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن ، ويختم ليلة الخميس . وابن مسعود كان يقسمه أقساما لا على هذا الترتيب وقيل أحزاب القرآن سبعة فالحزب الأول ثلاث سور والحزب الثانى خمس سور والحزب الثالث سبع سور والرابع تسع سور والخامس إحدى عشرة سورة والسادس ثلاث عشر سورة والسابع المفصل من ق إلى آخره فهكذا حزبه الصحابة رضى الله عنهم وكانوا يقرءونه كذلك ، وفيه خبر عن رسول الله ﷺ وهذا قبل أن تعمل الأخماس والأعشار والأجزاء فما سوى هذا محدث .

(الرابع) فى الكتابة : يستحب تحسين كتابة القرآن وتبيينه ولا بأس بالنقط والعلامات بالحمرة وغيرها فإنها تزيين وتبيين وصد عن الخطأ واللحن لمن يقرؤه ، وقد كان الحسن وابن سيرين ينكرون الأخماس والعواشر والأجزاء . وروى عن الشعبى وإبراهيم كراهية النقط بالحمرة وأخذ الأجرة على ذلك ، وكانوا يقولون جردوا القرآن . والظن بهؤلاء أنهم كرهوا فتح هذا الباب خوفا من أن يؤدى إلى إحداث زيادات وحسما للباب وتشوقا إلى حراسة القرآن عما يطرق إليه تغييرا . وإذا لم يؤد إلى محظور واستقر أمر الأمة فيه على ما يحصل به مزيد معرفة فلا بأس به . ولا يمنع من ذلك كونه محدثا فكم من محدث حسن كما قيل فى إقامة الجماعات فى التراويح أنها من محدثات عمر رضى الله عنه وأنها بدعة حسنة . إنما البدعة المذمومة ما يصادم السنة القديمة أو يكاد يفضى إلى تغييرها . وبعضهم كان يقول : أقرأ من المصحف فى المنقوط ولا أنقطه بنفسى . وقال الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير : كان القرآن مجردا فى المصاحف فأول ما أحدثوا فيه النقط على الباء والتاء قالوا

---

(١) « أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمرو أن يختم القرآن فى كل أسبوع » متفق عليه من حديثه

(٢) « تحزيب القرآن على سبعة أجزاء » أخرجه ابن ماجه من حديث أوس بن حذيفة فى حديث فيه « طرأ على حزبى من القرآن » قال أوس فسألت أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا : ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة وحزب المفصل ، وفى رواية للطبرانى فسألنا اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يجزئ القرآن؟ فقالوا : كان يجزئه ثلاثا . فذكره مرفوعا وإسناده حسن.

لا بأس به فإنه نور له . ثم أحدثوا بعده نقطاً كباراً عند منتهى الآى فقالوا : لا بأس به يعرف به رأس الآية . ثم أحدثوا بعد ذلك الخواتم والفواتح . قال أبو بكر الهذلى : سألت الحسن عن تنقيط المصاحف بالأحمر فقال : وما تنقيطها ؟ قلت : يعربون الكلمة بالعربية قال : أما إعراب القرآن فلا بأس به . وقال خالد الحذاء : دخلت على ابن سيرين فرأيته يقرأ فى مصحف منقوط وقد كان يكره النقط . وقيل : إن الحجاج هو الذى أحدث ذلك وأحضر القراء حتى عدو كلمات القرآن وحروفه وسووا أجزاءه وقسموه إلى ثلاثين جزءاً وإلى أقسام أخر .

(الخامس) الترتيل : هو المستحب فى هيئة القرآن لأنا سنبين أن المقصود من القراءة التفكر والترتيل معين عليه . ولذلك نعتت أم سلمة رضى الله عنها قراءة ﷺ فإذا هى تنعت قراءة مفسرة حرفا حرفا (١) » وقال ابن عباس رضى الله عنه : لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلهما وأتدبرهما أحب إلى من أن أقرأ القرآن كله هذرمة . وقال أيضاً : لأن أقرأ إذا زلزلت والقارعة أتدبرهما أحب إلى من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهذيراً . وسئل مجاهد عن رجلين دخلا فى الصلاة فكان قيامها واحداً إلا أن أحدهما قرأ البقرة فقط والآخر القرآن كله فقال : هما فى الأجر سواء . واعلم أن الترتيل مستحب لا لمجرد التدبر فإن العجمى الذى لا يفهم معنى القرآن يستحب له فى القراءة أيضاً الترتيل والتؤدة لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام وأشد تأثيراً فى القلب من الهذرمة والاستعجال .

(السادس) البكاء : البكاء مستحب مع القراءة قال رسول الله ﷺ : « اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا (٢) » وقال ﷺ « ليس منا من لم يتغن بالقرآن (٣) » وقال صالح المرى : قرأت القرآن على رسول الله ﷺ فى المنام فقال لى يا صالح هذه القراءة فأين البكاء ؟ وقال ابن عباس رضى الله عنهما : إذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه وإنما طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن فمن الحزن ينشأ البكاء . قال ﷺ « إن القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فتحازنوا (٤) » ووجه إحضار الحزن أن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود . يتأمل تقصيره فى أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكى فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن فإن ذلك أعظم المصائب .

(السابع) أن يراعى حق الآيات : فإذا مر بآية سجدة سجد ، وكذلك إذا سمع من غيره سجدة سجد إذا سجد التالى ولا يسجد إلا إذا كان على طهارة . وفى القرآن أربع عشرة سجدة : فى الحج سجدتان وليس فى ص سجدة ، وأقله أن يسجد بوضع جبهته على الأرض وأكمله أن يكبر فيسجد ويدعو فى سجوده بما يليق بالآية التى قرأها مثل أن يقرأ قوله تعالى ﴿ خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ﴾ فيقول « اللهم اجعلنى من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك او على اوليائك » وإذا قرأ قوله تعالى ﴿ ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا ﴾ فيقول « اللهم اجعلنى من الباكين إليك الخاشعين لك ، وكذلك كل سجدة . ويشترط فى هذه السجدة شروط الصلاة من ستر العورة واستقبال القبلة وطهارة الثوب والبدن من الحدث والخبث ، ومن لم يكن على طهارة عند السماع فإذا تطهر يسجد ، وقد قيل فى كمالها ان يكبر رافعاً يديه لتحريمه ثم يكبر للهوى للسجود ثم يكبر للارتفاع ثم يسلم . وزاد زائدون التشهد . ولا أصل لهذا إلا القياس على سجود الصلاة وهو

---

(١) « نعتت أم سلمة قراءة النبى عليه الصلاة والسلام فإذا هى تنعت قراءة مفسرة حرفا حرفا » أخرجه أبو داود والنسائى والترمذى وقال حسن صحيح .

(٢) « اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا » أخرجه ابن ماجه من حديث سعد بن أبى وقاص بإسناد جيد

(٣) « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة .

(٤) « إن القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فتحازنوا » أخرجه أبو يعلى وأبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر بسند ضعيف .

بعيد فإنه ورد الأمر فى السجود فليتبع فيه الأمر وتكبيرة الهوى أقرب للبداية وما عدا ذلك ففيه بعد . ثم المأموم يجب أن يسجد عند سجود الإمام ولا يسجد لتلاوة نفسه إذا كان مأموما .

(الثامن) ان يقول فى مبتدإ قراءته : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ﴿ رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ وليقرأ قل اعوذ برب الناس وسورة الحمد لله وليقل عند فراغه من فراغه من القراءة : صدق الله تعالى وبلغ رسول الله ﷺ اللهم انفعنا به وبارك لنا فيه ، الحمد لله رب العالمين ، وأستغفر الله الحى القيوم . وفى أثناء القراءة إذا مر بآية تسبيح سبح وكبر ، وإذا مر بآية دعاء واستغفار دعا واستغفر ، وإذا مر بمرجو سأل ، وإن مر بمخوف استعاذ . يفعل ذلك بلسانه أو بقلبه فيقول : سبحان الله نعوذ بالله ، اللهم ارزقنا اللهم ارحمنا . قال حذيفة : صليت مع رسول الله ﷺ فابتدأ بسورة البقرة فكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل ولا بآية عذاب إلا استعاذ ولا بآية تنزيه إلا سبح[1] ، فإذا فرغ قال ما كان يقوله ﷺ عند ختم القرآن « اللهم ارحمنى بالقرآن واجعله لى إماما ونوراً وهدى ورحمة اللهم ذكرنى منه ما نسيت وعلمنى ما جهلت وارزقنى تلاوته آناء الليل وأطراف النهار واجعله لى حجة يا رب العالمين [2] » .

(التاسع) فى الجهر بالقراءة : لا شك فى انه لابد ان يجهر به إلى حد يسمع نفسه إذ القراءة عبارة عن تقطيع الصوت بالحروف ولا بد من صوت فأقله ما يسمع نفسه ، فإن لم يسمع نفسه لم تصح صلاته . فأما الجهر بحيث يسمع غيره فهو محبوب على وجه ، مكروه على آخر . ويدل على استحباب الإسرار ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية » وفى لفظ آخر « الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر به كالمسر بالصدقة[3] » وفى الخبر العام « يفضل عمل السر على عمل العلانية سبعين ضعفا [4] » وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « خير الرزق ما يكفى وخير الذكر الخفى[5] » وفى الخبر « لا يجهر بعضكم على بعض فى القراءة بين المغرب والعشاء[6] » وسمع سعيد بن المسيب ذات ليلة فى مسجد رسول الله ﷺ عمر بن عبد العزيز يجهر بالقراءة فى صلاته ـ وكان حسن الصوت ـ فقال لغلامه : اذهب إلى هذا المصلى فمره أن يخفض صوته ، فقال الغلام : إن المسجد ليس لنا وللرجل فيه نصيب ، فرفع سعيد صوته وقال : يا أيها المصلى إن كنت تريد الله عز وجل بصلاتك فاخفض صوتك وإن كنت تريد الناس فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا . فسكت عمر بن عبد العزيز وخفف ركعته فلما سلم أخذ نعليه وانصرف وهو يومئذ أمير المدينة . ويدل على استحباب الجهر ماروى أن النبى صلى الله عليه وسلم سمع جماعة من أصحابه يجهرون فى صلاة الليل فصوب ذلك[8] وقد قال صلى الله

---

(١) حديث حذيفة « كان لا يمر بآية عذاب إلا تعوذ ولا بآية رحمة إلا سأل ولا بآية تنزيه إلا سبح » أخرجه مسلم مع اختلاف لفظ . (٢) « كان عليه الصلاة والسلام يقول عند ختم القرآن اللهم ارحمنى بالقرآن واجعله لى إماما وهدى ورحمة اللهم ذكرنى منه ما نسيت وعلمنى منه ما جهلت وارزقنى تلاوته آناء الليل وأطراف النهار واجعله لى حجة يارب العالمين » رواه أبو منصور المظفر بن الحسين الأرجانى فى فضائل القرآن وأبو بكر بن الضحاك فى الشمائل كلاهما من طريق أبى ذر الهروى من رواية داود بن قيس مفصلا . (٣) « فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية » قال وفى لفظ آخر « الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة » أخرجه أبو داود والنسائى والترمذى وحسنه من حديث عقبة بن عامر باللفظ الثانى . (٤) « يفضل عمل السر على عمل العلانية بسبعين ضعفا » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث عائشة . (٥) « خير الرزق مايكفى وخير الذكر الخفى » أخرجه أحمد وابن حبان من حديث سعد بن أبى وقاص . (٦) « لا يجهر بعضكم على بعض فى القراءة بين المغرب والعشاء » رواه أبو داود من حديث البياضى دون قوله « بين المغرب والعشاء » والبيهقى فى الشعب من حديث على « قبل العشاء وبعدها » وفيه الحرث الأعور وهو ضعيف . (٧) « سمع أنه جماعة من الصحابة يجهرون فى صلاته الليل فصوب ذلك » ففى الصحيحين من حديث عائشة « أن رجلا قام من الليل فقرأ فرفع صوته بالقرآن فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام رحم الله فلانا . . . » ومن حديث أبى موسى قال قال رسول الله عليه الصلاة والسلام لو رأيتنى وأنا أسمع قراءتك البارحة =

عليه وسلم « إذا قام أحدكم من الليل يصلى فليجهر بالقراءة فإن الملائكة وعمار الدار يستمعون قراءته ويصلون بصلاته (١) » ومر صلى الله عليه وسلم بثلاثة من أصحابه رضى الله عنهم مختلفى الأحوال فمر على أبى بكر رضى الله عنه وهو يخافت فسأله عن ذلك فقال : إن الذى أناجيه هو يسمعنى . ومر على عمر رضى الله عنه وهو يجهر فسأله عن ذلك فقال : أوقظ الوسنان وأزجر الشيطان ومر على بلال وهو يقرأ آياً من هذه السورة وآياً من هذه السورة فسأله عن ذلك فقال : أخلط الطيب بالطيب . فقال صلى الله عليه وسلم : كلكم قد أحسن وأصاب (٢) . فالوجه فى الجمع بين هذه الأحاديث أن الإسرار أبعد عن الرياء والتصنع فهو أفضل فى حق من يخاف ذلك على نفسه فإن لم يخف ولم يكن فى الجهر ما يشوش الوقت على مصل آخر فالجهر أفضل لأن العمل فيه أكثر ، ولأن فائدته أيضاً تتعلق بغيره فالخير المتعدى أفضل من اللازم ، ولأنه يوقظ قلب القارىء ويجمع همه إلى الفكر فيه ويصرف إليه سمعه ، ولأنه يطرد النوم فى رفع الصوت ولأنه يزيد فى نشاطه للقراءة ويقلل من كسله ، ولأنه يرجو بجهره تيقظ نائم فيكون هو سبب إحيائه ، ولأنه قد يراه بطال غافل فينشط بسبب نشاطه ويشتاق إلى الخدمة . فمتى حضره شىء من هذه النيات فالجهر أفضل . وإن اجتمعت هذه النيات تضاعف الأجر وبكثرة النيات تزكو أعمال الأبرار وتتضاعف أجورهم فان كان فى العمل الواحد عشر نيات كان فيه عشر أجور . ولهذا نقول قراءة القرآن فى المصاحف أفضل إذ يزيد فى العمل النظر وتأمل المصحف وحمله فيزيد الأجر بسببه . وقد قيل الختمة فى المصحف بسبع لأن النظر فى المصحف أيضا عبادة : وخرق عثمان رضى الله عنه مصحفين لكثرة قراءته منهما فكان كثير من الصحابة يقرءون فى المصاحف ويكرهون أن يخرج يوم ولم ينظروا فى المصحف . ودخل بعض فقهاء مصر على الشافعى رضى الله عنه فى السحر وبين يديه مصحف فقال له الشافعى : شغلكم الفكر عن القرآن إنى لأصلى العتمة وأضع المصحف بين يدى فما أطبقه حتى أصبح (العاشر) تحسين القراءة وترتيلها بترديد الصوت من غير تمطيط مفرط يغير النظم فذلك سنة قال صلى الله عليه وسلم « زينوا القرآن بأصواتكم (٣) » وقال عليه السلام « ما أذن الله لشىء إذنه لحسن الصوت بالقرآن (٤) » وقال ﷺ « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » فقيل أراد به الاستغناء وقيل أراد به الترنم وترديد الألحان به وهو أقرب عند أهل اللغة . وروى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ليلة ينتظر عائشة رضى الله عنها فأبطأت عليه فقال صلى الله عليه وسلم : ماحبسك قالت : يارسول الله كنت أستمع قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتا منه ، فقام صلى الله عليه وسلم حتى استمع إليه طويلا ثم رجع فقال صلى الله عليه وسلم : هذا سالم مولى أبى حذيفة الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثله (٥) » واستمع صلى الله عليه وسلم أيضاً ذات ليلة إلى عبد الله بن مسعود ومعه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فوقفوا طويلا ثم قال

= الحديث » ومن حديثه أيضا « إنما أعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن ... » .

(١) « إذا قام أحدكم من الليل يصلى فليجهر بقراءته فإن الملائكة وعمار الدار يستمعون إلى قراءته ويصلون بصلاته » رواه بنحوه بزيادة فيه أبو بكر البزار ونصر المقدسى فى المواعظ وأبو شجاع من حديث معاذ بن جبل وهو حديث منكر منقطع . (٢) « مروره صلى الله عليه وسلم بأبى بكر وهو يخافت وبعمر وهو يجهر وببلال وهو يقرأ من هذه السورة ومن هذه السورة ... » تقدم فى الصلاة . (٣) « زينوا القرآن بأصواتكم » أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث البراء بن عازب . (٤) « ما أذن الله لشىء إذنه لحسن الصوت بالقرآن » متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ « ما أذن الله لشىء ما أذن لنبى يتغنى بالقرآن » زاد مسلم « لنبى حسن الصوت » وفى رواية له « كإذنه لنبى يتغنى بالقرآن » .

(٥) « كان ينتظر عائشة فأبطأت عليه فقال ماحبسك قالت يارسول الله كنت أسمع قراءة رجل ماسمعت أحسن صوتا منه فقام عليه الصلاة والسلام حتى استمع إليه طويلا ثم رجع فقال هذا سالم مولى أبى حذيفة الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثله » أخرجه أبو داود من حديث عائشة ورجال إسناده ثقات .

صلى الله عليه وسلم « من أراد أن يقرأ القرآن غضا طريا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد (١) » وقال صلى الله عليه وسلم لابن مسعود « اقرأ على فقال يارسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل فقال صلى الله عليه وسلم : إنى أحب أن أسمعه من غيرى فكان يقرأ وعينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تفيضان (٢) » واستمع صلى الله عليه وسلم إلى قراءة أبى موسى فقال « لقد أتى هذا من مزامير آل داود » فبلغ ذلك أبا موسى فقال : يارسول الله لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرا (٣) ورأى هيثم القارىء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام قال : فقال لى انت الهيثم الذى تزين القرآن بصوتك قلت نعم قال جزاك الله خيرا ، وفى الخبر : كان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا أمروا أحدهم أن يقرأ سورة من القرآن . وقد كان عمر يقول لأبى موسى رضى الله عنهما : ذكرنا ربنا فيقرأ عنده حتى يكاد وقت الصلاة ان يتوسط فيقال ياامير المؤمنين الصلاة الصلاة فيقول : أولسنا فى صلاة ؟ إشارة إلى قوله عز وجل ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « من استمع إلى آية من كتاب الله عز وجل كانت له نورا يوم القيامة (٤) » وفى الخبر : كتب له عشر حسنات . ومهما عظم أجر الاستماع وكان التالى هو السبب فيه كان شريكا فى الأجر إلا ان يكون قصده الرياء والتصنع .

الباب الثالث : فى أعمال الباطن فى التلاوة وهى عشرة

فهم أصل الكلام . ثم التعظيم . ثم حضور القلب . ثم التدبر . ثم التفهم . ثم التخلى عن موانع الفهم . ثم التخصيص . ثم التأثر . ثم الترقى . ثم التبرى .

(فالأول) فهم عظمة الكلام وعلوه وفضل الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه فى نزوله عن عرش جلاله إلى درجة إفهام خلقه . فلينظر كيف لطف بخلقه فى إيصال معانى كلامه الذى هو صفة قديمة قائمة بذاته إلى أفهام خلقه ؟ وكيف تجلت لهم تلك الصفة فى طى حروف واصوات هى صفات البشر إذ يعجز البشر عن الوصول إلى فهم صفات الله عز وجل إلا بوسيلة صفات نفسه . ولولا استتاركنه جلالة كلامه بكسوة الحروف لما ثبت لسماع الكلام عرش ولا ثرى ولتلاشى مابينهما من عظمة سلطانه وسبحات نوره . ولولا تثبيت الله عز وجل لموسى عليه السلام لما أطاق لسماع كلامه كما لم يطق الجبل مبادى تجليه حيث صار دكا ؛ ولا يمكن تفهيم عظمة الكلام إلا بأمثلة على حد فهم الخلق . ولهذا عبر بعض العارفين عنه فقال : إن كل حرف من كلام الله عز وجل فى اللوح المحفوظ اعظم من جبل قاف وان الملائكة عليهم السلام لو اجتمعت على الحرف الواحد أن يقلوه ما أطاقوه حتى يأتى اسرافيل عليه السلام وهو ملك اللوح فيرفعه فيقله بإذن الله عز وجل ورحمته لا بقوته وطاقته ولكن الله عز وجل طوقه ذلك واستعمله به ، ولقد تأنق بعض الحكماء فى التعبير عن وجه اللطف فى ايصال معانى الكلام مع علو درجته إلى فهم الإنسان وتثبيته مع قصور رتبته وضرب له مثلا لم يقصر فيه ؛ وذلك أنه دعا

---

(١) « استمع ذات ليلة إلى عبد الله بن مسعود ومعه أبو بكر وعمر فوقفوا طويلا ثم قال من أراد أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد » أخرجه أحمد والنسائى فى الكبرى من حديث عمر والترمذى وابن ماجه من حديث ابن مسعود «أن أبا بكر وعمر بشراه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أحب أن يقرأ القرآن...» قال الترمذى حسن صحيح . (٢) « أنه قال لابن مسعود : اقرأ فقال يارسول الله أقرأ وعليك أنزل فقال إنى أحب أن أسمعه من غيرى... » متفق عليه من حديث ابن مسعود . (٣) «استمع إلى قراءة أبى موسى فقال لقد أوتى هذا من مزامير آل داود » متفق عليه من حديث أبى موسى . (٤) « من استمع إلى آية من كتاب الله كانت له نوراً يوم القيامة » وفى الخبر « كتب له عشر حسنات » أخرجه أحمد من حديث أبى هريرة « من استمع إلى آية من كتاب الله كتب له حسنة مضاعفة ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة » وفيه ضعف وانقطاع .

بعض الملوك حكيم إلى شريعة الأنبياء عليهم السلام فسأله الملك عن أمور فأجاب بما لا يحتمله فهمه ؛ فقال الملك : أرأيت ما تأتى به الأنبياء إذا ادعت أنه ليس بكلام الناس وأنه كلام الله عز وجل فكيف يطيق الناس حمله؟ فقال الحكيم : إنا رأينا الناس لما أرادوا أن يفهموا بعض الدواب والطير ما يريدون من تقديمها وتأخيرها وإقبالها وإدبارها ورأوا الدواب يقصر تمييزها عن فهم كلامهم الصادر عن أنوار عقولهم مع حسنه وتزيينه وبديع نظمه ، فنزلوا إلى درجة تمييز البهائم وأوصلوا مقاصدهم إلى بواطن البهائم بأصوات يضعونها لائقة بهم من النقر والصفير والأصوات القريبة من أصواتها لكى يطيقوا حملها . وكذلك الناس يعجزون عن حمل كلام الله عز وجل بكنهه وكمال صفاته . فصاروا بما تراجعوا بينهم من الأصوات التى سمعوا بها الحكمة كصوت النقر والصفير الذى سمعت به الدواب من الناس . ولم يمنع ذلك معانى الحكمة المخبوءة فى تلك الصفات من أن شرف الكلام أى الأصوات لشرفها وعظم لتعظيمها فكان الصوت للحكمة جسداً ومسكناً والحكمة للصوت نفساً وروحا . فكما أن أجساد البشر تكرم وتعز لمكان الروح فكذلك أصوات الكلام تشرف للحكمة التى فيها . والكلام على المنزلة رفيع الدرجة قاهر السلطان نافذ الحكم فى الحق والباطل وهو القاضى العدل والشاهد المرتضى يأمر وينهى . ولا طاقة للباطل أن يقوم قدام الحكمة كما لا يستطيع الظل أن يقوم قدام شعاع الشمس ولا طاقة للبشر أن ينفذوا غور الحكمة كما لا طاقة لهم أن ينفذوا بأبصارهم ضوء عين الشمس ، ولكنهم ينالون من ضوء عين الشمس ما تحيا به أبصارهم ويستدلون به على حوائجهم فقط . فالكلام كالملك المحجوب الغائب وجهه النافذ أمره وكالشمس الغزيرة الظاهرة مكنون عنصرها وكالنجوم الزاهرة التى قد يهتدى بها من لا يقف على سيرها فهو مفتاح الخزائن النفيسة وشراب الحياة الذى من شرب منه لم يمت ودواء الأسقام الذى من سقى منه لم يسقم ، فهذا الذى ذكره الحكيم نبذة من تفهم معنى الكلام والزيادة عليه لا تليق بعلم المعاملة فينبغى أن يقتصر عليه .

(الثانى) التعظيم للمتكلم : فالقارىء عند البداية بتلاوة القرآن ينبغى أن يحضر فى قلبه عظمة المتكلم ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر وأن فى تلاوة كلام الله عز وجل غاية الخطر فإنه تعالى قال ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ وكما أن ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلا إذا كان متطهراً ، فباطن معناه أيضاً بحكم عزه وجلاله محجوب عن باطن القلب إلا إذا كان متطهراً عن كل رجس ومستنيراً بنور التعظيم والتوقير . وكما لا يصلح لمس جلد المصحف كل يد فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ولا لنيل معانيه كل قلب . ولمثل هذا التعظيم كان عكرمة ابن أبى جهل إذا نشر المصحف غشى عليه ويقول : هو كلام ربى هو كلام ربى ؛ فتعظيم الكلام تعظيم المتكلم ولن تحضره عظمة المتكلم ما لم يتفكر فى صفاته وجلاله وأفعاله . فإذا حضر بباله العرش والكرسى والسموات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار ؛ وعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد ، وأن الكل فى قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته وبين نقمته وسطوته إن أنعم فبفضله وإن عاقب فبعدله ، وأنه الذى يقول هؤلاء إلى الجنة ولا أبالى وهؤلاء إلى النار ولا أبالى وهذا غاية العظمة والتعالى . فبالتفكير فى أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم ثم تعظيم الكلام .

(الثالث) حضور القلب وترك حديث النفس : قيل فى تفسير ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ أى بجد واجتهاد وأخذه بالجد أن يكون متجرداً له عند قراءته منصرف الهمة إليه عن غيره . وقيل لبعضهم : إذا قرأت القرآن تحدث نفسك بشىء ؟ فقال أوشىء أحب إلى من القرآن حتى أحدث به نفسى ! وكان بعض السلف إذا قرأ آية لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية وهذه الصفة تتولد عما قبلها من التعظيم للكلام الذى يتلوه يستبشر به ويستأنس ولا يغفل عنه . ففى القرآن ما يستأنس به القلب إن كان التالى أهلا له فكيف يطلب الأنس بالفكر فى غيره وهو فى متنزه ومتفرج

والذى يتفرج فى المتنزهات لايتفكر فى غيرها ؟ فقد قيل إن فى القرآن ميادين و بساتين ومقاصير وعرائس وديا بيج ورياضاً وخانات فالميمات ميادين القرآن والراءات بساتين القرآن والحاءات مقاصيره والمسبحات عرائس القرآن والحاميمات ديا بيج القرآن والمفصل رياضه والخانات ماسوى ذلك فإذا دخل القارىء الميادين وقطف من البساتين ودخل المقاصير وشهد العرائس ولبس الديابيج وتنزه فى الرياض وسكن غرف الخانات استغرقه ذلك وشغله عما سواه فلم يعزب قلبه ولم يتفرق فكره .

(الرابع) التدبر : وهو وراء حضور القلب فإنه قد يتفكر فى غير القرآن ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره ، والمقصود من القراءة التدبر . ولذلك سن فيه الترتيل لأن الترتيل فى الظاهر ليتمكن من التدبر بالباطن . قال على رضى الله عنه : لا خير فى عبادة لافقه فيها ولا فى قراءة لاتدبر فيها . وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بترديد فليردد إلا ان يكون خلف إمام . فإنه لو بقى فى تدبر آية وقد اشتغل الإمام بآية أخرى كان مسيئاً مثل من يشتغل بالتعجب من كلمة واحدة ممن يناجيه عن فهم بقية كلامه . وكذلك إن كان فى تسبيح الركوع وهو متفكر فى آية قرأها إمامه فهذا وسواس . فقد روى عن عامر بن عبد قيس أنه قال : الوسواس يعترينى فى الصلاة ، فقيل : فى أمر الدنيا ؟ فقال : لأن تختلف فى الأسنة أحب إلى من ذلك ؛ ولكن يشتغل قلبى بموقفى بين يدى ربى عز وجل ، وأنى كيف أنصرف ؟ فعد ذلك وسواسا وهو كذلك فإنه يشغله عن فهم ما هو فيه . الشيطان لايقدر على مثله إلا بأن يشغله بمهم دينى ولكن يمنعه به عن الأفضل . ولما ذكر ذلك للحسن قال : إن كنتم صادقين عنه فما اصطنع الله ذلك عندنا ويروى « أنه صلى الله عليه وسلم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم فرددها عشرين مرة[1] » وإنما رددها صلى الله عليه وسلم لتدبره فى معانيها . وعن أبى ذر قال « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ليلة فقام بآية يرددها وهى ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم[2] ﴾ الآية » وقام تميم الدارى ليلة بهذه الآية ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات ﴾ الآية . وقام سعيد بن جبير ليلة يردد هذه الآية ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ وقال بعضهم : إنى لأفتتح السورة فيوقفنى بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها حتى يطلع الفجر . وكان بعضهم يقول : آية لاأفهمها ولا يكون قلبى فيها لا أعد لها ثوابا . وحكى عن أبى سليمان الدارانى أنه قال : إنى لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال أو خمس ليال ولولا أنى أقطع الفكر فيها ماجاوزتها إلى غيرها . وعن بعض السلف أنه بقى فى سورة هود ستة أشهر يكررها ولا يفرغ من التدبر فيها . وقال بعض العارفين : لى فى كل جمعة ختمة وفى كل شهر ختمة وفى كل سنة ختمة ولى ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد . وذلك بحسب درجات تدبره وتفتيشه . وكان هذا أيضاً يقول : أقمت نفسى مقام الأجراء فأنا أعمل مياومة ومجامعة ومشاهرة ومسانهة .

(الخامس) التفهم : وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله عز وجل . وذكر أفعاله . وذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام . وذكر أحوال المكذبين لهم وأنهم كيف أهلكوا ، وذكر أوامره وزواجره ، وذكر الجنة والنار .

أما صفات الله عز وجل فكقوله تعالى ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾ وكقوله تعالى ﴿ الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ﴾ فليتأمل معانى هذه الأسماء والصفات لينكشف له أسرارها فتحتها معان

الباب الثانى · فى أعمال الباطن فى التلاوة

(١) « أنه قرأ بسم الله الرحمن الرحيم فرددها عشرين مرة » رواه أبو ذر الهروى فى معجمه من حديث أبى هريرة بسند ضعيف .

(٢) حديث أبى ذر « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا ليلة بآية رددها وهى ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ » أخرجه النسائى وابن ماجه بسند صحيح .

مدفونة لاتنكشف إلا للموفقين . وإليه أشار على رضى الله عنه بقوله ماأسر إلى رسول الله ﷺ شيئاً كتمه عن الناس إلا ان يؤتى الله عز وجل عبداً فهما فى كتابه فليكن حريصا على طلب ذلك الفهم[1] وقال ابن مسعود رضى الله عنه : من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن . وأعظم علوم القرآن تحت أسماء الله عز وجل وصفاته إذ لم يدرك اكثر الخلق منها إلا امورا لائقة بأفهامهم ولم يعثروا على اغوارها .

وأما أفعاله تعالى فكذكره خلق السموات والأرض وغيرها . فليفهم التالى منها صفات الله عز وجل وجلاله إذ الفعل يدل على الفاعل فتدل عظمته على عظمته . فينبغى ان يشهد فى الفعل الفاعل دون الفعل . فمن عرف الحق رآه فى كل شىء فهو منه وإليه وبه وله فهو الكل على التحقيق . ومن لايراه فى كل مايراه فكأنه ما عرفه . ومن عرفه عرف ان كل شىء ماخلا الله باطل وان كل شىء هالك إلا وجهه ؛ لانه سيبطل فى ثانى الحال ؛ بل هو الآن باطل إن اعتبر ذاته من حيث هو إلا أن يعتبر وجوده من حيث إنه موجود بالله عز وجل وبقدرته فيكون له بطريق التبعية ثبات وبطريق الاستقلال بطلان محض . وهذا مبدأ من مبادىء علم المكاشفة . ولهذا ينبغى إذا قرأ التالى قوله عزوجل ﴿ أفرأيتم ماتحرثون ـ أفرأيتم ماتمنون ـ أفرأيتم الماءالذى تشربون ـ أفرأيتم النار التى تورون ﴾ فلا يقصر نظره على الماء والنار والحرث والمنى بل يتأمل فى المنى وهو نطفة متشابهة الأجزاء ثم ينظر فى كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعروق والعصب وكيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكبد والقلب وغيرها ثم إلى ماظهر فيها من الصفات الشريفة مع السمع والبصر والعقل وغيرها ثم إلى ماظهر فيها من الصفات المذمومة من الغضب والشهوة والكبر والجهل والتكذيب والمجادلة كما قال تعالى ﴿أولم يرالإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ فيتأمل هذه العجائب ليترقى إلى عجب العجائب وهو الصفة التى منها صدرت هذه الأعاجيب فلا يزال ينظر إلى الصنعة فيرى الصانع .

وأما أحوال الأنبياء عليهم السلام : فاذا سمع منها أنهم كيف كذبوا وضربوا وقتل بعضهم ، فليفهم منه صفة الاستغناء لله عز وجل عن الرسل والمرسل إليهم وأنه لو أهلك جميعهم لم يؤثر فى ملكه شيئاً . وإذا سمع نصرتهم فى آخر الأمر فليفهم قدرة الله عز وجل وإرادته لنصرة الحق .

وأما أحوال المكذبين : كعاد وثمود وما جرى عليهم فليكن فهمه منه استشعار الخوف من سطوته ونقمته وليكن حظه منه الاعتبار فى نفسه وإنه إن غفل وأساء الأدب واغتر بما امهل فربما تدركه النقمة وتنفذ فيه القضية . وكذلك إذا سمع وصف الجنة والنار وسائر مافى القرآن فلا يمكن استقصاء مايفهم منه لأن ذلك لانهاية له وإنما لكل عبد منه بقدر رزقه . فلا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا ﴾ ولذلك قال على رضى الله عنه :لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب . فالغرض مما ذكرناه التنبيه على طريق التفهم لينفتح بابه فأما الاستقصاء فلا مطمع فيه . ومن لم يكن له فهم مافى القرآن ولو فى أدنى الدرجات دخل فى قوله تعالى ﴿ومنهم من يستمع إليك حتى إذا

---

(١) حديث على « ما أسر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا كتمه عن الناس إلا أن يؤتى الله عبدا فهما فى كتابه » أخرجه النسائى من رواية أبى جحيفة قال « سألنا عليا فقلنا هل عندكم من رسول صلى الله عليه وسلم شىء سوى القرآن ؟ فقال : لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يعطى الله عبدا فهما فى كتابه ... » وهو عند البخارى بلفظ « هل عندكم من رسول الله عليه وسلم ماليس فى القرآن » وفى رواية « وقال مرة ما ليس عند الناس » ولأبى داود والنسائى « فقلنا هل عهد إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً لم يعهده إلى الناس ؟ قال : لا إلا ما فى كتابى هذا ... » ولم يذكر « الفهم فى القرآن » .

خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم﴾ والطابع هى الموانع التى سنذكرها فى موانع الفهم . وقد قيل : لايكون المريد مريدا حتى يجد فى القرآن كل ما يريد ويعرف منه النقصان من المزيد ويستغنى بالمولى عن العبد .

(السادس) التخلى عن موانع الفهم فإن أكثر الناس منعوا عن فهم معانى القرآن لأسباب وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن قال ﷺ « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى الملكوت (١) » ومعانى القرآن من جملة الملكوت وكل ماغاب عن الحواس ولم يدرك إلا بنور البصيرة فهو من الملكوت .

وحجب الفهم أربعة :

أولها : أن يكون الهم منصرفا إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها ، وهذا يتولى حفظه شيطان وكل بالقراء ليصرفهم عن فهم معانى كلام الله عز وجل فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف يخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه . فهذا يكون تأملهم مقصوراً على مخارج الحروف فأنى تنكشف له المعانى ؟ وأعظم ضحكة للشيطان من كان مطيعا لمثل هذا التلبيس .

ثانيها : أن يكون مقلداً لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه وثبت فى نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة . فهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده فصار نظره موقوفا على مسموعه ، فإن لمع برق على بعد وبدا له معنى من المعانى التى تباين مسموعه حمل عليه شيطان التقليد حملة وقال كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد آبائك فيرى أن ذلك غرور من الشيطان فيتباعد منه ويحترز عن مثله . ولمثل هذا قالت الصوفية : إن العلم حجاب وأرادوا بالعلم العقائد التى استمر عليها أكثر الناس بمجرد التقليد أو بمجرد كلمات جدلية حررها المتعصبون للمذاهب وألقوها إليهم. فأما العلم الحقيقى الذى هو الكشف والمشاهدة بنور البصيرة فكيف يكون حجابا وهو منتهى المطلب ؟ وهذا التقليد قد يكون باطلا فيكون مانعا كمن يعتقد فى الاستواء على العرش التمكن والاستقرار فإن خطر له مثلا فى القدوس انه المقدس عن كل مايجوز على خلقه لم يمكنه تقليده من أن يستقر ذلك فى نفسه . ولو استقر فى نفسه لانجر إلى كشف ثان وثالث والتواصل ولكن يتسارع إلى دفع ذلك عن خاطره لمناقضته تقليده الباطل . وقد يكون حقا ويكون أيضا مانعا من الفهم والكشف لأن الحق الذى كلف الخلق اعتقاده له مراتب ودرجات وله مبدأ ظاهر وغور باطن وجمود الطبع على الظاهر يمنع الوصول إلى الغور الباطن ـ كما ذكرناه فى الفرق بين العلم الظاهر والباطن فى كتاب قواعد العقائد .

ثالثها : أن يكون مصراً على ذنب أو متصفاً بكبر أو مبتلى فى الجملة بهوى فى الدنيا مطاع فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصداه ، وهو كالخبث على المرآة فيمنع جلية الحق من أن يتجلى فيه وهو أعظم حجاب القلب وبه حجب الأكثرون وكلما كانت الشهوات أشد تراكما كانت معانى الكلام أشد احتجابا وكلما خف القلب من أثقال الدنيا قرب تجلى المعنى فيه. فالقلب مثل المرآة والشهوات مثل الصدإ ومعانى القرآن مثل الصور التى تتراءى فى المرآة والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل تصقيل الجلاء للمرآة ولذلك قال ﷺ « إذا عظمت أمتى الدينار والدرهم نزع منها هيبة الإسلام وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حرموا بركة الوحى(٢) » وقال الفضيل : يعنى حرموا فهم القرآن . وقد شرط الله عز وجل الإنابة فى الفهم والتذكير فقال تعالى ﴿ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾ وقال عز وجل ﴿ وما يتذكر إلا من ينيب ﴾ وقال تعالى ﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ فالذى آثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة

---

(١) « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى الملكوت » تقدم فى الصلاة .

(٢) « إذا عظمت أمتى الدينار والدرهم نزع منها هيبة الإسلام وإذا تركوا الأمر بالمعروف حرموا بركة الوحى » رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الأمر بالمعروف مفصلا من حديث الفضل بن عياض قال : ذكر عن نبى الله صلى الله عليه وسلم

فليس من ذوى الألباب ولذلك لا تنكشف له أسرار الكتاب .

رابعها : أن يكون قد قرأ تفسيراً ظاهراً واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وأن ماوراء ذلك تفسير بالرأى وأن من فسر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار فهـذا أيضا من الحجب العظيمة . وسنبين معنى التفسير بالرأى فى الباب الرابع وأن ذلك لا يناقض قول على رضى الله عنه إلا أن يؤتى الله عبدا فهما فى القرآن . وأنه لو كان المعنى هو الظاهر المنقول لما اختلفت الناس فيه .

(السابع) التخصيص وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب فى القرآن فإن سمع أمراً أو نهياً قدر أنه المنهى والمأمور وإن سمع وعدا أو وعيدا فكمثل ذلك . وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السمر غير مقصود وإنما المقصود ليعتبر به وليأخذ من تضاعيفه مايحتاج إليه فما من قصة فى القرآن إلا وسياقها لفائدة فى حق النبى صلى الله عليه وسلم وأمته . ولذلك قال تعالى ﴿ ما نثبت به فؤادك ﴾ فليقدر العبد أن الله ثبت فؤاده بما يقصه عليه من أحوال الأنبياء وصبرهم على الإيذاء وثباتهم فى الدين لانتظار نصر الله تعالى وكيف لا يقدر هذا القرآن ماأنزل الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم لرسول الله خاصة بل هو شفاء وهدى ورحمة ونور للعالمين ؟ ولذلك أمر الله تعالى الكافة بشكر نعمة الكتاب فقال تعالى ﴿ واذكروا نعمت الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ﴾ وقال عز وجل ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون . وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم . كذلك يضرب الله للناس أمثالهم . واتبعوا أحسن ماأنزل إليكم من ربكم . هـذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾ وإذا قصد بالخطاب جميع الناس فقد قصد الآحاد فهذا القارىء الواحد مقصود فماله ولسائر الناس فليقدر أنه المقصود قال الله تعالى ﴿ وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ قال محمد بن كعب القرظى : من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله . وإذا قدر ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عمله بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذى كتبه إليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه . ولذلك قال بعض العلماء : هذا القرآن رسائل أتتنا من قبل ربنا عز وجل بعهوده نتدبرها فى الصلوات ونقف عليها فى الخلوات وننفذها فى الطاعات والسنن المتبعات . وكان مالك بن دينار يقول : ما زرع القرآن فى قلوبكم ياأهل القرآن إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض . وقال قتادة : لم يجالس أحد هـذا القرآن إلا قام بزيادة أو نقصان قال تعالى ﴿ هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾ .

(الثامن) التأثر وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره . ومهما تمت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه فإن التضييق غالب على آيات القرآن فلا يرى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقرونا بشروط يقصر العارف عن نيلها كقوله عز وجل ﴿ وإنى لغفار ﴾ ثم أتبع ذلك بأربعة شروط ﴿ لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾ وقوله تعالى ﴿ والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ ذكر أربعة شروط وحيث اقتصر ذكر شرطا جامعا فقال تعالى ﴿ إن رحمت الله قريب من المحسنين ﴾ فالإحسان يجمع الكل وهكذا من يتصفح القرآن من أوله إلى آخره . ومن فهم ذلك فجدير بأن يكون حاله الخشية والحزن . ولذلك قال الحسن : والله ما أصبح اليوم عبد يتلو القرآن يؤمن به إلا كثر حزنه وقل فرحه وكثر بكاؤه وقل ضحكه وكثر نصبه وشغله وقلت راحته وبطالته . وقال وهيب بن الورد نظرنا فى هذه الأحاديث والمواعظ فلم نجد شيئا أرق للقلوب ولا أشد استجلابا للحزن من قراءة القرآن وتفهمه وتدبره . فتأثر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوة . فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط يتضاءل من خيفته كأنه يكاد يموت . وعند التوسع ووعد المغفرة يستبشر كأنه يطير من

الفرح . وعند ذكر الله وصفاته وأسمائه يتطأطأ خضوعا لجلاله واستشعاراً لعظمته . وعند ذكر الكفار ما يستحيل على الله عز وجل كذكرهم لله عز وجل ولدا وصاحبة يغض صوته وينكسر فى باطنه حياء من قبح مقالتهم . وعند وصف الجنة ينبعث بباطنه شوقا إليها . وعند وصف النار ترتعد فرائصه خوفا منها ، ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن مسعود اقرأ على [(١)] قال : فافتتحت سورة النساء فلما بلغت ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ رأيت عينيه تذرفان بالدمع فقال لى : حسبك الآن » وهذا لأن مشاهدة تلك الحالة استغرقت قلبه بالكلية .

ولقد كان فى الخائفين من خر مغشيا عليه عند آيات الوعيد . ومنهم من مات فى سماع الآيات . فمثل هذه الأحوال يخرجه عن أن يكون حاكيا فى كلامه . فإذا قال ﴿ إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ﴾ ولم يكن خائفا كان حاكيا . وإذا قال ﴿ عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾ ولم يكن حاله التوكل والإنابة كان حاكيا . وإذا قال ﴿ ولنصبرن على ما آذيتمونا ﴾ فليكن حاله الصبر او العزيمة عليه حتى يجد حلاوة التلاوة . فإن لم يكن بهذه الصفات ولم يتردد قلبه بين هذه الحالات كان حظه من التلاوة حركة اللسان مع صريح اللعن على نفسه فى قوله تعالى ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ وفى قوله تعالى ﴿ كبر مقتا عند الله ان تقولوا مالا تفعلون ﴾ وفى قوله عز وجل ﴿ وهم فى غفلة معرضون ﴾ وفى قوله ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ وفى قوله تعالى ﴿ ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾ إلى غير ذلك من الآيات وكان داخلا فى معنى قوله عز وجل ﴿ ومنهم أميون لايعلمون الكتاب إلا أمانى ﴾ يعنى التلاوة المجردة وقوله عز وجل ﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ لأن القرآن هو المبين لتلك الآيات فى السموات والأرض ، ومهما تجاوزها ولم يتأثر بها كان معرضا عنها . ولذلك قيل : إن من لم يكن متصفا بأخلاق القرآن فإذا قرأ القرآن ناداه الله تعالى : مالك ولكلامى وانت معرض عنى دع عنك كلامى إن لم تتب إلى . ومثال العاصى إذا قرأ القران وكرره مثال من يكرر كتاب الملك فى كل يوم مرات وقد كتب إليه فى عمارة مملكته وهو مشغول بتخريبها ومقتصر على دراسة كتابه ؛ فلعله لو ترك الدراسة عند المخالفة لكان أبعد عن الاستهزاء واستحقاق المقت. ولذلك قال يوسف بن اسباط : إنى لأهم بقراءة القرآن فإذا ذكرت ما فيه خشيت المقت فأعدل إلى التسبيح والاستغفار . والمعرض عن العمل به أريد بقوله عز وجل ﴿ فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون ﴾ ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ولانت له جلودكم فاذا اختلفتم فلستم تقرءونه — فى بعضها — فاذا اختلفتم فقوموا عنه[(٢)] » قال الله تعالى ﴿ الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « إن أحسن الناس صوتا بالقرآن الذى سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله تعالى[(٣)] » قال صلى الله عليه وسلم « لا يسمع القرآن من أحد أشهى ممن يخشى الله عز وجل [(٤)] » يراد لاستجلاب هذه الأحوال إلى القلب والعمل به ، وإلا فالمؤنة فى تحريك اللسان بحروفه خفيفة . ولذلك قال بعض القراء : قرأت القرآن على شيخ لى ثم رجعت لأقرأ ثانيا فانتهرنى وقال جعلت القرآن على عملا اذهب فاقرأ على الله عز وجل فانظر بماذا يأمرك وبماذا ينهاك . بهذا كان شغل

---

(١) « أنه قال لابن مسعود اقرأ على ... » تقدم فى الباب قبله .

(٢) « اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ولانت له جلودكم فإذا اختلفتم فلستم تقرءونه — وفى بعضها — فإذا اختلفتم فقوموا عنه » متفق عليه من حديث جندب بن عبد الله البجلى فى اللفظ الثانى دون قوله «ولانت جلودكم» .

(٣) « إن أحسن الناس صوتا بالقرآن الذى إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله تعالى » أخرجه ابن ماجة بسند ضعيف .

(٤) « لايسمع القرآن من أحد أشهى ممن يخشى الله تعالى » رواه أبو عبد الله الحاكم فيما ذكره أبو القاسم الغافقى فى كتاب فضائل القرآن .

الصحابة رضى الله عنهم فى الأحوال والأعمال . فمات رسول الله ﷺ عن عشرين ألفاً من الصحابة لم يحفظ القرآن منهم إلا ستة اختلف فى اثنين منهم وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورتين ، وكان الذى يحفظ البقرة والأنعام من علمائهم(١) ، ولما جاء واحد ليتعلم القرآن فانتهى إلى قوله عز وجل ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ (٢) قال : يكفى هذا وانصرف ، فقال ﷺ : انصرف الرجل وهو فقيه . وإنما العزيز مثل تلك الحالة التى من الله عز وجل بها على قلب المؤمن عقيب فهم الآية . فأما مجرد حركة اللسان فقليل الجدوى بل التالى باللسان المعرض عن العمل جدير بأن يكون هو المراد بقوله تعالى ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ وبقوله عز وجل ﴿ كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ أى تركتها ولم تنظر إليها ولم تعبأ بها فإن المقصر فى الأمر يقال إنه نسى الأمر وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب ؛ فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل وحظ العقل تفسير المعانى وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار . فاللسان يرتل والعقل يترجم والقلب يتعظ .

(التاسع) الترقى : وأعنى به أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من الله عز وجل لا من نفسه . فدرجات القراءة ثلاث ؛ أدناها : أن يقدر العبد كأنه يقرؤه على الله عز وجل واقفاً بين يديه وهو ناظر إليه ومستمع منه : فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتملق والتضرع والابتهال . الثانية : أن يشهد بقلبه كأن الله عز وجل يراه ويخاطبه بألطافه ويناجيه بإنعامه وإحسانه فمقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم . الثالثة : أن يرى فى الكلام المتكلم وفى الكلمات الصفات ، فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته ولا إلى تعلق الإنعام به من حيث إنه منعم عليه بل يكون مقصور الهم على المتكلم موقوف الفكر عليه كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره . وهذه درجة المقربين وما قبله درجة أصحاب اليمين وما خرج عن هذا فهو درجات الغافلين . وعن الدرجة العليا أخبر جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنه قال : والله لقد تجلى الله عز وجل لخلقه فى كلامه ولكنهم لا يبصرون : وقال أيضا وقد سألوه عن حالة لحقته فى الصلاة حتى خر مغشياً عليه فلما سرى عنه قيل له فى ذلك فقال : ما زلت أردد الآية على قلبى حتى سمعتها من المتكلم

---

(١) « مات رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم عن عشرين ألفا من الصحابة لم يحفظ القرآن منهم إلا ستة ـ اختلف فى اثنين منهم ـ وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورتين وكان الذى يحفظ البقرة والأنعام من علمائهم » قلت : « مات عن عشرين ألفا » لعله أراد بالمدينة وإلا فقد روينا عن أبى زرعة الرازى أنه قال : قبض عن مائة ألف وأربعة عشر ألفا من الصحابة ممن روى عنه وسمع منه انتهى . وأما من حفظ القرآن فى عهده ففى الصحيحين من حديث أنس قال « جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة ـ كلهم من الأنصار ـ أبى بن كعب ومعاذ ابن جبل وزيد وأبو زيد » قلت : ومن أبو زيد ؟ قال : أحد عمومتى وزاد ابن أبى شيبة كالمصنف من أربعة من رواية الشعبى مرسلا وأبو الدرداء وسعيد بن عبيد وفى الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر « استقرئوا القرآن من أربعة من عبد الله بن مسعود وسالم مولى أبى حذيفة ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب » وروى ابن الأنبارى بسنده إلى عمر قال « كان الفاضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدر هذه الأمة يحفظ من القرآن السورة ونحوها ... » وسنده ضعيف وللترمذى وحسنه من حديث أبى هريرة قال « بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا وهم ذو عدد فاستقرأهم فاستقرأ كل رجل مامعه من القرآن فأتى على رجل من أحدثهم سنا فقال مامعك يافلان قال معى كذا وكذا ، وسورة البقرة فقال أمعك سورة البقرة ؟ قال : نعم ، قال : اذهب فأنت أميرهم ... »

(٢) « الرجل الذى جاء ليتعلم فانتهى إلى قوله تعالى ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ فقال يكفينى هذا وانصرف ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم . انصرف الرجل وهو فقيه » أخرجه أبو داود والنسائى فى الكبرى وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو قال « أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أقرئنى يارسول الله ... » وفيه « فأقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا زلزلت الأرض حتى فرغ منها فقال الرجل : والذى بعثك بالحق لا أزيد عليها أبداً . ثم أدبر الرجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفلح الرويجل أفلح الرويجل » ولأحمد والنسائى فى الكبرى من حديث صعصعة عم الفرزدق أنه صاحب القصة فقال « حسبى لا أبالى أن لا أسمع غيرها » .

بها فلم يثبت جسمى لمعاينة قدرته . فنى مثل هذه الدرجة تعظم الحلاوة ولذة المناجاة . ولذلك قال بعض الحكماء : كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة حتى تلوته كأنى أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلوه على أصحابه، ثم رفعت إلى مقام فوقه كنت أتلوه كأنى اسمعه من جبريل عليه السلام يلقيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جاء الله بمنزلة أخرى فأنا الآن أسمعه من المتكلم به فعندها وجدت له لذة ونعيما لا أصبر عنه . وقال عثمان وحذيفة رضى الله عنهما : لو طهرت القلوب لم تشبع من قراءة القرآن ، وإنما قالوا ذلك لأنها بالطهارة تترقى إلى مشاهدة المتكلم فى الكلام . ولذلك قال ثابت البنانى : كابدت القرآن عشرين سنة وتنعمت به عشرين سنة . وبمشاهدة المتكلم دون ماسواه يكون العبد ممتثلا لقوله عز وجل ﴿ ففروا إلى الله ﴾ ولقوله تعالى ﴿ ولا تجعلوا مع الله إلها آخر ﴾ فمن لم يره فى كل شىء فقد رأى غيره وكل ما التفت إليه العبد سوى الله تعالى تضمن التفاته شيئاً من الشرك الخفى . بل التوحيد الخالص أن لا يرى فى كل شىء إلا الله عز وجل .

(العاشر) التبرى : وأعنى به أن يتبرأ من حوله وقوته والالتفات إلى نفسه بعين الرضا والتزكية . فإذا تلا آيات الوعد والمدح للصالحين فلا يشهد نفسه عند ذلك بل يشهد الموقنين والصديقين فيها ويتشوف إلى أن يلحقه الله عز وجل بهم ، وإذا تلا آيات المقت وذم العصاة والمقصرين شهد على نفسه هناك وقدر أنه المخاطب خوفا وإشفاقا . ولذلك كان ابن عمر رضى الله عنهما يقول اللهم إنى أستغفرك لظلمى وكفرى ، فقيل له : هذا الظلم فما بال الكفر فتلا قوله عز وجل ﴿ إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ وقيل ليوسف بن أسباط : إذا قرأت القرآن بماذا تدعو ؟ فقال بماذا أدعو ! أستغفر الله عز وجل من تقصيرى سبعين مرة . فإذا رأى نفسه بصورة التقصير فى القراءة كان رؤيته سبب قربه . فإن من شهد البعد فى القرب لطف به فى الخوف حتى يسوقه الخوف إلى درجة أخرى فى القرب وراءها ومن شهد القرب فى البعد مكربه بالأمن الذى يفضيه إلى درجة أخرى فى البعد أسفل مما هو فيه . ومهما كان مشاهدا نفسه بعين الرضا صار محجوباً بنفسه ، فإذا جاوز حد الالتفات إلى نفسه ولم يشاهد إلا الله تعالى فى قراءته كشف له سر الملكوت . قال أبو سليمان الدارانى رضى الله تعالى عنه : وعد ابن ثوبان أخا له أن يفطر عنده فأبطأ عليه حتى طلع الفجر فلقيه أخوه من الغد فقال له : وعدتنى أنك تفطر عندى فأخلفت فقال لولا ميعادى معك ما أخبرتك الذى حبسنى عنك ! إنى لما صليت العتمة قلت : أوتر قبل أن أجيئك لأنى لا آمن ما يحدث من الموت فلما كنت فى الدعاء من الوتر رفعت إلى روضة خضراء فيها أنواع الزهر من الجنة فما زلت أنظر إليها حتى أصبحت . وهذه المكاشفات لا تكون إلا بعد التبرى عن النفس وعدم الالتفات إليها وإلى هواها ثم تخصص هذه المكاشفات بحسب أحوال المكاشف فحيث يتلو آيات الرجاء ويغلب على حاله الاستبشار تنكشف له صورة الجنة فيشاهدها كأنه يراها عيانا وإن غلب عليه الخوف كوشف بالنار حتى يرى أنواع عذابها ، وذلك لأن كلام الله عز وجل يشتمل على السهل اللطيف والشديد العسوف والمرجو والمخوف وذلك بحسب أوصافه ؛ إذ منها الرحمة واللطف والانتقام والبطش . فبحسب مشاهدة الكلمات والصفات يتقلب فى اختلاف الحالات وبحسب كل حالة منها يستعد للمكاشفة بأمر يناسب تلك الحالة ويقاربها ؛ إذ يستحيل أن يكون حال المستمع واحدا والمسموع مختلفا إذ فيه كلام راض وكلام غضبان وكلام منعم وكلام منتقم وكلام جبار متكبر لا يبالى وكلام حنان متعطف لا يهمل .

الباب الرابع
فى فهم القرآن وتفسيره بالرأى من غير نقل

لعلك تقول : عظمت الأمر فيما سبق فى فهم أسرار القرآن وما ينكشف لأرباب القلوب الزكية من معانيه

فكيف يستحب ذلك وقد قال ﷺ « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار (١) » ؟ وعن هذا شنع أهل العلم بظاهر التفسير على أهل التصوف من المقصرين المنسوبين إلى التصوف فى تأويل كلمات فى القرآن على خلاف ما نقل عن ابن عباس وسائر المفسرين وذهبوا إلى أنه كفر فإن صح ماقاله أهل التفسير فما معنى فهم القرآن سوى حفظ تفسيره ؟ وإن لم يصح ذلك فما معنى قوله ﷺ « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » ؟ فاعلم أن من زعم أن لا معنى للقرآن إلا ماترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حد نفسه وهو مصيب فى الإخبار عن نفسه، ولكنه مخطىء فى الحكم برد الخلق كافة إلى درجته التى هى حده ومحطه . بل الأخبار والآثار تدل على أن فى معانى القرآن متسعا لأرباب الفهم (٢) قال على رضى الله عنه : إلا أن يؤتى الله عبداً فهما فى القرآن . فإن لم يكن سوى الترجمة المنقولة فما ذلك الفهم ؟ وقال ﷺ « إن للقرآن ظهراً وبطناً وحداً ومطلعاً (٣) » ويروى أيضا عن ابن مسعود موقوفا عليه وهو من علماء التفسير. فما معنى الظهر والبطن والحد والمطلع ؟ وقال على كرم الله وجهه : لو شئت لأوقرت سبعين بعيرا من تفسير فاتحة الكتاب . فما معناه وتفسير ظاهرها فى غاية الاقتصار ؟ وقال أبو الدرداء : لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوها . وقد قال بعض العلماء : لكل آية ستون ألف فهم وما بقى من فهمها أكثر . وقال آخرون : القرآن يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتى علم إذ كل كلمة علم . ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحد ومطلع. وترديد رسول الله ﷺ « بسم الله الرحمن الرحيم عشرين مرة (٤) » لايكون إلا لتدبره باطن معانيها وإلا فترجمتها وتفسيرها ظاهر لا يحتاج مثله إلى تكرير . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن .وذلك لا يحصل بمجرد تفسيره الظاهر . وبالجملة فالعلوم كلها داخلة فى أفعال الله عز وجل وصفاته ، وفى القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته . وهذه العلوم لا نهاية لها، وفى القرآن إشارة إلى مجامعها ، والمقامات فى التعمق فى تفصيله راجع إلى فهم القرآن ، ومجرد ظاهر التفسير لا يشير إلى ذلك . بل كل ما أشكل فيه على النظار واختلف فيه الخلائق فى النظريات والمعقولات ففى القرآن إليه رموز ودلالات عليه يختص أهل الفهم بدركها ، فكيف يفى بذلك ترجمة ظاهره وتفسيره ؟ ولذلك قال ﷺ « اقرءوا القرآن والتمسوا غرائبه (٥) » وقال ﷺ فى حديث على كرم الله وجهه « والذى بعثنى بالحق نبيا لتفترقن أمتى عن أصل دينها وجماعتها على اثنتين وسبعين فرقة كلها ضالة مضلة يدعون إلى النار فإذا كان ذلك فعليكم بكتاب الله عز وجل فإن فيه نبأ من كان قبلكم ونبأ مايأتى بعدكم وحكم ما بينكم ، من خالفه من الجبابرة قصمه الله عز وجل ومن ابتغى العلم فى غيره أضله الله عز وجل وهو حبل الله المتين ونوره المبين وشفاؤه النافع ، عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه لايعوج فيقوم ولا يزيغ فيستقيم ولا تنقضى عجائبه ولا يخلقه كثرة الترديد (٦) » الحديث

الباب الرابع : فى فهم القرآن وتفسيره بالرأى من غير نقل

(١) « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » تقدم فى الباب الثالث من العلم .

(٢) « الأخبار والآثار الدالة على أن فى معانى القرآن متسعا لأرباب الفهم » تقدم قول على فى الباب قبله « إلا أن يؤتى الله عبدا فهما فى كتابه » .

(٣) « إن للقرآن ظهرا وبطنا وحدا ومطلعا » تقدم فى قواعد العقائد .

(٤) « تكرير النبى عليه الصلاة والسلام البسملة عشرين مرة » تقدم فى الباب قبله .

(٥) « اقرءوا القرآن والتمسوا غرائبه » أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف وأبو يعلى الموصلى والبيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة بلفظ « أعربوا » وسنده ضعيف .

(٦) حديث على « والذى بعثنى بالحق لتفترق أمتى على أصل دينها وجماعتها على اثنين وسبعين فرقة كلها ضالة مضلة يدعون إلى النار فإذا كان ذلك فعليكم بكتاب الله فإن فيه نبأ من كان قبلكم ... » بطوله هو عند الترمذى دون ذكر افتراق الأمة بلفظ « ألا إنها ستكون فتنة مضلة فقلت ما المخرج منها يارسول الله قال كتاب الله فيه نبأ من كان قبلكم » فذكره مع اختلاف وقال غريب وإسناده مجهول .

وفى حديث حذيفة « لما أخبره رسول صلى الله عليه وسلم بالاختلاف والفرقة بعده قال : فقلت يا رسول الله فماذا تأمرنى إن أدركت ذلك ؟ فقال : تعلم كتاب الله واعمل بما فيه فهو المخرج من ذلك ، قال : فأعدت عليه ذلك ثلاثا ، فقال ﷺ ثلاثا : تعلم كتاب الله عز وجل واعمل بما فيه ففيه النجاة [١] » وقال على كرم الله وجهه: من فهم القرآن فسر به جمل العلم ، أشار به إلى أن القرآن يشير إلى مجامع العلوم كلها . وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ﴾ يعنى الفهم فى القرآن . وقال عز وجل ﴿ ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما ﴾ سمى ما آتاهما علما وحكما وخصص ما انفرد به سليمان بالتفطن له باسم الفهم وجعله مقدما على الحكم والعلم . فهذه الأمور تدل على أن فى فهم معانى القرآن مجالا رحبا ومتسعا بالغا وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه . فأما قوله ﷺ : من فسر القرآن برأيه ونهيه عنه ﷺ [٢] وقول أبى بكر رضى الله عنه أى أرض تقلنى وأى سماء تظلنى إذا قلت فى القرآن برأيى ؟ إلى غير ذلك مما ورد فى الأخبار والآثار فى النهى عن تفسير القرآن بالرأى ، فلا يخلو إما أن يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط والاستقلال بالفهم ، أو المراد به أمراً آخر .

وباطل قطعا أن يكون المراد به أن لا يتكلم أحد فى القرآن إلا بما يسمعه لوجوه :

(أحدها) أنه يشترط أن يكون مسموعا من رسول الله ﷺ ومسند إليه وذلك مما لا يصادف إلا فى بعض القرآن . فأما ما يقوله ابن عباس وابن مسعود من أنفسهم فينبغى أن لا يقبل ويقال هو تفسير بالرأى لأنهم لم يسمعوه من رسول الله ﷺ وكذا غيرهم من الصحابة رضى الله عنهم.

(والثانى) ان الصحابة والمفسرين اختلفوا فى تفسير بعض الآيات فقالوا فيها أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها ، وسماع جميعها من رسول الله ﷺ محال ، ولو كان الواحد مسموعا لرد الباقى ، فتبين على القطع أن كل مفسر قال فى المعنى بما ظهر له باستنباطه ، حتى قالوا فى الحروف التى فى أوائل السور سبعة أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها فقيل : إن «الر» هى حروف من الرحمن ،وقيل إن الألف الله واللام لطيف والراء رحيم وقيل غير ذلك،والجمع بين الكل غير ممكن فكيف يكون الكل مسموعا ؟

(والثالث) أنه ﷺ « دعا لابن عباس رضى الله عنه وقال : اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل [٣] » فإن كان التأويل مسموعا كالتنزيل ومحفوظا مثله فما معنى تخصيصه بذلك ؟

(والرابع) أنه قال عز وجل ﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ فأثبت لأهل العلم استنباطا ، ومعلوم أنه وراء السماع وجملة ما نقلناه من الآثار فى فهم القرآن يناقض هذا الخيال فبطل أن يشترط السماع فى التأويل ، وجاز لكل واحد أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحد عقله . وأما النهى فإنه ينزل على احد وجهين ؛ أحدهما : أن يكون له فى الشىء رأى وإليه ميل من طبعه وهواه فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ليحتج على تصحيح غرضه ، ولو لم يكن له ذلك الرأى والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى . وهذا تارة يكون مع العلم كالذى يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم أنه ليس المراد بالآية ذلك ولكن يلبس به على خصمه . وتارة يكون مع الجهل ولكن إذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه إلى الوجه الذى يوافق غرضه ويرجح ذلك الجانب برأيه وهواه ،

---

(١) حديث حذيفة فى الاختلاف والفرقة بعده « فقلت ما تأمرنى إن أدركت ذلك؟ قال: تعلم كتاب الله واعمل بما فيه ... » أخرجه أبو داود والنسائى فى الكبرى وفيه « تعلم كتاب الله واتبع ما فيه — ثلاث مرات — » .

(٢) « النهى عن تفسير القرآن بالرأى » غريب .

(٣) حديث دعائه لابن عباس « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » تقدم فى الباب الثانى من العلم .

فيكون قد فسر برأيه أى رأيه هو الذى حمله على ذلك التفسير ، ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه . وتارة قد يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلا من القرآن ويستدل عليه بما يعلم أنه كمن يدعو إلى الاستغفار بالأسحار فيستدل بقوله ﷺ « تسحروا فإن فى السحور بركة [1] » ويزعم أن المراد التسحر بالذكر وهو يعلم أن المراد به الأكل ، وكالذى يدعو إلى مجاهدة القلب القاسى فيقول قال الله عز وجل ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ ويشير إلى قلبه ويومىء إلى أنه المراد بفرعون وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ فى المقاصد الصحيحة تحسينا للكلام وترغيبا للمستمع وهو ممنوع . وقد تستعمله الباطنية فى المقاصد الفاسدة لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذهبهم الباطل فينزلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعا أنها غير مرادة به ، فهذه الفنون أحد وجهى المنع من التفسير بالرأى ويكون المراد بالرأى الرأى الفاسد الموافق للهوى دون الاجتهاد الصحيح والرأى يتناول الصحيح والفاسد والموافق للهوى قد يخصص باسم الرأى والوجه الثانى: أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير

فمن لم يحكم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعانى بمجرد فهم العربية كثر غلطه ودخل فى زمرة من يفسر بالرأى فالنقل والسماع لابد منه فى ظاهر التفسير أولا ليتقى به مواضع الغلط ثم بعد ذلك يتسع التفهم والاستنباط . والغرائب التى لا تفهم إلا بالسماع كثيرة ، ونحن نرمز إلى جمل منها ليستدل بها على أمثالها ويعلم أنه لا يجوز التهاون بحفظ التفسير الظاهر أولا ، ولا مطمع فى الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر .

ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن يدعى البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب. أو يدعى فهم مقاصد الأتراك من كلامهم وهو لا يفهم لغة الترك . فإن ظاهر التفسير يجرى مجرى تعليم اللغة التى لا بد منها للفهم .

وما لابد فيه من السماع فنون كثيرة منها الإيجاز بالحذف والإضمار كقوله تعالى ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ﴾ معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها ؛ فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ولم تكن عمياء ، ولم يدر أنهم بماذا ظلموا غيرهم أو أنفسهم . وقوله تعالى ﴿ وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم ﴾ أى حب العجل ؛ فحذف الحب وقوله عز وجل ﴿ إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ﴾ اى ضعف عذاب الأحياء وضعف عذاب الموتى ، فحذف العذاب ، وأبدل الأحياء والموتى بذكر الحياة والموت وكل ذلك جائز فى فصيح اللغة . وقوله تعالى ﴿واسئل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها﴾ اى أهل القرية وأهل العير ، فالأهل فيهما محذوف مضمر . وقوله عز وجل ﴿ ثقلت فى السموات والأرض ﴾ معناه خفيت على أهل السموات والأرض ، والشىء إذا خفى ثقل فأبدل اللفظ به وأقيم فى مقام «على» وأضمر الأهل وحذف . وقوله تعالى ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ أى شكر رزقكم وقوله عز وجل ﴿ آتنا ما وعدتنا على رسلك ﴾ أى على ألسنة رسلك ؛ فحذف ألسنة وقوله تعالى ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾ أراد القرآن وما سبق له ذكر وقال عز وجل ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ أراد الشمس وما سبق لها ذكر وقوله تعالى ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ أى يقولون ما نعبدهم . وقوله عز وجل ﴿ فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ معناه لا يفقهون حديثا يقولون ما أصابك من حسنة فمن الله فإن لم يرد هذا كان مناقضا ﴿قل كل من عند الله﴾ وسبق إلى الفهم منه مذهب القدرية . ومنها المنقول المنقلب كقوله تعالى ﴿وطور سينين﴾ أى طور

---

[1] « تسحروا فإن فى السحور بركة » تقدم فى الباب الثالث من العلم .

سيناء ﴿ سلام على آل ياسين ﴾ أى على الياس وقيل إدريس ؛ لأن فى حرف ابن مسعود ﴿ سلام على إدريس ﴾ ومنها المكرر القاطع لوصل الكلام فى الظاهر كقوله عز وجل ﴿ وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن ﴾ وقوله عز وجل ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم ﴾ معناه : الذين استكبروا لمن آمن من الذين استضعفوا ومنها المقدم والمؤخر وهو مظنة الغلط كقوله عز وجل ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى ﴾ معناه لولا الكلمة وأجل مسمى لكان لزاما ولولاه لكان نصبا كاللزام وقوله تعالى ﴿ يسألونك كأنك حفى عنها ﴾ أى يسألونك عنها كأنك حفى بها وقوله عز وجل ﴿ لهم مغفرة ورزق كريم كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ﴾ فهذا الكلام غير متصل وإنما هو عائد إلى قوله السابق ﴿ قل الأنفال لله والرسول ـ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ﴾ أى فصارت أنفال الغنائم لك إذ أنت راض بخروجك وهم كارهون فاعترض بين الكلام الأمر بالتقوى وغيره ومن هذا النوع قوله عز وجل ﴿ حتى تؤمنوا بالله وحده ـ إلا قول إبراهيم لأبيه ﴾ الآية ومنها المبهم وهو اللفظ المشترك بين معان من كلمة أو حرف . أما الكلمة فكالشىء والقرين والأمة والروح ونظائرها قال الله تعالى ﴿ ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء ﴾ أراد به النفقة مما رزق وقوله عز وجل ﴿ وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء ﴾ أى الأمر بالعدل والاستقامة . وقوله عز وجل ﴿ فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء ﴾ أراد به من صفات الربوبية . وهو العلوم التى لا يحل السؤال عنها حتى يبتدىء بها العارف فى أوان الاستحقاق . وقوله عز وجل ﴿ أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ﴾ أى من غير خالق فربما يتوهم به أنه يدل على أنه لا يخلق شىء إلا من شىء . وأما القرين فكقوله عز وجل ﴿ وقال قرينه هذا ما لدى عتيد ألقيا فى جهنم كل كفار ﴾ أراد به الملك الموكل به وقوله تعالى ﴿ قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان ﴾ أراد به الشيطان وأما الأمة فتطلق على ثمانية أوجه ، الأمة : الجماعة كقوله تعالى ﴿ وجد عليه أمة من الناس يسقون ﴾ وأتباع الأنبياء كقولك عن من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ورجل جامع للخير يقتدى به كقوله تعالى ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله ﴾ والأمة : الدين كقوله عز وجل ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ والأمة : الحين والزمان كقوله عز وجل ﴿ إلى أمة معدودة ﴾ وقوله عز وجل ﴿ وادكر بعد أمة ﴾ والأمة : القامة يقال فلان حسن الأمة أى القامة ، وأمة : رجل منفرد بدين لا يشركه فيه أحد قال صلى الله عليه وسلم « يبعث زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده[1] » والأمة : الأم يقال هذه أمة زيد أى أم زيد . والروح أيضا ورد فى القرآن على معان كثيرة فلا نطول بإيرادها . وكذلك قد يقع الإبهام فى الحروف مثل قوله عز وجل ﴿ فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا ﴾ فالهاء الأولى : كناية عن الحوافر وهى الموريات أى أثرن بالحوافر نقعا ، والثانية : كناية عن الإغارة وهى المغيرات صبحا فوسطن به جمعا جمع المشركون فأغاروا بجمعهم وقوله تعالى ﴿ فأنزلنا به الماء ﴾ يعنى السحاب ﴿ فأخرجنا به من كل الثمرات ﴾ يعنى الماء . وأمثال هذا فى القرآن لا ينحصر . ومنها التدريج فى البيان كقوله عز وجل ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ﴾ إذ لم يظهر به أنه ليل أو نهار ، وبان بقوله عز وجل ﴿ إنا أنزلنا فى ليلة مباركة ﴾ ولم يظهر به أى ليلة فظهر بقوله تعالى ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾ وربما يظن فى الظاهر الاختلاف بين هذه الآيات ؛ فهذا وأمثاله مما لا يغنى فيه إلا النقل والسماع فالقرآن من أوله إلى آخره غير خال عن هذا الجنس لأنه أنزل بلغة العرب فكان مشتملا على أصناف كلامهم من إيجاز وتطويل وإضمار وحذف وإبدال وتقديم وتأخير ، ليكون ذلك مفحما لهم ومعجزا فى حقهم . فكل من اكتفى بفهم ظاهر العربية وبادر إلى تفسير القرآن ولم يستظهر بالسماع والنقل فى هذه الأمور فهو داخل فيمن فسر القرآن برأيه . مثل أن يفهم من الأمة المعنى الأشهر منه فيميل طبعه ورأيه إليه فإذا سمعه فى موضع آخر مال برأيه إلى سمعه من مشهور

---

(١) « يبعث زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده » أخرجه النسائى والكبرى من حديث زيد بن حارثة وأسماء بنت أبى بكر بإسنادين جيدين .

معناه وترك تتبع النقل في كثير معانيه فهذا ما يمكن أن يكون منهيا عنه دون التفهم لأسرار المعاني ـ كما سبق ـ فإذا حصل السماع بأمثال هذه الأمور علم ظاهر التفسير وهو ترجمة الألفاظ ، ولا يكفي ذلك في فهم حقائق المعاني . ويدرك الفرق بين حقائق المعاني وظاهر التفسير بمثال : وهو أن الله عز وجل قال ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ فظاهره تفسير واضح وحقيقة معناه غامض . فإنه إثبات للرمى ونفي له . وهما متضادان في الظاهر مالم يفهم أنه رمى من وجه ولم يرم من وجه ومن الوجه الذي لم يرم رماه الله عز وجل . وكذلك قال تعالى ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ﴾ فإذا كانوا هم المقاتلين كيف يكون الله سبحانه هو المعذب ؟ وإن كان الله تعالى هو المعذب بتحريك أيديهم فما معنى أمرهم بالقتال ؟ فحقيقة هذا يستمد من بحر عظيم من علوم المكاشفات لا يغني عنه ظاهر التفسير وهو أن يعلم وجه ارتباط الأفعال بالقدرة الحادثة . ويفهم وجه ارتباط للقدرة بقدرة الله عز وجل حتى ينكشف ـ بعد إيضاح أمور كثيرة غامضة ـ صدق قوله عز وجل ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ ولعل العمر لو أنفق في استكشاف أسرار هذا المعنى وما يرتبط بمقدماته ولواحقه لانقضى العمر قبل استيفاء لواحقه وما من كلمة من القرآن إلا وتحقيقها محوج إلى مثل ذلك . وإنما ينكشف للراسخين في العلم من أسراره بقدر غزارة علومهم وصفاء قلوبهم وتوفر دواعيهم على التدبر وتجردهم للطلب . ويكون لكل واحد حد في الترقي إلى درجة أعلى منه . فأما الاستيفاء فلا مطمع فيه ولو كان البحر مداداً والأشجار أقلاما فأسرار كلمات الله لا نهاية لها فتنفد الأبحر قبل أن تنفد كلمات الله عز وجل فمن هذا الوجه تتفاوت الخلق في الفهم بعد الاشتراك في معرفة ظاهر التفسير وظاهر التفسير لا يغني عنه . ومثاله فهم بعض أرباب القلوب من قوله ﷺ في سجوده أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك(١) » أنه قيل له اسجد واقترب فوجد القرب في السجود فنظر إلى الصفات فاستعاذ ببعضها من بعض ؛ فإن الرضا والسخط وصفان ثم زاد قربه فاندرج القرب الأول فيه فرقي إلى الذات فقال « أعوذ بك منك » ثم زاد قربه بما استحيا به من الاستعاذة على بساط القرب فالتجأ إلى الثناء فأثنى بقوله « لا أحصى ثناء عليك » ثم علم أن ذلك قصور فقال « أنت كما أثنيت على نفسك » فهذه خواطر تفتح لأرباب القلوب . ثم لها أغوار وراء هذا وهو فهم معنى القرب واختصاصه بالسجود ومعنى الاستعاذة من صفة بصفة ومنه به . وأسرار ذلك كثيرة . ولا يدل تفسير ظاهر اللفظ عليه وليس هو مناقضا لظاهر التفسير بل هو استكمال له ووصول إلى لبابه عن ظاهره فهذا ما نورده لفهم المعاني الباطنة لا ما يناقض الظاهر والله أعلم . تم كتاب : آداب التلاوة . والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين وعلى كل عبد مصطفى من كل العالمين وعلى آل محمد وصحبه وسلم . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب : الأذكار والدعوات . والله المستعان لا رب سواه .

كتاب الأذكار والدعوات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الشاملة رأفته العامة رحمته الذي جازى عباده عن ذكرهم بذكره فقال تعالى ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾

---

(١) «قوله صلى الله عليه وسلم في سجوده أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ... » أخرجه مسلم من حديث عائشة .

ورغبهم فى السؤال والدعاء بأمره فقال ﴿ ادعونى أستجب لكم ﴾ فأطمع المطيع والعاصى والدانى والقاصى فى الانبساط إلى حضرة جلاله برفع الحاجات والأمانى بقوله ﴿ فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ والصلاة على محمد سيد أنبيائه وعلى آله وأصحابه خيرة أصفيائه وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فليس بعد تلاوة كتاب الله عز وجل عبادة تؤدى باللسان أفضل من ذكر الله تعالى ورفع الحاجات بالأدعية الخالصة إلى الله تعالى . فلابد من شرح فضيلة الذكر على الجملة ثم على التفصيل فى أعيان الأذكار . وشرح فضيلة الدعاء وشروطه وآدابه ونقل المأثور من الدعوات الجامعة لمقاصد الدين والدنيا والدعوات الخاصة لسؤال المغفرة والاستعاذة وغيرها . ويتحرر المقصود من ذلك بذكر أبواب خمسة (الباب الأول) فى فضيلة الذكر وفائدته جملة وتفصيلا (الباب الثانى) فى فضيلة الدعاء وآدابه وفضيلة الاستغفار والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم (الباب الثالث) فى أدعية مأثورة ومعزية إلى أصحابها وأسبابها (الباب الرابع) فى أدعية منتخبة محذوفة الإسناد من الأدعية المأثورة (الباب الخامس) فى الأدعية المأثورة عند حدوث الحوادث .

الباب الأول : فى فضيلة الذكر وفائدته على الجملة والتفصيل من الآيات والأخبار والآثار

ويدل على فضيلة الذكر على الجملة من الآيات : قوله سبحانه وتعالى ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾ قال ثابت البنانى رحمه الله : إنى أعلم متى يذكرنى ربى عز وجل ؛ ففزعوا منه وقالوا : كيف تعلم ذلك ؟ فقال : إذا ذكرته ذكرنى وقال تعالى ﴿ اذكروا الله ذكراً كثيراً ﴾ وقال تعالى ﴿ فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم ﴾ وقال عز وجل ﴿ فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً ﴾ وقال تعالى ﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ﴾ وقال تعـــالى ﴿ فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : أى بالليل والنهار فى البر والبحر والسفر والحضر والغنى والفقر والمرض والصحة والسر والعلانية . وقال تعالى فى ذم المنافقين ﴿ ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴾ وقال عز وجل ﴿ واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين ﴾ وقال تعالى ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : له وجهان أن ذكر الله تعالى لكم أعظم من ذكركم إياه ، والآخر : أن ذكر الله أعظم من كل عبادة سواه : إلى غير ذلك من الآيات . وأما الأخبار فقد قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم «ذاكر الله فى الغافلين كالشجرة الخضراء فى وسط الهشيم[(١)]» وقال صلى الله عليه وسلم «ذاكر الله فى الغافلين كالمقاتل بين الفارين» وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله عز وجل أنا مع عبدى ماذكرنى وتحركت بى شفتاه[(٢)] » وقال صلى الله عليه وسلم « ما عمل ابن ادم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل . قالوا يارسول الله ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد فى سـبيل الله إلا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع ثم

كتاب الأذكار والدعوات
الباب الأول : فى فضيلة الذكر

(١) « ذاكر الله فى الغافلين كالشجرة الخضراء فى وسط الهشيم » أخرجه أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر بسند ضعيف وقال « فى وسط الشجر ... » .

(٢) « يقول الله تعالى أنا مع عبدى ماذكرنى وتحركت بى شفتاه » أخرجه البيهقى وابن حبان من حديث أبى هريرة والحاكم من حديث أبى الدرداء وقال صحيح الإسناد .

تضرب به حتى ينقطع ، ثم تضرب به حتى ينقطع[١] » وقال ﷺ « من أحب أن يرتع فى رياض الجنة فليكثر ذكر الله عز وجل[٢] » وسئل رسول الله ﷺ « أى الأعمال أفضل ؟ فقال : أن تموت ولسانك رطب بذكر الله عز وجل[٣] » وقال ﷺ « أصبح وأمس ولسانك رطب بذكر الله تصبح وتمسى وليس عليك خطيئة[٤] » وقال ﷺ « لذكر الله عز وجل بالغداة والعشى أفضل من حطم السيوف فى سبيل الله ومن إعطاء المال سحاً[٥] » وقال ﷺ « يقول الله تبارك وتعالى إذا ذكرنى عبدى فى نفسه ذكرته فى نفسى وإذا ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير من ملئه وإذا تقرب منى شبراً تقربت منه ذراعا وإذا تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا وإذا مشى إلى هرولت إليه[٦] » يعنى بالهرولة سرعة الإجابة . وقال ﷺ « سبعة يظلهم الله عز وجل بظله يوم لا ظل إلا ظله ــ من جملتهم ــ رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من خشية الله[٧] » وقال أبو الدرداء قال رسول الله ﷺ « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إعطاء الورق والذهب وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربون أعناقهم ويضربون أعناقكم ؟ قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : ذكر الله عز وجل دائماً[٨] » وقال ﷺ « قال الله عز وجل من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين[٩] » . وأما الآثار فقد قال الفضيل : بلغنا أن الله عز وجل قال : عبدى اذكرنى بعد الصبح ساعة وبعد العصر ساعة أكفك ما بينهما . وقال بعض العلماء : إن الله عز وجل يقول : أيما عبد اطلعت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكرى توليت سياسته وكنت جليسه ومحادثه وأنيسه . وقال الحسن : الذكر ذكران ، ذكر الله عز وجل بين نفسه وبين الله عز وجل وما أحسنه وأعظم أجره وأفضل من ذلك ذكر الله سبحانه عندما حرم الله عز وجل . ويروى « إن كل نفس تخرج من الدنيا عطشى إلا ذاكر الله عز وجل » وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه : ليس يتحسر أهل الجنة على شىء إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله سبحانه فيها ، والله تعالى أعلم .

---

(١) « ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله قالوا يارسول الله ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال ولا الجهاد فى سبيل الله إلا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع ثلاث مرات » أخرجه بن أبى شيبة فى المصنف والطبرانى من حديث معاذ بإسناد حسن (٢) « من أحب أن يرتع فى رياض الجنة فليكثر ذكر الله تعالى » أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف والطبرانى من حديث معاذ بسند ضعيف ورواه الطبرانى من حديث أنس وهو عند الترمذى بلفظ « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » وقد تقدم فى الباب الثالث من العلم (٣) « سئل أى الأعمال أفضل ؟ قال أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله تعالى » أخرجه أبو حبان والطبرانى فى الدعاء والبيهقى فى الشعب من حديث معاذ

(٤) « أمس وأصبح ولسانك رطب بذكر الله تصبح وتمسى وليس عليك خطيئة » أخرجه أبو القاسم الأصبهانى فى الترغيب والترهيب من حديث « من أصبح وأمسى ولسانه رطب من ذكر الله يمسى ويصبح وليس عليه خطيئة » وفيه من لايعرف (٥) « لذكر الله بالغداة والعشى أفضل من حطم السيوف فى سبيل الله ومن إعطاء المال سحا » رويناه من حديث أنس بسند ضعيف فى الأصل وهو معروف من قول ابن عمر كما رواه ابن عبد البر فى التمهيد . (٦) « قال الله عز وجل إذا ذكرنى عبدى فى نفسه ذكرته فى نفسى ... » متفق عليه من حديث أبى هريرة . (٧) « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله ــ من جملتهم ــ رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » متفق عليه من حديث أبى هريرة أيضا

(٨) « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم ... » أخرجه الترمذى والحاكم وابن ماجه وصحح إسناده من حديث أبى الدرداء (٩) « قال الله تعالى من شغله ذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » أخرجه البخارى فى التاريخ والبزار فى المسند والبيهقى فى الشعب من حديث عمر بن الخطاب عن ابن أبى الصفا ذكره ابن حبان فى الضعفاء وفى الثقات أيضا .

فضيلة مجالس الذكر

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما جلس قوم مجلسا يذكرون الله عز وجل إلا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله تعالى فيمن عنده[١] » وقال صلى الله عليه « ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله تعالى لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء قوموا مغفورا لكم قد بدلت لكم سيئاتكم حسنات[٢] » وقال أيضا صلى الله عليه وسلم « ما قعد قوم مقعدا يذكرون الله سبحانه وتعالى فيه ولم يصلوا على النبي صلى الله عليه وسلم إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة[٣] » وقال داود عليه السلام : إلهي إذا رأيتني أجاوز مجالس الذاكرين إلى مجالس الغافلين فاكسر رجلي دونهم فإنها نعمة تنعم بها على . وقال ﷺ « المجلس الصالح يكفر عن المؤمن ألفي ألف مجلس من مجالس السوء[٤] » وقال أبو هريرة رضى الله عنه إن أهل السماء ليتراءون بيوت أهل الأرض التي يذكر فيها اسم تعالى كما تتراءى النجوم . وقال سفيان بن عيينة رحمه الله : إذا اجتمع قوم يذكرون الله تعالى اعتزل الشيطان والدنيا فيقول الشيطان للدنيا : ألا ترين ما يصنعون ؟ فتقول الدنيا : دعهم فإنهم إذا تفرقوا أخذت بأعناقهم إليك . وعن أبي هريرة رضى الله عنه أنه دخل السوق وقال : أراكم ههنا وميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم في المسجد ؟ فذهب الناس إلى المسجد وتركوا السوق فلم يروا ميراثا ، فقالوا : يا أبا هريرة ما رأينا ميراثا يقسم في المسجد ؟ قال : فماذا رأيتم ؟ قالوا : رأينا قوما يذكرون الله عز وجل ويقرءون القرآن ، قال : فذلك ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم[٥] وروى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن لله عز وجل ملائكة سياحين في الأرض فضلا عن كتاب الناس فإذا وجدوا قوما يذكرون الله عز وجل تنادوا هلموا إلى بغيتكم فيجيئون فيحفون بهم إلى السماء فيقول الله تبارك وتعالى : أي شيء تركتم عبادي يصنعونه فيقولون تركناهم يحمدونك ويمجدونك ويسبحونك فيقول الله تبارك وتعالى وهل رأوني فيقولون لا فيقول جل جلاله كيف لو رأوني فيقولون لو رأوك لكانوا أشد تسبيحاً وتحميداً وتمجيداً . فيقول لهم من أي شيء يتعوذون فيقولون من النار فيقول تعالى وهل رأوها فيقولون لا فيقول الله عز وجل فكيف لو رأوها فيقولون لو رأوها لكانوا أشد هربا منها وأشد نفورا . فيقول الله عز وجل واى شيء يطلبون فيقولون الجنة فيقول تعالى وهل رأوها فيقولون لا فيقول تعالى فكيف لو رأوها فيقولون لو رأوها لكانوا أشد عليها حرصاً . فيقول جل جلاله إني أشهدكم أني قد غفرت لهم فيقولون كان فيهم فلان لم يردهم إنما جاء لحاجة فيقول الله عز وجل هم القوم لا يشقى جليسهم[٦] » .

---

(١) « ما جلس قوم مجلسا يذكرون الله تعالى إلا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وذكرهم فيمن عنده » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . (٢) « ما من قوم يذكرون الله تعالى لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء قوموا مغفورا لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات » أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبراني بسند ضعيف من حديث أنس (٣) « ما قعد قوم مقعدا لم يذكروا الله ولم يصلوا على النبي صلى الله عليه وسلم فيه إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة » أخرجه الترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة . (٤) « المجلس الصالح يكفر عن المؤمن ألفي ألف مجلس من مجالس السوء » ذكره صاحب الفردوس من حديث ابن وداعة وهو مرسل ولم يخرجه ولده وكذلك لم أجد له إسنادا (٥) حديث أبي هريرة « أنه دخل السوق وقال أراكم ههنا وميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم في المسجد فذهب الناس إلى المسجد وتركوا السوق ... » أخرجه الطبراني في المعجم الصغير بإسناد فيه جهالة أو انقطاع . (٦) حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة أو أبي سعيد الخدري عنه صلى الله عليه وسلم « أنه قال إن لله عز وجل وجل ملائكة سياحين في الأرض فضلا عن كتاب الناس ...» رواه الترمذي من هذا الوجه والحديث في الصحيحين من حديث أبي هريرة وحده وقد تقدم في الباب الثالث من العلم .

فضيلة التهليل

قال ﷺ « أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لاشريك له(١) » وقال ﷺ « من قال لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير كل يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت حرزاً له من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك(٢) » وقال ﷺ « ما من عبد توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء(٣) » وقال ﷺ « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في نشورهم كأني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رءوسهم من التراب ويقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور(٤) » وقال ﷺ لأبي هريرة « يا أبا هريرة إن كل حسنة تعملها توزن يوم القيامة إلا شهادة لا إله إلا الله فإنها لا توضع في ميزان ؛ لأنها لو وضعت في ميزان من قالها صادقاً ووضعت السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن كان لا إله إلا الله أرجح من ذلك(٥) » وقال ﷺ « لو جاء قائل لا إله إلا الله صادقا بقراب الأرض ذنوباً لغفر الله له ذلك(٦) » وقال ﷺ « يا أبا هريرة لقن الموتى شهادة أن لا إله إلا الله فإنها تهدم الذنوب هدما ، قلت : يا رسول الله هذا للموتى فكيف للأحياء ؟ قال ﷺ : هي أهدم وأهدم(٧) » وقال « من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة(٨) » وقال ﷺ « لتدخلن الجنة كلكم إلا من أبى وشرد عن الله عز وجل شراد البعير عن أهله فقيل : يا رسول الله من الذي يأبى ويشرد عن الله قال من لم يقل لا إله إلا الله(٩) ، فأكثروا من قول لا إله إلا الله قبل أن يحال بينكم

---

(١) « أفضل ماقلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله ... » تقدم في الباب الثاني من الحج .

(٢) « من قال لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مائة مرة ... » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٣) « ما من عبد توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله » أخرجه من حديث عقبة بن عامر وقد تقدم في الطهارة . (٤) « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في النشور ... » أخرجه أبو يعلى والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر ضعيف .

(٥) « يا أبا هريرة إن كل حسنة تعملها توزن يوم القيامة إلا شهادة أن لا إله إلا الله فإنها لا توضع في ميزان ؛ لأنها لو وضعت في ميزان من قالها صادقا ووضعت السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن كانت لا إله إلا الله أرجح من ذلك » قلت وصية أبي هريرة هذه موضوعة ، وآخر الحديث رواه المستغفري في الدعوات « ولو جعلت لا إله إلا الله » وهو معروف من حديث أبي سعيد مرفوعا « لو أن السموات السبع وعمارهن غيري والأرضين السبع في كفة مالت بهن لا إله إلا الله » رواه النسائي في اليوم والليلة وابن حبان والحاكم وصححه .

(٦) « لو جاء حامل لا إله إلا الله صادقا بقراب الأرض ذنوبا لغفر الله له » غريب بهذا اللفظ . وللترمذي في حديث لأنس « يقول الله يابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لآتيتك بقرابها مغفرة » ولأبي الشيخ في الثواب من حديث أنس « يارب ماجزاء من هلل مخلصا من قلبه قال جزاؤه أن يكون كيوم ولدته أمه من الذنوب » وفيه انقطاع . (٧) « ياأبا هريرة لقن الموتى شهادة أن لا إله إلا الله فإنها تهدم الذنوب ... » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي هريرة وفيه موسى ابن وردان مختلف فيه ورواه أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف ورواه ابن أبي الدنيا في المحتضرين من حديث الحسن مرسلا .

(٨) « من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة » أخرجه الطبراني من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضعيف .

(٩) « لتدخلن الجنة كلكم إلا من أبى وشرد على الله شرود البعير على أهله » أخرجه البخاري « كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى » زاد الحاكم وصححها « وشرد على الله شرود البعير على أهله » قال البخاري « قالوا يارسول الله ومن يأبى قال من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى » ولابن عدي وأبي يعلى والطبراني في الدعاء من حديثه « أكثروا من قول لا إله إلا الله قبل أن يحال بينكم وبينها » وفيه ابن وردان أيضا ولأبي الشيخ في الثواب من حديث الحكم بن عمير الثمالي مرسلا « إذا قلت لا إله إلا الله وهي كلمة التوحيد ... » والحكم ضعيف ، ولأبي بكر بن =

وبينها فإنها كلمة التوحيد والإخلاص وهى كلمة التقوى وهى كلمة الطيبة وهى دعوة الحق وهى العروة الوثقى وهى ثمن الجنة » وقال الله عز وجل ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ فقيل الإحسان فى الدنيا قول لا إله إلا الله وفى الآخرة الجنة . وكذا قوله تعالى ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ وروى البراء بن عازب أنه ﷺ قال « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ـ عشر مرات ـ كانت له عدل رقبة أو قال نسمة[1] » وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال قال النبى ﷺ « من قال فى يوم مائتى مرة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير لم يسبقه أحد كان قبله ولا يدركه أحد كان بعده إلا من عمل بأفضل من عمله[2] » وقال ﷺ « من قال فى سوق من الأسواق لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه مثلها سيئات وبنى له بيتا فى الجنة » ويروى « إن العبد إذا قال لا إله إلا الله أتت إلى صحيفته فلا تمر على خطيئة إلا محتها حتى تجد حسنة مثلها فتجلس إلى جنبها[3] » وفى الصحيح عن أيوب عن النبى ﷺ أنه قال « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسمعيل ﷺ[4] » وفى الصحيح أيضا عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ أنه قال « من تعالى من الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ثم قال : اللهم اغفر لى غفر له أو دعا استجيب له فإن توضأ وصلى قبلت صلاته (٥) » .

فضيلة التسبيح والتحمد وبقية الأذكار

قال ﷺ « من سبح دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين وحمد ثلاثا وثلاثين وكبر ثلاثا وثلاثين وختم المائة بلا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر (٦) » وقال ﷺ « من قال سبحان الله وبحمده فى اليوم مائة مرة حطت عنه خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر (٧) » وروى « أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال : تولت عنى الدنيا وقلت ذات يدى فقال النبى ﷺ فأين أنت من

= الضحاك فى الشمائل من حديث ابن مسعود فى إجابة المؤذن «اللهم رب هذه الدعوة المجابة المستجاب لها دعوة الحق وكلمة الإخلاص » ولابن عدى من حديث ابن عمر فى إجابة المؤذن «دعوة الحق» وللطبرانى فى الدعاء عن عبد الله بن عمرو « كلمة الإخلاص لا إله إلا الله ... » وللطبرانى من حديث سلمة بن الأكوع «وألزمهم كلمة التقوى قال : لا إله إلا الله » وللطبرانى فى الدعاء عن ابن عباس « كلمة طيبة قال شهادة أن لا إله إلا الله» وله عنه فى قوله «دعوة الحق» قال « شهادة أن لا إله إلا الله » وله عنه « فقد استمسك بالعروة الوثقى قال « لا إله إلا الله » ولابن عدى والمستغفرى من حديث أنس «ثمن الجنة لا إله إلا الله» ولا يصح شىء منها . (١) حديث البراء « من قال لا إله إلا الله وحد لا شريك له...» أخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين وهو فى مسند أحمد دون قوله « عشر مرات » (٢) حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « أنه صلى الله عليه وسلم قال من قال فى كل يوم مائة مرة لا إله إلا الله وحده لا شريك له ... » أخرجه أحمد بلفظ « مائة » وكذا رواه الحاكم فى المستدرك وإسناده جيد وهكذا هو فى بعض نسخ الإحياء .

(٣) «إن العبد إذا قال لا إله إلا الله أتت إلى صحيفته فلا تمر على خطيئة إلا محتها حتى تجد حسنة مثلها فتجلس إليها» أخرجه أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف (٤) حديث أبى أيوب « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسمعيل » متفق عليه

(٥) حديث عبادة بن الصامت « من تعار من الليل فقال لا إله إلا الله ...» رواه البخارى (٦) « من سبح دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين ... » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة (٧) « من قال سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

صلاة الملائكة وتسبيح الخلائق وبها يرزقون ؟ قال : فقلت وماذا يا نبي الله ؟ قال : قل سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم استغفر الله مائة مرة ما بين طلوع الفجر إلى تصلى الصبح تأتيك الدنيا راغمة صاغرة ويخلق الله من كل كلمة ملكا يسبح الله تعالى إلى يوم القيامة لك ثوابه [١] » وقال ﷺ « إذا قال العبد الحمد لله ملأت ما بين السماء والأرض فإذا قال الحمد لله الثانية ملأت ما بين السماء السابعة إلى الأرض السفلى فإذا قال الحمد لله الثالثة قال الله عز وجل سل تعط [٢] » وقال رفاعة الزرقي « كنا نصلى وراء النبي ﷺ فلما رفع رأسه من الركوع وقال سمع الله لمن حمده قال رجل وراءه ﷺ : ربنا لك الحمد حمداً كثيراً طيبا مباركا فيه ؛ فلما انصرف النبي ﷺ عن صلاته قال: من المتكلم آنفا ؟ قال : أنا يارسول الله ، فقال ﷺ : لقد رأيت بضعة عشر ملكا يبتدرونها أيهم يكتبها أولا [٣] » وقال ﷺ «الباقيات الصالحات هن لا إله إلا الله وسبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله [٤] » وقال ﷺ « ما على الأرض رجل يقول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله إلا غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر [٥] » رواه ابن عمر وروى النعمان بن بشير عنه ﷺ أنه قال « الذين يذكرون من جلال الله وتسبيحه وتكبيره وتحميده ينعطفن حول العرش لهن دوى كدوى النحل يذكرون بصاحبهن أولا يحب أحدكم أن لا يزال عند الله ما يذكر به [٦] » وروى أبو هريرة أنه ﷺ قال : « لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إلى مما طلعت عليه الشمس [٧] » وفي رواية أخرى زاد : « لا حول ولا قوة إلا بالله وقال هي خير من الدنيا وما فيها » وقال ﷺ « أحب الكلام إلى الله تعالى أربع : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر لا يضرك بأيهن بدأت [٨] » رواه سمرة بن جندب . وروى أبو مالك

---

(١) « أن رجلا جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال تولت عني الدنيا وقلت ذات يدي فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام فأين أنت عن صلاة الملائكة وتسبيح الخلائق وبها يرزقون ... » أخرجه المستغفري في الدعوات من حديث ابن عمر وقال غريب من حديث مالك ولا أعرف له أصلا في حديث مالك ولأحمد من حديث عبد الله بن عمر « أن نوحا قال لابنه آمرك بلا إله إلا الله ... » ثم قال « وسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق الخلق » وإسناده صحيح .

(٢) « إذا قال العبد الحمد لله ملأت ما بين السماء والأرض وإذا قال الحمد لله الثانية ملأت ما بين السماء السابعة إلى الأرض وإذا قال الحمد لله الثالثة قال تعالى سل تعطه » غريب بهذا اللفظ لم أجده .

(٣) حديث رفاعة الزرقي « كنا يوما نصلى وراء النبي عليه الصلاة والسلام فلما رفع رأسه من الركوع وقال سمع الله لمن حمده قال رجل وراءه ربنا لك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه... » رواه البخاري . (٤) «الباقيات الصالحات هن لا إله إلا الله وسبحان الله والله أكبر والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله» أخرجه النسائي في اليوم والليلة وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد والنسائي والحاكم من حديث أبي هريرة دون قوله « ولا حول ولا قوة إلا بالله » . (٥) « ما على الأرض رجل يقول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله إلا غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر » أخرجه الحاكم من حديث عبد الله بن عمر وقال صحيح على شرط مسلم وهو عند الترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة مختصرا دون قوله « سبحان الله والحمد لله » .

(٦) حديث النعمان بن بشير « الذين يذكرون من جلال الله وتسبيحه وتمجيده وتهليله وتحميده ينعطف حول العرش له دوى كدوى النحل يذكر بصاحبه ... » أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه على شرط مسلم .

(٧) حديث أبي هريرة « لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إلى مما طلعت عليه الشمس» وزاد في رواية « ولا حول ولا قوة إلا بالله وقال خير من الدنيا وما فيها » أخرجه مسلم باللفظ الأول وللمستغفري في الدعوات من رواية مالك بن دينار « أن أبا أمامة قال للنبي صلى الله عليه وسلم قلت سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر خير من الدنيا وما فيها قال أنت أغنم القوم » وهو مرسل جيد الإسناد .

(٨) حديث سمرة بن جندب « أحب الكلام إلى أربع ... » رواه مسلم .

الأشعرى أن النبى ﷺ كان يقول « الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والله أكبر يملآن ما بين السماء والأرض والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو فبائع نفسه فموبقها أو مشتر نفسه فمعتقها (١) » وقال أبو هريرة : قال النبى ﷺ « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم (٢) » وقال أبو ذر رضى الله عنه « قلت لرسول الله ﷺ : أى الكلام أحب إلى الله عز وجل قال ﷺ : ما اصطفى الله تعالى لملائكته ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم (٣) » وقال أبو هريرة قال النبى ﷺ « إن الله اصطفى من الكلام : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر (٤) » فإذا قال العبد : سبحان الله ، كتبت له عشرون حسنة وتحط عنه عشرون سيئة ، وإذا قال : الله أكبر ، فمثل ذلك وذكر إلى آخر الكلمات » وقال جابر : قال النبى ﷺ من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة فى الجنة (٥) » وعن أبى ذر رضى الله عنه أنه قال : قال الفقراء لرسول الله ﷺ «ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم ، فقال : أو ليس قد جعل لكم ما تصدقون به ؟ إن بكل تسبيحة صدقة وتحميدة وتهليلة صدقة وتكبيرة صدقة ، ونهى عن منكر صدقة ، ويضع أحدكم اللقمة فى أهله فهى له صدقة ، وفى بضع أحدكم صدقة . قالوا : يا رسول الله يأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ فقال ﷺ : أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر ؟ قالوا : نعم . قال : كذلك إن وضعها فى الحلال كان له فيها أجر (٦) » وقال أبو ذر الغفارى رضى الله عنه : قلت لرسول الله ﷺ « سبق أهل الأموال بالأجر ، يقولون ما نقول ولا ننفق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفلا أدلك على عمل إذا أنت عملته أدركت من قبلك وفقت من بعدك إلا من قال مثل قولك ؟ تسبح الله بعد كل صلاة ثلاثا وثلاثين ، وتحمده ثلاثا وثلاثين ، وتكبر أربعا وثلاثين (٧) » وروت بسرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس فلا تغفلن واعقدن بالأنامل فإنها مستنطقات (٨) » يعنى بالشهادة فى القيامة . وقال ابن عمر : رأيته ﷺ يعقد التسبيح (٩) . وقد قال ﷺ فيما شهد عليه أبو هريرة وأبو سعيد الخدرى : « إذا قال العبد لا إله إلا الله والله أكبر قال الله عز وجل : صدق عبدى ، لا إله إلا أنا وأنا أكبر ، وإذا قال : لا إله إلا الله وحده لاشريك له قال تعالى : صدق عبدى لا إله إلا أنا وحدى لاشريك لى ، وإذا قال : لا إله إلا الله ولاحول ولا

---

(١) حديث أبى مالك الأشعرى « الطهور تشطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان ... » رواه مسلم وقد تقدم فى الطهارة

(٢) حديث أبى هريرة « كلمتان خفيفتان على اللسان ... » متفق عليه . (٣) حديث أبى ذر « أى الكلام أحب إلى الله قال ما اصطفى الله لملائكته سبحان الله العظيم » رواه مسلم أبو داود والنسائى «قوله سبحان الله العظيم » .

(٤) « إن الله اصطفى من الكلام سبحان الله والحمد لله ...» أخرجه النسائى فى اليوم والليلة والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم وصححه من حديث أبى هريرة وأبى سعيد إلا أنهما قالا فى ثواب الحمدلله « كتبت له ثلاثون حسنة وحطت عنه ثلاثون سيئة » . (٥) حديث جابر « من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة فى الجنة» أخرجه الترمذى وقال حسن والنسائى فى اليوم والليلة وابن حبان والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم وصححه . (٦) حديث أبى ذر «قال الفقراء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلى ... » رواه مسلم .

(٧) حديث أبى ذر « قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم سبق أهل الأموال بالأجر يقولون كما نقول وينفقون ولا ننفق ... » رواه ابن ماجه إلا أنه قال : قال سفيان لا أدرى أيتهن أربع ، ولأحمد فى هذا الحديث « وتحمد أربعا وثلاثين » وإسنادها جيد ولأبى الشيخ فى الثواب من حديث أبى الدرداء « وتكبر أربعا وثلاثين » كما ذكر المصنف

(٨) حديث بسرة « عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس ولا تغفلن واعقدن بالأنامل فإنها مستنطقات » أخرجه أبو داود والترمذى والحاكم بإسناد جيد . (٩) حديث ابن عمر « رأيته صلى الله عليه وسلم يعقد التسبيح » قلت إنما هو عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه أبو داود والنسائى والترمذى وحسنه والحاكم .

إلا بالله يقول الله سبحانه صدق عبدى لا حول ولا قوة إلا بى ومن قالهن عند الموت لم تمسه النار (١) » وروى مصعب ابن سعد عن أبيه عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة فقيل : كيف ذلك يارسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : يسبح الله مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة ويحط عنه ألف سيئة (٢) » . وقال صلى الله عليه وسلم « يا عبد الله بن قيس — أو يا أبا موسى — أولا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ قال: بلى قال : قل لا حول ولا قوة إلا بالله (٣) » وفى رواية أخرى « ألا أعلمك كلمة كنز تحت العرش : لاحول ولا قوة إلا بالله » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أدلك على عمل من كنوز الجنة من تحت العرش قول لا حول ولا قوة إلا بالله يقول الله تعالى أسلم عبدى واستسلم (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « من قال حين يصبح رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبالقرآن إماما وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا كان حقا على الله أن يرضيه يوم القيامة (٥) » وفى رواية « من قال ذلك رضى الله عنه » وقال مجاهد : إذا خرج الرجل من بيته فقال : بسم الله قال الملك : هديت . فإذا قال : توكلت على الله ، قال الملك : كفيت . وإذا قال : لاحول ولا قوة إلا بالله، قال الملك : وقيت فتتفرق عنه الشياطين فيقولون ما تريدون من رجل قد هدى وكفى ووقى ؟ لاسبيل لكم إليه .

فان قلت : فما بال ذكر الله سبحانه مع خفته على اللسان وقلة التعب فيه صار أفضل وانفع من جملة العبادات مع كثرة المشقات فيها ؟ فاعلم أن تحقيق هذا لا يليق إلا بعلم المكاشفة . والقدر الذى يسمح بذكره فى علم المعاملة : أن المؤثر النافع هو الذكر على الدوام مع حضور القلب فأما الذكر باللسان والقلب لاه فهو قليل الجدوى . وفى الأخبار ما يدل عليه أيضا (٦) وحضور القلب فى لحظة بالذكر والذهول عن الله عز وجل مع الاشتغال بالدنيا أيضا قليل الجدوى بل حضور القلب مع الله تعالى على الدوام أو فى أكثر الأوقات هو المقدم على العبادات بل به تشرف سائر العبادات وهو غاية ثمرة العبادات العملية . والذكر أول وآخر ، فأوله يوجب الأنس والحب وآخره يوجب الأنس والحب ويصدر عنه . والمطلوب ذلك الأنس والحب . فإن المريد فى بداية أمره قد يكون متكلفا بصرف قلبه ولسانه الوسواس إلى ذكر الله عز وجل . فان وفق للمداومة أنس به وانغرس فى قلبه حب المذكور ، ولا ينبغى أن يتعجب من هذا فان من المشاهد فى العادات أن تذكر غائبا غير مشاهد بين يدى شخص وتكرر ذكر خصاله عنده فيحبه وقد يعشق بالوصف وكثرة الذكر . ثم إذا عشق بكثرة الذكر المتكلف أولا صار مضطرا إلى كثرة الذكر آخرا بحيث لا يصبر عنه . فان من أحب شيئا أكثر من ذكره . ومن أكثر ذكر شىء — وإن كان تكلفا — أحبه . فكذلك أول الذكر متكلف إلى أن يثمر الأنس بالمذكور والحب له ثم يمتنع الصبر عنه آخرا فيصير الموجب موجبا

---

(١) حديث أبى هريرة وأبى سعيد « إذا قال العبد لا إله إلا الله والله أكبر قال الله صدق عبدى ... » أخرجه الترمذى وقال حسن والنسائى فى اليوم والليلة وابن ماجه والحاكم وصححه (٢) حديث مصعب بن سعد عن أبيه «أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة ... » أخرجه مسلم إلا أنه قال « أو يحط» كما ذكره المصنف وقال حسن صحيح

(٣) «ياعبد الله بن قيس — أو أبا موسى — ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة قال بلى قال لاحول ولا قوة إلا بالله» متفق عليه (٤) حديث أبى هريرة « عمل من كنز الجنة ومن تحت العرش قول لاحول ولا قوة إلا بالله يقول الله أسلم عبدى واستسلم »أخرجه النسائى فى اليوم والليلة والحاكم «من قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله يقول الله أسلم عبدى واستسلم» وقال صحيح الإسناد . (٥) « من قال حين يصبح رضيت بالله ربا ...» أخرجه أبو داود والنسائى فى اليوم والليلة والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث خادم النبى صلى الله عليه وسلم ورواه الترمذى من حديث ثوبان وحسنه وفيه نظر ففيه سعد بن المرزبان ضعيف جدا (٦) « الدال على أن الذكر والقلب لاه قليل الجدوى» أخرجه الترمذى وقال حسن والحاكم وقال حديث مستقيم الإسناد من حديث أبى هريرة «واعلموا أن الله لا يقبل الدعاء من قلب لاه » .

والثمر مثمرا . وهذا معنى قول بعضهم : كابدت القرآن عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة . ولا يصدر التنعم إلا من الأنس والحب ولا يصدر الأنس إلا من المداومة على المكابدة والتكلف مدة طويلة حتى يصير التكلف طبعاً . فكيف يستبعد هذا وقد يتكلف الإنسان تناول طعام يستبشعه أولا ويكابد أكله ويواظب عليه فيصير موافقا لطبعه حتى لا يصبر عنه فالنفس معتادة متحملة لما تتكلف * هي النفس ماعودتها تتعود * أي ما كلفتها أولا يصير لها طبعاً آخرا . ثم إذا حصل الأنس بذكر الله سبحانه انقطع عن غير ذكر الله وما سوى الله عز وجل هو الذي يفارقه عند الموت فلا يبقى معه في القبر أهل ولا مال ولا ولد ولا ولاية ولا يبقى إلا ذكر الله عز وجل فإن كان قد أنس به تمتع به وتلذذ بانقطاع العوائق الصارفة عنه إذ ضرورات الحاجات في الحياة الدنيا تصد عن ذكر الله عز وجل ، ولا يبقى بعد الموت عائق ، فكأنه خلى بينه وبين محبوبه فعظمت غبطته وتخلص من السجن الذي كان ممنوعا فيه عما به أنسه . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن روح القدس نفث في روعي أحبب من أحببت فإنك مفارقه (١) » أراد به كل ما يتعلق بالدنيا فإن ذلك يفنى في حقه بالموت فـ ﴿ كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ وإنما تفنى الدنيا بالموت في حقه إلى أن تفنى في نفسها عند بلوغ الكتاب أجله . وهذا الأنس يتلذذ به العبد بعد موته إلى أن ينزل في جوار الله عز وجل ويترقى من الذكر إلى اللقاء . وذلك بعد أن يبعثر ما في القبور ويحصل ما في الصدور ولا ينكر بقاء ذكر الله عز وجل معه بعد الموت فيقول إنه أعدم فكيف يبقى معه ذكر الله عز وجل؟ فإنه لم يعدم عدما يمنع الذكر بل عدما من الدنيا وعالم الملك والشهادة ومن عالم الملكوت . وإلى ماذكرناه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة (٢) » وبقوله صلى الله عليه وسلم « أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر (٣) » ويقول صلى الله عليه وسلم لقتلى بدر من المشركين « يافلان يافلان وقد سماهم النبي صلى الله عليه وسلم هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقا (٤) فسمع عمر رضي الله عنه قوله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله كيف يسمعون وأنى يجيبون وقد جيفوا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لكلامي منهم ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا » والحديث في الصحيح . هذا قوله عليه السلام في المشركين فأما المؤمنون والشهداء فقد قال صلى الله عليه وسلم « أرواحهم في حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش (٥) » وهذه الحالة وما أشير بهذه الألفاظ إليه لا ينافي ذكر الله عز وجل وقال تعالى ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ﴾ الآية ولأجل شرف ذكر الله عز وجل عظمت رتبة الشهادة لأن المطلوب الخاتمة ونعني بالخاتمة وداع الدنيا والقدوم على الله والقلب مستغرق بالله عز وجل منقطع العلائق

---

(١) « إن روح القدس نفث في روعي أحبب من أحببت فإنك مفارقة » تقدم في الكتاب السابع من العلم .
(٢) « القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من الجنة » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد بتقديم وتأخير وقال غريب . قلت فيه عبيد الله بن الوليد الرصافي ضعيف . (٣) « أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود « أنه سئل عن هذه الآية ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ﴾ الآية قال : أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال في جوف طير خضر فلم يسم فيه النبي صلى الله عليه وسلم » وفي رواية الترمذي « أما إنا سألنا عن ذلك فأخبرنا » وذكر صاحب الفردوس أن ابن منيع صرح برفعه في مسنده . (٤) « نداؤه لقتلى بدر من المشركين يافلان يافلان وقد سماهم إني قد وجدت ماوعدني ربي حقا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟ » أخرجه مسلم من حديث أنس . (٥) « أرواح المؤمنين في حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش » أخرجه ابن ماجه من حديث كعب بن مالك « إن أرواح المؤمنين في طير خضر تعلق بشجر الجنة » وروى النسائي بلفظ « إنما نسمة المؤمن الطائر » ورواه الترمذي بلفظ « أرواح الشهداء » وقال حسن صحيح .

عن غيره فإن قدر عبد على أن يجعل همه مستغرقا بالله عز وجل فلا يقدر على أن يموت على تلك الحالة إلا فى صف القتال . فإنه قطع الطمع عن مهجته وأهله وماله وولده بل من الدنيا كله فإنه يريدها لحياته وقد هون على قلبه حياته فى حب الله عز وجل وطلب مرضاته فلا تجرد لله أعظم من ذلك . ولذلك عظم أمر الشهادة وورد فيه من الفضائل مالا يحصى فمن ذلك أنه لما استشهد عبد الله بن عمرو الأنصارى يوم أحد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر « ألا أبشرك ياجابر ؛ قال : بلى بشرك الله بالخير قال : إن الله عز وجل أحيا أباك فأقعده بين يديه وليس بينه وبينه ستر فقال تعالى : تمن على ياعبدى ماشئت أعطيكه فقال يارب أن تردنى إلى الدنيا حتى أقتل فيك وفى نبيك مرة أخرى . فقال عز وجل : سبق القضاء منى بأنهم اليها لا يرجعون[١] » ثم القتل سبب الخاتمة على مثل هذه الحالة فإنه لولم يقتل وبقى مدة ربما عادت شهوات الدنيا اليه وغلبت على ما استولى على قلبه من ذكر الله عز وجل ولهذا عظم خوف أهل المعرفة من الخاتمة . فإن القلب وإن ألزم ذكر الله عز وجل فهو متقلب لايخلو عن الالتفات إلى شهوات الدنيا ولا ينفك عن فترة تعتريه . فاذا تمثل فى آخر الحال فى قلبه أمر من الدنيا والحالة هذه فيوشك أن يبقى استيلاؤه عليه فيحن بعد الموت إليه ويتمنى الرجوع إلى الدنيا . وذلك لقلة حظه فى الآخرة إذ يموت المرء على ماعاش عليه ويحشر على ما مات عليه . فاسلم الأحوال عن هذا الخطر خاتمة الشهادة إذا لم يكن قصد الشهيد نيل مال أو أن يقال شجاع أو غير ذلك[٢] كما ورد به الخبر بل حب الله عز وجل وإعلاء كلمته فهذه الحالة هى التى عبر عنها ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ ومثل هذا الشخص هو البائع للدنيا بالآخرة وحالة الشهيد توافق معنى قولك « لا إله إلا الله » فانه لامقصود له سوى الله عز وجل وكل مقصود معبود وكل معبود إله فهذا الشهيد قائل بلسان حاله « لا إله إلا الله » إذ لامقصود له سواه . ومن يقول ذلك بلسانه ولم يساعده حاله فأمره فى مشيئة الله عز وجل ولا يؤمن فى حقه الخطر . ولذلك فضل رسول الله ﷺ قول لا إله إلا الله على سائر الأذكار[٣] وذكر ذلك مطلقا فى مواضع الترغيب . ثم ذكر فى بعض المواضع الترغيب . ثم ذكر فى بعض المواضع الصدق والإخلاص فقال مرة « من قال لا إله إلا الله مخلصا » ومعنى الإخلاص مساعدة الحال للمقال . فنسأل الله تعالى أن يجعلنا فى الخاتمة من أهل لا إله إلا الله حالا ومقالا ظاهرا وباطنا حتى نودع الدنيا غير متلفتين اليها بل متبرمين بها ومحبين للقاء الله فان من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه فهذه مرامز الى معانى الذكر التى لا يمكن الزيادة عليها فى علم المعاملة .

الباب الثانى : فى آداب الدعاء وفضله وفضل بعض الأدعية المأثورة

وفضيلة الاستغفار والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم

فضيلة الدعاء

قال الله تعالى ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى ﴾ وقال تعالى

---

(١) « ألا أبشرك ياجابر قال بلى بشرك الله بالخير قال إن الله أحيا أباك وأقعده بين يديه وليس بينه وبينه ستر فقال تعالى تمن على ... » أخرجه الترمذى وقال حسن وابن ماجه والحاكم وصحح إسناده من حديث جابر .

(٢) « الرجل يقاتل لنيل مال أو أن يقال شجاع أو غير ذلك » متفق عليه من حديث أبى موسى « قال جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال الرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن فى سبيل الله ؟ قال من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

(٣) « تفضيل لا إله إلا الله على سائر الأذكار » أخرجه الترمذى وقال حسن والنسائى فى اليوم والليلة وابن ماجه من حديث جابر

﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لايحب المعتدين ﴾ وقال تعالى ﴿ وقال ربكم أدعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ وقال عز وجل ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ وروى النعمان بن بشير عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الدعاء هو العبادة ثم قرأ ﴿ ادعونى استجب لكم ﴾[١] » الآية - وقال صلى الله عليه وسلم « الدعاء مخ العبادة[٢] » وروى أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال « ليس شيء أكرم على الله عز وجل من الدعاء[٣] وقال صلى الله عليه وسلم « إن العبد لايخطئه من الدعاء إحدى ثلاث : إما ذنب يغفر له وإما خير يعجل له وإما خير يدخر له[٤] » وقال أبو ذر رضى الله عنه : يكفى من الدعاء مع البر مايكفى الطعام من الملح . وقال ﷺ «سلوا الله تعالى من فضله فإن الله تعالى يحب أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج[٥] » .

آداب الدعاء وهى عشرة

(الأول) أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة كيوم عرفة من السنة ، ورمضان من الأشهر ويوم الجمعة من الأسبوع ، ووقت السحر من ساعات الليل . قال تعالى ﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « ينزل الله تعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول عز وجل من يدعونى فأستجيب له من يسألنى فأعطيه من يستغفرنى فأغفر له[٦] » وقيل إن يعقوب صلى الله عليه وسلم إنما قال ﴿سوف أستغفر لكم ربى﴾ ليدعو فى وقت السحر . فقيل إنه قام فى وقت السحر يدعو وأولاده يؤمنون خلفه فأوحى الله عز وجل إليه إنى قد غفرت لهم وجعلتهم أنبياء (الثانى) يغتنم الأحوال الشريفة . قال أبو هريرة رضى الله عنه : إن أبواب السماء تفتح عند زحف الصفوف فى سبيل الله تعالى وعند أول الغيث وعند إقامة الصلوات المكتوبة فاغتنموا الدعاء فيها.وقال مجاهد : إن الصلاة جعلت فى خير الساعات فعليكم بالدعاء خلف الصلوات . وقال صلى الله عليه وسلم « الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد[٧] » وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً «الصائم لاترد دعوته[٨] » وبالحقيقة يرجع شرف الأوقات إلى شرف الحالات أيضا إذ وقت السحر وقت صفاء القلب وإخلاصه وفراغه من المشوشات : ويوم عرفة ويوم الجمعة وقت اجتماع الهمم وتعاون القلوب على استدرار رحمة الله عز وجل فهذا أحد أسباب شرف الأوقات سوى ما فيها من أسرار لايطلع البشر عليها . وحالة السجود أيضا اجدر بالإجابة قال أبو هريرة رضى الله عنه : قال النبى

الباب الثانى فى آداب الدعاء وفضله

(١) حديث النعمان بن بشير « إن الدعاء هو العبادة » أخرجه أصحاب السنن والحاكم وقال صحيح الإسناد وقال الترمذى حسن صحيح . (٢) « الدعاء مخ العبادة » أخرجه الترمذى من حديث أنس وقال غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث أبى لهيعة . (٣) حديث أبى هريرة « ليس شيء أكرم عند الله من الدعاء» أخرجه الترمذى وقال غريب وابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد . (٤) «إن العبد لا يخطئه من الدعاء إحدى ثلاث: إما ذنب يغفر له وإما خير يعجل له وإما خير يدخر له » أخرجه الديلمى فى الفردوس من حديث أنس وفيه روح . أخرجه ابن مسافر عن أبان بن عياش وكلاهما ضعيف ولأحمد والبخارى فى الأدب والحاكم وصحح إسناده من حديث أبى سعيد « إما تعجل له دعوته وإما أن يدخر له فى الآخرة وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها » . (٥) « سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج » أخرجه الترمذى من حديث ابن مسعود وقال حماد ابن واقد ليس بالحافظ قلت وضعفه ابن معين وغيره .

(٦) « ينزل الله كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل ... » متفق عليه من حديث أبى هريرة.

(٧) « الدعاء بين الأذان والإقامة لايرد» أخرجه أبو داود والنسائى فى اليوم والليلة والترمذى وحسنه من حديث أنس وضعفه ابن القطان ورواه فى اليوم و الليلة بإسناد آخر جيد وابن حبان والحاكم وصححه .

(٨) « الصائم لاترد دعوته » أخرجه الترمذى وقال حسن وابن ماجه من حديث أبى هريرة بزيادة فيه .

صلى الله عليه وسلم « أقرب مايكون العبد من ربه عز وجل وهو ساجد فأكثروا فيه من الدعاء (١) » وروى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إنى نهيت أن أقرأ القرآن راكعا أو ساجدا فأما الركوع فعظموا فيه الرب تعالى وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فإنه قمن أن يستجاب لكم (٢) » (الثالث) أن يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه بحيث يرى بياض إبطيه . وروى جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتى الموقف بعرفه واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غربت الشمس (٣) » وقال سلمان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن ربكم حيي كريم يستحيي من عبيده إذا رفعوا أيديهم إليه أن يردها صفرا (٤) » وروى أنس أنه صلى الله عليه وسلم « كان يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه فى الدعاء ولا يشير بأصبعيه (٥) » وروى أبو هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم مر على إنسان يدعو ويشير بإصبعيه السبابتين فقال صلى الله عليه وسلم أحد أحد (٦) » أى اقتصر على الواحدة . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : ارفعوا هذه الأيدى قبل أن تغل بالأغلال ، ثم ينبغى أن يمسح بهما وجهه فى آخر الدعاء . قال عمر رضى الله عنه « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مد يديه فى الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه (٧) » وقال ابن عباس « كان صلى الله عليه وسلم إذا دعا ضم كفيه وجعل بطونهما مما يلى وجهه (٨) » فهذه هيئات اليد ولا يرفع بصره إلى السماء قال صلى الله عليه وسلم « لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء أو لتخطفن أبصارهم (٩) » (الرابع) خفض الصوت بين المخافتة والجهر لما روى أن أبا موسى الأشعرى قال : قدمنا مع رسول الله فلما دنونا من المدينة كبر وكبر الناس ورفعوا أصواتهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا أيها الناس إن الذى تدعون ليس بأصم ولا غائب إن الذى تدعون بينكم وبين أعناق ركابكم (١٠) » وقالت عائشة رضى الله عنها فى قوله عز وجل ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها (١١) ﴾ أى بدعائك وقد أثنى الله عز وجل على نبيه زكرياء عليه السلام حيث قال ﴿ إذ نادى ربه نداء خفيا ﴾ وقال عز وجل ﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخفية ﴾ (الخامس) أن لا يكلف السجع فى الدعاء فإن حال الداعى ينبغى أن يكون حال متضرع والتكلف لا يناسبه قال صلى الله عليه وسلم « سيكون قوم يعتدون فى الدعاء (١٢) وقد قال عز وجل : ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه

---

(١) حديث أبى هريرة « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء » رواية مسلم .
(٢) حديث ابن عباس « إنى نهيت أن أقرأ القرآن راكعا أو ساجدا ... » أخرجه مسلم أيضا .
(٣) حديث جابر « أن رسول الله عليه الصلاة والسلام أتى الموقف بعرفة واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غربت الشمس ... » أخرجه مسلم دون قوله « يدعو » فقال مكانها « واقفا » والنسائى من حديث أسامة بن زيد « كنت ردفه بعرفات فرفع يديه يدعو » ورجاله ثقات . (٤) حديث سلمان « إن ربكم حيى كريم يستحى من عبده إذا رفع يديه أن يردها صفرا » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وقال إسناده صحيح على شرطهما .
(٥) حديث أنس « كان يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه فى الدعاء ولا يشير بأصبعه » أخرجه مسلم دون قوله ولا يشير بأصبعه . والحديث متفق عليه لكن مقيد بالاستسقاء . (٦) حديث أبى هريرة « مر على إنسان يدعو بأصبعيه السبابتين فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام أحد أحد » أخرجه النسائى وقال حسن وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد
(٧) حديث عمر « كان النبي عليه الصلاة والسلام إذا مد يديه فى الدعاء لم يردها حتى يمسح بهما وجهه » أخرجه الترمذى وقال غريب والحاكم فى المستدرك وسكت عليه وهو ضعيف. (٨) حديث ابن عباس « كان النبي عليه الصلاة والسلام إذ دعا ضم كفيه وجعل بطونهما مما يلى وجهه » أخرجه الطبرانى فى الكبير بسند ضعيف .
(٩) « لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء أو لتخطفن أبصارهم » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وقال عند الدعاء فى الصلاة . (١٠) حديث أبى موسى الأشعرى « يا أيها الناس إن الذى تدعون ليس بأصم ولا غائب » متفق عليه مع اختلاف ، واللفظ الذى ذكره المصنف لأبى داود . (١١) حديث عائشة فى قوله تعالى « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها » أى بدعائك متفق عليه . (١٢) « سيكون قوم يعتدون فى الدعاء » وفى الرواية « والطهور » أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن مغفل .

لايحب المعتدين﴾ قيل معناه التكليف الأسجاع والأولى أن يجاوز الدعوات المأثورة فانه قد يعتدى فى دعائه فيسأل مالاتقتضيه مصلحته فما كل أحد يحسن الدعاء ولذلك روى عن معاذ رضى الله عنه : إن العلماء يحتاج إليهم فى الجنة إذ يقال لأهل الجنة تمنوا فلا يدرون كيف يتمنون حتى يتعلموا من العلماء ؛ وقد قال ﷺ « إياكم والسجع فى الدعاء حسب أحدكم أن يقول اللهم إنى أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل[١] » وفى الخبر . سيأتى قوم يعتدون فى الدعاء والطهور . ومر بعض السلف بقاص يدعو بسجع فقال له: أعلى الله تبالغ ؟أشهد لقد رأيت حبيبا العجمى يدعو وما يزيد على قوله : اللهم اجعلنا جيدين اللهم لاتفضحنا يوم القيامة اللهم وفقنا للخير ، والناس يدعون من كل ناحية وراءه وكان يعرف بركة دعائه وقال بعضهم : ادع بلسان الذلة والافتقار لا بلسان الفصاحة والانطلاق ويقال إن العلماء والأبطال لا يزيدون فى الدعاء على سبع كلمات فما دونها ويشهد له آخر سورة البقرة فان الله تعالى لم يخبر فى موضع من أدعية عباده أكثر من ذلك واعلم أن المراد بالسجع هو المتكلف من الكلام فان ذلك لا يلائم الضراعة والذلة وإلا ففى الأدعية المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات متوازنة لكنها غير متكلفة كقوله صلى الله عليه وسلم « أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود والركع السجود الموفين بالعهود إنك رحيم ودود وإنك تفعل ماتريد[٢] » وأمثال ذلك فليقتصر على المأثور من الدعوات أو ليلتمس بلسان التضرع والخشوع من غير سجع وتكلف فالتضرع هو المحبوب عندالله عز وجل (السادس) التضرع والخشوع والرغبة والرهبة قال الله تعالى ﴿إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً﴾ وقال عزوجل ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « إذا أحب الله عبداً ابتلاه حتى يسمع تضرعه[٣] » (السابع) أن يجزم الدعاء ويوقن بالإجابة ويصدق رجاءه فيه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يقل أحدكم إذا دعا اللهم اغفر لى إن شئت اللهم ارحمنى إن شئت ليعزم المسألة فانه لامكروه له[٤] » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة فان الله لايتعاظمه شىء[٥] » وقال صلى الله عليه وسلم « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله عز وجل لايستجيب دعاء من قلب غافل[٦] » وقال سفيان بن عيينة : لايمنعن أحدكم من الدعاء مايعلم من نفسه فان الله عز وجل أجاب دعاء شر الخلق إبليس لعنه الله ﴿إذ قال رب فانظرنى إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين﴾ (الثامن) أن يلح فى الدعاء ويكرره ثلاثا قال ابن مسعود :

---

(١) « إياكم والسجع فى الدعاء بحسب أحدكم أن يقول اللهم إنى أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل » غريب بهذا السياق وللبخارى عن ابن عباس « وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه فإنى عهدت أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام لايفعلون إلا ذلك » وابن ماجه والحاكم واللفظ له وقال صحيح الإسناد من حديث عائشة « عليك بالكوامل » وفيه « وأسألك الجنة ... إلى آخره ».

(٢) « أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود والركع السجود الموفين بالعهود إنك رحيم ودود وإنك تفعل ماتريد » أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس « سمعت رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول ليلة حين فرغ من صلاته ... فذكر حديثا طويلا من جملته هذا» وقال حديث غريب انتهى ، وفيه محمد بن عبد الرحمن ابن أبى ليلى سىء الحفظ . (٣) « إذا أحب الله عبدا ابتلاه حتى يسمع تضرعه» أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس « إذا أحب الله عبدا صب عليه البلاء صبا ... » وفيه « دعه فإن أحب أن أسمع صوته » وللطبرانى من حديث أبى أمامة « إن الله يقول للملائكة انطلقوا إلى عبدى فصبوا عليه البلاء ...» وفيه « فإنى أحب أن أسمع صوته » وسندهما ضعيف . (٤) « لايقل أحدكم اللهم أغفرلى إن شئت اللهم ارحمنى إن شئت ليعزم المسألة فإنه لامكره له » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٥) « إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شىء » أخرجه ابن حبان من حديث أبى هريرة .

(٦) « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لايستجيب دعاء من قلب غافل » أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة وقال غريب والحاكم وقال مستقيم الإسناد تفرد به صالح المرى وهو أحد زهاد البصرة قلت لكنه ضعيف فى الحديث .

كان عليه السلام إذا دعا دعا ثلاثا وإذا سأل سأل ثلاثا[١]» وينبغي أن لا يستبطىء الإجابة لقوله ﷺ « يستجاب لأحدكم مالم يعجل فيقول قد دعوت فلم يستجب لى فإذا دعوت فأسأل الله كثيرا فانك تدعو كريمـا [٢] » وقال بعضهم : إنى أسأل الله عز وجل منذ عشرين سنة حاجة وما أجابنى وأنا ارجو الإجابة سألت الله تعالى ان يوفقنى اترك مالا يعنينى . وقال صلى الله عليه وسلم « اذا سأل احدكم ربه مسألة فتعرف الإجابة فليقل الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ومن ابطأ عنه شيء من ذلك فليقل الحمد لله على كل حال [٣] » (التاسع) ان يفتتح الدعاء بذكر الله عز وجل فلا يبدأ بالسؤال . قال سلمة بن الأكوع « ما سمعت رسول الله صلى الله وسلم يستفتح الدعاء إلا استفتحه يقول : سبحان ربى العلى الأعلى الوهاب[٤] قال ابو سليمان الدارانى رحمه الله : من أراد ان يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ثم يسأله حاجته ثم يختم بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فإن الله عزوجل يقبل الصلاتين وهو اكرم من ان يدع ما بينهما ،وروى فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال «إذا سألتم الله عز وجل حاجة فابتدئوا بالصلاة علىّ فان الله تعالى اكرم من ان يسئل حاجتين فيقضى احداهما ويرد الأخرى[٥] رواه ابو طالب المكى (العاشر) وهو الأدب الباطن وهو الأصل فى الإجابة : التوبة ورد المظالم والإقبال على الله عز وجل بكنه الهمة فذلك هو السبب القريب فى الإجابة . فيروى عن كعب الأحبار انه قال :أصاب الناس قحط شديد على عهد موسى رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج موسى ببنى إسرائيل يستسقى بهم فلم يسقوا حتى خرج ثلاث مرات ولم يسقوا : فأوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام لا أستجيب لك ولا لمن معك وفيكم نمام ، فقال موسى : يارب ومن هو حتى نخرجه من بيننا فأوحى الله عز وجل اليه : ياموسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماما ! فقال موسى لبنى إسرائيل توبوا الى ربكم بأجمعكم عن النميمة فتابوا فأرسل الله تعالى عليهم الغيث . وقال سعيد بن جبير: قحط الناس فى زمن ملك من ملوك بنى اسرائيل فاستسقوا فقال الملك لبنى اسرائيل: ليرسلن الله تعالى علينا السماء أو لنؤذينه قيل له وكيف تقدر ان تؤذيه وهو فى السماء ؟فقال اقتل اولياءه واهل طاعته فيكون ذلك أذى له فأرسل الله تعالى عليهم السماء وقال سفيان الثورى بلغنى أن بنى اسرائيل قحطوا سبع سنين حتى أكلوا الميتة من المزابل وأكلوا الأطفال وكانوا كذلك يخرجون الى الجبال يبكون ويتضرعون ، فأوحى الله عز وجل الى انبيائهم عليهم السلام لو مشيتم إلى بأقدامكم حتى تحفى ركبكم وتبلغ أيديكم عنان السماء وتكل ألسنتكم عن الدعاء فانى لا أجيب لكم داعيا ولا ارحم لكم باكيا حتى تردوا المظالم الى اهلها ففعلوا فمطروا من يومهم .وقال مالك بن دينار :اصاب الناس فى بنى إسرائيل قحط فخرجوا مرارا فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم أنكم تخرجون إلى بأبدان نجسة وترفعون إلى أكفا قد سفكتم بها الدماء وملأتم بطونكم من الحرام الآن قد اشتد غضبى عليكم ولن تزدادوا منى إلا بعدا . وقال أبو الصديق الناجى : خرج سليمان عليه السلام يستسقى فمر بنملة ملقاة على ظهرها رافعة قوائمها

---

(١) حديث ابن مسعود « كان صلى الله عليه وسلم إذا دعا دعا ثلاثا وإذا سأل سأل ثلاثا » رواه مسلم وأصله متفق عليه

(٢) « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول دعوت فلم يستجب لى » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٣) « إذا سأل أحدكم مسألة فتعرف الإجابة فليقل الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ومن أبطأ عنه من ذلك شيء فليقل الحمد لله على كل حال »أخرجه البيهقى فى الدعوات من حديث أبى هريرة وللحاكم نحوه من حديث عائشة مختصرا بإسناد ضعيف .

(٤) حديث سلمة بن الأكوع «ماسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الدعاء إلا استفتحه وقال سبحان ربى العلى الأعلى الوهاب » أخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد قلت فيه عمر بن راشد اليمانى ضعفه الجمهور .

(٥) « إذا سألتم حاجة فابدءوا بالصلاة على فإن الله تعالى أكرم من أن يسأل حاجتين فيعطى إحداهما ويرد الأخرى » لم أجده مرفوعا وإنما هو موقوف على أبى الدرداء .

إلى السماء وهي تقول : اللهم إنا خلق من خلقك ولا غنى بنا عن رزقك فلا تهلكنا بذنوب غيرنا ، فقال سليمان عليه السلام : ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم ، وقال الأوزاعي : خرج الناس يستسقون فقام فيهم بلال بن سعد لحمد الله وأثنى عليه ثم قال يامعشر من حضر ألستم مقرين بالإساءة ؟ فقالوا : اللهم نعم ، فقال اللهم إنا قد سمعناك تقول ﴿ ما على المحسنين من سبيل ﴾ وقد أقررنا بالإساءة فهل تكون مغفرتك إلا لمثلنا ؟ اللهم فاغفر لنا وارحمنا واسقنا ؛ فرفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا. وقيل لمالك بن دينار : ادع لنا ربك فقال إنكم تستبطئون المطر وأنا أستبطىء الحجارة وروى أن عيسى صلوات الله عليه وسلامه خرج يستسقى فلما ضجروا قال لهم عيسى عليه السلام: من أصاب منكم ذنبا فليرجع فرجعوا كلهم ولم يبق معه في المفازة إلا واحد ، فقال له عيسى عليه السلام : أما لك من ذنوب ؟ فقال : والله ما علمت من شيء غير أني كنت ذات يوم أصلي فمرت بي امرأة فنظرت إليها بعيني هذه فلما جاوزتني أدخلت أصبعي في عيني فانتزعتها وتبعت المرأة بها ، فقال له عيسى عليه السلام : فادع الله حتى أؤمن على دعائك ، قال فدعا فتجللت السماء سحابا ثم صبت فسقوا . وقال يحيى الغساني « أصاب الناس قحط على عهد داود عليه السلام فاختاروا ثلاثة من علمائهم فخرجوا حتى يستسقوا بهم فقال أحدهم : اللهم إنك أنزلت في توراتك ان نعفو عمن ظلمنا اللهم إنا قد ظلمنا انفسنا فاعف عنا ، وقال الثاني: اللهم إنك أنزلت في توراتك ان نعتق أرقاءنا اللهم إنا أرقاؤك فأعتقنا ، وقال الثالث : اللهم إنك أنزلت في توراتك أن لا نرد المساكين إذا وقفوا بأبوابنا اللهم إنا مساكينك وقفنا ببابك فلا ترد دعاءنا فسقوا » وقال عطاء السلمي : منعنا الغيث فخرجنا نستسقي فإذا نحن بسعدون المجنون في المقابر فنظر إلى فقال ياعطاء أهذا يوم النشور أو بعثر ما في القبور ؟ فقلت: لا ولكنا منعنا الغيث فخرجنا نستسقي فقال ياعطاء بقلوب أرضية أم بقلوب سماوية ؟ فقلت: بل بقلوب سماوية فقال : هيهات ياعطاء قل للمتبهرجين لا تتبهرجوا فإن الناقد بصير. ثم رمق السماء بطرفه وقال إلهي وسيدي ومولاي لا تهلك بلادك بذنوب عبادك ولكن بالسر المكنون من أسمائك وما وارت الحجب من آلائك الا ماسقيتنا ماء غدقا فراتا تحيي به العباد وتروي به البلاد يامن هو على كل شيء قدير ، قال عطاء : فما استتم الكلام حتى أرعدت السماء وأبرقت وجاءت بمطر كأفواه القرب فولى وهو يقول :

أفلح الزاهدون والعابدونا إذ لمولاهم أجاعوا البطونا
أسهروا الأعين العليلة حبا فانقضى ليلهم وهم ساهرونا
شغلتهم عبادة الله حتى حسب الناس أن فيهم جنونا

وقال ابن المبارك : قدمت المدينة في عام شديد القحط فخرج الناس يستسقون فخرجت معهم إذ أقبل غلام أسود عليه قطعتا خيش قد اتزر بإحداهما والتي الأخرى على عاتقه فجلس إلى جنبي فسمعته يقول إلهي أخلقت الوجوه عندك كثرة الذنوب ومساوي الأعمال وقد حبست عنا غيث السماء لتؤدب عبادك بذلك فأسألك ياحليما ذا أناة يامن لا يعرف عباده منه إلا الجميل ان تسقيهم الساعة الساعة فلم يزل يقول الساعة الساعة حتى اكتست السماء بالغمام وأقبل المطر من كل جانب ، قال ابن المبارك: فجئت إلى الفضيل فقال مالي أراك كئيبا ؟ فقلت أمر سبقنا اليه غيرنا فتولاه دوننا وقصصت عليه القصة فصاح الفضيل وخر مغشيا عليه ، ويروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استسقى بالعباس رضي الله عنه فلما فرغ عمر من دعائه قال العباس : اللهم إنه لم ينزل بلاء من السماء الا بذنب ولم يكشف إلا بتوبة وقد توجه بي القوم اليك لمكاني من نبيك صلى الله عليه وسلم وهذه أيدينا اليك بالذنوب ونواصينا بالتوبة وأنت

الراعي لا تهمل الضالة ولا تدع الكسير بدار مضيعة فقد ضرع الصغير ورق الكبير وارتفعت الأصوات بالشكوى وأنت تعلم السر وأخفى اللهم أغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون قال فما أتم كلامه حتى ارتفعت السماء مثل الجبال .

فضيلة الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفضله صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ وروى أنه ﷺ « جاء والبشرى ترى فى وجهه فقال ﷺ إنه جاءنى جبريل عليه السلام فقال أما ترضى يا محمد أن لا يصلى عليك أحد من أمتك صلاة واحدة إلا صليت عليه عشراً ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشراً (١) » وقال ﷺ « من صلى على صلت عليه الملائكة ما صلى على فليقلل عند ذلك أو ليكثر(٢) » وقال « إن أولى الناس بى أكثرهم على صلاة(٣) » وقال ﷺ « بحسب المؤمن من البخل أن أذكر عنده فلا يصلى على(٤) » وقال « أكثروا من الصلاة على يوم الجمعة (٥) » وقال ﷺ « من صلى على من أمتى كتبت له عشر حسنات ومحيت عنه عشر سيآت (٦) » وقال ﷺ « من قال حين يسمع الأذان والإقامة اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة صل على محمد عبدك ورسولك وأعطه الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والشفاعة يوم القيامة ، حلت له شفاعتى (٧) » وقال رسول الله ﷺ « من صلى على فى كتاب لم تزل الملائكة يستغفرون له ما دام اسمى فى ذلك الكتاب(٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن فى الأرض ملائكة سياحين يبلغونى عن أمتى السلام(٩) » وقال صلى الله عليه وسلم

---

(١) « أنه صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم والبشرى ترى فى وجهه فقال أنه جاءنى جبريل عليه الصلاة السلام فقال أما ترضى يا محمد أن لا يصلى عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشرا ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشرا» أخرجه النسائى وابن حبان من حديث أبى طلحة بإسناد جيد . (٢) « من صلى على صلت عليه الملائكة ما صلى على فليقلل عند من ذلك أو ليكثر» أخرجه ابن ماجه من حديث عامر بن ربيعة بإسناد ضعيف والطبرانى فى الأوسط بإسناد حسن (٣) « إن أولى الناس بى أكثرهم على صلاة » أخرجه الترمذى من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب وابن حبان (٤) « بحسب امرىء من البخل أن أذكر عنده فلا يصلى على» أخرجه قاسم بن أصبغ من حديث الحسن بن على هكذا والنسائى وابن حبان من حديث أخيه الحسن « البخيل من ذكرت عنده فلم يصلى على» ورواه الترمذى من رواية الحسين بن على عن أبيه وقال صحيح . (٥) « أكثروا على من الصلاة يوم الجمعة » أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال صحيح على شرط البخارى من حديث أوس بن أوس وذكره ابن أبى حاتم فى العلل وحكى عن ابيه أنه حديث منكر . (٦) « من صلى على من أمتى كتبت له عشر حسنات ومحيت عنه عشر سيئات » أخرجه النسائى فى اليوم والليلة من حديث عمرو بن دينار وزاد فيه « مخلصا من قلبه صلى الله عليه بها عشر صلوات ورفعه بها عشر درجات» وله فى السير ولابن حبان من حديث أنس نحوه دون قوله «مخلصا من قلبه» ودون ذكر : محو السيئات . ولم يذكر ابن حبان أيضا رفع الدرجات . (٧) « من قال حين يسمع الأذان والإقامة اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة صل على محمد عبدك ورسولك وأعطه الوسيلة والفضيلة والشفاعة يوم القيامة حلت له شفاعتى » أخرجه البخارى من حديث جابر دون ذكر الإقامة والشفاعة والصلاة على النبى وقال النداء وللمستغفرى فى الدعوات « حين يسمع الدعاء للصلاة» وزاد بن وهب ذكر الصلاة والشفاعة فيه بسند ضعيف وزاد الحسن بن على المعمرى فى اليوم والليلة من حديث أبى الدرداء ذكر الصلاة فيه وله وللمستغفرى فى الدعوات بسند ضعيف من حديث أبى رافع «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع الأذان» فذكر حديثا فيه «وإذا قال قد قامت الصلاة قال اللهم رب هذه الدعوة التامة ... » وزاد « وتقبل شفاعته فى أمته » ولمسلم من حديث عبد الله بن عمر « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على ثم سلوا الله لى الوسيلة» وفيه « فمن سأل الوسيلة حلت عليه الشفاعة» . (٨) « من صلى على فى كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له مادام اسمى فى ذلك الكتاب » أخرجه الطبرانى فى الأوسط وأبو الشيخ فى الثواب والمستغفرى فى الدعوات من حديث أبى هريرة بسند ضعيف. (٩) « إن فى الأرض ملائكة سياحين يبلغونى عن أمتى السلام » تقدم فى آخر الحج

« ليس أحد يسلم على إلا رد الله على روحى حتى أرد عليه السلام(١) » و « قيل له يارسول الله كيف نصلى عليك ؟ فقال قولوا اللهم صل على محمد عبدك وعلى آله وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهم وآل إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على إبرهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد(٢) » وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمع بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكى ويقول بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد كان جذع تخطب الناس عليه فلما كثر الناس اتخذت منبراً لتسمعهم لحن الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن فأمتك كانت أولى بالحنين إليك لما فارقتهم ، بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن جعل طاعتك طاعته فقال عز وجل ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أخبرك بالعفو عنك قبل أن يخبرك بالذنب فقال تعالى ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾ بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك فى أولهم فقال عز وجل ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم﴾ الآية بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ، بأبى وأنت وأمى يارسول الله لئن كان موسى بن عمران أعطاه حجرا تتفجر منه الأنهار فماذا بأعجب من أصابعك حين نبع منها الماء صلى الله عليك ، بأبى أنت وأمى يارسول الله لئن كان سليمان ابن داود أعطاه الله الريح غدوها شهر ورواحها شهر فماذا بأعجب من البراق حين سريت عليه إلى السماء السابعة ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح صلى الله عليك ، بأبى وأنت وأمى يارسول الله لئن كان عيسى بن مريم أعطاه الله إحياء الموتى فماذا بأعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك وهى مشوية فقالت لك الذراع لا تأكلنى فإنى مسمومة ، بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد دعا نوح قومه فقال رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ولو دعوت علينا بمثلها لهلكنا كلنا فلقد وطىء ظهرك وأدمى وجهك وكسرت رباعيتك فأبيت أن تقول إلا خيرا فقلت اللهم اغفر لى ولقومى فإنهم لا يعلمون ، بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد اتبعك فى قلة سنك وقصر عمرك مالم يتبع نوحا فى كثرة سنه وطول عمره ولقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا القليل ، بأبى أنت وأمى يارسول الله لولم تجالس إلا كفؤاً لك ما جالستنا ولو لم تنكح إلا كفؤاً لك ما نكحت إلينا ولو لم تؤاكل إلا كفؤاً لك ماواكلتنا فلقد والله جالستنا ونكحت إلينا وواكلتنا ولبست الصوف وركبت الحمار وأردفت خلفك ووضعت طعامك على الأرض ولعقت أصابعك تواضعا منك صلى الله عليك وسلم(٣) وقال بعضهم . كنت أكتب

---

(١) « ليس أحد سلم على إلا رد الله على روحى حتى أرد عليه السلام » أخرجه أبو داود من حديث أبى هريرة بسند جيد (٢) «قيل له يارسول الله كيف نصلى عليك قال قولوا اللهم صل على محمد وعلى آله وأزواجه وذريته...» متفق عليه من حديث أبى حميد الساعدى . (٣) حديث عمر « فى حنين الجذع ونبع الماء من بين أصابعه والإسراء به على البراق إلى السماء السابعة ثم صلاة الصبح من ليلته بالأبطح وكلام الشاة المسمومة وأنه دمى وجهه وكسرت رباعيته فقال اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون وأنه لبس الصوف وركب الحمار وأردف خلفه ووضع طعامه بالأرض ولعق أصابعه» وغريب بطوله من حديث عمر وهو معروف من أوجه أخرى فحديث حنين الجزع متفق عليه من حديث جابر وابن عمر ، وحديث نبع الماء من بين أصابعه متفق عليه من حديث أنس وغيره وحديث الإسراء متفق عليه من حديث أنس دون ذكر صلاة الصبح بالأبطح ، وحديث كلام الشاة المسمومة رواه أبو داود من حديث جابر وفيه انقطاع ، وحديث أنه دمى وجهه وكسرت رباعيته متفق عليه من كلام سهل بن سعد فى غزوة أحد ، وحديث اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون رواه البيهقى فى دلائل النبوة والحديث فى الصحيح من كلام ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم حكاه عن نبى من الأنبياء ضربه قومه ، وحديث لبس الصوف رواه الطيالسى من كلام سهل بن سعد ، وحديث ركوبه الحمار وإردافه خلفه متفق عليه من كلام أسامة بن زيد . ووضع طعامه بالأرض رواه أحمد فى الزهد من كلام الحسن مرسلا وللبخارى من حديث أنس ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان قط ، وحديث لعقه أصابعه رواه مسلم من حديث كعب بن مالك وأنس بن مالك .

الحديث وأصلى على النبى صلى الله عليه وسلم فيه ولا أسلم فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى : أما تتم الصلاة على فى كتابك ؟ فما كتبت بعد ذلك إلا صليت وسلمت عليه . وروى عن أبى الحسن قال . رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقلت : يارسول الله بم جوزى الشافعى عنك حيث يقول فى كتابه الرسالة «وصلى الله على محمد كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون ؟ » فقال صلى الله عليه وسلم جوزى عنى انه لا يوقف للحساب .

فضيلة الاستغفار

قال الله عز وجل ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ﴾ وقال علقمة والأسود قال عبد الله مسعود رضى الله عنهم: فى كتاب الله عز وجل آيتان ما أذنب عبد ذنبا فقرأهما واستغفر الله عز وجل إلا غفر الله تعالى له ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ﴾ الآية وقوله عز وجل ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ﴾ وقال عز وجل ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ وقال تعالى ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ وكان صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لى إنك أنت التواب الرحيم(١) » وقال صلى الله عليه وسلم «من أكثر من الاستغفار جعل الله عز وجل له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « إنى لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه فى اليوم سبعين مرة(٣) » هذا مع أنه صلى الله عليه وسلم غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وقال صلى الله عليه وسلم « إنه ليغان على قلبى حتى إنى استغفر الله تعالى فى كل يوم مائة مرة(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « من قال حين يأوى إلى فراشه استغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه ثلاثة مرات غفر الله له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر - أو عدد رمل عالج أو عدد ورق الشجر أو عدد أيام الدنيا -(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر « من قال ذلك غفرت ذنوبه وإن كان فاراً من الزحف(٦) » وقال حذيفة : كنت ذرب اللسان على أهلى فقلت « يارسول الله لقـــد خشيت ان يدخلنى لسانى النار ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : فأين انت من الاستغفار ؟ فإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة(٧) » وقالت عائشة رضى الله عنها : قال لى رسول الله صلى عليه وسلم « إن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه فإن التوبة من الذنب الندم والاستغفار(٨) » وكان صلى الله

---

(١) « كان النبى صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم يكثر أن يقول سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لى إنك أنت التواب الرحيم » أخرجه الحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح إن كان أبو عبيده سمع من أبيه والحديث متفق عليه من حديث عائشة « أنه كان يكثر أن يقول ذلك فى ركوعه وسجوده » دون قوله « إنك أنت التواب الرحيم » .

(٢) « من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل غم مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب » أخرجه أبو داود والنسائى فى اليوم والليلة وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث ابن عباس وضعفه ابن حبان .

(٣) « إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم سبعين مرة » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة إلا أنه قال « أكثر من سبعين » وهو فى الدعاء للطبرانى كما ذكره المصنف .

(٤) « إنه ليغان على قلبى حتى إنى لأستغفر الله فى كل يوم مائة مرة » أخرجه مسلم من كلام الأغر .

(٥) « من قال حين يأوى إلى فراشه استغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات غفر الله له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر ... » أخرجه الترمذى من كلام أبى سعيد وقال غريب لا نعرفه إلا من كلام عبد الله ابن الوليد الوصافى ، قلت الوصافى وإن كان ضعيفا فقد تابعه عليه عصام بن قدامة وهو ثقة رواه البخارى فى التاريخ دون قوله « حين يأوى إلى فراشه » وقوله « ثلاثة مرات » . (٦) «من قال ذلك غفرت ذنوبه وإن كان فارا من الزحف » أخرجه أبو داود والترمذى من حديث زيد مولى النبى صلى الله عليه وسلم وقال غريب قلت ورجاله موثقة ورواه ابن مسعود وقال صحيح على شرط الشيخين . (٧) حديث حذيفة « كنت ذرب اللسان على أهلى ... » وفيه « أين أنت من الاستغفار » أخرجه النسائى فى اليوم والليلة وابن ماجه والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين .

(٨) حديث عائشة «إن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله فإن التوبة من الذنب الندم والاستغفار» متفق عليه دون قوله =

عليه وسلم يقول فى الاستغفار « اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى وما أنت أعلم به منى اللهم اغفر لى هزلى وجدى وخطئى وعمدى وكل ذلك عندى اللهم اغفر لى ماقدمت وما أخرت وما أسررت وماأعلنت وما أنت أعلم به منى أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شى قدير[1] » وقال على رضى الله عنه : كنت رجلا إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا نفعنى الله عز وجل بما شاء أن ينفعنى منه وإذا حدثنى أحد من أصحابه استحلفته فإذا حلف صدقته ، قال : وحدثنى ابو بكر وصدق أبو بكر رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «مامن عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلى ركعتين ثم يستغفر الله عز وجل إلا غفر له ثم تلا قوله عز وجل ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم﴾[2] الآية وروى ابو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «إن المؤمن إذا أذنب ذنبا كانت نكته سوداء فى قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه منها فإن زاد زادت حتى تغلف قلبه[3] فذلك الران الذى ذكره الله عز وجل فى كتابه ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ وروى أبو هريرة رضى الله عنه « انه صلى الله عليه وسلم قال : إن الله سبحانه ليرفع الدرجة للعبد فى الجنة فيقول يارب أنى لى هذه فيقول عز وجل باستغفار ولدك لك[4] » وروت عائشة رضى الله عنها : انه صلى الله عليه وسلم قال اللهم اجعلنى من الذين إذا احسنوا استبشروا وإذا اساءوا استغفروا[5] » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا اذنب العبد ذنبا فقال اللهم اغفر لى فيقول الله عز وجل اذنب عبدى ذنبا فعلم أن له ربا يأخذ بالذنب ويغفر الذنب عبدى اعمل ماشئت فقد غفرت لك[6] » وقال صلى الله عليه وسلم « ما أصر من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة[7] » وقال صلى الله عليه وسلم «إن رجلا لم يعمل خيرا قط نظر إلى السماء فقال إن لى ربا يارب اغفر لى فقال الله عز وجل قد غفرت لك[8] » وقال صلى الله عليه وسلم « من أذنب ذنبا فعلم أن الله قد اطلع عليه غفر له وإن لم يستغفر[9] » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى ياعبادى كلكم مذنب إلا من عافيته فاستغفرونى أغفر لكم ومن علم أنى ذو قدرة على أن أغفر له غفرت له ولا ابالى[10] » وقال صلى الله عليه وسلم «من قال سبحانك ظلمت نفسى وعملت سوءا فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت غفرت ذنوبه ولو كانت كدب النمل[11] » وروى

= « فإن التوبة ... إلخ »وزاد« أو توبى إليه فإن أنى العبد بذنبه ثم تاب تاب الله عليه» وللطبرانى فى الدعاء « فإن العبد إذ أذنب ثم استغفر الله غفر له » . (١) « كان يقول اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى وما أنت أعلم به منى اللهم اغفر لى جدى وهزلى» متفق عليه من حديث أبى موسى واللفظ لمسلم (٢) حديث على عن أبى بكر «مامن عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلى ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر الله له » أخرجه أصحاب السنن وحسنه الترمذى . (٣) حديث أبى هريرة «إن المؤمن إذا أذنب ذنبا كانت نكته سوداء فى قلبه فإن تاب ونزع واستقر صقل قلبه ... » أخرجه الترمذى وصححه النسائى فى اليوم والليلة وابن ماجه وابن حبان والحاكم (٤) حديث أبى هريرة إن الله ليرفع العبد الدرجة فى الجنة فيقول أنى لى هذا فيقول باستغفار ولدك لك» رواه أحمد بإسناد حسن (٥) حديث عائشة «اللهم اجعلنى من الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أساءوا استغفروا» أخرجه ابن ماجه وفيه على بن زيد بن جدعان مختلف فيه (٦) «اذا اذنب العبد فقال اللهم اغفر لى يقول الله أذنب عبدى فعلم أن له ربا يأخذ بالذنب ويغفر الذنب ... » متفق عليه من حديث أبى هريرة (٧) «ماأصر من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة» أخرجه أبو داود والترمذى من كلام أبى بكر وقال غريب وليس إسناده بالقوى . (٨) « إن رجلا لم يعمل خيرا قط نظر إلى السماء فقال إن لى ربا يارب اغفر لى فقال الله تعالى قد غفرت لك» لم أقف له على أصل . (٩) « من أذنب فعلم أن الله اطلع عليه غفر له وإن لم يستغفر » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث ابن مسعود بسند ضعيف . (١٠) « يقول الله ياعبادى كلكم مذنب إلا من عافيته فاستغفرونى أغفر لكم ومن علم أنى ذو قدرة على أن أغفر له غفرت له ولا أبالى» أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى ذر وقال الترمذى حسن وأصله عند مسلم بلفظ آخر . (١١) « من قال سبحانك ظلمت نفسى وعملت سوء فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت غفرت ذنوبه وإن كانت كدب النمل» أخرجه البيهقى =

« إن أفضل الاستغفار: اللهم أنت ربي وأنا عبدك خلقتني وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ماصنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء على نفسي بذنبي فقد ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفرلي ذنوبي ماقدمت منها وما أخرت فإنه لايغفر الذنوب جميعها إلا أنت (١) » الآثار : قال خالد بن معدان يقول الله عز وجل إن أحب عبادي إلى المتحابون بحبي والمتعلقة قلوبهم بالمساجد والمستغفرون بالأسحار أولئك الذين إذا أردت أهل الأرض بعقوبة ذكرتهم فتركتهم وصرفت العقوبة عنهم . وقال قتادة رحمه الله : القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم أما داؤكم فالذنوب وأما دواؤكم فالاستغفار . وقال علي كرم الله وجهه : العجب ممن يهلك ومعه النجاة قيل وماهي ؟ قال الإستغفار وكان يقول : ما ألهم الله سبحانه عبدا الاستغفار وهو يريد أن يعذبه . وقال الفضيل : قول العبد « أستغفر الله » تفسيرها : أقلني . وقال بعض العلماء : العبد بين ذنب ونعمة لايصلحهما إلا الحمد والاستغفار . وقال الربيع بن خثيم رحمه الله : لايقولن أحدكم أستغفر الله وأتوب إليه فيكون ذنبا وكذبا إن لم يفعل ، ولكن ليقل : اللهم اغفر لي وتب علي وقال الفضيل رحمه الله : الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين . وقالت رابعة العدوية رحمها الله : استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير . وقال بعض الحكماء : من قدم الاستغفار على الندم كان مستهزئا بالله عز وجل وهو لايعلم . وسمع أعرابي وهو متعلق بأستار الكعبة يقول : اللهم إن استغفاري مع إصراري للؤم وإن تركي استغفارك مع علمي بسعة عفوك لعجز ، فكم تتحبب إلي بالنعم مع غناك عني وكم أتبغض إليك بالمعاصي مع فقري إليك ! يا من إذا وعد وفى وإذا أوعد عفا أدخل عظيم جرمي في عظيم عفوك يا أرحم الراحمين . وقال أبو عبد الله الوراق : لو كان عليك مثل عدد القطر وزبد البحر ذنوبا لمحيت عنك إذا دعوت ربك بهذا الدعاء مخلصا إن شاء الله تعالى « اللهم إني أستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه وأستغفرك من كل ماوعدتك به من نفسي ولم أوف لك به وأستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطه غيرك وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها علي فاستعنت بها على معصيتك وأستغفرك ياعالم الغيب والشهادة من كل ذنب أتيته في ضياء النهار وسواد الليل في ملأ أوخلاء وسر وعلانية ياحليم . ويقال إنه استغفار آدم عليه السلام وقيل الخضر عليه الصلاة والسلام .

الباب الثالث : في أدعية مأثوره ومعزية إلى أسبابها وأربابها ممـــا يستحب

أن يدعو بها المرء صباحا ومساء وبعقب كل صلاة

فمنها : دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ركعتي الفجر قال ابن عباس رضي الله عنهما : بعثني العباس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيته ممسيا وهو في بيت خالتي ميمونة فقام يصلي من الليل فلما صلى ركعتي الفجر قبل صلاة الصبح قال « اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها شملي وتلم بها شعثي وترد بها الفتن عني وتصلح بها ديني وتحفظ بها غائبي وترفع بها شاهدي وتزكي بها عملي وتبيض بها وجهي وتلهمني بها رشدي وتعصمني بها من كل سوء . اللهم أعطني إيمانا صادقا ويقينا ليس بعده كفر ورحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة . اللهم إني أسألك الفوز عند القضاء ومنازل الشهداء وعيش السعداء والنصر على الأعداء ومرافقة الأنبياء . اللهم إني

= في الدعوات من كلام علي « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألا أعلمك كلمات تقولهن لو كان عليك كعدد النمل — أو كعدد الذر — ذنوبا غفرها الله لك » فذكره بزيادة « لا إله إلا أنت » في أوله وفيه ابن لهيعة .

(١) « أفضل الاستغفار اللهم أنت ربي وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ... » أخرجه البخاري من حديث شداد بن أوس دون قوله « وقد ظلمت نفسي واعترفت بذنبي » ودون قوله «ذنوبي ما قدمت منها وما أخرت» ودون قوله « جميعا » .

أنزل بك حاجتى وإن ضعف رأبى وقلت حيلتى وقصر عملى وافتقرت إلى رحمتك فأسألك يا كافى الأمور ويا شافى الصدور كما تجير بين البحور أن تجيرنى من عذاب السعير ومن دعوة الثبور ومن فتنة القبور . اللهم ماقصر عنه رأبى وضعف عنه عملى ولم تبلغه نيتى وأمنيتى من خير وعدته أحدا من عبادك أو خير أنت معطيه أحداً من خلقك فإنى أرغب إليك فيه وأسألكه يارب العالمين . اللهم اجعلنا هادين مهتدين غير ضالين ولا مضلين حربا لأعدائك وسلما لأوليائك نحبب بحبك من أطاعك من خلقك ونعادى بعدواتك من خالفك من خلقك . اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة وهذا الجهد وعليك التكلان وإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ذى الحبل الشديد والأمر الرشيد أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود والركع السجود الموفين بالعهود إنك رحيم ودود وأنت تفعل ماتريد . سبحان الذى لبس العز وقال به سبحان الذى تعطف بالمجد وتكرم به سبحان الذى لا ينبغى التسبيح إلا له سبحان ذى الفضل والنعم سبحان ذى العزة والكرم سبحان الذى أحصى كل شىء بعلمه . اللهم اجعل لى نورا فى قلبى ونورا فى قبرى ونورا فى سمعى ونورا فى بصرى ونورا فى شعرى ونورا فى بشرى ونورا فى لحمى ونورا فى دمى ونورا فى عظامى ونورا من بين يدى ونورا من خلفى ونورا عن يمينى ونورا عن شمالى ونورا من فوقى ونورا من تحتى . اللهم زدنى نورا وأعطنى نورا واجعل لى نورا (١) »

دعاء عائشة رضى الله عنها

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها « عليك بالجوامع الكوامل قولى اللهم إنى أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه ومالم أعلم وأسألك الجنة وماقرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل وأسألك من الخير ما سألك عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم وأستعيذك مما استعاذك منه عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم وأسألك ماقضيت لى من أمر أن تجعل عاقبته رشدا برحمتك يا أرحم الراحمين (٢) » .

دعاء فاطمة رضى الله عنها

قال رسول الله ﷺ « يافاطمة ما يمنعك أن تسمعى ماأوصيك به ؟ أن تقولى : ياحى ياقيوم برحمتك أستغيث لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين وأصلح لى شأنى كله (٣) » .

دعاء أبى بكر رضى الله عنه

علم رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضى الله عنه أن يقول « اللهم إنى أسألك بمحمد نبيك وإبراهيم خليلك وموسى نجيك وعيسى كلمتك وروحك وبتوراة موسى وإنجيل عيسى وزبور داود وفرقان محمد صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث ابن عباس « اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى وتجمع بها شملى وتلم بها شعثى ... » أخرجه الترمذى وقال غريب ولم يذكر فى أوله : بعث العباس لابنه عبدالله ولا نومه فى بيت ميمونة ، وهو بهذه الزيادة فى الدعاء للطبرانى

(٢) حديث قوله لعائشة « عليك بالجوامع الكوامل قولى : اللهم إنى أسألك من الخير كله عاجله وآجله ماعلمت منه وما لم أعلم ... » أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديثها .

(٣) « يافاطمة مايمنعك أن تسمعى ما أوصيك به أن تقولى ياحى ياقيوم برحمتك أستغيث لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين وأصلح لى شأنى كله » أخرجه النسائى فى اليوم والليلة والحاكم من كلام أنس وقال صحيح على شرط الشيخين.

وعلمهم أجمعين وبكل وحى أوحيته أو قضاء قضيته أو سائل أعطيته أو غنى أفقرته أو فقير أغنيته أو ضال هديته وأسألك باسمك الذى أنزلته على موسى ﷺ وأسألك باسمك الذى بثثت به أرزاق العباد وأسألك باسمك الذى وضعته على الأرض فاستقرت وأسألك باسمك الذى وضعته على السموات فانتقلت وأسألك باسمك الذى وضعته على الجبال فرست وأسألك باسمك الذى استقل به عرشك وأسألك باسمك الطهر الطاهر الأحد الصمد الوتر المنزل فى كتابك من لدنك من النور المبين وأسألك باسمك الذى وضعته على النهار فاستنار وعلى الليل فأظلم وبعظمتك وكبريائك وبنور وجهك الكريم أن ترزقنى القرآن والعلم به وتخلطه بلحمى ودمى وسمعى وبصرى وتستعمل به جسدى بحولك وقوتك فإنه لاحول ولا قوة إلا بك يا أرحم الراحمين(١) » .

دعاء بريدة الأسلمى رضى الله عنه

روى أنه قال له رسول الله ﷺ « يابريدة ألا أعلمك كلمات من أراد الله به خيراً علمهن إياه ثم لم ينسهن إياه أبداً قال : فقلت بلى يارسول الله قال قل : اللهم إنى ضعيف فقو فى رضاك ضعفى وخذ إلى الخير بناصيتى واجعل الإسلام منتهى رضاى . اللهم إنى ضعيف فقونى وإنى ذليل فأعزنى وإنى فقير فأغننى يا أرحم الراحمين(٢) »

دعاء قبيصة بن المخارق

إذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم « علمنى كلمات ينفعنى الله عز وجل بها فقد كبر سنى وعجزت عن أشياء كثيرة كنت أعملها فقال عليه السلام : أما لدنياك فإذا صليت الغداة فقل ثلاث مرات سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم فإنك إذا قلتهن أمنت من الغم والجذام والبرص والفالج . وأما لآخرتك فقل : اللهم اهدنى من عندك وأفض على من فضلك وانشر على من رحمتك وأنزل على من بركاتك ثم قال صلى الله عليه وسلم : أما إنه إذا وافى بهن عبد يوم القيامة لم يدعهن فتح له أربعة أبواب من الجنة يدخل من أيها شاء(٣) » .

دعاء أبى الدرداء رضى الله عنه

قيل لأبى الدرداء رضى الله عنه : قد احترقت دارك ـ وكانت النار قد وقعت فى محلته ـ فقال ما كان الله ليفعل ذلك ، فقيل له ذلك ثلاثا وهو يقول : ماكان الله ليفعل ذلك . ثم أتاه آت فقال : يا أبا الدرداء إن النار حين دنت من دارك طفئت ، قال : قد علمت ذلك ، فقيل له : ما ندرى أى قوليك أعجب؟ قال إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من يقول هؤلاء الكلمات فى ليل أو نهار لم يضره شىء وقد قلتهن وهى «اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن أعلم أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علما وأحصى كل شىء عدداً . اللهم أعوذ بك من شر نفسى

---

(١) « علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضى الله عنه أن يقول اللهم إنى أسألك بمحمد نبيك وإبراهيم خليلك وموسى نجيك وعيسى كلمتك ... » فى الدعاء لحفظ القرآن رواه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب من رواية عبد الملك بن هارون عبثرة عن أبيه « أن أبا بكر أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال إنى أتعلم القرآن وينفلت منى » فذكره وعبد الملك وأبوه ضعيفان وهو منقطع بين هارون وأبى بكر .

(٢) « يابريدة ألا أعلمك كلمات من أراد الله به خيرا علمهن إياه ... » أخرجه الحاكم من كلام بريدة وقال صحيح الإسناد .

(٣) « إن قبيصة بن المخارق قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم علمنى ينفعنى الله بها فقد كبرت سنى وعجزت ... » أخرجه ابن السنى فى اليوم والليلة من كلام ابن عباس وهو عند أحمد فى المسند مختصرا من كلام قبيصة نفسه وفيه رجل لم يسم .

ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم(١) » .

دعاء الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام

كان يقول إذا أصبح : اللهم إن هذا خلق جديد فافتحه على بطاعتك واختمه لى بمغفرتك ورضوانك وارزقنى فيه حسنة تقبلها منى وزكها وضعفها لى وما عملت فيه من سيئة فاغفرها لى إنك غفور رحيم ودود كريم . قال : ومن دعا بهذا الدعاء إذا أصبح فقد أدى شكر يومه .

دعاء عيسى عليه الصلاة والسلام

كان يقول : اللهم إنى أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ولا أملك نفع ما أرجو وأصبح الأمر بيد غيرى وأصبحت مرتهنا بعملى فلا فقير أفقر منى . اللهم لا تشمت بى عدوى ولا تسؤ بى صديقى ولا تجعل مصيبتى فى دينى ولا تجعل الدنيا أكبر همى ولا تسلط على من لا يرحمنى ياحى ياقيوم .

دعاء الخضر عليه السلام

يقال : إن الخضر وإلياس عليهما السلام إذا التقيا فى كل موسم لم يفترقا إلا عن هذه الكلمات « بسم الله ماشاء الله لاقوة إلا بالله ما شاء الله كل نعمة من الله ماشاء الله الخير كله بيد الله ماشاء الله لا يصرف السوء إلا الله » فمن قالها ثلاث مرات إذا أصبح أمن من الحرق والغرق والسرق إن شاء الله تعالى .

دعاء معروف الكرخى رضى الله عنه

قال محمد بن حسان : قال لى معروف الكرخى رحمه الله ألا أعلمك عشر كلمات خمس للدنيا وخمس للآخرة من دعا الله عز وجل بهن وجد الله تعالى عندهن ؟ قلت : اكتبها لى قال لا ، ولكن أرددها عليك كما رددها على بكر بن خنيس رحمه الله « حسبى الله لدينى حسبى الله لدنياى حسبى الله الكريم لما أهمنى حسبى الله الحليم القوى لمن بغى على حسبى الله الشديد لمن كادنى بسوء حسبى الله الرحيم عند الموت حسبى الله الرءوف عند المسألة فى القبر حسبى الله الكريم عند الحساب حسبى الله اللطيف عند الميزان حسبى الله القدير عند الصراط حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » وقد روى عن أبى الدرداء أنه قال « من قال فى كل يوم سبع مرات ﴿ فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ كفاه الله عز وجل ما أهمه من أمر آخرته صادقا كان أو كاذبا » .

دعاء عتبة الغلام

وقد رؤى فى المنام بعد موته فقال : دخلت الجنة بهذه الكلمات « اللهم ياهادى المضلين ويا راحم المذنبين ويا مقيل عثرات العاثرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين واجعلنا من الأخيار المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين يارب العالمين » .

دعاء آدم عليه الصلاة والسلام

قالت عائشة رضى الله عنها : لما أراد الله عز وجل أن يتوب على آدم صلى الله عليه وسلم طاف بالبيت سبعاً

---

(١) « قيل لأبى الدرداء : أحرقت دارك فقال ما كان الله ليفعل ذلك ... » أخرجه الطبرانى فى الدعاء من كلام أبى الدرداء ضعيف .

وهو يومئذ ليس بمبنى ربوة حمراء ثم قام فصلى ركعتين ثم قال « اللهم إنك تعلم سرى وعلانيتى فاقبل معذرتى وتعلم حاجتى فأعطنى سؤلى وتعلم مافى نفسى فاغفر لى ذنوبى . اللهم إنى أسألك إيمانا يباشر قلبى ويقينا صادقاحتى أعلم أنه لن يصيبنى إلا ما كتبته على والرضا بما قسمته لى ياذا الجلال والإكرام » فأوحى الله عز وجل إليه إنى قد غفرت لك ولم يأتنى أحد من ذريتك فيدعونى بمثل الذى دعوتنى به إلا غفرت له وكشفت غمومه وهمومه ونزعت الفقر من بين عينيه واتجرت له من وراء كل تاجر وجاءته الدنيا وهى راغمة وإن كان لا يريدها .

دعاء على بن أبى طالب رضى الله عنه

رواه عن النبى ﷺ أنه قال « إن الله تعالى يمجد نفسه كل يوم ويقول : انى أنا الله رب العالمين : إنى أنا الله لا إله إلا أنا الحى القيوم . إنى انا الله لا إله إلا أنا العلى العظيم . إنى أنا الله لا إله إلا أنا لم ألد ولم أولد إنى أنا الله لا إله إلا أنا العفو الغفور . إنى أنا الله لا إله إلا أنا مبدىء كل شىء وإلى يعود العزيز الحكيم الرحمن الرحيم مالك يوم الدين خالق الخير والشر خالق الجنة والنار الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولدا الفرد الوتر عالم الغيب والشهادة الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور الكبير المتعال المقتدر القهار الحليم الكريم أهل الثناء والمجد أعلم السر وأخفى القادر الرزاق فوق الخلق والخليقة(١) » وذكر قبل كل كلمة « إنى أنا الله لا إله إلا أنا » كما أوردناه فى الأول فمن دعا بهذه الأسماء فليقل « إنك أنت الله لا إله إلا أنت كذا وكذا » فمن دعا بهن كتب من الساجدين المخبتين الذين يجاورون محمدا وابراهيم وموسى وعيسى والنبيين صلوات الله عليهم فى دار الجلال . وله ثواب العابدين فى السموات والأرضين وصلى الله على محمد وعلى كل عبد مصطفى .

دعاء ابن المعتمر وهو سليمان التيمى وتسبيحاته رضى الله عنه

روى أن يونس بن عبيد رأى رجلا فى المنام ممن قتل شهيدا ببلاد الروم فقال : ما أفضل ما رأيت ثم من الأعمال ؟ قال : رأيت تسبيحات ابن المعتمر من الله عز وجل بمكان وهى هذه « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم عدد ماخلق وعدد ماهو خالق وزنة ما خلق وزنة ماهو خالق وملء ما خلق وملء ماهو هو خالق وملء سمواته وملء أرضه ومثل ذلك وأضعاف ذلك وعدد خلقه وزنة عرشه ومنتهى رحمته ومداد كلماته ومبلغ رضاه حتى يرضى وإذا رضى وعدد ما ذكره به خلقه فى جميع مامضى وعدد ماهم ذاكروه فيما بقى فى كل سنة وشهر وجمعة ويوم وليلة وساعة من الساعات وشم ونفس من الأنفاس وأبد من الآباد من أبد إلى أبد أبد الدنيا وأبد الآخرة وأكثر من ذلك لا ينقطع أوله ولا ينفد آخره » .

دعاء إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه

روى إبراهيم بن بشار خادمه : انه كان يقول هذا الدعاء فى كل يوم جمعة إذا أصبح وإذا أمسى « مرحبا بيوم المزيد والصبح الجديد والكاتب والشهيد يومنا هذا يوم عيد اكتب لنا فيه ما نقول بسم الله الحميد المجيد الرفيع الودود الفعال فى خلقه ما يريد أصبحت بالله مؤمنا وبلقائه مصدقا وبحجته معترفا ومن ذنبى مستغفرا ولربوبية الله خاضعا

---

(١) كلام على « إن الله تعالى يمجد نفسه كل يوم فيقول إنى أنا الله رب العالمين إنى أنا الله لا إله إلا أنا الحى القيوم ... » بطوله لم أجد له أصلا .

ولسوى الله فى الآلهة جاحدا وإلى الله فقيراً وعلى الله متكلا والى الله منيبا أشهد الله وأشهد ملائكته وأنبياءه ورسله وحملة عرشه ومن خلقه ومن هو خالقه بأنه هو الله الذى لا إله إلا هو وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ﷺ تسليما وأن الجنة حق وأن النار حق والحوض حق والشفاعة حق ومنكراً ونكيراً حق ووعدك حق ووعيدك حق ولقاءك حق والساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور على ذلك أحيا وعليه أموت وعليه أبعث إن شاء الله . اللهم أنت ربى لا إله الا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك اللهم من شر ما صنعت ومن شر كل ذى شر . اللهم انى ظلمت نفسى فاغفر لى ذنوبى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدنى لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدى لأحسنها إلا أنت واصرف عنى سيئها فإنه لا يصرف سيئها إلا أنت لبيك وسعديك والخير كله بيديك أنا لك وإليك أستغفرك وأتوب إليك. آمنت اللهم بما أرسلت من رسول وآمنت اللهم بما أنزلت من كتاب وصلى الله على محمد النبى الأمى وعلى آله وسلم تسليما كثيرا خاتم كلامى ومفتاحه وعلى أنبيائه ورسله أجمعين آمين يارب العالمين . اللهم أوردنا حوض محمد واسقنا بكأسه مشربا رويا سائغا هنيا لا نظمأ بعده ابدا واحشرنا فى زمرته غير خزايا ولا ناكثين للعهد ولا مرتابين ولا مفتونين ولا مغضوب علينا ولا ضالين . اللهم اعصمنى من فتن الدنيا ووفقنى لما تحب وترضى وأصلح لى شأنى كله وثبتنى بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولاتضلنى وان كنت ظالما سبحانك ، سبحانك ياعلى ياعظيم يابارىء يارحيم ياعزيز ياجبار سبحان من سبحت له السموات بأكنافها وسبحان من سبحت له البحار بأمواجها وسبحان من سبحت له الجبال بأصدائها وسبحان من سبحت له الحيتان بلغتها وسبحان من سبحت له النجوم فى السماء بأبراجها وسبحان من سبحت له الأشجار بأصولها وثمارها وسبحان من سبحت له السموات السبع والأرضون السبع ومن فيهن ومن عليهن سبحان من سبح له كل شىء من مخلوقاته تباركت وتعاليت سبحانك، سبحانك ياحى ياقيوم ياعلى ياحليم سبحانك لا إله الا أنت وحدك لاشريك لك تحيي وتميت وأنت حى لا تموت بيدك الخير ، أنت على كل شىء قدير .

الباب الرابع

فى أدعية مأثورة عن النبى ﷺ وعن أصحابه رضى الله عنهم

محذوفة الأسانيد منتخبة من جملة ما جمعه ابو طالب المكى وابن خزيمة وابن منذر رحمهم الله

يستحب للمريد اذا أصبح أن يكون أحب أوراده الدعاء ـ كما سيأتى ذكره فى كتاب الأوراد ـ فإن كنت من المريدين لحرث الآخرة المقتدين برسول الله صلى الله عليه وسلم فيما دعا به فقل فى مفتتح دعواتك[١] ، أعقاب صلواتك[٢] سبحان ربى العلى الأعلى الوهاب لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . وقل:رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا[٣] ـ ثلاث مرات ـ وقل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شىء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه[٤] وقل : اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى وأقل

الباب الرابع : فى أدعية مأثورة عن النبى عليه الصلاة والسلام

(١) « افتتاح الدعاء بسبحان ربى العلى الأعلى الوهاب » تقدم فى الباب الثانى فى الدعاء .

(٢) « القول عقب الصلوات لاإله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير » متفق عليه من كلام المغيرة بن شعبة .

(٣) « رضيت بالله ربا ... » تقدم فى الباب الأول من الأذكار .

(٤) « اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شىء ومليكه أشهد أن لاإله إلاأنت أعوذبك =

عثراتي واحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوق وأعوذ بك أن أغتال من تحتي (١) اللهم لا تؤمني مكرك ولا تولني غيرك ولا تنزع عني سترك ولا تنسى ذكرك ولا تجعلني من الغافلين (٢) وقل: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت(٣) — ثلاث مرات وقل: اللهم عافني في بدني وعافني في سمعي وعافني في بصري لا إله إلا أنت (٤) — ثلاث مرات وقل: اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك الكريم وشوقا إلى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة وأعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو أعتدي أو يعتدى علي أو أكسب خطيئة أو ذنبا لا تغفره(٥) اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة في الرشد وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك وأسألك قلبا خاشعا سليما وخلقا مستقيما ولسانا صادقا وعملا متقبلا وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم واستغفرك لما تعلم فإنك تعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب (٦) اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني فإنك أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير وعلى كل غيب شهيد(٧) اللهم إني أسألك إيمانا لا يرتد ونعيم لا ينفد وقرة عين الأبد ومرافقة نبيك محمد ﷺ في أعلى جنة الخلد(٨) اللهم إني أسألك الطيبات وفعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين أسالك حبك وحب من أحبك وحب كل عمل يقرب إلى حبك وأن تتوب علي وتغفر لي وترحمني وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون (٩) اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحيـــاة خيرا لي وتوفني ما كانت الوفاة خيرا لي أسألك خشيتك في الغيب والشهادة وكلمة العدل في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك وأعوذ بك من ضراء مضرة وفتنة مضلة. واللهم زينا

= من شر نفسي وشر الشيطان وشركه، أخرجه أبو داود والترمذي وصححه من كلام أبي هريرة « أن أبا بكر الصديق قال: يارسول الله مرني بكلمات أقولهن إذا أمسيت قال قل اللهم » فذكره.

(١) « اللهم إني أسألك العافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي اللهم استر عورتي وأقل عثرتي واحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوق وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم من كلام ابن عمر « قال لم يكن النبي عليه الصلاة والسلام يدع هؤلاء الكلمات حين يمسي وحين يصبح ».

(٢) « اللهم لا تؤمني مكرك ولا تولني غيرك ولا ترفع عني سترك ولا تنسني ذكرك ولا تجعلني من الغافلين » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من كلام ابن عباس دون قوله « ولا تولني غيرك » وإسناده ضعيف.

(٣) « اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » أخرجه البخاري من كلام شداد بن أوس وقد تقدم

(٤) « اللهم عافني في بدني وعافني في بصري لا إله إلا أنت — ثلاث مرات — » أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة من كلام أبي بكرة وقال النسائي جعفر بن ميمون ليس بالقوى.

(٥) « اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء ... » إلى قوله « أو ذنبا لا يغفر » أخرجه أحمد والحاكم من كلام زيد ابن ثابت في أثناء كلام وقال صحيح الإسناد. (٦) « اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد ... » إلى قوله « وأنت علام الغيوب » أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم وصححه من كلام شداد بن أوس قلت: بل هو منقطع وضعيف

(٧) « اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت ... » إلى قوله « وعلى كل غيب شهيد » متفق عليه من كلام أبي موسى دون قوله « وعلى كل غيب شهيد » وقد تقدم في الباب الثاني من هذا الكتاب.

(٨) « اللهم إني أسألك إيمانا لا يرتد ونعيم لا ينفد وقرة عين الأبد ... » أخرجه النسائي في اليوم والليلة والحاكم من كلام عبد الله بن مسعود دون قوله « وقرة عين الأبد » وقال صحيح الإسناد والنسائي من كلام عمار بن يسر بإسناد جيد « وأسألك نعيما لا يبيد وقرة عين لا تنقطع ». (٩) « اللهم إني أسألك الطيبات وفعل الخيرات... » إلى قوله « غير مفتون » أخرجه الترمذي من كلام معاذ « اللهم إني أسألك فعل الخيرات... » وقال حسن صحيح ولم يذكر « الطيبات » وهي في الدعاء للطبراني من كلام عبد الرحمن بن عايش وقال أبو حاتم ليست له صحبة.

بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين (١) اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ماتبلغنا به جنتك . ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا والآخرة (٢) اللهم املأ وجوهنا منك حياء وقلوبنا منك فرقا واسكن فى نفوسنا من عظمتك ما تذلل به جوارحنا لخدمتك واجعلك اللهم أحب إلينا ممن سواك واجعلنا أخشى لك من سواك(٣) اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحا وأوسطه فلاحا وآخره نجاحا اللهم اجعل أوله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكرمة ومغفرة (٤) الحمد لله الذى تواضع كل شىء لعظمته وذل كل شىء لعزته وخضع كل شىء للملكه واستسلم كل شىء لقدرته والحمد لله الذى سكن كل شىء لهيبته وأظهر كل شىء بحكمته وتصاغر كل شىء لكبريائه (٥) اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد وأزواج محمد وذريته وبارك على محمد وعلى آله وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم وعلى آل ابراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد (٦) اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبى الأمى رسولك الأمين وأعطه المقام المحمود الذى وعدته يوم الدين (٧)اللهم اجعلنا من أوليائك المتقين وحزبك المفلحين وعبادك الصالحين واستعملنا لمرضاتك عنا ووفقنا لمحابك منا وصرفنا بحسن اختيارك لنا (٨) نسألك جوامع الخير وفواتحه وخواتمه ونعوذ بك من جوامع الشر وفواتحه وخواتمه (٩) اللهم بقدرتك على تب على إنك أنت التواب الرحيم وبحلمك عنى اعف عنى إنك أنت الغفار الحليم وبعلمك بى ارفق بى إنك أنت أرحم الراحمين وبملكك لى ملكنى نفسى ولا تسلطها على إنك أنت الملك الجبار(١٠)سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءا وظلمت نفسى فاغفر لى ذنبى إنك أنت ربى ولا يغفر الذنوب إلا أنت(١١)اللهم ألهمنى رشدى وقنى شر نفسى(١٢) اللهم ارزقنى حلالا لا تعاقبنى عليه وقنعنى بما رزقتنى

---

(١) اللهم إنى أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحينى ما كانت الحياة خيراً لى . . . » إلى قوله « واجعلنا هداة مهتدين » أخرجه النسائى والحاكم وقال صحيح الإسناد من كلام عمار بن ياسر « قال كان النبى ﷺ يدعو به »
(٢) « اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك ... » أخرجه الترمذى وقال حسن والنسائى فى اليوم والليلة والحاكم وقال صحيح على شرط البخارى من حديث ابن عمر « أن النبى ﷺ كان يختم مجلسه بذلك »
(٣) « اللهم املأ وجوهنا منك حياء وقلوبنا بك فرحا ... » إلى قوله « واجعلنا أخشى لك من سواك » لم أقف له على أصل . (٤) « اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحا وأوسطه فلاحا وآخره نجاحا ، اللهم اجعل أوله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكرمة » أخرجه عبد بن حميد فى المنتخب والطبرانى من حديث ابن أوفى بالشطر الأول فقط إلى قوله «نجاحا» وإسناده ضعيف . (٥) « الحمد لله الذى تواضع كل شىء لعظمته وذل كل شىء لعزته . . . » إلى قوله : « وتصاغر كل شىء لكبريائه » أخرجه الطبرانى من حديث ابن عمر بسند ضعيف دون قوله « والحمد لله الذى سكن كل شىء لهيبته » إلى آخره وكذلك رواه فى الدعاء من حديث أم سلمة وسنده ضعيف أيضاً . (٦) « اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته ... » إلى قوله « حميد مجيد » تقدم فى الباب الثانى . (٧) « اللهم صل على عبدك ونبيك ورسولك النبى الأمى رسول الأمين وأعطه المقام المحمود يوم الدين » لم أجده بهذا اللفظ مجموعا والبخارى من كلام أبى سعيد « اللهم صل على محمد عبدك ورسولك » وابن حبان والدارقطنى والحاكم والبيهقى من كلام ابن مسعود« اللهم صل على محمد النبى الأمى » والنسائى من حديث جابر « وابعثه المقام المحمود الذى وعدته » وهو عند البخارى بلفظ « وابعثه مقاما محموداً » قال الدارقطنى إسناده حسن وقال الحاكم صحيح وقال البيهقى فى المعرفة إسناده صحيح .
(٨) « اللهم اجعلنا من أوليائك المتقين وحزبك المفلحين ... » إلى قوله « صرفنا بحسن اختيارك لنا » لم أقف له على أصل . (٩) « نسألك جوامع الخير وفواتحه وخواتمه ونعوذ بك من جوامع الشروفواتحه وخواتمه » أخرجه الطبرانى من حديث أم سلمة « أنه كان يدعو بهؤلاء الكلمات » فذكر منها « اللهم إنى أسألك فواتح الخير وخواتمه وأوله وآخره وظاهره وباطنه والدرجات العلى من الجنة آمين » فيه عاصم بن عبيد لا أعلم روى عنه إلا موسى بن عقبة . (١٠) « اللهم بقدرتك تب على إنك أنت التواب الرحيم وبحلمك على اعف عنى ... » إلى قوله «إنك الملك الجبار » لم أقف له على أصل . (١١) « سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسى فاغفر لى ذنبى أنت ربى إنه لايغفر الذنوب إلا أنت » أخرجه البيهقى فى الدعوات من كلام على دون قوله«ذنبى إنك أنت ربى» وتقدم فى الباب الثانى . (١٢) « اللهم ألهمنى رشدى وقنى شر نفسى » أخرجه الترمذى من حديث عمران بن حصين =

واستعملنى به صالحا تقبله منى (١) أسألك العفو والعافية وحسن اليقين والمعافاة فى الدنيـا والآخرة(٢) يا من لا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة هب لى ما لا يضرك وأعطنى ما لا ينقصك ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين . أنت ولى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين . أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا اليك . ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين . ربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم . ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً . ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان — إلى قوله عز وجل — إنك لا تخلف الميعاد . ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا — إلى آخر السورة (٣) رب اغفر لى ولوالدى وارحمهما كما ربيانى صغيرا . واغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات(٤) رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم وأنت الأعز الأكرم وأنت خير الراحمين وأنت خير الغافرين وإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على محمد خاتم النبيين وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا (٥) .

أنواع الاستعاذة المأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم

اللهم إنى أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وأعوذ بك من عذاب القبر(٦) اللهم إنى أعوذ بك من طبع يهدى إلى طمع ومن طمع فى غير مطمع ومن

= وأن النبى ﷺ علمه لحصين » وقال حسن غريب ورواه النسائى فى اليوم والليلة والحاكم من كلام حصين والد عمران وقال صحيح على شرط الشيخين . (١) « اللهم ارزقنى حلالا لاتعاقبنى فيه وقنعنى بما رزقتنى واستعملنى به صالحاً تقبله منى » أخرجه الحاكم من كلام ابن عباس « كان النبى ﷺ يدعو اللهم قنعنى بما رزقتنى وبارك لى فيه واخلف على كل غائبة لى بخير » وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه. (٢) «اللهم إنى أسألك العفو والعافية والمعافاة وحسن اليقين فى الدنيا والآخرة » أخرجه النسائى من حديث أبى بكر الصديق بلفظ « سلوا الله المعافاة فإنه لم يؤت أحد بعد اليقين خيراً من المعافاة » وفى رواية للبيهقى « سلوا الله العفو والعافية واليقين فى الأولى والآخرة فإنه ما أوتى العبد بعد اليقين خيراً من العافية » وفى رواية لأحمد « اسأل الله العفو والعافية » . (٣) « يامن لاتضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة هب لى ما لا يضرك وأعطنى ما لاينقصك » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من كلام على بسند ضعيف . (٤) « رب اغفر لى ولوالدى وارحمهما كما ربيانى صغيراً واغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات » أخرجه أبو داود وابن ماجة بإسناد حسن من حديث أبى أسيد الساعدى « قال رجل من بنى سلمة : هل بقى على من بر أبوى شىء ؟ قال : نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما ... » ولأبى الشيخ ابن حبان فى الثواب والمستغفرى فى الدعوات من حديث أنس « من استغفر للمؤمنين والمؤمنات رد الله عليه عن كل مؤمن مضى من أول الدهر أو هو كائن إلى يوم القيامة » وسنده ضعيف وفى صحيح ابن حبان من حديث أبى سعيد « أيما رجل مسلم لم يكن عنده صدقة فليتل فى دعائه : اللهم صل على محمد عبدك ورسولك وصل على المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات فإنها زكاة » . (٥) « رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم وأنت الأعز الأكرم وأنت خير الراحمين وخير الغافرين» أخرجه أحمد من حديث أم سلمة « أن النبى ﷺ كان يقول : رب اغفر وارحم واهدنى السبيل الأقوم » وفيه زيد ابن زيد بن جدعان مختلف فيه ، وللطبرانى فى الدعاء من كلام ابن مسعود « أنه ﷺ كان يقول إذا سعى فى بطن المسيل : اللهم اغفر وارحم وأنت الأعز الأكرم » وفيه ليث بن أبى سليم مختلف فيه ورواه موقوفاً عليه بسند صحيح. (٦) « اللهم إنى أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وأعوذ بك من عذاب القبر » أخرجه البخارى من حديث سعد بن أبى وقاص .

طمع حيث لا مطمع (١) اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ودعاء لا يسمع ونفس لا تشبع وأعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ومن الخيانة فإنها بئست البطانة ومن الكسل والبخل والجبن والهرم ومن أن ارد إلى أرذل العمر ومن فتنة الدجال وعذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات اللهم إنا نسألك قلوباً أواهة مخبتة منيبة فى سبيلك . اللهم إنى أسألك عزائم مغفرتك وموجبات رحمتك والسلامة من كل إثم والغنيمة من كل بر والفوز بالجنة والنجاة من النار(٢). اللهم إنى أعوذ بك من التردى وأعوذ بك من الغم والغرق والهدم وأعوذ بك من أن اموت فى سبيلك مدبراً وأعوذ بك من أن اموت فى تطلب الدنيا (٣) اللهم إنى أعوذ بك من شر ما علمت ومن شر ما لم أعلم (٤) . اللهم جنبنى منكرات الأخلاق والأعمال والأدواء والأهواء (٥). اللهم إنى أعوذ بك من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء (٦) اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والدين والفقر وأعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من فتنة الدجال (٧)اللهم إنى أعوذ بك من شر سمعى وبصرى وشر لسانى وقلبى وشر منى (٨) . اللهم إنى أعوذ بك من جار السوء فى دار المقامة فإن جار البادية يتحول (٩) . اللهم إنى أعوذ بك من القسوة والغفلة والغيلة والذلة والمسكنة وأعوذ بك من الكفر والفقر والفسوق والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق وضيق الأرزاق والسمعة والرياء وأعوذ بك من الصمم والبكم والعمى والجنون والجذام والبرص وسيء الأسقام (١٠) اللهم إنى أعوذ بك من زوال نعمتك ومن تحول عافيتك ومن فجاة نقمتك ومن جميع سخطك(١١) اللهم انى أعوذ بك من عذاب النار وفتنة النار وعذاب القبر وفتنة القبر وشر فتنة الغنى وشر فتنة الفقر وشر فتنة

---

(١) « اللهم إنى أعوذ بك من طبع يهدى إلى طمع وطمع فى غير مطمع ومن طمع حيث لامطمع » أخرجه أحمد والحاكم من حديث معاذ وقال مستقيم الإسناد . (٢) « اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ودعاء لا يسمع ... » إلى قوله « والنجاة من النار » أخرجه الحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح الإسناد وليس كما قال إلا أنه ورد مفرقاً فى أحاديث جيدة الأسانيد . (٣) «اللهم إنى أعوذ بك من التردى وأعوذ بك من الغم..» إلى قوله « وأعوذ بك أن أموت فى تطلب الدنيا » أخرجه أبو داود والنسائى والحاكم وصحح إسناده من حديث أبى اليسر واسمه كعب بن عمرو بزيادة فيه دون قوله « وأعوذ بك أن أموت فى تطلب الدنيا » وتقدم من عند البخارى الاستعاذة من فتنه الدنيا . (٤) « اللهم إنى أعوذ بك من شر ما علمت ومن شر ما لم أعلم » قلت : هكذا فى غير نسخة «علمت» وإنما هو « عملت ، وأعمل » كذا رواه مسلم من حديث عائشة ولأبى بكر بن الضحاك فى الشمائل فى حديث مرسل فى الاستعاذة وفيه « وشر ما لم أعمل وشر ما لم أعلم ». (٥) « اللهم جنبنى منكرات الأخلاق والأعمال والأدواء والأهواء » أخرجه الترمذى وحسنه والحاكم وصححه واللفظ له من حديث قطبة بن مالك . (٦) « اللهم إنى أعوذ بك من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء »متفق عليه من كلام أبى هريرة .

(٧) « اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والدين والفقر وأعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من فتنة الدجال » أخرجه النسائى والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث سعيد الخدرى عن النبى ﷺ « أنه كان يقول : من الكفر والدين » وفى رواية للنسائى « من الكفر والفقر » ولمسلم من كلام أبى هريرة عن النبى ﷺ « أنه كان يتعوذ من عذاب القبر وعذاب جهنم وفتنة الدجال » وللشيخين من كلام عائشة « ومن شر فتنه المسيح الدجال ». (٨) «اللهم إنى أعوذ بك من شر سمعى وشر بصرى وشر لسانى وقلبى وشر منى » أخرجه أبو داود والنسائى والترمذى وحسنه الحاكم وصحح إسناده من حديث سهل بن حميد . (٩) « اللهم إنى أعوذ بك من جار السوء فى دار المقامة فإن جار البادية يتحول » » أخرجه النسائى والحاكم من حديث أبى هريرة وقال صحيح على شرط مسلم . (١٠) «اللهم إنى أعوذ بك من القسوة والغفلة والعيلة والذلة والمسكنة وأعوذ بك من الفقر والكفر والفسوق والشقاق والنفاق والسمعة والرياء وأعوذ بك من الصمم والبكم والجنون والجذام والبرص وسيء الأسقام » أخرجه أبو داود والنسائى مقتصرين على الأربعة الأخيرة والحاكم بتمامه من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين . (١١) « اللهم إنى أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وفجأة نقمتك ومن جميع سخطك » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر .

المسيح الدجال وأعوذ بك من المغرم والمأثم(١) اللهم إنى أعوذ بك من نفس لا يشبع وقلب لايخشع وصلاة لا تنفع ودعوة لا تستجاب وأعوذ بك من شر الغم وفتنة الصدر(٢) . اللهم إنى أعوذ بك من غلبة الدين وغلبة العدو وشماتة الأعداء(٣) وصلى الله على محمد وعلى كل عبد مصطفى من كل العالمين آمين .

الباب الخامس : فى الأدعية المأثورة عند حدوث كل حادث من الحوادث

إذا أصبحت وسمعت الأذان فيستحب لك جواب المؤذن وقد ذكرناه وذكرنا أدعية دخول الخلاء والخروج منه وأدعية الوضوء فى كتاب الطهارة فإذا خرجت إلى المسجد فقل « اللهم اجعل فى قلبى نوراً وفى لسانى نوراً واجعل فى سمعى نورا واجعل فى بصرى نورا واجعل خلفى نورا وأمامى نورا واجعل من فوقى نورا اللهم أعطنى(٤) نورا . وقل أيضا : اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى هذا إليك (٥) فإنى لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك فأسألك أن تنقذنى من النار وأن تغفر لى ذنوبى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » فإن خرجت من المنزل لحاجة فقل « بسم الله رب أعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل على (٦) بسم الله الرحمن الرحيم لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم بسم الله التكلان على الله (٧) » فإذا انتهيت إلى المسجد تريد دخوله فقل « اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد وسلم اغفرلى جميع ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك (٨) » وقدم رجلك اليمنى فى الدخول فإذا رأيت فى المسجد من يبيع أو يبتاع فقل « لا أربح الله تجارتك (٩) » وإذا رأيت من ينشد ضالة فى المسجد فقل « لاردها الله عليك » أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٠) فإذا صليت ركعتى الصبح فقل« بسم الله اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى .. الدعاء إلى آخره (١١)

---

(١) « اللهم إنى أعوذ بك من عذاب النار وفتنة النار وعذاب القبر وفتنة القبر وشر فتنة الغنى وشر فتنة الفقر وشر فتنة المسيح الدجال وأعوذ بك من المأثم والمغرم » متفق عليه من حديث عائشة . (٢) «اللهم إنى أعوذ بك من نفس لا تشبع وقلب لا يخشع وصلاة لا تنفع ودعوة لا تستجاب وأعوذ بك من سوء العمر وفتنة الصدر» أخرجه مسلم من كلام زيد بن أرقم أثناء حديث « اللهم إنى أعوذ بك من قلب لا يخشع ونفس لا تشبع وعمل لا يرفع ودعوة لا يستجاب لها وصلاة لا تنفع » وشك أبو المعتمر فى سماعه من أنس وللنسائى بإسناد جيد من حديث عمر فى أثناء حديث « وأعوذ » وأبو داود من حديث أنس «اللهم إنى أعوذ بك من سوء العمر وأعوذ بك من فتنة الصدر» (٣) «اللهم إنى أعوذ بك من غلبة الدين وغلبة العدو وشماتة الأعداء» أخرجه النسائى والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو وقال صحيح على شرط مسلم

الباب الخامس : فى الأدعية المأثورة عند كل حادث من الحودث

(٤) « القول عند الخروج إلى المسجد اللهم اجعل فى قلبى نورا وفى لسانى نورا .. » متفق عليه من حديث ابن عباس . (٥) «اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى هذا إلياك ...» من حديث أبى سعيد الخدرى بإسناد حسن . (٦) « القول عند الخروج من المنزل لحاجته بسم الله رب أعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل على » أخرجه أصحاب السنن من حديث أم سلمة قال الترمذى حسن صحيح . (٧) « بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله التكلان على الله » أخرجه ابن ماجه من حديث أبى هريرة « أن النبى ﷺ كان إذ خرج من منزله قال بسم الله» فذكره إلا أنه لم يقل « الرحمن الرحيم » وفيه ضعيف . (٨) «القول عند دخول المسجد اللهم صل على محمد اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث فاطمه ابنة النبى ﷺ قال الترمذى حسن وليس إسناده بمتصل ولمسلم من حديث أبى حميد أو أبى أسيد « إذ دخل أحدكم المسجد فليقل اللهم افتح لى أبواب رحمتك » وزاد أبوا داود فى أوله « فليسلم على النبى ﷺ » . (٩) » القول إذا رأى يبيع أو يبتاع المسجد لا أربح الله تجارتك » أخرجه الترمذى وقال حسن غريب والنسائى فى اليوم والليلة من حديث أبى هريرة

(١٠) « القول إذا رأى من ينشد ضالة فى المسجد لاردها الله عليك » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة .

(١١) حديث ابن عباس فى القول بعد ركعتى الصبح « اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى » إلخ قد تقدم فى الدعاء .

كما أوردناه عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم فإذا ركعت فقل فى ركوعك « اللهم لك ركعت ولك خشعت وبك آمنت ولك أسلمت وعليك توكلت أنت ربى خشع سمعى وبصرى ومخى وعظمى وعصبى وما استقلت به قدمى لله رب العالمين (١) » وإن أحببت فقل « سبحان ربى العظيم - ثلاث مرات - (٢) أو سبوح قدوس رب الملائكة والروح » (٣) فإذا رفعت رأسك من الركوع فقل « سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ماشئت من شىء بعد أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد (٤) وإذا سجدت فقل اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين اللهم سجد لك سوادى وخيالى وآمن بك فؤادى أبوء بنعمتك وأبوء بذنبى وهذا ما جنيت على نفسى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت (٥) أو تقول « سبحان ربى الأعلى - ثلاث مرات - (٦) » فإذا فرغت من الصلاة فقل « اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام (٧) وتدعو بسائر الأدعية التى ذكرناها. فإذا قمت من المجلس وأردت دعاء يكفر لغو المجلس فقل « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك عملت سوءا وظلمت نفسى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت (٨) فإذا دخلت السوق فقل « لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير (٩) بسم الله اللهم إنى أسألك خير هذه السوق وخير مافيها اللهم إنى أعوذ بك من شرها ومافيها اللهم إنى أعوذ بك أن أصيب فيها يمينا فاجرة أو صفقة خاسرة (١٠) فإن كان عليك دين فقل « اللهم اكفنى بحلالك عن حرامك وأغننى بفضلك عمن سواك (١١) » فإذا لبست ثوبا جديدا فقل « اللهم كسوتنى هذا الثوب فلك الحمد أسألك من خيره وخير ما صنع له وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له » (١٢) وإذا

---

(١) حديث ابن عباس فى القول فى الركوع « اللهم لك ركعت ولك أسلمت ... » أخرجه مسلم من حديث على (٢) حديث القول فيه « سبحان ربى العظيم » ثلاثا أخرجه أبو داود والترمذى والبيهقى من حديث ابن مسعود وفيه انقطاع. (٣) حديث القول فيه « سبوح قدوس رب الملائكة والروح » أخرجه مسلم من حديث عائشة (٤) حديث القول عند الرفع من الركوع « سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمـــد ... » أخرجه مسلم من حديث أبى سعيد الخدرى وابن عباس دون قوله « سمع الله لمن حمده » فهى فى اليوم والليلة للحسن بن على المعمرى وهى عند مسلم من حديث ابن أبى أوفى وعند البخارى من حديث أبى هريرة. (٥) حديث القول فى السجود « اللهم لك سجدت ... » أخرجه مسلم من حديث على « اللهم سجد لك سوادى وخيالى وآمن بك فؤادى أبوء بنعمتك على وأبوء بذنبى وهذا ماجنيت على نفسى فاغفر فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » أخرجه الحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح الإسناد وليس كما قال بل هو ضعيف (٦) « سبحان ربى الأعلى » ثلاثا أخرجه أبو داود والترمـذى والبيهقى من كلام ابن مسعود وهو منقطع. (٧) حديث القول إذ فرغ من الصلاة « اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام » أخرجه مسلم من حديث ثوبان (٨) « كفارة المجلس سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت » أخرجه النسائى فى اليوم والليلة من حديث رافع بن خديج بإسناد حسن. (٩) حديث القول عند دخول السوق « لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير » من حديث عمر وقال غريب والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين. (١٠) « بسم الله اللهم إنى أسألك خير هذه السوق وخير مافيها اللهم إنى أعوذ بك من شرها وشر مافيها يمينا فاجرة أو صفقة خاسرة » أخرجه الحاكم من حـديث بريدة وقال أقربها لشرائط هذا الكتاب حديث بريدة. قلت فيه أبو عمر جار لشعيب بن حرب ولعله حفص بن سليم الأسدى مختلف فيه.

(١١) حديث دعاء الدين « اللهم اكفنى بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك » أخرجه الترمذى وقال حسن غريب والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث على بن أبى طالب (١٢) حديث الدعاء إذا لبس ثوبا جديد « اللهم كسوتنى هذا الثوب فلك الحمد من خيره وخير ماصنع له وأعوذ بك من شره وشر ماصنع له » أخرجه الترمذى وقال حسن والنسائى من حديث أبى سعيد الخدرى ورواه ابن السنى بلفظ المصنف.

رأيت شيئاً من الطيرة تكرهه فقل « اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات الا أنت لاحول ولاقوة إلا بالله[١] » وإذا رأيت الهلال فقل « اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والبر والسلامة والإسلام والتوفيق لما تحب وترضى والحفظ عمن تسخط ، ربى وربك الله[٢] » ويقول « هلال رشد وخير آمنت بخالقك[٣] اللهم إنى أسألك خير هذا الشهر وخير القدر وأعوذ بك من شر يوم الحشر[٤] » وتكبر قبله أولا ثلاثا وإذا هبت الريح فقل «اللهم إنى أسألك خير هذه الريح وخير مافيها وخير ما أرسلت به ونعوذ بك من شرها وشر مافيها ومن شر ماأرسلت به[٥] » وإذا بلغك وفاة أحد فقل « إنا لله وإنا اليه راجعون وإنا الى ربنا لمنقلبون اللهم اكتبه فى المحسنين واجعل كتابه فى عليين واخلفه على عقبه فى الغابرين اللهم لا تحرمنا اجره ولا تفتنا بعده واغفر لنا وله[٦] وتقول عند التصدق ﴿ ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ﴾ وتقول عند الخسران ﴿ عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها انا الى ربنا راغبون ﴾ وتقول عند ابتداء الأمور ﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا ـ رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى ﴾ وتقول عند النظر الى السماء ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ـ تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمراً منيراً ﴾ واذا سمعت صوت الرعد فقل ﴿سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته[٧] ﴾ فإن رأيت الصواعق فقل « اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك[٨] » قال كعب . فإذا أمطرت السماء فقل « اللهم سقيا هنيئاً وصيباً نافعاً[٩] اللهم اجعله صيب رحمة ولا تجعله صيب عذاب[١٠] » فإذا غضبت فقل « اللهم اغفر لى ذنبى واذهب غيظ قلبى

(١) حديث القول إذا رأى شيئا من الطيرة يكرهه «اللهم لا يأتى الحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت لاحول ولاقوة إلا بالله» أخرجه ابن أبى شيبة وأبو نعيم فى اليوم والليلة والبيهقى فى الدعوات من كلام عروة بن عامر مرسلا ورجاله ثقات وفى اليوم والليلة لابن السنى عن عقبة بن عامر فجعله مسندا . (٢) « التكبير عند رؤية الهلال ـ ثلاثا ـ ثم يقول : اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والسلام والإسلام ربى وربك الله » أخرجه الدارمى من كلام ابن عمر إلا أنه أطلق التكبير ولم يقل « ثلاثا » ورواه الترمذى وحسنه من كلام طلحة بن عبيد الله دون ذكر التكبير والبيهقى فى الدعوات من كلام قتادة مرسلا «كان النبى ﷺ إذا رأى الهلال كبر ثلاثا » . (٣) « هلال خير ورشد آمنت بخالقك » أخرجه أبو داود مرسلا من كلام قتادة « أنه بلغه أن النبى ﷺ كان إذا رأى الهلال قال هلال خير ورشد هلال خير ورشد آمنت بالذى خلقك ـ ثلاث مرات ـ » وأسنده الدارقطنى فى الإفراد والطبرانى فى الأوسط من كلام أنس وقال داود وليس فى هذا عن النبى ﷺ كلام مسند صحيح . (٤) «اللهم إنى أسألك خير هذا الشهر وخير القدر وأعوذ بك من شر يوم الحشر » أخرجه ابن شيبة وأحمد فى مسنديهما من كلام عبادة بن الصامت وفيه من لم يسم بل قال الراوى عنه حدثنى من لاأتهم . (٥) « القول إذا هبت الريح : اللهم إنى أسألك خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ماأرسلت به ونعوذ بك من شرها وشر مافيها وشر ما أرسلت به» أخرجه الترمذى وقال حسن صحيح والنسائى فى اليوم والليلة من كلام أبى بن كعب . (٦) « القول إذا بلغه وفاة أحد إنا لله وأنا إليه راجعون، وإنا إلى ربنا لمنقلبون اللهم اكتبه من المحسنين واجعل كتابه فى عليين واخلفه على عقبه فى الغابرين اللهم لاتحرمنا أجره ولاتفتنا بعده واغفر لنا وله » أخرجه ابن السنى فى اليوم والليلة وابن حبان من كلام أم سلمة « إذا أصاب أحدكم مصيبة فليقل إنا لله وإنا إليه راجعون » ولمسلم من حديثها « اللهم اغفر لأبى سلمة وارفع درجته فى المهديين واخلفه فى عقبه فى الغابرين واغفر لنا وله يارب العالمين وافسح له فى قبره ونور له فيه » .

(٧) « القول إذا سمع صوت الرعد : سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته » أخرجه مالك فى الموطأ عن عبد الله بن الزبير موقوفا ولم أجده مرفوعا . (٨) « القول عند الصواعق : اللهم لاتقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك » أخرجه الترمذى وقال غريب والنسائى فى اليوم والليلة من كلام ابن عمر وابن السنى بإسناد حسن.

(٩) « القول عند المطر : اللهم سقياً هنيئا وصيباً نافعاً » أخرجه البخارى من كلام عائشة «كان إذا رأى المطر قال :اللهم اجعله صيباً نافعاً » وابن ماجه « سيبا » بالسين أوله والنسائى فى اليوم والليلة « اللهم اجعله صيبا هنيئا » وإسنادها صحيح . (١٠) « اللهم اجعله سيب رحمة ولا تجعله سيب عذاب » أخرجه النسائى فى اليوم والليلة من كلام سعيد بن المسيب مرسلا .

وأجرنى من الشيطان الرجيم(١) » فإذا خفت قوما فقل «اللهم إنا نجعلك فى نحورهم ونعوذ بك من شرورهم(٢) » فإذا غزوت فقل « اللهم أنت عضدى و نصيرى وبك أقاتل » وإذا طنت أذنك فصل على محمد صلى الله عليه وسلم وقل «ذكر الله من ذكرنى بخير(٤) » فإذا رأيت استجابة دعائك فقل «الحمد لله الذى بعزته وجلاله تتم الصالحات » وإذا أبطأت فقل « الحمد لله على كل حال(٥) » وإذا سمعت أذان المغرب فقل « اللهم هذا اقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعاتك وحضور صلواتك أسألك أن تغفر لى(٦) » وإذا أصابك هم فقل « اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتى بيدك ماض فى حكمك عدل فى قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء غمى وذهاب حزنى وهمى(٧) » قال صلى الله عليه وسلم « ما أصاب أحداً حزن فقال ذلك إلا أذهب الله همه وأبدله مكانه فرحا فقيل له يا رسول الله أفلا نتعلمها ؟ فقال صلى الله عليه وسلم بل ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها » وإذا وجدت وجعا فى جسدك أو جسد غيرك فارقه برقية رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان إذا اشتكى الإنسان قرحة او جرحا وضع سبابته على الأرض ثم رفعها وقال بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى سقيمنا بإذن ربنا(٨) » وإذا وجدت وجعا فى جسدك فضع يدك على الذى يتألم من جسدك وقل « بسم الله — ثلاثا — وقل سبع مرات : أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر(٩) » فإذا اصابك كرب فقل «لا إله إلا الله العلى الحليم لا اله إلا الله رب العرش العظيم لا اله إلا الله رب السموات السبع ورب العرش الكريم(١٠) » فإن أردت النوم فتوضأ اولا ثم توسد على يمينك مستقبل القبلة ثم كبر الله تعالى أربعا وثلاثين وسبحه ثلاثا وثلاثين واحمده ثلاثا وثلاثين(١١) » ثم قل « اللهم انى اعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك اللهم انى لا أستطيع أن أبلغ ثناء عليك ولو حرصت ولكن أنت كما أثنيت على نفسك(١٢) اللهم باسمك أحيا وأموت(١٣) اللهم رب السموات ورب الأرض ورب كل شيء ومليكه فالق الحب والنوى ومنزل التوارة والإنجيل

---

(١) « القول إذا غضب : اللهم اغفر ذنبى وأذهب غيظ قلبى وأجرنى من الشيطان الرجيم » أخرجه ابن السنى فى اليوم والليلة من كلام عائشة بسند ضعيف . (٢) « القول إذا خاف قوما : اللهم إنى أجعلك فى نحورهم وأعوذ بك من شرورهم » أخرجه أبو داود والنسائى فى اليوم والليلة من كلام أبى موسى بسند صحيح . (٣) « القول إذا غزا: اللهم أنت عضدى ونصيرى بك أقاتل » أخرجه أبو داود والترمذى النسائى من كلام أنس قال الترمذى حسن غريب

(٤) « القول عند طنين الأذن : اللهم صل على محمد ذكر الله بخير من ذكرنى » أخرجه الطبرانى وابن عدى وابن السنى فى اليوم والليلة من كلام أبى رافع بسند ضعيف (٥) « القول إذا رأى استجابة دعائه : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات » تقدم فى الدعاء . (٦) « القول إذا سمع أذان المغرب : اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعاتك وحضور صلواتك » فإنها عند الخرائطى فى مكارم الأخلاق والحسن بن على المعمرى فى اليوم والليلة

(٧) « القول إذا أصابه هم : اللهم إنى عبدك وابن أمتك ناصيتى بيدك ... » أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم من كلام ابن مسعود وقال صحيح على شرط مسلم من إرسال عبد الرحمن عن أبيه فإنه مختلف فى سماعه من أبيه .

(٨) « رقية رسول الله ﷺ: بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى سقيمنا بإذن ربنا» متفق عليه من كلام عائشة

(٩) « وضع يده على الذى يألم من جسده ويقول : بسم الله — ثلاثا — ويقول : أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر سبع مرات » أخرجه مسلم من كلام عثمان بن أبى العاص . (١٠) « دعاء الكرب لا إله إلا الله العلى الحليم ... » متفق عليه من كلام ابن عباس . (١١) « التكبير عند النوم أربعا وثلاثين والتسبيح ثلاثا وثلاثين» متفق عليه من كلام على . (١٢) « القول عند إرادة النوم : اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك اللهم لا أستطيع أن أبلغ ثناء عليك ولو حرصت ولكن أنت كما أثنيت على نفسك » أخرجه النسائى فى اليوم والليلة من كلام على وفيه انقطاع . (١٣) « اللهم باسمك أحيا وأموت » أخرجه البخارى من كلام حذيفة ومسلم من كلام البراء :

والقرآن أعوذ بك من شر كل ذى شر ومن كل دابة أنت آخذ بناصيتها أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عنى الدين واغننى من الفقر[١] اللهم إنك خلقت نفسى وأنت تتوفاها لك مماتها ومحياها اللهم إن أمتها فاغفر لها وإن احييتها فاحفظها اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة[٢] باسمك ربى وضعت جنبى فاغفر لى ذنبى[٣] اللهم قنى عذابك يوم تجمع عبادك[٤] اللهم أسلمت نفسى إليك ووجهت وجهى إليك وفوضت أمرى إليك وألجأت ظهرى إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيك الذى أرسلت[٥] » ويكون هذا آخر دعائك فقد أمر رسول الله ﷺ بذلك وليقل قبل ذلك « اللهم أيقظنى فى أحب الساعات إليك واستعملنى بأحب الأعمال إليك تقربنى إليك زلفى وتبعدنى من سخطك بعداً أسألك فتعطينى واستغفرك فتغفر لى وأدعوك فتستجيب لى[٦] » فاذا استيقظت من نومك عند الصباح فقل « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور[٧] أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والسلطان لله والعزة والقدرة لله[٨] أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة أبينا ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين[٩] اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت واليك المصير[١٠] اللهم انى أسألك أن تبعثنا فى هذا اليوم الى كل خير ونعوذ بك أن نجترح فيه سوءا أو نجره الى مسلم فإنك قلت ﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ﴾[١١] اللهم فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه وأعوذ بك من شره وشر ما فيه[١٢] بسم الله ماشاء الله لاقوة إلا بالله ماشاء الله

---

(١) « اللهم رب السموات والارض رب كل شيء ومليكه فالق الحب والنوى ... الحديث » إلى قوله « وأغننا من الفقر » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة . (٢) « اللهم أنت خلقت نفسى وأنت تتوفاها . . الحديث » إلى قوله « اللهم إنى أسألك العافية » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر . (٢) « باسمك ربى وضعت جنبى فاغفر لى ذنبى » أخرجه النسائى فى اليوم والليلة من حديث عبد الله بن عمر وبسند جيد وللشيخين من حديث أبى هريرة « باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه إن أمسكت نفسى فاغفر لها » وقال البخارى « فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » . (٤) « اللهم قنى عذابك يوم تجمع عبادك » أخرجه الترمذى فى الشمائل من حديث ابن مسعود وهو عندأبى داود من حديث حفصة بلفظ « تبعث » وكذا رواه الترمذى من حديث حذيفة وصححه من حديث البراء وحسنه . (٥) « اللهم إنى أسلمت نفسى إليك وفوضت أمرى إليك . . . الحديث » متفق عليه من حديث البراء .

(٦) « اللهم أيقظنى فى أحب الساعات إليك واستعملنى فى أحب الاعمال إليك تقربنى إليك زلفى وتبعدنى من سخطك بعداً أسألك فتعطينى وأستغفرك فتغفر لى وأدعوك فتستجيب لى » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عباس « اللهم ابعثنا فى أحب الساعات حتى نذكرك فتذكرنا ونسألك فتعطينا وندعوك فتستجيب لنا ونستغفرك فتغفر لنا » وإسناده ضعيف وهو معروف من قول حبيب الطائى كما رواه ابن أبى الدنيا فى الدعاء . (٧) « القول : إذا استيقظ من منامه الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » أخرجه البخارى من حديث حذيفة ومسلم من حديث البراء . (٨) « أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والسلطان لله والعزة والقدرة لله » أخرجه الطبرانى فى الاوسط من كلام عائشة « أصبحنا وأصبح الملك والحمد والحول والقوة والقدرة والسلطان والسموات والأرض وكل شيء لله رب العالمين » وله فى الدعاء من حديث ابن أبى أوفى « أصبحت وأصبح الملك والكبرياء والعظمة والخلق والليل والنهار وما سكن فيها لله » وإسنادها ضعيف ولمسلم من كلام ابن مسعود « أصبحنا وأصبح الملك لله » (٩) « أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد ﷺ وملة أبينا إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » أخرجه النسائى فى اليوم والليلة من كلام عبد الرحمن بن أبزى بسند صحيح ورواه أحمد من كلام ابن أبزى عن أبى بن كعب مرفوعا

(١٠) « اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير » أخرجه أصحاب السنن وابن حبان وحسنه والترمذى إلا أنهم قالوا « وإليك النشور » ولابن السنى « وإليك المصير » . (١١) « اللهم إنا نسألك أن تبعثنا فى هذا اليوم إلى كل خير ونعوذ بك أن نجترح فيه سوءا نجره إلى مسلم ... » لم أجد أوله والترمذى من كلام أبى بكر فى حديث له « وأعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه أونقترف على أنفسنا سوءا أو نجره إلى مسلم » رواه ابو داود من كلام أبى مالك الأشعرى بإسناد جيد . (١٢) « اللهم فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا والشمس =

كل نعمة من الله ماشاء الله الخير كله بيد الله ماشاء الله لا يصرف السوء إلا الله[١] رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا — ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير[٢] — وإذا أمسى قال ذلك إلا أنه يقول «أمسينا» ويقول مع ذلك أعوذ بكلمات الله التامات وأسمائه كلها من شر ماذرأ وبرأ ومن شر كل ذى شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم[٣] وإذا نظر فى المرآة قال الحمد لله الذى سوى خلقى فعدله وكرم صورة وجهى وحسنها وجعلنى من المسلمين[٤] وإذا اشتريت خادما أو غلاما أو دابة فخذ بناصيته وقل اللهم إنى أسألك خيره وخير ما جبل عليه وأعوذ بك من شره وشر ما جبل عليه[٥] وإذا هنأت بالنكاح فقل بارك الله فيك وبارك عليك وجمع بينكما فى خير[٦] وإذا قضيت الدين فقل للمقضى له بارك الله لك فى أهلك ومالك إذ قال ﷺ وإنما جزاء السلف الحمد والأداء[٧]

فهذه أدعية لا يستغنى المريد عن حفظها وما سوى ذلك من أدعية السفر والصلاة والوضوء ذكرناها فى كتاب الحج والصلاة والطهارة * فإن قلت: فما فائدة الدعاء والقضاء لا مرد له؟ فاعلم أن من القضاء رد البلاء بالدعاء فالدعاء سبب

= والقمر حسباناً أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه وأعوذ بك من شره وشر ما فيه » قلت : هو مركب من حديثين فروى أبو منصور الديلمى فى الفردوس من حديث أبو سعيد قال « كان النبى ﷺ يدعو : اللهم فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً اقض عنى الدين وأغننى من الفقر وقونى على الجهاد فى سبيلك » والدارقطنى فى الإفراد من حديث البراء « نسألك خير هـذا اليوم وخير ما بعـده ، ونعوذ بك من شر هذا اليوم وشر ما بعـده » وأبو داود من حديث ابن مالك الأشعرى اللهم إنا نسألك خير هذا اليوم فتحه ونصره ونوره وهداه وبركته أعوذ بك من شر ما فيه وشر ما بعده » وسنده جيد وللحسن بن على بن المعمر فى اليوم والليلة من حديث ابن مسعود « اللهم إنى أسألك خير ما فى هذا اليوم وخير ما بعده وأعوذ بك من شر هذا اليوم وشر ما بعده» والحديث عند مسلم فى المساء « خير هذه الليلة ... » ثم قال : وإذا أصبح قال ذلك أيضا .

(١) « بسم الله ماشاء لاقوة إلا بالله لاقوة إلا ماشاء الله كل نعمة فمن الله الخير كله بيد لله ماشاء الله لا يصرف السوء إلا الله » عد فى الكامل من حديث ابن عباس ولا أعلمه إلا مرفوعا إلى النبى ﷺ «قال يلتقى الخضر والياس عليهما الصلاة والسلام كل عام بالموسم بمنى فيحلق كل واحد منهما رأس صاحبه فيفترقان عن هذه الكلمات» فذكره. ولم يقل «الخير كله بيد الله» قال موضعها «لا يسوق الخير إلا الله » قال ابن عباس : من قالهن حين يصبح وحين يمسى أمنه الله من الغرق والحرق وأحسبه قال : ومن الشيطان والسلطان والحية والعقرب . أورده فى ترجمة الحسين بن زرين قال ليس بالمعروف وهو الإسناد منكر . (٢) «رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا» تقدم فى الباب الأول

(٣) «القول عند المساء مثل الصباح إلا أنك تقول : أمسينا وتقول مع ذلك اعوذ بكلمات الله التامات وأسمائه كلها من شر ماذرأ وبرأ ومن شر كل ذى شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم » أخرجه أبو الشيخ فى كتاب الثواب من كلام عبد الرحمن بن عوف «من قال حين يصبح أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاورهن بر ولا فاجر ومن شر ماخلق وبرأ وذرأ اعتصم من شر الثقلين ...» وفيه «وإن قالهن حين يمسى كن له كذلك حتى يصبح » وفيه ابن لهيعة ولأحمد من حديث عبد الرحمن بن حسن فى حديث « إن جبريل قال يا محمد قل أعوذ بكلمات الله التامات من شر ماخلق وذرأ وبرأ ومن شر ماينزل من السماء ... » وإسناده جيد ولمسلم من كلام أبى هريرة فى الدعاء عند النوم «أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها» وللطبرانى فى الدعاء من حديث أبى الدرداء «اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى ومن شر كل دابة أنت ...» وقد تقدم فى الباب الثانى . (٤) «القول إذا نظر فى المرآة «الحمد لله الذى سوى خلقى فعدله وكرم صورة وجهى وحسنها وجعلنى من المسلمين » أخرجه الطبرانى فى الأوسط وابن السنى فى اليوم والليلة من كلام أنس بسند ضعيف . (٥) « القول إذا اشترى خادمة أو دابة : اللهم إنى أسألك خيره وخير ماجبل عليه وأعوذ بك من شره وشر ما جبل عليه » أخرجه أبو داود وابن ماجه من كلام عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بسند جيد . (٦) « التهنئة بالنكاح : بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما فى خير» أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة قال الترمذى حسن صحيح . (٧) « الدعاء لصاحب الدين إذا قضى الله دينه . بارك الله لك فى أهلك ومالك إنما جزاء السلف الحمد والأداء» أخرجه النسائى من حديث عبد الله بن أبى ربيعة قال استقرض النبى ﷺ أربعين ألفا فجاءه مال فدفعه إلى » قال فذكره وإسناده حسن

لرد البلاء واستجلاب الرحمة كما أن الترس سبب لرد السهم والماء سبب لخروج النبات من الأرض فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان . وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى أن لايحمل السلاح وقد قال تعالى ﴿ خذوا حذركم ﴾ وأن لايسقى الأرض بعد بث البذر فيقال إن سبق القضاء بالنبات نبت البذر وإن لم يسبق لم ينبت . بل ربط الأسباب بالمسببات هو القضاء الأول الذى هو كلمح البصر أو هو أقرب وترتيب تفصيل المسببات على تفاصيل الأسباب على التدريج والتقدير هو القدر والذى قدر الخير قدره بسبب . والذى قدر الشر لدفعه سبباً فلا تناقض بين هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته. ثم فى الدعاء من الفائدة ماذكرناه فى الذكر فإنه يستدعى حضور القلب مع الله وهو منتهى العبادات ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « الدعاء مخ العبادة[1] » والغالب على الخلق أنه لاتنصرف قلوبهم إلى ذكر الله عز وجل إلا عند إلمام حاجة وإرهاق ملمة فإن الإنسان إذا مسه الشر فذو دعاء عريض . فالحاجة تحوج إلى الدعاء والدعاء يرد القلب إلى الله عز وجل بالتضرع والاستكانة فيحصل به الذكر الذى هو أشرف العبادات . ولذلك صار البلاء موكلا بالأنبياء عليهم السلام ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل لأنه يرد القلب بالافتقار والتضرع إلى الله عز وجل ويمنع من نسيانه وأما الغنى فسبب للبطر فى غالب الأمور فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى . فهذا ماأردنا أن نورده من جملة الأذكار والدعوات والله الموفق للخير . وأما بقية الدعوات فى الأكل والسفر وعيادة المريض وغيرها فستأتى فى مواضعها إن شاء الله تعالى وعلى الله التكلان .

تم كتاب الأذكار والدعوات ، بكماله . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب : الأوراد . والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتاب ترتيب الاوراد وتفصيل إحياء الليل

وهو الكتاب العاشر من إحياء علوم الدين

وبه اختتام ربع العبادات نفع الله به المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله على آلائه حمداً كثيراً ونذكره ذكراً لايغادر فى القلب استكباراً ولا نفورا ونشكره إذ جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ونصلى على نبيه الذى بعثه بالحق بشيراً ونذيراً وعلى آله الطاهرين وصحبه الأكرمين الذين اجتهدوا فى عبادة الله غدوة وعشيا وبكرة وأصيلا حتى أصبح كل واحد منهم نجما فى الدين هاديا وسراجا منيراً .

أما بعد : فإن الله تعالى جعل الأرض ذلولا لعباده لا ليستقروا فى مناكبها بل ليتخذوها منزلا فيتزودوا منها زاداً يحملهم فى سفرهم إلى أوطانهم ويكتنزون منها تحفاً لنفوسهم عملا وفضلا محترزين من مصايدها ومعاطبها ويتحققون أن العمر يسير بهم سير السفينة براكبها . فالناس فى هذا العالم سفر وأول منازلهم المهد وآخرها اللحد والوطن هو الجنة أو النار . والعمر مسافة السفر ؛ فسنوه مراحله . وشهوره فراسخه ، وأيامه أمياله وأنفاسه خطواته ، وطاعته بضاعته وأوقاته رءوس أمواله ، وشهواته وأغراضه قطاع طريقه . وربحه الفوز بلقاء الله تعالى فى دار السلام مع الملك

---

(١) « الدعاء مخ العبادة » تقدم فى الباب الأول .

الكبير والنعيم المقيم ، وخسرانه البعد من الله تعالى مع الأنكال والأغلال والعذاب الأليم فى دركات الجحيم . فالغافل فى نفس من أنفاسه حتى ينقضى فى غير طاعة تقربه إلى الله زلفى متعرض فى يوم التغابن لغبينة وحسرة مالها منتهى ولهذا الخطر العظيم والخطب الهائل شمر الموفقون عن ساق الجد وودعوا بالكلية ملاذ النفس واغتنموا بقايا العمر . ورتبوا بحسب تكرار الأوقات وظائف الأوراد حرصا على إحياء الليل والنهار فى طلب القرب من الملك الجبار والسعى إلى دار القرار فصار من مهمات علم طريق الآخرة تفصيل القول فى كيفية قسمة الأوراد وتوزيع العبادات التى سبق شرحها على مقادير الأوقات ويتضح هذا المهم بذكر بابين : (الباب الأول) فى فضيلة الأوراد وترتيبها فى الليل والنهار . (الباب الثانى) فى كيفية إحياء الليل وفضيلته وما يتعلق به .

الباب الأول

فى فضيلة الأوراد وترتيبها وأحكامها

فضيلة الأوراد وبيان أن المواظبة عليها هى الطريق إلى الله تعالى

أعلم أن الناظرين بنور البصيرة علموا أنه لانجاة إلا فى لقاءالله تعالى وأنه لاسبيل إلى اللقاء إلا بأن يموت العبد محبا لله تعالى وعارفا بالله سبحانه . وأن المحبة والأنس لاتحصل إلا من دوام ذكر المحبوب والمواظبة عليه . وأن المعرفة به لاتحصل إلا بدوام الفكر فيه وفى صفاته وأفعاله . وليس فى الوجود سوى الله تعالى وأفعاله . ولن يتيسر دوام الذكر والفكر إلا بوداع الدنيا وشهواتها والاجتزاء منها بقدر البلغة والضرورة وكل ذلك لايتم إلا باستغراق أوقات الليل والنهار فى وظائف الأذكار والأفكار . والنفس لما جبلت عليه السآمة والملال والاستثقال وأن الله تعالى لايمل حتى تملوا . فمن ضرورة اللطف بها أن تروح بالتنقل من فن إلى فن ومن نوع إلى نوع بحسب كل وقت لتغزر بالانتقال لذتها وتعظم باللذة رغبتها وتدوم بدوام الرغبة مواظبتها . فلذلك تقسم الأوراد قسمة مختلفة فالذكر والفكر ينبغى أن يستغرقا جميع الأوقات أو أكثرها فإن النفس بطبعها مائلة إلى ملاذ الدنيا . فإن صرف العبد شطر أوقاته إلى تدبيرات الدنيا وشهواتها المباحة مثلا والشطر الآخر إلى العبادات رجح جانب الميل إلى الدنيا لموافقتها الطبع إذ يكون الوقت متساويا ، فأنى يتقاومان والطبع لأحدهما مرجح إذ الظاهر والباطن يتساعدان على أمور الدنيا ويصفو فى طلبها القلب ويتجرد . وأما الرد إلى العبادات فمتكلف ولا يسلم إخلاص القلب فيه وحضوره إلا فى بعض الأوقات فمن أراد أن يدخل الجنة بغير حساب فليستغرق أوقاته فى الطاعة . ومن أراد أن تترجح كفة حسناته وتثقل موازين خيراته فليستوعب فى الطاعة أكثر أوقاته فإن خلط عملا صالحا وآخر سيئا فأمره مخطر ولكن الرجاء غير منقطع والعفو من كرم الله منتظر فعسى الله تعالى أن يغفر له بجوده وكرمه ، فهذا ما انكشف للناظرين بنور البصيرة ، فإن لم تكن من أهله فانظر إلى خطاب الله تعالى لرسوله واقتبسه بنور الإيمان فقد قال الله تعالى لأقرب عباده إليه وأرفعهم درجة لديه ﴿ إن لك فى النهار سبحا طويلا واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ﴾ وقال تعالى ﴿ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا ﴾ وقال تعالى ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ﴾ وقال سبحانه ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وأدبار النجوم ﴾ وقال تعالى ﴿ إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾ وقال عز وجل ﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ ثم انظر كيف وصف الفائزين من عباده وبماذا وصفهم فقال تعالى ﴿ أمن هو قانت

آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ وقال تعالى ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا﴾ وقال عز وجل ﴿والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما﴾ وقال عز وجل ﴿كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون﴾ وقال عز وجل ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾ وقال تعالى ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ فهذا كله يبين لك أن الطريق إلى الله تعالى مراقبة الأوقات وعمارتها بالأوراد على سبيل الدوام ولذلك قال ﷺ «أحب عباد الله إلى الله الذين يراعون الشمس والقمر والأهلة لذكر الله تعالى [1]» وقد قال تعالى ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ وقال تعالى ﴿ألم ترى إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا﴾ وقال تعالى ﴿والقمر قدرناه منازل﴾ وقال تعالى ﴿وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر﴾ فلا تظنن أن المقصود من سير الشمس والقمر بحسبان منظوم مرتب ومن خلق الظل والنور والنجوم أن يستعان بها على أمور الدنيا بل لتعرف بها مقادير الأوقات فتشتغل فيها بالطاعات والتجارة للدار الآخرة يدلك عليه قوله تعالى ﴿وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا﴾ أى يخلف أحدهما الاخر ليتدارك فى أحدهما مافات فى الاخر وبين أن ذلك للذكر والشكر لا غير وقال تعالى ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب﴾ وإنما الفضل المبتغى هو الثواب والمغفرة ونسأل الله حسن التوفيق لما يرضيه .

بيان أعداد الأوراد وترتيبها

أعلم أن أوراد النهار سبعة : فما بين طلوع الصبح إلى طلوع قرص الشمس ورد ، وما بين طلوع الشمس إلى الزوال وردان ، وما بين الزوال إلى وقت العصر وردان ، وما بين العصر إلى المغرب وردان . والليل ينقسم إلى أربعة أوراد : وردان بين المغرب إلى وقت نوم الناس ، ووردان من النصف الأخير من الليل إلى طلوع الفجر . فلنذكر فضيلة كل ورد ووظيفته وما يتعلق به .

فالورد الأول : ما بين طلوع الصبح إلى طلوع الشمس وهو وقت شريف ويدل على شرفه وفضله إقسام الله تعالى به إذ قال ﴿والصبح إذا تنفس﴾ وتمدحه إذ قال ﴿فالق الإصباح﴾ وقال تعالى ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ وإظهاره القدرة بقبض الظل فيه إذ قال تعالى ﴿ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا﴾ وهو وقت قبض ظل الليل ببسط نور الشمس وإرشاده الناس إلى التسبيح فيه بقوله تعالى ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾ وبقوله تعالى ﴿فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها﴾ وقوله عز وجل ﴿ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى﴾ وقال تعالى ﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا﴾ .

فأما ترتيبه: فليأخذ من وقت انتباهه من النوم فإذا انتبه فينبغى أن يبتدىء بذكر الله تعالى فيقول الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور إلى آخر الأدعية والآيات التى ذكرناها فى دعاء الاستيقاظ من كتاب الدعوات

كتاب الأوراد وفضل إحياء الليل

الباب الأول فى فضيلة الأوراد

(١) « أحب عباد الله إلى الله الذين يراعون الشمس والقمر والأهلة لذكر الله » أخرجه الطبراني والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث ابن أبي أوفى بلفظ « خيار عباد الله » .

وليلبس ثوبه وهو فى الدعاء وينوى به ستر عورته امتثالا لأمر الله تعالى واستعانة به على عبادته من غير قصد رياء ولا رعونة ثم يتوجه إلى بيت الماء إن كان به حاجة إلى بيت الماء ويدخل أولا رجله اليسرى ويدعو بالأدعية التى ذكرناها فيه فى كتاب الطهارة عند الدخول والخروج . ثم يستاك على السنة — كما سبق — ويتوضأ مراعياً لجميع السنن والأدعية التى ذكرناها فى الطهارة فإنا إنما قدمنا آحاد العبادات لكى نذكر فى هذا الكتاب وجه التركيب والترتيب فقط . فإذا فرغ من الوضوء صلى ركعتى الفجر أعنى السنة فى منزله (١) كذلك كان يفعل رسول الله ﷺ ويقرأ بعد الركعتين سواء أداهما فى البيت أو المسجد الدعاء الذى رواه ابن عباس رضى الله عنهما ويقول « اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها إلى آخر الدعاء .. (٢) » ثم يخرج من البيت متوجهاً إلى المسجد ولا ينسى دعاء الخروج إلى المسجد ولا يسعى إلى الصلاة سعياً بل يمشى وعليه السكينة والوقار (٣) كما ورد به الخبر ولا يشبك بين أصابعه . ويدخل المسجد ويقدم رجله اليمنى ويدعو بالدعاء المأثور لدخول المسجد (٤) ثم يطلب من المسجد الصف الأول إن وجد متسعا ولا يتخطى رقاب الناس ولا يزاحم — كما سبق ذكره فى كتاب الجمعة — ثم يصلى ركعتى الفجر إن لم يكن صلاهما فى البيت ويشتغل بالدعاء المذكور بعدهما . وان كان قد صلى ركعتى الفجر صلى ركعتى التحية وجلس منتظراً للجماعة . والأحب التغليس بالجماعة فقد كان ﷺ يغلس بالصبح (٥) ولا ينبغى أن يدع الجماعة فى الصلاة عامة وفى الصبح والعشاء خاصة فلهما زيادة فضل . فقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال فى صلاة الصبح « من توضأ ثم توجه الى المسجد ليصلى فيه الصلاة كان له بكل خطوة حسنة ومحى عنه سيئة والحسنة بعشر أمثالها ، فإذا صلى ثم انصرف عند طلوع الشمس كتب له بكل شعرة فى جسده حسنة وانقلب بحجة مبرورة فإن جلس حتى يركع الضحى كتب له بكل ركعة ألفا ألف حسنة ، ومن صلى العتمة فله مثل ذلك وانقلب بعمرة مبرورة (٦) » وكان من عادة السلف دخول المسجد قبل طلوع الفجر . قال رجل من التابعين « دخلت المسجد قبل طلوع الفجر فلقيت أبا هريرة قد سبقنى فقال لى : يا ابن أخى لأى شىء خرجت من منزلك فى هذه الساعة ؟ فقلت لصلاة الغداة فقال : أبشر فإنا كنا نعد خروجنا وقعودنا فى المسجد فى هذه الساعة بمنزلة غزوة فى سبيل الله تعالى (٧) — أو قال — مع رسول الله صلى الله عليه وسلم » وعن على رضى الله عنه أن النبى ﷺ طرقه وفاطمة رضى الله عنهما وهما نائمان فقال « ألا تصليان قال على : فقلت يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله تعالى فإذا شاء أن يبعثها بعثها فانصرف صلى الله عليه وسلم فسمعته وهو منصرف يضرب فخذه ويقول : وكان الإنسان أكثر شىء جدلا (٨) » ثم ينبغى أن يشتغل بعد ركعتى الفجر ودعائه بالاستغفار والتسبيح الى أن تقام الصلاة فيقول « أستغفر الله الذى لا إله الا هو الحى القيوم وأتوب اليه سبعين مرة

---

(١) « صلاة ركعتى الصبح فى المنزل » متفق عليه من حديث حفصة .

(٢) « الدعاء بين ركعتى الصبح : اللهم أسألك رحمة من عندك ... » تقدم .

(٣) « المشى إلى الصلاة وعليه السكينة » متفق عليه من حديث أبو هريرة .

(٤) « الدعاء المأثور لدخول المسجد » تقدم فى الباب الخامس من الأذكار .

(٥) « التغليس فى الصبح » متفق عليه من حديث عائشة .

(٦) حديث أنس فى صلاة الصبح « من توضأ ثم توجه إلى المسجد يصلى فيه الصلاة كان له بكل خطوة حسنة ومحى عنه سيئة والحسنة بعشر أمثالها وإذا صلى ثم انصرف عند طلوع الشمس كتب له بكل شعرة فى جسده حسنة وانقلب بحجة مبرورة فإن جلس حتى يركع كتب له بكل ركعة ألفا ألف حسنة ومن صلى العتمة فله مثل ذلك وانقلب بحجة مبرورة » لم أجد له أصلا بهذا السياق وفى شعب الايمان للبيهقى من حديث أنس بسند ضعيف « ومن صلى المغرب فى جماعة كان له كحجة مبرورة وعمرة متقبلة » . (٧) حديث أبى هريرة « كنا نعد خروجنا وقعودنا فى المجلس فى هذه الساعة بمنزلة غزوة فى سبيل الله » لم أقف له على أصل . (٨) حديث على « أن النبى ﷺ طرقه وفاطمة وهما نائمان فقال : ألا تصليان قال على : يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله . . . » متفق عليه .

سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مائة مرة » ثم يصلى الفريضة مراعيا جميع ماذكرناه من الآداب الباطنة والظاهرة فى الصلاة والقدوة فإذا فرغ منها قعد فى المسجد إلى طلوع الشمس فى ذكر الله تعالى كما سنرتبه فقد قال صلى الله عليه وسلم « لأن أقعد فى مجلسى أذكر الله تعالى فيه من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب[1] » وروى « أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى الغداة قعد فى مصلاه حتى تطلع الشمس - وفى بعضها - ويصلى ركعتين[2] » أى بعد الطلوع وقد ورد فى فضل ذلك مالايحصى . وروى الحسن « أن رسول الله ﷺ كان فيما يذكره من رحمة ربه يقول إنه قال : ياابن آدم اذكرنى بعد صلاة الفجر ساعة وبعد صلاة العصر ساعة أكفك مابينهما[3] » وإذا ظهر فضل ذلك فليقعد ولا يتكلم إلى طلوع الشمس بل ينبغى أن تكون وظيفته إلى الطلوع أربعة أنواع أدعية وأذكار ويكررها فى سبحة وقراءة قرآن وتفكر . أما الأدعية: فكلما يفرغ من صلاته فليبدأ وليقل «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يعود السلام حينا ربنا بالسلام وأدخلنا دار السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام » ثم يفتتح الدعاء بما كان يفتتح به رسول الله ﷺ وهو قوله «سبحان ربى العلى الأعلى الوهاب لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير لا إله إلا الله أهل النعمة والفضل والثناء الحسن لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون[4] » ثم يبدأ بالأدعية التى أوردناها فى الباب الثالث والرابع من كتاب الأدعية فيدعو بجميعها إن قدر عليه أو يحفظ من جملتها مايراه أوفق بحاله وأرق لقلبه وأخف على لسانه .

وأما الأذكار المكررة فهى كلمات ورد فى تكرارها فضائل لم نطول بإيرادها وأقل ماينبغى أن يكرر كل واحد منها ثلاثا أو سبعاً وأكثره مائة أو سبعون وأوسطه عشر . فليكررها بقدر فراغه وسعة وقته وفضل الأكثر أكثر . والأوسط الأقصد أن يكررها عشر مرات فهو أجدر بأن يدوم عليه وخير الأمور أدومها وإن قل .وكل وظيفة لايمكن المواظبة على كثيرها فقليلها مع المداومة أفضل وأشد تأثيرا فى القلب مع كثيرها مع الفترة . ومثال القليل الدائم كقطرات ماء تتقاطر على الأرض على التوالى فتحدث فيها حفيرة ولو وقع ذلك على الحجر . ومثال الكثير المتفرق ماء يصب دفعة أو دفعات متفرقة متباعدة الأوقات فلا يبين لها أثر ظاهر وهذه الكلمات عشرة (الأولى) قوله : لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير[5] (الثانية) قوله : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله

---

(١) «لأن أقعد فى مجلس أذكر الله فيه من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب » أخرجه أبو داود من حديث أنس وتقدم فى الباب الثالث من العلم .

(٢) « كان إذا صلى الغداة قعد فى مصلاه حتى تطلع الشمس وفى بعضها ويصلى ركعتين أى بعد الطلوع » أخرجه مسلم من حديث جابر بن سمرة دون ذكر الركعتين والترمذى من حديث أنس وحسنه « من صلى الفجر فى جماعة ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة تامة تامة تامة» .

(٣) الحسن « أن رسول الله ﷺ كان فيما يذكر من رحمة ربه أنه قال : يا ابن آدم أذكرنى بعد صلاة الفجر ساعة وبعد صلاة العصر ساعة أكفك ما بينهما » أخرجه ابن المبارك فى الزهد هكذا مرسلا .

(٤) « كان يفتتح الدعاء بسبحان ربى العلى الأعلى الوهاب » تقدم .

(٥) « الفضل فى تكرار لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لايموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير » تقدم من حديث أبى أيوب تكرارها عشرا دون قوله «يحيى ويميت وهوحى لايموت بيده الخير » فإنها فى اليوم والليلة للنسائى من حديث أبى ذر دون قوله « وهو حى لا يموت » وهى كلها عند البزار من حديث عبد الرحمن بن عوف فيما يقال عند الصباح والمساء وتقدم تكرارها مائة ومائتين وللطبرانى فى الدعاء من حديث عبد الله بن عمر وتكرارها ألف مرة وإسناده ضعيف .

العلى العظيم(١) (الثالثة) قوله : سبوح قدوس رب الملائكة والروح(٢) . (الرابعة) قوله : سبحان الله العظيم وبحمده(٣) (الخامسة) قوله : أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأسأله التوبة(٤) (السادسة) قوله : اللهم لامانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد(٥) (السابعة) قوله : لا إله إلا الله الملك الحق المبين(٦) (الثامنة) قوله : بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم(٧) (التاسعة) اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم(٨) (العاشرة) قوله : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون(٩) فهذه العشر كلمات إذا كرر كل واحدة عشر مرات حصل له مائة مرة ؛ فهو أفضل من أن يكرر ذكرا واحداً مائة مرة ؛ لأن لكل واحدة من هؤلاء الكلمات فضلا على حياله وللقلب بكل واحد نوع تنبه وتلذذ وللنفس فى الانتقال من كلمة إلى كلمة نوع استراحة وأمن من الملل . فأما القراءة فيستحب له قراءة جملة من الآيات

---

(١) « الفضل فى تكرار : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله » أخرجه النسائى فى اليوم والليلة وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبى سعيد الخدرى « استكثروا من الباقيات الصالحات » فذكرها.

(٢) « تكرار : سبوح قدوس رب الملائكة والروح » لم أجد ذكرها مكررة ولكن عند مسلم من حديث عائشة « أنه ﷺ كان يقولها فى ركوعه وسجوده » وقد تقدم ولأبى الشيخ فى الثواب من حديث البراء « وأكثر من أن تقول سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح » . (٣) « تكرار : سبحان الله وبحمده » متفق عليه من حديث أبى هريرة » من قال ذلك فى يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر » . (٤) « تكرار أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم « أسأله التوبة » أخرجه المستغفرى فى الدعوات من حديث معاذ « أن من قالها بعد الفجر وبعد العصر ثلاث مرات كفرت ذنوبه « وإن كانت مثل زبد البحر » ولفظه « وأتوب إليه » وفيه ضعف وهكذا رواه الترمذى من حديث أبى سعيد فى قولها « ثلاثا » وللبخارى من حديث أبى هريرة « إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » ولم يقل الطبرانى « أكثر » ولمسلم من حديث الأعرابى « لأستغفر الله فى كل يوم مائة مرة » تقدمت هذه الأحاديث فى الباب الثانى من الأذكار . (٥) « تكرار : اللهم لامانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد » لم أجد تكرارها فى حديث وإنما وردت مطلقة عقب الصلوات وفى الرفع من الركوع (٦) « تكرار : لا إله إلا الله الملك الحق المبين » أخرجه المستغفرى فى الدعوات والخطيب فى الرواة عن مالك من حديث على « من قالها فى يوم مائة مرة كان له أمان من الفقر وأمان من وحشة القبر واستجلت به الغنى واستقرع به باب الجنة » وفيه الفضل بن غانم ضعيف ولأبى نعيم فى الحلية « من قال ذلك فى كل يوم وليلة مائتى مرة لم يسأل فيها الله حاجة إلا قضاها » وفيه سليم الخواص ضعيف وقال فيه : أظنه من على . (٧) « تكرار : بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم » أخرجه أصحاب السنن وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عثمان « من قال ذلك ثلاث مرات حين يمسى لم يصبه فجأة بلاء حتى يصبح ومن قالها ثلاث مرات حين يصبح لم يصبه فجأة بلاء حتى يمسى » قال الترمذى حسن صحيح غريب . (٨) « تكرار : اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبى الأمى وعلى آل محمد » ذكره أبو القاسم محمد بن عبد الواحد الغافقى فى فضائل القرآن من حديث ابن أبى أوفى « من أراد أن يموت فى السماء الرابعة فليقل كل يوم ثلاث مرات » فذكره وهو منكر . قلت : ورد التكرار عند الصباح والمساء من غير تعيين لهذه الصيغة رواه الطبرانى من حديث أبى الدرداء بلفظ « من صلى على حين يصبح عشراً وحين يمسى عشراً أدركته شفاعتى يوم القيامة » وفيه انقطاع . (٩) « تكرار : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم أعوذ بالله من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون » أخرجه الترمذى من حديث معقل ابن يسار « من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك ... » ومن قالها حين يمسى كان بتلك المنزلة وقال حسن غريب ولابن أبى الدنيا من حديث أنس مثل آخر مقطوع قبله « من قالها حين يصبح عشر مرات أجير من الشيطان إلى الصبح ... » ولأبى الشيخ فى الثواب من حديث عائشة « ألا أعلمك يا خالد كلمات تقولها ثلاث مرات قل : أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون » وهو عند أبى داود والترمذى وحسنه والحاكم وصححه فيما يقال عند الفزع دون تكرارها ثلاثاً من حديث عبد الله بن عمرو .

وردت الأخبار بفضلها وهو أن يقرأ سورة الحمد (١) وآية الكرسى (٢) وخاتمة البقرة (٣) من قوله آمن الرسول وشهد (٤) وقل اللهم مالك الملك الايتين (٥) وقوله تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم إلى آخرها (٦) وقوله تعالى لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق إلى آخرها (٧) وقوله سبحانه الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً (٨) الاية وخمس آيات من أول الحديد (٩) وثلاثا من آخر سورة الحشر (١٠) وإن قرأ المسبعات العشر التى أهداها الخضر عليه السلام إلى إبراهيم التيمى رحمه الله ووصاه أن يقولها غدوة وعشية فقد استكمل الفضل وجمع له ذلك فضيلة جملة الأدعية المذكورة. فقد روى عن كرز بن وبرة رحمه الله وكان من الأبدال قال « أتانى أخ لى من أهل الشام فأهدى لى هدية وقال : يا كرز اقبل منى هذه الهدية فإنها نعمت الهدية ، فقلت : يا أخى ومن أهدى لك هذه الهدية ؟ قال أعطانيها إبراهيم التيمى ، قلت أفلم تسأل إبراهيم من أعطاه إياها ؟ قال : بلى قال : كنت جالسا فى بناء الكعبة وأنا فى التهليل

---

(١) « فضل سورة الحمد » أخرجه البخارى من حديث أبى سعيد بن المعلى أنها أعظم السور فى القرآن ومسلم من حديث ابن عباس « فى الملك الذى نزل إلى الأرض وقال للنبى ﷺ أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك : فاتحة الكتاب وخواتم سورة البقرة ، لم تقرأ بحرف منها إلا أعطيته » (٢) « فضل آية الكرسى » أخرجه مسلم من حديث أبى بن كعب « ياأبا المنذر أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم ؟ قلت : الله لاإله إلا هو الحى القيوم . . . الحديث » والبخارى من حديث أبى هريرة فى توكيله بحفظ تمر الصدقة ومجىء الشيطان إليه وقوله « إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى فإنه لن يزال عليك من الله حافظ . . الحديث » وفيه « فقال رسول ﷺ : أما إنه قد صدقك وهو كذوب » . (٣) « فضل خاتمة البقرة » متفق عليه من حديث ابن مسعود « من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه » وتقدم حديث ابن عباس قبله بحديث (٤) « فضل : شهد الله » أخرجه أبو الشيخ وابن حبان فى كتاب الثواب من حديث ابن مسعود « من قرأ شهد الله — إلى — قوله — الإسلام ثم قال وأنا أشهد بما شهد الله به واستودع الله هذه الشهادة وهى لى عنده وديعة جىء به يوم القيامة فقيل له عبدى هذا عهدإلى عهدا وأنا أحق من وفى بالعهد أدخلوا عبدى الجنة » وفيه عمر بن المختار روى الأباطيل قاله ابن عدى وسيأتى حديث على بعده (٥) « فضل : قل اللهم مالك الملك الآيتين » أخرجه المستغفرى فى الدعوات من حديث على « أن فاتحة الكتاب وآية الكرسى والآيتين من آل عمران شهد الله إلى قوله الإسلام وقل اللهم مالك إلى قوله بغير حساب معلقات ما بينهن وبين الله حجاب . . الحديث » وفيه فقال الله لايقرأ كن أحد من عبادى دبر كل صلاة إلا جعلت الجنة مثواه . . . الحديث » وفيه الحارث ابن عمير وفى ترجمته ذكره ابن حبان فى الضعفاء وقال موضوع لاأصل له والحارث يروى عن الأثبات الموضوعات . قلت : وثقه حماد بن زيد وابن معين وأبو زرعة وأبوحاتم والنسائى وروى له البخارى تعليقا (٦) « فضل : لقد جاءكم رسول من أنفسكم إلى آخرها » أخرجه الطبرانى فى الدعاء من حديث أنس بسند ضعيف « علمنى رسول الله ﷺ ما أحترز به من كل شيطان رجيم ومن كل جبار عنيد » فذكر حديثا وفى آخره « فقل حسبى الله إلى آخر السورة » وذكر أبو القاسم الغافقى فى فضائل القرآن فى رغائب القرآن لعبد الملك بن حبيب من رواية محمد بن بكار « أن رسول الله ﷺ قال : من لزم قراءة لقد جاءكم رسول من أنفسكم ... إلى آخر السورة — لم يمت هدما ولا غرقا ولا حرقا ولا ضربا بحديدة » وهو ضعيف . (٧) « فضل : لقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحق » لم أجد فيه حديثا يخصها ، لكن فى فضل سورة الفتح ما رواه أبو الشيخ فى كتاب من حديث أبى بن كعب « من قرأ سورة الفتح فكأنما شهد فتح مكة مع النبى ﷺ » وهو حديث موضوع . (٨) « فضل : الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا . . . الآية » أخرجه أحمد والطبرانى من حديث معاذ بن أنس « آية العز : الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا . . . الآية كلها » وإسناده ضعيف . (٩) « فضل : خمس آيات من أول الحديد » ذكر أبو القاسم الغافقى فى فضائل القرآن من حديث على « إذا أردت أن تسأل الله حاجة فاقرأ خمس آيات من أول الحديد إلى قوله — عليم بذات الصدور — ومن آخر سورة الحشر من قوله — لو أنزلنا هذا القرآن على جبل — إلى آخر السورة ثم تقول يا من هو كذا افعل بى كذا وتدعو بما تريد . (١٠) « فضل ثلاث آيات من آخر سورة الحشر » أخرجه الترمذى من حديث معقل بن يسار وقد تقدم قبل هذا وللبيهقى من حديث أبى أمامة بسند ضعيف « من قرأ خواتيم سورة الحشر فى ليل أو نهار فمات من يومه أو ليلته فقد أوجب الله له الجنة » .

والتسبيح والتحميد والتمجيد لجاءني رجل فسلم علي وجلس عن يميني فلم أر في زماني أحسن منه وجها ولا أحسن منه ثيابا ولا أشد بياضا ولا أطيب ريحا منه فقلت ياعبد الله من أنت ومن أين جئت ؟ فقال أنا الخضر، فقلت في أي شيء جئتني؟ فقال : جئتك للسلام عليك وحبا لك في الله وعندي هدية أريد أن أهديها لك فقلت: ماهي ؟ قال : أن تقول قبل طلوع الشمس وقبل انبساطها على الأرض وقبل الغروب سورة الحمد وقل أعوذ برب الناس وقل أعوذ برب الفلق وقل هو الله أحد وقل ياأيها الكافرون وآية الكرسي كل واحدة سبع مرات وتقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر سبعا وتصلي على النبي صلى الله عليه وسلم سبعا وتستغفر لنفسك ولوالديك والمؤمنين والمؤمنات سبعا وتقول : اللهم افعل بي وبهم عاجلا وآجلا في الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل ولا تفعل بنا يا مولانا مانحن له أهل إنك غفور حليم جواد كريم رءوف رحيم سبع مرات وانظر أن لاتدع ذلك غدوة وعشية فقلت : أحب أن تخبرني من أعطاك هذه العطية العظيمة ؟ فقال : أعطانيها محمد صلى الله عليه وسلم[1] فقلت : أخبرني بثواب ذلك ؟ فقال : إذا لقيت محمدا صلى الله عليه وسلم فاسأله عن ثوابه فإنه يخبرك بذلك ، فذكر إبراهيم التيمي: أنه رأى ذات يوم في منامه كأن الملائكة جاءته فاحتملته حتى أدخلوه الجنة فرأى مافيها ووصف أموراً عظيمة مما رآه في الجنة قال . فسألت الملائكة فقلت : لمن هذا ؟ فقالوا : للذي يعمل مثل عملك وذكر أنه أكل من ثمرها وسقوه من شرابها قال : فأتاني النبي صلى الله عليه وسلم ومعه سبعون نبياً وسبعون صفاً من الملائكة كل صف مثل مابين المشرق والمغرب فسلم علي وأخذ بيدي فقلت : يارسول الله الخضر أخبرني أنه سمع منك هذا الحديث فقال : صدق الخضر صدق الخضر ، وكل مايحكيه فهو حق وهو عالم أهل الأرض وهو رئيس الأبدال وهو من جنود الله تعالى في الأرض فقلت : يارسول الله فمن فعل هذا أو عمله ولم ير مثل الذي رأيت في منامي هل يعطى شيئا مما أعطيته ؟ فقال والذي بعثني بالحق نبيا إنه ليعطى العامل بهذا وإن لم يرني ولم ير الجنة إنه ليغفر له جميع الكبائر التي عملها ويرفع الله تعالى عنه غضبه ومقته ويأمر صاحب الشمال أن لايكتب عليه خطيئة من السيئات الى سنة والذي بعثني بالحق نبيا ما يعمل بهذا الا من خلقه الله سعيدا ولا يتركه الا من خلقه شقيا » وكان ابراهيم التيمي يمكث أربعة أشهر لم يطعم ولم يشرب فلعله كان بعد هذه الرؤيا . فهذه وظيفة القراءة ؛ فان اضاف اليها شيئا مما انتهى اليه ورده من القرآن او اقتصر عليه فهو حسن فان القرآن جامع لفضل الذكر والفكر والدعاء مهما كان بتدبر كما ذكرنا فضله وآدابه في باب التلاوة . وأما الأفكار : فليكن ذلك إحدى وظائفه وسيأتي تفصيل ما يتفكر فيه وكيفيته في كتاب التفكر من ربع المنجيات ولكن مجامعه ترجع الى فنين . أحدهما : أن يتفكر فيما ينفعه من المعاملة بأن يحاسب نفسه فيما سبق من تقصيره ويرتب وظائفه في يومه الذي بين يديه ويدبر في دفع الصوارف والعوائق الشاغلة له عن الخير ويتذكر تقصيره وما يتطرق اليه الخلل من أعماله ليصلحه ويحضر في قلبه النيات الصالحة من أعماله في نفسه وفي معاملته للمسلمين . الفن الثاني : فيما ينفعه في علم المكاشفة وذلك بأن يتفكر مرة في نعم الله تعالى وتواتر آلائه الظاهرة والباطنة لتزيد معرفته بها ويكثر شكره عليها أوفي عقوباته ونقماته لتزيد معرفته بقدرة الإله واستغنائه ويزيد خوفه منها . ولكل واحد من هذه الأمور شعب كثيرة يتسع التفكر فيها على بعض الخلق دون البعض وانما نستقصي ذلك في كتاب التفكر . ومهما تيسر الفكر فهو أشرف العبادات إذ فيه معنى الذكر لله تعالى وزيادة أمرين ، أحدهما : زيادة المعرفة إذ الفكر مفتاح المعرفة والكشف . والثاني : زيادة المحبة إذ لايحب القلب إلا من اعتقد تعظيمه ولا تنكشف عظمة الله سبحانه وجلاله الا بمعرفة صفاته ومعرفة قدرته وعجائب أفعاله . فيحصل من الفكر المعرفة ومن المعرفة التعظيم ومن التعظيم المحبة . والذكر أيضا يورث الأنس وهو نوع من المحبة ولكن المحبة التي سببها المعرفة

---

(١) حديث كرز بن وبرة من أهل الشام عن إبراهيم التيمي « أن الخضر علمه المسبعات العشرة » وقال في آخرها « أعطانيها محمد صلى الله عليه وسلم » ليس له أصل ولم يصح من حديث قط اجتماع الخضر بالنبي صلى الله عليه وسلم ولا عدم اجتماعه ولا حياته ولا موته .

أقوى وأثبت وأعظم . ونسبة محبة العارف إلى أنس الذاكر من غير تمام الاستبصار كنسبة عشق من شاهد جمال شخص بالعين واطلع على حسن أخلاقه وأفعاله وفضائله وخصاله الحميدة بالتجربة إلى أنس من كرر على سمعه وصف شخص غائب عن عينه بالحسن فى الخَلق والخُلق مطلقا من تفصيل وجوه الحسن فيهما فليس محبته له كمحبة المشاهد وليس الخبر كالمعاينة . فالعباد المواظبون على ذكر الله بالقلب واللسان الذين يصدقون بما جاءت به الرسل بالإيمان التقليدى ليس معهم من محاسن صفات الله تعالى إلا أمور جميلة اعتقدوها بتصديق من وصفها لهم . والعارفون هم الذين شاهدوا ذلك الجلال والجمال بعين البصيرة الباطنة التى هى أقوى من البصر الظاهر لأن أحداً لم يحط بكنه جلاله وجماله فإن ذلك غير مقدور لأحد من الخلق ولكن كل واحد شاهد بقدر ما رفع له من الحجاب ولا نهاية لجمال حضرة الربوبية ولا لحجبها . وإنما عدد حجبها التى استحقت أن تسمى نورا وكاد يظن الواصل إليها أنه قد تم وصوله إلى الأصل سبعون حجابا . قال صلى الله عليه وسلم « إن لله سبعين حجابا من نور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل ما أدرك بصره (١) » وتلك الحجب أيضاً مترتبة وتلك الأنوار متفوتة فى الرتب تفاوت الشمس والقمر والكواكب ويبدو فى الأول أصغرها ثم ما يليه وعليه أول بعض الصوفية درجات ما كان يظهر لإبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم فى ترقيه وقال ﴿ فلما جن عليه الليل ﴾ أى أظلم عليه الأمر ﴿ رأى كوكبا ﴾ أى وصل إلى حجاب من حجب النور ؛ فعبر عنه بالكوكب وما أريد به هذه الأجسام المضيئة فإن آحاد العوام لا يخفى عليهم أن الربوبية لا تليق بالأجسام بل يدركون ذلك بأوائل نظرهم فما لا يضلل العوام لا يضلل الخليل عليه السلام . والحجب المسماة أنوارا ما أريد بها الضوء المحسوس بالبصر بل أريد بها ما أريد بقوله تعالى ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾ الآية ولنتجاوز هذه المعانى فإنها خارجة عن علم المعاملة ولا يوصل إلى حقائقها إلا الكشف التابع للفكر الصافى وقل من ينفتح له بابه والمتيسر على جماهير الخلائق الفكر فيما يفيد فى علم المعاملة وذلك أيضا مما تغزر فائدته ويعظم نفعه فهذه الوظائف الأربعة أعنى : الدعاء والذكر والقراءة والفكر ، ينبغى أن تكون وظيفة المريد بعد صلاة الصبح بل فى كل ورد بعد الفراغ من وظيفة الصلاة فليس بعد الصلاة وظيفة سوى هذه الأربع . ويقوى على ذلك بأن يأخذ سلاحه وجنته والصوم هو الجنة التى تضيق مجارى الشيطان المعادى الصارف له عن سبيل الرشاد . وليس بعد طلوع الصبح صلاة سوى ركعتى الفجر وفرض الصبح إلى طلوع الشمس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم يشتغلون فى هذا الوقت بالأذكار (٢) وهو الأول إلا أن يغلبه النوم قبل الفرض ولم يندفع إلا بالصلاة فلو صلى لذلك فلا بأس به .

الورد الثانى : ما بين طلوع الشمس إلى ضحوة النهار وأعنى بالضحوة منتصف ما بين طلوع الشمس إلى الزوال وذلك بمضى ثلاث ساعات من النهار إذا فرض النهار اثنى عشرة ساعة وهو الربع . وفى هذا الربع من النهار وظيفتان زائدتان ؛ إحداهما : صلاة الضحى ـ وقد ذكرناها فى كتاب الصلاة ـ وأن الأولى أن يصلى ركعتين عند الإشراق وذلك إذا انبسطت الشمس وارتفعت قدر نصف رمح ويصلى أربعا أوستا أو ثمانيا إذا رمضت الفصال وضحيت الأقدام بحر الشمس فوقت الركعتين هو الذى أراد الله تعالى بقوله ﴿ يسبحن بالعشى والإشراق ﴾ فإنه وقت إشراق الشمس وهو ظهور تمام نورها بارتفاعها عن موازات البخارات والغبارات التى على وجه الأرض

---

(١) « إن لله سبعين حجاباً من نور ... » تقدم فى قواعد العقائد .

(٢) « اشتغاله بالأذكار من الصبح إلى طلوع الشمس » تقدم حديث جابر بن سمرة عند مسلم فى جلوسه ﷺ إذا صلى الفجر فى مجلسه حتى تطلع الشمس وليس فيه ذكر اشتغاله بالذكر وإنما هو من قوله عما تقدم من حديث أنس بن مالك .

فإنها تمنع إشراقها التام ووقت الركعات الأربع هو الضحى الأعلى الذى أقسم الله تعالى ﴿ والضحى والليل إذا سجى ﴾ « وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يصلون عند الإشراق فنادى بأعلى صوته : ألا إن صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال (١) » فلذلك نقول إذا كان يقتصر على مرة واحدة فى الصلاة فهذا الوقت أفضل لصلاة الضحى وإن كان أصل الفضل يحصل بالصلاة بين طرفى وقتى الكراهة وهو ما بين ارتفاع الشمس بطلوع نصف رمح بالتقريب إلى ما قبل الزوال فى ساعة الاستواء . واسم الضحى ينطلق على الكل وكأن ركعتى الإشراق تقع فى مبتدأ وقت الإذن فى الصلاة وانقضاء الكراهة إذ قال صلى الله عليه وسلم « إن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان فإذا ارتفعت فارقها (٢) » فأقل ارتفاعها أن ترتفع عن بخارات الأرض وغبارها وهذا يراعى بالتقريب .

الوظيفة الثانية فى هذا الوقت : الخيرات المتعلقة بالناس التى جرت بها العادات بكرة من عيادة مريض وتشييع جنازة ومعاونة على بر وتقوى وحضور مجلس علم وما يجرى مجراه من قضاء حاجة لمسلم وغيرها . فإن لم يكن شىء من ذلك عاد إلى الوظائف الأربع — التى قدمناها من الأدعية والذكر والقراءة والفكر والصلوات — المتطوع بها إن شاء فإنها مكروهة بعد صلاة الصبح وليست مكروهة الآن . فتصير الصلاة قسما خامسا من جملة وظائف هذا الوقت لمن أراده أما بعد فريضة الصبح فتكره كل صلاة لا سبب لها . وبعد الصبح الأحب أن يقتصر على ركعتى الفجر وتحية المسجد ولا يشتغل بالصلاة بل بالأذكار والقراءة والدعاء والفكر .

الورد الثالث : من ضحوة النهار إلى الزوال ونعنى بالضحوة المنتصف وما قبله بقليل . وإن كان بعد كل ثلاث ساعات أمر بصلاة فإذا انقضى ثلاث ساعات بعد الطلوع فعندها وقبل مضيها صلاة الضحى . فإذا مضت ثلاث ساعات أخرى فالظهر . فإذا مضت ثلاث ساعات أخرى فالعصر . فإذا مضت ثلاث أخرى فالمغرب . ومنزلة الضحى بين الزوال والطلوع كمنزلة العصر بين الزوال والغروب ، إلا أن الضحى لم تفرض لأنه وقت انكباب الناس على أشغالهم فخفف عنهم . الوظيفة الرابعة : فى هذا الوقت الأقسام الأربعة ، وزيد أمران : أحدهما : الاشتغال بالكسب وتدبير المعيشة وحضور السوق . فان كان تاجراً فينبغى أن يتجر بصدق وأمانة وإن كان صاحب صناعة فبنصح وشفقة ولا ينسى ذكر الله تعالى فى جميع أشغاله ويقتصر من الكسب على قدر حاجته ليومه مهما قدر على أن يكتسب فى كل يوم لقوته . فاذا حصل كفاية يومه فليرجع إلى بيت ربه وليتزود لاخرته فان الحاجة الى زاد الآخرة أشد والتمتع به أدوم فاشتغاله بكسبه أهم من طلب الزيادة على حاجة الوقت . فقد قيل : لا يوجد المؤمن الا فى ثلاث مواطن مسجد يعمره أو بيت يستره او حاجة لا بد له منها . وقل من يعرف القدر فيما لا بد منه بل أكثر الناس يقدرون فيما عنه بد أنه لا بد لهم منه وذلك لأن الشيطان يعدهم الفقر ويأمرهم بالفحشاء فيصغون اليه ويجمعون مالا يأكلون خيفة الفقر والله يعدهم مغفرة منه وفضلا فيعرضون عنه ولا يرغبون فيه . الأمر الثانى : القيلولة وهى سنة يستعان بها على قيام الليل كما أن التسحر سنة يستعان به على صيام النهار . فان كان لا يقوم بالليل لكن لو لم ينم لم يشتغل بخير وربما خالط أهل الغفلة وتحدث معهم فالنوم أحب له اذا كان لا ينبعث نشاطه للرجوع الى الأذكار والوظائف المذكورة إذ فى النوم الصمت والسلامة ، وقد قال بعضهم : يأتى على الناس زمان الصمت والنوم فيه أفضل أعمالهم . وكم من عابد أحسن أحواله النوم وذلك إذا كان يرائى بعبادته ولا يخلص فيها فكيف بالغافل

(١) « خرج على أصحابه وهم يصلون عند الإشراق فنادى بأعلى صوته : ألا إن صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال» أخرجه الطبرانى من حديث زيد بن أرقم دون قوله « فنادى بأعلى صوته » وهو عند مسلم دون ذكر الإشراق .

(٢) « إن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان فإذا ارتفعت فارقها » تقدم فى الصلاة .

الفاسق؟ قال سفيان الثورى رحمه الله : كان يعجبهم إذا تفرغوا أن يناموا طلبا للسلامة فإذا كان نومه على قصد طلب السلامة ونية قيام الليل كان نومه قربة . ولكن ينبغى أن يتنبه قبل الزوال بقدر الاستعداد للصلاة بالوضوء وحضور المسجد قبل دخول وقت الصلاة فإن ذلك من فضائل الأعمال . وإن لم ينم ولم يشتغل بالكسب واشتغل بالصلاة والذكر فهو أفضل أعمال النهار لأنه وقت غفلة الناس عن الله عز وجل واشتغالهم بهموم الدنيا فالقلب المتفرغ لخدمة ربه عند إعراض العبيد عن بابه جدير بأن يزكيه الله تعالى ويصطفيه لقربه ومعرفته . وفضل ذلك كفضل إحياء الليل فإن الليل وقت الغفلة بالنوم وهذا وقت الغفلة باتباع الهوى والاشتغال بهموم الدنيا وأحد معنيى قوله تعالى : ﴿ وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر ﴾ أى يخلف أحدهما الآخر فى الفضل والثانى : أنه يخلفه فيتدارك فيه مافات فى أحدهما .

الورد الرابع : مابين الزوال إلى الفراغ من صلاة الظهر وراتبته وهذا أقصر أوراد النهار وأفضلها . فإذا كان قد توضأ قبل الزوال وحضر المسجد فمهما زالت الشمس وابتدأ المؤذن الأذان فليصبر إلى الفراغ من جواب أذانه ثم ليقم إلى إحياء ما بين الأذان والإقامة فهو وقت الإظهار الذى أراده الله تعالى بقوله ﴿ وحين تظهرون ﴾ وليصل فى هذا الوقت أربع ركعات لايفصل بينهن بتسليمة واحدة(١) وهذه الصلاة وحدها من بين سائر صلوات النهار نقل بعض العلماء أنه يصليها بتسليمة واحدة ولكن طعن فى تلك الرواية . ومذهب الشافعى رضى الله عنه أنه يصلى مثنى كسائر النوافل ويفصل بتسليمة(٢) وهو الذى صحت به الأخبار وليطول هذه الركعات إذ فيها تفتح أبواب السماء كما أوردنا الخبر فيه فى باب صلاة التطوع وليقرأ فيها سورة البقرة أو سورة من المئين أو أربعا من المثانى فهذه ساعات يستجاب فيها الدعاء . وأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرفع له فيها عمل . ثم يصلى الظهر بجماعة بعد أربع ركعات طويلة ــ كما سبق ــ أو قصيرة لاينبغى أن يدعها . ثم ليصل بعد الظهر ركعتين ثم أربعاً فقد كره ابن مسعود أن تتبع الفريضة بمثلها من غير فاصل . ويستحب أن يقرأ فى هذه النافلة آية الكرسى وآخر سورة البقرة والآيات التى أوردناها فى الورد الأول ليكون ذلك جامعا له بين الدعاء والذكر والقراءة والصلاة والتحميد والتسبيح مع شرف الوقت .

الورد الخامس : مابعد ذلك إلى العصر ويستحب فيه العكوف فى المسجد مشتغلا بالذكر والصلاة أو فنون الخير ويكون فى انتظار الصلاة معتكفا . فمن فضائل الأعمال انتظار الصلاة بعد الصلاة وكان ذلك سنة السلف . كان الداخل يدخل المسجد بين الظهر والعصر فيسمع للمصلين دويا كدوى النحل من التلاوة . فإن كان بيته أسلم لدينه وأجمع لهمه فالبيت أفضل فى حقه فاحياء هذا الورد وهو أيضاً وقت غفلة الناس كاحياء الورد الثالث فى الفضل . وفى هذا الوقت يكره النوم لمن نام قبل الزوال إذ يكره نومتان بالنهار . قال بعض العلماء : ثلاث يمقت الله عليها ؛ الضحك بغير عجب والأكل من غير جوع والنوم بالنهار من غير سهر بالليل . والحد فى النوم أن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة فالاعتدال فى نومه ثمان ساعات فى الليل والنهار جميعاً فإن نام هذا القدر بالليل فلا معنى للنوم بالنهار، وإن نقص منه مقداراً استوفاه بالنهار فحسب ابن آدم إن عاش ستين سنة أن ينقص من عمره عشرون سنة . ومهما نام ثمان ساعات وهو الثلث فقد نقص من عمره الثلث ولكن لما كان النوم غذاء الروح كما أن الطعام غذاء الأبدان

---

(١) «صلاة أربع بعد الزوال بتسليمة واحدة» وفيه «أنها فيها تفتح أبواب السماء وأنها ساعة يستجاب فيها الدعاء فأحب أن يرفع لى فيها عمل صالح » أخرجه أبو داود وابن ماجة من حديث أبو أيوب وقد تقدم فى الصلاة فى الباب السادس .

(٢) « صلاة الليل والنهار مثنى مثنى » أخرجه ابن حبان من حديث ابن عمر .

وكما أن العلم والذكر غذاء القلب لم يمكن قطعه عنه وقدر الاعتدال هذا والنقصان منه ربما يفضى إلى اضطراب البدن إلا من يتعود السهر تدريجا فقد يمرن نفسه عليه من غير اضطراب . وهذا الورد من أطول الأوراد وأمتعها للعباد وهو أحد الآصال التى ذكرها الله تعالى إذ قال ﴿ ولله يسجدمن فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ وإذا سجد لله عز وجل الجمادات فكيف يجوز أن يغفل العبد العاقل عن أنواع العبادات ؟

الورد السادس : إذا دخل وقت العصر دخل وقت الورد السادس وهو الذى أقسم الله تعالى به فقال تعالى ﴿ والعصر ﴾ هذا أحد معنى الآية وهو المراد بالآصال فى أحد التفسيرين وهو العشى المذكور فى قوله ﴿ وعشيا ﴾ وفى قوله ﴿ بالعشى والإشراق ﴾ وليس فى هذا الورد صلاة إلا أربع ركعات بين الأذان والإقامة - كما سبق فى الظهر - ثم يصلى الفرض ويشتغل بالأقسام الأربعة المذكورة فى الورد الأول إلى أن ترفع الشمس إلى رءوس الحيطان وتصفر . والأفضل فيه إذمنع عن الصلاة تلاوة القرآن بتدبر وتفهم إذ يجمع ذلك بين الذكر والدعاء والفكر فيندرج فى هذا القسم أكثر مقاصد الأقسام الثلاثة .

الورد السابع : إذا اصفرت الشمس بأن تقرب من الأرض بحيث يغطى نورها الغبارات والبخارات التى على وجه الأرض ويرى صفرة فى ضوئها دخل وقت هذا الورد وهو مثل الورد الأول من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لأنه قبل الغروب كما أن ذلك قبل الطلوع وهو المراد بقوله تعالى ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾ وهذا هو الطرف الثانى المراد بقوله تعالى ﴿ فسبح وأطراف النهار ﴾ قال الحسن : كانوا أشد تعظيما للعشى منهم لأول النهار . وقال بعض السلف : كانوا يجعلون أول النهار للدنيا وآخره للآخرة . فيستحب فى هذا الوقت التسبيح والاستغفار خاصة وسائر ما ذكرناه فى الورد الأول مثل أن يقول : أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأسأله التوبة وسبحان الله العظيم وبحمده ، مأخوذ من قوله تعالى ﴿ واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار ﴾ والاستغفار على الأسماء التى فى القرآن أحب كقوله ﴿ أستغفر الله إنه كان غفاراً - أستغفر الله إنه كان توابا - رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين - فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين - فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ﴾ ويستحب أن يقرأ قبل غروب الشمس : والشمس وضحاها والليل إذا يغشى والمعوذتين . ولتغرب الشمس عليه وهو فى الاستغفار فاذا سمع الأذان قال : اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعائك - كما سبق - ثم يجيب المؤذن ويشتغل بصلاة المغرب . وبالغروب قد انتهت أوراد النهار فينبغى أن يلاحظ العبد أحواله ويحاسب نفسه فقد انقضى من طريقه مرحلة . فان ساوى يومه امسه فيكون مغبونا وإن كان شرا منه فيكون ملعونا فقد قال صلى الله عليه وسلم « لا بورك لى فى يوم لا أزداد فيه خيرا[1] » فان رأى نفسه متوفرا على الخير جميع نهاره مترفها عن التجشم كانت بشارة فليشكر الله تعالى على توفيقه وتسديده إياه لطريقه وإن تكن الأخرى فالليل خلفه النهار فليعزم على تلافى ماسبق من تفريطه فان الحسنات يذهبن السيآت . وليشكر الله تعالى على صحة جسمه وبقاء بقية من عمره طول ليلة ليشتغل بتدارك تقصيرة وليحضر فى قلبه أن نهار العمر له آخر تغرب فيه شمس الحياة فلا يكون لها بعدها طلوع . وعند ذلك يغلق باب التدارك والاعتذار فليس العمر إلا أياماً معدودة تنقضى لامحالة جملتها بانقضاء آحادها .

---

(١) « لابورك لى فى يوم لا أزداد فيه خيراً » تقدم فى العلم فى الباب الأول إلا أنه قال « هذا » بدل «خيرا» .

بيان أوراد الليل وهي خمسة

الأول : إذا غربت الشمس صلى المغرب واشتغل بإحياء مابين العشاءين فآخر هذا الورد عندغيبوبة الشفق أعنى الحمرة التى بغيبوبتها يدخل وقت العتمة وقدأقسم الله تعالى به فقال ﴿فلا أقسم بالشفق﴾ والصلاة فيه هى ناشئة الليل لأنه أول نشو ساعاته وهو آن من الآناء المذكورة فى قوله تعالى ﴿ ومن آناء الليل فسبح ﴾ وهى صلاة الأوابين . وهى المراد بقوله تعالى ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ روى ذلك عن الحسن وأسنده ابن أبى زياد إلى رسول الله ﷺ « أنه سئل عن هذه الآية فقال ﷺ : الصلاة بين العشاءين . ثم قال ﷺ : عليكم بالصلاة بين العشاءين فإنها تذهب بملاغات النهار وتهذب آخره (١) » والملاغات جمع ملغاة من اللغو . وسئل أنس رحمه الله عمن ينام بين العشاءين فقال : لاتفعل فإنها الساعة المعينة بقوله تعالى ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ وسيأتى فضل إحياء مابين العشاءين فى الباب الثانى . وترتيب هذا الورد أن يصلى بعد المغرب ركعتين أولا يقرأ فيهما قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ويصليهما عقب المغرب من غير تخلل كلام ولا شغل ثم يصلى أربعا يطيلها ثم يصلى إلى غيبوبة الشفق ما تيسر له . وإن كان المسجد قريبا من المنزل فلا بأس أن يصليها فى بيته إن لم يكن عزمه العكوف فى المسجد وإن عزم على العكوف فى انتظار العتمة فهو الأفضل إذا كان آمنا من التصنع والرياء .

الورد الثانى : يدخل بدخول وقت العشاء الآخرة إلى حد نومة الناس وهو أول استحكام الظلام وقد أقسم الله تعالى إذ قال ﴿ والليل وما وسق ﴾ أى وما جمع من ظلمته وقال ﴿ إلى غسق الليل ﴾ فهناك يغسق الليل وتستوسق ظلمته . وترتيب هذا الورد بمراعاة ثلاثة أمور (الأول) أن يصلى سوى فرض العشاء عشر ركعات : أربعا قبل الفرض إحياء لما بين الأذانين وستا بعد الفرض ركعتين ثم أربعا ويقرأ فيها من القرآن الآيات المخصوصة كآخر البقرة وآية الكرسى وأول الحديد وآخر الحشر وغيرها . (والثانى) أن يصلى ثلاث عشرة ركعة آخرهن الوتر فإنه أكثر ماروى أن النبى ﷺ صلى بها من الليل(٢) والأكياس يأخذون أوقاتهم من أول الليل والأقوياء من آخره . والحزم التقديم فإنه ربما لا يستيقظ أو يثقل عليه القيام إلا إذا صار ذلك عادة له فآخر الليل أفضل . ثم ليقرأ فى هذه الصلاة قدر ثلثمائة آية من السور المخصوصة التى كان النبى ﷺ يكثر قراءتها مثل يس وسجدة لقمان وسورة الدخان وتبارك الملك والزمر والواقعة (٣) فإن لم يصل فلا يدع قراءة هذه السور أو بعضها قبل النوم

---

(١) « سئل عن قوله تعالى ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ فقال الصلاة بين العشاءين ثم قال عليكم بالصلاة بين العشاءين فإنها تذهب بملاغات النهار وتهذب آخره » قال المصنف أسنده ابن أبو الزناد إلى النبى ﷺ .قلت إنما هو إسماعيل بن أبو زياد بالياء المثناة من تحت رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية إسماعيل بن أبو زياد الشامى عن الأعمش . حدثنا أبوالعلاء العنبرى عن سلمان قال «قال النبى ﷺ عليكم بالصلاة بين العشاءين فإنهاتذهب بملاغات أول النهار ومهذبة آخره» وإسماعيل هذا متروك يضع الحديث قال الدارقطنى : واسم أبو زيادمسلم وقد اختلف فيه على الأعمش ولابن مردويه منحديث « أنها نزلت فى الصلاة بين المغرب والعشاء » والحديث عند الترمذى وحسنه بلفظ « نزلت فى انتظار الصلاة التى تدعى العتمة » . (٢) « الوتر ثلاثة عشر ركعة يعنى بالليل وأنه أكثر ماصلى به النبى ﷺ من الليل » أخرجه أبو داود من حديث عائشة « لم يكن يوتر بأنقص من سبع ولا بأكثر من ثلاث عشر ركعة » والبخارى من حديث ابن عباس«كانت صلاته ثلاث عشر ركعة يعنى بالليل» ومسلم«كان يصلى من الليل ثلاثة عشر ركعة »فى رواية للشيخين «منها ركعتا الفجر» ولهما أيضاً ماكان نزيد فى رمضان ولاغيره على إحدى عشر ركعة» .

(٣) «إكثاره ﷺ من قراءة يس وسجدة لقمان وسورة الدخان وتبارك الملك والزمر والواقعة» غريب لم أقف على ذكر الإكثار فيه وابن حبان من حديث جندب « من قرأ يس فى ليلة ابتغاء وجه الله غفر له » والترمذى =

فقد روى فى ثلاث أحاديث ما كان يقرؤه رسول الله ﷺ فى كل ليلة أشهرها : السجدة وتبارك الملك (١) والزمر والواقعة وفى رواية : الزمر وبنى إسرائيل(٢) وفى أخرى : أنه كان يقرأ المسبحات فى كل ليـلة ويقول فيها آية أفضل من ألف آية(٣) وكان العلماء يجعلونها ستا فيزيدون سبح اسم ربك الأعلى إذ فى الخبر «أنه ﷺ كان يحب سبح اسم ربك الأعلى وكان يقرأ فى ثلاث ركعات الوتر ثلاث سور سبح اسم ربك الأعلى(٤) وقل يا أيها الكافرون والإخلاص(٥) فإذا فرغ قال: سبحان الملك القدوس ثلاث مرات» (الثالث) الوتر : وليوتر قبل النوم إن لم يكن عادته القيام قال أبو هريرة رضى الله عنه: أوصانى رسول الله ﷺ أن لا أنام إلا على وتر(٦) وإن كان معتادا صلاة الليل فالتأخير أفضل قال ﷺ «صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة(٧)» وقالت عائشة رضى الله عنها « أوتر رسول الله ﷺ أول الليل وأوسطه وآخره وانتهى وتره إلى السحر(٨)» وقال على رضى الله عنه: الوتر على ثلاثة أنحاء: إن شئت أوترت الليل ثم صليت ركعتين ركعتين يعنى أنه يصير وترا بما مضى وإن شئت أوترت بركعة فإذا استيقظت شفعت إليها أخرى ثم أوترت من آخر الليل وإن شئت أخرت الوتر ليكون آخر صلاتك ، هذا ماروى عنه . والطريق الأول والثالث لا بأس به وأما نقض الوتر فقد صح فيه نهى فلا ينبغى أن ينقض (٩) وروى مطلقا أنه ﷺ قال « لا وتران فى ليلة (١٠) » ولمن يتردد فى استيقاظه تلطف استحسنه بعض العلماء وهو أن يصلى بعد الوتر ركعتين جالسا على فراشه عند النوم كان رسول الله ﷺ يزحف إلى فراشه ويصليهما ويقرأ فيهما إذا زلزلت والهاكم (١١) لمـا فيهما من التحذير والوعيد وفى رواية قل يا أيها الكافرون لما فيها من التبرئة وإفراد العبادة لله تعالى ، فقيل إن استيقظ قام مقام ركعة واحدة وكان له أن يوتر بواحدة فى آخر الليل وكأنه صار ما مضى شفعا بهما . وحسن استئناف الوتر واستحسن هـذا أبو طالب المكى وقال فيه ثلاثة أعمال قصر الأمل وتحصيل الوتر والوتر آخر الليل ، وهو كما

= من حديث جابر كان لاينام حتى يقرأ الم تنزيل السجدة وتبارك الذى بيده الملك» وله من حديث عائشة «كان لاينام حتى يقرأ بنى إسرائيل والزمر وقال حسن غريب وله من حديث أبو هريرة «من قرأ حم الدخان فى ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك» قال غريب ولأبى الشيخ فى الثواب من حديث عائشة «من قرأ فى الم تنزيل ويس وتبارك الذى بيده الملك واقتربت كن له نوراً ...» ولأبى منصور المظفر بن الحسين الغزنوى فى فضائل القرآن من حديث على «ياعلى أكثر من قراءة يس ... » وهو منـكر وللحارث بن أبو أسامة من كلام ابن مسعود بسند ضعيف « من قرأ سورة الواقعة فى كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً » والترمذى من كلام ابن عباس «شيبتنى هود والواقعة ...» وقال حسن غريب

(١) «كان يقرأ فى كل ليلة السجدة وتبارك الملك » أخرجه الترمذى وتقدم فى الحديث قبله . (٢) «كان يقرأ فى كل ليلة الزمر وبنى إسرائيل » أخرجه الترمذى وتقدم أيضاً. (٣) «كان يقرأ المسبحات فى كل ليلة ويقول : فيهن آية أفضل من ألف آية » أخرجه أبو داود والترمذى وقال حسن والنسائى فى الـكبرى من كلام عرباض بن سارية .

(٤) «كان يحب سبح اسم ربك الأعلى » أخرجه أحمد والبزار من حديث على بسند ضعيف . (٥) «كان يقرأ فى ثلاث ركعات الوتر بسبح اسم ربك الأعلى وقل يأيها الـكافرون والإخلاص» أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجه من كلام أبى بن كعب بإسناد صحيح وتقدم فى الصلاة من كلام أنس . (٦) حديث أبى هريرة « أوصانى النبى ﷺ أن لا أنام إلا على وتر » متفق عليه بلفظ « أن أوتر قبل أن أنام » . (٧) « صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة » متفق عليه من كلام ابن عمر. (٨) حديث عائشة « أوتر النبى ﷺ أول الليل وأوسطه وآخره وانتهى وتره إلى السحر » متفق عليه (٩) « النهى عن نقض الوتر» قال المصنف صح فيه نهى . قلت : وإنما صح من قول عابد بن عمرو وله صحبة كما رواه البيهقى ولم يصرح بأنه مرفوع فالظاهر أنه إنما أراد ماذكرناه عن الصحابة.

(١٠) « لاوتران فى ليلة » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه والنسائى من حديث طلق بن على .

(١١) « الركعتين بعد الوتر جالسا » تقدم فى الصلاة رواه مسلم من حديث عائشة .

ذكره لكن ربما يخطر انهما لو شفعتا مامضى لكان كذلك ، وإن لم يستيقظ وأبطل وتره الأول فكونه شائعا إن استيقظ غير مشفع ان نام فيه نظر إلا أن يصح من رسول الله صلى الله عليه وسلم إيثاره قبلهما وإعادته الوتر فيفهم منه ان الركعتين شفع بصورتهما وتر بمعناهما فيحسب وتراً ان لم يستيقظ وشفعا ان استيقظ . ثم يستحب بعد التسليم من الوتر ان يقول سبحان الوتر القدوس رب الملائكة والروح جللت السموات والأرض بالعظمة والجبروت ، وتعززت بالقدرة وقهرت العباد بالموت روى « أنه صلى الله عليه وسلم ما مات حتى كان اكثر صلاته جالسا إلا المكتوبة[١] » وقد قال « للقاعد نصف أجر القائم وللنائم نصف أجر القاعد[٢] »وذلك يدلك على صحة النافلة دائماً .

الورد الثالث : النوم ولا بأس أن يعد ذلك فى الأوراد فإنه إذا روعيت آدابه احتسب عبادة فقد قيل: إن العبد إذا نام على طهارة وذكر الله تعالى يكتب مصليا حتى يستيقظ ويدخل فى شعاره ملك فإن تحرك فى نومه وذكر الله تعالى دعا له الملك واستغفر له الله[٣] » وفى الخبر «إذا نام على طهارة رفع روحه إلى العرش[٤] » هذا فى العوام فكيف بالخواص والعلماء وأرباب القلوب الصافية ؟ فإنهم يكاشفون بالأسرار فى النوم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح[٥] » وقال معاذ لأبى موسى : كيف تصنع فى قيام الليل ؟ فقال أقوم الليل أجمع لا أنام منه شيئا واتفوق القرآن فيه تفوقا قال معاذ : لكن أنا أنام ثم أقوم واحتسب فى نومتى ما أحتسب فى قومتى . فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : معاذ أفقه منك[٦] وآداب النوم عشرة (الأول) الطهارة والسواك : قال صلى الله عليه وسلم «إذا نام العبد على طهارة عرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة وإن لم ينم على طهارة قصرت روحه عن البلوغ فتلك المنامات أضغاث أحلام لا تصدق[٧] » وهذا إذا أريد طهارة الظاهر والباطن جميعا ، وطهارة الباطن هى المؤثرة فى انكشاف حجب الغيب (الثانى) أن يعد عند رأسه سواكه وطهوره وينوى القيام للعبادة عند التيقظ وكلما يتنبه يستاك ؛ كذلك كان يفعله بعض السلف . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنه كان يستاك فى كل ليلة مرارا عند كل نومة وعند التنبه منها[٨] » وإن لم تتيسر له الطهارة يستحب له مسح الأعضاء بالماء فإن لم يجد فليقعد وليستقبل القبلة وليشتغل بالذكر والدعاء والتفكر فى آلاء الله تعالى وقدرته فذلك يقوم مقام قيام الليل وقال ﷺ « من أتى فراشه وهو ينوى ان يقوم يصلى من الليل فغلبته عيناه حتى يصبح كتب له ما نوى وكان نومه صدقة عليه من الله تعالى[٩] » (الثالث) أن لا يبيت من له وصية إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه فإنه لا يأمن

---

(١) « مامات حتى كان أكثر صلاته جالسا إلا المكتوبة » متفق عليه من حديث عائشة « لما بدن النبى ﷺ وثقل كان أكثر صلاته جالسا » (٢) «للقاعد نصف أجر القائم وللنائم نصف أجر القاعد» أخرجه البخارى من كلام عمران بن حصين . (٣) « قيل إنه إذا نام على طهارة ذاكر لله تعالى أن يكتب مصليا ويدخل فى شعاره ملك ... » أخرجه ابن حبان من كلام ابن عمر « من بات طاهراً بات فى شعاره ملك فلما يستيقظ إلا قال الملك اللهم اغفر لعبدك فلان فإنه بات طاهراً » . (٤) « إذا نام على الطهارة رفع روحه إلى العرش» أخرجه ابن المبارك فى الزهد موقوفا على أبو الدرداء والبيهقى فى الشعب موقوفا على عبد الله بن عمرو بن العاص : وروى الطبرانى فى الأوسط من حديث على « مامن عبد ولا أمة تنام فتثقل نوما إلا عرج بروحه إلى العرش فالذى لا يستيقظ إلا عند العرش فتلك الرؤيا التى تصدق والذى يستيقظدون العرش فهى الرؤيا التى تكتب» هو ضعيف . (٥) «نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح قلت المعروف فيه الصائم دون العالم » وقد تقدم فى الصوم . (٦) « قال معاذ لأبى موسى كيف تصنع فى قيام الليل ؟ فقال اقوم الليل أجمع لأنام منه شيئا وأتفوق القرآن تفوقا قال معاذ لكنى أنام ثم أقوم وأحتسب فى نومتى ما أحتسب فى قومتى فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال : « معاذ أفقه منك» متفق بنحوه من كلام أبى سعيد وليس فيه « أنهما ذكرا ذلك للنبى ﷺ » ولا قوله « معاذ أفقه منك » وإنما زاد فيه الطبرانى « فكان معاذ أفقه منه » .

(٧) « إذا نام العبد على طهارة عرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة » الحديث تقدم .

(٨) « أنه كان يستاك فى كل ليلة مرارا عند كل نومه وعند التنبه منها » تقدم فى الطهارة . (٩) « من أتى فراشة وهو ينوى أن يقوم يصلى فى الليل فغلبته عيناه حتى يصبح كتب له ما نوى وكان نومه صدقة من الله عليه » أخرجه النسائى وابن ماجه من حديث أبو الدرداء بسند صحيح .

القبض فى النوم فإن من مات من غير وصية لم يؤذن له فى الكلام بالبرزخ إلى يوم القيامة ، يتزاوره الأموات ويتحدثون وهو لا يتكلم فيقول بعضهم لبعض هذا المسكين مات من غير وصية ، وذلك مستحب خوف موت الفجأة وموت الفجأة تخفيف إلا لمن ليس مستعداً للموت بكونه مثقل الظهر بالمظالم (الرابع) أن ينام تائباً من كل ذنب سليم القلب لجميع المسلمين لا يحدث نفسه بظلم أحد ، ولا يعزم على معصية إن استيقظ ، قال صلى الله عليه وآله وسلم « من اوى إلى فراشه لاينوى ظلم احد ولا يحقد على أحد غفر له ما أجترم[١] » (الخامس) أن لا يتنعم بتمهيد الفرش الناعمة بل يترك ذلك او يقتصد فيه كان بعض السلف يكره التمهيد للنوم ويرى ذلك تكلفا . وكان أهل الصفة لا يجعلون بينهم وبين التراب حاجزا ويقولون منها خلقنا وإليها نرد وكانوا يرون ذلك أرق لقلوبهم وأجدر بتواضع نفوسهم فمن لم تسمح بذلك نفسه فليقتصد (السادس) أن لا ينام مالم يغلبه النوم ولا يتكلف استجلابه إلا اذا قصد به الاستعانة على القيام فى آخر الليل فقد كان نومهم غلبة وأكلهم فاقة وكلامهم ضرورة ولذلك وصفوا بأنهم كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وإن غلبه النوم عن الصلاة والذكر وصار لا يدرى ما يقول فلينم حتى يعقل ما يقول . وكان ابن عباس رضى الله عنه يكره النوم قاعدا وفى الخبر « لا تكابدوا الليل[٢] » وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم « إن فلانة تصلى بالليل فإذا غلبها النوم تعلقت بحبل فنهى عن ذلك وقال : ليصل أحدكم من الليل ما تيسر له فإذا غلبه النوم فليرقد[٣] » وقال صلى الله عليه وسلم « تكلفوا من العمل ما تطيقون فإن الله لن يمل حتى تملوا[٤] » وقال ﷺ « خير هذا الدين أيسره[٥] » وقيل له صلى الله عليه وسلم « إن فلانا يصلى فلا ينام ويصوم فلا يفطر فقال لكنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر هذه سنتى فمن رغب عنها فليس منى[٦] » وقال صلى الله عليه وسلم « تشادوا هذا الدين فإنه متين فمن يشاده يغلبه فلا تبغض إلى نفسك عبادة الله[٧] » (السابع) أن ينام مستقبل القبلة . والاستقبال على ضربين أحدهما: استقبال المحتضر وهو المستلق على قفاه فاستقباله أن يكون وجهه وأخمصاه إلى القبلة . والثانى: استقبال اللحد وهو أن ينام على جنب بأن يكون وجهه إليها مع قبالة بدنه اذا نام على شقه الأيمن (الثامن) الدعاء عند النوم فيقول باسمك ربى وضعت جنبى وباسمك أرفعه الى آخر الدعوات المأثورة التى أوردناها فى كتاب الدعوات[٨] ويستحب أن يقرأ الآيات المخصوصة مثل آية الكرسى وآخر البقرة وغيرها قوله تعالى ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو ﴾ إلى قوله ﴿ لقوم يعقلون ﴾ يقال إن من قراها عند النوم حفظ الله عليه القرآن فلم ينسه ويقرأ من سورة الأعراف هذه الآية ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ﴾ إلى قوله

---

(١) « من أوى إلى فراشه لاينوى ظلم أحد ولايحقد على أحد غفر له ما اجترم » أخرجه ابن أبو الدنيا فى كتاب النية من حديث أنس « من أصبح ولم يهم بظلم أحد غفر له ما اجترم » وسنده ضعيف .

(٢) «لاتكابدوا الليل» أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف وفى جامع سفيان الثورى موقوفا على ابن مسعود « لا تغالبوا هذا الليل» .

(٣) «قيل له إن فلانة تصلى فإذا غلبها النوم تعلقت بحبل فنهاهن عن ذلك ... » متفق عليه من حديث أنس .

(٤) تكلفوا من العمل ماتصفون فإن الله يمل حتى تملوا » متفق من حديث عائشة بلفظ « أكلفوا » .

(٥) « خير هذا الدين أيسره » أخرجه أحمد من حديث محجن بن الأدرع وتقدم فى العلم .

(٦) « قيل له إن فلانا يصلى ولا ينام ويصوم ولا يفطر فقال لكنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر هذه سنتى فمن رغب عنها فليس منى» أخرجه النسائى من حديث عبد الله بن عمر دون قوله «هذه سنتى» الخ وهذه الزيادة لابن خزيمة «من رغب عن سنتى فليس منى » وهى متفق عليها من حديث أنس .

(٧) « لاتشادوا هذا الدين فإنه متين فمن يشاده يغلبه ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله » أخرجه البخارى من حديث أبو هريرة « لن يشاد هذا الدين أحدا إلا غلبه فسددوا وقاربوا » وللبيهقى من حديث جابر « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله » ولا يصح إسناده .

(٨) «الدعاء المأثور عند النوم باسمك اللهم رب وضعت جنبى ... » إلى آخر الدعوات المأثورة التى أوردناها فى الدعوات تقدم هناك وبقية الدعوات .

﴿قريب من المحسنين﴾ وآخر بنى إسرائيل ﴿قل ادعوا الله﴾ الآيتين فإنه يدخل فى شعاره ملك يوكل بحفظه فيستغفر له ويقرأ المعوذتين وينفث بهن فى يديه ويمسح بهما وجهه وسائر جسده ؛ كذلك روى من فعل رسول الله ﷺ (١) وليقرأ عشرا من أول الكهف وعشرا من آخرها وهذه الآى للاستيقاظ لقيام الليل . وكان على كرم الله وجهه يقول : ما أرى أن رجلا مستكملا عقله ينام قبل أن يقرأ الآيتين من آخر سورة البقرة وليقل خمسا وعشرين مرة سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . ليكون مجموع هذه الكلمات الأربع مائة مرة (التاسع) أن يتذكر عند النوم أن النوم نوع وفاة والتيقظ نوع بعث قال الله تعالى ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها﴾ وقال ﴿وهو الذى يتوفاكم بالليل﴾ فسماه توفيا وكما أن المستيقظ تنكشف له مشاهدات لا تناسب أحواله فى النوم فكذلك المبعوث يرى مالم يخطر قط بباله ولاشاهده حسه . ومثل النوم بين الحياة والموت مثل البرزخ بين الدنيا والآخرة . وقال لقمان لابنه : يا بنى إن كنت تشك فى الموت فلا تنم فكما أنك تنام كذلك تموت ، وإن كنت تشك فى البعث فلا تنتبه بعد نومك فكذلك تبعث بعد موتك وقال كعب الأحبار : إذا نمت فاضطجع على شقك الأيمن واستقبل القبلة بوجهك فإنها وفاة ، وقالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله ﷺ آخر ما يقول حين ينام وهو واضع خده على يده اليمنى وهو يرى أنه ميت فى ليلته تلك « اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شىء ومليكه (٢) » الدعاء إلى آخره كما ذكرناه فى كتاب الدعوات . فحق على العبد أن يفتش عن ثلاثة عند نومه : أنه على ماذا ينام وما الغالب عليه : حب الله تعالى وحب لقائه أو حب الدنيا ؟ وليتحقق أنه يتوفى على ما هو الغالب عليه ويحشر على ما يتوفى عليه فإن المرء مع من أحب ومع ما أحب (العاشر) الدعاء عند التنبه فليقل فى تيقظاته وتقلباته مهما تنبه ما كان يقوله رسول الله ﷺ «لا إله إلا الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار (٣) » وليجتهد أن يكون آخر ما يجرى على قلبه عند النوم ذكر الله تعالى وأول ما يرد على قلبه عند النوم ذكر الله تعالى وأول ما يرد على قلبه عند التيقظ ذكر الله تعالى . فإذا استيقظ فهو علامة الحب . ولا يلازم القلب فى هاتين الحالتين إلا ماهو الغالب عليه فليجرب قلبه فهو علامة الحب فإنها علامة تكشف عن باطن القلب وإنما استحبت هذه الأذكار لتستجر القلب إلى ذكر الله تعالى . فإذا استيقظ ليقوم قال الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور . إلى آخر ما أوردناه من أدعية التيقظ .

الورد الرابع : يدخل بمضى النصف الأول من الليل الى أن يبقى من الليل سدسه وعند ذلك يقوم العبد للتهجد . فاسم التهجد يختص بما بعد الهجود والهجوع وهو النوم وهذا وسط الليل ويشبه الورد الذى بعد الزوال وهو وسط النهار وبه أقسم الله تعالى فقال ﴿والليل إذا سجى﴾ أى إذا سكن وسكونه هدوه فى هذا الوقت فلا تبقى عين إلا نائمة سوى الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم . وقيل إذا سجى إذا امتد وطال وقيل إذا أظلم ، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم « أى الليل أسمع ؟ فقال جوف الليل (٤) » وقال داود صلى الله عليه وسلم : إلهى إنى أحب أن أتعبد لك فأى وقت أفضل ؟ فأوحى الله تعالى اليه يا داود لا تقم أول الليل ولا آخره ، فإن من قام أوله نام آخره ، ومن قام آخره لم يقم أوله ، ولكن قم وسط الليل حتى تخلو بى وأخلو بك ، وارفع إلى حوائجك

---

(١) « قراءة المعوذتين عند النوم ينفث بهن فى يديه ويمسح بهما وجهه وسائر جسده » متفق عليه من حديث عائشة.

(٢) حديث عائشة «كان آخر مايقول حين ينام وهو واضع خده على يده اليمنى اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ... » تقدم فى الدعوات دون : وضع الخد على اليد ، وتقدم من حديث حفصة .

(٣) « كان يقول عند تيقظه : لا إله إلا الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار» أخرجه ابن السنى وأبو نعيم فى كتابيهما عمل اليوم والليلة من حديث عائشة .

(٤) «سئل أى الليل أسمع ؟ قال : جوف الليل» أخرجه أبو داود والترمذى وصححه من حديث عمرو بن عنبسة .

وسئل رسول الله ﷺ « أي الليل أفضل ؟ فقال : نصف الليل الغابر (١) » يعني الباقي وفي آخر الليل وردت الأخبار باهتزاز العرش وانتشار الرياح من جنات عدن ومن نزول الجبار تعالى الى سماء الدنيا (٢) وغير ذلك من الأخبار وترتيب هذا الورد أنه بعد الفراغ من الأدعية للتي للاستيقاظ يتوضأ وضوءا ـ كما سبق بسننه ـ وآدابه وأدعيته . ثم يتوجه الى مصلاه ويقوم مستقبلا القبلة ، ويقول « الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلا » ثم يسبح عشرا وليحمد الله عشرا ويهلل عشرا وليقل « الله أكبر ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة والجلال والقدرة » وليقل هذه الكلمات فإنها مأثورة عن رسول الله ﷺ في قيامه للتهجد « اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ولك الحمد أنت بهاء السموات والأرض ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن أنت الحق ومنك الحق ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والنشور حق والنبيون حق ومحمد ﷺ حق . اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت واليك أنبت وبك خاصمت واليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وأسرفت أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله الا أنت (٣) اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها (٤) اللهم اهدني لأحسن الأعمال لا يهدي لأحسنها الا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها الا أنت (٥) اسألك مسألة البائس المسكين وادعوك دعاء المفتقر الذليل فلا تجعلني بدعائك رب شقيا وكن بي رءوفا رحيما يا خير المسئولين وأكرم المعطين (٦) وقالت عائشة رضي الله عنها « كان ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته قال : اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم (٧) » ثم يفتتح الصلاة ويصلي ركعتين خفيفتين . ثم يصلي مثنى مثنى ما تيسر له ويختم بالوتر إن لم يكن قد صلى الوتر . ويستحب أن يفصل بين الصلاتين عند تسليمه بمائة تسبيحة ليستريح ويزيد نشاطه للصلاة وقد صح في صلاة رسول الله ﷺ بالليل أنه صلى أولا ركعتين خفيفتين ثم ركعتين طويلتين ثم ركعتين دون اللتين قبلهما ثم لم يزل يقصر بالتدريج إلى ثلاث عشرة

---

(١) « سئل أي الليل أفضل ؟ قال : نصف الليل الغابر » أخرجه أحمد وابن حبان من حديث أبو ذر دون قوله « الغابر » وهي في بعض طرق حديث عمرو بن عنبسة . (٢) الأخبار الواردة في اهتزاز العرش وانتشار الرياح من جنات عدن في آخر الليل ونزول الجبار إلى سماء الدنيا ؛ أما حديث النزول فقد تقدم وأما الباقي فهي آثار رواها محمد بن نصر في قيام الليل من رواية سعيد الجريري قال « قال داود : ياجبريل أي الليل أفضل ؟ قال : ما أدري غير أن العرش يهتز من السحر » وفي رواية له عن الجريري عن سعيد بن أبو الحسن قال « إذا كان من السحر ألا ترى كيف تفوح ريح كل شجر » وله من حديث أبو الدرداء مرفوعا « إن الله تبارك وتعالى لينزل في ثلاث ساعات بقين من الليل يفتتح الذكر في الساعة الأولى » وفيه « ثم ينزل في الساعة الثانية إلى جنة عدن . . . » وهو مثله .

(٣) « القول في قيامه للتهجد : اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض . . . » متفق عليه من حديث ابن عباس دون قوله « أنت بهاء السموات والأرض ولك الحمد أنت زين السموات والأرض » ودون قوله « ومن عليهن ومنك الحق » . (٤) « اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها » أخرجه أحمد بإسناد جيد من حديث عائشة « أنها فقدت النبي ﷺ من مضجعه فلمسته بيدها فوقعت عليه وهو ساجد وهو يقول رب أعط نفسي تقواها . . . » . (٥) « اللهم اهدني لأحسن الأعمال لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت » أخرجه مسلم من حديث علي عن رسول الله ﷺ « أنه كان إذا قام إلى الصلاة » فذكره بلفظ « لأحسن الأخلاق » وفيه زيادة في أوله . (٦) « أسألك مسألة البائس المسكين وأدعوك دعاء المضطر الذليل . . . » أخرجه الطبراني في الصغير من حديث ابن عباس « أنه كان من النبي ﷺ عشية عرفة » تقدم في الحج . (٧) حديث عائشة « كان إذا قام من الليل افتتح صلاته قال : اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض . . . » رواه مسلم .

ركعة (١) وسئلت عائشة رضى الله عنها « أكان رسول الله ﷺ يجهر فى قيام الليل أم يسر؟ فقالت: ربما جهر وربما أسر (٢) » وقال ﷺ « صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة (٣) » وقال « صلاة المغرب أوترت صلاة النهار فأوتروا صلاة الليل » (٤) وأكثر ما صح عن رسول الله ﷺ فى قيام الليل ثلاث عشرة ركعة (٥) ويقرأ فى هذه الركعات من ورده من القرآن أو من السور المخصوصة ماخف عليه وهو فى حكم هذا الورد قريب من السدس الأخير من الليل.

الورد الخامس: السدس الأخير من الليل وهو وقت السحر فإن الله تعالى قال ﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ قيل يصلون لما فيها من الاستغفار وهو مقارب للفجر الذى هو وقت انصراف ملائكة الليل وإقبال ملائكة النهار وقد أمر بهذا الورد سلمان أخاه أبا الدرداء رضى الله عنهما ليلة زاره (٦) فى حديث طويل قال فى آخره « فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم فقال له سلمان: نم فنام ثم ذهب ليقوم فقال له: نم فنام فلما كان عند الصبح قال له سلمان: قم الآن، فقاما فصليا فقال: إن لنفسك عليك حقا وإن لضيفك عليك حقا وإن لأهلك عليك حقا فأعط كل ذى حق حقه، وذلك أن امرأة أبى الدرداء أخبرت سلمان أنه لاينام الليل قال: فأتيا النبى ﷺ فذكرا ذلك له فقال: صدق سلمان. وهذا هو الورد الخامس وفيه يستحب السحور وذلك عند خوف طلوع الفجر. والوظيفة فى هذين الوردين الصلاة. فإذا طلع الفجر انقضت أوراد الليل ودخلت أوراد النهار فيقوم ويصلى ركعتى الفجر وهو المراد بقوله تعالى ﴿ ومن الليل فسبحه وأدبار النجوم ﴾ ثم يقرأ ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة ﴾ إلى آخرها. ثم يقول وأنا أشهد بما شهد الله به لنفسه وشهدت به ملائكته وأولو العلم من خلقه وأستودع الله هذه الشهادة وهى لى عند الله تعالى وديعة وأسأله حفظها حتى يتوفانى عليها. اللهم احطط عنى بها وزراً واجعلها لى عندك ذخرا واحفظها على وتوفنى عليها حتى ألقاك بها غير مبدل تبديلا. فهذا ترتيب الأوراد للعباد وقد كانوا يستحبون أن يجمعوا مع ذلك فى كل يوم بين أربعة أمور صوم وصدقة وإن قلت وعيادة مريض وشهود جنازة ففى الخبر « من جمع بين هذه الأربع فى يوم غفر له (٧) » وفى رواية « دخل الجنة » فإن أنفق بعضها وعجز عن الآخر كان له أجر الجميع بحسب نيته وكانوا يكرهون أن ينقضى اليوم ولم يتصدقوا فيه بصدقة ولو بتمرة أو بصلة أو كسرة خبز لقوله ﷺ « الرجل فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس (٨) » ولقوله ﷺ « اتقوا النار ولو بشق تمرة (٩) » ودفعت عائشة رضى الله عنها إلى سائل عنبة واحدة فأخذها فنظر من كان عندها بعضهم إلى بعض فقالت: مالكم إن فيها لمثاقيل ذر كثير؟ وكانوا لا يستحبون رد السائل إذ كان من أخلاق رسول الله ﷺ ذلك ما سأله أحد شيئا فقال: لا،

---

(١) « أنه صلى بالليل أولا ركعتين خفيفتين ثم ركعتين طويلتين ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم لم يزل يقصر بالتدريج إلى ثلاث عشرة ركعة » أخرجه مسلم من حديث زيد بن خالد الجهنى. (٢) « سئلت عائشة أكان النبى ﷺ يجهر فى قيام الليل أم يسر؟ فقالت: ربما جهر وربما أسر » أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجة بإسناد صحيح. (٣) « صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة » متفق عليه وقد تقدم. (٤) « صلاة المغرب أوترت صلاة النهار فأوتروا صلاة الليل » أخرجه أحمد من حديث ابن عمر بإسناد صحيح. (٥) « القيام من الليل ثلاث عشر ركعة فإنه أكثر ما صح عنه » تقدم. (٦) « زار سلمان أبا الدرداء فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم فقال له سلمان . . . » وفى آخره فقال « صدق سلمان » أخرجه البخارى من حديث أبى جحيفة.

(٧) « من جمع بين صوم وصدقة وعيادة مريض وشهود جنازة فى يوم غفر له » وفى رواية « دخل الجنة » أخرجه مسلم من حديث أبو هريرة « ما اجتمعن فى امرىء قط إلا دخل الجنة ». (٨) « الرجل فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس » تقدم فى الزكاة.

(٩) « اتقوا النار ولو بشق تمرة » تقدم فى الزكاة أيضاً.

ولكنه إن لم يقدر عليه سكت[1] وفى الخبر « يصبح ابن آدم وعلى كل سلامى من جسده صدقة يعنى المفصل وفى جسده ثلثمائة وستون مفصلا فأمرك بالمعروف صدقة ونهيك عن المنكر صدقة وحملك عن الضعيف صدقة وهدايتك إلى الطريق صدقة وإماطتك الأذى صدقة حتى ذكر التسبيح والتهليل. قال : وركعتا الضحى تأتى على ذلك كله أو تجمعن لك ذلك كله[2] »

بيان اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال

اعلم أن المريد لحرث الآخرة السالك لطريقها لايخلو عن ستة أحوال فإنه : إما عابد وإما عالم وإما متعلم وإما وال وإما محترف وإما موحد مستغرق بالواحد الصمد عن غيره .

(الأول) العابد : وهو المتجرد للعبادة الذى لاشغل له غيرها أصلا ولو ترك العبادة لجلس بطالا فترتيب أوراده ما ذكرناه ، نعم لايبعد أن تختلف وظائفه بأن يستغرق أكثر أوقاته فى الصلاة أو القراءة أو فى التسبيحات فقد كان فى الصحابة رضى الله عنهم من ورده فى اليوم اثنا عشر ألف تسبيحة . وكان فيهم من ورده ثلاثون ألفا وكان فيهم من ورده ثلثمائة ركعة إلى ستمائة وإلى ألف ركعة . وأقل ما نقل فى أورادهم من الصلاة مائة ركعة فى اليوم والليلة . وكان بعضهم أكثر ورده القرآن وكان يختم الواحد منهم فى اليوم مرة وروى مرتين عن بعضهم وكان بعضهم يقضى اليوم أو الليلة فى التفكير فى آية واحدة يرددها. وكان كرز بن وبرة مقيما بمكة فكان يطوف فى كل يوم سبعين أسبوعا وفى كل ليلة سبعين أسبوعا وكان مع ذلك يختم القرآن فى اليوم والليلة مرتين . فحسب ذلك فكان عشرة فراسخ ويكون مع كل أسبوع ركعتان فهو مائتان وثمانون ركعة وختمتان وعشرة فراسخ .

فان قلت : فما الأولى أن يصرف اليه أكثر الأوقات من هذه الأوراد فأعلم أن قرآن فى الصلاة قائما مع التدبر يجمع الجميع ولكن ربما تعسر المواظبة عليه فالأفضل يختلف باختلاف حال الشخص ومقصود الأوراد تزكية القلب وتطهيره وتحليته بذكر الله تعالى وإيناسه به فلينظر المريد الى قلبه فما يراه أشد تأثيرا فيه فليواظب عليه . فاذا أحس بملالة منه فلينتقل الى غيره ولذلك نرى الأصوب لأكثر الخلق توزيع هذه الخيرات المختلفة على الأوقات كما سبق والإنتقال فيها من نوع الى نوع لأن الملال هو الغالب على الطبع وأحوال الشخص الواحد فى ذلك أيضا تختلف. ولكن اذا فهم فقه الأوراد وسرها فليتبع المعنى فان سمع تسبيحة مثلا وأحس لها بوقع فى قلبه فليواظب على تكرارها مادام يجد لها وقعا . وقد روى عن ابراهيم بن أدهم عن بعض الأبدال أنه قام ذات ليلة يصلى على شاطىء البحر فسمع صوتا عاليا بالتسبيح ولم ير أحدا فقال من أنت أسمع صوتك ولا أرى شخصك ؟ فقال: ملك من الملائكة موكل بهذا أسبح الله تعالى بهذا التسبيح منذ خلقت قلت : فما اسمك ؟ قال: مهلهيائيل قلت : فما ثواب من قاله ؟ قال من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له. والتسبيح هو قوله «سبحان الله العلى الديان سبحان الله الشديد الأركان سبحان من يذهب بالليل ويأتى بالنهار سبحان من لايشغله شأن عن شأن سبحان الله الحنان المنان سبحان الله المسبح فى كل مكان » فهذه وأمثاله إذا سمعه المريد ووجد له فى قلبه وقعا فيلازمه . وأياً ما وجد القلب عنده وفتح له فيه خير فليواظب عليه .

(الثانى) العالم الذى ينفع الناس بعلمه فى فتوى أو تدريس أو تصنيف فترتيبه الأوراد يخالف ترتيب العابد ؛ فانه يحتاج الى المطالعة للكتب والتصنيف والإفادة ويحتاج الى مدة لها لامحالة فان أمكنه استغراق الأوقات فيه فهو

(١) « ما سأله أحد شيئاً فقال لا إن لم يقدر عليه سكت » أخرجه مسلم من حديث جابر وللبزار من حديث أنس « أو يسكت » .

(٢) « يصبح ابن آدم وعلى كل سلامى من جسده صدقة ... » أخرجه مسلم من حديث أبى ذر .

به بعد المكتوبات ورواتبها . ويدل على ذلك جميع ماذكرناه فى فضيلة التعليم والتعلم فى كتاب العلم . وكيف لايكون كذلك وفى العلم المواظبة على ذكر الله تعالى ؟ وتأمل ما قال الله تعالى وقال رسوله . وفيه منفعة الخلق وهدايتهم إلى طريق الآخرة ورب مسألة واحد يتعلمها المتعلم فيصلح بها عبادة عمره ولو لم يتعلمها لكان سعيه ضائعا . وإنما نعنى بالعلم المقدم على العبادة العلم الذى يرغب الناس فى الآخرة ويزهدهم فى الدنيا أو العلم الذى يعينهم على سلوك طريق الآخرة إذا تعلموه على قصد الاستعانة به على السلوك ، دون العلوم التى تزيد بها الرغبة فى المال والجاه وقبول الخلق والأولى بالعالم أن يقسم أوقاته أيضا فإن استغراق الأوقات فى ترتيب العلم لايحتمله الطبع . فينبغى أن يخصص ما بعد الصبح إلى طلوع الشمس بالأذكار والأوراد كما ذكرناه فى الورد الأول . وبعد الطلوع إلى ضحوة النهار فى الإفادة والتعليم إن كان عنده من يستفيد علما لأجل الآخرة ، وإن لم يكن فيصرفه إلى الفكر ويتفكر فيما يشكل عليه من علوم الدين فإن صفاء القلب بعد الفراغ من الذكر وقبل الاشتغال بهموم الدنيا يعين على التفطن للمشكلات . ومن ضحوة النهار إلى العصر للتصنيف والمطالعة لايتركها إلا فى وقت أكل وطهارة ومكتوبة وقيلولة خفيفة إن طال النهار . ومن العصر إلى الاصفرار يشتغل بسماع مايقرأ بين يديه من تفسير أو حديث أو علم نافع . ومن الاصفرار إلى الغروب يشتغل بالذكر والاستغفار والتسبيح فيكون ورده الأول قبل طلوع الشمس فى عمل اللسان . وورده الثانى فى عمل القلب بالفكر إلى الضحوة . وورده الثالث إلى العصر فى عمل العين واليد بالمطالعة والكتابة . وورده الرابع بعد العصر فى عمل السمع ليروح فيه العين واليد فإن المطالعة والكتابة بعد العصر ربما أضرا بالعين . وعند الاصفرار يعود إلى ذكر اللسان فلا يخلو جزء من النهار عن عمل له بالجوارح مع حضور القلب فى الجميع . أما الليل فأحسن قسم فيه قسمة الشافعى رضى الله عنه إذ كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء : ثلثا للمطالعة وترتيب العلم وهو الأول وثلثا للصلاة وهو الوسط وثلثا للنوم . هو الأخير . وهذا يتيسر فى ليالى الشتاء ، والصيف ربما لايحتمل ذلك إلا إذا كان أكثر النوم بالنهار فهذا ما نستحبه من ترتيب أوراد العالم .

(الثالث) المتعلم : والاشتغال بالتعلم أفضل من الاشتغال بالأذكار والنوافل فحكمه حكم العالم فى ترتيب الأوراد ولكن يشتغل بالاستفادة حيث يشتغل العالم بالإفادة وبالتعليق والنسخ حيث يشتغل العالم بالتصنيف ويرتب أوقاته كما ذكرنا . وكل ماذكرناه فى فضيلة التعلم والعلم من كتاب العلم يدل على أن ذلك أفضل . بل إن لم يكن متعلما على معنى أنه يعلق ويحصل ليصير عالما ، بل كان من العوام فحضوره مجالس الذكر والوعظ والعلم أفضل من اشتغاله بالأوراد التى ذكرناها بعد الصبح وبعد الطلوع وفى سائر الأوقات . ففى حديث أبى ذر رضى الله عنه « أن حضور مجلس ذكر أفضل من صلاة ألف ركعة وشهود ألف جنازة وعيادة ألف مريض [1] » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا فيها فقيل يارسول الله وما رياض الجنة ؟ قال حلق الذكر [2] » وقال كعب الأحبار رضى الله عنه : لوأن ثواب مجالس العلماء بدا للناس لاقتتلوا عليه حتى يترك كل ذى إمارة إمارته وكل ذى سوق سوقه . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة ، فإذا سمع العالم خاف واسترجع عن ذنوبه وانصرف إلى منزله وليس عليه ذنب ، فلا تفارقوا مجالس العلماء فإن الله عز وجل لم يخلق على وجه الأرض تربة أكرم من مجالس العلماء . وقال رجل للحسن رحمه الله : أشكو إليك قساوة قلبى فقال : أدنه من مجالس الذكر .

---

(١) « حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة ... » تقدم فى العلم .
(٢) « إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا فيها ... » تقدم فى العلم .

ورأى عمار الزاهدى مسكينة الطفاوية فى المنام وكانت من المواظبات على حق الذكر فقال : مرحبا يا مسكينة فقالت: هيهات هيهات ذهبت المسكنة وجاء الغنى ! فقال : هيه ! فقالت : ما تسأل عمن أبيح لها الجنة بحذافيرها ؟ قال : وبم ذلك ؟ قالت : بمجالسة أهل الذكر . وعلى الجملة فما ينحل عن القلب من عقد حب الدنيا بقول واعظ حسن الكلام زكى السيرة أشرف وأنفع من ركعات كثيرة مع اشتمال القلب على حب الدنيا .

(الرابع) المحترف الذى يحتاج إلى الكسب لعياله : فليس له أن يضيع العيال ويستغرق الأوقات فى العبادات بل ورده فى وقت الصناعة حضور السوق والاشتغال بالكسب ولكن ينبغى أن لا ينسى ذكر الله تعالى فى صناعته بل يواظب على التسبيحات والأذكار وقراءة القرآن فإن ذلك يمكن أن يجمع إلى العمل . وإنما لا يتيسر مع العمل الصلاة إلا أن يكون ناظورا فانه لا يعجز عن إقامة أوراد الصلاة معه . ثم مهما فرغ من كفايته ينبغى أن يعود إلى ترتيب الأوراد . وإن داوم على الكسب وتصدق بما فضل عن حاجته فهو أفضل من سائر الأوراد التى ذكرناها لأن العبادات المتعدية فائدتها أنفع من اللازمة والصدقة والكسب على هذه النية عبادة له فى نفسه تقربه إلى الله تعالى ثم يحصل به فائدة للغير وتنجذب إليه بركات دعوات المسلمين ويتضاعف به الأجر .

(الخامس) الوالى : مثل الإمام والقاضى والمتولى لينظر فى أمور المسلمين فقيامه بحاجات المسلمين وأغراضهم على وفق الشرع وقصد الإخلاص أفضل من الأوراد المذكورة لحقه أن يشتغل بحقوق الناس نهارا ويقتصر على المكتوبة ويقيم الأوراد المذكورة بالليل ؛ كما كان عمر رضى الله عنه يفعله إذا قال : مالى وللنوم فلو نمت بالنهار ضيعت المسلمين ولو نمت بالليل ضيعت نفسى . وقد فهمت بما ذكرناه أنه يقدم على العبادات البدنية أمران أحدهما : العلم ، والآخر : الرفق بالمسلمين ؛ لأن كل واحد من العلم وفعل المعروف عمل فى نفسه وعبادة تفضل سائر العبادات يتعدى فائدته وانتشار جدواه فكانا مقدمين عليه .

(السادس) الموحد المستغرق بالواحد الصمد الذى أصبح وهمومه هم واحد فلا يحب إلا الله تعالى ولا يخاف إلا منه ولا يتوقع الرزق من غيره ولا ينظر فى شىء إلا ويرى الله تعالى فيه . فمن ارتفعت رتبته إلى هذه الدرجة لم يفتقر إلى تنويع الأوراد واختلافها بل كان ورده بعد المكتوبات واحد وهو حضور القلب مع الله تعالى فى كل حال ، فلا يخطر بقلوبهم أمر ولا يقرع سمعهم قارع ولا يلوح لأبصارهم لائح إلا كان لهم فيه عبرة وفكر ومزيد ، فلا محرك لهم ولا مسكن إلا الله تعالى فهؤلاء جميع أحوالهم تصلح أن تكون سببا لازديادهم فلا تتميز عندهم عبادة عن عبادة وهم الذين فروا إلى الله عز وجل كما قال تعالى ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ ففروا إلى الله وتحقق فيهم قوله تعالى ﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ﴾ وإليه الإشارة بقوله ﴿ إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ﴾ وهذه منتهى درجات الصديقين ولا وصول إليها إلا بعد ترتيب الأوراد والمواظبة عليها دهرا طويلا فلا ينبغى أن يغتر المريد بما سمعه من ذلك فيدعيه لنفسه ويفتر عن وظائف عبادته فذلك علامته أن لا يهجس فى قلبه وسواس ولا يخطر فى قلبه معصية ولا تزعجه هواجم الأهوال ولا تستفزه عظائم الأشغال . وأنى ترزق هذه الرتبة لكل أحد : فيتعين على الكافة ترتيب الأوراد كما ذكرناه وجميع ما ذكرناه طرق الى الله تعالى قال تعالى ﴿ قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا ﴾ فكلهم مهتدون وبعضهم أهدى من بعض . وفى الخبر « الإيمان ثلاث ثلاثون وثلثمائة طريقة من لقى الله تعالى بالشهادة على طريق منها دخل الجنة [1] » وقال بعض العلماء : الإيمان ثلثمائة وثلاثة عشر خلقا

---

(١) « الإيمان ثلاث وثلاثون وثلثمائة طريقة من لقى الله بالشهادة على طريق منها دخل الجنة » أخرج ابن شاهين واللالكائى فى السنة والطبرانى والبيهقى فى الشعب من رواية المغيرة بن عبد الرحمن بن عبيد عن أبيه عن جده « الإيمان ثلثمائة وثلاثة وثلاثون شريعة من وافى منهن شريعة دخل الجنة » وقال الطبرانى والبيهقى « ثلثمائة وثلاثون » وفى إسناده جهالة .

بعدد الرسل فكل مؤمن على خلق منها فهو سالك الطريق إلى الله . فإذن الناس وإن اختلفت طرقهم فى العبادة فكلهم على الصواب ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ﴾ وإنما يتفاوتون فى درجات القرب لا فى أصله ، وأقربهم إلى الله تعالى أعرفهم به ، وأعرفهم به لابد وأن يكون أعبدهم له ؛ فمن عرفه لم يعبد غيره . والأصل فى الأوراد فى حق كل صنف من الناس المداومة فإن المراد منه تغيير الصفات الباطنة . وآحاد الأعمال يقل آثارها بل لا يحس بآثارها وإنما يترتب الأثر على المجموع فإذا لم يعقب العمل الواحد أثراً محسوساً ولم يردف بثان وثالث على القرب انمحى الأثر الأول وكان كالفقيه يريد أن يكون فقيه النفس فإنه لا يصير فقيه النفس إلا بتكرار كثير فلو بالغ ليلة فى التكرار وترك شهراً أو أسبوعاً ثم عاد وبالغ ليلة لم يؤثر هذا فيه . ولو وزع ذلك القدر على الليالى المتواصلة لأثر فيه . ولهذا السر قال رسول الله ﷺ « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل[١] » . وسئلت عائشة رضى الله عنها عن عمل رسول الله ﷺ ؟ فقالت : كان عمله ديمة وكان إذا عمل عملا أثبته[٢] ولذلك قال ﷺ « من عوده الله عبادة فتركها ملالة مقته الله[٣] » وهذا كان السبب فى صلاته بعد العصر تداركا لما فاته من ركعتين شغله عنهما الوفد ثم لم يزل بعد ذلك يصليهما بعد العصر ولكن فى منزله لا فى المسجد كيلا يقتدى به[٤] روته عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما * فان قلت : فهل لغيره أن يقتدى به فى ذلك مع أن الوقت وقت كراهية ؟ فاعلم أن المعانى الثلاثة التى ذكرناها فى الكراهية من الاحتراز عن التشبه بعبدة الشمس أو السجود وقت ظهور قرن الشيطان أو الاستراحة عن العبادة حذرا من الملال لا يتحقق فى حقه فلا يقاس عليه فى ذلك غيره . ويشهد لذلك فعله فى المنزل حتى لا يقتدى به ﷺ .

الباب الثانى : الأسباب الميسرة لقيام الليل وفى الليالى التى يستحب إحياؤها

وفى فضيلة إحياء الليل وما بين العشاءين وكيفية قسمة الليل

فضيلة إحياء ما بين العشاءين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روت عائشة رضى الله عنها « إن أفضل الصلوات عند الله صلاة المغرب لم يحطها عن مسافر ولا عن مقيم فتح بها صلاة الليل وختم بها صلاة النهار فمن صلى المغرب وصلى بعدها ركعتين بنى الله له قصراً فى الجنة[٥] » قال الراوى : لا أدرى من ذهب أو فضة ؟ « ومن صلى بعدها أربع ركعات غفر له ذنب عشرين سنة أو قال أربعين سنة » وروت أم سلمة وأبو هريرة رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى ست ركعات بعد المغرب عدلت له عبادة سنة كاملة أو كأنه صلى ليلة القدر[٦] » وعن سعيد بن جبير عن ثوبان

---

(١) « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » متفق عليه من حديث عائشة . (٢) « سئلت عائشة من عمل النبى ﷺ فقالت كان عمله ديمة وكان إذا عمل عملا أثبته » رواه مسلم . (٣) « من عوده الله عبادة فتركها ملالا مقته الله » تقدم فى الصلاة وهو موقوف على عائشة . (٤) «شغله الوفد عن ركعتين فصلاها بعد العصر ثم لم يزل يصليهما بعد العصر فى منزله » متفق عليه من حديث أم سلمة « أنه صلى بعد العصر ركعتين وقال شغلنى ناس من عبد القيس عن الركعتين بعد الظهر » ماتركها حتى لقى وكان النبى ﷺ يصليهما ولا يصليهما فى المسجد مخافة أن يثقله على أمته » والله الموفق للصواب .

الباب الثانى : فى الأسباب الميسرة لقيام الليل

(٥) حديث عائشة « إن أفضل الصلاة عند الله صلاة المغرب لم يحطها عن مسافر ولا عن مقيم ... » رواه أبو الوليد يونس بن عبيد الله الصفار فى كتاب الصلاة ورواه الطبرانى فى الأوسط مختصراً وإسناده ضعيف . (٦) حديث أم سلمة عن أبو هريرة « من صلى ست ركعات بعد المغرب عدلت له عبادة سنة أو كأنه صلى ليلة القدر » أخرجه =

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من عكف نفسه فيما بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة لم يتكلم إلا بصلاة أو قرآن كان حقا على الله ان يبنى له قصرين في الجنة مسيرة كل قصر منهما مائة عام ويغرس له بينهما غراسا لو طافه أهل الدنيا لوسعهم (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من ركع عشر ركعات ما بين المغرب والعشاء بنى الله له قصرا في الجنة فقال عمر رضى الله عنه : إذا تكثر قصورنا يارسول الله فقال : الله أكثر وأفضل ـ أو قال ـ أطيب (٢) » وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى المغرب في جماعة ثم صلى بعدها ركعتين ولم يتكلم بشيء فيما بين ذلك من أمر الدنيا ويقرأ في الركعة الأولى فاتحة الكتاب وعشر آيات من أول سورة البقرة وآيتين من وسطها وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم إن في خلق السموات والأرض إلى آخر الآية وقل هو الله أحد خمس عشرة مرة ثم يركع ويسجد فإذا قام في الركعة الثانية قرأ فاتحة الكتاب وآية الكرسي وآيتين بعدها إلى قوله ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ وثلاث آيات من آخر سورة البقرة من قوله لله ما في السموات وما في الأرض إلى آخرها وقل هو الله أحد خمس عشرة مرة (٣) » وصف من ثوابه في الحديث ما يخرج عن الحصر وقال كرز بن وبرة وهو من الأبدال : قلت للخضر عليه السلام شيئا أعمله في كل ليلة فقال إذا صليت المغرب فقم إلى وقت صلاة العشاء مصليا من غير أن تكلم أحدا واقبل على صلاتك التي أنت فيها وسلم من كل ركعتين واقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد ثلاثا ثلاثا ـ فإن فرغت من صلاتك انصرف إلى منزلك ولا تكلم أحدا وصل ركعتين واقرأ فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد سبع مرات في كل ركعة ثم اسجد بعد تسليمك واستغفر الله تعالى سبع مرات وقل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم سبع مرات ، ثم ارفع رأسك من السجود واستو جالسا وارفع يديك وقل ياحي ياقيوم ياذا الجلال والإكرام يا إله الأولين والآخرين يارحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما يارب يارب ياألله ياألله ياألله ، ثم وأنت رافع يديك وادع بهذا الدعاء ، ثم نم حيث شئت مستقبل القبلة على يمينك وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وأدم الصلاة عليه حتى يذهب بك النوم . فقلت له : أحب أن تعلمني ممن سمعت هذا ؟ فقال : إني حضرت محمدا صلى الله عليه وسلم حيث علم هذا الدعاء وأوحى إليه به فكنت عنده وكان ذلك بمحضر مني فتعلمته ممن علمه إياه (٤) ويقال إن هذا الدعاء وهذه الصلاة من داوم عليهما بحسن يقين وصدق نية رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه قبل أن يخرج من الدنيا ، وقد فعل ذلك بعض الناس فرأى أنه أدخل الجنة ورأى فيها الأنبياء ورأى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمه وعلمه . وعلى الجملة ماورد في فضل إحياء ما بين العشاءين كثير حتى قيل لعبيد الله مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بصلاة غير المكتوبة ؟ قال : ما بين المغرب والعشاء (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى ما بين المغرب والعشاء تلك

= الترمذي وابن ماجه بلفظ اثنتي عشرة سنة وضعفه الترمذي وأما قوله « كأنه صلى ليلة القدر » فهو من قول كعب الأحبار كما رواه أبو الوليد الصفار ، ولأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس « من صلى أربع ركعات بعد المغرب قبل أن يكلم أحداً وضعت له في عليين وكان كمن أدرك ليلة القدر في المسجد الأقصى » وسنده ضعيف

(١) حديث سعيد بن جبير عن ثوبان « من عكف نفسه ما بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة لم يتكلم إلا بصلاة أو قرآن كان حقا على الله أن يبنى له قصرين في الجنة لم أجد له أصلا من هذا الوجه وقدم في الصلاة من حديث ابن عمر

(٢) « من ركع عشر ركعات بين المغرب والعشاء بنى الله له قصراً في الجنة فقال عمر إذن تكثر قصورنا يارسول الله ... » أخرجه ابن المبارك في الزهد من كلام عبد الكريم ابن الحرث مرسلا . (٣) حديث أنس « من صلى المغرب في جماعة ثم صلى بعدها ركعتين ولا يتكلم بشيء فيما بين ذلك من أمر الدنيا ويقرأ في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وعشر آيات من أول البقرة وآيتين من وسطها وإلهكم إله واحد ... » أخرجه أبو الشيخ في الثواب من رواية زياد ابن ميمون عنه مع اختلاف يسير وهو ضعيف . (٤) حديث كرز بن وبرة « أن الخضر علمه صلاة بين المغرب والعشاء وفيه كرزاً سأل الخضر ممن سمعت هذا ؟ قال إني حضرت محمدا ﷺ حين علم هذا الدعاء ... » وهذا باطل لا أصل له . (٥) حديث عبيد مولى النبي ﷺ وقيل له « هل كان النبي ﷺ يأمر بصلاة غير المكتوبة ؟ قال ما بين المغرب والعشاء » رواه أحمد وفيه رجل لم يسم .

صلاة الأوابين[١] » وقال الأسود ما أتيت ابن مسعود رضى الله عنه فى هذا الوقت إلا ورأيته يصلى فسألته فقال : نعم هى ساعة الغفلة . وكان أنس يواظب عليها ويقول : هى ناشئة الليل ، ويقول : فيها نزل فيها قوله تعالى ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ وقال أحمد بن أبى الحوارى : قلت لأبى سليمان الدارانى أصوم النهار وأتعشى بين المغرب والعشاء أحب إليك أو أفطر بالنهار وأحيى ما بينهما ؟ فقال : اجمع بينهما ، فقلت : وإن لم يتيسر ؟ قال : افطر وصل ما بينهما .

فضيلة قيام الليل

أما من الآيات : فقوله تعالى ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ﴾ وقوله تعالى ﴿ إن ناشئة الليل هى أشد وطئاً وأقوم قيلا ﴾ وقوله سبحانه وتعالى ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ وقوله تعالى ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ﴾ وقوله عز وجل ﴿ والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما ﴾ وقوله تعالى ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ قيل هى قيام الليل يستعان بالصبر عليه على مجاهدة النفس .

ومن الأخبار قوله ﷺ « يعقد الشيطان على قافية أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب مكان كل عقدة عليك ليل طويل فارقد فإن استيقظ وذكر الله تعالى انحلت عقدة فإن توضأ انحلت عقدة فإن صلى انحلت عقدة فأصبح نشيطاً طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان[٢] » وفى الخبر « أنه ذكر عنده رجل ينام كل الليل حتى يصبح فقال : ذاك رجل بال الشيطان فى أذنه[٣] » وفى الخبر « إن للشيطان سعوطاً ولعوقا وذروراً فإذا أسعط العبد ساء خلقه وإذا ألعقه ذرب لسانه بالشر وإذا ذره نام الليل حتى يصبح[٤] » وقال ﷺ « ركعتان يركعهما العبد فى جوف الليل خير له من الدنيا وما فيها ولولا أن أشق على أمتى لفرضتهما عليهم[٥] » وفى الصحيح عن جابر أن النبى ﷺ قال « إن من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيراً إلا أعطاه إياه » وفى رواية : « يسأل الله تعالى خيراً من الدنيا والآخرة وذلك فى كل ليلة » وقال المغيرة بن شعبة : قام رسول الله ﷺ حتى تفطرت قدماه فقيل له : أما قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : أفلا أكون عبداً شكوراً[٦] ، ويظهر من معناه أن ذلك كناية عن زيادة الرتبة فإن الشكر سبب المزيد قال تعالى ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ وقال ﷺ « يا أبا هريرة أتريد أن تكون رحمة الله عليك حياً وميتاً ومقبوراً ومبعوثاً قم من الليل فصل وأنت تريد رضا ربك يا أبا هريرة صل فى زوايا بيتك يكن نور بيتك فى السماء كنور الكواكب والنجم عند أهل الدنيا[٧] » وقال ﷺ « عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم . فان قيام الليل قربة إلى الله عز وجل وتكفير للذنوب

---

(١) « من صلى ما بين المغرب والعشاء فذلك صلاة الأوابين » تقدم فى الصلاة .

(٢) « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ... » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٣) « ذكر عنده رجل نام حتى أصبح فقال : ذاك بال الشيطان فى أذنه » متفق عليه من حديث ابن مسعود .

(٤) « إن للشيطان سعوطاً ولعوقاً وذروراً ... » أخرجه الطبرانى من حديث أنس « إن للشيطان لعوقاً وكحلا فإذا لعق الإنسان من لعوقه ذرب لسانه بالشر وإذا كحل من كحله نامت عيناه عن الذكر » ورواه البزار من حديث سمرة بن جندب وسندها ضعيف . (٥) « ركعتان يركعهما العبد فى جوف الليل خير له من الدنيا وما فيها ولولا أن أشق على أمتى لفرضتهما عليهم » أخرجه آدم بن أبى إياس فى الثواب ومحمد بن نصر المروزى فى كتاب قيام الليل من رواية حسان بن عطية مرسلا ووصله أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر ولا يصح .

(٦) حديث المغيرة بن شعبة « قام النبى ﷺ حتى تفطرت قدماه ... » متفق عليه . (٧) « يا أبا هريرة أتريد أن تكون رحمة الله عليك حياً وميتاً ومقبوراً قم من الليل فصل وأنت تريد رضا ربك ، يا أبا هريرة صل فى زوايا بيتك يكن نور بيتك فى السماء كنور الكواكب والنجوم عند أهل الدنيا » باطل لا أصل له .

ومطردة للداء عن الجسد ومنهاة عن الإثم[١] » وقال ﷺ « ما من امرىء تكون له صلاة بالليل فغلبه عليها النوم إلا كتب له أجر صلاته وكان نومه صدقة عليه[٢] » وقال ﷺ لأبي ذر « لو أردت سفراً أعددت له عدة قال : نعم ، قال : فكيف سفر طريق القيامة ألا أنبئك يا أبا ذر بما ينفعك ذلك اليوم ؟ قال : بلى بأبي أنت وأمي قال : صم يوماً شديد الحر ليوم النشور وصل ركعتين فى ظلمة الليل لوحشة القبور وحج حجة لعظائم الأمور وتصدق بصدقة على مسكين أو كلمة حق تقولها أو كلمة شر تسكت عنها[٣] » وروى « أنه كان على عهد النبي ﷺ رجل إذا أخذ الناس مضاجعهم وهدأت العيون قام يصلي ويقرأ القرآن ويقول : يا رب النار أجرني منها ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : إذا كان ذلك فآذنوني فأتاه فاستمع فلما أصبح قال : يا فلان هلا سألت الله الجنة ؟ قال : يارسول الله إني لست هناك ولا يبلغ عملي ذاك ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى نزل جبرائيل عليه السلام وقال : أخبر فلان أن الله قد أجاره من النار وأدخله الجنة[٤] » ويروى « أن جبرائيل عليه السلام قال للنبي ﷺ : نعم الرجل ابن عمر لو كان يصلي بالليل ، فأخبره ﷺ بذلك فكان يداوم بعده على قيام الليل[٥] » قال نافع : كان يصلي بالليل ثم يقول : يا نافع أسحرنا ؟ فأقول : لا ، فيقوم لصلاته ثم يقول يا نافع أسحرنا ؟ فأقول : نعم ، فيقعد فيستغفر الله تعالى حتى يطلع الفجر وقال على ابن أبي طالب : شبع يحيى بن زكريا عليهما السلام من خبز شعير فنام عن ورده حتى أصبح فأوحى الله تعالى إليه : يا يحيى أوجدت داراً خير لك من داري ؟ أم وجدت جواراً خيراً لك من جواري ؟ فوعزتي وجلالي يا يحيى لو اطلعت إلى الفردوس اطلاعة لذاب شحمك ولزهقت نفسك اشتياقا ولو اطلعت إلى جهنم اطلاعة لذاب شحمك ولبكيت الصديد بعد الدموع ولبست الجلد بعد المسوح . « وقيل لرسول الله ﷺ : إن فلانا يصلي بالليل فإذا أصبح سرق فقال : سينهاه ما يعمل[٦] » وقال ﷺ « رحم الله رجلا قام من الليل فصلى ثم أيقظ امرأته فصلت فإن أبت نضح فى وجهها الماء[٧] » وقال ﷺ « رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت ثم أيقظت زوجها فصلى فإن أبى نضحت فى وجهه الماء » وقال ﷺ « من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات[٨] » وقال ﷺ « أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل[٩] » وقال

---

(١) « عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ... » أخرجه الترمذى من حديث بلال وقال غريب ولا يصح ورواه الطبرانى والبيهقى من حديث أبي أمامة بسند حسن وقال الترمذى إنه أصح . (٢) « ما من امرىء يكون له صلاة بالليل يغلبه عليها نوم إلا كتب له أجر صلاته وكان نومه صدقة عليه » أخرجه أبو داود والنسائى من حديث عائشة وفيه رجل لم يسم سماه النسائى فى رواية الأسود بن يزيد لكن فى طريقه ابن جعفر الرازى قال النسائى ليس بالقوى ورواه النسائى وابن ماجة من حديث أبو الدرداء نحوه بسند ضعيف وتقدم فى الباب قبله . (٣) « قال لأبو ذر : لو أردت سفراً أعددت له عدة فكيف بسفر طريق القيامة ؟ ألا أنبئك يا أبا ذر بما ينفعك ذلك اليوم ، قال بلى بأبي وأمي ، قال ، صم يوما شديد الحر ليوم النشور وصل ركعتين فى ظلمة الليل لوحشة القبور . . . » أخرجه ابن أبي الدنيا فى كتاب التهجد من رواية السرى بن مخلد مرسلا والسرى ضعفه الأزدى . (٤) « أنه كان على عهد النبي ﷺ رجل إذا أخذ الناس مضاجعهم وهدأت العيون قام يصلى ويقرأ القرآن ويقول : يا رب النار أجرني منها . فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : إذا كان ذلك فآذنوني ... » لم أقف له على أصل . (٥) «أن جبريل قال للنبي ﷺ : نعم الرجل ابن عمر لو كان يصلي بالليل ... » متفق عليه من حديث ابن عمر « أن النبي ﷺ قال ذلك » وليس فيه ذكر لجبريل . (٦) « قيل له إن فلاناً يصلى بالليل فإذا أصبح سرق قال سينهاه ما يقول » أخرجه ابن حبان من حديث أبو هريرة . (٧) « رحم الله رجلا قام من الليل فصلى ثم أيقظ امرأته فصلت ... » أخرجه أبو داود وابن ماجة من حديث أبو هريرة . (٨) « من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين والذاكرات » أخرجه أبو داود والنسائى من حديث أبو هريرة وأبو سعيد بسند صحيح .

(٩) « أفضل الصلاة بعد المكتوبة : قيام الليل » أخرجه مسلم من حديث أبو هريرة .

عمر بن الخطاب رضى الله عنه : قال ﷺ «من نام عن حزبه أوعن شيء منه بالليل فقرأه بين صلاة الفجر والظهر كتب له كأنما قرأه الليل[1] » .

الآثار : روى أن عمر رضى الله عنه كان يمر بالآية من ورده بالليل فيسقط حتى يعاد منها أياما كثيرة كما يعاد المريض . وكان ابن مسعود رضى الله عنه إذا هدأت العيون قام فيسمع له دوى كدوى النحل حتى يصبح . ويقال إن سفيان الثورى رحمه الله شبع ليلة فقال : إن الحمار إذا زيد فى علفه زيد فى عمله فقام تلك الليلة حتى أصبح وكان طاوس رحمه الله إذا اضطجع على فراشه يتقلى عليه كما تتقلى الحبة على المقلاة ثم يثب ويصلى إلى الصباح ثم يقول : طير ذكر جهنم نوم العابدين . وقال الحسن رحمه الله : مانعلم عملا أشد من مكابدة الليل ونفقة هذا المال فقيل له : مابال المتهجدين من أحسن الناس وجوها ؟ قال : لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورا من نوره وقدم بعض الصالحين من سفره فمهد له فراش فنام عليه حتى فاته ورده فحلف أن لاينام بعدها على فراش أبداً . وكان عبدالعزيز ابن أبى رواد إذا جن عليه الليل يأتى فراشه فيمر يده عليه ويقول : إنك للين ووالله إن فى الجنة لألين منك ولا يزال يصلى الليل كله ، وقال الفضيل : إنى لأستقبل الليل من أوله فيهولنى طوله فأفتتح القرآن فأصبح وما قضيت نهمتى . وقال الحسن : إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل . وقال الفضيل : إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم وقد كثرت خطيئتك . وكان صلة بن أشيم رحمه الله يصلى الليل كله فإذا كان فى السحر قال : إلهى ليس مثلى يطلب الجنة ولكن أجرنى برحمتك من النار . وقال رجل لبعض الحكماء إنى لأضعف عن قيام الليل ؛ فقال له : يا أخى لاتعص الله تعالى بالنهار ولا تقم بالليل . وكان للحسن بن صالح جارية فباعها من قوم فلما كان فى جوف الليل قامت الجارية فقالت : يا أهل الدار الصلاة الصلاة ! فقالوا : أصبحنا أطلع الفجر ؟ فقالت : وما تصلون إلا المكتوبة ؟ قالوا : نعم ؛ فرجعت إلى الحسن فقالت : يامولاى بعتنى من قوم لايصلون إلا المكتوبة ؟ ردنى . فردها . وقال الربيع : بت فى منزل الشافعى رضى الله عنه ليالى كثيرة فلم يكن ينام من الليل إلا يسيرا . وقال أبو الجويريه : لقد صحبت أبا حنيفة رضى الله عنه ستة أشهر فما فيها ليلة وضع جنبه على الأرض . وكان أبو حنيفة يحيى نصف الليل فمر بقوم فقالوا : إن هذا يحيى الليل كله ؛ فقال : إنى أستحى أن أوصف بما لا أفعل فكان بعد ذلك يحيى الليل كله ويروى أنه ماكان له فراش بالليل . ويقال : إن مالك بن دينار رضى الله عنه بات يردد هذه الآية ليلة حتى أصبح ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ الآيه. وقال المغيرة بن حبيب : رمقت مالك بن دينار فتوضأ بعد العشاء ثم قام إلى مصلاه فقبض على لحيته فخنقته العبرة فجعل يقول : اللهم حرم شيبة مالك على النار إلهى قد علمت ساكن الجنة من ساكن النار فأى الرجلين مالك ؟ وأى الدارين دار مالك ؟ فلم يزل ذلك قوله حتى طلع الفجر . وقال مالك بن دينار سهوت ليلة عن وردى ونمت فإذا أنا فى المنام بجارية كأحسن ما يكون وفى يدها رقعة فقالت لى : أتحسن تقرأ ؟ فقلت: نعم فدفعت إلى الرقعة فإذا فيها :

ألهتك اللذائذ والأمانى	عن البيض الأوانس فى الجنان
تعيش مخـلدا لاموت فيها	وتلهو فى الجنان مع الحسان
تنبه من منامك إن خيراً	من النوم التهجد بالقران

وقيل حج مسروق فما بات ليلة إلا ساجداً . ويروى عن أزهر بن مغيث وكان من القوامين أنه قال : رأيت فى

(١) حديث عمر « من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه بين صلاة الفجر والظهر كتب له كأنه قرأه من الليل» رواه مسلم .

المنام امرأة لاتشبه نساء أهل الدنيا فقلت لها : من أنت؟ قالت : حوراء . فقلت : زوجيني نفسك . فقالت اخطبني إلى سيدي وأمهرني ، فقلت : وما مهرك ؟ قالت طول التهجد . وقال يوسف بن مهران : بلغني أن تحت العرش ملكا في صورة ديك براثنه من لؤلؤ وصيصته من زبرجد أخضر فإذا مضى ثلث الليل الأول ضرب بجناحيه وزقا وقال : ليقم القائمون فإذا مضى نصف الليل ضرب بجناحيه وزقا وقال: ليقم المتهجدون ،فإذامضى ثلثا الليل ضرب بجناحيه وزقا وقال : ليقم المصلون ، فإذا طلع الفجر ضرب بجناحيه وزقاوقال : ليقم الغافلون وعليهم أوزارهم. وقيل إن وهب بن منبه اليماني ما وضع جنبه إلى الأرض ثلاثين سنة وكان يقول : لأن أرى في بيتي شيطانا أحب إلى من أن أرى في بيتي وسادة لأنها تدعو إلى النوم ، وكانت له مسورة من أدم إذا غلبه النوم وضع صدره عليها وخفق خفقات ثم يفزع إلى الصلاة . وقال بعضهم:رأيت رب العزة في النوم فسمعته يقول : وعزتي وجلالي لأكرمن مثوى سليمان التيمي فانه صلى لي الغداة بوضوء العشاء أربعين سنة . ويقال كان مذهبه أن النوم إذا خامر القلب بطل الوضوء ، وروى في بعض الكتب القديمة عن الله تعالى أنه قال : إن عبدي الذي هو عبدي حقا الذي لا ينتظر بقيامه صياح الديكة .

بيان الأسباب التي بها يتيسر قيام الليل

اعلم أن قيام الليل عسير على الخلق إلا على من وفق للقيام بشروطه الميسرة له ظاهراً وباطناً فأما الظاهرة فأربعة أمور :

(الأول) أن لايكثر الأكل فيكثر الشرب فيغلبه النوم ويثقل عليه القيام . كان بعض الشيوخ يقف على المائدة كل ليلة ويقول : معاشر المريدين لاتأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً فترقدوا كثيراً فتتحسروا عند الموت كثيراً . وهذا هو الأصل الكبير وهو تخفيف المعدة عن ثقل الطعام .

(الثاني) أن لايتعب نفسه بالنهار في الأعمال التي تعيا بها الجوارح وتضعف بها الأعصاب فان ذلك أيضاً مجلبة للنوم .

(الثالث) أن لايترك القيلولة بالنهار فانها سنة للاستعانة على قيام الليل(١) .

(الرابع) أن لايحتقب الأوزار بالنهارفان ذلك مما يقسي القلب ويحول بينه وبين أسباب الرحمة قال رجل للحسن ياأبا سعيد إني أبيت معافى وأحب قيام الليل وأعد طهوري فمابالي لاأقوم ؟ فقال : ذنوبك قيدتك . وكان الحسن رحمه الله إذا دخل السوق فسمع لغطهم ولغوهم يقول : أظن أن ليل هؤلاء ليل سوء فإنهم لايقيلون ، وقال الثوري حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته قيل وماذاك الذنب؟قال:رأيت رجلا يبكي فقلت في نفسي هذا مراء وقال بعضهم دخلت على كرز بن وبرة وهو يبكي فقلت أتاك نعي بعض أهلك؟ فقال: أشد، فقلت وجع يؤلمك؟ قال أشد، قلت فماذاك؟قال بابي مغلق وستري مسبل ولم أقرأ حزبي البارحة وماذاك إلا بذنب أحدثته وهذا لأن الخير يدعو إلى الخير والشر يدعو إلى الشر والقليل من كل واحد منهما يجر إلى الكثير. ولذلك قال أبو سليمان الداراني لاتفوت أحداً صلاة الجماعة إلا بذنب وكان يقول الاحتلام بالليل عقوبة والجنابة بعد، وقال بعض العلماء إذا صمت يامسكين فانظر عند من تفطر وعلى أي شيء تفطر فان العبد ليأكل أكلة فينقلب قلبه عما كان عليه ولايعود إلى حالته الأولى . فالذنوب كلها تورث قساوة القلب وتمنع من قيام الليل ، وأخصها بالتأثير تناول الحرام ، وتؤثر اللقمة الحلال في تصفية القلب وتحريكه إلى الخير مالا يؤثر غيرها ويعرف ذلك أهل المراقبة للقلوب بالتجربة بعد شهادة الشرع له . ولذلك قال بعضهم : كم من أكلة منعت قيام ليلة وكم من نظرة منعت قراءة سورة ؟ وإن العبد ليأكل أكلة أو يفعل فعلة فيحرم بها قيام سنة. وكما أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فكذلك الفحشاء تنهى عن الصلاة وسائر الخيرات . وقال بعض السجانين

---

(١) « الاستعانة بقيلولة النهار على قيام الليل » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عباس وقد تقدم

كنت سجانا نيفا وثلاثين سنة أسأل كل مأخوذ بالليل أنه هل صلى العشاء فى جماعة فكانوا يقولون : لا ؟ وهذا تنبيه على أن بركة الجماعة تنهى عن تعاطى الفحشاء والمنكر .

وأما الميسرات الباطنة فأربعة أمور : (الأول) سلامة القلب عن الحقد على المسلمين وعن البدع وعن فضول هموم الدنيا فالمستغرق الهم بتدبير الدنيا لا يتيسر له القيام ، وإن قام ، فلا يتفكر فى صلاته إلا فى مهماته ولا يجول إلا فى وساوسه وفى مثل ذلك يقال :

يخبرنى البواب أنك نائم ... وأنت إذا استيقظت أيضا فنائم

(الثانى) : خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل فإنه إذا تفكر فى أهوال الآخرة ودركات جهنم طار نومه وعظم حذره كما قال طاوس : إن ذكر جهنم طير نوم العابدين . وكما حكى أن غلاما بالبصرة اسمه صهيب كان يقوم الليل كله فقالت له سيدته : إن قيامك بالليل يضر بعملك بالنهار ، فقال : إن صهيبا إذا ذكر النار لا يأتيه النوم وقيل لغلام آخر وهو يقوم كل الليل فقال : إذا ذكرت النار اشتد خوفى وإذا ذكرت الجنة اشتد شوقى فلا أقدر أن أنام قال ذو النون المصرى رحمه الله :

منع القران بوعده ووعيده ... مقل العيون بليلها أن تهجعا
فهموا عن الملك الجليل كلامه ... فرقابهم ذلت إليه تخضعا

وأنشدوا أيضاً :

يا طويل الرقاد والغفلات ... كثرة النوم تورث الحسرات
إن فى القبر إن نزلت إليه ... لرقادا يطول بعد الممات
ومهادا ممهدا لك فيه ... بذنوب عملت أو حسنات
أأمنت البيات من ملك المو ... ت وكم نال آمنا ببيات

وقال ابن المبارك :

إذا ما الليل أظلم كابدوه ... فيسفر عنهم وهم ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا ... وأهل الأمن فى الدنيا هجوع

(الثالث) أن يعرف فضل قيام الليل بسماع الآيات والأخبار والآثار حتى يستحكم به رجاؤه وشوقه إلى ثوابه فيهيجه الشوق لطلب المزيد والرغبة فى درجات الجنان ، كما حكى أن بعض الصالحين رجع من غزوته فمهدت امرأته فراشها وجلست تنتظره فدخل المسجد ولم يزل يصلى حتى أصبح فقالت لهزوجته : كنا ننتظرك مدة فلما قدمت صليت إلى الصبح ؟ قال : والله إنى كنت أتفكر فى حوراء من حور الجنة طول الليل فنسيت الزوجة والمنزل فقمت طول ليلتى شوقا إليها .

(الرابع) وهو أشرف البواعث ، الحب لله وقوة الإيمان بأنه فى قيامه لا يتكلم بحرف إلا وهو مناج ربه وهو مطلع عليه مع مشاهدة مايخطر بقلبه وأن تلك الخطرات من الله تعالى خطاب معه ، فإذ أحب الله تعالى أحب لامحالة الخلوة به وتلذذ بالمناجاة فتحمله لذة المناجاة بالحبيب على طول القيام . ولا ينبغى أن تستبعد هذه اللذة إذ يشهد لها العقل والنقل . فأما العقل فليعتبر حال المحب لشخص بسبب جماله أو الملك بسبب إنعامه وأمواله أنه كيف يتلذذ به فى الخلوة ومناجاته حتى لا يأتيه النوم طول ليله .

فإن قلت : إن الجميل يتلذذ بالنظر إليه وإن الله تعالى لايرى ؟

فاعلم أنه لو كان الجميل المحبوب وراء ستر أو كان فى بيت مظلم لكان المحب يتلذذ بمجاورته المجردة دون النظر ودون الطمع فى أمر آخر سواه . وكان يتنعم بإظهار حبه عليه وذكره بلسانه بمسمع منه وإن كان ذلك أيضا معلوما عنده .

فإن قلت : إنه ينتظر جوابه ليتلذذ بسماع جوابه وليس يسمع كلام الله تعالى ؟

فاعلم أنه كان يعلم أنه لايجيبه ويسكت عنه فقد بقيت له أيضا لذة فى عرض أحواله عليه ورفع سريرته إليه كيف والموقن يسمع من الله تعالى كل مايرد على خاطره فى أثناء مناجاته فيتلذذ به ؟ وكذا الذى يخلو بالملك ويعرض عليه حاجاته فى جنح الليل يتلذذ به فى رجاء إنعامه . والرجاء فى حق الله تعالى أصدق وما عند الله خير وأبقى وأنفع مما عند غيره فكيف لايتلذذ بعرض الحاجات عليه فى الخلوات ؟

وأما النقل فيشهد له أحوال قوام الليل فى تلذذهم بقيام الليل واستقصارهم له كما يستقصر المحب ليلة وصال الحبيب حتى قيل لبعضهم . كيف أنت والليل ؟ قال : ماراعيته قط يرينى وجهه ثم ينصرف وما تأملته بعد . وقال آخر : أنا والليل فرسا رهان مرة يسبقنى إلى الفجر ومرة يقطعنى عن الفكر . وقيل لبعضهم كيف الليل عليك ؟ فقال : ساعة أنا فيها بين حالتين أفرح بظلمته إذا جاء وأغتم بفجره إذا طلع ، ماتم فرحى به قط . وقال على بن بكار : منذ أربعين سنة ما أحزننى شيء سوى طلوع الفجر . وقال الفضيل بن عياض : إذا غربت الشمس فرحت بالظلام لخلوتى بربى وإذا طلعت حزنت لدخول الناس على . وقال أبو سليمان : أهل الليل فى ليلهم ألذ من أهل اللهو فى لهوهم ولولا الليل ما أحببت البقاء فى الدنيا . وقال أيضا : لو عوض الله أهل الليل من ثواب أعمالهم مايجدونه من اللذة لكان ذلك أكثر من ثواب أعمالهم . وقال بعض العلماء : ليس فى الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التملق فى قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة . وقال بعضهم : لذة المناجاة ليست من الدنيا إنما هى من الجنة أظهرها الله لأوليائه لايجدها سواهم ، وقال ابن المنكدر : ما بقى من لذات الدنيا إلا ثلاث قيام الليل ولقاء الإخوان والصلاة فى الجماعة . وقال بعض العارفين : إن الله تعالى ينظر بالأسحار إلى قلوب المتيقظين فيملؤها أنوارا فترد الفوائد على قلوبهم فتستنير ثم تنتشر من قلوبهم العوافى إلى قلوب الغافلين . وقال بعض العلماء من القدماء : إن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين إن لى عبادا من عبادى أحبهم ويحبوننى ويشتاقون إلى وأشتاق إليهم ويذكروننى وأذكرهم وينظرون الى وأنظر اليهم فان حذوت طريقهم أحببتك وان عدلت عنهم مقتك ، قال يارب وما علامتهم ؟ قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى غنمه ويحنون الى غروب الشمس كما تحن الطير الى أوكارها فاذا جنهم الليل واختلط الظلام وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إلى أقدامهم وافترشوا الى وجوههم وناجونى بكلامى وتملقوا الى بإنعامى فبين صارخ وباك وبين متأوه وشاك بعينى ما يتحملون من أجلى وبسمعى ما يشتكون من حبى أول ما أعطيهم أقذف من نورى فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم . والثانية : لو كانت السموات السبع والأرضون السبع وما فيهما فى موازينهم لاستقللتها لهم . والثالثة : أقبل بوجهى عليهم أفترى من أقبلت بوجهى عليه أيعلم أحد ما أريد أن أعطيه ؟ وقال مالك بن دينار رحمه الله اذا قام العبد يتهجد من الليل قرب منه الجبار عز وجل . وكانوا يرون مايجدون من الرقة والحلاوة فى قلوبهم والأنوار من قرب الرب تعالى من القلب وهذا له سر وتحقيق سيأتى الإشارة اليه فى كتاب المحبة . وفى الأخبار عن الله عز وجل « أى عبدى أنا الله الذى اقتربت من قلبك وبالغيب رأيت نورى » وشكا بعض المريدين الى أستاذه طول سهر الليل وطلب حيلة يجلب بها النوم فقال أستاذه : يابنى ان لله نفحات فى الليل والنهار تصيب القلوب المتيقظة وتخطىء القلوب النائمة فتعرض لتلك النفحات ، فقال : ياسيدى تركتنى لاأنام بالليل ولا بالنهار .

واعلم أن هذه النفحات بالليل أرجى لما فى قيام الليل من صفاء القلب واندفاع الشواغل . وفى الخبر الصحيح عن جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيرا إلا أعطاه إياه [١] » وفى رواية أخرى « يسأل الله خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك كل ليلة » ومطلوب القائمين تلك الساعة وهى مبهمة فى جملة الليل كليلة القدر فى شهر رمضان وكساعة يوم الجمعة وهى ساعة النفحات المذكورة والله أعلم .

بيان طرق القسمة لأجزاء الليل

اعلم أن إحياء الليل من حيث المقدار له سبع مراتب (الأولى) إحياء كل الليل وهذا شأن الأقوياء الذين تجردوا لعبادة الله تعالى وتلذذوا بمناجاته وصار ذلك غذاء لهم وحياة لقلوبهم فلم يتعبوا بطول القيام وردوا المنام إلى النهار فى وقت اشتغال الناس ، وقد كان ذلك طريق جماعة من السلف كانوا يصلون الصبح بوضوء العشاء . حكى أبو طالب المكى أن ذلك حكى على سبيل التواتر والاشتهار عن أربعين من التابعين وكان فيهم من واظب عليه أربعين سنة ، قال : منهم سعيد بن المسيب وصفوان بن سليم ـ المدنيان ـ وفضيل بن عياض ووهيب بن الورد ـ المكيان ـ وطاوس ووهيب بن منبه ـ اليمانيان ـ والربيع بن خيثم والحكم ـ الكوفيان ـ وأبو سليمان الدارانى وعلى بن بكار ـ الشاميان ـ وأبو عبد الله الخواص وأبو عاصم ـ العباديان ـ وحبيب أبو محمد وأبو جابر السلمانى ـ الفارسيان ـ ومالك بن دينار وسليمان التيمى ويزيد الرقاشى وحبيب بن أبى ثابت ويحيى البكاء ـ البصريون ـ وكهمس بن المنهال وكان يختم فى الشهر تسعين ختمة وما لم يفهمه رجع وقرأه مرة أخرى . أيضا من أهل المدينة : أبو حازم ومحمد بن المنكدر فى جماعة يكثر عددهم (المرتبة الثانية) أن يقوم نصف الليل : وهذا لا ينحصر عدد المواظبين عليه من السلف . وأحسن طريق فيه أن ينام الثلث الأول من الليل والسدس الأخير منه حتى يقع قيامه فى جوف الليل ووسطه فهو الأفضل (المرتبة الثالثة) أن يقوم ثلث الليل : فينبغى أن ينام النصف الأول والسدس الأخير ، وبالجملة نوم آخر الليل محبوب لأنه يذهب النعاس بالغداة ، وكانوا يكرهون ذلك ، ويقلل صفرة الوجه والشهوة به فلو قام أكثر الليل ونام سحرا قلت صفرة وجهه وقل نعاسه . وقالت عائشة رضى الله عنها « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوتر من آخر الليل فإن كانت له حاجة إلى أهله دنا منهن وإلا اضطجع فى مصلاه حتى يأتيه بلال فيؤذنه للصلاة [٢] » وقالت أيضا رضى الله عنها « ما ألفيته بعد السحر إلا نائما [٣] » حتى قال بعض السلف . هذه الضجعة قبل الصبح سنة ، ومنهم أبو هريرة رضى الله عنه . وكان نوم هذا الوقت سببا للمكاشفة والمشاهدة من وراء حجب الغيب وذلك لأرباب القلوب وفيه استراحة

---

(١) حديث جابر « إن من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك كل ليلة » رواه مسلم .

(٢) « كان رسول الله ﷺ إذا أوتر من آخر الليل فإن كانت له حاجة إلى أهله دنا منهن وإلا اضطجع فى مصلاه حتى يأتيه بلال فيؤذن بالصلاة » أخرجه مسلم من حديث عائشة « كان يقوم أول الليل ويحيى آخره ثم إن كان له حاجة إلى أهله قضى حاجته ثم ينام » وقال النسائى « فإذا كان من السحر أوتر ثم أتى فراشه فإذا كان له حاجه ألم بأهله » ولأبى داود « كان إذا قضى صلاته من آخر الليل نظر فإن كنت مستيقظة حدثنى وإن كنت نائمة أيقظنى وصلى الركعتين ثم اضطجع حتى يأتيه المؤذن فيؤذنه بصلاته الصبح فيصلى ركعتين خفيفتين ثم يخرج إلى الصلاة » وهو متفق عليه بلفظ « كان إذا صلى فإن كنت مستيقظة حدثنى وإلا اضطجع حتى يؤذن بالصلاة » وقال مسلم « إذا صلى ركعتى الفجر » .

(٣) حديث عائشة « ما ألفيته السحر الأعلى إلا نائما » متفق عليه بلفظ « ما ألفى رسول الله ﷺ السحر الأعلى فى بيتى أو عندى إلا نائما » لم يقل البخارى « الأعلى » وقال ابن ماجه « ما كنت ألفى أو ألقى النبى ﷺ من آخر الليل إلا وهو نائم عندى » .

تعين على الورد الأول من أوراد النهار وقيام ثلث الليل من النصف الأخير . ونوم السدس قيام داود صلى الله عليه وسلم (المرتبة الرابعة) أن يقوم سدس الليل أو خمسه وأفضله أن يكون فى النصف الأخير وقبل السدس الأخير منه (المرتبة الخامسة) أن لا يراعى التقدير فإن ذلك إنما يتيسر لنبى يوحى إليه أو لمن يعرف منازل القمر ويوكل به من يراقبه ويواظبه ويوقظه ثم ربما يضطرب فى ليالى الغيم ، ولكنه يقوم من أول الليل إلى أن يغلبه النوم فإذا انتبه قام فإذا غلبه النوم عاد إلى النوم . فيكون له فى الليل نومتان وقومتان وهو من مكابدة الليل وأشد الأعمال وأفضلها ، وقد كان هذا من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] ، وهو طريقة ابن عمر وأولى العزم من الصحابة وجماعة من التابعين رضى الله عنهم . وكان بعض السلف يقول : هى أول نومة فإذا انتبهت ثم عدت إلى النوم فلا أنام الله لى عينا . فأما قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث المقدار فلم يكن على ترتيب واحد بل ربما كان يقوم نصف الليل أو ثلثه أو ثلثيه أو سدسه [٢] يختلف ذلك فى الليالى ودل عليه قوله تعالى فى الموضعين من سورة المزمل ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه ﴾ فأدنى من ثلثى الليل كأنه نصف سدسه فإن كسر قوله ﴿ ونصفه وثلثه ﴾ كان نصف الثلثين وثلثه فيقرب من الثلث والربع . وإن نصب كان نصف الليل وقالت عائشة رضى الله عنها كان صلى الله عليه وسلم يقوم إذا سمع الصارخ [٣] يعنى الديك وهذا يكون السدس فمادونه . وروى غير واحد أنه قال مواعيد صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السفر ليلا فنام بعد العشاء زمانا ثم استيقظ فنظر فى الأفق فقال ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلا ﴾ حتى بلغ ﴿ إنك لا تخلف الميعاد ﴾ ثم استل من فراشه سواكا فاستاك به وتوضأ وصلى حتى قلت : صلى مثل الذى نام . ثم اضطجع حتى قلت نام مثل ما صلى . ثم استيقظ فقال ما قال أول مرة وفعل ما فعل أول مرة [٤] » (المرتبة السادسة) وهى الأقل : أن يقوم مقدار اربع ركعات أو ركعتين أو تتعذر عليه الطهارة فيجلس مستقبل القبلة ساعة مشتغلا بالذكر والدعاء فيكتب فى جملة قوام الليل برحمة الله وفضله . وقد جاء فى الأثر : صل من الليل ولو قدر حلب شاة [٥] فهذه طرق القسمة فليختر المريد لنفسه ما يراه أيسر عليه . وحيث يتعذر عليه القيام فى وسط الليل فلا ينبغى أن يهمل إحياء ما بين العشاءين والورد الذى بعد العشاء . ثم يقوم قبل الصبح وقت السحر فلا يدركه الصبح

---

(١) « قيامه أول الليل إلى أن يغلبه النوم فإذا انتبه قام فإذا غلبه النوم نام فيكن له فى الليل نومتان » أخرجه أبو داود والترمذى وصححه وابن ماجه من حديث أم سلمه « كان يصلى وينام قدر ما صلى ثم يصلى قدر ما نام ثم ينام قدر ما صلى حتى يصبح » وللبخارى من حديث ابن عباس « صلى العشاء ثم جاء فصلى أربع ركعات ثم نام ثم قام » وفيه « فصلى خمس ركعات ثم صلى ركعتين ثم نام حتى سمعت غطيطه ... » . (٢) « ربما كان يقوم نصف الليل أو ثلثه أو ثلثيه أو سدسه » أخرجه الشيخان من حديث ابن عباس « نام النبى صلى الله عليه وسلم حتى انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل استيقظ ... » وفى رواية للبخارى « فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء ... » ولأبو داود « نام حتى إذا ذهب ثلث الليل أو نصفه استيقظ ... » لمسلم من حديث عائشة « فيبعثه الله بما شاء أن يبعثه من الليل » .

(٣) حديث عائشة « كان يقوم إذا سمع الصارخ » متفق عليه . (٤) « غير واحد قال : راعيت صلاة النبى صلى الله عليه وسلم فى السفر ليلا فنام بعد العشاء زمانا ثم استيقظ فنظر فى الأفق فقال ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك — حتى بلغ — إنك لا تخلف الميعاد ثم استل من فراشه سواكا فاستاك وتوضأ وصلى حتى قلت صلى مثل ما نام ... » أخرجه النسائى من رواية حميد بن عبد الرحمن بن عوف « أن رجلا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قال : قلت وأنا فى سفر مع النبى صلى الله عليه وسلم والله لأرقبن النبى صلى الله عليه وسلم » فذكر نحوه وروى أبو الوليد بن مغيث فى كتاب الصلاة من رواية إسحق بن عبدالله ابن أبو طلحة « أن رجلا قال لأرمقن صلاة النبى صلى الله عليه وسلم » فذكر الحديث وفيه «أنه أخذ سواكه من مؤخر الرحل » وهذا يدل أنه أيضا كان فى السفر . (٥) «صلى من الليل ولو قدر حلب شاة » أخرجه أبو العلى من حديث ابن عباس فى صلاة الليل مرفوعا « نصفه ثلثه ربعه فواق حلب ناقة فواق حلب شاة » ولأبو الوليد بن مغيث من رواية إياس بن معاويه مرسلا « لابد من صلاة الليل ولو حلبة ناقة أو حلبة شاة » .

نائماً ويقوم بطرفى الليل (وهذه هى المرتبة السابعة ومهما كان النظر إلى المقدار فترتيب هذه المراتب بحسب طول الوقت وقصره وأما فى الرتبة الخامسة والسابعة لم ينظر فيهما إلى القدر فليس يجرى أمرهما فى التقدم والتأخر على الترتيب المذكور إذ السابعة ليست دون ما ذكرناه فى السادسة . ولا الخامسة دون الرابعة .

بيان الليالى والأيام الفاضلة

اعلم أن الليالى المخصوصة بمزيد الفضل التى يتأكد فيها استحباب الإحياء فى السنة خمس عشرة ليلة لا ينبغى أن يغفل المريد عنها فانها مواسم الخيرات ومظان التجارات . ومتى غفل التاجر عن المواسم لم يربح ومتى غفل المريد عن فضائل الأوقات لم ينجح فستة من هذه الليالى فى شهر رمضان : خمس فى أوتار العشر الأخير إذ فيها تطلب ليلة القدر وليلة سبع عشرة من رمضان ـ فهى ليلة صبيحتها يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، فيه كانت وقعة بدر ، وقال ابن الزبير رحمه الله تعالى هى ليلة القدر ـ وأما التسع الأخر : فأول ليلة من المحرم ، وليلة عاشوراء ، وأول ليلة من رجب وليلة النصف منه وليلة سبع وعشرين منه وهى ليلة المعراج وفيها صلاة مأثورة فقد قال ﷺ « للعامل فى هذه الليلة حسنات مائة سنة [1] » فمن صلى فى هذه الليلة اثنتى عشرة ركعة يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة من القرآن ويتشهد فى كل ركعتين ويسلم فى آخرهن ثم يقول «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مائة مرة ثم يستغفر الله مائة مرة ويصلى على النبى صلى الله عليه وسلم مائةمرة ويدعو لنفسه بما شاء من أمر دنياوآخرته ويصبح صائماً فإن الله يستجيب دعاءه كله إلا أن يدعو فى معصية ـ وليلة النصف من شعبان ـ ففيها مائة ركعة يقرأ فى كل ركعة بعد الفاتحة سورة الإخلاص عشر مرات كانوا لايتركونها كما أوردناه فى صلاة التطوع ـ وليلة عرفة . وليلة العيدين ، قال صلى الله عليه وسلم « من أحيا ليلتى العيدين لم يمت قلبه يوم تموت القلوب [2] » .

وأما الأيام الفاضلة فتسعة عشر يستحب مواصلة الأوراد فيها : يوم عرفة . ويوم عاشوراء . ويوم سبعة وعشرين من رجب ـ له شرف عظيم روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من صام يوم سبع وعشرين من رجب كتب الله له صيام ستين شهراً [3] » وهو اليوم الذى أهبط الله فيه جبرائيل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة ـ ويوم سبعة عشر من رمضان ـ وهو يوم وقعة بدر ـ ويوم النصف من شعبان . ويوم الجمعة . ويوما العيدين . والأيام المعلومات وهى عشر من ذو الحجة . والأيام المعدودات وهى أيام التشريق . وقد روى أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا سلم يوم الجمعة سلمت الأيام وإذا سلم شهر رمضان سلمت السنة [4] » وقال بعض العلماء : من أخذ مهناة فى الأيام الخمسة فى الدنيا لم ينل مهناة فى الآخرة أراد به العيدين والجمعة وعرفة وعاشوراء ومن فواضل الأيام فى الأسبوع يوم الخميس والإثنين ترفع فيهما الأعمال إلى الله تعالى . وقد ذكرنا فضائل الأشهر والأيام فى كتاب الصوم فلا حاجة إلى الإعادة والله أعلم ، وصلى الله على كل عبد مصطفى من كل العالمين .

---

(١) «الصلاة المأثورة فى ليلة السابع والعشرين من رجب» ذكر أبو موسى المدينى فى كتاب فضائل الأيام والليالى أن أبا محمد الحبارى رواه من طريق الحاكم أبى عبد الله من رواية محمد بن الفضل عن أبان عن أنس مرفوعا ، ومحمد ابن الفضل وأبان ضعيفان جدا والحديث منكر .

(٢) من أحيا ليلتى العيدين لم يمت قلبه يوم تموت القلوب» أخرجه بإسناد ضعيف من حديث أبو أمامة .

(٣) حديث أبى هريرة « من صام يوم سبع وعشرين من رجب كتب الله له صيام ستين شهرا وهو اليوم الذى هبط فيه جبريل على محمد ﷺ » رواه أبو موسى المدينى فى كتاب فضائل الليالى والأيام من رواية شهر بن حوشب عنه . (٤) حديث أنس « إذا سلم يوم الجمعة سلمت الأيام وإذا سلم شهر رمضان سلمت السنة » تقدم فى الباب الخامس من الصلاة فذكر يوم الجمعة فقط وقد رواه بجملته ابن حبان فى الضعفاء وأبو نعيم فى الحلية من حديث عائشة وهو ضعيف .

تم الربع الأول من كتاب إحياء علوم الدين ، وهو ربع العبادات ويتلوه : الربع الثانى ، وهو ربع العادات

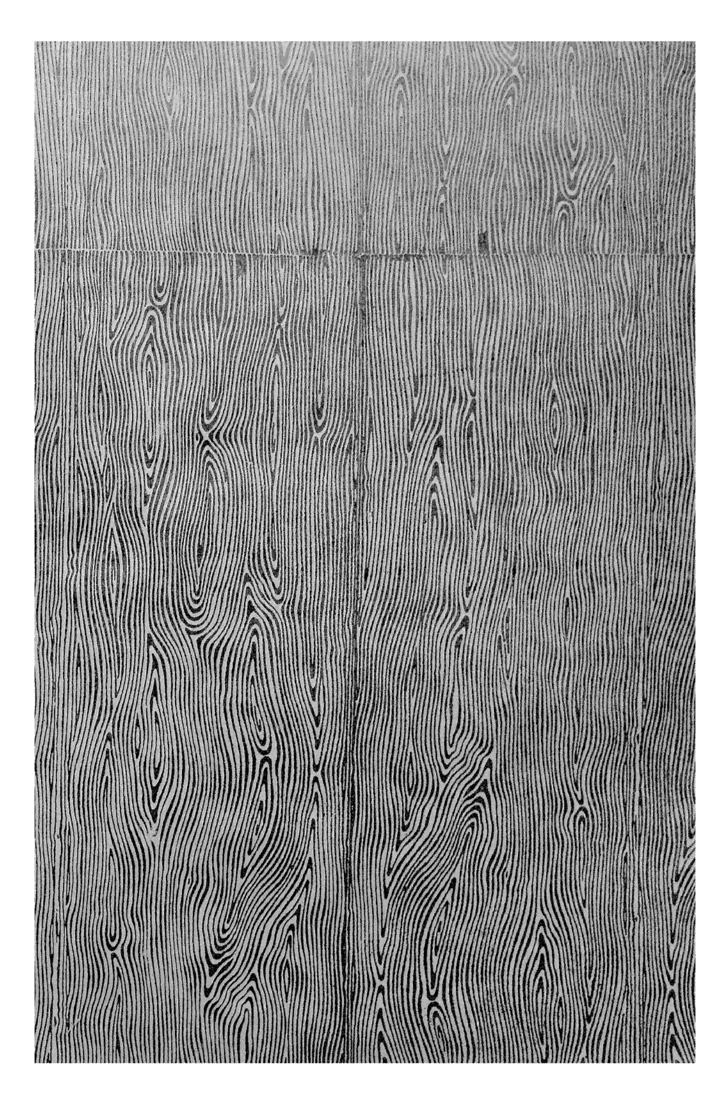
فهرست

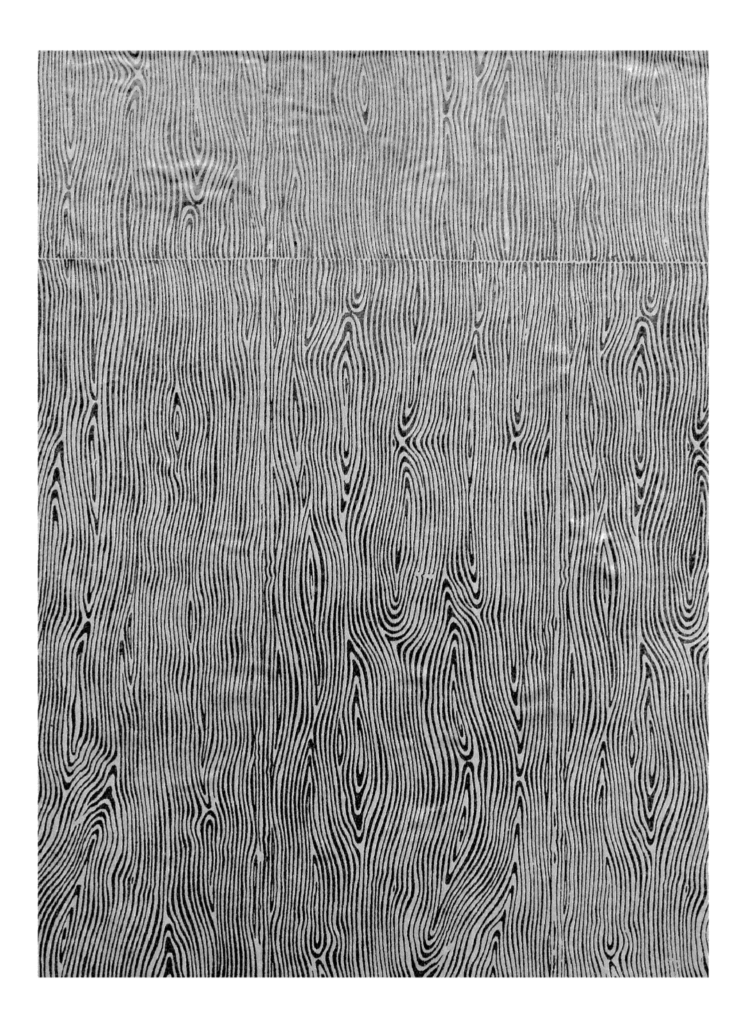
الجزء الأول

من إحياء علوم الدين

تم الفهرست








Bibliotheca Alexandrina
03827411